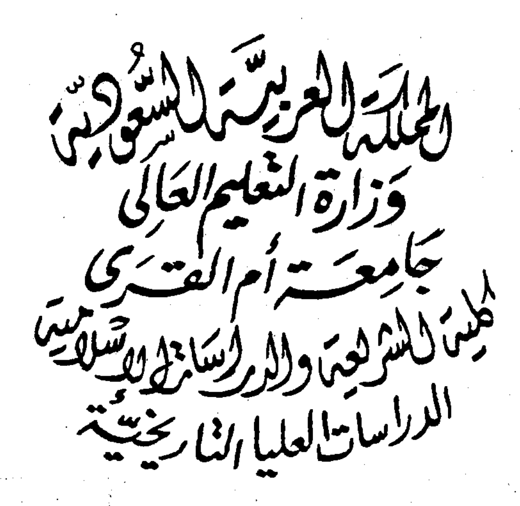




بلاد الشام قبيل الغزو المغولي

٦١٥ - ٦٥٧ هـ / ١٢١٨ - ١٢٥٩م

رسالة مقدمة
لنيل درجة الدكتوراه فى التاريخ الإسلامي



إعداد المحاضر
علي محمد علي عوده الغامدي

إشراف الأستاذ الدكتور
صابر محمد دياب

١٤٠٥ / ١٤٠٦ هـ
١٩٨٥ / ١٩٨٦ م


بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً

وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ

سورة الحاقة آية «١٢»

محتويات الرسالة

محتو يات الرســـــالة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

المقدمة

دراسة نقدية لأهم مصادر البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبي الهدى ، وعلى آله وصحبه ، ومن سار على نهجهم الى يوم الدين .

وبعد :

فمن المعروف أن مما ساعد على نجاح المغول في غزواتهم للعالم الاسلامي أنهم وجدوا أمامهم أمة اسلامية مفككة ، فقدت قوتها ووحدتها منذ زمن طويل ولم يقتصر الأمر على الانقسام فحسب ، وانما انغمس المسلمون في نزاع لا ينتهي بين بعضهم البعض وفي ذلك دليل على أنه قبيل الحوادث الكبرى في التاريخ تتلاحم وتتشابك وتتداخل الأوضاع السياسية وتضطرب ، وكأن هناك نوعاً من النذر والارهاصات بما تخبئه الأيام من مجيء غزوات جديدة من الشرق هي غزوات المغول . اذ شهدت بلاد الشام قبيل الغزو المغولي فترة بالغة الاضطراب ، اشتد فيها الصراع والتطاحن بين الأيوبيين مما كان له أسوأ الأثر على الجبهة الاسلامية ، بحيث تحول ميزان القوى في بلاد الشام لصالح الصليبيين وتحول المسلمون من موقف القوة والهجوم لاسترداد البلاد المغتصبة الى موقف الدفاع عما بقي بحوزتهم من البلاد ، فضلا عن تحول تيار الحركة الصليبية نحو مصر بقصد الاستيلاء عليها باعتبارها مركز القوة الاسلامية . ودخول عناصر جديدة في الحياة السياسية في بلاد الشام مثل الخوارزمية والمماليك ، وما ترتب على ذلك من زيادة الاضطراب والتناقض الذى تمخض في النهاية عن سقوط الأيوبيين وقيام دولة المماليك . كل ذلك دفعني لمعالجة هذا الموضوع وأرجو أن أكون قد وفقت فيه .

وقد اعتمد البحث على مصادر كثيرة ومتنوعة ، من أهمها كتاب (الكامل في التاريخ) لابن الأثير . وهو أحد ثلاثة اخوة عرفوا جميعا

بالعلم والفضل . اشتهر الأكبر مجد الدين ابو السعادات بدراسة علوم القرآن والحديث والنحو ، بينما اشتهر الاصغر ضياء الدين بالبحث في علوم الأدب والبلاغة - وهو الذى تولى وزارة الأفضل بن صلاح الدين - ، أما الأخ الأوسط فهو المؤرخ المشهور عز الدين ابو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠/١١٦٠-١٢٣٣م)(١) .

ألف ابن الأثير العديد من الكتب التاريخية ،أفاد البحث من أهمها وهو كتاب (الكامل في التاريخ) . وابن الاثير مؤرخ أصيل ، وصاحب فكر ناقد ،ورؤية دقيقة فاحصة ، ينظر للحوادث العظيمة نظرة عميقة ويربط بين جزئياتها ومايتصل بها من حوادث ، فهو مثلا حين تحدث عن الحملة الصليبية الخامسة وتهديدها بلاد الشام ومصر ،ربط بين خطر الصليبيين هذا القادم من جهة الغرب وبين بدء الغزو المغولي لبلاد ما وراء النهر من جهة الشرق كخطرين جسيمين هددا العالم الاسلامي في وقت واحد(٢) .

وتظهر حاسة ابن الأثير التاريخية عندما تحدث عن غزوات المغول ، فعلى الرغم من انه توفي سنة ٦٣٠ هـ فان ما عاصره من غزوات المغول الأولى جعله يتنبأ بالمصير الرهيب الذى ينتظر العالم الاسلامي على أيدى المغول ،فقال عندما تحدث عن بدء غزوات المغول - حوادث سنة ٦١٧هـ - : ((لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة

---

(١) سعيد عاشور : دراسة حول كتاب الكامل في التاريخ لابن الاثير ، في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٣٩٣ ؛ وانظر أيضا ، العريني : مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٤ .

(٢) انظر ،ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٧ .

استعظاما لها ،كارها لذكرها ،فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه نعي الاسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت امي لم تلدني ،ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيا منسيا ...)) ثم يسرد غزوات المغول . كحادثة لا نظير لها في التاريخ [١].

وكتاب الكامل لابن الاثير هو تاريخ عام ،ركز فيه مؤلفه على تاريخ العالم الاسلامي ،وحاول فيه التوازن بين الأقاليم ،فلم يدع أخبار اقليم تطغى على حوادث اقليم آخر ،واعتمد في ذلك على المصادر الخاصة بكل قطر [٢]. وعلى الرغم من أن ابن الأثير يسير في كتابه على طريقة الحوليات فانه كان يدرك عيوب هذه الطريقة ولهذا كثيرا ما تحاشى تلك العيوب ،اذا رأى ان الحادثة الواحدة اذا قسمت على السنين سوف تختل ،عندئذ ياتي بها متتابعة ،والامثلة على ذلك كثيرة ، فهو - مثلا - حين تحدث عن الحملة الصليبية الخامسة ٦١٤ - ٦١٨ هـ أوردها كلها في حوادث سنة ٦١٤ هـ وقال : ((وسقناها سياقة متتابعة ليتلوا بعضها بعضا)) [٣].

وترجع أهمية كتاب الكامل لابن الاثير لموضوع البحث الى أن مؤلفه كان معاصرا لجزء كبير من الحقبة موضع الدراسة حتى سنة ٦٢٨هـ حيث ينتهي تاريخه ،وقد أفاد البحث من الكامل في دراسة الموقف في

---

(١) انظر ،ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٣٥٨ ومابعدها .
(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١ المقدمة ص٢ - ٥ ؛ العريني : مؤرخو الحروب الصليبية ص٢٠٦ - ٢٠٧ .
(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٠ .

بلاد الشام عقب وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ اذ تحدث بالتفصيل عن النزاع الذى دار بين ابناء صلاح الدين ودور عمهم العادل في ذلك الصراع ،غير انه يجب التنبيه الى عدم الاعتماد كليا على ابن الاثير في هذه النقطة نظراً لأنه لم يشر اطلاقا الى الدور الذى لعبه اخوه ضياء الدين ابن الاثير خلال وزارته للافضل حيث كان سببا في ازدياد شقة الخلاف بين الافضل واخوته (١) . كما افاد البحث من كتاب ابن الاثير عند دراسة موضوعات : السلطان العادل وسيطرته على مقاليد الأمور في بلاد الشام ،والعلاقات بين ابناء السلطان العادل بعد موته ، والموقف بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل ،والحملة الصليبية الخامسة واثرها في تاريخ بلاد الشام.اضافةالى العلاقات بين سلاجقة الروم والأيوبيين ،وعلاقة بلاد الشام بمملكة ارمينية الصغرى واثر غزوات المغول الاولى على الجزيرة وبلاد الشام (٢) .

ومن المصادر المهمة التي اعتمد عليها البحث كتاب (التاريخ المنصورى) لمؤلفه محمد بن على بن نظيف الحموى المتوفى بعد سنة ٦٣١ هـ . وقد كان ابن نظيف الحموى كاتبا للملك الحافظ ارسلان شاه بن العادل صاحب قلعة جعبر ، ثم عمل بعد ذلك في خدمة المنصور بن الملك المجاهد صاحب حمص ، وصنف له كتاب (التاريخ المنصورى) وقدمه اليه . وهذا الكتاب عبارة عن ملخص لكتاب آخر كبير ألفه ابن نظيف يسمى (الكشف والبيان في حوادث الزمان) غير أنه

---

(١) انظر مايلي ص : ٣٥ - ٣٦ .

(٢) انظر مايلي الصفحات : ٥٠ - ٦٠ ، ١٢٢ ، ٢٥٢ - ٢٨٠ ، ٣٥٠ - ٣٦٢ ، ٤٠٢ ، ٤١٥ - ٤٢١ .

مفقود مع الأسف[١] . والتاريخ المنصوري كتاب موجز لا نجد في قسمه الأول حتى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ أي جديد لأنه ينقل باختصار شديد عن مصادر متوفرة[٢] . الا أن اهميته تظهر منذ سنة ٥٨٩ هـ بعد وفاة صلاح الدين ،حيث اصبح ابن نظيف شاهد عيان على ماذكره ، فأورد معلومات جديدة انفرد بها عن بقية المصادر. وقد افاد البحث من تلك المعلومات وبخاصة اثناء الحديث عن العلاقات بين ابناء صلاح الدين ،والعلاقات بين الايوبيين في بلاد الشام وسلاجقة الروم حين تحالف الجانبان لصد خطر جلال الدين الخوارزمي ،وغارات الأخير على الجزيرة واثر كل ذلك على الجبهة الاسلامية ازاء المغول . كما انفرد ابن نظيف بمعلومات جديدة عن غارات المغول الأولى على الجزيرة ، ووصول رسلهم الى المجاهد صاحب حمص . وانفرد ايضا بالقاء اضواء جديدة على علاقة الايوبيين بالامبراطورية الغربية المقدسة ، اضافة الى الحملة الصليبية الخامسة وموقف الخلافةالعباسية منها ، كما احتوى التاريخ المنصوري على معلومات هامة افادت البحث عند دراسة مملكة حمص وعلاقتها بالممالك الأيوبية الاخرى في بلاد الشام[٣] .

----

(١) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون جـ٢ ص ٢٥٥ ؛ وانظر أيضا ،التاريخ المنصوري مقدمة المحقق = وقد قام ابو العيد دودو بتحقيق ونشر الجزء الاخير من التاريخ المنصوري. ٥٨٩ - ٦٣٠ هـ ،ط . دمشق ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٢ حاشية رقم (١) .

(٣) انظر مايلي الصفحات : ٣٥٧ - ٣٦٣ ، ٤١٠-٤١١ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ .

ومن أهم المصادر لموضوع البحث كتاب (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) ومؤلفه أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي الملقب بسبط ابن الجوزى ،المتوفي بدمشق سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م . وقد ولد سبط ابن الجوزى سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م في بغداد ، ونشأ في كنف جده لأمه المؤرخ أبي الفرج بن الجوزى مؤلف كتاب (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) . ولما توفي ابو الفرج سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م رحل حفيده أبو المظفر الى الموصل في طلب العلم ،ثم غادرها الى دمشق وهو ابن نيف وعشرين سنة . وظل يجد في طلب العلم حتى أصبح ((إماما عالماً ،فقيهاً واعظاً ، وحيداً في الوعظ، علامة في التاريخ والسير))(١) .

وكتاب مرآة الزمان من اشهر مؤلفات سبط ابن الجوزى قال عنه ابو المحاسن ابن تغرى بردى ،إنه ((في غاية التحرير والنقل عن الثقات ومن أرّخ بعده فقد تطفّل عليه واغترف من بحره واحتاج ،ولا سيما الذهبي والصفدى فان معولهما في تاريخيهما على تاريخه))(٢) . وقد أشار ابن تغرى بردى الى أن مرآة الزمان كان مصدره الأساسي لكتابه (النجوم الزاهرة) فقال : ((ونقلت منه في هذا الكتاب معظم حوادثه))(٣) .

اتبع سبط ابن الجوزى في كتابه طريقة الحوليات . وتتفاوت قيمته التاريخية من عصر الى عصر تبعاً لموارده ، ففي أقسامه الأولى حتى

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ٨ ورقة ٤٤٢ أ .
(٢) المصدر نفسه والجزء والورقة .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٣٩ .

القرن الرابع الهجرى تقل أهمية كتاب مرآة الزمان نظرا لأن سبط ابن الجوزى نقل عن مصادر معروفة ،ثم يعود الكتاب ويكتسي أهمية بالغة فريدة في نوعها ،في بعض أخبار القرن الرابع ومعظم القرن الخامس، لكونه نقل عن مصادر مفقودة ومعاصرة لهذين القرنين. وفي حوادث القرن السادس تبدأ قيمة الكتاب في التضاؤل ، لتوفر المصادر التي نقل عنها ،وتعود للكتاب أهميته القيمة في اخبار النصف الأول من القرن السابع الهجرى ،وهي الفترة التي عاصرها سبط ابن الجوزى كشاهد عيان [1].

وترجع أهمية كتاب مرآة الزمان لموضوع الرسالة نظرا لأن سبط ابن الجوزى كان شاهد عيان لهذه الحقبة -موضع الدراسة - بل وشارك احياناً في صنع التاريخ مثل الحملة الشعبية التي قادها من دمشق ضد الصليبيين سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م [2]. كما كانت صلاته قوية مع ملوك دمشق مثل المعظم والأشرف والصالح ايوب وغيرهم [3] ، لذلك فان ما أورده من اخبار عن هذه الحقبة ،تعتبر جديدة ومفيدة وعنه نقل كثير من المؤرخين الذين اتوا بعده.

وقد أفاد البحث من مرآة الزمان عند دراسة الموقف بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل ،والحملة الصليبية الخامسة

---

(١) علي عوده الغامدى : بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ص١٤ ؛ شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون جـ٢ ص ٢٦١.

(٢) انظر سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٤٤-٥٤٥.

(٣) انظر على سبيل المثال سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ الصفحات ٥٩٧ ،٦٠٤ ،٦١٩ -٦٢٠ ،٦٥٤ ،٧٢٨.

واثرها على أحوال بلاد الشام والدور الذى لعبه المعظم في التجسس على الصليبيين لمعرفة تحركاتهم ، اضافةالى العلاقات بين ابناء السلطان العادل ،والحرب الاهلية ، وكذلك عن حملة الامبراطور فردريك الثاني ودخوله الى بيت المقدس وموقفه من المسلمين ،كما أورد سبط ابن الجوزى معلومات جديدة وقيمة عن معركة غزة ضد الصليبيين سنة ٦٤٢هـ (١) .

وأفاد البحث من مرآة الزمان في دراسة الحياة العلمية في بلاد الشام ودور ملوك بني ايوب في تشجيع الحركة الفكرية حيث ترجم السبط لمشاهير العلماء في مختلف فروع العلم والمعرفة (٢) .

ومن المصادر المهمة لموضوع البحث والتي لا تقل في اهميتها عن كتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى ،ما كتبه المؤرخ كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله ،من بني جرادة العقيلي والمعروف بابن العديم وقد ولد سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م وتوفي سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وهو من أسرة عريقة في حلب ، اشتغلت بالعلم والفقه والقضاء والادب والشعر على مدى قرنين من الزمان ،وقد نشأ ابن العديم في حلب وتعلم في مدارسها على يد العديد من العلماء ورافق أباه في بعض رحلاته الى دمشق وبيت المقدس والعراق والحجاز ،وجالس العلماء وأخذ عنهم (٣) .

كتب ابن العديم العديد من الكتب في التاريخ والادب ،أشهرها في التاريخ كتاب (بغية الطلب في تاريخ حلب) وكتاب

---

(١) انظر مايلي الصفحات : ٢٥٦-٢٥٧، ٢٦٣-٢٦٩، ٢٨٢-٢٨٩، ٣١٦-٣١٧.

(٢) انظر مايلي ص: ٤٣٧، ٤٣٩، ٤٦٦، ٤٦٨ - ٤٧٤.

(٣) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ ١٦ ص ٥ - ٤٧ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٣٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٢٠٨-٢٠٩ ؛شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون جـ٢ ص ٢٦٣ .

(زبدة الحلب من تاريخ حلب) وكلاهما من أهم المصادر لتاريخ بلاد الشام حتى النصف الاول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى . وقد ألف ابن العديم بغية الطلب على طريقة التراجم ، وترجم فيه لاعيان حلب ،ولكل من دخلها واتصل بها من الاعيان والساسة والقادة والعلماء والفقهاء ،والقضاة وغيرهم . وكان في نحو اربعين مجلدا ، غير أن مما يؤسف له أن هذه الموسوعة الضخمة فقدت ولم يبق منها سوى عشر مجلدات فقط [١] . ولم يفد البحث الا قليلا من الاجزاء الباقية نظرا لان أسماء رجال حلب وعلمائها خلال الفترة موضع الدراسة وقعت اكثرها في المجلدات المفقودة .

على أن الفائدة لموضوع البحث كانت من كتاب (زبدة الحلب من تاريخ حلب) وهو الذى استله ابن العديم من كتابه الكبير وجعله خاصا بالحوادث السياسية لحلب على طريقة الحوليات حتى سنة ٦٤١هـ [٢]. وتعود أهمية الكتاب الى أن ابن العديم كان معاصرا للحوادث موضوع الدراسة وقام بالعديد من السفارات بين مملكة حلب وغيرها من الممالك الاخرى [٣] . وقد أفاد البحث كثيرا من زبدة الحلب ولا سيما عند دراسة الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين ، ودراسة

---

(١) وصل الينا من بغية الطلب عشر مجلدات بخط ابن العديم نفسه محفوظة في مكتبات استامبول ،منها ثماني مجلدات في مكتبة احمد الثالث برقم ٢٩٢٥ ،و مجلد واحد في مكتبة اياصوفيا برقم ٣٠٣٦ ،ومجلد اخر في مكتبة فيض الله برقم ١٤٠٤ .

(٢) قام سامي الدهان بتحقيق زبدة الحلب ونشره في دمشق سنة ١٣٧٠ هـ/١٩٥١م .

(٣) انظر على سبيل المثال ابن العديم ،زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٣٣-٢٣٥ ، ٢٣٧ - ٢٤٠ ، ٢٤٧ - ٢٤٨ .

مملكة حلب وعلاقاتها بمملكة ارمينية الصغرى وسلاجقة الروم . وقد انفرد ابن العديم بالقاء اضواء جديدة على الموقف بين المسلمين والصليبيين في شمال الشام وبخاصة بين مملكة حلب و فرسان الداوية ،وكذلك خلال الحديث عن خطر الخوارزمية ودخولهم لأول مرة الى بلاد الشام واثر غاراتهم على الاحوال الاقتصادية لشمال الشام ونتائج ذلك على بلاد الشام قبيل الغزو المغولي (١) .

ومن أهم المصادر لموضوع البحث مؤلفات المؤرخ الكبير ابن واصل ،وهو جمال الدين ابو عبدالله محمد بن سالم بن نصر الله ابن واصل المازني التميمي الحموى الشافعي ، ويعتبر من كبار مؤرخي القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى . ولد بعد مولد هذا القرن وتوفي قبيل نهايته بقليل (٦٠٤ - ٦٩٧هـ/١٢٠٨-١٢٩٨م) ، وقد نشأ بحماه وتلقى بها علومه الأولى ثم رحل في طلب العلم الى دمشق و حلب وبيت المقدس والكرك والقاهرة و بغداد و مكة والمدينة، و نبغ و صنف في علوم كثيرة، وأقام بمصر مدة طويلة ،وعاصر الحملات الصليبية المتأخرة وسقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك وغزوات التتار ، وسقوط الخلافة العباسية ،ثم اتصل بالظاهر بيبرس وأرسله سفيرا الى منفرد بن فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة (٢) .

ومن مؤلفات ابن واصل التي أفاد منها البحث كتاب (التاريخ الصالحي) وهو تاريخ عام على طريقة الحوليات منذ بدء الخليقة حتى

---

(١) انظر مايلي الصفحات: ٣٠١-٣٠٣ ، ٣٥٢-٣٥٦، ٣٧٧-٣٨٨ ، ٣٩٥-٣٩٧ .

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ٣٤٩ ؛ السيوطي : بغية الوعاة جـ١ ص ١٠٨ - ١٠٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ مقدمة المحقق ص ٤ ، جـ ٤ ص ٢٤٨ .

سنة ٦٣٧ هـ ،كتبه ابن واصل في مجلد واحدوقدمه للسلطان الصالح ايوب بعد أن سماه باسمه (١) . واعتمد البحث عليه في دراسة الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣ م واسباب النزاع الذى اندلع بين ابنائه ،اذ ألقى التاريخ الصالحي اضواء جديدة على هذا الموضوع ،وكذلك عند دراسة السلطان العادل وسيطرته على مقاليد الأمور في بلاد الشام ، والحملة الصليبية الخامسة، والعلاقات بين ابناء السلطان العادل ، كما ألقى التاريخ الصالحي اضواء جديدة على الحرب الاهلية التي اندلعت في بلاد الشام عقب موت الملك الأشرف بن العادل سنة ٦٣٥هـ (٢) .

اما كتاب (مفرج الكروب في اخبار بني ايوب) لابن واصل فهو أهم مصادر البحث على الاطلاق ،لأنه غطى فترة البحث بكاملها .

ويعتبر هذا الكتاب المصدر الاول لدراسة تاريخ بني ايوب لما فيه من تفاصيل عنهم قلما توجد كاملة في كتاب آخر ،وقد اعتمد عليه كل الذين ارخوا للدولة الايوبية بعده (٣) . وخلال الفترة منذ وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ وحتى سنة ٦١٥ هـ اعتمد ابن واصل على مصادر مفقودة مثل تاريخ ابن القادسي ،وهو مؤرخ عراقي عاش في اواخر القرن السادس الهجرى وأدرك القرن السابع ،وقد ذيل به على المنتظم لعبد الرحمن بن الجوزى ،ومعلوماته هامة جدا ولا سيما فيما يتعلق بتاريخ الخلافة العباسية ،كما اعتمد ابن واصل خلال هذه الفترة

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢ أ ب.

(٢) انظر مايلي الصفحات : ٣٥- ٤٦ ،٥٦ -٥٩ ،١٥٧ - ١٢١ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ مقدمة المحقق ص ٦ .

التي اعقبت وفاة صلاح الدين على العماد الاصفهاني ، حيث أرخ الأخير للسنوات السبع التي عاشها بعد صلاح الدين حتى سنة ٥٩٧هـ ، في ثلاث رسائل هي " العتبى والعقبى " و " نحلة الرحلة " و " خطفة البارق وعطفة الشارق ". كما اعتمد ابن واصل على رسائل اخرى لضياء الدين ابن الاثير وزير الملك الافضل بن صلاح الدين (١). وقد نقل ابن واصل عن هذه الرسائل جميعها ،بحيث افادت البحث في علاج العلاقات بين ابناء السلطان صلاح الدين ودور عمهم العادل فيه . وبعد وفاة العماد الاصفهاني سنة ٥٩٧ هـ اعتمد ابن واصل كثيرا على ابن الاثير وابن العديم . غير انه منذ سنة ٦٢٦ هـ بدأ يكتب كشاهد عيان ، اذ هيأت له صلاته بملوك حماة ،وصداقته للناصر داود ابن المعظم و بعض رجال الدولة الايوبية ،أن يطلع على الكثير من خبايا السياسة واسباب الصراع الذى اندلع بين الأيوبيين ،وقد افاد البحث كثيرا من مفرج الكروب في معظم فصوله نظراً للمعلومات القيمة والجديدة التي أوردها ابن واصل (٢).

كما يعتبر كتاب (الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة) من مصادر البحث المهمة ،ومؤلفه هو المؤرخ عز الدين ابو عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد الانصارى الحلبي (٦١٣ - ٦٨٤هـ) (٣).

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص و - ز.

(٢) انظر مايلي الصفحات : ١٤٤ ، ١٧٣ ، ٣١٣ .

(٣) هو غير بهاء الدين ابن شداد (٥٣٩- ٦٣٢ هـ) مؤلف كتاب سيرة صلاح الدين المعروف باسم (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) انظر ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، تحقيق سامي الدهان ،مقدمة المحقق جـ٢ ص ١٣-١٤ .

الذى كان من خواص الناصر يوسف صاحب حلب ،وكان سفيره الى المغول. وبعد سقوط بلاد الشام بايدى المغول رحل الى مصر واستوطنها ،وصار له مكانة لدى الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون،وكان فاضلا أديبا له العديد من المؤلفات التاريخية اهمها كتاب الاعلاق الخطيرة (١) .

جمع ابن شداد في كتابه بين التاريخ والجغرافية ،وجعله ثلاثة اقسام : أحدها خاص بمسقط رأسه حلب ،وخصص القسم الثاني لدمشق والاردن وفلسطين ولبنان ،والثالث جعله لمنطقة الجزيرة ، وتحدث عما فيها من معالم وآثار ومدارس ومساجد وخوانق وغيرها ،ثم ألحق بكل قسم تاريخا لتلك البلاد منذ بدء الفتح الاسلامي حتى عصره (٢) .

وقد أفاد البحث من كتاب الاعلاق الخطيرة عند دراسة مملكة حلب واثر الاقطاع الحربي الأيوبي على زيادة حدة الانقسام والتمزق السياسي في بلاد الشام ،كما أورد ابن شداد معلومات فريدة في نوعها فيما يتعلق بالصالح اسماعيل وتحالفه مع الصليبيين ورفض اتباعه الانصياع له بتسليم بعض الحصون للفرنج . وقد امدنا ابن شداد بمعلومات بالغة الاهمية عن مدارس دمشق و حلباضافة الى الحالة الاقتصادية لحلب قبيل الغزو المغولي (٣) .

و من مصادر البحث القيمة كتابات المؤرخ شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي، المعروف بابي شامة

----

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ٦ ورقة ٢١٠ أ ب .

(٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ مقدمة المحقق ص ٢٦ .

(٣) انظر مايلي ص: ٦٩ - ٧٣ ، ٣٠٦-٣٠٧ ، ٤٥٦ - ٤٦٤ ، ٥١٣ - ٥١٩ .

(٥٩٩ - ٦٦٥ هـ/ ١٢٠٣-١٢٦٧م) وهو من كبار الفقهاء والمحدثين ،و وكان متفوقا في علوم النحو والعربية اضافة الى مؤلفاته التاريخية القيمة (١) .

وقد افاد البحث من كتاب ابي شامة المسمى (الروضتين في اخبار الدولتين) وبخاصة الجزء الاخير منه ،لأنه اعتمد فيه على بعض رسائل العماد الاصفهاني المفقودة ، وقد ذيل ابو شامة على كتاب الروضتين بكتاب آخر هو (ذيل الروضتين) اذ تحدث فيه منذ سنة ٥٩٠ هـ وحتى وفاته سنة ٦٦٥ واكثر فيه من التراجم للعلماء والفقهاء الذين عاشوا في بلاد الشام خلال تلك الحقبة ،وقد افاد البحث كثيرا من ذيل الروضتين ولا سيما في دراسة الصراع الذى دار بين الايوبيين حول السيطرة على دمشق عاصمة بلاد الشام ،كما امدنا بمعلومات قيمة عند دراسة الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي (٢) .

ومن المصادر المعاصرة لموضوع البحث كتاب (البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان) (٣) وهو تاريخ موجز منسوب الى العماد الأصفهاني ،اذ جاء في اخر حوادث سنة ٥٩٣ هـ القول :: ((الى هنا انتهى ما ساقه الشيخ الامام العالم عماد الدين محمد بن محمد بن أحمد الاصفهاني المعروف بالكاتب من التاريخ المسمى بالبستان ...)) (٤) .

---

(١) السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ١٦٥ - ١٦٧ ؛ شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون جـ٢ ص ٢٦٦ .

(٢) انظر مايلي ص : ١٤٢ ، ١٩١ ، ٤٣٧ ، ٤٦٦ - ٤٧٠ .

(٣) وهو مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستانبول برقم ٢٩٥٩ .

(٤) البستان الجامع ورقة ١٤١ أ .

على أن ما يهمنا منه ،هو ما بعد سنة ٥٩٣ هـ ،حيث ذيل عليه في المخطوطة نفسها أحد الامراء ويدعى علم الدين سنجر المسرورى الصالحي الى سنة ٦٣٥هـ (١) . ومن الواضح انه كان معاصرا لهذه الفترة ،ونقل احيانا عن شهود عيان ،اذ يقول - مثلا - في حوادث سنة ٦٣٥هـ :

((ونشرع في ذكر الحوادث الكائنة بعد وفاة السلطان الاشرف معتمدين في ذلك على ما نقلناه من رسالة الفقيه الفاضل العالم عفيف الدين عبد العزيز بن علي بن جعفر الموصلي الحنفي ،فاني لم أكن حاضرا بدمشق يومئذ ..)) ثم يسرد الحوادث نقلا عن تلك الرسالة (٢) .

وقد افاد البحث من البستان الجامع في دراسة العلاقات بين ابناء السلطان العادل ،وبداية الحرب الاهلية في بلاد الشام عقب موت الاشرف ،والموقف بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل (٣) .

ومن مصادر البحث المعاصرة للفترة موضع الدراسة (التاريخ المظفرى) (٤) ومؤلفه القاضي شهاب الدين ابراهيم بن عبدالله بن عبد المنعم الحموى المعروف بابن أبي الدم (٥٨٣ - ٦٤٢هـ/١١٨٧ - ١٢٤٤م) وهو مؤرخ حموى له العديد من المؤلفات التاريخية ،منها التاريخ المظفرى الذى الفه وسار فيه حتى حوادث سنة ٦٢٨هـ ،وأهداه لصاحب حماه الملك المظفر وجعله باسمه (٥) . وقد أفاد البحث من التاريخ المظفرى

----

(١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٤١ أ ب .

(٢) المصدر نفسه ورقة ٢٠٤ أ ب .

(٣) انظر مايلي ص : ١٥٧ - ١٦١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ .

(٤) وهو مخطوط اعتمد البحث على نسخة مكتبة خدابخش بتنه بالهند رقم ٣٨٦٩ .

(٥) السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ١١٥-١١٦ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧٣ ؛ شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون جـ٢ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

عند دراسة مملكة حماه ،وحملة فردريك الثاني الصليبية ،وتسلمه بيت المقدس من السلطان الكامل [١].

ومن المصادر المهمة المعاصرة لموضوع البحث (جامع التواريخ المصرية في ذكر الملوك والخلفاء الاسلامية) [٢] وموءلفه حسن بن ابراهيم ابن محمد اليافعي ،وقد كان حيا سنة ٦٧٩ هـ حيث اشار في اخره الى انه كتبه للناصر قلاوون في تلك السنة [٣]. وكان معاصرا للفترة موضع الدراسة اذ جاء في حوادث سنة ٦٣١هـ خلال حديثه عن حملة السلطان الكامل على بلاد سلاجقة الروم قوله : ((قال صاحب هذا التاريخ : كنت معهم في هذه السفرة ...)) ثم يواصل حديثه عن الحملة [٤].

وقد افاد البحث من جامع التواريخ المصرية عند دراسة العلاقات بين ابناء السلطان العادل واثرها على أوضاع بلاد الشام والحرب الاهلية بين الايوبيين ونتائجها ،وموضوع الصالح ايوب واعادة الوحدة بين مصر والشام ،وانهيار الايوبيين و قيام دولة المماليك ،وموقف ملوك بني ايوب من الصليبيين ،اضافةالى العلاقات بين الايوبيين وسلاجقة الروم وظهور خطر الخوارزمية [٥].

ومن كتب التراجم المعاصرة التي افاد منها البحث كتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) وموءلفه ابو العباس شمس الدين احمد ابن محمد بن ابي بكر بن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١هـ/ ١٢١١-١٢٨٢م) ،

----

(١) انظر مايلي ص: ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ٢٩٥ .

(٢) مخطوط المكتبة الاهلية بباريس رقم ١٥٤٣ .

(٣) انظر اليافعي ،جامع التواريخ المصرية آخر ورقة بالمخطوطة حوادث ٦٧٩هـ .

(٤) المصدر نفسه ورقة ٥٥ أ .

(٥) انظر مايلي ص: ١٢٦ - ٢١٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٦٤ - ٣٦٥ .

وقد ترجم ابن خلكان للكثير من ملوك بني أيوب الذين لعبوا دورا هاما في الحياة السياسية والعلمية لبلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، اضافة الى ترجمته للعديد من العلماء والادباء الذين اسهموا في ازدهار الحياة الفكرية في بلاد الشام ،وقد افاد البحث كثيرا من تلك التراجم (١) .

وافاد البحث أيضا من كتاب (عيون الانباء في طبقات الأطباء) لموءلفه موفق الدين احمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي الشهير بابن ابي اصيبعة (٦٠٠-٦٦٨هـ/ ١٢٠٤-١٢٧٠م) حيث ترجم للكثير من الأطباء الذين عاصروا الفترة موضع الدراسة ،وقد افاد البحث من تلك التراجم ولا سيما في دراسة الطب والصيدلة وعلوم الرياضيات والفلك (٢) .

كما أفاد البحث كثيرا من موءلفات شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموى المتوفي سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩ م ولا سيما كتابه (معجم البلدان) حيث كان المصدر الاول للتعريف بالبلدان والقلاع والقرى والحصون التي تناولها البحث ، اضافة الى أن ياقوت ضمّن كتابه بعض المعلومات الهامة افادت البحث في دراسة الحالة الاقتصادية لبلاد الشام قبيل الغزو المغولي (٣) .

وأفاد البحث من كتاب ياقوت الاخر (معجم الأدباء) وبخاصة في دراسة الحياة العلمية لأنّ ياقوت ترجم لبعض العلماء المشهورين الذين لعبوا دورا هاما في ازدهار الحياة العلمية في بلاد الشام خلال الفترة موضع الدراسة (٤) .

---

(١) انظر مايلي ص : ٤٤٦- ٤٥٠ ، ٤٧٤ ، ٤٨٠ - ٤٨٣ .

(٢) انظر مايلي ص : ٥٠١ - ٥٠٩ .

(٣) انظر مايلي ص: ٥١٢-٥١٣ .

(٤) انظر مايلي ص : ٤٥٢ - ٤٥٥ .

ومن أهم المصادر المتأخرة لموضوع البحث كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) ومؤلفه المؤرخ القدير أحمد بن علي المقريزي . وقد ولد المقريزي سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م بحارة برجوان بمدينة القاهرة ، وتوفي سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م وهو بعلبكي الأصل ، مصري المولد والمنشأ ، وعرف باسم المقريزي نسبة الى حارة المقارزة في مدينة بعلبك ، وعكف على دراسة القرآن وعلوم الدين والتاريخ وغير ذلك . وتقلد المقريزي العديد من الوظائف ، كان آخرها وظيفة الحسبة بالقاهرة . ويعتبر من فحول المؤرخين المسلمين وله مؤلفات تاريخية كثيرة ، وتميزت كتابات المقريزي بالدقة في ايراد الحقائق ، والتخصص المتنوع ، والاعتماد على مصادر ووثائق لا تزال اصولها مفقودة(١) .

وقد أمدنا المقريزي بمعلومات مهمة وقيمة في كثير من الموضوعات السياسية التي تناولتها فصول الرسالة(٢) .

ومن المصادر المتأخرة والمهمة جدا لموضوع البحث تاريخ ابن الفرات ومؤلفه ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي ، الشهير بابن الفرات والمتوفي سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٣م ، وكان مغرما بالتاريخ وألف فيه كتابه هذا في عشرين مجلدا حتى عصره(٣) . وترجع أهمية تاريخ ابن الفرات الى أنه نقل عن مصادر معاصرة للفترة موضع الدراسة

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع جـ٢ ص ٢١ ؛ انظر ايضا ، دراسات عن المقريزي ، مجموعة أبحاث اشترك في اعدادها مصطفى زيادة واخرون ص ٧-٨ .

(٢) انظر على سبيل المثال مايلي ص : ١٣٢ - ١٣٦ ، ٣٢٩ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب جـ٧ ص ٧٢ .

وبعضها مفقودة مثل كتاب الكشف والبيان لا بن نظيف الحموى وقد أفاد البحث كثيرا من تاريخ ابن الفرات في اكثر موضوعات الرسالة[١] .

كما أفاد البحث كثيرا من كتابات الملك المؤيد اسماعيل بن الملك الأفضل صاحب حماه المتوفي سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م ،فقد ((كانت عنده كتب نفيسة حوتها خزانته))[٢] . وقد وفرت له تلك المكتبة مصادر قيمة بحيث ألف الكثير من الكتب يأتي في مقدمتها كتابه القيم (المختصر في اخبار البشر) وقد أفاد البحث كثيرا من هذاالكتاب في أغلب الموضوعات السياسية التي تناولتها الدراسة[٣] . كما أفاد البحث أيضا من كتابه الاخر (تقويم البلدان) في التعريف ببعض البلدان وتحديد اماكنها . كما أخذ البحث بعض المعلومات عن كتاب ثالث موجز في التاريخ ومنسوب الى ابي الفدا واسمه (التبر المسبوك في تواريخ الملوك)[٤] .

وفضلا عن هذه المصادر التي ورد ذكرها فقد افاد البحث من مصادر اخرى كثيرة مخطوطة ومطبوعة ،وكذلك مراجع حديثة ، وجميعها مثبتة في حواشي الرسالة .

----

(١) انظر على سبيل المثال مايلي ص: ٢٨٩- ٣٠٥ .
(٢) الصفدى : اعيان العصر وأعوان النصر ورقة ١١٨ أ ب .
(٣) انظر على سبيل المثال مايلي ص: ٩٢ - ١٠٢ .
(٤) التبر المسبوك مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٦ تاريخ .

وتحتوى الرسالة على مقدمة ،وخمسة فصول . اقتصرت المقدمة على دراسة نقدية لأهم مصادر البحث . وناقش الفصل الأول الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين ،وبيّن سبب انقسام بلاد الشام بعد موته ، وبرهن الفصل على ان صلاح الدين لم يكن مسئولا عن النزاع الذى اندلع بين الايوبيين عقب موته ،وبيّن اسباب ذلك النزاع ونتائجه ،والقى الفصل اضواء جديدة على دهاء الملك العادل ،والذى استطاع في نهاية المطاف بسط نفوذه على الدولة الأيوبية في مصر والشام . كما تحدث الفصل الاول عن مملكة حلب ، وبيّن اهمية موقعها وعلاقاتها مع القوى المجاورة لها ،وسياسة ملكها الظاهر غازى ،وكيف استطاع حماية مملكته رغم الاخطار التي أحاطت بها ،والقى الفصل الأول اضواء جديدة على اثر الاقطاع الحربي الأيوبي في زيادة حدة الانقسام والتمزق في بلاد الشام ،حين حاول القادة المقطعون تأكيد استقلالهم في اقطاعاتهم .

وتناول الفصل الاول ايضا مملكة حماة ،والمنافسة بين الناصر قلج وبين اخيه المظفر على عرش المملكة . كما تحدث الفصل عن مملكة حمص وسياسة ملكها المجاهد شيركوه واصلاحاته داخل حدود مملكته . وتحدث الفصل كذلك عن مملكة دمشق زمن الملك المعظم وسياسته في توطيد الأمن والنظام داخل حدود مملكته . وتعرض الفصل اخيرا لبقية الامارات الايوبية الصغيرة كامارة بعلبك وغيرها .

أما الفصل الثاني وعنوانه (العلاقات الداخلية بين ملوك بني ايوب ونتائجها على النفوذ الأيوبي في بلاد الشام) فقد تحدث في البداية عن وفاة السلطان العادل سنة ٦١٥ هـ والتي نتج عنها مؤامرة

حاك خيوطها عماد الدين بن المشطوب بغية عزل السلطان الجديد الكامل بن العادل والسيطرة على مصر واثر كل ذلك على بلاد الشام.
وناقش الفصل الثاني العلاقات بين ابناء السلطان العادل واثرها في بلاد الشام ،اذ أنهم اتفقوا بعد وفاة والدهم الأمر الذى نتج عنه فشل الحملة الصليبية الخامسة ، ثم ما لبثوا ان اختلفوا وتنازعوا حينما حاول المعظم السيطرة على بلاد الشام ،فتحالف اخواه الكامل والاشرف ضده ،فعمد المعظم الى التحالف مع جلال الدين الخوارزمي ،وما ترتب على كل ذلك من نتائج سيئة على الدولة الأيوبية . والقى الفصل اضواء جديدة على اسباب الخلاف الذى نشب اخيرا بين الكامل واخيه الأشرف. ثم اندلاع الحرب الاهلية بين الايوبيين في بلاد الشام عقب وفاة الاشرف ،تلك الحرب التي استمرت بضع سنوات حتى انتهت اخيرا بانتصار الصالح أيوب واعادة الوحدة بين مصر والشام.

واخيرا شرح الفصل التطورات التي نتج عنها سقوط الدولة الايوبية في مصر وقيام دولة المماليك ،وموقف ملوك الشام من ذلك ،حيث قرروا مهاجمة مصر في محاولة لاستعادتها ،واوضح الفصل فشل تلك المحاولة واسبابه ،وناقش الفصل دور طائفة المماليك البحرية الذين هربوا الى بلاد الشام واسهموا في زيادة الاضطراب والتمزق فيها عشية الغزو المغولي .

أما الفصل الثالث من الرسالة وعنوانه (موقف ملوك بني أيوب من الصليبيين في بلاد الشام) فقد درس اولا اثر حرب الوراثة الايوبية على الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين ،وتناول الفصل الحملة الالمانية على بلاد الشام . وأبرز الفصل الحملة الشعبية التي قام بها سكان دمشق

بقيادة المؤرخ سبط ابن الجوزى لجهاد الصليبيين . ثم تناول الفصل بالشرح والتحليل اثر الحملة الصليبية الخامسة على بلاد الشام ،اذ ان طلائع تلك الحملة نشرت الخراب والدمار في البلاد التي هاجمتها مثل نابلس و بيسان وغيرها ،وبرهن الفصل على وقوع الملك المعظم في الكثير من الاخطاء العسكرية مثل تدمير اسوار بيت المقدس وما ترتب على ذلك من نتائج ، ثم شرح الفصل كيف فشلت الحملة الصليبية الخامسة .

والقى الفصل الثالث اضواء جديدة على طرق ووسائل الملك المعظم للتجسس على الصليبيين ورصد تحركاتهم . ثم تعرض الفصل الثالث لمجيء حملة فردريك الثاني الى الشام ،وتسلمه بيت المقدس من السلطان الكامل ،وما تركه ذلك من اثر في نفوس المسلمين . وشرح الفصل الموقف في شمال الشام بين مملكة حلب و فرسان الداوية . وتناول ايضا اثر الحرب الاهلية الذى جعل بعض حكام بني ايوب ينحدر الى مستوى الخيانة مع الصليبيين كالصالح اسماعيل ،ثم دخول الخوارزمية الى الشام وهزيمتهم للصليبيين وحليفهم الصالح اسماعيل في معركة غزة سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م وتعرض الفصل اخيرا للموقف بين المسلمين والصليبيين عشية الغزو المغولي وذلك منذ بدء حملة لويس التاسع ملك فرنسا وحتى رحيله من بلاد الشام.

اما الفصل الرابع فقد تناول (العلاقات الخارجية لملوك بني ايوب واثرها في تاريخ بلاد الشام) فتناول اولا : العلاقات مع القوى الاسلامية ،بدءا بالخلافة العباسية التي حرص ملوك بني ايوب على خطب ودها والحصول منها على التقليد والخلع لاضفاء صبغة الشرعية على حكمهم، والدور الذىمارسته الخلافة العباسية في محاولة حل النزاعات الداخلية

في بلاد الشام . كما شرح الفصل العلاقات الايوبية مع سلاحقة الروم والتي تراوحت بين العداء حينا والود والصداقة احيانا حسب ما تمليه مصالح كلا الدولتين .

وشرح الفصل ظهور خطر الخوارزمية الذين انتشروا في الجزيرة عقب مقتل ملكهم جلال الدين الخوارزمي سنة ٦٢٨هـ ، وما جره ذلك من الفوضى والاضطراب على بلاد الشام ، وغاراتهم على بلاد الشام ، وانغماسهم في النزاع بين الايوبيين .

وتناول الفصل الرابع ثانيا ، العلاقات الخارجية مع القوى غير الاسلامية مثل مملكة ارمينية الصغرى التي لعبت دورا صليبيا خطيرا ضد المسلمين في بلاد الشام وحاولت اخيرا اقامة حلف صليبي مغولي ضد المسلمين . وتناول الفصل الرابع ايضا العلاقات الودية بين الدولة الايوبية والامبراطورية الغربية المقدسة زمن الامبراطور فردريك الثاني .

وناقش الفصل الرابع خطر التتار ، وغاراتهم الاولى على الجزيرة واستقرار بعض فرقهم في جنوب أذربيجان لشن الغارات على العراق والجزيرة واسيا الصغرى لاختبار قدرات القوى الاسلامية في هذه المناطق ، ثم شرح الفصل استيلاء المغول على اسيا الصغرى واثر ذلك على بلاد الشام ، ثم اشار الفصل الى استيلاء هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م وموقف بلاد الشام من الزحف المغولي .

اما الفصل الخامس وعنوانه (اهم مظاهر التطور الحضارى في بلاد الشام) فقد درس الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، وشرح الدور الذى قام به ملوك بني ايوب في ازدهار الحركة الفكرية مثل الملك المعظم وابنه الناصر داود والامجد صاحب بعلبك وغيرهم ، كما شرح

جهود كل من القاضي بهاء الدين بن شداد والوزير ابن القفطي ودورهما في تطور الحياة الفكرية في بلاد الشام. وتعرض الفصل لأهم المدارس في بلاد الشام كمظهر من مظاهر التطور العلمي ، ثم تناول الفصل علوم الشريعة وشرح الدور الذى قام به كبار العلماء في هذا المجال مثل ابن قدامة والعز بن عبد السلام وغيرهما ، ثم تحدث الفصل عن علوم العربية كالنحو واللغة والشعر والادب ،وشرح الدور الذى اسهم به كبار العلماء مثل الكندى وابن الحاجب وغيرهما وتم القاء الضوء على ازدهار الادب في هذا العصر ولا سيما الشعر حيث ظهر الكثير من الشعراء مثل الناصر داود ، والامجد بهرام شاه ، وابن عنين ، وغيرهم.

كما ناقش الفصل الفلسفة في هذا العصر وموقف الحكام منها ، وترجم الفصل لاشهر فلاسفة هذا العصر وهو سيف الدين الامدى ودوره في مجال الفلسفة.

اما في مجال الدراسات الطبيعية ،فقد تناول الفصل الطب ، والصيدلة ،لما شهداه من تطور وازدهار حيث ظهر الكثير من الاطباء والصيادلة وتنوعت اساليب العلاج معتمدة على اصول علمية متفوقة. كما تناولت الدراسات الطبيعية الرياضيات والفلك حيث تطورت وازدهرت في هذا العصر.

واخيرا ناقش الفصل الحالة الاقتصادية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، حيث القى الفصل بعض الاضواء على موارد مملكة حلب ثم استعرض بصورة مجملة الزراعة ،والصناعة ،والتجارة في بلاد الشام وأشار الفصل في نهايته الى أهم المنشآت العمرانية والمرافق العامة مثل شبكة مياه حلب واصلاحات المعظم في جنوب بلاد الشام .

واحتوت الرسالة على خاتمة ،توضح اهم النتائج التي توصل اليها البحث ،و مجموعة من الملاحق التي تفسر بعض الحوادث الواردة في فصول الرسالة ٠

*

و في الختام لا يسعني الا أن اتقدم بخالص شكرى و تقديرى ، وعظيم امتناني ، الى المشرف على هذه الرسالة استاذى الجليل الدكتور صابر محمد دياب لما أبداه من ارشادات علمية ،ولما اسداه لي من توجيهات صائبة ،فجزاه الله عني و عن طلا به خير الجزاء ٠

والله أسأل العون والسداد انه نعم المولى و نعم النصير.

علي محمد علي عوده الغامدى

الفصل الأول

الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين

٥٨٩ - ٦١٥هـ / ١١٩٣ - ١٢١٨م

الفصل الأول

الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين

١ - انقسام بلاد الشام وحرب الوراثة الأيوبية وأثرها على أوضاع بلاد الشام.

٢ - العادل أبو بكر بن أيوب وسيطرته على مقاليد الأمور في بلاد الشام.

٣ - الممالك الأيوبية في بلاد الشام :

أ) - مملكة حلب .

ب) - مملكة حماه .

جـ) - مملكة حمص .

د) - مملكة دمشق .

هـ) - بقية الامارات الأيوبية في بلاد الشام.

((انقسام بلاد الشام و حرب الوراثة))
((الأيوبية و نتائجهـــــا))

من الحقائق المسلم بها في تاريخ العصور الوسطى ،أن الدولة الأيـوبية ورثت العديد من النظم الادارية عن الدولة الزنكية ،التـي ورثتها بدورها عن الدولة السلجوقية الأم .

فمن المعروف أن الدولة السلجوقية امتدت في عهد السلطـان ملكشاه من بلاد ما وراء النهر شرقا الى البحر المتوسط غربا . وقـد جرت العادة في هذه الدولة على تقسيم المملكة بين أمراء البيـت الحاكم بعد وفاة السلطان . ففي اعقاب موت ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م ظهر العديد من البيوت السلجوقية الحاكمة ،مثل سلاجقـة الروم في آسيا الصغرى ،وسلاجقة الشام ،وسلاجقة العراق و فـارس وغيرها . ثم ظهرت الأتابكيات التي أخذت تحل محل السلاجقـة مثلما حدث في دمشق على يد الأتابك (١) طغتكيـن ،والموصـل

---

(١) أتابك لقب يتكون من لفظين ،أتا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير ،وكانت نظرية السلاجقة في الحكم ترتكز على أن يتولـى أفراد من الأسرة السلجوقية حكم الأقاليم ،وارتبط بكل فـرد من هؤلاء الأمراء السلاجقة قائد تركي يحمل لقب أتابـك . أى الامير الوالد ،الذى يعتبر مسؤولا عن تربية ابن الأميـر وتلقينه أصول الحكم والادارة . وقد درج امراء السلاجقـة على تزويج الأتابك من احدى مطلقاتهم ،أو قيام الاتابـك نفسه بالزواج من والدة الأمير الصغير بعد وفاة والده ،ويتزوج الامير بدوره من ابنةالأتابك ،و بالتالي اصبحت العلاقـة بينهما شبه أبوية وأضحى للأتابك الكثير من النفوذ والسلطان ،

===

وحلب على يد عماد الدين زنكي الذى قسمت مملكته بعد موته ١٥٤١هـ/ ١١٤٦م بين ولديه سيف الدين غازى في الموصل ونور الدين محمود في حلب[١] .

وبعد أن أقام صلاح الدين الأيوبي دولة مترامية الأطراف ، ضمت بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن والجزيرة الفراتية اعتمد في تأسيسها على اخوته واقاربه واسند اليهم المناصب الكبرى . عاد في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وعهد لابنائه بأهم أقاليم الدولة : فأعطى الأفضل دمشق ،وأخذ حلب من أخيه العادل وأعطاها لابنه الظاهر غازى ،ومنح ابنه العزيز عثمان مصر ،اما العادل فقد اقطعه الرها وحران وميافارقين اضافة الى الكرك[٢] . غير أن صلاح الدين لم يضع لمملكته من النظم ما يكفل لها القوة والوحدة بعد موته .

=== وأول من تلقب بهذا اللقب الوزير السلجوقي نظام الملك حين فوض اليه ملكشاه تدبير شؤون دولته . وفي العصر الزنكي اصبح لفظ اتابك يدل على الحاكم ،اما في العصرين الأيوبي والمملوكي فأصبح مدلوله يعني أيضا قائد العسكر. انظر : ابن خلكان جـ١ ص ٣٦٥ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص ١٨ ؛ حسن الباشا ،الالقاب الاسلامية ص ١٢٢ - ١٢٣,

Dozy , Supplement Dictionnaires,
Vol, 1 P.8 ; Gibb: The Damascus Chronicle of the Crusades , pp 24-25.

(١) الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص١٨٧-١٩٢ ؛ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ١٥ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٠٣ أ - ب ؛ابن الاثير: الكامل جـ١١ ص ٥٢٣ - ٥٢٥ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٣ ص ٨٩ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٥٠ .

وأصبح ذلك مرتبطا بالظروف ،وبالتالي استمر النظام الذى جرى الأخذ به منذ زمن السلاجقة وهو تقسيم المملكة بين امراء البيت الحاكم.

وهنا يتبادر الى الذهن سوءال هو : هل يمكن اتهام صلاح الدين بالتقصير في هذه النقطة الهامة ؟ او بعبارة أخرى ، هل يعتبر صلاح الدين مسوءولا عن الانقسام والتفكك الذى حدث بعد موته ،لانه لم يضع لدولته من النظم والضوابط ما يكفل لها استمرار الوحدة التي أجهد نفسه في بنائها ! ؟ . وقبل الاجابة على هذا التساوءل لا بد من الاشارة الى ان بعض الباحثين المحدثين حمّل صلاح الدين المسوءولية في تداعي دولته بعد موته ،فذكر أنه على الرغم من بُعد نظره ،الا أنه لم يترك لابنائه عهدا يبين لكل واحد منهم حقه وواجباته ازاء ذلك الكيان العظيم الذى بناه ووطد دعائمه بل ترك الأمر للاقدار تعبث به كيفما تشاء[1].

غير أنه لا يمكن التسليم بهذا الرأى بسهولة ،اذ نرى ان السلطان صلاح الدين برىء من تهمة الاهمال أو التقصير في ضوء المعطيات التالية :

<u>أولا</u> - أن صلاح الدين استنفد كل جهده وطاقته ،في سبيل توحيد كلمة المسلمين والدفاع عن حقوقهم ،ومواصلة النضال ضد الصليبيين . حتى أن الجهاد سيطر على كل جوارحه بحيث صار لا يفكر الا فيه وفي الاستعداد له. وأمضى السنوات الطوال في ساحات القتال وميادين البطولة بصورة لا تعرف الكلال أو الملل فقد ذكر ابن شداد أن حب صلاح الدين للجهاد" والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً بحيث ما كان له

---

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ج٢ ص ٧٥.

حديث الا فيه ولا نظر الا في آلاته ،ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولا ميل إلا الى من يذكره ، ويحث عليه ،ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده..."[1].

فلعل انشغاله التام بالجهاد ، صرفه عن وضع نظام واضح للوراثة لمواجهة الفراغ الذى سينجم عن وفاته. وهو بحق - أى الجهاد - أمر جدير بأن ينشغل به.

ثانيا - من المؤكد أنه بعد توقيع صلح الرملة مع الفرنج سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م اراد صلاح الدين استغلال فترة الهدنة مع الفرنج ، لاستكمال توحيد العالم الاسلامي بكامله ، مثلما كانت عليه الدولة الاسلامية في صدر الاسلام. فقد ذكر ابن الاثير انه قبيل مرضه الأخير استدعى ابنه الأفضل وأخاه العادل ،وأبدى لهما عزمه على ضم بلاد آسيا الصغرى الخاضعة لسلاجقة الروم ،لأنها المعبر البرى الذى اعتاد الصليبيون على استخدامه في حملاتهم على بلاد الشام ،ولأن الاستيلاء عليها سيقطع عليهم ممرا بريا هاما ،الأمر الذى يسهل على المسلمين مواجهتهم في ميدان واحد هو البحر، كما أبدى صلاح الدين رغبته في الاستيلاء على خلاط[2] ثم المسير منها الى أذربيجان جنوبي بحر قزوين ، والمضي منها الى بلاد العجم وضمها الى الدولة الاسلامية[3]. غير أن المرض داهمه فتوفى قبل تحقيق هدفه.

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٢١.

(٢) خلاط : مدينة كبيرة مشهورة ذات خيرات واسعة وموارد كبيرة وهي قصبة بلاد أرمينية : انظر القزويني : اثار البلاد واخبار العباد ص ٥٢٤.

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٩٥-٩٦.

ومما لا شك فيه أن صلاح الدين انتوى السعى الى تحقيق هدف سياسى هام وخطير ،وهو استكمال توحيد العالم الاسلامي مستغلا فترة الهدنة مع الصليبيين (ثلاث سنين وثلاثة أشهر) ليتسنى له بعد ذلك التفرغ لاقتلاع جذور الوجود الصليبي من بلاد الشام نهائيا . ثم الالتفات لتنظيم الدولة ، ووضع نظام ثابت لولاية العهد بعد ازالة الخطر الذى يهددها والمتمثل في الصليبيين . ومما يؤكد هذا الاتجاه لدى صلاح الدين أن عمره لم يكن -وقتذاك- يتجاوز اربعاً وخمسين سنة ،وهو سن صغير بكل المقاييس . ولا شك أن هذه السن لشخص مثل صلاح الدين تجعله يفكر في الكثير من الخطط، وتجيش نفسه بالآمال التي كان يسعى إلى تحقيقها .

ثالثا : هناك اشارة وردت في بعض المصادر التاريخية ، حدد فيها صلاح الدين الوقت الذى سيعمد فيه الى وضع نظام للوراثة . فقد ذكر بعض المؤرخين أنه قال يوما لجلسائه : " متى يسر الله فتح الساحل قسّمت البلاد وأوصيت ،وودعت ،وركبت هذا البحر الى جزائره ، أتبعهم حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت "(١) . وفي هذا ما يشير بوضوح الى أن صلاح الدين كان يعتزم القضاء نهائيا على الوجود الصليبي ،ثم النظر في أمور الوراثة بعد ذلك . غير أن القدر لم يمهله لتحقيق أمله .

كما أن من الاجحاف - بل والظلم- إعتبار صلاح الدين مسؤولا عن التداعي الذى حدث بعد موته . فالرجل استنفد كل طاقته وجهده في توحيد الجبهة الاسلامية ،ومواجهة أوربا بأكملها ،

----

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٣٣ .

ولا يكلف الله نفسا الا وسعها . وبالتالي فليس من المعقول ،ولا من العدل ان نطلب من شخص من الاشخاص او قائد من القواد أن يظل يقاتل الى ما لا نهاية ،وصلاح الدين تحمل الكبير والكثير من المسئوليات في الحروب الصليبية ،حتى استحق بجدارة لقب المجاهد العظيم دون منازع،ثم لقي ربه وراية النصر على الفرنج مرفوعة ، والدولة موحدة متماسكة . مما يجعل التفكك والانقسام الذى حدث بعد موته ليس من مسوءوليته ،بل تقع فيه المسوءولية كاملة على عاتق الجيل الذى خلفه .

وكيفما كان الأمر فعندما اشتد مرض صلاح الدين ،قام ابنه الأكبر نور الدين علي الملقب بالأفضل ،بتحليف امراء والده له بالسلطنة من بعده . واقتصر في اخذ العهد له من الامراء أصحاب الاقطاعات ببلاد الشام فقط (١) . ذلك أن الافضل لم يكن بمقدوره ضبط الأمور - بعد موت والده - بمعزل عن القيادات العسكرية التي لعبت دورا هاما في الجهاد ضد الصليبيين ،وأخلصت للسلطان صلاح الدين ، ونالت مقابل ذلك الكثير من الاقطاعات في بلاد الشام وغيرها . وسنرى الكثير من الأمثلة على دور القادة العسكريين في حوادث بلاد الشام خلال الفترة التالية لوفاة صلاح الدين ودورهم في تغيير موازين القوى اثناء النزاع بين الأيوبيين . وقد واجه الافضل بعض الصعوبات ، في تحليف امراء الشام ،فمنهم من اشترط أموراً ،كأن يُبقى بيده الحصن الذى تولاه أو البلد الذى في حوزته ،أو ينال اقطاعاً يُرضيه ، أو يقوم الافضل ببذل الوعود له . ومنهم من اشترط الا يُشهر الافضل

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ؛ محمد كرد علي : خطط الشام جـ٢ ص ٦٩ .

سلاحا في وجه اخوته ، و منهم من حلف دون قيد او شرط ،ولم يحضر احد من الامراء المصريين ولم يتعرض لهم وانما حلّف امراء الشام.(١)

ولقد كانت وفاة السلطان صلاح الدين في شهر صفر سنة ٥٨٩هـ/ مارس ١١٩٣ م ، فاحدث بموته فراغا ضخما ،لم يستطع أحد من أبنائه واخوته أن يملأه . وأصبح توزيع الميراث في المملكة كالتالي :

نال الابن الأكبر نور الدين علي - الملقب بالأفضل - دمشق والبلاد التابعة لها : وهي بيت المقدس وبصرى وصرخد والساحل وبعلبك ،وبانياس ،وهونين و تبنين وجميع الضياع الممتدة جنوبا الى الداروم (٢) عند حدود مصر.

أما الابن الثاني العزيز عثمان فكان من نصيبه مصر واستقر ملكه بها . بينما أخذ الابن الثالث الظاهر غازى حلب وما يتبعها من بلاد ،مثل حارم وتل باشر واعزاز وبرزية ،ودربساك وغيرها .

أما الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن ايوب فكان بيده الكرك والشوبك ، اضافة الى البلاد الشرقية الواقعة باقليم الجزيرة وهي الرها ، وحران والرقة وسميساط وقلعة جعبر وميافارقين وديار بكر . ونال المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه حمص وما يتصل بها مثل الرحبة وتدمر . وكانت حماة والمعرة وسلمية وقلعة نجم ومنبج من نصيب محمود بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٤٥ ؛الباز العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ١٠٢٦-١٠٢٧.

(٢) الداروم : قلعة عند غزة تقع على الطريق الذى يربط بلاد الشام بمصر + انظر :

Les trange, Palestine under the Moslems. p.437.

في الوقت الذى خضعت فيه بعلبك وأعمالها للملك الأوحد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب . اما الابن الرابع - وهو خضر بن صلاح الدين - فكانت بيده بصرى وصرخد يتولاها من قبل اخيه الافضل صاحب دمشق (١) .

كما كان بيد بعض القادة العسكريين الكثير من الحصون والضياع ،مثل سابق الدين عثمان بن الداية الذى كان يسيطر على شيزر وأبي قبيس ، وأخذ ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صهيون و حصن برزية . أما بدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق فكان بيده تل باشر من اعمال حلب بينما أخذ القائد عز الدين أسامة كوكب وعجلون في جنوب الشام ،وسيطر عز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن المقدم على بعرين وكفرطاب (٢) .

وبعد وفاة صلاح الدين ،قدم اخوه الملك العادل من الكرك الى دمشق وأقام سنة العزاء ، ثم رحل شرقا عندما علم أن اتابكة الموصل و سنجار والأراتقة في كيفا وآمد وخرتبرت ،أخذوا يتحفزون جميعا -بعد موت صلاح الدين- للانقضاض على ممتلكات الأيوبيين

----

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٠٩ أ - ب ؛الصفدى : تحفة ذوى الالباب ،ورقة ١٤٩ - ب - ١٥٠ أ ب ؛بدر الدين الحلبي : جهينة الاخبار ،ورقة ٣٧ ب - ٣٨ أ ؛ العليمي : تاريخ من ملك مصر وعكا والشام و حلب والسواحل ورقة ١١١ ب ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٠٦ أ ؛ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٩٧-٩٨ ؛الاصفهاني : الفتح القدسي ص ٦٢٨ - ٦٣٦ ؛ العصامي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص٩ .

(٢) ابن واصل :مفرج الكروب ج ٣ ص ٤ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر ج٢ ص ١٦٢ - ١٦٣ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ١٢٠ .

في الجزيرة وبلاد الشام. وقد تمكن العادل - بمساعدة النجدات التي ارسلها اليه العزيزعثمان صاحب مصر ، والافضل صاحب دمشق ، والظاهر صاحب حلب وغيرهم من ملوك الشام - من الوقوف في وجه الأتابكة والأراتقة ،ومنعهم من تحقيق أية مكاسب على حساب الأيوبيين (١) .

وعلى الرغم من أن الافضل نور الدين علي بن صلاح الدين ، كان هو المعهود اليه بالسلطنة - باعتباره الابن الاكبر - فإن اكثر العساكر - من الصلاحية والأسدية والأكراد - كانوا في مصر الى جوار أخيه العزيز "وهو أمكن من الملك الأفضل لعظم الديار المصرية وكثرة مغلاتها" (٢) .

وكان من الطبيعي ان ينقاد بقية ملوك بني أيوب للملك الأفضل ،باعتباره السلطان الشرعي الذى يجب الخضوع له ،ولاسيما وأن الموقف في بلاد الشام ،آنذاك ،كان يحتم الوحدة والتماسك ، لمواجهة الوجود الصليبي في عكا وصور وغيرهما من سواحل الشام. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، لافتقار الافضل الى الحنكة السياسية والمقدرة الادارية وقوة الشخصية ،بالاضافة الى شغفه باللهو والعبث (٣) .

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ،ورقة ٢٠٩ ب - ٢١٠ أ ؛ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٩٨-١٠١ ؛العماد الاصفهاني : الفتح القدسي ص٦٣٧ - ٦٤٠ ؛ابو شامة : الروضتين في اخبار الدولتين ج٢ ص٢٢٦- ٢٢٧ ؛ابن نصر الله : شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ص٢٠٢- ٢٠٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٤-٥ والصلاحية هم اتباع صلاح الدين الايوبي ،والأسدية اتباع عمه اسدالدين شيركوه .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ١٢٠ ؛ سعيد عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ص٦٣ .

فاسند منصب الوزارة في دولته الى ضياء الدين بن الاثير شقيق المؤرخ المشهور، وكان ضياء الدين في هذا الوقت شابا مغرورا لا يفقه في امور السياسة وادارة شئون الدولة شيئاً، فاقنع السلطان الافضل بابعاد كبار امراء والده وأخلص اصحابه ومستشاريه "وأخبره أن امراء أبيه يشتطون عليه ولا يرضون منه الا بالكثير، وأعمال دمشق لا تسعهم، وانما تسعهم أعمال مصره وأن الغرباء والمستجدين من مماليكه يرضون منه بالقليل ... فاغتر الملك الافضل بقوله، وكان ذلك من الخطأ البين والتدبير الفاحش السيء، فأبعد امراء ابيه والعظماء من أتباعه، حتى أبعد القاضي الفاضل مع جلالة قدره وغزارة فضله، والعماد الكاتب مع فصاحته وبراعته. واستخدم امراءً مجهولين ومماليك خاملين"(١).

وهكذا استجاب الافضل لمشورة وزيره ضياء الدين بن الاثير فابعد كبار امراء الدولة عن بلاطه، مما اضطرهم الى الهجرة الى مصر وعلى رأسهم فخر الدين جهاركس، وفارس الدين ميمون القصرى، وسنقر الكبير وغيرهم. وعندما وفدوا على أخيه العزيز، رحب بهم واحترمهم وزاد في اقطاعاتهم، واعتمد عليهم في ادارة شئون دولته، واتفقوا جميعا على مناصرة العزيز، وشرعوا في التخطيط لمساعدته على تولي شئون السلطنة، ونقلها من الافضل اليه وهنا بدأ النفور يستحكم بين الاخوين (٢).

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي، ورقة ٢١٠ ب.

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي، ورقة ٢١٠ ب - ٢١١ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١١ - ١٤ ؛ ابو الفدا : المختصر، جـ٣ ص ٨٧ - ٨٩ ؛ المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٣٥ ؛ يوسف الدبس : تاريخ سورية جـ٦ ص ١٣٤.

ومما زاد في تدهور العلاقات بينهما مشورة الوزير ضياء الدين ابن الاثير الذى اقترح على الأفضل اخلاء بيت المقدس وتسليمه لاخيه العزيز ،باعتبار أن المحافظة على بيت المقدس تحتاج الى مؤنة عظيمة ، ونفقات كثيرة ،واستعدادات دائمة ،نظرا لتطلع الفرنج المستمر للسيطرة عليه . واستجاب الافضل لمشورة وزيره فراسل أخاه العزيز طالبا منه تسلم بيت المقدس . وقد سُرَّ العزيز كثيرا بهذا العرض السخي ،وارسل الى النائب على القدس عشرة الاف دينار ، لينفقها في عساكر بيت المقدس ، وخطب له به ، ثم لم يلبث الأفضل أن تراجع عن إعطاء بيت المقدس لاخيه العزيز ،مما كان له أسوأ الاثر في نفسه واستحكام الوحشة بين الأخوين (١) .

أخذ كبار الامراء والقادة يحثون العزيز عثمان صاحب مصر على الخروج الى الشام ،وانتزاع السلطنة من الافضل واعادة الوحدة من جديد بين مصر والشام ،وبخاصة حينما سمعوا أن الصليبيين استولوا على ثغر جبيل (٢) من نائبه الذى باعه لهم ، وخرج الأفضل لاستعادته وفشل في ذلك . وكان هذا الثغر من جملة فتوح السلطان صلاح الدين ،فقال الامراء للعزيز : "إن انت توانيت تطرقت البلاد واستولى عليها الفرنج " عندئذ صمم على الحركة وشرع يستعد لقصد الشام (٣) .

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ،ورقة ٢١٠ب ؛العليمي : تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل ورقة ١١١ ب ؛ الاصفهاني : الفتح القدسي ص ٦٣٠ - ٦٣١ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٤-١٥ ؛ابو شامة : الروضتين جـ٢ ص ٢٢٨ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ١١٥ .

(٢) ثغر جبيل : هو احد ثغور بلاد الشام الساحلية و يقع شمال بيروت و يبعد عنها مسافة ١٨ ميلا انظر: Lestraing. Opcit p. 464.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦ ؛وانظر ايضا المقريزى : السلوك جـ١ ص ١١٦ .

وحينما علم الأفضل بعزم اخيه الخروج الى الشام بادر بارسال الرسل الى اخيه الظاهر غازى صاحب حلب ،وشيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص ،وناصر الدين محمود بن تقي الدين صاحب حماه ، طالبا منهم النجدة ،فتحالفوا جميعا معه للتصدى للعزيز. ولا شك أن انضمامهم الى الافضل ليس حبا فيه بقدر ما هو خوفا من العزيز . اذ ان استيلاءه على دمشق وضمها الى مصر يعني تعاظم قوته ، وازدياد نفوذه وبالتالي تهديد ممالكهم . كما ارسل الافضل الى عمه العادل طالبا قدومه لنجدته (١) .

خرج العزيز من مصر قاصدا بلاد الشام ،ووصل الى القصير - قرب غور الأردن - ،حيث كان يرابط الأفضل ، الذى ما ان علم بوصول عساكر مصر حتى عاد راجعا الى دمشق ،وسار العزيز في اثره وحاصر دمشق في جمادى الاولى ٥٩٠هـ/١١٩٤م . وشرع الافضل في الدفاع عن دمشق ريثما يصل عمه العادل وبقية ملوك بلاد الشام الذين تحالفوا معه (٢) .

----

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢١١ أ ؛ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٨٤ - ٣٨٥ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٨-٢٩ ؛ الحصيني : منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٥ .

(٢) التاريخ الصالحي ،ورقة ٢١١ أ ب ،الداوادارى : درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ،مخطوط ،حوادث سنة ٥٩٠ هـ ؛الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٠٦ أ ؛العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ١٨٦ ؛ابن الشحنة : تاريخ ابن الشحنة ورقة ٩٢ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٩-٣٠ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ١١٦-١١٧ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٢١-١٢٢ .

وعندما وصل الملك العادل وبقية ملوك الشام الى دمشق ،آثر العادل السعي في الصلح بين الافضل واخيه ،فراسل العزيز وطلب الاجتماع به ،فأذعن الاخير لطلب عمه . وتم عقد تسوية بين الجانبين تنازل بموجبها الافضل عن بيت المقدس وأعمال فلسطين لاخيه العزيز عثمان صاحب مصر ، على ان تبقى دمشق وطبرية واعمالها وغور الاردن للافضل ،وان يتنازل الافضل عن جبلة واللاذقية بالساحل الشامي لاخيه الظاهر غازى ملك حلب ،وان يحتفظ الملك العادل باملاكه واقطاعاته في مصر [١] . كما تضمن الصلح أيضا ان يكون الأمجد صاحب بعلبك تابعا للملك الافضل ومؤازرا له بينما يكون المنصور صاحب حماه مع الملك الظاهر غازى ملك حلب وتابعا له [٢] . وتم الصلح بين الجانبين ،وتزوج العزيز من ابنة عمه العادل ،وعاد الملوك الى بلادهم [٣] .

لم تلبث أحوال بلاد الشام أن ساءت من جديد ،ذلك أن الافضل اعاد سيرته الاولى في اللهو والعبث والمجاهرة بالمعاصى ، وجعل أمور الدولة جميعها معذوقة بوزيره ضياء الدين بن الاثير

---

(١) الاصفهاني : البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان ،ورقة ١٣٥ أ ؛العيني : عقد الجمان ج١٣ لوحة ١٨٦-١٨٧ ؛ تاريخ ابن خلدون ج٥ ص ٣٨٤- ٣٨٥ ؛ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص٩ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ،ورقة ٢١١ ب ؛ ابن ابي الدم الحموى : التاريخ المظفرى لوحة ٥٣٤- ٥٣٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٣١-٣٢ ؛المقريزى : السلوك ج١ ص١١٧ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ ص ٤٣٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٣٤-٣٧ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ١٢٢ .

الذى أساء السيرة ، وعمل جاهدا على تقويض دعائم الدولة ،مما دفع الامير عز الدين أسامة صاحب عجلون وكوكب - وهو من كبار الامراء الصلاحية - للهجرة الى مصر ،وقابل الملك العزيز ،وأخذ في تحريضه على الملك الأفضل ،وحثه على اخذ دمشق منه ،وخوّفه من ضياع الدولة التي بناها صلاح الدين ،اذا لم يتحرك بسرعة ،وأوضح له أن الوزير ابن الاثير الجزرى غدا هو المتحكم في أمور دولة الأفضل .
كما هاجر الى مصر ايضا ابراهيم ابن السلار ،وهو من كبار امراء الدولة وجمال الدين بن الحصين ، والقاضي محي الدين بن ابي عصرون وهما من كبار أعيان دمشق ،وأوضحوا جميعا للعزيز مدى التدهور الذى اصاب دولة الأفضل ،وسوء سياسة وزيره ابن الاثير ،وحثوه على الاسراع بالخروج الى الشام لتدارك الأمور قبل فوات الأوان (١).

وفي أوائل سنة ٥٩١هـ/ اواخر ١١٩٤م وصلت الى دمشق انباء تفيد بعزم العزيز عثمان صاحب مصر على قصد دمشق ،ومطالبته بالسلطنة ،فشاور الأفضل أصحابه ،فاشار عليه بعض العقلاء بمراسلة اخيه ،وملاطفته ،واقامة الخطبة والسكة له ،وكاد الافضل أن يوافق على هذا الرأى . ولكن ما أن انفرد به وزيره ضياء الدين بن الأثير ، حتى أشار عليه برفض الاذعان لاخيه العزيز ،وحثه على مقاومته ،وأشار عليه بالذهاب الى عمه العادل بالرقة ،وطلب مساعدته لأنه الاقدر على كبح جماح العزيز (٢).

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢١١ ب - ٢١٢ أ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٣٨-٤٠ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص١١٨-١١٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٢٢-١٢٣ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢١٢أ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٤١-٤٢ ؛المقريزى : السلوك جـ١ص١٢٣ ؛تاريخ ابن الفرات: جـ٤ قسم ٢ ص ١٠٣-١٠٤ = والرقة مدينة تقع على شط الفرات بمنطقة الجزيرة : انظر ياقوت : معجم البلدان .

خرج الافضل من دمشق في جمادى الاولى ٥٩١هـ/ابريل ١١٩٥م) والتقى بعمه العادل بصفين عند الرقة وتوسل اليه طالبا المسير معه الى دمشق لحمايتها من العزيز. فاستجاب له عمه وسار قاصدا دمشق.[1] اما الافضل فعرج اثناء عودته على حلب لتأكيد التحالف بينه وبين أخيه الظاهر، الذى اكد له التزامه بمناصرته. غير ان ذلك التحالف سرعان ما انهار بسبب عصيان كل من: المنصور صاحب حماه، وابن المقدم صاحب بعرين، ودلدرم صاحب تل باشر، على الملك الظاهر غازى، واعلان تبعيتهم للملك العادل. وعندئذ تخلى الظاهر عن مساعدة الافضل، وسارع بمراسلة أخيه العزيز طالبا منه الاسراع بالخروج الى الشام ووعده بمد يد المساعدة على انتزاع دمشق من الأفضل[2].

شرع العزيز عثمان في رمضان ٥٩١هـ/١١٩٥م يتجهز للمسير فلما انقضى عيد الفطر سار قاصدا بلاد الشام للاستيلاء عليها من أخيه الافضل. وكان جيش العزيز يتكون من الأسدية والصلاحية، وهما أشبه ما تكونان بحزبين عسكريين متنافسين داخل الدولة الأيوبية، وكانت الأسدية تكره الصلاحية أشد الكراهية، ولا سيما أن الملك العزيز عثمان كان يقدّم زعماء الصلاحية ويعتمد عليهم اكثر من زعماء الأسدية. وكان الملك العادل يعلم تماماً طبيعة العلاقات بين

----

(١) التاريخ الصالحي ورقة ٢١٢ أ ب؛ تاريخ ابن الجزرى: مخطوط لوحة ٣٠٧؛ ابو شامة: الروضتين جـ٢ ص ٢٢٩؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٢٣.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢١٣ أ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٤٤-٤٦؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٣٢-١٣٣؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٠٩-١١١.

الطائفتين ،فأرسل سرا الى زعماء الأسدية يحذرهم من الملك العزيز ويدعوهم الى تركه والانضمام الى الافضل . وفي الوقت نفسه أرسل الى العزيز يحذره من الأسدية ويشير عليه بابعادهم . وقد نجح العادل في زرع بذور الشك والريبة بين العزيز والأسدية الذين تشاوروا فيما بينهم ،واتفقوا على مفارقة العزيز ،والانضمام الى العادل والافضل . كما تمكنوا من استمالة زعيم الأكراد أبا الهيجاء السمين ، وانسحبوا ليلا من معسكر العزيز الذى أدرك حينئذ استحالة الاستيلاء على دمشق بمن بقي معه من الصلاحية ، وقرر العودة الى مصر (١) .

وصل زعماء الأسدية الى دمشق ،وحثوا الملك العادل والافضل على مطاردة العزيز الى مصر ، وتعهدوا بالمسير فورا الى مصر لمنع العزيز من دخول القاهرة . ويبدو أن العادل اتفق مع الافضل على الاستيلاء على مصر لتصبح ملكا للأفضل ،ويتنازل الاخير بدوره عن دمشق لعمه مع احتفاظ العادل باقطاعات واسعة في مصر (٢) . واثناء سير العادل والافضل انتزعا بيت المقدس من نائب العزيز ومنحاه اقطاعا لزعيم الاكراد ابي الهيجاء السمين (٣) .

----

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ،ورقة ٢١٢ب - ٢١٣أ ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٣٧ أ ب ؛ العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ١٩٩ ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص١١٨-١١٩ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص٤٦-٤٨ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص١١٢-١١٤ ؛تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٨٥ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢١٣ب ؛ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص١١٩ ؛تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٨٥ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص٢٥٠ ،الروضتين جـ٢ ص٢٣٠ ؛ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١١ .

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص٥٢ ؛ابو شامة : الروضتين : جـ٢ص ٢٣٠ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص١١٩ .

تمكن العزيز من دخول القاهرة قبيل وصول الاسدية وأخذ في تحصين مصر ،وباعداد العدة للدفاع عن مملكته ،وحينما وصل العادل والافضل الى بلبيس ،توقفا عن التقدم بسبب زيادة النيل ،وتعذر حصولهما على المؤن والاعلاف . وقد ندمت الاسدية على موقفها ، اضافة الى خوف العادل من عدم وفاء الافضل بما وعد به . فأرسل العادل الى العزيز يطلب اليه ان يبعث بالقاضي الفاضل ،ليسعى في حسم الخلاف بين الجانبين . فاستجاب القاضي الفاضل لالحاح العزيز ،وخرج وقابل العادل والافضل ،وسعى في عقد الصلح بين الجانبين ،وتم بموجبه السماح للأسدية بالعودة الى خدمة العزيز مع احتفاظهم باقطاعاتهم في مصر ،وأن تقام الخطبة للعزيز بدمشق ، وأن يحتفظ كل ملك بما تحت يده ويعود الى بلاده ،وأ قام العادل بمصر مع العزيز لتنظيم شئون دولته (١) . ولقد كان هذا الصلح هشاً بل هو أشبه ب " هدنة على قذا ،وصلح على دخن " على حد قول ابن كثير (٢) .

رجع الافضل الى دمشق في المحرم ٥٩٢ هـ/ ديسمبر ١١٩٥م وكان يجب ان يستفيد من اخطائه السابقة ،الا أنه لم يفعل سوى لزومه

---

(١) التاريخ الصالحي : ورقة ٢١٤ أ ب ؛العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ١٩٩-٢٠٠ ؛تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣٠٧ ، الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٣٨ أ ؛ ابن قاضي شهبة: الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ،مخطوط ،حوادث سنة ٥٩١ هـ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ، ورقة ١٠٦ ب ؛اليافعي : مرآة الجنان جـ٣ ص ٤٧٣ ؛ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ١٦٦-١٦٧ ؛الذهبي : العبر في خبر من غبر جـ٤ ص٢٧٦ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١١ .

الزهد والقناعة والانقطاع للعبادة [١] . أما امور الدولة جميعها فجعلها بيد وزيره ابن الجزرى ،الذى اساء السيرة وازداد من "الأفعال القبيحة وأذى الأكابر من الدولة" [٢] . وتمادى في حماقته وغروره دون أدنى معرفة بأمور الدولة وقواعد السياسة وضجت الرعية بسوء ادارته "وكثر شاكوه وقل شاكروه ،واختلت الامور بذلك غاية الاختلال" [٣] . وعندما وصلت الامور الى درجة من السوء لا تُحتمل ، كتب أعيان دمشق الى العادل يشكون اليه الوزير ابن الاثير الجزرى فارسل العادل الى الافضل يامره بصرف ابن الاثير ، فلم يلق هذا الطلب أذنا صاغية [٤] ، واستقر رأى الملك العادل وابن اخيه العزيز على المسير الى الشام ،لضبط امورها واصلاح ما أفسده وزيرها ابن الاثير . وتبعا لمشورة ابن الاثير رفض الافضل الاستجابة لنصحائه الذين أشاروا عليه بمراسلة اخيه وعمه واستعطافهما . وقرر المقاومة والاستعداد للمواجهة معهما . فلما وصل العادل والعزيز بجيوشهما الى دمشق حاصراها في رجب ٥٩٢هـ/يونيه ١١٩٦م . فعمد بعض أعيان دمشق الى مراسلة العادل والعزيز وعطوا على مساعدتهما على اقتحام دمشق وذلك في السادس والعشرين من رجب ٥٩٢هـ/يونيه ١١٩٦م . وعلى الرغم من المقاومة التي ابداها الظافر خضر شقيق الأفضل الا أنه هُزم واستولت جيوش العادل والعزيز على دمشق .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٥٥ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٤٤١-٤٤٣ .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢١٤ ب .

(٤) سبط ابن الجوزى : المصدر السابق جـ٨ ص ٤٤١ .

أما الوزير ابن الاثير فقد هرب الى الموصل حاملا معه أموالا طائلة ، جمعها من دولة الافضل ،خلال عمله بالوزارة على مدى ثلاث سنوات، كما جنى الافضل نتيجة تصرفاته فاجبره اخوه العزيز على الخروج من دمشق الى قلعة صرخد - من أعمال حوران الواقعة جنوب دمشق - حيث أقام بها مع أهله وحاشيته ،بعدما فقد دولته وسلطنته.(١)

وحينما استقر العزيز بدمشق ،كشف المظالم وأبطل المكوس حتى اعتقد سكان دمشق انه سيقيم بها . ولكنه قرر العودة الى مصر مكتفياً باقامة الخطبة والسكة بدمشق وما يتبعها ،وسلمها لعمه "فملكها العادل وأحسن القيام فيها وكان أحق بها وأهلها لما كان مختصا به من حسن السياسة وصواب التدبير"(٢) . اما العزيز فلم يلبث أن رحل من دمشق ،عائدا الى بلاده ،وقد مر ببيت المقدس واسترده من زعيم الاكراد أبي الهيجاء السمين ،وسلمه الى أحد اتباعه وعاد الى مصر(٣) . أما الظاهر غازى صاحب حلب فقد راسل أخاه العزيز عثمان ،وعقد معه الصلح ،واقام له الخطبة والسكة بمملكة حلب وأعمالها وكان ذلك في سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م(٤) .

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ،ورقة ٢١٥ أ ب ؛ العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٠٤-٢٠٧ ؛ابو الفدا : التبر المسبوك في تواريخ الملوك حوادث سنة ٥٩٢ هـ مخطوط؛ الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٠٣ ؛القلقشندى : مآثر الاناقة جـ٢ ص ٦٢-٦٣ ؛العليمي : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جـ١ ص ٣٩٨ ؛الحريرى : الاعلام والتبيين ص ٨٨ ؛الحصيني : منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٦ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢١٦أ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٤٤٣ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٧٠ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٤٠ .

وهكذا ترتب على حرب الوراثة نتيجة هامة هي : انه لم يكن بمقدور أحد من ابناء صلاح الدين أن يفرض نفوذه على جميع أجزاء الدولة وتوحيدها من جديد ،لافتقارهم جميعا الى صفات القيادة العسكرية الفذة والحنكة السياسية النافذة التي اتصف بها والدهم ،الأمر الذى مهد الطريق لعمهم العادل لكي يبسط نفوذه على الدولة الايوبية . وهذا ما ستوضحه النقطة التالية.

((العادل أبو بكر وسيطرته على مقاليد الأمور))
((في بلاد الشام ٥٩٥ - ٦١٥ هـ))

لم تكن المكانة التي بلغها العادل حتى سنة ٥٩٢ هـ/ ١١٩٥ م هي كل ما يطمح اليه . لأنها لا تتناسب مطلقا مع الدور الذى لعبه خلال حياة أخيه صلاح الدين ، الذى كان يكرمه ويحترمه ، ويعول على مشورته ورأيه ،لما عرف عنه من خبرة عسكرية وحنكة سياسية ،وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات مع الفرنج والمفاوضات معهم. ولعل أبلغ دليل على عبقرية العادل الحربية ودهائه السياسى ما شهد به أخوه صلاح الدين ، عندماقدّم اليه أحد المؤلفين كتاباً في مكائد الحروب وقدمه للسلطان أثناء حصار عكا ، فقال صلاح الدين " لا نحتاج لهذا مع وجود الملك العادل"(١) ويظهر ان مما زاد في طموحات العادل ما دب من نزاع بين اولاد صلاح الدين بعد وفاته ،وشعوره بالحاجة الى اعادة الوحدة بين مصر والشام من جديد ،وهو الأمر الذى يكفل الوقوف في وجه الصليبيين ويكبح جماح اطماعهم ازاء المسلمين .

شرع العادل يخطط لبسط نفوذه على الدولة الايوبية . وكانت الخطوة الأولى سعيه الى الاستيلاء على دمشق . فيؤكد ابن واصل ،أن الافضل عندما استعان بعمه العادل لمواجهة هجوم اخيه العزيز على دمشق سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م ،رأى العادل من سوء سيرة الأفضل وضعفه وعدم درايته بشئون الحكم ما أطمعه في دمشق ،ومن أجل ذلك عمد الى تفريق الأسدية عن العزيز ،ثم أقنع الأفضل بمطاردة العزيز الى مصر ، وهو الذى عمل على كبح جماح الافضل ومنعه من الاستيلاء

---

(١) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٠٦ .

على مصر ، ليظهر امام العزيز كالمنقذ له من سطوة أخيه ،واخيرا أقنع العزيز بالزحف على دمشق وانتزاعها من الافضل وتسليمها اليه [١] .وحينما اصبحت دمشق واواسط بلاد الشام خاضعة له ، اقام الخطبة والسكة للملك العزيز باعتباره نائبا عنه ،وجعل ابنه المعظم عيسى حاكما على الكرك وجنوب الشام [٢] .

وقد شُغِلَ العادل خلال عامي ٥٩٣ - ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ - ١١٩٨م بالحروب مع الصليبيين في بلاد الشام ،ثم توجه بعد توقيع الهدنة معهم [٣] الى البلاد الشرقية بقصد الاستيلاء على ماردين [٤] . وقد حاول العادل تدبير مؤامرة للفتك بالعزيز صاحب مصر وذلك سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٨م اثناء مرابطة الاخير بفلسطين لقتال الصليبيين ،ولكن العزيز اكتشف المؤامرة وانسحب عائداً الى مصر [٥] .

غير ان توالي الحوادث خدم في نهاية المطاف الملك العادل ، ففي المحرم سنة ٥٩٥ هـ / نوفمبر ١١٩٨م - واثنا حصاره لماردين - توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين سلطان مصر وهو في السابعة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٥٦ - ٥٧.

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٤٤٣ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٣) انظر مايلي الفصل الثالث ص ٤٧ - ١٣١

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٨٠ ؛وماردين : قلعة حصينة بالجزيرة قرب نصيبين ودارا وقدامها ربض عظيم به أسواق وخانات وربط انظر القزويني : اثار البلاد واخبار العباد ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٥) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٢٩ .

والعشرين من عمره ، وفُجِعَ اهل مصر بموته لما عرف عنه من عدل وسماحة وكرم (١) . وعقب موته اتفق امراء الدولة في مصر على تولية ابنه محمد ولقبوه بالمنصور ،ثم اجتمع زعيم الصلاحية فخر الدين جهاركس بزعيم الاسدية سيف الدين يازكج وقررا اقامة اتابك يقوم برعاية شئون الدولة ورعاية الملك الصغير حتى يكبر - وكان عمره عشر سنوات - وبعد مداولات بين الزعيمين اتفقا على استدعاء الافضل بن صلاح الدين من صرخد ليقوم بوظيفة الاتابكية، ثم اجتمعا بالقاضي الفاضل الذى زكى هذا الاختيار (٢).

وقدم الافضل من صرخد الى مصر وتولى الوظيفة الجديدة، وسيطر على مقاليد الامور في مصر ،الا انه لم يحافظ على سياسة التوازن بين الاسدية والصلاحية ،فمال الى الاسدية وبدأ في الاعتماد عليهم ، الامر الذى اغضب زعماء الصلاحية ،فقرروا الهجرة الى الشام ،واستولوا على بيت المقدس بزعامة فخر الدين جهاركس ،وراسلوا العادل وطالبوه بالقدوم ووعدوه بالمساعدة على انتزاع مصر من الافضل (٣).

وكيفما كان الامر ، فقد كان بامكان الافضل الاستمرار في اتابكيته بمصر واقامة علاقة جيدة مع عمه العادل . غير أنه لم يفعل ذلك ،فأغضب

---

(١) الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٢٢ ورقة ٦٦ أ ب ؛ ابن ابي الدم الحموى: التاريخ المظفرى لوحة ٥٣٥ ؛ الديرى : الجدول الصفي ورقة ٢١٧ أ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٨٢-٨٣ ،ابن الساعي : الجامع المختصر جـ٩ ص ٦ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٧ .

(٢) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٤٣ أ ب ؛ تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣١٠-٣١١ ؛ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام حوادث سنة ٥٩٥ هـ ؛ تاريخ ابن الشحنة ورقة ٩٢ ب ،ابن الاثير: الكامل جـ١٢ ص ١٤٠-١٤١ ؛مفرج الكروب ، جـ٣ ص ٨٩-٩٠ ؛ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ١٩٧ ؛تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ١٨٨-١٨٩ .

(٣) ابن ابي الدم ،التاريخ المظفرى لوحة ٥٣٥-٥٣٦ ؛ابن الاثير : الكامل

===

الصلاحية ،وارتكب حماقة اخرى عندما استجاب لدعوة اخيه الظاهر غازى صاحب حلب ،وابن عمه اسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص ،اللذين اشارا عليه بانتهاز فرصة غياب العادل عن دمشق والانقضاض عليها واستعادتها ،ووعداه بمساعدته على ذلك الامر ،ويبدو أن زعماء الاسدية حرضوه ايضا على الاستجابة لهذه الدعوة ،فقرر المسير بعساكر مصر الى دمشق (١) .

سار الافضل من مصر في رجب ٥٩٥هـ/١١٩٩م قاصدا دمشق ، بعد ان أناب عنه بمصر سيف الدين يازكج زعيم الاسدية . وحينما بلغ العادل عزم الافضل على مهاجمة دمشق - وكان يحاصر ماردين منذ عشرة أشهر - أقام ابنه محمداً الكامل على حصار ماردين وسار على رأس كتيبة صغيرة من الفرسان ،وتمكن من دخول دمشق قبيل قدوم الافضل الذى وصل اليها في ١٣ شعبان ٥٩٥هـ/ يونيه ١١٩٩م ونازل دمشق وتمكن بعض اصحابه من التسلل الى داخل المدينة غير ان العادل تمكن من صدهم وإخراجهم من البلد . ثم استطاع بدهائه وحنكته تثبيط همم بعض قادة الأفضل ، الذين أشاروا عليه بالتوقف عن الهجوم ، ريثما يصل اليه الظاهر غازى صاحب حلب بعساكره (٢) .

=== جـ١٢ ص ١٤٢ ؛ مفرج الكروب جـ٣ ص ٩١-٩٣ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٤٧-١٤٨ ؛ابن ايبك الداوادارى ، الدر المطلوب ص ١٣٨ .

(١) ابن الاثير ،الكامل جـ٣ ص ٩٤ ؛ المقريزى ،السلوك ص ١٤٨ ؛مرآة الزمان جـ٨ ص ٤٦٢ ؛ مفرج الكروب جـ٣ ص ٩٤ ؛ابن كثير ،البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٨ - ١٩ ؛ الحصيني ، منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٦ .

(٢) ابن ابي الدم ،التاريخ المظفرى لوحة ٥٣٦-٥٣٧ ؛العيني ،عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٢٧ - ٢٢٨ ؛ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام حوادث ٥٩٥ هـ ،تاريخ ابن الجزرى لوحة ١١٣ ؛ابن الاثير: الكامل جـ١٢ ص ١٤٣- ١٤٤ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٩٥-٩٧ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٤٨-١٤٩ .

وأخيرا وصل الظاهر في اخر شعبان ٥٩٥هـ/ يونيه ١١٩٩م وفرض الاخوان الحصار الشديد على دمشق ،حتى عدمت بها الاقوات واشتد الغلاء،واضطر العادل الى الاقتراض من تجار دمشق ،ودام الحصار زهاء ستة أشهر حتى أوشك العادل على تسليم دمشق (١) . وكان لهذه الحوادث أسوأ الأثر في نفوس بعض المؤرخين المسلمين حتى أن السيوطي علق عليها متهكماً بقوله : " وبدّل المسلمون بحرب الفرنج حرب بعضهم بعضا " (٢) .

ولم ينته الحصار-رغم شدته - بسقوط دمشق بسبب العوامل التالية:

أولا : قيام الصلاحية في بيت المقدس بارسال النجدات الى الملك العادل داخل دمشق ،اضافة إلى قَطْعِهم لخطوط التموين المرسلة الى الافضل والقادمة من مصر ، مما ادى الى تضرر عسكر الافضل " غاية الضرر" (٣) .

ثانيا : قدوم محمد الكامل بن العادل من الشرق نجدة لوالده اذ تمكن من تجنيد جيش كبير من التركمان ، كما مر على قلعة جعبر وحمل منها أموالا ضخمة حيث كان والده يحتفظ فيها بمعظم أمواله ،وقد أدى وصول الكامل إلى دمشق، الى ازدياد قوة والده ،وتحطيم معنويات الظاهر والأفضل وتقاعسهما (٤) .

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠٠-١٠١ ؛ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٩-٢١ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٤٩ .

(٢) السيوطي : اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى ،ورقة ٢٣ أ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠٠ .

(٤) العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٤١-٢٤٢ ؛ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٤٤-١٤٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠٤-١٠٥ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٤٩ - ١٥٠ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٧ ص ١٤٠ .

ثالثا : لجوء العادل الى مناورة سياسية أوقعت الشك والريبة بين الاخوين ، الظاهر والافضل وذلك عندما ارسل الى الظاهر سرا يعرض عليه تسليم دمشق له على أن يكون الظاهر هو السلطان بدلا من الافضل ،مما اطمع الظاهر فطلب من اخيه التنازل عن دمشق ، فرفض الافضل محتجا بأن دمشق هي اقطاعه من قبل والده (١) .

رابعا : حلول فصل الشتاء وهطول الثلوج والامطار وشدة البرد ، بحيث اصبح من المتعذر على الجيوش المحاصرة لدمشق الاستمرار في حصارها فقرر الافضل العودة الى مصر بينما عاد الظاهرغازى وصاحب حمص الى بلادهما (٢) .

والحق ، لقد كان العادل واثقا كل الثقة من أن الصراع سيحسم لصالحه . اذ يشير عدد من المؤرخين الى ان العادل -اثناء حصره بدمشق ،وخلال فترات الشدة والضيق من الحصار -كان يهيء المؤن ويملأ القرب بالماء مُفصحا عن عزمه الاكيد على مطاردة الافضل الى مصر ، مما يشير الى انه قد استمال بعض قادة الافضل (٣) . أما الافضل فعندما وصل الى مصر تفرقت عساكره الى اقطاعاتها للعناية بها ولاخراج دوابهم الى الربيع ،ودلف الافضل الى القاهرة في جمع قليل

----

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٤٦٣ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٢٠٥-٢٠٧ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٤٨-١٤٩ .

(٢) ابن دقماق : الجوهرالثمين في سير الملوك والسلاطين ورقة ٤٣ أ ؛ السيوطي ،اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى ورقة ١٢٣ أ ؛ مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠٧ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٧١-١٧٢ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢١ .

(٣) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١١ ؛ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٤٦ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠٨ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٧٢-١٧٣ .

من جنوده (١) .

وكان العادل قد سار الى مصر في إثر الافضل والتقى به عند بلبيس وأنزل به الهزيمة ،ففر الى القاهرة . وأخيرا راسل عمه العادل وطلب اعطاءه دمشق عوضا عن مصر فرفض فعاد وطلب حران والرها ، فامتنع العادل من اجابة طلبه هذا ،وذلك بسبب الأهمية الكبيرة لمدينتي الرها وحران ،اللتين تقعان على ملتقى طرق المواصلات بمنطقة الجزيرة ومن يسيطر عليهما ،يستطيع بسط نفوذه على الجزيرة والشام وآسيا الصغرى . وأخيرا طلب منه حاني وجبل جور وميافارقين وسميساط بمنطقة الجزيرة ،فاجابه الى طلبه ،ودخل العادل الى القاهرة في ربيع الاخر ٥٩٦هـ/ فبراير ١٢٠٠م وتقلد امور مصر على انه اتابك للمنصور بن العزيز (٢) .

لم يلبث العادل في منصب الاتابكية غير فترة قصيرة حتى أفصح عن طموحاته الحقيقية . فاجتمع بالفقهاء واستفتاهم في خلع ابن العزيز فأجازوا له ذلك وأيد الاسدية قرار خلع المنصور تقربا الى العادل بعد موقفهم السابق المعادى له والمناصر للافضل . وبعد ان حصل العادل على المبرر الشرعي ممثلا في فتوى الفقهاء ،وكذلك التأييد السياسي في موقف الاسدية ،اقدم على خلع المنصور بن العزيز في شوال سنة ٥٩٦هـ

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص١٠٧-١٠٨ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٧١-١٧٢ .

(٢) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٤٦ ب - ١٤٧ أ ؛ العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٤٣-٢٤٤ ؛الجنابي : البحر الزاخر جـ٢ ورقة ١٧ ب ؛الناشرى : روضة الناظر ورقة ٨٢ ب - ٨٣ أ ؛ابن الساعي : الجامع المختصر جـ٩ ص ٢٢ ؛ مفرج الكروب جـ٣ ص١٠٩-١١٠ ؛ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ٩٨ .

(أغسطس ١٢٠٠م) وأعلن نفسه سلطانا على الدولة الايوبية واقام الخطبة لنفسه وضرب السكة باسمه[(١)].

استدعى العادل ابنه الكامل محمد الى مصر وجعله نائبا عنه ووليا لعهده ،واخرج المنصور واخوته من مصر. ثم التقى العادل رسل ابن اخيه الظاهر غازى صاحب حلب ،والمنصور تقي الدين محمود صاحب حماه ، يعتذران عن مساعدتهما للافضل ،ويعلنان دخولهما في طاعته ،واقامة الخطبة والسكة ببلادهما له. فقبل العادل عذرهما ،وألزم الظاهر بتقديم خمسمائة فارس من عسكر حلب يكونون جاهزين عند طلبه لاداء الخدمة العسكرية[(٢)]. ويعلق المؤرخ أبو شامة على خلع العادل للمنصور قائلا " واستبد بملك مصر آمناً من الشركة "[(٣)].

وعلى الرغم من انشغال العادل بمواجهة الأزمة الاقتصادية الخانقة ، التي وقعت فيها مصر حينذاك بسبب انخفاض النيل وانتشار المجاعة[(٤)] ،

----

(١) الجنابي : البحر الزاخر جـ٢ ورقة ١٧ ب ؛ تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣١٢ ؛ الديرى : الجدول الصفي من البحر الوفي ورقة ٢١٧ ب - ٢١٨ أ ؛ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٠٠ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٧٧ ؛القرماني : اخبار الدول واثار الاول ص ١٩٥ ؛ ابن الساعي : الجامع المختصر جـ٩ ص ٢٢-٢٣.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١١٢-١١٤ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٧٨-١٨٠ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٥٢-١٥٣ ؛ العليمي : الأنس الجليل جـ١ ص ٣٩٩-٤٠٠ ؛الغزى : نهر الذهب في تاريخ حلب جـ٣ ص ١٠٨.

(٣) ابو شامة : الروضتين جـ٢ ص ٢٣٧.

(٤) عن هذه الازمة الاقتصادية انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٧٣-١٧٤ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جـ١ ص ٢٥٤-٢٥٥.

فإن المنازعات السياسية بين الأيوبيين سرعان ما أطلت برأسها من جديد . ذلك ان الافضل - وحسب اتفاقه مع عمه - بعث بنوابه ليتسلموا البلاد التي منحه اياها عمه عوضا عن مصر وهي ميافارقين وحاني وجبل جور وسميساط، لكن الملك الأوحد بن العادل رفض تسليم ميافارقين وسلم ما عداها ، وشكى الافضل لعمه موقف ابنه فتظاهر العادل بأن ابنه عصاه ، لكن الافضل فهم أن موقف الاوحد كان بايعاز من والده ، فاشتد سخطه وقرر العمل ضد عمه من جديد (١) .

وفضلا عن ذلك فان زعماء الصلاحية حينما قدّموا المساعدة للعادل في صراعه مع الافضل وانتزاع مصر منه ،فانما فعلوا ذلك بشرط ان يُبْقِي العادل على الملك المنصور بن العزيز ،وأن يقوم بوظيفة الاتابكية حتى يكبر الملك الصغير ،ويُسلم الامر اليه (٢) . ولما خلع العادل المنصور غضب زعماء الصلاحية لهذا الاجراء ،وشرعوا في مشاورة بعضهم البعض ،وتراسلوا مع الافضل والظاهر ،وقرروا جميعا شن الحرب على الملك العادل . واتفق الافضل مع الظاهر على انه اذا تم الاستيلاء على دمشق يتسلمها الافضل ،ثم يمضيان الى مصر. واذا استوليا عليها تكون للافضل بينما تصبح بلاد الشام بما فيها دمشق للظاهر. وحاول الظاهر استمالة المنصور صاحب حماه الى هذا الحلف لكنه رفض ،وأعلن انحيازه للسلطان العادل ،فقام بمحاصرته في حماه واجبره على دفع اتاوة حربية مقدارها ثلاثون الف دينار صورية (٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١١٦ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٩٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١١٠ .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢١٩ أ ب ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٤٨ ب ؛تاريخ ابن الجزري لوحة ٣١٣ ؛ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام حوادث ٥٩٧ هـ

===

ومن ناحية اخرى ،فان الظاهرغا زى اتفق مع ارسلان شاه صاحب الموصل ،وصاحب ماردين على ان يكونوا جميعا يدا واحدة اذا ما هاجم العادل بلادهم . وحينما تحرك الظاهر والافضل صوب دمشق أرسلا الى نور الدين صاحب الموصل يطلبان اليه مهاجمة بلاد العادل الجزرية فاجابهما الى ذلك (١).

تقدم كل من الظاهر والافضل حيث ضربا الحصار حول دمشق في ذى القعدة ٥٩٧ هـ/ سبتمبر ١٢٠١م فسار العادل مسرعا الى بلاد الشام ،وأقام بنابلس لتقديم المساعدات لابنه المعظم بدمشق ، وقداستمر حصار دمشق زهاء شهرين (٢) . ثم تمكن السلطان العادل من تحقيق النصر الحاسم على ابني اخيه ،اذ قام ابنه الفائز - وكان نائبا عن والده بحران - فاغار على مملكة حلب من الشمال الشرقي ،وهاجم منبج واعزاز ، وأوقع الرعب والفزع في نفوس سكان القرى التابعة لحلب ، فهرب الكثير من الفلاحين ولجأوا الى مدينة حلب ، مما كان له أبلغ الأثر في ازعاج الظاهر واشغال خاطره عن حصار دمشق (٣) . كما تمكن العادل

=== ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٤-١٥ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٠٠-٢٠٢ .

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٦٧-١٦٨ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٧ .

(٢) العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٥٤-٢٥٥ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٠٨ ب ؛ابن ايبك : درر التيجان حوادث ٥٩٧ هـ ؛تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٩١- ٣٩٢ ؛ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٠٠ ؛ الطباخ الحلبي : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جـ٢ ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٥٠-١٥١ .

من جديد من زرع بذور الخلاف بين الافضل وأخيه الظاهر ،واستمال بعض زعماء الصلاحية اليه مثل فخر الدين جهاركس ،وزين الدين قراجا وغيرهما ، فسارعوا بالانضمام اليه ،وبالتالي عاد الظاهر ادراجه الى حلب ،وتوجه الافضل الى حمص ،ورفع الحصار عن دمشق في اول محرم ٥٩٨هـ/ اول اكتوبر ١٢٠١م وتقدم العادل الى دمشق واقام بها حيث وفد عليه الافضل ،ودخل في خدمته ، واجتمع به ،ثم غادر دمشق الى البلاد التي منحه اياها عمه العادل (١) .

سار العادل من دمشق شمالا بقصد تهديد الظاهر غازى صاحب حلب ، وإشعاره بقوته ، فوصل الى حماة ،ونزل على تل صفرون . فاستقبله المنصور صاحب حماه ،وقدم له فروض الطاعة والولاء ، وقام بجميع وظائفه وكلفه . وعندما بلغ الظاهر وصول عمه وعزمه على محاصرته بحلب فزع واستعد للحصار ،وراسل عمه ولاطفه وأهدى اليه ،وأخيرا تم توقيع الصلح بين الجانبين سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م وكان من بنوده :

١ - ان يكون للملك العادل دمشق ،والسواحل وأعمال بيت المقدس ، والكرك ومصر اضافة الى ما بيده ويد أولاده ،من بلاد الشرق الواقعة شرق الفرات .

٢ - ان يظل الظاهر محتفظا بحلب وما يتصل بها .

٣ - و يعطى للمنصور محمود بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب حماة والمعرة وسلمية و بعرين .

٤ - ويأخذ الملك اسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه حمص والرحبة وتدمر .

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ،ورقة ٢١٩ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٣٢-١٣٣ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم٢ ص٢٢١ .

٥ - أن يتنازل الظاهر لاخيه الافضل عن قلعة نجم .

وبعد توقيع الصلح بين الجانبين وانتظام ممالك الشام في طاعة السلطان العادل ، ذهب الى حمص ومنها الى دمشق ، وهكذا أتم توحيد الدولة الأيوبية من جديد ، واصبحت دولته تمتد من بلاد الجزيرة شرقا مرورا بالشام ومصر ، وخُطب له على منابرها ، وضُربت السكة فيهما باسمه (١) .

كذلك سعى العادل جاهدا الى توطيد نفوذه في منطقة الجزيرة . ففي سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م عهد الى ابنه الاشرف موسى بحصار الارتقة في ماردين وتمكن الاشرف فعلا من اجبار صاحب ماردين على دفع أتاوة سنوية والاذعان لاقامة الخطبة وضرب السكة للسلطان العادل بماردين والتعهد بتقديم الخدمة العسكرية عند طلبها (٢) . وفي العام التالي (٦٠٠ هـ/ ١٢٠٣م) التفت العادل للزنكيين ، فاستمال قطب الدين محمد صاحب سنجار ، الذى دخل في طاعته مما اغضب ابن عمه نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل ، وتحرك لمواجهة ابن عمه ومعاقبته على الخضوع للسلطان العادل . ولكن الاشرف ابن العادل تصدى له

----

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٠ أ ؛ العيني : عقد الجمان جـ١٣ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٠٩ أ ؛ ابن ابي الدم : التاريخ المظفرى لوحة ٥٣٩ ؛ العليمي : المعتبر في انباء من غبر ، ورقة ٧٤ ب ؛ مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠١ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٢٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢١٣ ؛ الغزى : نهر الذهب في تاريخ حلب جـ٣ ص ١٠٩ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٧٩-١٨٠ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٣٨ - ٣٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٣٩-١٤٠ ؛ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

وأنزل به الهزيمة مما جعله يذعن للصلح مع الاشرف سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م[١].

وفي سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م استولى العادل على الخابور ونصيبين بمنطقة الجزيرة ،وحاصر سنجار بقصد الاستيلاء عليها الا انه تراجع واستجاب لوساطة الخليفة وتركها على حالها[٢] . وامتد نفوذ العادل الى خلاط عاصمة ارمينية حينما تمكن ابنه الاوحد من الاستيلاء عليها سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م[٣] .

اما بالنسبة لعلاقة العادل بابناء اخيه صلاح الدين في هذه الفترة ،فقد اكتشف سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م مراسلات سرية من الافضل لبعض القادة العسكريين بقصد محالفتهم ضد عمه العادل . فاصدر الاخير أوامره الى ابنه الاشرف بالاستيلاء على رأس عين وسروج . وأمر الظاهر غازي صاحب حلب بانتزاع قلعة نجم من الافضل . وقد نجحا في ذلك ،ولم يبق بيد الافضل سوى سميساط الامر الذى دفعه الى الانحياز الى سلطان سلاجقة الروم والدخول في طاعته نكاية في عمه العادل[٤] .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٩٢ - ١٩٤ ؛ ابن الساعي : الجامع المختصر جـ٩ ص ١٢٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٥٥-١٥٩ ؛تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٩٣-٣٩٤ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٢٨٤-٢٨٧؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص٢١٩-٢٢٠؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١١٢-١١٣ .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٧٥-١٧٧ .

(٤) العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٧٨ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١١٠أ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢١٤ .

أما عن علاقة العادل بابن اخيه الظاهر غازى صاحب حلب ، فمما لا شك فيه أن الظاهر كان ينظر لعمه بعين الشك والريبة ،ويعتبره مغتصبا لملك أبناء صلاح الدين ، ولادراكه بعجزه عن مواجهة العادل في ميدان مكشوف فانه ظل يعمل سرا ضد عمه . ففي سنة ٦٠٣ هـ/ ١٢٠٦م كاتب الظاهر بعض الامراء واستمالهم اليه . وفي هذا الوقت راجت الشائعات بان العادل مصمم على أخذ حلب ،مما دفع الظاهر للاسراع بتحصين حلب ، وتزويدها بالمؤن والاقوات ،لمواجهة الحصار المحتمل . وأخيرا تراسل الاثنان ،وتم تجديد المواثيق والعهود بينهما[(١)]. لكن الشك لم يتبدد بين الظاهر وعمه ، فعاد الظاهر في سنة ٦٠٥ هـ/ ١٢٠٨م الى مكاتبة بعض الامراء سراً . مما جعل العادل يقرر في سنة ٦٠٧ هـ معاقبة الظاهر باظهار عزمه على مهاجمة حلب والاستيلاء عليها ،الامر الذى جعل الظاهر يلتمس الحلفاء في اتابكة الموصل ، فراسلهم واتفق معهم على ان يهاجموا املاك العادل في الجزيرة ،اذا هو هاجم حلب ،لذلك ،فحين علم العادل بهذا التحالف أعرض عن قصد حلب وقفل عائدا الى دمشق[(٢)] .

وفي نفس عام ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م اكتشف العادل مراسلات سرية جرت بين الظاهر وبين الامير عزالدين اسامة - وهو من كبار الامراء الصلاحية وله اقطاعات واسعة بجنوب الشام من ضمنها كوكب وعجلون -

----

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٥٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٧٤ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٤٨-٤٩ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ قسم ١٦٦ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٦١-٦٢ ،ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٠١ ،تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ١٠٤ .

فاستدعى العادل اسامة الى القاهرة للتحقيق معه . لكن اسامة لما أيقن بافتضاح أمره ، غادر مصر عائدا الى الشام ، بغية الاعتصام بقلاعه . فبعث العادل ابنه المعظم عيسى خلفه ، حيث تمكن من اللحاق به في فلسطين ، وقبض عليه وسجنه بالكرك ، وصادر أمواله ،واستولى على اقطاعاته ،بما فيها كوكب وعجلون . وبالقضاء على اسامة انتهى دور طائفة الصلاحية واختفى نفوذهم من الحياة السياسية ببلاد الشام (١) .

وأخيرا تحسنت العلاقات بين السلطان العادل والظاهر غازى ملك حلب ، الذى ارسل القاضي بهاء الدين بن شداد الى عمه العادل ، ليخطب له ابنته ضيفة خاتون . وقد وافق العادل على وساطة القاضي ابن شداد فأجاب طلب الظاهر ،حيث زوجه بها ووفدت عليه الى حلب سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢م (٢) .

وهكذا أصبح العادل هو سلطان مصر والشام وبعض مناطق الجزيرة الفراتية ،وخلاط ،وميافارقين وغيرها ،وحصل على التقليد من الخليفة العباسي (الناصر لدين الله ٥٧٥هـ-٦٢٢هـ) حيث اكتسب الصبغة الشرعية بارتدائه خلع الخليفة ،وتسلم تقليده سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م (٣) .

---

(١) النويرى : نهاية الارب جـ٢٧ ورقة ١٦أ ب -١٧أ ؛ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٢أ ؛الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١١٣أ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٦٦أ ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٥٧-٥٥٨ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٠٥-٢٠٦ .

(٢) سبط ابن العجمى : كنوز الذهب في تاريخ حلب ،مخطوط لوحة ١١٠ ؛ تاريخ ابن الشحنة ورقة ٩٥أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٦٣-١٦٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢١٢-٢١٥ ؛ابن ايبك : الدر المطلوب ص ١٧٨-١٧٩ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٦٧-١٦٨ .

وبعد ذلك قام العادل بتقسيم مملكته بين اولاده فأعطى ابنه الاكبر الكامل محمد مصر ، ومنح ابنه المعظم عيسى : أجزاء واسعة من بلاد الشام ، امتدت من حدود حمص الى العريش جنوبا ، بما فيها بلاد الساحل التي في حوزة المسلمين ،والغور وبيت المقدس ،والكرك والشوبك وصرخد ،وعاصمتها جميعا دمشق . واعطى ابنه الاشرف مظفر الدين موسى : البلاد الشرقية وهي الرها وحران وما يتصل بهما ،أما ابنه الاوحد ؛ فقد منحه خلاط،وميافارقين . واصبح العادل بعد ذلك يتنقل بين مملكته الواسعة حيث يقضي فصل الصيف في بلاد الشام ويشتي بمصر (١) .

---

(١) الأهدل : غربال الزمان ورقة ١٤٥ ب ؛الصفدى : الوافي بالوفيات ج٢ ص ٢٣٦ ؛ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٦٧-٦٨ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٦٨-١٦٩ .

((الممالك الأيوبية في بلاد الشـــام))

أ - مملكة حلب :

تعتبر مملكة حلب من أطول الممالك الايوبية عمرا وأبعدها اثرا في تاريخ بلاد الشام قبيل الغزو المغولي . وقد نشأت هذه المملكـــة عندما منح صلاح الدين ابنه الظاهر غازى حلب وما يتبعها ســـنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦م (١) .

ولموقع حلب أهمية كبيرة في تاريخ بلاد الشام وبخاصة هـــذه الفترة التي أتعرض لدراستها . فهي - حلب - تقع في شمال بـــلاد الشام وتجاورها من جهة الغرب امارة انطاكية الصليبية ،و من الشمـــال الغربي مملكة أرمينية الصغرى ، ومن الشمال دولة سلاجقة الروم فـــي آسيا الصغرى (٢) . وتمتد مملكة حلب الى الجزيرة الفراتية وتتبعها معظم الثغور الشامية والجزرية .

وقد سبق الحديث عن الدور الذى لعبه الظاهر غازى ،خلال حرب الوراثة التي اعقبت وفاة والده صلاح الدين . واذا كان العادل قد تمكن بدهائه من التغلب على ممالك ابناء اخيه في دمشق ومصر وساعدته الظروف على تحقيق طموحاته ، فان حصانة حلب وحنكة صاحبها الظاهر ،و حسن سياسته حالت دون سقوطها بيد عمه العادل .

وقد بنى الظاهر غازى سياسته الداخلية على أساس تدعيم نفوذه داخل حدود مملكته ،فجعل دولته معمورة بالعلماء والفضلاء ،-وأحســن

----

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٣ ص ٨٩ .
(٢) عن علاقة حلب بهذه القوى ،انظر الفصل الرابع .

الى رعيته ، كما اكرم الوافدين اليه ، وفتح صدره الى اللاجئين اليه من أهل بيته ،واعتمد في ادارة شئون دولته على القاضي بهاء الدين بن شداد . وضم اليه معظم الامراء الصلاحية الذين فقدوا ممتلكاتهم لحساب عمه العادل . كما وطد علاقته مع الاسر العريقة ذات النفوذ داخل حلب كاسرة بني الخشاب وغيرهم (١) .

كما بنى الظاهر سياسته الخارجية مع القوى المحيطة بحلب على أساس مراعاة حسن الجوار ومداهنة الحكام الاخرين ،واظهار نفسه كعامل توازن بينهم وبين عمه العادل ، وفي ذلك يقول النعيمي عن الظاهر: انه صاحب " غدر ودهاء واعظم دليل على دهائه مفاوضته لعمه العادل ، وكان لا يخليه يوما من شغل قلب وخوف ،وكان يصادق ملوك الاطراف ، ويباطنهم ويلاطفهم ويوهمهم انه لولاه لكان العادل يقصدهم ويرهم عمه انه لولاه لم يطعه احد من الملوك ولكاشفوه بالشقاق ، فكان بهذا التدبير يستولي على الجهتين ويستبعد الفريقين ويشغل بعضهم ببعض. . يغمر الملوك بالتحف والشعراء والقصاد بالصلات " (٢) .

----

(١) سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٧٩ ؛ ابن العميد : اخبار الايوبيين ص ١٣٠ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٩٤؛وبنو الخشاب اسرة كردية عريقة دخلت في خدمة امارة بني مرداس بحلب خلال القرن الخامس الهجرى /الحادى عشر الميلادى ، ويبدو ان هذه الاسرة استمرت في مكانتها وعراقتها حتى القرن السابع الهجرى : انظر:
Zakkar, The Emirate of Allepo p.238.

(٢) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٣٤٢ - ٣٤٣ ؛ وانظر ايضا ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ٥ ص ٥٥ .

وهكذا استطاع الظاهر - بهذا النهج - المحافظة على مملكة حلب وشمال الشام ، لا سيما وأن هذه المملكة تحيطها قوى مختلفة ودول متباينة . ففي المشرق - ببلاد الجزيرة - يوجد الاتابكة في الموصل وسنجار ، والارتقة في ماردين وحصن كيفا ، وفي آسيا الصغرى - شمال حلب - دولة سلاجقة الروم ، وفي الشمال الغربي مملكة ارمينية الصغرى ، وفي غرب حلب امارة انطاكية الصليبية وفي الجنوب مملكتا حمص وحماه اضافة الى سلطنة الملك العادل .

والواقع ان الحديث عن مملكة حلب وغيرها من الممالك الايوبية في بلاد الشام لا يتم دون الاشارة الى ما كان للاقطاع الحربي الأيوبي من نتائج سيئة على الحياة السياسية في بلاد الشام وبخاصة على مملكة حلب .

فمن المعروف ان نظام الاقطاع الحربي في الشرق الاسلامي نشأ في عهد الدولة السلجوقية ، التي تميزت بالصفة الحربية العامة ، بحيث انتقل فيها نظام الرواتب والاعطيات النقدية ، الى نظام التعامل على قاعدة اقطاعية . اذ قام الوزير نظام الملك بالغاء نظام جباية الاموال من البلاد وصرفها على الجيش ، وأحل محلها اقطاع البلاد لكبار القادة العسكريين لكي ينصرفوا الى الاهتمام بشئونها وعمارتها (١) . وعندما جاء صلاح الدين طبق نظام الاقطاع الحربي فمنح قادة جيشه الاقطاعات مقابل تقديم الخدمات الحربية عند الحاجة الى ذلك . وجعل صلاح الدين

---

(١) نظير حسان سعداوى : جيش مصر في ايام صلاح الدين ص ٢ -٣ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الايوبيين ص ٢٦ .

نظام الاقطاع الحربي غير وراثي، مخالفا في ذلك الاقطاع الزنكي ، حتى لا تؤول الاقطاعات الى اطفال صغار الامر الذي ينجم عنه نوع من الفوضى (١) . وأصبح بذلك للمقطع الحق في أن يجمع من الضرائب ما يكفيه ويكفي جنوده لمعيشتهم ، مقابل تقديم الخدمات الحربية لسيده السلطان (٢) . وقد أعفى هذا النظام السلطان من مهام نفقات الجيوش ، اذ اصبح المقطع هو المسؤول عن نفقات عساكره وما تحتاجه من اسلحة ومؤن وأقوات اثناء تأدية الخدمات الحربية للدولة (٣) .

وعلى الرغم من ان هذا النظام قد افاد الدولة من الناحية الاقتصادية ، عندما ترك للامراء حرية تنظيم اقطاعاتهم ، وبالتالي اعفى الحكومة المركزية من أية مصاريف اضافية ، الا انه من ناحية اخرى كانت له اثاره السيئة ذلك أن القادة المقطعين كانوا يعودون بعسا كرهم الى اقطاعاتهم في مواسم الحصاد ، للاشراف على جمع المحاصيل وتخزينها ، مما يسبب حرجا شديدا للسلطان . من ذلك ما حدث مع صلاح الدين في بلاد الشام سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م عندما سمح للجيوش بالعودة لجمع المحصول فكادت أن تلحق به الهزيمة (٤) .

----

(١) Cahen. Article Ayyubids in Encyclopaedia of Islam, New Edition, ؛ Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt, pp 28-30.

(٢) Hassanein Rabie : The Financial System of Egypt p. 57.

(٣) Rabie : Ibid. p. 32.

(٤) Rabie : Ibid. pp 69-70.

كما لا يغيب عنا ما نجم عن نظام الاقطاع الحربي من آثار سياسية سيئة في تاريخ بلاد الشام خاصة والدولة الايوبية بصفة عامة . واذا كانت هذه الاثار لم تظهر بصورة واضحة زمن السلطان صلاح الدين ، فان مرد ذلك الى قوة شخصيته و غلبة تيار الجهاد على ما سواه من التيارات في عصره . أما الاثار السياسية السيئة لهذا النظام فقد ظهرت جلية واضحة بعد وفاته . ذلك ان القادة والامراء المقطعين احتفظوا بجيوش خاصة بهم ، الأمر الذى اغراهم بالنزوع الى الاستبداد و محاولة نيل استقلالهم عن سيدهم الملك الأيوبي ، اضافة الى محاولة كل مقطع توسيع اقطاعاته ،وعمل القادة الذين ليس لهم اقطاعات على الحصول على اقطاعات لهم . وكل ذلك أوجد حالة من عدم الاستقرار ، كما تقلب الامراء في ولائهم بين ملوك بني أيوب ، تبعا لمن يمنحهم اقطاعات اكبر واكثر ايرادا . وما نتج عن ذلك كله من آثار سيئة تمثلت في زيادة حدة الخلافات ،وتعميق الانقسامات السياسية بين الايوبيين وهو ما سيتضح بجلاء فيما بعد في دراسة الأحوال السياسية لبلاد الشام خلال الفترة موضع الدراسة .

فقد كانت تل باشر (١) اقطاعا لبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق فقام دلدرم بتحصين تل باشر واخذ يشعر في قرارة نفسه بالتعاظم على الملك الظاهر غازى ، صاحب حلب ،وكان اتباع دلدرم يعظمونه ايضا ويعاملونه معاملتهم للسلطان . وكان لأتباع دلدرم ، من الياروقية اقطاعات واسعة في جبل السماق (٢) . فلما شعر الظاهر غازى

---

(١) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب مسيرة يومين سيرا على الاقدام وأهلها نصارى أرمن ،ولها ربض وأسواق وهي عامرة آهلة انظر : ياقوت ،معجم البلدان .

(٢) جبل السماق : جبل عظيم من اعمال حلب الغربية يشتمل على مدن وقرى عامتها للاسماعيلية انظر ياقوت : معجم البلدان .

بخطورة بدر الدين دلدرم ،وكشف اتصالاته السرية مع عمه العادل ، استدرجه الى حلب واعتقله بقلعتها سنة ٥٩٠هـ/ ١٠٩٤م وأخرج اتباعه من حلب وانتزع اقطاعاتهم ، وطالب زعيمهم دلدرم بتسليم تل باشر فرفض ، فلما علم الملك العادل بالقبض على دلدرم سار من حران الى حلب فاستقبله الظاهر وشفع في دلدرم فاجابه الظاهر الى طلبه . وظلت تل باشر بيد دلدرم حتى وفاته سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م[1].

اما الامير عز الدين ابراهيم بن المقدم ،فكان اقطاعه يشمل بارين ،وأفامية وكفر طاب وما يتبعها من قرى وكلها تابعة لحلب ، فعصى على الظاهر غازى سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م وانضم الى عمه العادل[2] ، فلم يجرؤ الظاهر على التعرض له بعد ان دخل في حماية عمه العادل . وفي سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م تمكن المنصور صاحب حماه - وكان محالفا للظاهر- من انتزاع بارين من نواب ابراهيم بن المقدم[3] ، الا ان المنصور سرعان ما اضطر -تحت ضغط الملك العادل - الى تعويض ابن المقدم عن بارين فأعطاه منبج وقلعة نجم ، بالاضافة الى ما كان بيده سابقا مثل كفر طاب وخمس وعشرين ضيعة من اعمال المعرة[4] .

----

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٥٤ ب (نسخة الفاتيكان) ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٣٥ أ ب ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٢٩-١٣٠ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢١٣ أ ب ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٣٢-١٣٣ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٤٥ = وأفامية:مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص ،وبارين: مدينة حسنة بين حلب و حماه من جهة الغرب ، وكفر طاب بلدة بين المعرة ومدينة حلب ، انظر ياقوت:معجم البلدان .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠١ .

(٤) المصدر السابق جـ٣ ص ١١٤ .

ولما توفى ابراهيم بن المقدم سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م آلت اقطاعاته الى اخيه عبدالملك بن المقدم ، وهو ما يخالف القاعدة التي وضعها صلاح الدين في عدم توريث الاقطاع . لذلك سار الظاهر غازى قاصدا منبج ، فاعتصم عبدالملك بن المقدم بقلعتها ، لكن الظاهر تمكن - بعد حصارها سبعة ايام - من الاستيلاء عليها ، واعتقال ابن المقدم وارساله الى قلعة حلب . ثم سار الظاهر الى قلعة نجم على نهر الفرات ،ونازلها وتسلمها من نائب ابن المقدم [(١)] . وفي السنة التالية ٥٩٨هـ / ١٢٠٢م أرسل الظاهر غازى الى نائب ابن المقدم بأفامية ويدعى قراقوش طالبا منه تسليمها اليه فرفض ، فسار الظاهر واستولى على كفر طاب ،وضرب الحصار حول افامية دون جدوى ،وأحضر عبدالملك بن المقدم امام اسوار أفامية وأمر بضربه بالسياط ضربا مبرحا كيما يرغم نائبه قراقوش على التسليم ،فأمر الاخير بضرب الطبول على اسوار القلعة حتى لا يسمع اهل البلد صراخ سيدهم ،وبعد قتال شديد اصيب فيه الظاهر بجروح عجز عن اخذ افامية عنوة ، فترك جيشا يحاصرها ورحل عنها [(٢)] .

واخيرا وافق قراقوش على تسليم افامية على ان يعوض سيده ابن المقدم ،فاجابه الظاهر الى ذلك وأقطعه الراوندان وكفر طاب ومفردة المعرة ،

---

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ لوحة ٣٦٢ (نسخة اياصوفيا) ؛ العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٥٣ ؛ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٤٨-١٤٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٢٠-١٢١ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٩٨ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ٩٩ ؛الغزى : نهر الذهب جـ٣ ص ١٠٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٢٢ ؛ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٤٩ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ٩٩ .

بشرط أن يقيم بمدينة حلب حتى لا يعود الى العصيان مرة أخرى ، وتسلم الظاهر افامية ،ولكن ابن المقدم تمكن من الفرار من حلب ، ولجأ الى قلعة الراوندان (١) حيث اعلن العصيان بها من جديد على الظاهر مما أجبر الاخير على محاصرة الراوندان ،حتى استولى عليها ،وصادر جميع اقطاعات وأموال عبدالملك بن المقدم ،وحاول الاخير الاستشفاع بصاحب تل باشر بدر الدين دلدرم الى الظاهر فلم تُجْدِ شفاعته شيئا ،فلجأ ابن المقدم الى السلطان العادل فمنحه السلطان اقطاعا حسنا ،واحسن اليه . اما الراوندان فقد احتفظ بها الظاهر في حوزته ولم يقطعها لاحد نظرا لحصانتها وحساسية موقعها (٢) .

ويبدو ان الظاهر غازى خشي من انتزاع عمه العادل لمنبج منه ، واعادتها لصاحب حماه ، نظرا لانها كانت خاضعة لنفوذه ،ولذلك عمد الظاهر سنة ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٢ م الى تخريب قلعة منبج ،ونقل ذخائرها الى حلب ،وأقطع البلدة لعماد الدين احمد بن علي بن المشطوب ، ثم عاد الظاهر وانتزعها منه في السنة نفسها ،وطرده منها فسار ابن المشطوب الى الشرق (٣) .

---

(١) الراوندان : قلعة صغيرة على رأس جبل عال متفرد في مكانه لا يحكم عليها منجنيق ولا يصل اليها نبل ولها ربض صغير في لحف جبلها وهي من اقوى القلاع واحسن البقاع ويحف بالقلعة من جهة الغرب والشمال واد كالخندق وفيه نهر جار ،ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٥١ ب نسخة الفاتيكان .

(٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ لوحة ٢١٧-٢١٨ نسخة اياصوفيا؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٣١ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم٢ ص ٢٢٥ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٠١ ؛ الغزى : نهر الذهب جـ٣ ص ١٠٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٥٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٣١ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٢٢ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٠١ .

اما عزاز (١) وهي ايضا من جملة الثغور الشامية التابعة لمملكة حلب ، فكانت اقطاعا لأحد الامراء ويدعى سيف الدين بن علم الدين على بن سليمان بن حيدر ، وكان مريضا بحلب فخرج الظاهر الى بلد رعبان (٢) واثناء مروره بعزاز هطلت الامطار والثلوج فأراد الصعود الى قلعة عزاز للاحتماء بها ، فرفض اتباع سيف الدين السماح له بالصعود الا باذن سيدهم سيف الدين ، فسار الظاهر الى دربساك (٣) وكان بها ابن عم سيف الدين فقبض عليه ،وعاد الى حلب غاضبا ،واعتقل سيف الدين وهو مريض ووضعه في محفة وسيره معتقلا الى عزاز وتسلمها من اتباعه (٤) . وهذه الحادثة تشير بوضوح الى ان ولاء الجنود لسيدهم صاحب الاقطاع ،كان يفوق كثيرا ولاءهم للملك الايوبي الذى منح الاقطاع أصلا لسيدهم ،أو بالاحرى لا يعترفون الا بقائدهم سيدا وحيدا لهم . ومن الطبيعي أن يغرى ، هذا الولاء شبه المطلق ،الامراء المقطعين بالنزوع الى الاستقلال كلما سنحت لهم الفرصة بذلك .

وكانت حارم (٥) وهي من اعمال حلب ايضاً اقطاعاً لاحد مماليك السلطان صلاح الدين ويدعى سربك ، فلما ولي الظاهر حكم حلب ، أرسل اليه خلعة خاصة ، فأهداها سربك لاحد مماليكه . مما أغضب

---

(١) عزاز : بليدة لها قلعة ورستاق شمالي حلب على مسيرة يوم ، ياقوت معجم البلدان .

(٢) رعبان : مدينة بالثغور بين حلب و سميساط قرب الفرات انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٣) دربساك : من اعمال حلب و هي قلعة مرتفعة لها بساتين وشرقها مروج واسعة يجرى فيها النهر الاسود ، انظر : ابو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٦٠-٢٦١ .

(٤) الاعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٤٩ أ نسخة الفاتيكان ؛زبدة الحلب جـ٣ ص ١٣٨ .

(٥) حارم : حصن حصين وكوره جليلة من اعمال حلب تقع جهة انطاكية . انظر ياقوت : معجم البلدان .

الظاهر غازى واعتبره اهانة له ،وأرسل اليه يستدعيه الى حلب . لكن سربك رفض تنفيذ هذا الأمر وامتنع بحصن حارم . فسار الظاهر الى حارم ونازلها ،واخيرا استجاب لتدخل بعض الامراء الذين سعوا في الصلح ، فعفى عن سربك ،وتسلم منه حارم وعوضه عنها برعبان سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م[١]. ولكن سربك سرعان ما عصى على الظاهر برعبان في السنة نفسها مما دفع الاخير الى منازلة رعبان في رمضان ٥٩٣هـ. وحينما شعر سربك بحرج موقفه فتح باب القلعة والتمس من الظاهر العفو فعفا عنه ورد رعبان اليه وعاد الى حلب[٢].

وكان الامير غرس الدين قلج من الامراء اصحاب الاقطاعيات بمملكة حلب ،وبيده عدد من القلاع الحصينة وهي دركوش[٣] والشفر وبكاس[٤] ،وشقيف الروج[٥]. فلما توفي غرس الدين قلج سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م عصى أولاده بهذه القلاع على الظاهر غازى وامتنعوا من تسليمها اليه ،فخرج بجيشه من حلب وحاصر هذه القلاع الواحدة تلو الاخرى حتى استولى عليها جميعا وقبض على ابناء غرس الدين قلج ، ثم عاد وعفى عنهم وأجرى لهم الرواتب واختص منهم سيف الدين علي بن قلج الذى اضحى من اخلص مستشاريه وأعز أصحابه[٦].

---

(١) الاعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٤٤ نسخة الفاتيكان .

(٢) زبدة الحلب جـ٣ ص ١٣٩-١٤٠

(٣) دركوش : قلعة من اعمال حارم لها جامع وربض تقع على نهر العاصي انظر ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٤٥ ب نسخة الفاتيكان .

(٤) الشفروبكاس : قلعتان قويتان من النواحي الغربية لحلب ،والشفر قلعة صغيرة قريبة من بكاس يعبر الى احداهما من الاخرى بجسر وهما على جانبي نهر الأرنط ،ولبكاس نهر يخرج من تحتها ،وهما في غاية المنعة والقوة.انظر: ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٦٢ ب- ١٦٣ أ نسخة الفاتيكان؛ وانظر ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٠-٢٦١ .

(٥) الروج : كورة من كور حلب غربيها بينها وبين المعرة ،انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٦) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٣١ب(نسخة الفاتيكان) .

اما بالس (١) فقد اقطعها الظاهر لاحد امرائه ويدعى اثير الملك ، غير ان الظاهر سرعان ما اكتشف غدره و عدم اخلاصه ،بمراسلته للعزيز عثمان صاحب مصر . فأرسل الظاهر اليه من اعتقله و شنقه وتسلم بالس. ثم تنازل الظاهر عن بالس لعمه العادل بعد توقيع الصلح معه سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م وقام العادل باقطاعها لابنه الحافظ مضافةالى قلعة جعبر (٢) .

لم يقتصر الاضطراب السياسي على القادة العسكريين اصحاب الاقطاعات ، وما سببوه من قلق لملك حلب الظاهر غازى ، بل ان بعض الشخصيات الذين ليس لهم اقطاعات بدأوا يتطلعون الى تأسيس امارات خاصة بهم ، لا سيما وان الظاهر كان منغمسا في حرب الوراثة الأيوبية ، من ذلك محاولة العلم بن ماهان ، الذى كان عند الملك الظاهر في محل الوزارة لمكانته الخاصة في نفس الظاهر . ففي سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م وصل الى الملك الظاهر الامير علم الدين قيصر الناصرى - وهو من كبار الامراء الصلاحية - فأقطعه الظاهر اللاذقية ونزعها من يد صاحبها ابن السلار. وأرسل الظاهر صديقه العلم بن ماهان ليحصى ما في قلعتها من أموال وذخائر ويسلم القلعة ذاتها لعلم الدين قيصر ، وأن يبقى الجنود فيها على حالهم ، على ان ياخذ منهم الايمان والمواثيق بالاخلاص للظاهر غازى (٣) .

فلما وصل العلم بن ماهان الى اللاذقية طمع في الاستيلاء عليها

---

(١) بالس : بلدة بين حلب والرقة على الضفة الغربية لنهر الفرات ، انظر ياقوت معجم البلدان

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٤١ = وقلعة جعبر على نهر الفرات بين بالس والرقة على الطرف الشمالي للنهر ،وتقع القلعة على هضبة صخرية صعبة المنال . انظر ياقوت : معجم البلدان ؛ ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٣٦ .

والاستقلال بها " وحدثته نفسه بالعصيان ،واستحلف الاجناد لنفسه ، وخالفه بعضهم ،وامتنعوا وكتبوا الى الملك الظاهر ،وقبضوا على ابن ماهان " . فسار الظاهر بنفسه الى اللاذقية واعتقل ابن ماهان ،وقطع يده ونكل به (١) . وهذا ان دل على شئ فانما يدل على مدى خطورة التدهور السياسى الذى اصاب بلاد الشام عقب وفاة صلاح الدين ، مما شجع بعض الشخصيات على استغلال الوضع السائد ،ومحاولة انشاء امارات خاصة بهم مما زاد في تدهور بلاد الشام.

وكيفما كان الامر ،فان الظاهر غازى اضحى مقتنعا - بعد النتائج التي تمخضت عنها حرب الوراثة الأيوبية - أنه لم يعد بمقدوره العمل على مناوئة عمه العادل ،بعد ان بسط نفوذه على مصر وبلاد الشام والجزيرة . واستعان باولاده في ادارة هذه البلاد ،كما أيقن بأن أى محاولة لاعادة السلطنة الى ابناء صلاح الدين ، ستكون مجازفة قد يدفع ثمنها مملكته في حلب وشمال الشام . ولذلك آثر الظاهر العمل على تغيير سياسته وتحسين علاقته مع عمه العادل وأبنائه . وليس أدل على ذلك من قيام الظاهر باستقبال ابن عمه الأشرف موسى استقبالا حافلا ، عند مروره بحلب سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٨م ،حيث انزله في داره بقلعة حلب ،وقدّم له من الهدايا والتحف والسلاح والخيل والذهب والجواهر والمماليك ، والاقمشة والخلع ما قدرت قيمته بخمسين الف دينار (٢) .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٣ ص ١٣٦-١٣٧.

(٢) الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١١٢ أ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب ،جـ٣ ص ١٥٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٨٣ - ١٨٥ ؛ الغزى : نهر الذهب جـ٣ ص ١١٠-١١١ ؛ الطباخ الحلبي : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جـ٢ ص ٢٠٧ .

ونظرا لما كان لعلاقات الزواج والمصاهرة من اثر على توجيه الحياة السياسية في العصور الوسطى - سواء في الشرق أو الغرب - فقد قرر الظاهر تحسين علاقته بعمه السلطان العادل عن طريق تجديد علاقة المصاهرة بينهما [(١)] ،فأرسل في سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١١م القاضي بهاء الدين بن شداد برسالة الى عمه العادل بمصر تضمنت استعطافه واسترضاءه ، وان يجدد له اليمين على مملكة حلب . كما خطب ابنته "ضيفة خاتون" شقيقة محمد الكامل ولي عهد العادل ،وكانت احب ابنائه اليه ،فوافق العادل على طلب ابن اخيه الظاهر غازى . وتم عقد النكاح في سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م وقدمت ضيفة خاتون الى حلب في ابهة عظيمة ،واستقبلها الظاهر استقبالا حافلا [(٢)] . وقد نتج عن هذا الزواج تحسن في العلاقات بين الظاهر وعمه العادل " وزال ما كان بينهما من الاحن " على حد تعبير ابي الفدا [(٣)].

ولكن ابن واصل يعود فيذكر في سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م أنه " حصل عند الملك الظاهر استشعار من عمه الملك العادل لشيء بلغه عنه وأخذ في الاستخدام والاستعداد " لكن ابن واصل لم يوضح سبب ذلك ، كما ان الأمور لم تبلغ حدا كبيرا من التدهور . فبعث الظاهر الى عمه العادل ،

---

(١) كان صلاح الدين قد زوج ابنه الظاهر غازى من ابنة اخيه العادل غازية خاتون سنة ٥٨٢هـ الا انها توفيت قبيل موت صلاح الدين . انظر ابن العجمي : كنوز الذهب لوحة ١١٠ .

(٢) ابن العجمي : كنوز الذهب في تاريخ حلب ١١٠-١١١ ؛تاريخ ابن الشحنة ورقة ٥٩ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢١٢-٢١٥ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٦٣- ١٦٤ ؛ ابن ايبك : الدر المطلوب ص١٧٨ - ١٧٩ ؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١١٤ ؛ الغزى : نهر الذهب جـ٣ ص ١١١ .

(٣) ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١١٤ .

بنائب القاضي ابن شداد لاصلاح الحال بينهما . كما ورد من جهة السلطان العادل " ما طاب به قلب الظاهر وزال استشعاره ، فبعث الملك الظاهر الى عمه هدية سنية من جملتها خمسون رأسا من الخيل " (١) .

وفي أواخر سنة ٦١٠هـ/١٢١٤م ولد للظاهر من ابنة عمه ضيفة خاتون ولد أسماه العزيز غياث الدين محمد ، وأقام الظاهر لمولده احتفالا مشهودا . حيث اقيمت مظاهر الفرح والابتهاج بمدينة حلب ومدحه الشعراء بهذه المناسبة (٢) . ولعل ابتهاج الظاهر الشديد بمولد ابنه هذا راجع الى انه رأى فيه ضمانا لاستمرار الحكم في سلالته بحلب ، وذلك لأن المولود الجديد يعد حفيداً للسلطان العادل وأبناء العادل هم اخواله وهم أصحاب الحكم في مصر والشام والجزيرة . فقرر الظاهر غازى ان يعهد اليه بولاية العهد ، وعدل عن ابنه الاكبر - وهو من زوجة أخرى - حتى لا ينازعه العادل أو أبناؤه (٣) ويبدو أيضا ان الظاهر رأى ان تولية ابنه العزيز غياث الدين بعده ، سوف يحميه من منافسة إخوة الظاهر من ابناء صلاح الدين وغيرهم من الأمراء . لأنهم لن يستطيعوا معارضته خوفا من العادل وأبنائه .

وفي سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م أرسل الظاهر القاضي بهاء الدين ابن شداد الى عمه العادل طالبا منه ثلاثة أشياء ، اولها : الموافقة على أن يكون العزيز محمد ولي عهد أبيه وقائما بمملكة حلب بعده ، وثانيها بخطبة ابنة الكامل محمد بن العادل للعزيز بن الظاهر ، وثالثها : أن يكون صلح

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢١٩-٢٢٠ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٦٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٢٠-٢٢٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣١٣ ؛ محمد كرد علي : خطط الشام جـ٢ ص ٧٨ .

الظاهر وصلح العادل مع الفرنج واحدا و نكثها واحدا ايضا ،وتنسيق خططهما ازاء الفرنج . وقد وافق السلطان العادل وابنه الكامل على مطالب الظاهر الثلاثة وأعطيا عهدهما للقاضي ابن شداد على ذلك[(١)].

وفي جمادى الاولى ٦١٣هـ/١٢١٦م واثناء سفارة القاضي ابن شداد الى مصر مرض الظاهر غازى ،فاحضر نائب القاضي ابن شداد ، وكتب وصيته التي تضمنت : أن يكون الملك بعده ابنه العزيز محمد ،وبعده ابنه الاخر صلاح الدين احمد بن الظاهر ،وبعدهما لابن عمهما المنصور محمد ابن العزيز عثمان ،وان يكون الامير شهاب الدين طغريل الخادم مسؤولا عن قلعة حلب وأموال المملكة ،والامير سيف الدين علي بن سليمان بن حيدر اتابك العسكر. وجرى أخذ اليمين من الامراء والقادة واعيان حلب بتنفيذ الوصية وأن يبعث منها نسخة الى السلطان العادل ،وأحضر الظاهر طغريل الخادم وسلمه مفاتيح الخزائن ،وجعل له السلطة المطلقة في جميع القلاع و تصريف شئون الدولة ،وخشي الظاهر من اخيه الظافر خضر ابن صلاح الدين فاقطعه كفرسوذ من اعمال حلب وأخرجه من المدينة ، فسار الظافر خضر قاصدا كفرسوذ فسبقه اليها اخوه الزاهر بن صلاح الدين صاحب البيرة فاستولى عليها و على بعض القرى المجاورة لها ، فقصد الظافر منبج بقصد الاستيلاء عليها ،فارسل الاتابك طغريل في اثره فرقة عسكرية رحّلته عنها فذهب الى اخيه الافضل صاحب سميساط واقام عنده . وفي أواخر جمادى الاخرة ٦١٣هـ/اكتوبر ١٢١٦م توفي الظاهر غازى صاحب

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٣٦-٢٣٧ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص١٩٣-١٩٤ ؛ الغزى : نهر الذهب في تاريخ حلب جـ٣ ص ١١ ؛ الطباخ : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جـ٢ ص ٢١٥.

حلب وعم الحزن والفزع أرجاء مملكة حلب ، لما عرف عنه من عدل وحسن سياسة وشفقة ورحمة بالرعية (١) .

ولما وصل القاضي بهاء الدين بن شداد اجتمع بشهاب الدين طغريل وغيره من الامراء ،وقرروا اسناد منصب اتابك العسكر للمنصور بن العزيز وان يكون امر الاقطاع بيده ،اما المناصب الدينية فتكون بيد شهاب الدين طغريل ، غير أن جَعْلَ اتابكية العسكر -اي قيادتها- بيد المنصور لم ترض اخوة الملك الظاهر. فظهر رأى يشير بان يكون الافضل بن صلاح الدين صاحب سميساط اتابك لعسكر حلب لأنه عم الملك العزيز .
وأيد هذا الرأى جماعة من الامراء المصريين من الصلاحية ، الذين استقروا بحلب بعد توقيع الصلح بين الظاهر وعمه العادل . وأشاروا إلى انالافضل أولى الناس بتربية العزيز وحفظ دولته ،وأنه اذا رجع اليه الامر سيكون قادرا على الثأر من عمه العادل واسترداد السلطنة منه. غير ان القاضي ابن شداد والامير سيف الدين بن قلج وغيرهما رفضوا هذا الرأى ،وبينوا الاخطار التي ستنجم عن الاخذ بهذه المشورة نظرا لقوة العادل وضخامة مملكته ، ولأن المجاهرة بمعاداته سيوءدى الى القضاء على مملكة حلب . كما ان اسناد قيادة العسكر للأفضل قد يهدد العزيز في حلب ذاتها. فمن المحتمل ان يستولى الافضل على مملكته مثلما فعل العادل مع المنصور بن العزيز في مصره واخيرا تم الاتفاق على اسناد جميع امور المملكة الى شهاب الدين طغريل ،وعملت نسخة يمين على ذلك وأقسم بموجبها جميع الامراء واستقرت الأمور بحلب (٢) .

----

(١) العليمي : تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل ورقة ١١٢أ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٣ ص ١٦٩-١٧١ ؛ابن واصل ،مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٣٧ - ٢٤٣ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٣ ص ١٧٥-١٧٧ ؛ابن واصل ،مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٤٩- ٢٥١ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم٢ ص ٢٠٧-٢١٠.

أجمع المؤرخون على حسن سيرة الاتابك شهاب الدين طغريل ، لما اشتهر به من الزهد والتقوى ،فانعكس ذلك على اخلاصه في اداء الأمانة التي أوكلت اليه [(١)] . فقام بتنظيم مملكة حلب وقلاعها ،وتنظيم الاقطاع وتوزيعه على المخلصين في الخدمة ، واستعان في ذلك برأى القاضي بهاء الدين بن شداد ،والامير سيف الدين بن قلج ،فاقطع علم الدين قيصر دربساك ،وأقطع أحد زعماء التركمان اللاذقية ،وبعث علم الدين قيصر الى الزاهر صاحب البيرة يعاتبه على هجومه على البلاد أثنا مرض الظاهر وموته . وبعد تردد أعلن الزاهر طاعته للاتابك طغريل ، بشرط أن تبقى البلاد التي استولى عليها في يده ، فأجابه الى طلبه [(٢)] .

وعلى الرغم مما شهدته مملكة حلب زمن الاتابك طغريل من استقرار داخلي ،فان ذلك لا يعني انعدام المشكلات بالنسبة لها . اذ لم تلبث اطماع القادة العسكريين وبعض الامراء المقطعين أن ظهرت من جديد ، ذلك ان جماعة من المماليك الظاهرية كرهوا قيام الاتابك بمفرده بادارة شئون مملكة حلب ،وعلى رأس هوءلاء المتذمرين ايبك الجمدار الظاهرى . فراسل والى حارم سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م ،واتفق معه على

---

(١) العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٣٥٧ ؛ العليمي : المعتبر في انباء من غبر ،ورقة ٧٤ ب ؛ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٩٦ - ٩٧ ؛ ابن الفوطي : تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب جـ٤ قسم ١ ص ٤٢٥ - ٤٢٦ ؛ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣١٤ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٩٧.

(٢) ابن العديم ؛ زبدة الحلب جـ٣ ص ١٧٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥١-٢٥٢ .

أن يسير بمن معه الى حارم ،ويقومون بالعمل معا ضد الاتابك طغريل .
غير ان حامية حارم اعتقلت الوالي ومنعت ايبك الجمدار من الصعود للقلعة مما أجبره على الذهاب الى دربساك طامعا في الاستيلاء عليها ، فلم ينجح فسار الى سلطان سلاجقة الروم وانضم اليه . كما اعلن صاحب قلعة بهسنا (١) عصيانه وانضم الى سلطان الروم ، ثم سكنت الفتنة وانتظم الامر في اواخر سنة ٦١٣هـ (٢) .

وفي سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م سار السلطان العادل الى بلاد الشام، وارسل الى الاتابك شهاب الدين طغريل يؤكد دعمه لمملكة حلب ، كما ارسل في الوقت نفسه خلعة وسنجقا " وحلف له على ما اوجب السكون والثقة " (٣) .

ثم تعرضت مملكة حلب لخطر محقق سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م من قبل سلطان سلاجقة الروم ،الذى قرر المسير الى حلب للاستيلاء عليها . غيرأن الاشرف بن العادل سار مسرعا لنجدة حلب وتمكن من صد سلطان سلاجقة الروم وبالتالي حماية حلب من السقوط (٤) .

----

(١) قلعة حصينة بقرب مرعش وسميساط من اعمال حلب : ياقوت: معجم البلدان .
(٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ لوحة ٢٢٨ (نسخة اياصوفيا) ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٧٨ - ١٧٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .
(٣) زبدة الحلب جـ٣ ص ١٧٩ = والسنجق لفظ تركي كان يطلق اصلا على الرمح ثم اطلق على الراية التي تربط به وكانت السناجق تحمل في مواكب السلطان ،انظر القلقشندى: صبح الاعشى جـ٤ ص ٨ ، جـ٥ ص ٤٥٦ ؛ مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥ حاشية رقم (١) .
(٤) انظر تفصيل هذه الحادثة في الفصل الرابع ص : ٣٥٢ - ٣٥٦ .

انصرف الأشرف اثناء اقامته في حلب - بعد صده سلطان الروم - الى ترتيب امورها ،مما جعل الامراء الصلاحية يضمرون له الغدر ،فقرر التخلص منهم ،وسيرهم الى مصر لنجدة اخيه الكامل الذى كان يواجه الحملة الصليبية الخامسة على مصر ،وبينما كان الاشرف مقيما في حلب بلغه نبأ وفاة والده السلطان العادل ، فاستقر رأيه ورأى الاتابك طغريل على اقامة الخطبة بحلب للسلطان الكامل محمد بن العادل وبعده للاشرف ثم للملك العزيز بن الظاهر ،وضرب اسم السلطان الكامل والملك العزيز على السكة (١) .

وأراد الأتابك طغريل مكافأة الاشرف على نجدته لمملكة حلب ، وحمايتها من خطر سلاجقة الروم ،فأقطعه عددا من القرى الزراعية الغنية في ريف حلب ،ويبلغ ايرادها السنوى مليوني درهم ولكن الاشرف ابدى حسن نيته ازاء مملكة حلب فأرسل في سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م يعلن تنازله عن تلك القرى وأمر نوابه بتسليمها للاتابك طغريل ومغادرتها ، وكان لهذا التصرف احسن الاثر في نفوس الحلبيين (٢) .

وقد أثمرت سياسة الود والصداقة التي انتهجها الأتابك طغريل تجاه أبناء العادل . ففي سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م غادر الاشرف مصر متوجها الى بلاده بالشرق وحمل معه من اخيه السلطان الكامل ،الخلع السلطانية

----

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨٦ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦٩ .

(٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٦٢ أ ب نسخة الفاتيكان ؛ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٠٦-١٠٧ .

و تقليد السلطنة بمملكة حلب والسناجق للملك العزيز محمد بن الظاهر ، ودخل بها الى حلب في شوال سنة ٦٢٠هـ/نوفمبر ١٢٢٣ م . وقد جرى له استقبال حافل بمدينة حلب ولبس العزيز - وكان عمره يومئذ عشر سنوات - خلع خاله السلطان الكامل ،وأقام الاشرف بحلب عشرة أيام ثم غادرها الى بلاده (١) .

ظل الاتابك طغريل مخلصاً في خدمة ابن سيده الملك العزيز، ولم يظهر منه خلال فترة حكمه اية اطماع ، كما لم يسع لتحقيق أية مكاسب شخصية. بل انه عمد الى تدريب العزيز على شئون الحكم و تلقينه أصول الادارة ،ومن امثلة ذلك عندما اجلسه سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م في منصب أبيه ، ورفعت اليه الشكاوى ،وامر و نهى ،وكان عمره يومئذ خمس عشرة سنة ، وأحضر الفقهاء والعلماء بين يديه ودارت بينهم المناقشات والمناظرات العلمية (٢) .

وفي سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨ م سار القاضي بهاء الدين بن شداد ، وبصحبته اكابر حلب ووجهائها لمقابلة السلطان الكامل الذى كان يحاصر دمشق ،وذلك لعقد قران الملك العزيز على ابنة السلطان التي سبق وخطبها له والده قبيل موته . وتم عقد النكاح على صداق مقداره خمسون الف دينار ،وخلع الكامل على القاضي بهاء الدين بن شداد واصحابه وعادوا الى حلب مسرورين بتوطيد العلاقات بين العزيز وخاله السلطان الكامل (٣).

----

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٤ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٢٩ - ١٣٠ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٩٦-٩٧ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ مخطوط لوحة ٥ - ٦ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ؛ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٠٥ .

(٣) ابن الفرات : جـ٦ مخطوط لوحة ٥٣-٥٤ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٠٦ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٥٤- ٢٥٥ .

غير أن زفاف العزيز من ابنة الكامل لم يتم الا سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م عندما قام القاضي ابن شداد بالسفر الى مصر ،واحضرها في أبهة عظيمة ، واستقبلتها حلب في احتفال كبير (١) .

ومهما يكن من شيء فمنذ هلت سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م انفرد الملك العزيز بحكم حلب ، عندما بلغ عمره ثماني عشرة سنة وسلم اليه أتابكة شهاب الدين طغريل قلعة حلب بما فيها من اموال وذخائر . فقام العزيز بتعيين الولاة من قبله ،واستحلف العساكر والقادة والاعيان لنفسه ، كما خرج من حلب وزار القلاع والحصون ،ورتب شئونها . أما الاتابك طغريل فقد خرج من قلعة حلب بعد ان ظل مقيما بها طوال فترة اتابكيته وسكن بداره في مدينة حلب . وقد شهد له المؤرخون بحسن السيرة ،وانه لم ينصح احد غيره في خدمة بيت استاذه وقيامه بامر تربية ابنه حتى يكبر مثلما فعل هو (٢) .

وفي السنة التالية ٦٢٩هـ/١٢٣٢م خرج العزيز من حلب قاصدا تل باشر ،التي كانت بيد الاتابك طغريل وبها امواله الخاصة . ويبدو أن بعض اصحاب العزيز هم الذين أوعزوا له بالاستيلاء على القلعة . واقترحوا عليه ترك قراها الزراعية بيد الاتابك ،وكانوا يعتقدون ان الاتابك يحتفظ

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢١١-٢١٢ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) تاريخ ابن الفرات : جـ٦ مخطوط لوحة ١٦٢ - ١٦٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٠٩ - ٣١١ ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣١٤ ؛ الغزى : نهر الذهب جـ٣ ص ١١٤ ؛ الطباخ : إعلام النبلاء جـ٢ ص ٢٣٩ .

داخل القلعة باموال طائلة ،وما ان علم الاتابك بهذه الحركة حتى امر واليه عليها بتسليمها الى العزيز دون معارضة ، ولما استولى عليها الاخير اخذ خزانة الاتابك ولم يجد بها سوى القليل من الاموال فاعادها اليه فامتنع من اخذها قائلا "ما ادخرت المال الا لك" وهذا ما يؤكد نزاهته وأمانته [(١)] .

واخذ العزيز يتطلع لبسط نفوذه المباشر على شيزر [(٢)] لما لها من أهمية عسكرية ،وكانت اقطاعا للأمير يوسف بن مسعود بن سابق الدين بن الداية . وفي سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م خرج العزيز الى بعض القرى التابعة لحلب والقريبة من شيزر ، فلم يحتفل به صاحب شيزر ، ولم ينزل اليه وارسل له اقامة وعلوفات قليلة فاتخذ العزيز ذلك ذريعة للاستيلاء على شيزر ، فعاد الى حلب ،وأرسل سيف الدين علي بن قلج الظاهرى الى السلطان الكامل ، يستأذنه في حصار شيزر والاستيلاء عليها ، باعتبارها تابعة لمملكة حلب . وقد قام العزيز بهذا الاجراء خوفا من قيام صاحبها ابن الداية بالاستشفاع بالسلطان الكامل ، فلا يتحقق

---

(١) ابن الفرات : جـ٦ لوحة ١٩٨ - ١٩٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢١٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٩-١٠ .

(٢) تقع شيزر الى الشمال من حماة على هضبة صخرية منتصبة على ضفة نهر العاصي الغربية يكللها حصن لم يزل قائما الى اليوم ومعروف باسم (سيجر) تحريف (شيزر) والهضبة مرتفعة ويحيط بها النهر من جهاتها الثلاث بحيث اصبحت شبه جزيرة وقد اكمل الانسان حصانتها بحفر خندق يمر في الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبر ،وبني على الخندق جسر من الخشب للوصول الى القلعة ،مما زاد في حصانتها ومناعتها . انظر ياقوت ،معجم البلدان ؛ابو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ؛ ابن منقذ الاعتبار ،مقدمة المحقق ص ت جـ .

غرضه بالاستيلاء عليها . وسار العزيز نحو شيزر واستولى على محاصيلها ثم نصب المنجنيقات[١] جهة الجبل ،وترك المنجنيق الغربي قبالة بابها . وبعث الى صاحبها محذرا بقوله : " والله لئن قتل واحد من أصحابي لأشنقنك بدله " فأصيب ابن الداية بالذعر وأمر اصحابه بعدم القتال ،وراسل العزيز وعرض عليه تسليم شيزر وحصن ابو قبيس المقابل لشيزر ، على ان يبقى على امواله التي بها ويعيد اليه املاكه التي بحلب فاجابه العزيز الى ذلك وتسلمها وعاد الى حلب[٢] .

وفي سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م امتد نفوذ العزيز الى البيرة الواقعة على الضفة الشرقية لنهر الفرات التي كانت خاضعة للملك الزاهر داود ابن صلاح الدين ، الذى ما ان اشتد به المرض حتى أوصى بالبيرة وأعمالها لابن أخيه العزيز ، فقام الاخير بعد موت عمه بتنظيم احوالها وعين بها

---

(١) المنجنيقات : جمع منجنيق وهي اصناف مختلفة وذات تراكيب متباينة ،فمنها العربي والفارسي والافرنجي ،فمثلا المنجنيق العربي يصنع من الخشب الجيد ويتكون من مثلث متساوى الساقين قاعدته اصغر من الساق بمقدار التسع ويركب في اعلا المثلث خنزيرة من خشب السنديان ويكتنفها من اسفل بطانة ،ويوجد تحت الخنزيرة سقف لمنع وصول الاذى الى الرجال الذين تحته . وتستخدم المنجنيقات لرمي السهام الى مسافات بعيدة ولرمي الحصون بالحجارة الضخمة كما تستخدم لقذف قدور النفط والكرات المشتعلة وغير ذلك . انظر الطرسوسي : تبصرة ارباب الالباب ،تشر كاهن ص ١٦-١٧ ؛عبدالرحمن زكي : السلاح في الاسلام ص ٥٨-٥٩ .

(٢) ابن العديم : بغية الطلب (اياصوفيا) لوحة ٢٢٢ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٢٨ - ٢٣٠ ؛ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢١٤- ٢١٥ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٦٣-٦٥ .

واليا من قبله وعاد الى حلب (١) .

أما عن سياسة العزيز داخل حلب ، فقد اتسمت باللين وحسن الادارة والتقرب الى الرعية والاحسان اليهم ،ونشر العدل داخل مملكته ورفع الظلم عن الناس ، وعدم الاجحاف بهم ،ومما يدل على ذلك تصرفه ازاء احد أثرياء حلب ويدعى كمال الدين بن العجمى الذى طلب منه أن يوليه قضاء حلب ، بعد وفاة القاضي بهاء الدين بن شداد . وعرض مقابل ذلك مبلغا كبيرا من المال وشيئا مقررا كل سنة من الاوقاف وغيرها . لكن العزيز رفض هذا العرض لأنه رأى فيه مدعاة الى الجور في الاحكام والخروج عن القوانين الشرعية . هذا فضلا عن ان طالب القضاء بهذه الصورة لا يكون مأمونا على اموال الناس وأعراضهم . وقد رفض العزيز بدافع من سجيته الكريمة ،ودينه الوافر ، وحرصه الشديد على نشر العدل بين رعيته . فأسند منصب القضاء الى نائب القاضي بهاء الدين بن شداد ، ويدعى زين الدين بن الاستاذ ،لما عرف عنه من علم وافر ونزاهة وتقوى ، اضافةالى ثقة القاضي ابن شداد به قبيل موته . كما سار العزيز على سياسة والده في توريث المناصب للابناء اذا اشتهروا بالكفاءة والاخلاص مثل آبائهم (٢) .

وكيفما كان الامر فان عهد العزيز لم يدم طويلا بحلب اذ مرض سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م ، فقرر تولية ابنه الناصر يوسف وارسل المؤرخ كمال الدين بن العديم الى اخيه احمد بن الظاهر صاحب عينتاب طالبا

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢١٨-٢١٩ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٨٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٢ ص ٢٥٧-٢٥٨ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٥٧-٣٥٨ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١١٦-١١٧ .

منه التنازل عن ولاية العهد لابنه ، واستحلفه على ذلك . وكانت وفاته في ربيع الاول ٦٣٤هـ/ديسمبر ١٢٣٦م عن ثلاث وعشرين سنة من العمر.(١)

لما توفي العزيز ، تقرر اقامة ابنه الناصر يوسف صلاح الدين مكانه وهو بعد ما يزال صغيرا ،فمولده سنة ٦٢٧هـ . ومن أجل ذلك تألف مجلس وصاية مكونا من الأمير شمس الدين لؤلؤ الاميني ،وعز الدين عمر بن محلّى ، والوزير جمال الدين القفطي . على ان يحضر المجلس جمال الدين إقبال الخاتوني ،ويقوم بمهمة حلقة الاتصال بينهم وبين جدة الملك الصغير ضيفة خاتون ابنة العادل وشقيقة السلطان الكامل . وأن تكون العلامات على التواقع والمكاتبات اليها ،واصبحت ضيفة خاتون تدير مملكة حلب بصورة غير مباشرة . وحينما تقررت هذه القواعد ، بعث الحلبيون بالقاضي زين الدين بن الاستاذ ،وبدر الدين بن الهيجاء رسولين الى السلطان الكامل لأخذ موافقته على هذه الاجراءات ،ووافق الكامل على ذلك .

واقترح اقامة الصالح بن الظاهر صاحب عينتاب(٢) أتابكا للعسكر ،وأن يقوم بتربية ابن أخيه الناصر يوسف . وعندما عاد الرسولان الى حلب وأخبرا ضيفة خاتون أخت الكامل بهذا الاقتراح ، رفضته وأيدها في ذلك أعضاء مجلس الوصاية . وبعد فترة وجيزة أرسل السلطان الكامل خلعة للملك الناصر يوسف ،وخلعة اخرى لعمه الصالح صاحب عينتاب ،الأمر الذى أوقع الشك والريبة في نفوس أهل حلب ،ومنعوا الخلع من الوصول الى الصالح ، فتدهورت العلاقات بعد ذلك بين مملكة حلب

---

(١) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحه ٣٥٥-٣٥٦ ؛ العليمي في تاريخ من ملك مصر وعكا والشام والساحل ،ورقة ١١٤أ ؛ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٢١ ؛ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١١٦ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ص ١٥٨ .

(٢) وعينتاب قلعة حصينة من اعمال حلب تقع بين انطاكية وحلب . انظر ياقوت ؛معجم البلدان .

والسلطان الكامل [١] .

ولقد جرت موءامرة داخلية للاطاحة بمملكة حلب ، حاك خيوطها يوسف بن مسعود بن سابق الدين بن الداية ، الذى كان بيده شيزر ، وكمال الدين بن العجمي ،وأرسلا سرا الى الملك الاشرف موسى صاحب حلب ، يعرضان عليه الاستيلاء على حلب و يعدانه بالمساعدة من الداخل . غير ان الاشرف رفض عرضهما ، ثم اكتشفت الصاحبة ضيفة خاتون واعوانها سر الموءامرة . وجرى القبض على ابن الداية وابن العجمي واعتقلا بقلعة حلب سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٥م [٢] .

ومن الاخطار التي تعرضت لها مملكة حلب سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٥م خطر التركمان ،اذ قام احد زعمائهم ويدعى قنغر ،وجمع اعدادا كبيرة من التركمان ،وعاث في اطراف حلب و نهب عدة قرى ، وكان يشن الغارات ويلجأ الى اسيا الصغرى ،ولما خرج اليه عسكر حلب أنزل بهم الهزيمة . فظن امراء حلب ان تلك الغارات التركمانية بأمر سلطان سلاجقة الروم ، فارسلوا يشكون اليه قنغر ، فأمره برد ما نهب من اعمال حلب " وانكف عن العبث والفساد " [٣] .

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ٨ ورقة ٤٢٤ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٥٨ - ٣٥٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٢٥-٢٢٦؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١١٨-١٢١ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ص ٨٨ ؛ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٦٨ - ٣٦٩ ؛ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٢٨-٢٢٩ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٢٨-١٣٠؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤٠٩ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٦٧ - ٣٦٨ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٣٠- ١٣١ .

وفي السنة التالية (٦٣٥هـ / ١٢٣٨م) شهدت مملكة حلب أحداثا خطيرة ، اذ اندلعت نيران الحرب الأهلية في بلاد الشام ، تلك الحرب التي سيكون لها نتائج سيئة على احوال بلاد الشام قبيل الغزو المغولي . وكان من الطبيعي ان تطال هذه الحرب مملكة حلب ، شأنها في ذلك شأن بقية بلدان الشام . فاستدعت الصاحبة خاتون المعظم بن صلاح الدين واخوته واقاربه وجميع امراء حلب ،واخذت منهم العهود والمواثيق على الاخلاص للملك الناصر ،واستحلفت أيضا وجهاء حلب وسائر جنودها وشرعت في الاستعداد لظروف الحرب بتخزين المؤن والأقوات والسلاح والذخائر ،وجندت جماعة من الخوارزمية ، كما وصل الى حلب قنغر التركماني فاستخدمته وأتباعه من التركمان ،وكل هذه الاستعدادات كانت ضمن تحالف ملوك الشام ضد السلطان الكامل (١).

وقد تمكنت الصاحبة ضيفة خاتون من المحافظة على مملكة حلب ،رغم تتابع الحوادث التي شهدتها بلاد الشام زمن الحرب الاهلية بين الأيوبيين . بل انها أضافت الى مملكة حلب قلعة جعبر ،بمنطقة الجزيرة الفراتية . وكانت هذه القلعة خاضعة للملك الحافظ أرسلان شاه بن العادل . وفي سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م أصيب الحافظ بالشلل ،واشتد خوفه من الخوارزمية ،فراسل أخته ضيفة خاتون وطلب منها ان تتسلم قلعة جعبر وبالس وان تعوضه عن ذلك ببعض القرى القريبة من حلب ، فأعطته عزاز وبعثت الى قلعة جعبر وتسلمتها (٢) . اما الحافظ فتوفى في السنة التالية

----

(١) مفرج الكروب ،جـ٥ ص ١٨٠ . وعن الحرب الاهلية واسبابها ودور حلب فيها انظر الفصل الثاني ص: ١٥١ - ١٥٢ ، ١٦٧-١٦٨ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٦٦- ٥٦٧ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٣٣ ؛مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٧٩-٢٨٠ ؛ الغزى : نهر الذهب جـ٣ ص ١١٦ ؛ الطباخ : إعلام النبلاء جـ٢ ص ٢٦٠ .

٦٣٩هـ/ ١٢٤١م وعادت عزاز مرة اخرى الى نواب الملك الناصر يوسف[١] .

لقد اتسمت سياسة ضيفة خاتون بالعدل في الرعية ،والاحسان اليهم ، وأزالت المكوس من جميع بلاد حلب ،وكانت تؤثر الفقراء والعلماء وتحمل اليهم الصلات الكثيرة . وتوفيت سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م بعد ان قامت بتدبير مملكة حلب زهاء ست سنين ،وحينما توفيت اخذ الناصر يوسف يمارس سلطاته بالتدريج ويساعده في ذلك جمال الدولة إقبال الخاتوني ،والوزير جمال الدين القفطي[٢] .

وشرع الناصر يوسف بعد انتهاء الحرب الاهلية في توطيد نفوذه فاستولى على حمص سنة[٣] ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م . وفي السنة التالية انزل بصاحب الموصل الهزيمة واستولى على نصيبين ودارا وقرقيسياء بمنطقة الجزيرة[٤] . وقد توطد نفوذ الناصر يوسف بالجزيرة ، فيذكر المؤرخ المعاصر عز الدين بن شداد أنه كان بيده من بلاد الجزيرة ،حران ،والرها ،وسروج ،والرقة وقلعة جعبر والبيرة ،وجملين ،والموزر ،ومن ديار ربيعة نصيبين ، ورأس عين ودارا والخابور وقرقيسياء[٥] .

أما الفترة منذ سنة ٦٤٧ هـ وحتى سنة ٦٥٧ هـ ، فقد شهدت تطورات ضخمة ،تمثلت في سقوط الدولة الايوبية في مصر ،وقيام دولة المماليك واستيلاء الناصر يوسف على دمشق وغيرها ومحاولته استعادة مصر ، وأثر كل ذلك على احوال بلاد الشام قبيل الغزو المغولي[٦] .

---

(١) زبدة الحلب ج٣ ص ٢٦٣ ؛مفرج الكروب ج٥ ص ٣٠٨ .

(٢) زبدة الحلب ج٣ ص ٢٦٥ - ٢٦٧ ؛ابو الفدا ،المختصر ج٣ ص١٧١ ؛ الصفدى : الوافي بالوفيات ج١٦ ص ٣٢٨ ؛المقريزى : السلوك ج١ ص ٣١١ .

(٣) ابن الفوطي :الحوادث الجامعة ص ٢١٩ ؛ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٥٩ ؛ابو الفدا ،المختصر ج٣ ص ١٧٧ .

(٤) ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٢ ؛ابو الفدا : نفس المصدر ج٣ ص ١٨١ .

(٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج٣ ص ٢٤٥ .

(٦) انظر تفصيل هذه الحوادث في الفصل الثاني الصفحات : ٢٠٢ - ٢٢١ .

ب ـ مملكة حماة :

اذا كانت مملكة حلب قد لعبت دورا هاما في تاريخ بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ،فان الدور الذى لعبته مملكة حماه لا يمكن اغفاله خلال نفس الفترة . والجدير بالذكر أن مملكة حماه هي المملكة الايوبية الوحيدة في بلاد الشام التي نجت من السقوط أمام جحافل المغول بسبب سياسة المسالمة التي نتهجها أهل حماه ازاء المغول .

وتنسب هذه المملكة الى المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن ايوب ، الذى كان صلاح الدين قد أقطعه حماه ومنبج والمعرة وكفر طاب سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م (١) . فلما توفي المظفر تقي الدين عمر سنة ٥٨٧ هـ /١١٩١م آلت ممتلكاته الى ابنه المنصور محمد ، وأقره صلاح الدين على ما بيده (٢) . فلما اندلعت حرب الوراثة بين ابناء صلاح الدين ، لم يشأ المنصور محمد الانغماس فيها ،الا بالقدر الذى يضمن مصالحه ويحفظ مملكته من السقوط .

لما انتهت حرب الوراثة الايوبية ،واصبح العادل هو السلطان الذى لا ينازعه منازع ، قرر المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب توطيد علاقته معه ،فخطب ابنته ملكة خاتون سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م وتم زواجه بها سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م (٣) . وفي سنة ٦٠١هـ سار المنصور الى مصر ،فاكرمه العادل واحسن اليه والى اصحابه ،وعاد الى حماه مسرورا برضى السلطان عنه (٤) . ومما يجدر ذكره ان المنصور لعب دورا هاما

---

(١) ابو الفدا ،المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق جـ٣ ص ٨٠-٨١ .

(٣) ابن ابي الدم : التاريخ المظفرى لوحة ٥٤٠ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١١٤، ١٣٤ .

(٤) مفرج الكروب جـ٣ ص ١٦٤ ؛ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢٤ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٠٦ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٤٥- ٤٦ .

في جهاد الصليبيين ، سوف نتعرض له بالشرح والتفصيل خلال الحديث عن العلاقات بين المسلمين والفرنج (١) .

والحق لقد اجمع المؤرخون على حسن سيرة الملك المنصور ،ورحمته برعيته ،واهتمامه بعمارة مملكته . فحصّن حماه وعمّق خندقها ،وجعله دائرا حول المدينة ،وبنى عليه الجسور ،وشهدت حماه في عهده نهضة علمية وعمرانية عظيمة (٢) .

ظل الملك المنصور يحكم فترة طويلة ،وفي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م طلب من اهل حماه الموافقة على ان يكون ابنه المظفر تقي الدين محمود ولي عهده ، وكان عمره سبع عشرة سنة ،فأجابوه الى ذلك ،وأمر القاضي سالم بن واصل - والد المؤرخ المعروف - بكتابة العهد على ذلك ،واخذ يمين الامراء والاعيان عليه . وجهز ابنه المظفر على رأس فرقة عسكرية وأمره بالرحيل الى مصر لنجدة خاله السلطان الكامل ، الذى كان يقوم حينذاك بالتصدى للحملة الصليبية الخامسة (٣) . ثم توفي الملك المنصور في السنة التالية ٦١٧هـ/١٢٢٠م (٤) .

وكان من المفترض حسب وصية الملك المنصور ، ان يتولى ابنه المظفر الحكم . غير ان ذلك لم يحدث ، اذ كان المظفر في مصر عند السلطان

----

(١) انظر مايلي ص: ٢٣٢ - ٢٣٥ .
(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٩٠ -٩١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٧٧ - ٨١ وعن منشآت المنصور المعمارية ودوره في الحياة العلمية انظر الفصل الخامس الصفحات : ٤٣٧-٤٤٨ ،٥٠٠
(٣) مفرج الكروب جـ٤ ص ٦٤ - ٦٥ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٢٤ .
(٤) ابن ابي الدم : التاريخ المظفرى لوحة ٥٤٤ ؛ ابن نظيف : المصدر السابق ص ٩٠ .

الكامل في مواجهة الصليبيين ،وكان الوزير بحماه - وقتذاك - زين الدين ابن فريج ، فاتفق مع جماعة من الامراء على استدعاء الناصر قلج أرسلان ، الابن الثاني للملك المنصور - وكان قلج ارسلان ايضا يساعد الملك المعظم بن العادل على جهاد الصليبيين في فلسطين - وقد قام الامراء بهذا الاجراء لما عرف عن قلج ارسلان من لين عريكة ، وخوفا من المظفر لما اشتهر به من الشدة والشهامة وقوة البأس . ويبدو ان هوءلاء الأمراء قصدوا من هذا ان يبقى الناصر قلج ألعوبة في أيديهم ،ويتصرفون بالتالي في شئون مملكة حماه كما يريدون . فبعثوا الى الناصر يستدعونه على عجل ، بيد ان خاله المعظم بن العادل لم يسمح له بالرجوع الا بعد ان تعهد له بدفع مبلغ من المال اذا استولى على حماه . فعاد الناصر قلج الى حماه ودخل الى القلعة ،ونادى الامراء بشعاره ملكا على حماه وحنثوا في ايمانهم وعهودهم لأخيه المظفر (١) .

لما علم المظفر بنبأ وفاة والده ،استأذن خاله السلطان الكامل في العودة الى حماه ، معتقدا انه بمجرد وصوله اليها سوف يتسلم السلطة . لكنه عندما التقى بخاله المعظم في غور الاردن أخبره ان امراء حماه قلدوا اخاه قلج ارسلان ،وأشار عليه بالاقامة في دمشق ،ومراسلة ارباب الدولة في بلده وتذكيرهم بعهدهم السابق له . واستجاب المظفر لمشورة خاله فأقام بدمشق ،وحينما آيس من استعادة حماه رجع الى مصر وأقام الى جوار السلطان الكامل (٢) .

---

(١) ابن أبي الدم : التاريخ المظفرى لوحة ٤٤٥-٤٤٦ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقم ٢٢٦ أ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٩١ حاشية رقم (٢) ؛ مفرج الكروب جـ٤ ص ٨٦-٨٧ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٢٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٨٨ - ٨٩ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٢٦ .

ومن ناحية أخرى ،فقد تعرضت مملكة حماة لخطر محقق من قبل الملك المعظم صاحب دمشق . وذلك لأن الناصر قلج لم يقم بدفع ماتعهد به من المال بعد استيلائه على حماه ،فقرر المعظم الاستيلاء عليها وضمها الى مملكته ،وفي الوقت نفسه ،هرب احد قادة السلطان الكامل ويدعى مجاهد الدين اقبال ،ولجأ الى حماه ،فأرسل الكامل الى اخيه المعظم يأمره بالقبض عليه وارساله الى مصر ،فاتخذ المعظم ذلك ذريعة للهجوم على مملكة حماه . وسار اليها بجيشه اوائل سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م ، بينما كان الناصر قلج ارسلان يتصيد خارج حماه . فلما علم بقدوم خاله عاد مسرعا الى بلده وتحصن بها ،واستعد للحصار . ولما أدرك المعظم صعوبة الاستيلاء على حماه نفسها ، قرر تجريدها من مواردها الاقتصادية لاجبارها على الاستسلام ،عن طريق الاستيلاء على قراها الزراعية فسار الى سلمية [(١)] واخذ جميع محاصيلها من الحبوب ،وولى فيها واليا من قبله ،ورحل الى معرة النعمان فأذعنت له . وأرسل الناصر قلج اليه بالمعرة رسولا يستعطفه لكنه رفض اجابته . وفي معرة النعمان [(٢)] تلقى المعظم مبعوثا من اتابك حلب شهاب الدين طغريل مستفسرا عن سبب اقترابه من حلب ،فاعتذر للأتابك بأنه لم يقصد حماه الا للقبض على الأمير مجاهد الدين . ولكن الناصر قلج لم يحترمه ،ولم ينزل اليه ويقدم له الخدمة . ورحل الى سلمية عاقدا العزم على منازلة حماه وانتزاعها من الناصر قلج ارسلان. [(٣)]

---

(١) سلمية : بلدة من اعمال حماه بينهما مسيرة يومين على الاقدام . انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) معرة النعمان : مدينة كبيرةقديمة مشهورة تقع بين حلب وحماه . انظر ياقوت :معجم البلدان .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٧ أ ؛ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١١٧-١٢٠ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٣١ ؛محمد كرد على : خطط الشام جـ٢ ص ٨٣ - ٨٤ .

استمر المعظم في مضايقة حماه حتى سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣م فأمر العرب بقطع الطريق الى حماه ، ومنع الميرة والموء من الوصول اليها ، وحال دون وصول الجنود والمساعدات اليها ، كما حول طريق القوافل التجارية الذى كان يمر بها ، فجعل محطة التجار بسلمية الخاضعة له . وهكذا بدا وكأن حماة على وشك السقوط بيد الملك المعظم ، غير ان اخاه الاشرف موسى صاحب البلاد الشرقية - شرق الفرات - كان مقيما بمصر ، فخاطب أخاه السلطان الكامل وشرح له مغبة ترك المعظم يستولى على حماه . لان ذلك سوف يغريه بتوسيع نفوذه على حساب الايوبيين في بلاد الشام ، مع ما في ذلك من تهديد مباشر لهما . فاتفقا على منعه من تحقيق هدفه ، فارسل السلطان الكامل اليه يأمره بالانسحاب وترك حماه على حالها . ولما كان الكامل هو السلطان الشرعي فلم يشأ المعظم - في هذا الوقت - ان يجاهر اخاه بالعصيان فانسحب عائدا الى دمشق (١) .

واذا كان من رأى السلطان الكامل اعادة المظفر محمود الى مملكته بحماه ، الا ان الملك الاشرف كان يرفض هذا الرأى ، لان الناصر قلج يدين بالولاء المباشر له . واخيرا استقر الرأى بين الاخوين على انتزاع سلمية من الناصر قلج ، واعطاءها للمظفر محمود ، مع احتفاظ قلج ارسلان بحماه والمعرة وبارين (٢) . فأرسل المظفر محمود نائبا عنه وتسلم سلمية في سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م وشرع في عمارة قلعتها وتحصينها ، وكانت هذه هي الخطوة الاولى في استعادته لحماه من أخيه الناصر قلج (٣) .

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٢٧أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٢٦-١٢٨ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٣٢ .

(٢) بارين : مدينة حسنة بين حلب وحماه من جهة الغرب ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٢٨-١٢٩ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٩٧ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٣٢ ؛ محمد كرد علي : خطط الشام جـ٢ ص ٨٤ .

أما عن سياسة الناصر قلج داخل حماه ، فقد اتسمت بالعسف وسوء التدبير . فعلى سبيل المثال ،كان والده قد ولّي رجلا يدعى شهاب الدين ابن القطب عملا ، فخان فيه،فاعتقله بقلعة حماه ، واثناء فترة اعتقاله نشأت صداقة بينه وبين الناصر قلج . فلما اصبح الاخير ملكا على حماه أحسن الى شهاب الدين بن القطب واقطعه اقطاعا جليلا وولاه المعرة ،واصبح شهاب الدين يتصرف تصرف الملوك ،وصارت اليه اتابكية العسكر وادارة شئون الدولة . ولكن الناصر قلج لم يلبث ان غضب عليه سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م واعتقله وحبسه بقلعة حماه (١) .

واشتد الناصر في اساءته ،وكان من مظاهر عسفه وظلمه أنه فرض في سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م على رعيته ضرائب عينيه كالاغنام والمواشي ، وخمسة الاف مكوك من الغلال ،واشتط في سبيل الحصول على الضرائب ، فلجأ الى احراق بعض الدور ،وقطع اشجار بعض البساتين في سبيل الحصول على ذلك (٢) .

وفي سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م قرر السلطان الكامل - بعد استيلائه على دمشق من ابن اخيه الناصر داود وتسليمها لأخيه الاشرف - التحرك شمالا لقصد حماه ، فوصل بجيوشه مروج حمص وامر المظفر تقي الدين محمود - شقيق الناصر قلج - ان يرحل بجزء من العسكر الى حماه لمحاصرتها وبعث في صحبته المجاهد شيركوه صاحب حمص ، والعزيز والصالح اسماعيل ،ونازل المظفر حماه يحدوه الأمل في استعادتها ،بينما

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٨٧-٨٨ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤ - ٥ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٥٨ .

تأهب شقيقه الناصر قلج استعدادا لمواجهة الحصار حيث حشد في قلعة حماه من المؤن والذخائر ما يكفيه مدة طويلة ،غير ان استعداده هذا ذهب هباء لما عرف عنه من خور وجبن ،فحينما نصب العسكر المنجنيق على حماه أصيب بالرعب والفزع ،فقرر النزول الى السلطان الكامل دون الحصول على اى ضمان ،وارسل الى صاحب حمص يطلب اصطحابه الى السلطان (١) ،وحينما وصل الى الكامل اعتقله وأمره بتسليم حماه اليه . فأجاب السلطان الى ذلك وأرسل الى نواب القلعة يأمرهم بتسليمها لمندوبي السلطان . ولكن الامراء بالقلعة رفضوا التسليم ، وأعلنوا المعز بن المنصور شقيق الناصر والمظفر ملكا على حماه وهو ما يزال صغيرا ،وساند سكان حماه هذا الاجراء ،وقذفوا مبعوثي السلطان بالحجارة ، فرجعوا الى الكامل واخبروه بما جرى ،فأرسل الكامل المظفر وامره بأن يتفق مع امراء ابيه على التسليم ، فراسلهم المظفر فوافقوه على تسليم المدينة بشرط الا يسلمها للسلطان الكامل ،ولا يسمح لجيوشه بالدخول اليها ،ووافق المظفر على طلبهم وتعهد لهم بعدم الاساءة اليهم ،وبذلك استرد حماه في سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩ م وابتهج سكان حماه بدخوله اليهم ، لما اشتهر به من صرامة وشهامة ،فضلا عن زوال خوفهم من سقوط مملكة حماه بيد السلطان الكامل (٢) .

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٩ ب - ٣٠ أ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٦٥ - ٢٦٨ ؛ابو الفداء : المختصر جـ٣ ص ١٤٣-١٤٤ .

(٢) ابن ابي الدم : التاريخ المظفرى ،لوحة ٥٥٢-٥٥٥ ؛جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٩ ب - ٣١ أ ؛تاريخ ابن الفرات ،جـ٦ لوحة ٦٠-٦٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٦٥ - ٢٧١ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٨١ - ١٨٢ ؛ابو الفداء : المختصر جـ٣ ص ١٤٣-١٤٤ .

لما استقر حال المظفر في ملك حماه ،اخذ منه الكامل سلميه وأعطاها لشيركوه صاحب حمص ، جزاء وقوفه الى جانبه . ثم اطلق الكامل سراح الناصر قلج ارسلان ،وامر المظفر باعطاء بارين لشقيقه قلج ارسلان ، وأن يدفع له مبلغ اربعمائة الف درهم كان قد جمعها في قلعة حماه ، فأعطاه المظفر بارين ،لكنه ماطله في تسليم الاموال . وهكذا لم يبق بيد المظفر سوى حماه والمعرة (١) .

أما الكامل فقد رحل الى املاكه الواقعة شرق الفرات سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م ثم استدعى المظفر من حماه فسافر الى خدمته ،وعندما وصل عقد له على ابنته غازية خاتون وأعطاه تقليدا بمملكة حماه ، فعاد اليها مسرورا بتوطيد العلاقات مع السلطان الكامل (٢) .

واذا كان الكامل قد انتزع بارين من المظفر سنة ٦٢٦هـ - كما اشرنا - وسلمها لاخيه قلج أرسلان ،فان المظفر تمكن سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م من اقناع السلطان بالسماح له باستعادة بارين حيث أوضح له اهمية موقعها المجاور لحصن الاكراد الخاضع للفرنج ، الذين كانوا يغيرون دائما عليها ويفرضون عليها الاتاوة ،اضافة الى امتلاكهم نصف الضياع التابعة لها ،وأبدى المظفر للسلطان خشيته من قيامهم بالاستيلاء عليها لعجز أخيه عن مواجهتهم . فسمح له بمحاصرتها ،فنازلها المظفر

---

(١) ابن ابي الدم : التاريخ المظفرى ،لوحة ٥٥ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٣١ أ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٦٣-٦٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٧٣ ،ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٤٤ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٦٦-٦٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٧٦-٢٧٣ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٤٥ .

واستولى عليها في السنة نفسها ،وعرض على قلج ارسلان الاقامة بحماه فرفض وآثر الذهاب الى مصر [١] .

وقد اسند المظفر - حين استولى على حماه - منصب الوزارة الى الامير سيف الدين علي بن ابي علي الهذباني لما عرف عنه من كفاية وحسن تدبير [٢] ، وسرعان ما غدا غالبا على امر سيده المظفر محمود ومتحكما في دولته والامور بكاملها راجعة اليه . وفي سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م أشار عليه ببناء قلعة المعرة وأوهمه ان ذلك في مصلحة حماة ،وبعد ان انفق عليها اموالا طائلة وجهودا مضنية انقض عليها الحلبيون واضافوها لمملكتهم [٣] .

وظل المظفر يحكم حماه حتى سنة ٦٣٩هـ/١٢٤٢م فاصيب بحمى نجم عنها شلل نصفي واصبح لا يتكلم الا بصعوبة . وعندئذ قام بتدبير امور مملكته الأمير سيف الدين طغريل مستنيرا برأى الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد الانصارى ،وبهاء الدين بن التاج ومرشد المنصورى وزوجة المظفر غازية خاتون ابنة الكامل [٤] . وظل المظفر على هذه الحالة الى ان توفي سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٥م [٥] . وخلفه ابنه المنصور ناصر الدين محمد وعمره زهاء عشر سنين ،وظل مجلس الوصاية قائما

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٣٠-٢٣١ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٦٧-٦٩ ؛ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٣ ص ١٤٥ .

(٢) ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٤٤ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٦٥-٢٦٦ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٨٣ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ٢٣٥ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٠٦-٣٠٧ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٤٢-٣٤٣ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣١٨ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧٣ .

بتدبير شئونه ورعاية مملكته [١] .

ولم تلبث علاقة حماه بحلب ان تحسنت بعد نهاية الحرب الاهلية ،ففي سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م سار من حماه الشيخ احمد بن محمد ابن نصر الله رسولا الى السلطان الناصر يوسف صاحب حلب ليخطب شقيقته عائشة خاتون للملك ناصر الدين وتم عقد النكاح وتوطدت العلاقات بين المملكتين [٢] .

وفي سنة ٦٤٣هـ استعاد الحمويون سلمية من صاحب حمص ، بعد ان فقدوها منذ سنة ٦٢٦هـ [٣] .

ومهما يكن من شيء ، فان سياسة المهادنة والمداهنة التي انتهجها المنصور ،محمد هي التي حمت مملكته من السقوط ، امام المغول والمماليك واستمرت بعد موته سنة ٦٨٣ هـ في خلفائه من بعده [٤] .

*

جـ - مملكة حمص :

تنسب مملكة حمص الى محمد بن شيركوه ابن عم صلاح الدين ، وكان الاخير قد اقطعه حمص سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م [٥] وحيثما توفي محمد

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٤٥ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧٣ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ١٧- ١٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٥٧ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧٦-١٧٧ .

(٣) ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧٤ .

(٤) انظر ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ٢٠٣ ،جـ٤ ص ١٨ .

(٥) ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص ٤٢٣ ؛ نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربي ص٦٨ .

سنة ٥٨٢ هـ أقر صلاح الدين حمص بيد ابنه شيركوه بن محمد بن شيركوه [١] .

وقد أسهم المجاهد شيركوه بن محمد في حرب الوراثة الأيوبية شأنه في ذلك شأن ملوك بلاد الشام من الأيوبيين [٢] . وقد استطاع المحافظة على مملكته وسط القوى المختلفة . واتصف بالشجاعة والاقدام ، وكان يباشر الحرب بنفسه ،كما ان ملوك بني أيوب كانوا يقدرونه بل ويهابونه ((لأنه كان يرى أنه أحق بالملك منهم لأن جده أسد الدين وفتحه مصر)) [٣] .

وكانت حمص زمن المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه هدفا لغارات القبائل البدوية ،وعلى رأسهم عرب غزية [٤] البطنين ، ففي سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م هاجموا بلد حمص وأخذوا أغنام الاهالي ، وتبعهم عسكر حمص ، لكنه تراجع لكثرتهم [٥] . كما طمع في حمص الملك المعظم صاحب دمشق ،الذى كان يرغب في ضمها الى مملكته فأوعز الى العرب التابعين له في سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م بالاغارة عليها ففعلوا و مكثوا عدة أيام يغيرون على ريف حمص وحماه وسلمية وبارين ويعودون الى منازلهم في بادية الشام. وعندما ازداد طمعهم خرج

---

(١) ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ٦٩-٧٠ .
(٢) انظر ما سبق ص : ٣٩
(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٣١ .
(٤) غزية البطنين هم فخذ من قبيلة طي سكنوا بادية الشام والعراق والحجاز ،انظر القلقشندى : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ص ١٣٠ ؛القلقشندى : صبح الاعشى جـ١ ص ٣٢٣ .
(٥) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٤١-١٤٢ .

اليهم المجاهد شيركوه بنفسه وانزل بهم هزيمة ساحقة ، وقتل الكثير من رجالهم و نهبهم ،وساعده على ذلك الامير مانع بن حديثة الطائي ، وقام المهزومون بمراسلة المعظم يشكون اليه شيركوه ، فَصَعُبَ عليه امرهم ، وامر بانزالهم غوطة دمشق وارسل يعاتب شيركوه على ذلك ، فرد عليه ردا حازما ،وبلغت الغنائم التي حازها اسد الدين شيركوه من هذه الحرب خمسة الاف جمل ،واعداداً ضخمة من الاغنام والخيول ،وكميات كبيرة من الاقمشة والاثاث (١) .

أما الاشرف موسى بن العادل - الذى أضحى ملكا على دمشق منذ سنة ٦٢٦هـ - فقد آثر تحسين علاقاته مع المجاهد أسدالدين شيركوه ، فبعث اليه سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م يدعوه الى دمشق ، فأجابه المجاهد الى طلبه ،وقدم الى دمشق ، وتبادل الملكان الهدايا وخرجا الى الصيد وفي تلك الاثناء هاجمت العرب من خفاجة (٢) وغزية أعمال تدمر ، فاتفق المجاهد والاشرف وبعض امراء العرب الموالين لهما على الخروج لصد خفاجة وغزية ،وجهز المنصور بن المجاهد جيشا من حمص وتمكن الجميع من رد المغيرين ، واستعادة ما نهبوه من جمال وغيرها (٣) .

----

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٤٢-١٤٥ .

(٢) خفاجة : هم بنو خفاجة بن عمرو من قبيلة عقيل العدنانية وقد سكنوا العراق والجزيرة وشمال الشام ،انظر : القلقشندى: قلائد الجمان ص ١٢٢-١٢٣ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى جـ١ ص ٣٤٣ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٣٣- ٢٣٤ ؛ ابن نظيف : المصدر السابق ص ٢٥٤ .

اما عن اصلاحات المجاهد داخل مملكة حمص ، فقد اهتم بعمارة بلاده غاية الاهتمام ، ولم يدخر في ذلك جهدا ، ففي سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م بنى قلعة بمنطقة سلمية التي سبق واخذها الكامل من صاحب حماه وسلمها له ،واختار موضع القلعة مكانا عسكريا هاما على رأس جبل يعرف باسم شميميش ،وقد ساء ذلك المظفر صاحب حماه ، وحاول إثناء المجاهد عن عزمه ، الا انه اخفق ، فجمع المجاهد غلمانه واصحابه وبعض عساكره والعربان التابعين له ، وأحضر الالات اللازمة للبناء ، وأتمها وسَوَّرَهَا ،واصبحت في غاية المنعة والحصانة ، وشحنها بالحرس والذخائر والمؤن ،واصبح يعتز بها ويفتخر ، وسماها ماردين الشام تشبيها بقلعة ماردين الحصينة في منطقة الجزيرة . وبنى فيها عددا من الصهاريج وملأها بالماء . كما أنشأ بالرحبة الواقعة على نهر الفرات قلعة حصينة - وأقام بتدمر قلعة على جبل حصين عال لحماية رعاياه داخل تدمر من غارات البدو.
اما في داخل حمص ،فزاد في عمارة قلعة حمص ، ورفعها عما كانت عليه وحصنها وعمق خندقها . وأنشأ بحمص قنوات متقنة أجرى اليها الماء من خارج حمص الى داخل المدينة ،وأنشأ بها البساتين والحدائق . وجعل المنطقة الغربية من حمص غاية في الخصوبة ،وزرع فيها شجر الأرز عن طريق سحب المياه من نهر العاصي . وجدد بحمص بيمارستانا عظيما ،ورتب فيه ما يحتاج اليه من مؤن وادوية ،وأوقف عليه أوقافا تقوم على نفقاته وادارته ، كما عمر بحمص مدرسة جميلة(١).

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ١٤٠-١٤١ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٢٢٠- ٢٢٢ .

كما بنى الأبراج على نهر العاصي ، وجعل فيها الرجال والحمام الزاجل ،لمراقبة تحركات الفرنج ، وللحيلولة دون مباغتتهم مملكة حمص ؛ وقد ساعد بناء هذه الابراج على إفشال جميع غارات الفرنج على حمص وريفها ،اذ ما يكادون يشرعون في الحركة حتى يصل الخبر للملك المجاهد فيتصدى لهم ويفسد حركتهم (١) .

ويذكر المؤرخون ان بلاد المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد ابن شيركوه كانت طاهرة من الخمور والخواطئ والمكوس ، فكانت تمر جميع القوافل التجارية ببلاده فلا يتعرض لها احد بسوء ،كما نشر العدل والأمن في جميع ارجاء مملكته (٢) .

وبلغ من تشدده في توطيد الأمن في بلاده ،أنه حمى الطريق بين دمشق وحمص من غارات الاعراب والفرنج ، وكانت له معهم وقائع كثيرة. ويورد ابن واصل واقعة طريفة مع الفرنج ، اذ أغارت جماعة منهم على وادى الربيعة التابع لحمص ،واستاقوا قافلة معهم وساروا قاصدين حصن الاكراد التابع لهم ، فادركهم المجاهد واسترد القافلة واسرهم جميعا ، وكان ضمن القافلة رجل صوفي ،فشكى للمجاهد ان رجلا من اولئك الفرنج ما زال يصفعه الى ان وصل الملك وانقذهم فقال المجاهد للصوفي : " افعل انت به كما فعل بك " فتسلمه وظل يصفعه حتى وصولهم الى مدينة حمص (٣) .

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٣١ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٣١ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ٣ ص ١٥٤ ؛ ابن العميد : اخبار الايوبيين ص ١٥١ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٥٥ .

غير ان ابن واصل يذكر ان المجاهد كان كثير الظلم والعسف لرعيته ومتشددا في استخلاص الاموال منهم ،وكان اذا حبس احدا نسيه في سجنه مدة طويلة ،وبلغ من تشدده ان منع النساء بحمص من الخروج خارج المدينة خوفا ان ياخذ اهل البلد عائلاتهم ويهربوا (١) . اما سبط ابن الجوزى المؤرخ المعاصر ، فقد ذكر أنه كان فعلا ينسى سجنائه و منع النساء من الخروج من باب حمص (٢) ، دون ان يذكر سبب منعهن . ولعل ذلك بدافع الغيرة خوفا من وقوعهن بايدى الفرنج او الاعراب ، اما وصف ابن واصل له بالجور والظلم ،فيمكن التشكك فيه ولا سيما وأن ابن واصل ينتمي الى مدينة حماه ويدين بالولاء لملوكها ، والمعروف ان المجاهد شيركوه كان شديد العداء للحمويين ، وكثيرا ما شن الغارات ضدهم ،حتى انه في سنة ٦٣٥هـ وبعد موت السلطان الكامل عمد الى قطع الماء الذى يجرى في قناة من سلمية الى حماه مما ادى الى خراب الكثير من بساتين حماه ،كما حاول المجاهد قطع نهر العاصي كلية عن حماه الا انه اخفق بسبب عجزه عن السيطرة على النهر (٣) . لهذا فمن الطبيعي ان نشك في الاحكام التي يصدرها ابن واصل ضد المجاهد ،بسبب العداوة والمنافسة بين حمص وحماه .

ويبدو أن المجاهد صاحب حمص لعب دورا هاما في افساد العلاقات الودية بين الاشرف واخيه السلطان الكامل ،وما ترتب على ذلك من تحالف ملوك الشام ضد الكامل (٤) وما يزكي هذا الرأى أن المؤرخ

---

(١) المصدر السابق جـ٥ ص ٢٥٦ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٣٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٧٧-١٧٨ .

(٤) انظر مايلي ص : ١٥١ .

المعاصر للاحداث سبط ابن الجوزى ،ذكرانه في سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م وبعد وفاة الاشرف واستيلاء الكامل على دمشق ذكر له الكامل قائلا :
" قال لي - اى السلطان الكامل - ما افسد احوالنا الا صاحب حمص والله لأمحون اثاره فقلت قريب وهو خير من غريب " عندئذ قرر الكامل الزام المجاهد بدفع أتاوة حربية ضخمة فأرسل المجاهد نساءه الى دمشق يتشفعن ويطلبن اعفاءه من دفع الاموال التي طلبها الكامل ، فرفض الاخير ،وبينما المجاهد يزن الاموال لكي يقدمها للسلطان اذ ورد عليه نبأ وفاة الكامل على جناح طائر . ففرح فرحا شديدا وأعاد الاموال الى خزائنها وسار قاصدا دمشق (١) .

ومهما يكن من أمر ،فقد لعب المجاهد دورا هاما في الحرب الاهلية ،وفي تأييد الصالح اسماعيل (٢) . وفي سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٤ م توفي المجاهد بقلعة حمص بعد ان حكم نحو ست وخمسين سنة (٣) .

وخلفه ابنه المنصور ابراهيم واستولى على مملكته التي تضم حمص والرحبة وتدمر وسلمية وقلعتها المسماة شميميش ،وسار المنصور على سياسة والده في تأييد الصالح اسماعيل ومعاداة المظفر صاحب حماه (٤) . ولعب المنصور ايضا دورا هاما في درء خطر الخوارزمية عن بلاد الشام (٥) .

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٣١- ٧٣٢.

(٢) انظر الفصل الثاني ص١٥٧ - ١٦٢ ،١٧٥- ١٧٧.

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٣١ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٥٤ ؛ الصفدى : الوافي بالوفيات جـ٦ ص ٢١٦-٢١٧.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٥) انظر الفصل الرابع ص ٣٨١ - ٣٨٨.

وبعد ان تمكن الصالح ايوب من توحيد الدولة الايوبية سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م وخضعت له دمشق مع مصر ، رأى المنصور ابراهيم مصلحته في التقرب الى الصالح أيوب والوقوف الى جانبه ،فساعده ضد الخوارزمية وأنزل بهم الهزيمة فرضي عنه الصالح ايوب واستدعاه الى دمشق ، وأرضاه مما جعله يعلن اخلاصه للصالح نجم الدين ايوب (١) .

اما عن سياسة المنصور داخل حمص فقد اتسمت باللين والاحسان الى الرعية فعمرت حمص في أيامه وازدهرت (٢) . وتوفي المنصور سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م فقام مكانه ابنه الاشرف مظفر الدين موسى وكان ما يزال صغيرا ، فعمد الى تدبير دولته أحد اعيان حماة ويدعى ابراهيم ابن اسماعيل بن قرناص وهو الذي اشار عليه بالانحياز الى جانب الصالح ايوب والدخول في طاعته (٣) .

ولم تدم مملكة حمص زمن الاشرف موسى سوى عامين ،ففي سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م سلم الاشرف صاحب حمص قلعة شميميش الى الصالح أيوب فاغضب ذلك مملكة حلب فجرد الحلبيون حملة كبيرة وحاصرت حمص، فاذعن الأشرف الى تسليم حمص مقابل تعويضه تل باشر وان تبقى بيده تدمر والرحبة، وسلم حمص للناصر صاحب حلب ،وحاول الصالح ايوب انجاد حمص الا انه لم يتمكن بسبب مرضه ووصول الاخبار بنزول الفرنج الى دمياط (الحملة الصليبية السابعة) فاضطر الى الاستجابة لوساطة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٦٩-٣٧٠ .

(٢) المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٧١ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٦٤ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٧١-٣٧٢ ؛ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٦٢ .

مبعوث الخليفة وترك حمص بأيدى الحلبيين [١] .

*

د - مملكة دمشق [*] :

سبق الحديث عن الدور الذى لعبه الافضل بن صلاح الدين في تاريخ مملكة دمشق وما نجم عن سياسته من حوادث تمخضت اخيرا عن انتزاع دمشق منه سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م وأصبحت دمشق تابعة لعمه السلطان العادل [٢] .

وقد ذكر ابن تغرى بردى انه في اخر ليلة أقام فيها العزيز بدمشق بعد انتزاعها من الافضل امر العادل ابنه المعظم بالدخول الى العزيز وقال له : " فَقَبِل يده واطْلُبْ منه دمشق ... فدخل الى ابن عمه العزيز وقبل يده وطلب منه دمشق فدفعها اليه " [٣] .

وكيفما كان الأمر ،فان العادل بعد ان اصبح يملك دمشق قرر أن يجعلها لابنه المعظم وما يتبعها من بلاد الشام ،ولكنه في البداية لم يترك له حرية التصرف التام فيها لافتقاره الى الخبرة اضافة الى صغر سنه [٤] .

----

(١) ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٢ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٥٩؛ الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٠١ ؛ الغزى : نهر الذهب جـ٣ ص ١٥٥ ؛الطباخ : اعلام النبلاء جـ٢ ص ٢٦٨-٢٦٩ .

(*) نتحدث هنا باختصار شديد عن مملكة دمشق نظرا لان دمشق كانت محور الحوادث والعلاقات بين ملوك بني ايوب وما كان لذلك من نتائج بعيدة على احوال بلاد الشام ،وهو ما سنتحدث عنه بالتفصيل في الفصل الثاني ان شاء الله .

(٢) انظر ما سبق ص ٤٤ - ٤٦ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٢٦ .

(٤) المصدر السابق جـ ٦ ص ١٢٦ .

ومن اعمال العادل الطيبة بعد استيلائه على دمشق ،قيامه بتطهير بلاد الشام من الخمور والخواطيء والقمار والمكوس والمظالم " وكان الحاصل من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مائة الف دينار ، فابطل الجميع لله تعالى " ولم يكتف العادل بهذا ،بل أقام رجالا بمرتبات على جبل قاسيون المشرف على دمشق و على مداخل المدينة ليقوموا بعمليات التفتيش ويمنعون كل من يحمل منكرا من الدخول الى دمشق (١) .

وحينما أطلق العادل لابنه المعظم حرية التصرف في مملكة دمشق سنة ٦٠٤هـ (٢) اهتم المعظم بمملكته غاية الاهتمام ولا سيما وان مملكة دمشق اضحت تتمتع باهمية خاصة نظرا لانها نقطة الوصل بين مصر و بقية الممالك الايوبية في بلاد الشام والجزيرة ، اضافةالى مجاورتها للصليبيين في ساحل الشام مثل صور وطرابلس و عكا وغيرها . فعمل المعظم على توطيد الأمن والنظام داخل حدود مملكته في وقت ازداد فيه نشاط اللصوص ،و قطاع الطرق ،وقد باشر المعظم بنفسه تحقيق الأمن والطمأنينة لمملكة دمشق ، وتوفير الحماية الكاملة للمسافرين عبر المناطق التابعة لمملكته و تشدد المعظم في معاقبة اللصوص و قطاع الطرق ،ومن ذلك ما فعله على سبيل المثال ،مع جماعة يدعون بني رحمان ،وكانوا يقطنون قرب البلقاء في الاردن ، وكانوا يمارسون اعمال السلب والنهب ضد المسافرين والقوافل التجارية ، وحدث أن أغاروا على قافلة كان فيها بعض جوارى الملك المعظم وسبوهن ،

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٩٤ - ٥٩٥ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٦٩- ١٧٠ ؛ الصفدى : الوافي بالوفيات جـ٢ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٦٧-٦٨ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٦٧-٦٨ .

وعندما بلغه الخبر اشتد غضبه وجرد حملة عسكرية قادها بنفسه ،وهاجم بني رحمان وقتل الكثير منهم ،وعلى اثر ذلك بنى قلعة الصلت ،وجعل بها حامية عسكرية لمراقبة الطرق التجارية وحمايتها (١) .

وكان يوجد في منطقة الأغوار احد اللصوص الخطرين ويدعى قنديل ، وكان يقود عصابة مؤلفة من مائة لص ،وكانوا يغيرون باستمرار على القوافل والقرى الواقعة في منطقة الاغوار ،وكان من عادة الملك المعظم القيام بالدوريات العسكرية بنفسه لمراقبة تحركات الفرنج ،فكان يسير من دمشق الى القدس مرورا بجميع القرى والحصون المحاذية للفرنج ، وقد بلغه في احدى المرات خبر نشاط قنديل ،فقرر التخلص منه ،والتقى به قرب بيسان في فلسطين ،وقبض عليه وأخذه معه الى بيت المقدس ،واحضره بين يديه وهو يرسف في الأغلال ،فأمر بقتله ،وعندئذ توسل قنديل الى المعظم قائلا : " عوض ما تشنقني فاستبقيني احمي بلادك واجاهد الكفار " فرق له قلب المعظم واستتابه ،واستحلفه على الاخلاص في الخدمة واطلقه ،ومنذ ذلك الحين اضحى قنديل حارسا مخلصا فامنت الطرق والاموال بفضل حراسته للطرق والاموال وحمايته للمسافرين . وحينما جاءت جحافل الصليبيين سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م الى الطور تصدى لهم قنديل وقاتلهم بشجاعة فائقة حتى استشهد (٢) .

---

(١) ابن شداد ،الاعلاق الخطيرة ، قسم الاردن ولبنان وفلسطين ص ٨٤ .

(٢) سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٥١ - ٦٥٢ وعن دور المعظم في الحياة العلمية ومنشآته العمرانية انظر الفصل الخامس ص : ٤٣٨ ، ٤٤٣ ، ٥٣٠ - ٥٣١

وظل المعظم يحكم دمشق حتى وفاته سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م وخلفه ابنه الناصر داود ،لكنه لم يلبث الا قليلا في حكم دمشق حيث انتزعها منه عمه السلطان الكامل وأعطاه الكرك والشوبك ،وتسلم دمشق واعطاها لاخيه الاشرف الذى ظل يحكمها حتى وفاته سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م ، وبموته دخلت بلاد الشام مرحلة الحرب الأهلية التي كان لها أسوأ الأثر على أحوال بلاد الشام (١) .

*

بقية الامارات الأيوبية في بلاد الشام

بعلبك :

تنسب امارة بعلبك الى عزالدين فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب الذى اقطعه صلاح الدين بعلبك سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م (٢) وحينما توفى فرخشاه سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م آلت بعلبك الى ابنه الامجد بهرام شاه وأقره صلاح الدين عليها (٣) .

وقد أحب الأمجد بعلبك لطيب هوائها وكثرة خيراتها التي تضاهي دمشق فابتنى بقلعتها برجين في الركنين الجنوبي الغربي والشمالي الغربي وبعض الاستحكامات الاخرى وأنشأ بها جيشا قويا لرد غارات الأعداء الصليبيين (٤) .

---

(١) انظر تفصيل هذه الحوادث في الفصل الثاني ص : ١٣٥ - ١٨٩ .

(٢) ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ٦٢ ؛ديوان الملك الامجد بهرام شاه الايوبي ص ٢١ .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص ٤٩١ ؛ ديوان الامجد ص ٢٨ ؛ ابوالفدا : المختصر جـ٣ ص ٦٥ .

(٤) ديوان الأمجد ص ٢٨ .

اعتمد الأمجد في بداية حكمه على رجال اشتهروا بمكانتهم العلمية والأدبية ومنهم طبيبه الخاص مهذب الدين يوسف بن ابي سعيد السامرى ، واضحى الامجد يستشيره في سائر اموره ويعتمد على ارائه . وعلت منزلة مهذب الدين لدى الامجد ، مما اغرى اهل وأقارب مهذب الدين على القدوم الى بعلبك والاقامة في كنف الامجد ، وتقلدوا الوظائف في دولته ، وسرعان ما عمد هوءلاء الى استغلال نفوذ مهذب الدين في بسط هيمنتهم على بعلبك وسكانها ، فكثر منهم الجور وظلم الاهالي ، فضج السكان بهم ، واصبح الامجد عرضة للنقد بسببهم حتى لامه ملوك بني ايوب على ذلك ، وعندئذ قبض الامجد على طبيبه مهذب الدين وأقربائه وصادر أموالهم [(١)].
واستوزر الامجد بعد ذلك امين الدولة ابا الحسن بن غزال بن ابي سعيد وفوض اليه امور دولته كلها ، وظل يلي منصبه طوال حكم الأمجد بعلبك [(٢)].

وقد شارك الامجد في حوادث حرب الوراثة وساند الافضل وتقرر ان يكون الامجد موءازرا للافضل وتابعا له [(٣)] . وقد ساءت العلاقات بين مملكة بعلبك ومملكة حمص لأن الأمجد كان مع الملك المعظم عندما هاجم الاخير حمص سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦ م ، وقد اهتبل الامجد تلك الفرصة وضم بعض المناطق التابعة لحمص اليه [(٤)] ، ويبدو أن العلاقات بين بعلبك وحمص تحسنت سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م [(٥)] .

---

(١) ابن ابي اصيبعة ؛عيون الانباء في طبقات الاطباء ص ٧٢٢ ؛ ديوان الملك الامجد ص ٢٩ .

(٢) عيون الانباء ، ص ٧٢٣ ، ديوان الامجد ص ٣٠ .

(٣) ابن واصل ؛مفرج الكروب جـ٣ ص ٣٠-٣١ .

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥ .

(٥) ابن نظيف ؛التاريخ المنصورى ص ١٦٠ .

ومهما يكن من أمر ، فقد ذكر ابن الفرات في حوادث سنة ٦٢٥هـ أن الأمجد ظلم أهل بعلبك وجار عليهم وفرض عليهم ضرائب مرهقة ،ويبدو أن ذلك كان بتأثير وزيره مهذب الدين السامرى ، مما دفع طائفة من جند بعلبك الى تدبير موءامرة للاطاحة بالامجد وتسليم بعلبك الى فخر الدين العزيز عثمان بن العادل صاحب بانياس ، وتم الاتصال بينهم وبين فخرالدين ، وسار الاخير الى بعلبك ،وما ان وصل حتى اكتشف الامجد سر الموءامرة فقبض على مدبريها ،ونازل عثمان بعلبك عازما على اخذها بالقوة غير أن الناصر داود بن المعظم صاحب دمشق انزعج من حصار بعلبك ولا سيما وان الامجد كان مخلصا لوالده المعظم ، فبعث الناصر داود الى عثمان يأمره بترك بعلبك على حالها ،فغضب عثمان ورحل الى مصر وانضم الى السلطان الكامل الذى وعده بالاستيلاء على بعلبك وتسليمها اليه (١) .

وفي سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م استولى الاشرف بن العادل على بعلبك وأقطع الامجد بعض قرى دمشق ولكن الامجد لقي مصرعه في السنة التالية على يد بعض مماليكه ، اما الاشرف فقد ضم بعلبك الى دمشق ورفض تسليمها لاخيه عثمان بن العادل (٢) .

----

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٧ ؛وانظر ايضا ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٢٧ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٥٨ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ١١٠-١١١ ؛ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٤ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٢ ص ٤٥٣ .

بصـــرى :

ومن الامارات الصغرى في بلاد الشام زمن السلطان العـــادل امارة بصرى وكانت لابنه الصالح اسماعيل (١) . غير أنه كان تابعا لاخيـــه المعظم صاحب دمشق ،ولمع نجم اسماعيل بعد وفاة اخيه الاشرف عندمـــا استخلفه على دمشق وبعلبك ولعب دورا خطيرا في حوادث الحـــرب الاهلية ،وهو ما سنتحدث عنه مفصلا في الفصل الثاني (٢) ان شاء الله .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٧٥ .

(٢) انظر الفصل الثاني ص : ١٥٧- ١٩٧

الفصل الثاني

العلاقات الداخلية بين ملوك بني أيوب ونتائجها على النفوذ الأيوبي في بلاد الشام

٦١٥ - ٦٥٧ هـ / ١٢١٨ - ١٢٥٩ م

الفصل الثانـــي

العلاقات الداخلية بين ملوك بني ايوب ونتائجها على النفوذ الأيوبي في بــلاد الشـــام ٦١٥ - ٦٥٧ هـ/١٢١٨-١٢٥٩م

*

١ - وفاة السلطان العادل ابو بكر بن ايوب سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ونتائجها على احوال بلاد الشام السياسية.

٢ - العلاقات بين ابناء السلطان العادل واثرها في بلاد الشام ٦١٥ - ٦٣٥هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٧م.

٣ - الحرب الأهليه في بلاد الشام ونتائجها ٦٣٥-٦٤٢هـ/ ١٢٣٧-١٢٤٤م.

٤ - الصالح أيوب واعادة توحيد الدولة الأيوبية ٦٤٣- ٦٤٧هـ/ ١٢٤٥ - ١٢٤٩م.

٥ - بلاد الشام في مفترق الطرق
انهيار الأيوبيين وقيام دولة المماليك ٦٤٧-٦٥٧هـ/١٢٤٩-١٢٥٩م

*

وفاة السلطان العادل ونتائجها على أحوال

بلاد الشام السياسية

تمكن العادل ابو بكر بن أيوب -كما رأينا - من توحيد الدولة الأيوبية من جديد ، بعد أن كادت تعصف بها الخلافات والمنازعات التي ظهرت عقب وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م . وفي سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م جاءت الحملة الصليبية الخامسة التي كان هدفها الاستيلاء على مصر (١) . فخرج العادل الى فلسطين لمراقبة تحركات الفرنج وارسال النجدات لابنه الكامل المرابط قبالتهم على ثغر دمياط ، ثم عاد العادل الى مرج الصفر وعسكر به حيث ورد عليه الخبر بسقوط برج السلسلة بدمياط في ايدى الصليبيين ،فتأثر بذلك النبأ غاية التأثر " ودق بيده على صدره أسفا وحزنا ومرض من ساعته " (٢) ورحل من مرج الصفر واشتد به المرض وتوفي في السابع من جمادى الاخرة سنة ٦١٥هـ/ ٣١ أغسطس ١٢١٨م وحينما توفي لم يعلم بموته سوى صديقه كريم الدين الخلاطي ، فكتم موته وأرسل على عجل الى ابنه المعظم بنابلس ، فجاء الأخير مسرعا واجتمع بكريم الدين واتفق معه على استمرار كتمان خبر موته موقتا ،واخذه المعظم في محفة وعاد الى دمشق وأوعز الى الاطباء بملازمة جثمان والده لايهام الناس بأنه ما زال حيا ، وحينما استقر المعظم بدمشق دفن والده سرا ،ثم احضر كبار رجال الدولة واستحلفهم على مملكة دمشق ، واستولى على جميع أموال والده التي كان يحتفظ بها في دمشق والكرك ،واعلن

---

(١) انظر مايلي : الفصل الثالث ص : ٢٤٩ - ٢٨١ .

(٢) المقريزي ،السلوك جـ١ ص ١٩٠ .

موت والده وكتب الى سائر ملوك بني ايوب يخبرهم بوفاته (١) .

والحق لقد جاءت وفاة العادل خسارة كبرى منيت بها الجبهة الاسلامية ،في وقت كانت فيه هذه الجبهة في أشد الحاجة لوجود شخصية مثله ،لخبرته الطويلة في جهاد الصليبيين ومعرفته التامة بطبيعة الحركة الصليبية واهدافها ،ونقاط الضعف والقوة فيها . فعلى الرغم مما اشتهر به ابناء العادل الثلاثة ،الكامل ،والمعظم ،والأشرف ،من شهامة وشجاعة وسداد رأى فانه لم يكن بمقدورهم ملء الفراغ المفاجيء الذى احدثه غياب والدهم عن الساحة ،ولا سيما في وقت كانت فيه أوربا قد القت بكل ثقلها في حملة جديدة هي الحملة الخامسة ،بغية السيطرة على مصر باعتبارها القاعدة الرئيسة لحركة الجهاد ومن ثمة الانقضاض على بقية بلاد الشام والاستيلاء عليها .

وأول النتائج الخطيرة التي نجمت عن وفاة العادل طمع بعض القادة العسكريين في السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة الأيوبية ، وكان على رأس هؤلاء القادة عماد الدين احمد بن علي بن المشطوب زعيم طائفة الاكراد الهكارية (٢) ، الذى ما ان علم بوفاة العادل

---

(١) الجنابي ، البحر الزاخر في علم الأوائل والاواخر ،ج٢ ورقة ١٨ ب ؛ الديبماوى ،الزهر الزاهر ،ورقة ١١٩ ب - ١٢٠ أ ؛الزبيدى : ترويح القلوب ورقة ٣ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ ص ٥٩٦- ٥٩٧ ؛ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٧٥- ٢٧٦ ؛ ابن نصرالله : شفاء القلوب ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ؛اليافعي : مرآة الجنان ج٤ ص ٢٩-٣٠ .

(٢) الهكارية : احدى قبائل الاكراد التي كانت تقطن شمال الموصل في اعالي الجزيرة ،وقد حاول عماد الدين زنكي إخضاعهم واستولى على كثير من قلاعهم ،انظر ياقوت : معجم البلدان ؛ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ حاشية رقم ٤ .

حتى دبر موءامرة للاطاحة بالسلطان الجديد الكامل محمد واتفق مع انصاره على جعل ملك مصر في يد الفائز ابراهيم بن العادل ، ليغدو العوبة في ايديهم ،ولما علم الكامل بهذه الموءامرة اشتد به الفزع وانسحب من منزلته المعروفة بالعادلية ،حيث كان يرابط بازاء الفرنج ،ويقال انه فكر في الفرار الى اليمن حيث كان يحكمها ابنه المسعود،وترتب على انسحابه اضطراب العسكر الاسلامي بكامله واستيلاء الصليبيين على دمياط.(١)

غير ان الملك المعظم صاحب دمشق سرعان ما قدم من الشام لنجدة اخيه الكامل على الصليبيين ،فاخبره الاخير بموءامرة ابن المشطوب ، فعمد المعظم الى استدراجه حتى انفرد به وقبض عليه ونفاه إلى الشام سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م كما اخرج الكامل اخاه الفائز ابراهيم من مصر الى الشام بحجة احضار النجدات لجهاد الفرنج ،ومضى الى شرق الفرات وتوفي مسموما في السنة نفسها(٢).

على أن خطر ابن المشطوب لم يقتصر على مصر ،بل امتد الى بلاد الشام ،فبعد ان نفاه المعظم وصل الى حماه وأقام بها في ضيافة الملك المنصور ،وانضم اليه بحماه الكثير من الاكراد الهكارية وقرر على اِثر ذلك العمل على انشاء امارة خاصة به ،فغادر حماه سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ومعه

----

(١) الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١١٥ ب؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٧٢ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٥ ص ٧٩ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٦-١٧ .

(٢) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٧٢ أ ب ؛المقريزى : المقفى ورقة ٢٤ أ. ؛ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٠٢ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٧-١٨ ؛ابن ايبك : كنز الدرر وجامع الغرر جـ٧ ص ١٩٨ .

بضع مئات من اتباعه ، وكان الاشرف بن العادل في هذه الأثناء مقيما بحلب فراسل ابن المشطوب لتطويعه ،وعرض عليه ان يقطعه بعض البلاد ، فرفض هذا العرض واستقر رأيه على استغلال العداء بين سلاجقة الروم والملك الأشرف ،والذهاب الى تخوم بلاد سلاجقة الروم للاتفاق معهم ومع الافضل ابن صلاح الدين صاحب سميساط ضد ابناء العادل ودخل ابن المشطوب بجموعه الى مملكة حلب وخاض ريفها بفرسانه واستاق في طريقه كل ما وجده من الخيل والماشية ،وحينما علم الاشرف بذلك ارسل جيشه على عجل ولحق به على نهر الساجور وانقض عليه وهزمه واسره ، ثم عفا عنه واقطعه مدينة رأس عين بالجزيرة (١) .

غير أن اطماع ابن المشطوب لم تلبث ان ظهرت من جديد في منطقة الجزيرة ولا سيما وان هذه المنطقة هي الموطن الاصلي للاكراد ، فخرج على الملك الاشرف سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م غير ان الاخير تمكن من تجريده من حلفائه وبعد مطاردته فترة تمكن من القبض عليه واعتقله بسنجار (٢) .

ومهما يكن من شيء فالسؤال الذى يطرح نفسه هنا ،هو ،ما الدافع الذى دفع ابن المشطوب الى تدبير مؤامرته ؟ في الوقت الذى لم تكن الظروف مهيأة لنجاح تلك المؤامرة ذلك ان استيلاءه على مصر باسم الفائز ابراهيم سيجلب عليه عداء الأشرف والمعظم ابني العادل ،

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨٧-١٨٨ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٩-٣٠ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ١٩٨-٢٠١ ونهر الساجور : نهر بجهات منبج من اعمال حلب تقع عليه عينتاب وتل باشر . انظر ياقوت : معجم البلدان ؛مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٠ حاشية رقم (٢) .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨٩ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٧١ - ٧٢ .

وسيحرمه بالتالي من مساعدتهما ولن يتمكن بمفرده من الصمود امام الحملة الصليبية الخامسة التي لا هدف لها الا الاستيلاء على مصر. وبعد هذا: ألم يقدر ابن المشطوب خطورة وضع المسلمين في هذه الفترة ووجوب توحيد القوى بعد موت العادل لصد الصليبيين ؟ أغلب الظن ان ابن المشطوب فقد القدرة على الرؤية الصحيحة لمجريات الحوادث ،وبالتالي لم يعد يهمه مصير قضية الجهاد ضد الصليبيين في وقت اصبح فيه الجهاد فرض عين على كل مسلم قادر ،بعد أن هاجم الصليبيون المسلمين في عقر دارهم . وهكذا أعمى التطلع الى السلطة بصيرته عن فهم طبيعة الظروف الدقيقة التي كان يمر بها المسلمون في تلك الحقبة. وهذا إن دل على شيء فانما يدل على أن اطماع القادة العسكريين ظهرت حين انتاب الدولة الأيوبية الضعف ،وان كبح جماح تلك الاطماع يتوقف على وجود شخصية قوية ومحنكة من افراد البيت الأيوبي ،تستطيع فرض نفوذها على بقية الامراء ،مثل شخصية السلطان العادل ومن قبله صلاح الدين .

العلاقات بين ابناء العادل وأثرها في بلاد الشام

٦١٥ - ٦٣٥هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٧م

يصف المؤرخ ابن الاثير علاقة ابناء العادل في اعقاب موت والدهم مباشرة بانها كانت على احسن حال فثبت كل واحد منهم في المملكة التي اعطاها ابوه " واتفقوا اتفاقا حسنا ،لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة ان يجر بين اولاد الملوك بعد ابائهم ،بل كانوا كالنفس الواحدة ، كل منهم يثق بالاخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولا يخافه "(١).

ولكن هذه العلاقات الطيبة بين ابناء العادل ،لم يكتب لها الدوام والاستمرار : فحقيقةً أنهم اتفقوا بعد وفاة والدهم مباشرة ،وكان لذلك أحسن الأثر في صد الصليبيين ،لادراكهم بخطورة المرحلة التي يمر بها المسلمون ،ووجوب توحيد الجهود لصد الحملة الصليبية الخامسة. الا أن طبيعة تكوين الدولة الأيوبية حتَّمت وقوع الخلاف بينهم بعد ذلك . فالدولة الايوبية كما سبق ومر شرحه (٢) ،اتبعت النظام الذى جرى الأخذ به زمن السلاجقة ،وهو تقسيم المملكة بين ابناء السلطان بعد موته ،واصبح لكل ابن منطقه أو مدينة هو الملك عليها ،اضافة الى وجود الكثير من الاقطاعيات داخل المملكة الواحدة لكبار القادة العسكريين . فالعادل حينما توفي خلف سبعة عشر ولدا (٣) ،كان معظمهم يحكمون في بلاد الشام والجزيرة ومصر (٤).

---

(١) ابن الاثير: الكامل جـ١٢ ص ٣٥٢ ؛وانظر ايضا القرماني : اخبار الدول ص ١٩٥ .

(٢) انظر ما سبق الفصل الاول ص ٢٨ - ٢٩ .

(٣) الزبيدى : ترويح القلوب ورقة ٣ ب ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص١١٢ ؛العصامي : سمط النجوم العوالي جـ٤ ص ١٣ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٣٢ .

وكان لا بد لدولة هذه طبيعة تكوينها ونظامها أن تحدث داخلها المنافسات والمنازعات بين ملوكها ،ولا سيما وأن رقعة الدولة جميعها محدودة ،بالاضافة الى أن حدود كل مملكة غير محددة تفصيلا . كما ان بعض أبناء العادل الصغار كانوا تابعين عمليا لبعض اخوتهم الكبار ،ومن المؤكد انهم سيتطلعون الى البحث عن ممتلكات خاصة مستقلة حينما يكبرون .

وقد نال أبناء العادل الثلاثة الكبار النصيب الاكبر من الدولة الأيوبية ،فالكامل محمد كان يملك مصر وهوالسلطان ،بينما انفرد المعظم عيسى بدمشق والكرك والقدس حتى حدود مصر ،في الوقت الذى نال فيه الاشرف موسى البلاد الجزرية الواقعة شرق الفرات . وفي سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م عاد المعظم الى الشام وأقام الاشرف بمصر عند اخيه الكامل . وهنا يبدو أن الأشرف تحالف سراً مع الكامل ضد اخيهما المعظم حيث يقول سبط ابن الجوزى "فغير الله القلوب وصارا متصادقين على المعظم".(١)

وكان المعظم يتطلع إلى بسط نفوذه على بلاد الشام جميعها وضم بقية الممالك الشامية الى مملكته ولا سيما حمص وحماه ،ولما كان يعلم بالاتفاق الذى تم بين اخويه ضده فقد اخذ يلتمس الحلفاء للوقوف الى جانبه ، فارسل محتسب دمشق الى جلال الدين خوارزم شاه طالباً منه محالفته ضد اخويه الأشرف والكامل ، فاجابه جلال الدين الى طلبه وبخاصة وان جلال الدين كان في مقدوره الضغط على الأشرف الذى تقع ممتلكاته في شرق الفرات قريبا من الدولة الخوارزمية(٢) .

---

(١) سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٢١ - ٦٢٢ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٣٠ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٢٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص٩٨ .

وفي سنة ٦١٩ هـ/ ١٢٢٢ م أزمع المعظم على ضم مملكة حماه الى مملكته ،فسار اليها بجيوشه وضايقها حتى سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م بغية الاستيلاء عليها (١) . الا ان جهوده سرعان ما اخفقت ،فاتفق الاشرف مع الكامل على تهديده وتخويفه وَمَنْعِهِ من الاستيلاء على حماة ،حتى لا يذكي ذلك أطماعه بالتوسع في بقية بلدان الشام ومن ثمة تهديدهما معا ، فارسلا اليه مبعوثَيْن يطلبان اليه ترك حماه على حالها ، فانسحب على مضض بعد ان صالح ملك حماه وعاد الى دمشق ، " وكان ذلك ابتداء الوحشة بينه وبينهما ،وكانت اطماعه قد تعلقت بالاستيلاء على حماه وبلادها واضافتها الى ممالكه "(٢) .

لما علم المعظم بأن اخويه الاشرف والكامل على وفاق تام ،توقع منهما العمل سويا على اقتسام مملكته " فاستوحش لذلك "(٣) . ولعل مما عزز مخاوفه و زاد في غضبه ، هو قدوم الملك المسعود اقسيس بن الكامل من اليمن الى ابيه بمصر ومعه هدايا قيمة لوالده سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣ م خاصة وقد اتضح انه ما قدم من اليمن الى مصر "إلا طمعاً في أخذ دمشق والشام " كما يقول سبط ابن الجوزى (٤) .

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ،ورقة ٢٢٧ أ ب ؛وانظر ما سبق الفصل الاول ص : ٩٥ - ٩٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٢٧- ١٢٨ ؛ وانظر ايضا ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٧ أ ؛ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٣-١٩٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٣٧ .

(٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٣٣ .

ولذلك قرر المعظم إشغال اخيه الأشرف عن مساندة الكامل وابنه في اطماعهما في بلاد الشام بالعمل ضده داخل مملكته بمنطقة الجزيرة. وكان الاشرف عندما غادر بلاده الى مصر،جعل اخاه غازى بن العادل نائبا عنه بخلاط وأعمالها وميافارقين وغيرها . وجعله ولي عهده . فارسل المعظم الى مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين علي كوجك صاحب اربل يدعوه الى محالفته والاتفاق معه ،واغراه بمهاجمة بدر الدين لوءلوء صاحب الموصل ،الذى كان محالفا للأشرف ،فوجد عرض المعظم هوىً في نفس مظفر الدين كوكبورى ،لكراهيته الشديدة لبدر الدين لوءلوء بسبب قضاء الاخير على البيت الاتابكي ، وسيطرته على ابني الملك القاهر اخر ملوك الاتابكة ،وشرع كوكبورى في حشد قواته لقصد الموصل ،ويبدو أنه لم يكن يمنعه من مهاجمة الموصل قبل ذلك سوى خوفه من الأشرف نظرا لتحالف بدر الدين لوءلوء معه ودخوله في طاعته . أمّا وقد وجد له الان حليفاً قوياً ،لذلك قرر العمل ضد صاحب الموصل كما أرسل المعظم في الوقت نفسه الى اخيه غازى نائب الأشرف وحسَّن له الخروج على الأشرف ومحاربته ،وتعهد المعظم لاخيه غازى ولصاحب اربل بالخروج من دمشق اليهما لمساعدتهما ،وعندئذ طمع غازى فأعلن عصيانه على اخيه الاشرف بخلاط،وخرج المعظم في عساكره من دمشق مفصحاً عن نيته في قصد بلاد الشرق في سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م (١) .

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٧ أ ؛ابن الاثير : الكامل ، جـ١٢ ص ٤٢١-٤٢٢ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٣٧-١٣٨ ؛ وانظر ايضا سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٢٥ .

وحينما علم الاشرف بهذه الحوادث خرج من مصر على عجل قاصدا حران لمواجهة تمرد اخيه غازى (١) . ولما كان الاشرف يخشى أن يقوم المعظم بمهاجمته من الخلف،أرسل الى اخيه الكامل يخبره بخطورة موقفه ، وعندئذ بعث الكامل الى اخيه المعظم قائلا له : "ان تحركت من بلدك سرت اليه وأخذته منك" وقد أخذ المعظم هذا التهديد مأخذ الجد ، ولا سيما وأن ممالك حلب وحمص وحماه تؤيد الكامل والاشرف ، فرجع المعظم الى دمشق (٢) .

وسار مظفر الدين كوكبورى صاحب اربل الى الموصل لحصارها في ربيع الاول (٦٢١هـ/ ابريل ١٢٢٤م) وذلك لكي يمنع الاشرف من مهاجمة خلاط، ولكن الموصل صمدت امام الحصار ،ووصل الى الاشرف نجدة من حلب كما أنجده بعض امراء الجزيرة فمضى الى خلاط وحاصرها وتمكن من الاستيلاء عليها بسبب مساعدة الاهالي له لما عرفوه عنه من سيرة طيبة ولسوء سيرة اخيه غازى ،ودخل الى خلاط في جمادى الاخرة (٦٢١هـ/يونيه ١٢٢٤م) ونزل اليه غازى مستسلما فعفى عنه وابقى ميافارقين بيده . اما مظفر الدين كوكبورى فقد انسحب عن الموصل حينما علم باستعادة الاشرف لمدينة خلاط (٣) . وهكذا لم يستطع المعظم تقديم مساعدة فعالة الى حلفائه

---

(١) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٣٤ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٥٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ،جـ٤ ص ١٣٨ ؛المقريزى : السلوك جـ١ص ٢١٥ .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحي ،ورقة ٢٢٧ أب ؛اليافعي : جامع التواريخ المصرية ،ورقة ٣ أ ب ؛ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٢١- ٤٢٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٣٨-١٤١ ؛ابن نظيف: التاريخ المنصورى ص ١٠٤-١٠٧ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٢٦٥- ٢٦٦ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٣٤ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٣٤ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٠٤ .

بالجزيرة لأنه لم يعد بمقدوره مغادرة بلاد الشام خوفاً عليها من الملك الكامل ، وكل ما فعله لم يتعد قيامه بغارة سريعة في أعمال حمص عاد على اثرها الى دمشق (١) .

ولم يستسلم المعظم لأول إخفاق واجهه ، فعاد وارسل في اواخر سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م ابنه الناصر داود الى اربل ليبقى رهينةً بها لتأكيد التحالف من جديد مع صاحبها مظفر الدين كوكبوري (٢) . كما أرسل مبعوثاً الى جلال الدين خوارزم شاه وتحالف معه من جديد (٣) ، اذ لم يتمكن جلال الدين من تقديم المساعدة للمعظم أثناء عصيان غازى بخلاط بسبب انشغال جلال الدين باضطراب احوال الدولة الخوارزمية . وخلال سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م - ١٢٢٦م تمكن جلال الدين من الاستيلاء على أذربيجان ووصل الى خوزستان وحدود العراق وهدد الخلافة العباسية في بغداد ، وزادت قوته واصبحت ممتلكاته تجاور فعلا املاك الاشرف باقليم الجزيرة (٤) . وترددت الرسل بين المعظم و حليفيه جلال الدين ،وصاحب اربل للتنسيق ، وتم الاتفاق بين الحلفاء الثلاثة على القيام بهجوم عام لتحقيق اهدافهم ، فيهاجم المعظم حمص وحماه ، بينما يهاجم جلال الدين خلاط عاصمة الملك الاشرف ،ويشن صاحب اربل الحرب على الموصل المحالفة للاشرف (٥) .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٥ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٣ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٤٢ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ١١ ب ؛ السبط : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٣٢ - ٦٣٣ ؛الذهبي : العبر جـ٥ ص ٨١ .

(٤) انظر تفاصيل ذلك في ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٢٥-٤٢٧ ، ٤٣٢ - ٤٣٥ .

(٥) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١١ ب ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٧٥-١٧٦ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢٠ .

وتمكن المعظم بدهائه من تحييد اخيه الكامل صاحب مصر ،اذ أوهمه بأن معظم امراء جيش مصر يميلون اليه ويساندونه " وأنه اذا خرج من مصر أخذه بعسكره ، فلم يجسر على الحركة " (١) ومما زاد في تثبيط همة السلطان الكامل وعدم خروجه الى الشام هو وصول ابن اخيه الجواد يونس بن مودود بن العادل الى عمه المعظم بدمشق هاربا من مصر عن طريق البحر " وتخيّل الكامل من امراء دولته وميلهم الى اخيه المعظم " فقبض منهم جماعة وزاد في حذره وترقبه (٢) .

واستقر رأى المعظم على قصد حمص وحماه في سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م ورأى ان يبدأ بحمص اولا ،فأرسل جماعة من عرب دمشق ،فأغاروا على قرى حمص ونهبوها ،وأرسل الاشرف بدوره الأمير مانع بن حديثه ال فضل امير طي في جموع كثيرة من قبيلته نجدة لصاحب حمص شيركوه ، غير أنهم هاجموا في طريقهم قرى المعرة ونهبوا محاصيلها ،واخيرا خرج المعظم من دمشق ووصل الى حمص ، فانسحب عرب مانع وحلب والجزيرة الى قنسرين (٣) ،وتركوا اظعانهم بمرج دابق (٣) ،وساروا منجدين لحمص ، وحدثت عدة معارك بين عرب مانع وعرب دمشق ،كما ارسل الاتابك طغريل فرقة من حلب لمساعدة حمص ،والتقت هذه الفرقة بعسكر المعظم واقتتلوا ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص١٧٧ ؛وانظر ايضا : اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١١ ب .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص١١٣ .

(٣) قنسرين : مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص ،كانت قاعدة أجناد الشام ،انظر ياقوت : معجم البلدان ؛ابو الفدا : تقويم البلدان ص٢٦٦-٢٦٧ = ودابق : قرية قرب حلب تبعد عنها اربعة فراسخ وعندها مرج معشب نزه ، انظر ،ياقوت : معجم البلدان .

ثم دخلوا حمص ،وتراسل المعظم مع صاحب حمص و عرض عليه الاتفاق معه ضد الأشرف فرفض شيركوه ،فقام المعظم بشن الغارات على قرى حمص و نهب عسكره الغلال والمواشي ،وقاموا بقطع اشجار البساتين و تخريب الطواحين وفعلوا كل ما في وسعهم ،ومع ذلك فقد ظلت حمص صامدة لأن صاحبها أحسن الدفاع عن مدينته وشحنها بالرجال والمؤن (١) .

و في تلك الأثناء ترددت الرسل بين المعظم وأخيه الأشرف ،واتفقا على الاجتماع معا لبحث الخلافات بينهما على ان يرحل كل واحد منهم ومن حلفائهم عن المكان الذى يحاصره ،وفي الوقت نفسه انتشر الوباء في معسكر المعظم و نفقت معظم دوابه ،فآثر الاجتماع باخيه الاشرف وبخاصة وأن الاخير اخبره بعزمه على المسير اليه مما يمنحه فرصة عظيمة للضغط عليه وتحقيق طموحاته في بلاد الشام. وقَدِمَ الاشرف الى الشام والتقاه المعظم قرب حمص وسارا الى دمشق في اول رمضان ٦٢٣هـ/سبتمبر ١٢٢٦م (٢).

و يبدو أن مما أجبر الأشرف على القدوم الى اخيه المعظم هو ازدياد شقة الخلاف بينهما واتساع نطاق التحالفات مع القوى المحيطة بهما ،ففي الوقت الذى حاصر فيه صاحب اربل الموصل (٣) ، ظهر خطر جديد هدد نفوذ الاشرف في منطقة الجزيرة ، فقد كان صاحب آمد المسعود الأرتقي محالفا للمعظم وصاحب اربل ، فتحالف سلطان سلاجقة الروم كيقباذ

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٢ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٧-١٩٨ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٢٥-١٢٦ ؛التاريخ المنصورى ص ١٢٥ حاشية رقم (٥) نقلا عن تاريخ ابن الفرات.

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٢٦-١٢٧ ؛ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١٣٦.

(٣) انظر ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٨٨.

مع الأشرف لخوفه من جلال الدين الخوارزمي ،وأرسل اليه الاشرف يطلب منه مهاجمة صاحب آمد ، فسار كيقباذ الى ملطيه وأرسل منها العساكر الى آمد ففتحوا حصن منصور وغيره ،فأرسل صاحب آمد الى الأشرف ودخل في طاعته من جديد ،فارسل الأشرف الى كيقباذ يطلب منه ترك آمد واعادة ما اخذه من بلادها ،فامتنع من ذلك قائلا : " ما كنت نائبا للأشرف يأمرني مرة و ينهاني اخرى " فارسل الاشرف نجدة لصاحب آمد فهزمها كيقباذ (١) . وهذا يعني تدهور علاقة الأشرف ولو موقتا مع سلاجقة الروم الذين يتاخمون مناطق نفوذه في الجزيرة وبلاد الشام.

وكيفما كان الأمر فان الاشرف وصل الى اخيه المعظم الذى تظاهر بالسرور لقدومه وأمر بضرب البشائر بدمشق ،وزين البلد ابتهاجا بتلك المناسبة وذلك سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م " وحاله في الباطن بخلاف ماظهر، والرسل مع ذلك مترددة بين المعظم وبين جلال الدين خوارزم شاه " (٢)

وعمد المعظم الى الضغط على أخيه الأشرف عن طريق إظهار المودة والاتفاق بينه وبين جلال الدين الخوارزمي حتى يوافقه الاشرف على جميع طلباته ،فقد ذكر بعض المؤرخين أن جلال الدين بعث بخلعة سنية الى المعظم فلبسها وصار يركب بها مع اخيه الاشرف كما تظاهر بالمودة بينه وبين جلال الدين وأخذ يُقْسِمُ برأسه في مجالسه (٣) . وأزمع المعظم على تزويج

---

(١) اليافعي ،جامع التواريخ المصرية ورقة ١٢ ب ؛ الجنابي : البحرالزاخر جـ٢ ورقة ١٩ ب ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٧٩.

(٣) تاريخ ابن الجزرى مخطوط لوحة ٣٢٩ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ١٨١ ؛الذهبي : العبر جـ٥ ص ٩٣ ؛اليافعي : مرآة الجنان جـ٤ ص ٥٣ .

احدى بناته ، من جلال الدين لتوطيد العلاقات معه وجرت بينهما مراسلات في ذلك ، " وصار بينهما اتحاد كلي " كما يقول ابن واصل [١] . ولا شك أن هدف المعظم من كل تلك المناورات هو الحصول على موافقة اخيه الاشرف على اطلاق يده في بلاد الشام وضم حمص وحماه الى مملكته . وحاول الاشرف الذهاب الى مصر غير ان المعظم لم يمكنه من ذلك [٢] . واصبح الاشرف خاضعا لسيطرته بحيث لا يستطيع أن ينفرد عنه بأمر ولا يجرؤ على مخالفته على الاطلاق لأنه اصبح في يد أخيه كالأسير [٣] .

وفي تلك الأثناء وردت الاخبار الى دمشق بنزول جلال الدين الخوارزمي محاصراً خلاط عاصمة الاشرف للاستيلاء عليها ، فطلب الأشرف من اخيه المعظم أن يرسل الى حليفه جلال الدين الخوارزمي يأمره بالرحيل عن خلاط [٤] . واهتبل المعظم تلك الفرصة وألزم اخاه الأشرف بالسماح له بضم حمص وحماه الى مملكته ، وندم الاشرف على قدومه الى دمشق ولم يسعه الا الموافقة على طلبات اخيه المعظم [٥] . أما جلال الدين فرغم حصاره الشديد لخلاط سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م فقد اخفق في الاستيلاء عليها بسبب بسالة أهلها في الدفاع عنها ، وشدة البرد وهطول الثلج ، فضلا عن غارات التركمان على بلاده ، فاضطر الى الانسحاب عن خلاط في ذي الحجة سنة ٦٢٣هـ/ديسمبر ١٢٢٦م [٦] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٧٩-١٨٠ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ١٢٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٨-١٩٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٨٠ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٨٠ ؛ الذهبي : العبر جـ٥ ص ٩٣ ؛ ابن ايبك كنز الدرر جـ٧ ص ٢٨١ .

(٥) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٤ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٨٠-١٨١ .

(٦) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٦٠-٤٦١ .

ظل الأشرف مقيما بدمشق زهاء عشرة اشهر كالأسير لدى أخيه المعظم ، ورأى بنفسه مدى تطور العلاقات الودية بين المعظم وجلال الدين الخوارزمي حتى ان المعظم زوجه احدى بناته ،ووجد الأشرف انه لا مناص من موافقة اخيه المعظم على كل ما يريد ،فحلف له على محالفته ضد السلطان الكامل ، والمجاهد صاحب حمص ،والناصر صاحب حماه . وطلب المعظم من الأشرف اقناع اتابك حلب بالانضمام اليه ضد الكامل ، غير أن الاتابك رفض بحزم . واخيرا سمح المعظم للاشرف بمغادرة دمشق والعودة الى بلاده في جمادى الاولى ٦٢٤هـ/ مايو ١٢٢٧م . وحينما وصل الأشرف الى بلاده تراجع عن كل ما تقرر بينه و بين اخيه المعظم ، وتأول في ايمانه التي اقسمها بأنه كان مكرها عليها فندم المعظم على اطلاق سراحه وأرسل اعراب دمشق للاغارة على قرى حمص وحماه (١) .

وهكذا وصلت العلاقات بين الأخوة الثلاثة الى نقطة خطيرة جدا ، فالمعظم بتحالفه مع جلال الدين الخوارزمي لعب دورا هاما - دون أن يدرى - في حفز الخوارزمية على الطمع في بلاد الشام والجزيرة . ووقع الكامل في ما يشبه العزلة السياسية بعد أن أضحى عاجزا عن مساعدة الأشرف ضد الخوارزمي بسبب منع المعظم للمساعدات القادمة من مصر. فاصبحت اطماع كل أخ في املاك الاخر مدعاة للقلق والاضطراب في وقت كان يجب فيه على الاخوة الثلاثة توحيد القوى ،وحشد الطاقات لمواجهة بقايا الصليبيين في بلاد الشام ،اضافة الى وجوب

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٤ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٩ - ٢٠٢ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٠٤ - ٢٠٦ ؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ ٣ ص ١٣٧ ؛ المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٢١ .

الاستعداد المبكر وبناء جبهة اسلامية متحدة ،لا سيما وأن النذر بخطر التتار بدأت تظهر للعيان . بل ان خلافات الاخوة الثلاثة جلبت حملة صليبية جديدة - كما سنرى - هي الحملة السادسة ،وما نجم عنها من نتائج لا تساوى إطلاق يد المعظم في بلاد الشام. وهكذا ساهم الاخوة الثلاثة - دون وعي منهم - في دق المسامير في نعش الدولة الايوبية.

وعلى أية حال ، فبعد ان شعر الكامل بالعزلة وبخطورة تحالف اخيه المعظم مع خوارزم شاه لم يجد حوله من حكام المسلمين حليف قوى يشد من ازره ويقف الى جانبه ،فقرر الاتصال بالامبراطور فردريك الثاني (١٢١٢-١٢٥٠م) ،أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة طالبا منه المجيء الى عكا لمساعدته ضد اخيه المعظم ووعده بأن يعطيه بيت المقدس وكل ما بيد المسلمين من ساحل فلسطين (١).

وما ان علم المعظم باستدعاء الكامل لفردريك حتى بعث على عجل الى جلال الدين الخوارزمي يطلب منه النجدة على اخيه الكامل ،ووعده بأن يقيم الخطبة له بمملكته و يضرب السكة باسمه و قطع خطبة الكامل من دمشق ،وعندئذ خرج الأخير من القاهرة الى بلبيس في رمضان ٦٢٤هـ/ اغسطس ١٢٢٧م عازما على الخروج الى بلاد الشام (٢). ولما كان المعظم لا يأمل في معونة فورية من جلال الدين لبعد المسافة بين بلاد الشام وبين أراضى الدولة الخوارزمية في ايران ،ولقرب المسافة بين الشام ومصر اضافة الى انشغال الخوارزمي بأمور دولته وخطر التتار.

---

(١) Lanepool, A History of Egypt p. 226.

وانظر مايلي ،الفصل الثالث ص: ٢٨٥ -

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢٢.

فقد لجأ المعظم الى مناورة سياسية بارعة لتثبيط همة الكامل وتخويفه ، فبعث اليه رسالة سرية يتهدده فيها قائلا : " اني نذرت لله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدى أتصدق بالف دينار ،فان جميع عسكرك معي وكتبهم عندى ،وأنا أخذك بعسكرك " وكتب له رسالة اخرى علنية أمر باظهارها أمام قادة الكامل جاء فيها " باني مملوكك وما خرجت عن محبتك وطاعتك وحاشاك ان تخرج و تقابلني وأنا اول من أنجدك وحضر الى خدمتك من جميع ملوك الشام والشرق " ولا شك ان المعظم أراد من الرسالة الثانية ان يحفظ ماء وجه اخيه الكامل امام اصحابه حتى يترك له فرصة للتراجع ،فاعلن الكامل الرسالة بين الامراء ورجع من العباسة الى قلعة الجبل (١) .

ومن الواضح ان الكامل كان لا يثق في عساكره ،ولا سيما بعد سوء امرة ابن المشطوب ويقدم ابن واصل تعليلا منطقيا لعدم الثقة بهم ، فيذكر أنه على الرغم من ان عسكر المعظم لا يتجاوز ثلاثة الاف فارس مقارنة بعسكر الكامل الذى يناهز اثنى عشر الفا فان عسكر المعظم افضل من عسكر الكامل في تجملهم وحسن زيهم واسلحتهم ،وكان الكامل يتوهم ميل عسكر مصر الى اخيه المعظم و محبتهم له لما يعرفونه عنه من عناية فائقة بأمر الجند ورعاية لشئونهم ورفعة مكانتهم ،وكان الكامل لا يجسر على الخروج الى الشام خوفا من انحياز عسكره الى المعظم ،ويؤكد ابن واصل تعليله ذلك بقوله : " وكان والله الامر كذلك " (٢) .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢٢ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٠٩ .

وحينما وصلت الأنباء بعزم الامبراطور فردريك القدوم الى الشام طمع صاحبا حمص وحماه في الملك المعظم وأرسلا اليه يطالبانه بتعويضات عما الحقه بهما من خسائر ،وادرك المعظم عندئذ ـ وبعد فوات الأوان ـ ما يعنيه قدوم حملة صليبية جديدة ،في وقت استحكمت فيه العداوة بين ملوك الدولة الأيوبية ،فأرسل الى اخيه الأشرف يلاطفه ،فعنفه الأشرف " على أفعاله التي عامله بها وقرعه على ما اعتمد في حقه وحق أهله "(١) .

وداهم المرض المعظم فتوفى في ذى القعدة ٦٢٤هـ/ نوفمبر ١٢٢٧م وخلفه في مملكته بعده ابنه الناصر صلاح الدين داود ، وقام بتدبير امور دولته مملوك والده عز الدين ايبك المعظمي صاحب صرخد (٢) . وظل في خدمته عماه العزيز عثمان صاحب بانياس وعماد الدين اسماعيل صاحب بصرى والسواد ،وابن عمه المغيث محمود بن عمر بن العادل . وارسل الناصر الى عميه الكامل والأشرف معزيا بأبيه فارسل الكامل اليه رسولا ومعه الخلع وسنجق السلطنة ، وطيب قلبه ، وأقره على مملكة والده ،فلبس الناصر خلعة عمه " وركب بالسنجق الواصل اليه "(٣) .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٠١ .

(٢) العليمي : تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل ورقة ١١٣ أ ،الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٢١ ب ؛ ابوالفدا : التبر المسبوك مخطوط حوادث ٦٢٤ ،القلقشندى : مآثر الانافة جـ٢ ص ٨١ - ٨٢ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٥٢ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٣٨ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٢٠ أ ،ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٢٤ ،المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢٤ .

وفي الحقيقة فان المشاعر الطيبة التي ابداها الكامل تجاه ابن اخيه الناصر داود ليست صادقة ،فهو لم يخف سروره بموت اخيه المعظم [(١)] . وورث الناصر داود جميع المشكلات وسوء العلاقات التي كانت قائمة بين أبيه وعميه الأشرف والكامل ، فما لبث الكامل ان التمس ذريعة لمهاجمة مملكة الناصر داود ، فأرسل اليه طالبا منه التنازل عن قلعة الشوبك ليجعلها خزانة له ، فرفض الناصر طلبه ، فقرر الكامل الخروج الى الشام لانتزاع دمشق منه [(٢)] . وعهد الكامل الى ابنه الصالح أيوب بولاية العهد وجعله نائبه بمصر وخرج الى الشام في رمضان ٦٢٥هـ / أغسطس ١٢٢٨ م ،وفي صحبته عدد من امراء البيت الأيوبي ،منهم ابن اخيه الجواد يونس بن مودود ،وكان قد فر الى المعظم سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م فعاد الكامل واسترضاه ورجع الى مصر ،والمظفر محمود بن المنصور صاحب حماه . وحينما وصل الكامل الى غزه خيم بتل العجول وبعث بولاته الى نابلس والقدس والخليل . فانزعج الناصر داود واستبد به الخوف والفزع [(٣)] .

وانضم الى الكامل اخوه العزيز عثمان بن العادل الذى تطلع الى انتزاع بعلبك من الامجد بهرام شاه الا ان الناصر داود منعه من ذلك فغضب وانضم الى الكامل فوعده بتسليم بعلبك اليه [(٤)] .

----

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢٤ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٠ أ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ مخطوط لوحة ٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ،ص ٢٢٥ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢٤ ؛العليمي : الانس الجليل جـ١ ص ٤٠٥ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٦-٨ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٢٥-٢٢٨ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢٦ .

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ١٢ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٢٧ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٦٢ - ١٦٣ ؛ ابو شامة : الروضتين ص ١٥٣ .

ويذكر بعض المؤرخين ان العزيز عثمان عندما سافر الى الكامل سار الامجد صاحب بعلبك ونهب بلاد العزيز وهي بانياس وأعمالها ، وحينما بلغ ذلك السلطان الكامل ، امر عساكره ينهب بلاد الناصر داود جزاء ما فعله صاحب بعلبك (١) . وهذا يوضح حقيقة هامة تسترعي الانتباه وهي ان معظم الفلاحين والسكان في بلاد الشام والبعيدين كل البعد عن الاشتغال بالسياسة تضرروا كثيرا من المنازعات السياسية بين الأيوبيين ،ودفعت بلاد الشام اثمانا باهظة حينما تشن العساكر المتناحرة الغارات ضد بلاد بعضهم البعض الأمر الذي يعود بأفدح الضرر على الاهالي في وقت ليس فيه لصغار المزارعين والسكان ناقة ولا جمل في المنازعات السياسية .

ومهما يكن من أمر فحينما تأكد الناصر داود من خروج عمه الكامل للاستيلاء على ملكته أرسل الرسل تباعا الى عمه الاشرف يستنجد به ضد عمه الكامل ،وكان الاشرف مقيما بسنجار ،فقدم الى دمشق ،فاستقبله الناصر استقبالا حافلا . ويقول ابن واصل : " وكنت حينئذ بدمشق .. وفرح الناصر به غاية الفرح ،وطاب قلبه ،وأقام الاشرف مدة يشتزه في بساتينها ..وكان الوقت صيفا وبساتينها في غاية النظارة والحسن وكثرة الفواكه ،وفي قلب الأشرف من محبة دمشق والميل الى تملكها ما فيه ،فهو يعمل على ذلك باطنا " (٢) وهكذا غدا حال الناصر في استجارته بعمه الاشرف ضد الكامل كالمستجير من الرمضاء بالنار .

----

(١) تاريخ ابن الفرات ،جـ٦ لوحة ١٢ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ،وانظر ايضا تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ١٢ .

وسلم الناصر داود مقاليد دولته الى عمه الاشرف ووضع فيه كامل ثقته ،وقدم الى دمشق ايضا المجاهد شيركوه صاحب حمص لانه كان متحالفا مع الاشرف (١) .

وأرسل الاشرف الى الكامل رسولا ليشفع في الناصر داود ويطلب منه ابقاء دمشق عليه فرفض الكامل وساطة الاشرف لعلمه انه لم يكن مخلصا فيها وخاطب رسوله " بما فيه اطماع الاشرف بملك دمشق " (٢) . وعندئذ أشار الاشرف على الناصر داود بالمضي معه الى نابلس ليقيم بها ثم يسير هو لمفاوضة السلطان الكامل بتل العجول قرب غزة ، فسارا و معهما المجاهد صاحب حمص ،وأقام الناصر بنابلس بينما سار الاشرف والمجاهد الى الكامل . وهنا غدر الاشرف بابن اخيه الناصر وأماط اللثام عن مطامعه ، وتم عقد صفقة سياسية بينه وبين اخيه الكامل اقتسما بموجبها مملكة الناصر داود ،وجرى الاتفاق على أخذ دمشق من الناصر و تسليمها للاشرف مع ما يتصل بها من البلاد إلى عقبة فيق ،ويكون للسلطان الكامل المناطق الواقعة بين عقبة فيق و غزة ، وأن يعوض الناصر داود ببعض بلدان الجزيرة التابعة للاشرف وهي حران والرقة والرها و سروج و رأس عين وجملين والموز ،وأن تنتزع بعلبك من الامجد بهرام شاه وتعطى للعزيز عثمان بن العادل ،وتنتزع حماه والمعرة و بعرين من قلج ارسلان وتعطى لاخيه المظفر ، على أن تسلم سلمية للمجاهد

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٢٤ أ ؛ تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣٣٠ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٢٩ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢٦- ٢٢٧ ؛ ابو الفدا ،جـ٣ ص ١٤٠ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ١٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

صاحب حمص (١) .

وحينما سمع الناصر داود بنبأ الاتفاق رحل من نابلس قاصدا دمشق ، غير انه بدلا من ان يحاول استمالة كبار الامراء والقادة الى جانبه ، ارتكب حماقة كبيرة عندما اختلف مع الامير عز الدين ايدمر المعظمي صاحب جينين ، فاحضره وأمر بضربه واهانته ، وكان ايدمر من كبار قادة المعظم ، فهرب باتباعه وانضم الى السلطان الكامل الذى احسن اليه فضعفت قوات الناصر بذلك (٢) . ويذكر ابن الفرات ان ايدمر المعظمي عندما وصل الى السلطان الكامل أنعم عليه بعشرين الف دينار عينا وكتب له توقيعا على الاعمال القوصية بعشرين الف اردب غلة كما اعطاه جميع املاك وزير والده صفي الدين بن شكر (٣) . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على مدى القوة التي تمتع بها هذا الأمير وقدرته على تغيير موازين القوى في الصراع الدائر ، وهذا يلقي الضوء على دور القادة العسكريين من اصحاب الاقطاعيات في النزاع بين الايوبيين .

وحينما رحل الناصر داود عائدا الى دمشق لحق به عمه الاشرف تحت عقبة فيق بالغور واجتمع به واخبره بالاتفاق الذى جرى مع السلطان

----

(١) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٢٤ أ ب - ٢٥ أ ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٩٤ أ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٠ أب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ١٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٣٠ - ٢٣١ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢٧ ؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١٤٠ .
وعقبة فيق : ويقال افيق مدينة بالشام بين دمشق وطبرية ، وعقبة فيق تنحدر الى غور الاردن وهي تشرف على طبرية وبحيرتها ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٣٦ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٥٥ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥١ .

الكامل ، وانه لا مناص من مخالفته وطلب منه التنازل عن دمشق والرضى بما تقرر له من البلاد الشرقية ،وحضر الاجتماع الصالح اسماعيل بن العادل والمغيث بن عمر بن العادل وكانا مع الناصر داود ، والامير عز الدين ايبك صاحب صرخد وكبير قادة الناصر ،ورفض عز الدين ايبك تسليم دمشق وأمر الناصر بالرحيل معه فورا الى دمشق للاعتصام بها والدفاع عنها ، وعندئذ انضم الصالح اسماعيل والمغيث ،وكريم الدين الخلاطي - وكانوا جميعا من أخلص اصحاب المعظم - الى الملك الاشرف (١) كما تلقى الاشرف نجدة من حلب بعث بها الاتابك طغريل فوصلت الى الغور في محرم ٦٢٦ هـ/ نوفمبر ١٢٢٨م (٢) .

وصل الناصر داود الى دمشق وشرع في الاستعداد للحصار ، وقام سكان دمشق بنصرته احسن قيام ، وسار الاشرف على رأس كتيبة حلب وصاحب حمص ومن انضم اليه من اصحاب الناصر لأن معظم عساكره كانوا بالمشرق بازاء الخوارزمي ،ولما وصل الاشرف دمشق نازلها في ربيع الثاني ٦٢٦هـ/ مارس ١٢٢٨م وقطع عنها فروع نهر بردى ،فخرج الدمشقيون وقاتلوا اصحاب الاشرف حتى أعادوا الماء الى دمشق ، وجرت بين الجانبين معارك عديدة ،وهدمت الكثير من الابنية والخانات خارج دمشق ،واشتدت عمليات النهب والحريق في ضواحي دمشق ،وتسلم الاشرف حصن عزتا خارج دمشق بما فيه من سلاح وغيره (٣) .

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٠ ب ؛تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٣٨-٣٩ ؛ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٣٧-٢٣٨ ؛ ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٤٨٤ ،المقريزى : السلوك ج١ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٣٦ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٣٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٣٩ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٥٤ .

وأرسل الناصر مبعوثا الى جلال الدين الخوارزمي يخبره ان أعمامه قصدوه بسبب دخول والده المعظم في طاعته ، ويحثه على الهجوم على خلاط عاصمة الأشرف ليشغله عن دمشق (١) . واستغل الناصر تنازل الكامل عن بيت المقدس لفردريك الثاني وأخذ يشنع على عمه ويشهر به لتنازله عن اولى القبلتين بدون قتال ،وذلك كيما ينفر الناس عنه و يحث سكان دمشق على الصمود (٢) .

اما الملك الكامل فقد شُغِلَ لفترة بالمفاوضات مع فردريك الثاني ، وبعد عقد الصلح معه (٣) ،ارسل اليه الأشرف يحثه على سرعة القدوم الى دمشق للاستيلاء عليها ،فبعث الكامل اليه يطلب منه الموافقة على تعديل الاتفاق الذى تم بينهما بحيث يأخذ الكامل البلاد الشرقية التي عينت للناصر داود بسبب صعوبة الاستيلاء على الكرك والشوبك والصلت لحصانتهما ،وتبقى دمشق وبلادها الى عقبة فيق للاشرف ، ويحتفظ الناصر بعد فتح دمشق ببعض الحصون الواقعة بين عقبة فيق وغزة ، فوافق الاشرف على ذلك ،ورحل الكامل قاصدا دمشق ووصل اليها في جمادى الاولى ٦٢٦هـ/ ابريل ١٢٢٨م (٤) .

----

(١) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٢٨ ب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٩ ـ ٤٠ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٣٩- ٢٤٠ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٩-٥٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ؛ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١٤١ - ١٤٢ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٣١٢ ؛ العليمي : الأنس الجليل جـ١ ص ٤٠٦ - ٤٠٧ .

(٣) انظر مايلي الفصل الثالث ص : ٢٩١ - ٢٩٤ .

(٤) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٠ ب - ٢٣١ أ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٥٢ .

وأمر الكامل باجراء بعض فروع نهر بردى لري الاراضي الزراعية ، وارسل اليه الناصر بعض أعيان دمشق لمفاوضته على الصلح ولكن الكامل اصر على تسليم دمشق وفشلت المفاوضات (١) . فاشتد الحصار على دمشق ، وعاد المحاصرون الى قطع فروع بردى وقنواته الداخلةالى دمشق حتى جاف البلد بسبب ذلك ، واقتصر شرب اهل دمشق على الابار ،ووقعت بين الجانبين معركة قبالة باب الحديد - احد ابواب دمشق- انتصر فيها الدمشقيون ،فرد المحاصرون باضرام النيران حول باب توما ،واحترقت العديد من الطواحين ،وجرى تدمير معظم قرى غوطة دمشق ،ومنعت القوافل التجارية من دخول دمشق حتى انقطعت المؤن والفواكه عن دمشق واشتدت الضائقة على اهل دمشق وبلغت القلوب الحناجر (٢) ويحكي ابو شامة عن بعض المعاصرين قائلا " وسمعت والدى وجماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصارات المتقدمة في دولة أولاد صلاح الدين يحكون أنهم ما رأوا أشد من هذا الحصار" (٣) .

وكان من أشد الأمور التي اضعفت الناصر داود ،ان الأموال لديه قليلة لأن معظم امواله كانت بالكرك ،ولثقته في عمه الأشرف لم يحضر منها شيئا ، فلجأ الى بيع حلى نسائه وملابسهن ،وشرع في ضرب ما عنده من الأواني والتحف الفضية والذهبية دراهم ودنانير ،وانفقها في عسكره

---

(١) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٥٤- ١٥٥ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٨ ب - ٢٩ أ ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٩٥ أ ب ؛الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٢٢ أ ب ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٠-٥٢ ؛ العليمي : المعتبر في انباء من غبر ورقة ٧٥ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٥٢- ٢٥٣ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٥٥ ؛ ابن الاثير :الكامل جـ١٢ ص ٤٨٤- ٤٨٥ .

(٣) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٥٥ .

وبعد ان نفقت امواله بدمشق غادرها بعض عساكره وانضموا الى عميه الكامل والاشرف (١) .

وبعد ان طالت مدة الحصار ادرك الناصر انه لم يعد بمقدوره الصمود والمقاومة ،فاستقر رأيه على الخروج الى عمه الكامل ،ليرى فيه رأيه ،وخرج ليلا من قلعة دمشق في اواخر رجب ٦٢٦هـ/يونيه ١٢٢٩ م في نفر قليل من اصحابه وحينما علم السلطان الكامل بمجيئه استقبله بحفاوة وأكرمه وطيب قلبه بعد ان عاتبه ،ثم امره بالعودة الى قلعة دمشق . وبعد يومين بعث الكامل بأحد اصحابه الى دمشق وخرج بصحبة الناصر علنا ،وجرى الاتفاق على ابقاء صرخد بيد عزالدين ايبك المعظمي ، وترك للناصر داود الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونابلس وضواحي القدس وبيت جبريل ،ثم تنازل الناصر عن الشوبك لعمه الكامل الذى نال ايضا من مملكة الناصر الخليل وغزة وطبرية وعسقلان والرملة واللد وجميع مدن الساحل التي في حوزة المسلمين ،وأقر السلطان الكامل اخويه العزيز عثمان والصالح اسماعيل وابن اخيه المغيث على ما بأيديهم من اقطاعات (٢) .

----

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٩ أ ب ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٢ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٥٣ ؛ ابن الاثير الكامل جـ١٢ ص ٤٨٤ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣٤ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٩ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٤-٥٦ ؛ابن ابي الدم الحموى : التاريخ المظفرى لوحة ٥٥١ - ٥٥٢ ؛ابو الفدا : التبر المسبوك مخطوط حوادث ٦٢٦هـ؛ ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ٤ ورقة ٣٢١ أ ؛تاريخ ابن الشحنة ورقة ٩٨ أ ؛العليمي، تاريخ من ملك مصر والشام وحلب والسواحل ورقة ١١٣ ب ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٥٦- ٢٥٧ ؛ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٨٥ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣٤- ٢٣٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٢٤ .

وفتحت أبواب دمشق في أول شعبان ٦٢٦هـ/ يونية ١٢٢٩م ودخل الكامل الى المدينة وتسلمها ،وكان لسقوطها أسوأ الاثر في نفوس أهلها فعمهم الحزن والاسى رغم انفراج الأزمة الاقتصادية في دمشق عقب الصلح ،ويصور المؤرخ المعاصر لهذه الحوادث ابن واصل ذلك بقوله :

" وفتحت ابواب البلد مستهل شعبان ،وكان ذلك في اول إقبال المشمش والفواكه وأهل دمشق قد يبست أكبادهم لعدم الخضروات والفواكه والثلج وانقطاع الماء ،فانفرج عنهم الضيق ،لكن حصل في قلوب الدمشقيين من الأسف والحزن ما لا مزيد عليه ،ولقد كنت عند باب القلعة ذلك اليوم ،وقد دخل العسكر المصرى من جميع الأبواب ،وامتلأت المدينة منهم ،وكان الى جانبي انسان من أهل دمشق ،فلما رأى ذلك بكى بكاء عاليا وأعلن بالعويل ، وما رأيت يومئذ أحدا من الدمشقيين الا في صورة من فجع بموت ولد أو أب "[1] وهذا النص يدل دلالة واضحة على روح الزعامة والقيادة في نفوس الدمشقيين وتطلعهم الدائم الى ان تكون مدينتهم مستقلة بل وزعيمة للجهاد ضد الصليبيين ،ورفضهم للتبعية لأى قوة اسلامية خارج مدينتهم .

وحينما تسلم الكامل دمشق سلمها الى اخيه الاشرف ،وبعث الكامل بنوابه الى البلاد الشرقية التي تقرر تسليمها له وهي حران والرقة والرها وسروج ورأس عين وجملين والموزر[2] . واحتفظ الكامل بقلعة دمشق مؤقتا حتى تسلم نوابه البلاد الشرقية من نواب الأشرف ، فسلم القلعة اليه[3] . وهو أمر له دلالته بالنسبة للعلاقات بين الأخوين ، اذ يشير

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٥٧ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣١ أ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٦-٥٧ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٥٧-٢٥٨ .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٨٤ .

بوضوح الى وجود الشك والريبة وعدم الثقة بينهما رغم تحالفهما في هذه المرحلة .

وظل بيد الاشرف من البلاد الشرقية نصيبين وسنجار والخابور وبلاد خلاط ،وكانت ميافارقين بيد اخيه غازى ، بينما احتفظ اخوه الاخر ارسلان شاه بقلعة جعبر (١) .

وذهب الناصر داود الى الكرك واستقربها ،وكان الكامل قد بعث قبيل الاستيلاء على دمشق بفرقة عسكرية للاستيلاء على الكرك الا أن حامية الناصر داود بالكرك تمكنت من انزال الهزيمة بفرقة الكامل و أسرت قائدها (٢) .

اما السلطان الكامل فسار الى جهة حماة لمساعدة المظفر على استعادتها من اخيه قلج أرسلان (٣) ثم سار شرقا وعبر الفرات ،ومر بقلعة جعبر وسار الى الرقة وعيد بها عيد الفطر سنة ٦٢٦هـ/أغسطس ١٢٢٩م وخافه حكام الشرق وهم اصحاب ماردين وآمد ،والموصل ،واربل وأذعنوا لطاعته (٤) . وبعد أن قرر أمر الشرق رجع الى مصر بعساكره ، وكان قد ورد عليه رسالة من ام ولده العادل الثاني تشكو من ابنه الصالح ايوب وتتهمه بالتخطيط لانتزاع الملك منه وأنه استكثر من المماليك الترك وحذرته من مغبة تأخره عن العودة الى مصر ، فعاد بعساكره على

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٦-٥٧ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٥٧-٢٥٨ .

(٢) تاريخ ابن الفرات لوحة ٥٧ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٥٨ .

(٣) انظر ما سبق ،الفصل الاول ص: ٩٧ - ٩٨ .

(٤) اليافعي ،جامع التواريخ المصرية ورقة ٣١ أ ب ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٦٧-٦٨ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٨٢-١٨٣-١٨٤ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣٦ .

عجل ،وتغير على ابنه الصالح أيوب و قبض على جماعة من اصحابه ،وصرف عنه ولاية العهد ،وجعلها لابنه الصغير العادل الثاني وأبعد الصالح ايوب عن مصر وجعله نائبه بالبلاد الشرقية (١) .

أما عن نفوذ الاشرف في بلاد الشام ،فبعد ان سيطر على دمشق رفض طلب أخيه الكامل باعطاء بعلبك لأخيهما العزيز ،وقرر ضمها الى مملكة دمشق ،فبعث اليها جيشا بقيادة اخيه الصالح اسماعيل ،ونصب عليها المنجنيقات في سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م وظل الحصار مضروبا عليها زهاء عشرة أشهر الى ان اذعن صاحبها الامجد بهرام شاه في سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م وسلمها الى ابن عمه الاشرف الذى أقطعه عوضا عنها بعض القرى التابعة لدمشق ولم يلبث الامجد أن أغتيل على يد أحد مماليكه سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م (٢) .

وفي سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م غادر الاشرف دمشق الى مصر للنزهة والاستجمام (٣) . ثم استقر رأى الاخوين الكامل والاشرف على المضي بجيوشهما الى الجزيرة لانتزاع آمد من يد صاحبها المسعود بن الصالح الارتقي ،وذلك لما بلغهما عنه من سوء السيرة وانتهاك الحرمات بحيث كثرت الشكاوى منه الى السلطان الكامل اضافةالى تحالفه مع الخوارزمي ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٧٧-٢٧٨ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣٨ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٣١ ب ؛ ٣٨ ب ،العليمي : المعتبر في انباء من غبر ،ورقة ٧٥ ب ؛تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣٣١ ؛السيوطي : اتحاف الاخصا ،ورقة ١٢٣ ب ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٨٠ ، ٢٨٤ - ٢٨٥ ؛الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ٣٤ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٠١ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣١٤ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٢٢٥ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٤١ ؛ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١٤٧ .

وفي سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م خرجا من مصر ،وتوجه الاشرف على رأس العساكر الايوبية نحو دمشق بينما سار السلطان الكامل الى الشوبك للنظر في مصالحه ثم توجه الى الكرك [١] .

وحينما علم الناصر داود صاحب الكرك بقدوم عمه الكامل ،أمر باقامة الاحتفالات والمهرجانات ابتهاجا بمقدمه ،واستقبله استقبالا رائعا ، وقام الكامل بتوطيد علاقته بالناصر ، فعقد له على ابنته عاشوراء خاتون شقيقة ولي عهده العادل الثاني [٢] . ويعلق ابن واصل على هذه المودة الجديدة بين الناصر داود وعمه الكامل بقوله : " ولو كان الناصر التجأ الى عمه في اول الأمر لم تخرج بلاد أبيه من يده " [٣] ولكننا نفترض عدم صحة هذا الرأى ،فاطماع الكامل لم تكن تقف عند حد ، فقد ظل أمل توحيد مصر والشام تحت لوائه يداعب خياله ،وقد اثبتت الحوادث بعد ذلك صحة هذا الافتراض وسنرى ذلك واضحا في الصفحات التالية.

ورحل السلطان الكامل من الكرك في اواخر شعبان ٦٢٩هـ/يونيه ١٢٣١م وصحبته ابن اخيه الناصر داود كما وصل اليه المظفر صاحب حماه ،وتوجهوا نحو دمشق ،ووفدت بقية ملوك الشام الى دمشق ،وساروا جميعا تحت قيادة السلطان الكامل شرقا [٤] ، ووصل الى آمد وحاصرها

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٤٥ ب ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ١٩٩-٢٠١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٢-١٣ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٢٣٣ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٢ ص ٢٣٢ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٠١-٢٠٣ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٦ ؛ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١٥٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٦ .

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٠٣-٢٠٤ ؛اليافعي جامع التواريخ المصرية ورقة ٤٥ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٦-١٧ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ٢٣٢ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٢٣٤-٢٣٥ .

ونصب عليها المنجنيقات ،ورغم مناعة آمد وحصانة اسوارها فانها لم تصمد في وجه الكامل بسبب كراهية سكانها لحاكمهم المسعود الارتقي ، الذى ما أن شعر بتخلي السكان عنه حتى اذعن الى التسليم وطلب الأمان لنفسه فاجابه الكامل الى طلبه وتسلم آمد وبلادها وجميع ما يتبعها من حصون منيعة اشهرها حصن كيفا (١) . وعوض صاحبها المسعود بعض الاقطاعات بمصر وجعل ابنه الصالح ايوب نائبا عنه بالملاكه الشرقية وعهد الى الامير شمس الدين صواب العادلي بمهمة تدبير شئون ابنه الصالح ايوب وتقديم المشورة اليه لأن الكامل كان يثق في الامير صواب لما عرف عنه من اخلاص في خدمة الكامل ووالده العادل من قبل (٢) .

وبعد الاستيلاء على آمد شرع الكامل في تفقد احوال مملكته بالمشرق ، فقدم اليه قاضي الرقة وشكى اليه سيرة ابن اخيه الجواد يونس بن مودود وأنه اجحف بسكان المدينة حتى جلا معظم سكانها ولم يبق بها سوى أقل من خمسمائة نسمة ، فعزل الكامل الجواد عنها وسلمها للقاضي وطلب منه اعادة سكانها اليها ،ثم قصد الرها وحران ، والسويداء ورتب امورها (٣) . ثم رجع الى مصر وعاد ملوك الشام من بني أيوب الى بلادهم وذلك سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م (٤) .

---

(١) حصن كيفا ،بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر : انظر ياقوت: معجم البلدان .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٤٥ ب - ٤٦ أ ؛ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٣أ ب ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٠٤-٢٠٩ ؛ الديبسياوى : الزهر الزاهر ورقة ١٢٠ أ ؛الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٢٤ أ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٢٣٦-٢٤٣ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٦-٢٩ ، ٣٤ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٤٢ ؛الديار بكرى : تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس جـ٢ ص ٣٧١ .

(٣) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٢٤٤- ٢٤٥ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٤ - ٣٥ .

واذا كانت مرافقة ملوك بني ايوب للسلطان الكامل في حملته على آمد ، تدل على اعترافهم بسلطانه وخضوعهم لنفوذه ، فان العلاقات بين الجانبين كان يمكن أن تستمر طيبة لو أن الكامل لم يتطلع لبسط سيطرته المباشرة على بلاد الشام على حسابهم وجعلها ولاية تابعة لمملكته بمصر. غير ان شيئا من ذلك لم يحدث فقد ظهرت لهم مطامعه واضحة جلية ،عندما رافقوه مرة اخرى في سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م في حملته الضخمة ضد سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ،وتبين لهم ان هدفه الاستيلاء على آسيا الصغرى ، وتوزيعها عليهم وانتزاع بلاد الشام منهم وضمها مع بلاد الجزيرة الى مصر ، فتخلوا عن مساعدته وأسهموا في فشل حملته على آسيا الصغرى ،وبدأت العلاقات بين ملوك الشام والسلطان الكامل تسير من سوء الى أسوأ (١) .

وكان أول مظهر من مظاهر سوء العلاقات حدث بين الكامل وابن اخيه الناصر داود ، بسبب امتعاض الكامل من الناصر لانضمامه الى بقية ملوك الشام والجزيرة في العمل على إفشال حملته على اسيا الصغرى ، فاعرض عن الناصر ،واجبره على ان يطلق ابنته عاشوراء خاتون ولم تكن قد زفت اليه بعد ، وذلك في سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م (٢) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٧٤ - ٧٧ ، وعن تفاصيل حملة الكامل على بلاد سلاجقة الروم انظر : الفصل الرابع ص:٣٦٥-٣٦٦ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٩٥ ب ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٦٥ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٨٢- ٨٣ ؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١٥٥ ؛ ابن ايبك كنز الدرر جـ٧ ص ٣١٢ .

وقد أورد المؤرخون اسبابا عديدة لتدهور العلاقات بين الأشرف وأخيه الكامل ، حيث توالت من الكامل افعال كثيرة ضاق بها الأشرف ذرعا منها : انه اخذ منه بلاده الشرقية حين اعطاه دمشق بعد انتزاعها من الناصر داود ، كما استأثر بمناطق هامة كانت تابعة أصلا لدمشق ، وحين استولى سلطان سلاجقة الروم على بلاد خلاط - وهي مناطق شاسعة وذات خيرات كثيرة - لم ينصره الكامل على سلطان الروم لاستعادتها ،ولم يعد بيد الاشرف سوى دمشق ،واخيرا حين استولى الكامل على آمد وبلادها بمساعدة الاشرف لم يعطه شيئا منها ،واعتاد الكامل ايضا على الخروج الى بلاده الشرقية وكان في كل مرة يمر بدمشق ويقيم بها مع عسكره مما يكلف الاشرف اموالا طائلة ينفقها في ضيافته وضيافة أصحابه . اما الكامل فقد استاء من الاشرف عندما عمل الأخير على اجهاض حملته على بلاد الروم فضلا عن غضبه بسبب تجنيد الأشرف للخوارزمية بعد مقتل ملكهم جلال الدين منكبرتي (١) .

ويضيف المؤرخ المعاصر سبط ابن الجوزى وغيره من المؤرخين اسبابا اخرى الى هذه الاسباب حيث أرسل الأشرف الى اخيه الكامل يطلب منه الرقة ،فرفض الكامل ،زاعما ان دمشق تكفيه لانها مملكة بني أمية فبعث الاشرف اليه محتجا بأنه اخذ منه بلاده الشرقية واعطاها لابنه الصالح ايوب ،واضحى ملكه قاصرا على دمشق التي لم يعد ايرادها المالي يكفيه ،فبعث الكامل له بعشرة الاف دينار ،فردها الأشرف قائلا :

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٣ أ ،تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٦٠-٣٦٢ ؛ الجنابي : البحر الزاخر جـ٢ ورقة ٢٠أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٢٦-٢٢٧ ؛ابن واصل ،مفرج الكروب جـ٥ ص ١٢١-١٢٣ ؛ ابن ايبك ، كنز الدرر وجامع الغرر جـ٧ ص ٣١٧ .

" أنا اعطي هذه لأمير عندى " ، فغضب الكامل وقال : " ايش يعمل بالملك ، يكفيه عشرة المغاني وتعلمه لصناعتهم " فلما بلغ هذا القول الأشرف حنق وقال : " والله لأعرفنّه قدره "(١).

وتدهورت العلاقات بين الأخوين ،وكان المجاهد صاحب حمص من أشد المناصرين للأشرف لادراكه لنوايا الكامل في السيطرة على بلاد الشام ،وكان احد المحرضين على افشال حملته على اسيا الصغرى اذ خاطب الأشرف قائلا : " متى أخذ بلاد الروم تعبنا به وبقينا بين يديه يقلبنا كيف يشاء " فاتفقاعليه (٢).

ولم يجد الأشرف والمجاهد صعوبة في ضم مملكة حلب الى تحالفهما ضد السلطان الكامل ،اذ كان لدى أهل حلب من الاسباب ما جعلهم ينضمون الى التحالف الجديد ،حيث سبق وأن اشار الكامل عليهم بجعل الصالح بن الظاهر قائدا لعسكرحلب وذلك بعد موت العزيز وقيام ابنه الصغير الناصر يوسف في الملك بعده ، الامر الذى أغضب ضيفة خاتون ابنة العادل ،جدة الملك الصغير والوصية عليه فوقعت الوحشة بين الحلبيين والسلطان الكامل (٣). فأرسل الاشرف الى اخته ضيفة خاتون وامراء حلب يحثهم على توحيد موقفهم معه ضد السلطان الكامل لمنعه من القدوم الى بلاد الشام وأن يقتصر على الديار المصرية وذلك حتى لا يتركوا له اية فرصة للاستيلاء على اى جزء من بلاد الشام ،وهكذا

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٩٩-٧٠٠ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣١٧-٣١٨ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٤٥ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٩٧ .

(٢) ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣١٨ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٦٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٢١ ؛ وانظر ما سبق ،الفصل الاول ص : ٨٨ .

انضمت حلب بدورها الى الاشرف والمجاهد في تحالفهم ضد السلطان الكامل [(١)].

ولما كان المظفر صاحب حماه موءيدا لخاله الكامل لأنه الذى استرد له حماه من اخيه قلج ارسلان وزوجه بابنته ،فقد عمد الاشرف الى استمالته الى جانبه وتهديده بالحرب ان لم ينضم الى التحالف الجديد ، وتوسط المجاهد صاحب حمص بين المظفر وخاله الاشرف ،فوافق المظفر مكرها ، وتحالف معهم خوفا على مملكته منهم اذا لم يجب طلبهم ، وظل المظفر سرا على ولائه للكامل ،والزم المجاهد المظفر بالمضي معه الى دمشق حيث اجتمع بخاله الاشرف وأقسم له اليمين على تأييده ضد الكامل . وأرسل ملوك الشام في الوقت نفسه وفدا الى سلطان سلاجقة الروم كيقباذ يطلبون منه مناصرتهم ضد الكامل ،غير ان كيقباذ توفي قبيل وصول الوفد سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م وخلفه ابنه كيخسرو الذى اجابهم الى طلبهم وتعهد بمساعدتهم [(٢)].

وأدرك الأشرف أهمية ابن اخيه الناصر داود صاحب الكرك وما جاورها ،اذ تتمتع بلاده بموقع عسكرى هام ، لوقوعها على الطريق الذى يربط بين بلاد الشام ومصر ، اضافة الى امكانية مراقبة تحركات الكامل واخذ الحيطة قبيل توغل جيوشه في بلاد الشام ،كما أن حصانة الكرك وصعوبة الاستيلاء عليها ستجعل منها في حالة انضمام صاحبها الى تحالف ملوك الشام شوكة موءلمة في جنب الكامل اذا ما حاول غزو بلاد الشام.

------ ---------

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٦١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٢١-١٢٢ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٣ أب ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٢ ب -٢٠٣ أ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٦١- ٣٦٢ ؛ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٢٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٢٣-١٢٤ ؛ابو الفدا : جـ٣ص ١٥٩ .

ولهذا كله ارسل الأشرف الى ابن اخيه الناصر داود يطلب منه الانضمام الى تحالف ملوك الشام ضد السلطان الكامل ، وقدم له عرضا سخيا بأن يصبح ولي عهده على مملكته وان يزوجه بأبنته الوحيدة[١] .
وكاد الناصر يوافق على هذا العرض غير أنه ورد اليه في الوقت نفسه ٦٣٤هـ/١٢٣٦م مبعوث من السلطان الكامل يدعوه الى موافقته ضد الأشرف ،وذكره بغدر الاخير به بعد موت والده ، وطلب منه القدوم الى مصر ،ووعده بالمسير معه بعساكره وانتزاع دمشق من الاشرف واعادتها اليه .
وعندئذ احتار الناصر داود في أمره واستشار والدته في اى العرضين يقبل ،فأشارت عليه بالانضمام الى عمه الكامل ،فاقتنع برأيها وتوجه الى مصر[٢] .

ومن الواضح ان الناصر داود ارتكب خطأ باجابته السلطان الكامل ، فلم يستفد من الدروس التي تلقاها منه ،فهو الذى أطمع الاشرف في دمشق اول مرة ،ويبدو ان الاشرف كان صادقا في عرضه سيما وانه ليس له غير ابنة واحدة ولبن يجد وليا لعهده افضل من ابن اخيه الناصر داود ، ويعزو ابو الفدا سبب ميل الناصر لعمه الكامل و رفض عرض الأشرف "لسوء حظه"[٣] ولكن الحظ ليس له دخل في اتخاذ قراره ،فقد كان حرا في اختياره ،وانما يعود سوء الاختيار الى افتقاره للحنكة السياسية والروية

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٣أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٦٤ ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٢ ب - ٢٠٣ أ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٢٥ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٥٩ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٣ب - ٦٤أ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٦٤- ٣٦٥ .

(٣) ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١٥٩ .

الصحيحة لطبيعة تكوين الدولة الايوبية ،وعدم المامه باطماع عمه الكامل وتطلعه الى توحيد مصر والشام تحت حكمه المباشر في الوقت الذى اتضحت فيه تلك المطامع لملوك الشام الاخرين ،كما رفض الناصر نصيحة مملوك والده المخلص عزالدين ايبك صاحب صرخد الذى اشار عليه بالانضمام لعمه الاشرف وحينما رفض نصيحته تخلى ايبك عنه وانضم الى الاشرف.(١)

وكيفما كان الامر ،فان السلطان الكامل ما أن علم بقدوم الناصر داود اليه حتى أمر باقامة الاحتفالات لمقدمه ،واستقبله استقبالا حافلا وخلع عليه خلع السلطنة واركبه بالسناجق السلطانية وأمر بتجديد عقده على مطلقته عاشوراء خاتون (٢) . وقد خُدع الناصر بكل مظاهر الحفاوة التي استقبله بها عمه الكامل حتى انه بعث الى نائبه بالكرك برسالة يخبره بهذا الاستقبال وتمثل في الرسالة ببيت من شعر ابي الطيب المتنبي وهو :

سيعلم قوم خالفوني وشرقوا وغربت أني قد اصبت وخابوا (٣)

ويبدو انه يشير بذلك الى مملوك والده عزالدين ايبك صاحب صرخد الذى انضم الى تحالف ملوك الشام ضد الكامل . وحينما بلغ الأشرف انضمام الناصر داود الى الكامل أرسل عسكرا الى نابلس فاستولى عليها "واخذ ما كان فيها للناصر داود" (٤) .

---

(١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٣ أ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٤ .

(٢) اليافعي ،جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٤ أ ؛ تاريخ ابن الفرات : جـ ٥ لوحة ٣٦٥- ٣٦٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٢٦-١٢٧ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٥٤ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣١٧ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٢٧ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٥٤ .

وذكر ابن العديم أن ملوك الشام حينما تحالفوا ضد السلطان الكامل " وعزموا على الخروج عليه عيّن لكل واحد منهم شيئاً من بلاده "(١) ويفهم من هذا النص أن البلاد التي اتفقوا على الاستيلاء عليها هي البلاد الواقعة شرق الفرات، اذ ليس من المعقول أن يفكروا في الاستيلاء على مصر. بدليل رسالتهم الى الكامل، فبعد ان تحالفوا ضده، بعثوا وفدا ليؤدى رسالةعلى لسانهم يقولون فيها: " اننا قد اتفقنا كلنا ونطلب منك انك لا تعود تخرج من مصر، ولا تنزل الى الشام وتحلف لنا على ذلك " فقال لهم: " مبارك انتم قد اتفقتم، فما تطلبون من يميني ؟ احلفوا أنتم ايضا لي ان لا تقصدوا بلادى ولا تتعرضوا لشيء مما في يدى وأنا اوافقكم على ما تطلبون "(٢) وهو يشير بذلك فيما يبدو الى بلاده الواقعة شرق الفرات.

وتطورت الحوادث بسرعة، فمرض الأشرف موسى، ولما اشتد به المرض عهد الى اخيه الصالح عماد الدين اسماعيل بن العادل بمملكته من بعده، واستحلف له المجاهد صاحب حمص وعز الدين ايبك صاحب صرخد، وتوفي الاشرف بدمشق في المحرم ٦٣٥ هـ/ سبتمبر ١٢٣٧ م وعمره ستون سنة(٣).

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٢٧.

(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٤ أ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٦٦؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٢٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ١٢٨؛ وانظر ايضا: ابن واصل التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٤ ب - ٢٣٥؛ البستان الجامع، ورقة ٢٠٣ أ؛ المقريزى: السلوك جـ١ ص ٢٥٥.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٥ أ؛ الاصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٣ أ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٩١؛ ابو الفدا: التبر المسبوك، مخطوط حوادث ٦٣٥هـ؛ تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣٣٨؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٤١٠.

ولقد أزالت وفاة الاشرف ،عقبة كأداء كانت تقف في طريق الكامل ، الذى لم يكن يجروء على مواجهته في مكان مكشوف . فقد ذكر المؤرخون ان الاشرف كان محظوظا في ميادين القتال بحيث لم يهزم في أى معركة شارك فيها بنفسه طوال حياته ،وكان ايضا كريما جدا لا يبخل بمال (١) . وكان اخوه الكامل يعي هذه الحقيقة جيدا ، فحينما بلغه نبأ موته قال : " والله لو لم يمت لراحت البلاد منا ،فقيل له : لك من باب الموصل الى اليمن ، فايش تلتفت اليه ،فقال : اسكتوا كان كريما والكرم ما معه حديث " (٢) .

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٩١ - ٣٩٢ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٣٨-١٤١ ؛ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٠٠ .

الحرب الأهلية في بلاد الشام ونتائجها

٦٣٥-٦٤٢هـ/١٢٣٧-١٢٤٤م

انهت وفاة الأشرف مرحلة من العلاقات بين ابناء العادل الثلاثة الكبار - الكامل والمعظم والاشرف - تميزت بالشد والجذب ، بالاتفاق والاختلاف ،مرحلة نتج عن الاتفاق بينهم فشل الحملة الصليبية الخامسة ، ونتج عن الاختلاف فقدان بيت المقدس لحساب الصليبيين دون قتال ، فضلا عن انه فتح اعين الخوارزمية على بلاد الشام التي ستدفع ثمنا باهظا نتيجة غاراتهم القادمة. ولم يقدر لبلاد الشام والدولة الأيوبية عموما الوحدة الكاملة بسبب الخلافات بين ابناء العادل الثلاثة ،وجاءت وفاة الاشرف ايذانا ببدء فترة اخرى أشد قلقا واضطرابا ،هي فترة الحرب الاهلية ،حيث انتشرت الحروب والاحقاد على نطاق واسع بين الايوبيين في بلاد الشام ،واستنزفت تلك الحروب الكثير من الطاقات ، والقدرات المادية والبشرية التي كان يمكن ادخارها لمواجهة الصليبيين في بلاد الشام والاستعداد لمرحلة زحف المغول .

وعلى أية حال فحينما توفي الاشرف سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م ، استولى اخوه الصالح عماد الدين اسماعيل على دمشق وبعلبك وجميع ما يتصل بدمشق من البلاد ،وارسل ابنه الى الشرق ليتسلم من نواب الاشرف سنجار ونصيبين والخابور ،وبعث الى المجاهد صاحب حمص والمظفر صاحب حماه واهل حلب يطلب استمرار الحلف الذى أبرمه الأشرف معهم قبيل وفاته ،فوافق صاحب حمص والحلبيون على طلبه ،وامتنع المظفر صاحب حماه وأعلن انحيازه لخاله السلطان الكامل [١] . وقد اتخذ المظفر من

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٥ ب ؛الاصفهاني :

===

صاحب حمص ذريعة للانسحاب من الحلف فارسل اليه يقول : " اني لا أجيب الا بشرط أن تعطيني سلمية و قلعة شميميش " لعلمه ان المجاهد لن يذعن لطلبه ،وارسل المظفر الى السلطان الكامل يعلن انضمامه اليه ويعتذر عن تحالفه السابق مع الاشرف وانه لم يفعل ذلك الا مكرها ، فقبل الكامل عذره ووعده بانتزاع سلمية وقلعتها من المجاهد وتسليمها اليه ،وقد ارسل الحلبيون وفدا الى حماة بزعامة المؤرخ كمال الدين ابن العديم لمحاولة التوفيق بين المظفر والمجاهد صاحب حمص فاشتط المظفر في مطالبه ، وفشلت جهود ابن العديم في اقناعه بالانضمام لتحالف بلاد الشام ضد الكامل (١) .

وتواترت الانباء بعزم الكامل على المسير الى بلاد الشام للاستيلاء عليها وشرع الصالح اسماعيل في تحصين دمشق ،والاستعداد للحصار بتخزين المؤن والأقوات داخل المدينة ،وأمر جميع العساكر بالدخول الى دمشق ،وقبض على بعض انصار الكامل داخل دمشق وصادر ممتلكاتهم ، وأمر سكان الاحياء الواقعة خارج الأسوار باخلائها ،وقطع الجسور المنصوبة على فروع بردى وقنواته . و أرسل المجاهد صاحب حمص ابنه ابراهيم نجدة للصالح اسماعيل ،وارسل الصالح اسماعيل يطلب النجدة من سلاجقة الروم ،كما وصلته نجدة كبيرة من حلب ،وانضم اليه عز الدين ايبك

=== البستان الجامع ورقة ٢٠٤ ب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٠٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٤٨ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٥٦ .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٢٣ - ٢٢٥ ؛وانظر ايضا تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٠٣-٤٠٥ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٤٨ - ١٥٠ .

صاحب صرخد برجاله (١) .

سار السلطان الكامل نحو دمشق ومعه ابن اخيه الناصر داود الذى اعتقد بأن عمه سوف يسلم له دمشق ، وبعث الناصر داود الى نائب الاشرف بقلعة عجلون يطلب تسليمها اليه فاجابه الى ذلك مشترطا مبلغا من المال ،وتسلمها الناصر ولم يعارضه عمه الكامل حتى لا يثير الشك في نفسه قبل الاستيلاء على دمشق ،ووصلا الى دمشق وضربا الحصار حولها في ٢٠ ربيع الاول ٦٣٥هـ/ ١٠ ديسمبر ١٢٣٧م (٢) .

وقد اتبع الصالح اسماعيل سياسة الارض المحروقة خارج دمشق حتى لا يستفيد منها الكامل وجيوشه ،فأمر باحراق الخانات والطواحين خارج دمشق ، وترتب على ذلك ،لجوء اعداد كبيرة من سكان الاحياء الخارجية الى داخل المدينة حيث اكتظت بهم الازقة والطرقات ،حتى اضحى فرسان الصالح وحلفاؤه يدوسون على امتعة اللاجئين في الطرق وليس في وسع اصحابها منعهم ،وانتشر التخريب خارج دمشق ، فدمرت البساتين والدور والاسواق حتى غدت قاعا صفصفا (٣) . وعمت الفوضى

----

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٥ ب - ٢٣٦ أ ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٤ - ٢٠٥ أ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٠٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٥١ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧١٦ - ٧١٧ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٠٥ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٥١ .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٦ أ ب ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٥ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٠٥-٤٠٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٥١ ؛سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧١٧ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٢٤-٣٢٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ٣ ص ١٤٨ .

الشاملة دمشق وضواحيها "وصار كل من له غرض مع احد وهو غائب خرج الى داره ،فاخربها وربما أحرقها "(١) .

وفي تلك الاثناء بعث صاحب حمص بنجدة الى دمشق ،فقبض عسكر الكامل على نحو خمسين رجلا من افرادها ، فامر الكامل بشنقهم بين البساتين نكاية في صاحب حمص (٢) . واستمر القتال عدة أيام ثم خرج الدمشقيون الى خارج الاسوار ونشبت معركة مع بعض عساكر الكامل انتصر فيها الدمشقيون واسروا بعض الجنود وعادوا الى دمشق (٣) .

وظل القتال سجالا بين الفريقين رغم حلول فصل الشتاء ،وفي اليوم الاول من جمادى الاولى ٦٣٥هـ/١٨ يناير ١٢٣٨م شن الناصر داود هجوما على دمشق من جهة باب توما -احد ابواب دمشق - وتقدم بقواته حتى اقترب من الباب ،ووصلت سهام انصاره الى داخل دمشق حتى اوشك على اقتحام المدينة ،غير ان عمه الكامل اصدر امره اليه بوقف القتال والانسحاب الى الخلف (٤) . وهذا يدل على ان الكامل لم يكن صادقا في وعده للناصر بتسليمه دمشق ،فمنعه من اقتحامها حتى لا يصبح له الحق في دمشق باعتباره الفاتح لها .

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٦ ب ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٥ ب.

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٦ ب ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٥ ب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٠٦ - ٤٠٧ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٥١ .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٦ ب ؛البستان الجامع ورقة ٢٠٦ أ.

(٤) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٧ أ ؛ الاصفهاني :البستان الجامع ورقة ٢٠٦ ب ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٠٦ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٥١ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٠٧.

وفي اليوم التالي لمحاولة الناصر داود خرج الصالح اسماعيل مع بعض اعوانه ،واضرموا النيران في بقية الاحياء الواقعة خارج دمشق ، واحترقت بعض الدور بمن فيها ،وعم الذعر مدينة دمشق وارتفعت الاسعار داخل المدينة ،ومن الغريب ان غرارة القمح كانت تباع بخمسة وعشرين درهما وتطحن بثلاثين درهما بسبب احراق الطواحين (١) .

وحينما اشتدت الضائقة بدمشق وأوشكت على السقوط ،ارسل الصالح اسماعيل الى اخيه الكامل يقول: " متى فتحتها عنوة وقهرا رميت النار في اربع جوانبها فاحرقتها جميعا ولا لي ولا لك " (٢) وكان الكامل يدرك جدية تهديد اخيه الصالح اسماعيل لما يعرفه عنه من الطيش وشدة التهور ،فاذعن لوساطة مبعوث الخليفة العباسي الذى كان قد حضر الى دمشق ،وسلم الصالح اسماعيل دمشق الى اخيه الكامل في ١٠ جمادى الاولى ٦٣٥هـ/ ٢٧ يناير ١٢٣٨م وعوضه عنها بعلبك والبقاع فسار اسماعيل اليها وتسلمها (٣) .

ولم ينس الكامل موقف المجاهد صاحب حمص فأرسل اثناء حصار دمشق الى المظفر توقيعا باستعادة سلمية من المجاهد ، فتسلمها (٤) ،

----

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٧أ ب ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٦ ب - ٢٠٧أ .

(٢) ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٢٥ .

(٣) ابن ايبك : درر التيجان مخطوط حوادث ٦٣٥هـ؛ العليمي : المعتبر في انباء من غبر ورقة ٧٥ أ ب ؛ تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣٣٨ ؛الأهدل : غربال الزمان ورقة ١٥٠ ب ؛جرجيس ابن العميد : أخبار الايوبيين ص١٦٣ ؛ الصفدى : امراء دمشق في الاسلام ص٩ ؛ابن طولون : القلائد الجوهرية القسم الأول ص ٩٥ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٥٢ .

ولم يكتف الكامل بذلك بل قرر القضاء على مملكة حمص ، بسبب الدور الذى لعبه المجاهد في تأليب بلاد الشام ضده ،فأمر عسكره بالزحف على حمص كما أمر المظفر صاحب حماه بالمسير قبله اليها ، فسار الاخير بعسكر حماه نحوها وعسكر على الرستن (١) منتظرا وصول الكامل بنفسه (٢) .

لكن القدر لم يمهل السلطان الكامل في إكمال وحدة مصر والشام اذ اصيب بالزكام بعد استيلائه على دمشق واشتد به المرض ولم يلبث أن توفي في رجب ٦٣٥هـ/ مارس ١٢٣٨م ودفن بدمشق وعمره نحو اثنتين وستين سنة (٣) .

وحينما توفى السلطان الكامل ،اجتمع امراؤه وقادة عسكره بدمشق وعلى رأسهم أبناء شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه (٤) . وتشاوروا فيما بينهم ،واستقر رأيهم أخيرا على أخْذِ القَسَم من الجنود للسلطان الجديد ، العادل بن الكامل . الذى استنابه والده بمصر ، واتفقوا على اختيار الجواد

---

(١) الرستن ، بلدة قديمة تقع على نهر العاصي في منتصف الطريق بين حمص وحماه ،انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٧ب ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٧ أ ب ؛تاريخ ابن الفرات جـ ٥ لوحة ٤٠٩ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٥٢-١٥٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٥٣-١٥٤ ؛سبط ابن الجوزى : مرآةالزمان جـ٨ ص ٧٠٧ ؛ الصفدى : الوافي بالوفيات جـ١ ص ١٩٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٤٩ ؛ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ١٠٧-١٠٨ .

(٤) ينتمي أبناء شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر بن حمويه الى أسرة فارسية متصوفة ،وكانوا فقهاء شافعية وهاجر فرع من هذه الاسرة الى مصر وتمتعوا بنفوذ كبير لدى السلطان الكامل وأولاده ـ وكانوا أربعة أخوة

===

يونس بن مودود بن العادل نائبا عن ابن عمه بدمشق ،وصرفوا النظـــر عن الناصر داود الذى وعده الكامل قبل موته باعادة دمشق اليه ،وذلـــك خوفا من استبداده بالملك ، وتهديد ابن سيدهم السلطان العادل الثاني .(١) ويبدو أنهم كانوا قد لمسوا عزم الكامل - اثناء حصار دمشق - على عدم تنفيـذ وعده له . ويذكر المؤرخون ان الناصر داود لم ينفق الاموال لاستمالة الامراء وقادة العساكر في الوقت الذى انفق فيه الجواد يونس ستمائة الـــف دينار وخمسة الاف خلعة على كبار الامراء والقادة لاستمالتهم الى جانبه .(٢) وبعد اختيار الجواد نائبا بدمشق ،أرسل كبار القادة الى الناصر داود يأمرونه بمغادرة دمشق ،لكن العامة التفت حوله حين خروجه من دمشق وهتفوا باسمه ، وأعلنوا رفضهم لخروجه فجاء أحد الامراء بانصاره ،وفرقوا المتظاهرين وضربوهم بالدبابيس ،وأقام الناصر باحدى ضواحي دمشق عدة أيام، وحينما عزم امـراء

=== وهم ،فخر الدين ،وعماد الدين ،ومعين الدين ،وكمال الدين ، انظر المقريزى ،الخطط جـ٢ ص ٣٣-٣٤ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٩١ حاشية رقم (٣) .

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٨ب ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٩ ب ؛اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٧١ ب ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤١٨ ؛ العليمي : تاريخ من ملك مصر وكما والشام ورقة ١١٤ ب ؛ الديرى : الجدول الصفي من البحر الوفي ورقة ٢١٩ أ، ب ، ابو الفداء : المختصر جـ٣ ص ١٦١ ،المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٦١ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٨ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٠٧ -٧٠٨ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٢٨-٣٢٩ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٧٢-٢٧٣ ؛ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٥٠ .

دمشق على القبض عليه رحل نحو عجلون وتحصن بها[١] .

وأقام الجواد يونس بدمشق وتظاهر بأنه نائب عن ابن عمه العادل ، وتوجهت غالبية عساكر الكامل عائدة الى مصر ، وبقي لدى الجواد بعض العسكر بقيادة عماد الدين بن شيخ الشيوخ لحماية دمشق من الناصر داود ، اضافة الى المماليك الاشرفية - اتباع الملك الأشرف بن العادل - وكانوا يعتبرون شوكة قوية بزعامة الامير عز الدين ايبك الأسمر الأشرفي[٢] .

أما الناصر داود ، فقد سار من عجلون واستولى على غزة وبعض الساحل الذى كان بيد السلطان الكامل ، وجند اعدادا كبيرة من العرب وغيرهم ، وأقام بغزة ، وارسل الى ابن عمه العادل بن الكامل بمصر طالبا اليه تسليم دمشق ليصبح نائبه بها بدلا من الجواد ، وترددت الرسل بينهما ، ولم يستجب العادل لمطالب الناصر داود[٣] .

وخرج الجواد من دمشق لمواجهة الناصر داود ، وتمكن من خداعه حينما طلب من المماليك الاشرفية استدراجه بعيدا عن عساكره وقال لهم: "كاتِبُوا الناصر واطْمِعُوهُ ، فكاتبوه ، وأَطْمَعُوه واغتر بهم ، وساق من غزة في سبعمائة فارس الى نابلس باثقاله وخزائنه وامواله وكانت على سبعمائة جمل . . وترك العساكر متقطعة خلفه "[٤] والتقي الجواد بالناصر في المنطقة بين

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤١٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص١٧١ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص٧٠٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٥٠ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٠٤ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ١١٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٧٣ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ١٧٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٧٥ .

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٣٧ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص٧٠٨ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٠٥ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٢٩ .

نابلس وجينين في ذى الحجة ٦٣٥هـ/ يوليه ١٢٣٨م ، حيث دارت المعركة وهزم الناصر هزيمة شنيعة ، وغنم الجواد وجيشه جميع اموال الناصر داود وخزائنه التي كانت معه ، وكانت هزيمة الناصر هذه ساحقة حقا ، اذ بات - بعد أن فقد امواله الضخمة التي ورثها عن ابيه - عاجزاً عن تجنيد عساكر جديدة لأن ذلك يتطلب الكثير من الأموال اللازمة لاستمالة قادة وعساكر الدولة الأيوبية ، في الوقت الذى ازدادت فيه قوة الجواد واصحابه بما حازوه من غنائم وغيره ، واستولى الجواد على نابلس وهرب الناصر الى الكرك ، وغادر عماد الدين بن شيخ الشيوخ ببقية عساكر مصر الى القاهرة بعد سحق قوات الناصر وزوال خطره عن دمشق (١) .

وحينما بلغ السلطان العادل بن الكامل نبأ هزيمة الناصر داود ، خشي أن يغرى ذلك الجواد بالاستيلاء على بلاد الشام فأرسل اليه يأمره بالرجوع الى دمشق ورد بلاد الناصر التي استولى عليها بعد المعركة اليه ، فنفذ الجواد أمر العادل على مضض وعاد الى دمشق وأخذ يتطلع الى الاستقلال بها (٢) .

اما عن الموقف في شمال بلاد الشام بعد وفاة السلطان الكامل مباشرة ، فقد كان اشد ملوك الشام خوفا وجزعا من السلطان الكامل هو المجاهد صاحب حمص الذى أيقن بزوال ملكته بعد سقوط دمشق بيد السلطان ، وفجأة

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٨ ب - ٢٣٩ أ ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢١٠ أ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٣٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٩١-١٩٣ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٠٨-٧٠٩ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٢-١٦٣ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٢٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٠٥ ؛ الكتبي : فوات الوفيات جـ١ ص ٤٢٣ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٣٨-٤٣٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٩٣ .

وصل اليه نبأ وفاة الكامل على جناح طائر ،فانقلب خوفه الى سرور بالغ ، ونزل الى الميدان ،وعمره يناهز السبعين عاما ، ولعب الكره مع اولاده ابتهاجا بموت عدوه وشرع في شن الغارات على حماه وبلادها ،حيث كان صاحبها المظفر قد عسكر على الرستن منتظرا وصول خاله الكامل لشن الهجوم المشترك على حمص ، فانقلبت خططه رأسا على عقب وعاد الى حماه خائفا يترقب .(١)

وبعث المجاهد بنوابه الى سلمية واستعادها من المظفر بعد أن فقدها لحسابه اثناء حصار الكامل لدمشق . وقد حاول الاستيلاء على حماه فقطع القناة التي يصل منها الماء الى بساتينها وخربت بسبب ذلك بساتين كثيرة . وعمد المجاهد الى محاولة طموحه للاستيلاء على حماه عن طريق سد مجرى نهر العاصي حين خروجه من بحيرة حمص ،وكان هدفه من ذلك أن يجف الوادى الذى تسلكه مياه النهر ،وبالتالي يستطيع الاستيلاء على حماه نظرا لأنه لا يوجد للمدينة سور على ضفة النهر الذى تحمى مياهه جانب حماه المطل عليه ، غير أن محاولة المجاهد فشلت ، فبعد يومين فقط من سد مخرج مياه النهر ،تراكمت المياه خلف السد وجرفته وعادت المياه الى المجرى ، وعندئذ عمد المجاهد الى الاغارة على ريف حماه ونهب قراها وكان ذلك في سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م .(٢)

----

(١) تاريخ ابن الفرات : جـ٦ لوحة ٤٢٣ - ٤٢٤ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٧٦ - ١٧٧ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٣٠ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٩ أ ب ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢١٠ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٢٣- ٤٢٥ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ٢٩ ب ؛الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٢٧ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٧٧-١٧٨ .

اما اهل حلب فلم يغفروا للمظفر انحيازه الى السلطان الكامل ، فبعد وفاته ،امرت الصاحبة ضيفة خاتون -الوصية على ابن ابنها الناصر يوسف- عسكر حلب بشن الهجوم على مملكة حماه ،وامرتهم بالبدء أولا بالاستيلاء على قلعة المعرة وقراها ثم الزحف على حماه وحصارها ،وسار العسكر الحلبي الى المعرة واستولى على حواصلها ثم حاصر قلعتها التي بناها المظفر، وأرسل الاخير مبعوثا الى حلب ليستعطف خالته ضيفة خاتون ،فلم يؤذن له بمقابلتها ،ونصب الحلبيون المنجنيقات على قلعة المعرة وقذفوها بالحجارة حتى استسلمت في اواخر شعبان ٦٣٥هـ/ابريل ١٢٣٨م (١) .

واثناء حصار الحلبيين للمعرة ،تمكن المظفر من انزال الهزيمة بفرقة من عسكر حلب عند شيزر ،وأسر منهم جماعة (٢) ،ثم تقدم الحلبيون بعد الاستيلاء على المعرة الى شيزر ثم شنوا الغارات على قرى حماة ومزارعها واحرقوا اعنابها واشجارها ،واستمرت تلك الغارات طوال شهر رمضان ٦٣٥هـ/مايو ١٢٣٨م (٣) . وفي شوال تقدم العسكر الحلبي الى حماه نفسها وحاصرها ، واستمرت الحرب سجالا بين الحلبيين وحماه حتى اوائل سنة ٦٣٦هـ/ اغسطس ١٢٣٨م ،حين ضجر الحلبيون من طول الحصار ،لأن الصاحبة خاتون امرتهم بعدم نصب المنجنيقات على حماه لانها لم تكن تهدف من حصار حماة الى ازالة حكم ابن اختها المظفر ،وانما كان هدفها فقط معاقبته على تأييده للسلطان الكامل واجباره على عدم المطالبة بالمعرة مرة أخرى ،وانسحب

----

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٩ب ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢١٠ب - ٢١١أ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٢٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٣٧-٢٣٨ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٩ب ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢١١أ .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٩ب ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢١١أ ب .

الجيش الحلبي عائدا الى بلاده في اوائل سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م (١). وهكذا فقد المظفر سلمية لحساب المجاهد صاحب حمص و فقد المعرة لحساب حلب ، ولم يبق بيده خارج حماه سوى بارين التي خشي ان يصيبها المصير نفسه فأمر بهدمها (٢).

وحينما تحقق السلطان العادل الثاني صاحب مصر في سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م من تصميم ابن عمه الجواد على الاستقلال بدمشق و الانفراد بحكمها ، احضر ابناء شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه الاربعة وهم فخر الدين وعماد الدين ،ومعين الدين ،وكمال الدين وقال لهم : " انتم ضيعتم علىّ ملك دمشق فان ابي الكامل فتحها وتوفي وهومالكها ، فسلمتم دمشق وخزائن ابي الى الجواد ،فتغلب على دمشق وضيع الخزائن ، وما أعرف عود دمشق اليّ وانتزاعها من يد الجواد الا منكم " (٣). ولم يكن بمقدور عماد الدين ابن الشيخ الا الاستجابة لطلب العادل ولا سيما وانه المسئول الاول عن اختيار الجواد نائبا بدمشق بعد موت الكامل ،فتعهد بالمضي الى الشام لاعادة

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٩ ب ؛الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢١١ ب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٢٧ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٤٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٨٢ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١٦٣ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢٠٩ - ٢١٠ ؛ الغزى : نهر الذهب جـ٣ ص ١١٦ ؛ الطباخ : إعلام النبلاء جـ٢ ص ٢٥٨.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٩٨ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٣.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٥٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٩٨-١٩٩ ،انظر ايضا : سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان : جـ ٨ ص ٦٢١ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣١٢.

دمشق الى حكم العادل المباشر[(١)] .

وحينما وصل عماد الدين بن الشيخ الى دمشق استقبله الجواد ، وانزله في القلعة فطالبه عماد الدين بتسليم دمشق الى العادل وحذره من مغبة العصيان لأنّ ذلك سيؤدى الى قيام عساكر مصر بالمسير اليه وانتزاعها منه واعتقاله ،وعرض عليه اقطاعات واسعة بمصر عوضا عن دمشق ، فلم يعط الجواد ردا واضحا واخذ في التسويف والمماطلة[(٢)] . وعندئذ استدعى عماد الدين بن الشيخ كبار موظفي دمشق وولاتها وقال لهم : " قد عزل السلطان الملك العادل الجواد عن نيابة دمشق فلا تدفعوا اليه مالا ولا تقبلوا له قولا "[(٣)] .

ولما أيقن الجواد بتصميم العادل الثاني على انتزاع دمشق منه ، وتأكد له استحالة الوقوف في وجهه ، أرسل مبعوثا الى الصالح أيوب بالبلاد الشرقية يطلب منه ان يأخذ دمشق على أن يعوضه عنها بسنجار[(٤)] والرقة[(٥)] وعانة[(٦)] ،وقد قبل الصالح ايوب عرض الجواد الذى قطع الخطبة

---

(١) تاريخ ابن الفرات : جـ٦ لوحة ٤٥٩ - ٤٦٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٩٩ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٢١ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٧٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣١٣ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٥ ب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٦٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٩٩ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٧٦ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٧٦ .

(٤) سنجار : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة تبعد عن الموصل مسيرة ثلاثة ايام ،انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٥) الرقة : مدينة في الجزيرة تقع على الضفة الشرقية للفرات بينها وبين حران ثلاثة ايام ،انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٦) عانة : بلد بالجزيرة على الفرات تقع بين الرقة وهيت : انظر ياقوت معجم البلدان .

للعادل الثاني بدمشق وخطب لـلصالح ايوب وضرب السكة باسمه . وسار الصالح ايوب قاصدا دمشق ،ولما كان الجواد يعرف مدى ثقة الصالح ايوب في عماد الدين بن الشيخ ،شأنه في ذلك شأن والده الكامل ،وأنه - أى عماد الدين - ربما يفسد ما بين الجواد والصالح ايوب من صلات ، لذلك دبر موء امرة راح ضحيتها عماد الدين بن الشيخ في جمادى الأولى ٦٣٦هـ/ يناير ١٢٣٩م (١) .

اما الصالح ايوب فقد عهد الى ابنه تورانشاه بحكم بلاد الشرق ، وسارهو قاصدا دمشق ،كما ارسل الى المظفر صاحب حماه يدعوه الى لقائه . وقد سُر المظفر بتلك الدعوة لرغبته الشديدة في الانتقام من المجاهد صاحب حمص ،فسار مع وزيره سيف الدين علي بن الهذباني ، ولحقا بالصالح ايوب وهو في طريقه الى دمشق . ودخل الصالح ايوب دمشق واستقر بقلعتها في جمادى الاخرة ٦٣٦هـ/ فبراير ١٢٣٩م ،لكن الجواد ندم على تنازله عن دمشق وخشي أن لا يفي له ابن عمه بما وعده به من البلاد الشرقية فأخذ يعمل سرا على استمالة الجنود الى جانبه ،ولا سيما وأن الصالح أيوب قدم الى دمشق في قلة من العساكر ،وكادت تقع الفتنة داخلها لولا وساطة المظفر صاحب حماه الذى أقنع الجواد بحسن نية الصالح ايوب ،وضمن له الوفاء بما شرطه له ، وعندئذ غادر الجواد دمشق الى الشرق ،وتسلم

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٦٠ - ٤٦٣ ؛ الجنابي : البحر الزاخر جـ٢ ورقة ٢٠ ب ،ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٩٩ - ٢٠٢ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٢١ - ٦٢٣ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ،المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٤ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣١٣ - ٣١٤ .

سنجار وغيرها من البلاد التي أعطيت له عوضا عن دمشق (١) .

وبعد ان انفرد الصالح أيوب بحكم دمشق استقر رأيه على توطيد علاقته بملوك الشام الأقوياء لكي يضمن مساعدتهم على انتزاع مصر من يد اخيه العادل ،فبعث الى عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك يطلب منه الاتفاق معه ،فقدم الاخير الى دمشق واظهر لنجم الدين ايوب الود والصفاء ، وحلف له على مناصرته وعاد الى بعلبك (٢) . وبعث الصالح ايوب الى عمته ضيفة خاتون - الوصية على مملكة حلب - باذلا طاعته لها والموافقة على كل ما تريده ،وطلب منها مساعدته على أخذ مصر من أخيه العادل ،فاجابته بعدم التدخل بينه وبين اخيه " وانكما ولدا أخي " ولم تجبه الى ما اقترح (٣) .

أما الناصر داود فحينما بلغه استيلاء الصالح ايوب على دمشق بعث اليه يعرض مساعدته له على اخيه العادل والوقوف الى جانبه لاخذ مصر منه ، وطلب مقابل ذلك تسليم دمشق وما يتبعها من البلاد التي كانت بيد والده المعظم ،فوعده الصالح ايوب بذلك بعد الاستيلاء على مصر ،

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٤١ أ ب ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢١٣ أ ب ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام جـ ٥ ورقة ٧ أ ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٦ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٦٣ - ٤٦٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٠٢ - ٢٠٥ ؛ الصفدى : الوافي بالوفيات جـ ١٠ ص ٥٥ - ٥٦ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٣ ؛ المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٣٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٠٦ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٢٠ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٤٥ .

فأصر الناصر على تسليم دمشق مقدما فرفض الصالح أيوب مطالبه (١) .
لذلك قـرر الناصر السفر الى مصر للافادة من الخلاف الناشب بين العادل واخيه الصالح ،فاستقبله العادل وانزله بدار الوزارة ،ووعده ان يسترد له دمشق وما يتبعها ،وتم الاتفاق بينهما على محاربة الصالح أيوب (٢) .

وكان العادل الثاني قد أساء السيرة في مصر ، وشُغل عن مصالح الدولة باللهو والعبث فاتفق اكثر الامراء بمصر على مراسلة الصالح ايوب ، نظرا لأنه الابن الاكبر ،ولما اشتهر به من حسن السيرة ولجدارته بحكم الدولة الأيوبية ،فبعثوا اليه يستدعونه الى مصر ،واخبروه أنه بمجرد دخوله ارض مصر سينحاز اليه اكثر عسكرها ، فانزعج العادل ووالدته من ذلك وخافوا من الصالح ايوب خوفا شديدا بسبب ولاء عساكر مصر له (٣) .

وتواترت الرسل من المظفر صاحب حماه الى الصالح ايوب بدمشق يطلب منه القدوم الى حمص للاستيلاء عليها ،وفي الوقت نفسه ظلت الرسل تصله تباعا من مصر تحثه على القدوم اليها ،مما جعله يتحير في اتخاذ قراره هل يقصد مصر أو حمص . واخيرا استقر رأيه على المسير الى مصر لأنه اذا ملكها بكل امكاناتها البشرية والمادية سهل عليه بعد ذلك ماسواها (٤) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٠٧ .

(٢) ابن دقماق ، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ورقة ٤٤ أ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢١٤ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٣٤ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٧ أ ؛ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ٤٤ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٠٦-٢٠٧ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٣ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٧٥ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٠٨-٢١٠ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٨٠ - ٢٨٦ .

أرسل الصالح ايوب قطعة من عسكره بقيادة الأمير حسام الدين بن أبي على الهذباني الى جينين قبالة الساحل ، فسار الأخير وبصحبته المؤرخ المعاصر جمال الدين بن واصل ،وعسكر بفرقته عند بحيرة طبرية حيث بلغه أن جماعة من امراء مصر انفصلوا عن العادل الثاني وغادروا القاهرة صوب بلاد الشام للانضمام الى الصالح أيوب . وقد خرج الصالح أيوب من دمشق في رمضان ٦٣٦هـ/ مايو ١٢٣٩م بقوة من نحو خمسة الاف مقاتل وبعض أمراء بني أيوب ،وتقدم الى نابلس واستولى عليها وعلى الأغوار وأعمال القدس والخليل وبعض الساحل -وجميعها تابعة للناصر داود - ،وولّى عليها من قبله وأقام بنابلس ،وذلك حتى يتأكد من صدق نوايا امراء مصر ،وظلت الرسل والجواسيس تصل اليه تباعا من مصر ، تخبره بميل جندها اليه كما استقبل جميع الامراء الذين انفصلوا عن أخيه العادل وأمر بعضهم بالمسير مع جزء من عسكره الى غزة ، ثم اصدر اوامره الى بقية اتباعه وعساكره بتهيئة العدة والمؤن والمياه استعدادا للرحيل الى مصر (١).

وأرسل الصالح أيوب الى عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك يطلب منه القدوم اليه ليمضي معه الى مصر ، فتعلل اسماعيل واعتذر وأرسل ابنه المنصور محمود نائباً عنه في الخدمة ،ووعد الصالح ايوب بالقدوم اليه في أقرب فرصة ممكنة ،وكان اسماعيل في حقيقة الأمر يعمل سرا لانتزاع دمشق منه (٢).

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٧أ ب ؛الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ٨ أ ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧١٩ - ٧٢٠ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢١٠-٢١٤ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٨١ - ٢٨٣ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٣- ١٦٤ ؛الصفدى : امراء دمشق في الاسلام ص ١٥٠.

(٢) الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ٨ ب ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢١٦ ؛سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٢٠ ؛البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٥٢ ؛ابن الفوطي : تلخيص مجمع الاداب في معجم الألقاب جـ٤ قسم ٢ ص ٦٩٢.

الواقع أنه في الوقت الذى صارت فيه الامور مهيأة تماما لاستيلاء الصالح أيوب على مصر ،كانت المؤامرات تحاك ضده في دمشق ، ولا سيما وأن من ألد أعدائه واكثرهم حنكة ودهاء المجاهد اسد بن شيركوه صاحب حمص وهوما لم يدرك الصالح ايوب خطورته فقد ذكر سبط ابن الجوزى ،انه بينما كان الصالح ايوب مقيما بنابلس في انتظار عمه اسماعيل ، كان معه ناصر الدين بن يغمور الذى ارسله اسماعيل صحبة ابنه المنصور محمود وكان ابن يغمور ،يجتمع بالامراء سرا لتأليبهم ضد الصالح ايوب "والدسائس تعمل في دمشق"(١) .

وظل الصالح أيوب مقيما بنابلس بقية سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م في انتظار عمه الصالح اسماعيل و في تلك الاثناء وصل مبعوث الخليفة العباسي لمحاولة الاصلاح بين الصالح أيوب واخيه العادل وكاد الصلح يتم بين الاخوين ،لولا أن الحوادث تطورت بسرعة لصالح عماد الدين اسماعيل والمجاهد صاحب حمص(٢) .

فخلال اقامة الصالح ايوب في نابلس ،أرسل الى عمه اسماعيل أحد اطبائه المخلصين ويدعى "الحكيم سعد الدين الدمشقي" ليستعجله في القدوم للمضي معه الى مصر ،وأعطى لسعد الدين قفص حمام من نابلس ليوافيه بتقارير عن خطط اسماعيل ،وحينما وصل الحكيم الى بعلبك استقبله اسماعيل وأكرمه وأوعز الى أحد اتباعه بتغيير الحمام بحمام من قلعة بعلبك دون علم سعد الدين الدمشقي . وشرع الصالح اسماعيل

----

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٢٠ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢١٨-٢١٩ .

في العمل للاستيلاء على دمشق بالتعاون مع صاحب حمص وأخذ يحشد الرجال والمؤن لذلك ،وحينما تحقق سعد الدين من خطط اسماعيل اخذ في كتابة التقارير بذلك الى الصالح ايوب ،وحينما يضع البطاقة تحت اجنحة الحمام ويطلقها ،يهبط الحمام في ابراجه بقلعة بعلبك ، فيأخذها البراج ويسلمها لاسماعيل ،فيقوم بدوره بتزوير رسالة على لسان سعد الدين الحكيم الى الصالح ايوب يخبره فيها باستمرار اسماعيل على الوفاء والاخلاص في الطاعة ،وانه في سبيله للقدوم اليه بنابلس ،ويرسل الرسائل مع الحمام الذى قدم به الحكيم حينما وصل الى بعلبك ،وكان اسماعيل يرسل -في الوقت نفسه- الى العادل صاحب مصر يخبره بعزمه الاستيلاء على دمشق ، وأنه سيكون نائبه بها . ونجح الصالح اسماعيل في تضليل الصالح ايوب الذى لم يعد يتلقى من الرسائل سوى ما يبعثها اليه عمه على لسان طبيبه سعد الدين الدمشقي ، واخيرا بعث اسماعيل الى الصالح ايوب يطلب منه ارسال ابنه المنصور بن اسماعيل ليجعله نائبا عنه ببعلبك ويسير هو الى نابلس فَخُدِعَ الصالح ايوب وأجابه الى طلبه ،كما ارسل ابنه المغيث عمر بن الصالح ايوب الى دمشق نائبا عنه بها ، فوصل اليها واستقر بقلعتها.(١)

ولم يكن مخلصا في ولائه من ملوك الشام للصالح أيوب غير المظفر صاحب حماه . ولكنه تعرض-بسبب اخلاصه ذلك- لكارثة شنيعة على يد صاحب حمص ،ففي اوائل سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م اتضح للمظفر-بما لا يدع مجالا للشك - اتفاق الصالح اسماعيل والمجاهد على الاستيلاء

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢١٩-٢٢٢ ؛سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٢٥ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٣٦ ؛ ابو الفداء: المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١٦٤ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٨٥.

على دمشق . ولما كان المظفر يعلم انه لا يوجد بدمشق حامية تدافع عنها ، لذلك قرر القيام بالمهمة ،واستقر رأيه ورأى وزيره سيف الدين ابن ابي علي الهذباني -شقيق حسام الدين قائد الصالح أيوب- على ارسال عسكر حماه لحماية دمشق ، ولما كان المظفر يعلم ان طريق عسكر حماه سيكون بالقرب من حمص ، فقد عمد هو وسيف الدين الهذباني الى انتهاج حيلة ساذجة لخداع المجاهد صاحب حمص ،لكي يسمح لعسكر حماه بالمرور عبر اراضيه الى دمشق ، فاتفقا على ان يوهم سيف الدين اهل حماه ،بأن المظفر قرر تسليم المدينة الى الفرنج ،وان يتظاهر سيف الدين ومعه عسكر حماه بالهجرة منها احتجاجا على هذا الاجراء ، وعندما حدث ذلك خرج اكثر سكان حماه وعلمائها واعيانها وانضموا الى سيف الدين خوفا من الفرنج . وغادر سيف الدين بعسكر حماه ومن تبعه من اهلها ومر بحمص وعسكر قرب بحيرتها ،فخرج اليه المجاهد واستقبله وسأله عن سبب خروجه ، فتظاهر سيف الدين بالغضب على المظفر الذى قرر تسليم حماه للفرنج ،وحينئذ ادرك صاحب حمص مغزى الحيلة ،فتظاهر امام سيف الدين بالتعاطف معه وطلب منه الدخول الى حمص بمن معه ليقوم بواجب الضيافة ازاءهم ،ودخل سيف الدين بعسكر حماه وبعض اعيانها الى حمص ، فقبض المجاهد عليهم جميعا وزج بهم في غياهب السجون واستولى على كل ما معهم ،وأخذ من اغنياء حماه اموالا طائلة كفدية لاطلاق سراحهم. ولقد قضت هذه الضربة الساحقة على قوة المظفر صاحب حماه ولم يعد في وسعه تقديم أى عون للصالح أيوب (١) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٢٢-٢٢٧ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٨٥ - ٢٨٧ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٥ .

واغتنم الصالح اسماعيل والمجاهد هذه الفرصة واتفقا على اقتسام البلاد ،وتقدما الى دمشق ووصلا اليها في صفر ٦٣٧هـ/سبتمبر ١٢٣٩م وتسلق جماعة من اتباعهما باب الفراديس - احد ابواب دمشق - بمساعدة جماعة من المتعاونين معهم داخل دمشق ،وكسروا قفل الباب ،ودخلت جيوشهما الى دمشق ،وأمر الصالح اسماعيل باقامة الخطبة للعادل بن الكامل وأعلن أنه نائبه بدمشق ،وقد حاول المغيث عمر بن الصالح ايوب الاعتصام بقلعة دمشق ولكنه عاد وسلم القلعة في اليوم التالي وصعد اسماعيل الى القلعة واعتقل المغيث في احد ابراجها (١) .

اما عن موقف الصالح ايوب بعد سقوط دمشق بيد اعدائه ،فكان قد علم بعد فوات الاوان أن عمه اسماعيل وصاحب حمص قررا المسير الى دمشق ، فامر قائده حسام الدين بن الهذباني بالمضي فورا الى دمشق للدفاع عنها قبل ان يصلها اسماعيل والمجاهد ، فسار حسام الدين مسرعا وصحبته صديقه المؤرخ ابن واصل (٢) . فلما اقترب من دمشق اتاه الخبر بسقوطها ،وادرك حينئذ انه فات الوقت لانقاذها ،ورجع الى الصالح ايوب تاركا خزائن سيده في حراسة جماعة من اصحابه قرب دمشق ،فجاءت فرقة من اتباع الصالح اسماعيل واستولت على اموال الصالح ايوب وعادت الى دمشق ،وحينما اجتمع حسام الدين بالصالح ايوب عند نهر الأردن جاءتهم الاخبار بسقوط قلعة دمشق ،وعندئذ انفصل عن

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٩ أب ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٩٧ - ٤٩٨ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٢٨-٢٣٠ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٢٤-٧٢٦ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٦٩ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٨٧ ،الذهبي : العبر في خبر من غبر جـ٥ ص ١٥٢ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٠٦-٣٠٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٣٠- ٢٣١ .

الصالح ايوب جميع من كان معه من امراء بني ايوب كما انفصل عنه معظم العساكر لان أهلهم واولادهم في دمشق ، ولادراكهم انه لم يعد بمقدور الصالح ايوب تحقيق النصر في محيط كبير من الاعداء وانضمت معظم تلك العساكر الى الصالح اسماعيل فازداد بهم قوة ، وضعفت قوة ونفوذ الصالح أيوب الى حد جعل بعض مماليكه ينهبون بقية امتعته ويرحلون الى دمشق ، ولم يبق معه سوى جماعة قليلة من مماليكه المخلصين وسار متجها الى نابلس ، وقد تعرض اثناء مسيره لطمع قطاع الطرق ، حتى أنه لم يصل الى نابلس الا بعد مشقة بالغة (١).

وأثناء ذلك قدم الناصر داود من مصر ، بعد ان تدهورت العلاقات بينه وبين ابن عمه العادل ، وحينما وصل الى الكرك بلغه نبأ استيلاء اسماعيل على دمشق وتفرّق عساكر ايوب عنه ، فأرسل اليه يطيب قلبه ثم قدم بنفسه الى نابلس ، وامر فرقة عسكرية باصطحاب الصالح ايوب الى الكرك وليس معه سوى مملوكه بيبرس (٢) وجاريته شجر الدر ، اما بقية مماليكه فقد اعتصموا بقلعة الصلت ، وأذن لقائده حسام الدين الهذباني في

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٠٤ - ٥١٠ ؛ الذهبي: تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ١٠ أ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٣١ - ٢٣٦ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٢٦ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ؛ ابو الفداء : المختصر جـ٣ ص ١٦٥ ؛ ابن ايبك كنز الدرر جـ٧ ص ٣٣٦ - ٣٣٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٥٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٠٧ .

(٢) هو غير السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقدارى ، ولا يتفق الرجلان سوى في الاسم والشهرة وبيبرس هذا من مماليك أيوب وكان قد خان سيده وانضم الى الخوارزمية فاستدرجه الصالح ايوب حتى عاد اليه سنة ٦٤٤ هـ واعتقله بقلعة الجبل وكان آخر العهد به ، انظر مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٤٠ حاشية رقم (١٠) .

العودة الى دمشق فاعتقله الصالح اسماعيل بقلعتها . وحينما وصل الصالح ايوب الى الكرك ، انزله الناصر بقلعتها وبعث اليه يخبره انه فعل ذلك حفاظا على سلامته من اخيه العادل وعمه اسماعيل ، وظل الصالح ايوب مقيما بقلعة الكرك كالأسير لدى ابن عمه الناصر داود زهاء سبعة أشهر من سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩-١٢٤٠م (١) .

وحينما بلغ العادل الثاني نبأ استيلاء عمه اسماعيل على دمشق واعتقال اخيه ايوب بالكرك اشتد به الفرح و أمر باقامة الاحتفالات الكبيرة بهذه المناسبة وأرسل الى الناصر داود يطلب تسليم اخيه مقابل مبلغ كبير من المال ، ووعده بدمشق ،فرفض الناصر إجابة طلبه الا بشرط تسليم دمشق أولا ، فبعث اليه العادل يتهدد بالخروج لمحاربته ، فلم يحفل الناصر بوعيده ،كما رفض طلبا اخر للصالح اسماعيل والمجاهد صاحب حمص بتسليم الصالح ايوب اليهما (٢) .

ومن الواضح ان الناصر داود اراد استخدام الصالح ايوب كورقة ضغط على العادل الثاني في سبيل تحقيق مآربه المتعلقة باستعادة مملكة دمشق ،لا سيما وأنه حين ذهب الى مصر للانضمام الى العادل ،

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٩ ب ؛الذهبي : تاريخ الاسلام جه ورقة ١٠ ب - ١١ أ ؛الجنابي : البحر الزاخر ورقة ٢١ أ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جه ص ٢٣٩-٢٤٣ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٢٦- ٧٢٧ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٣٨- ٣٣٩ ؛ المقريزى : السلوك ج١ ص ٢٨٩ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٨٩ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٨٠ أ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جه ص ٢٤٤- ٢٤٥ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٢٨ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣١٠ .

وقت استيلاء ايوب على دمشق ، رأى بعينه مدى تعلق عساكر مصر بالصالح ايوب ونفورهم من اخيه العادل ، لذلك اخذ الناصر يخطط لاستغلال ايوب لتحقيق طموحاته ،التي لا ترضى بأقل من اعادة مملكة والده اليه بدليل فشل مبعوث الخليفة في محاولته الصلح بين اسماعيل والعادل الثاني وبين الناصر داود " الذى كان لا يرضيه الا أن ترد دمشق اليه "(١).

واتفق المظفر صاحب حماه مع جمال الدين بن مطروح احد انصار ايوب على ان يمضى الى الشرق لاستدعاء الخوارزمية لنصرة ايوب كما حمل ابن مطروح معه رسالة من الناصر داود الى زعيم الخوارزمية تفيد بعزم الناصر على اطلاق سراح ايوب حين وصول الخوارزمية الى الشام ليملك البلاد (٢).

وغدت مدينة حماه ملجأً لانصار الصالح ايوب ،بسبب ولاء صاحبها المظفر له بحيث كان يقيم الخطبة له بحماه رغم اعتقاله بالكرك ، وظل المظفر يوالي ارسال الرسل الى الخوارزمية لحثهم على نجدته ، والى الناصر داود يطالب باطلاق سراحه ، لكنه -أى المظفر- اضطر اخيرا الى قطع خطبة الصالح ايوب وان ظل على ولائه له ولم يقم الخطبة لاخيه العادل الثاني (٣).

أما الناصر داود فبعد ان فشلت جهوده في استعادة دمشق من

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٤٨ ؛وانظر ايضا المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٩٢ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٩ ب ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ؛المقريزى: السلوك جـ١ ص ٢٩٣.

الصالح اسماعيل والعادل الثاني عن طريق المفاوضات (١) ، عمد الى استخدام آخر ورقة في يده وهي اطلاق سراح الصالح ايوب مقابل صفقة يعقدها معه ،فاطلق سراحه في اواخر رمضان سنة ٦٣٧هـ/ ابريل ١٢٤٠م واستدعاه الى نابلس واجتمع به ،وامر الخطيب بالدعاء له في خطبة عيد الفطر ،وأركبه بشعار السلطنة . فلما انتشر خبر اطلاق سراحه انضم اليه مماليكه واصحابه الذين تفرقوا بعد دخوله الكرك وقصدوه من كل ناحية ،ثم سار الناصر داود والصالح أيوب الى القدس حيث اجتمعا عند الصخرة المقدسة وتحالفا ،وأقسما اليمين على ان تكون مصر للصالح ايوب وبلاد الشام والمشرق للناصر داود ،وأن يعطي السلطان الصالح ايوب لابن عمه الناصر مائتي الف دينار بعد استعادة مصر . وبعد توكيد الأيمان بينهما سارا الى الكرك وعسكرا بها (٢) .

واستشعر العادل الثاني والصالح اسماعيل الخطر الكامن وراء اطلاق سراح نجم الدين ايوب "ورموا الناصر عن قوس واحدة" (٣) وتأهب العادل الثاني وخرج من مصر الى بلبيس في ذى القعدة ٦٣٧هـ/ يونية ١٢٤٠م وأرسل الى عمه اسماعيل يأمره بالخروج بعساكر دمشق ويقصد اخاه الصالح ايوب وابن عمه الناصر ، ويتقدم هو بجيش مصر من الجنوب ليطبقا عليهما ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٢٥٢-٢٥٣ ؛المقريزى: السلوك جـ١ص٢٩٣ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٨١ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٢١ - ٥٢٢ ؛الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ١١ب؛ النويرى : نهاية الارب جـ٢٧ ورقة ٦٨ أ ب ؛الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٢٨ ب ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٥٧- ٢٦٠ ؛سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٢٨ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٣٨- ٣٣٩ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٩٣- ٢٩٤ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٦ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣١٠ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٢٨ .

كمفكي كماشه ، وينتزعان بلاد الناصر داود . ورحل اسماعيل من دمشق ومعه المنصور ابراهيم صاحب حمص- الذى خلف اباه المجاهد بعد موته - فلما علم الناصر داود والصالح ايوب بقصد عساكر الشام ومصر لهما استبد بهما الخوف والفزع لان الصالح ايوب منذ اطلاق سراحه لم يتلق اية رسائل من قادة مصر فرجعا الى نابلس ،وازمع الناصر داود على العودة الى الكرك ليتحصن بها ، ويعمل على مداراة اسماعيل وابن عمه العادل ريثما تتضح له الأمور من جديد (١).

غير أن الأمور تطورت بسرعة لصالح نجم الدين ايوب ،ذلك أن سياسة العادل الثاني الخرقاء أدت الى نفور قادة عساكر مصر ، وتوغرت صدورهم تجاهه ،فاتفق مقدم المماليك الاشرفية عز الدين ايبك الأسمر مع جماعة من كبار مماليك الكامل على خلع العادل والقبض عليه ، فقاموا في احدى ليالي شهر ذى القعدة ٦٣٧هـ / يونيه ١٢٤٠م بالقبض عليه في بلبيس ،وكان المماليك الاشرفية يميلون الى الصالح اسماعيل في الوقت الذى تميل فيه الكاملية الى الصالح ايوب ،ولما كانت الكاملية هي الاكثرية الساحقة بين عساكر مصر فقد طغت كلمتهم ،واتفق الجميع على استدعاء الصالح ايوب لتعيينه سلطانا على مصر ، ووصلت الدعوة الى الصالح ايوب والناصر داود عند جبل الطور في سيناء ،فسارا على عجل الى مصر ، واستقبلتهما عساكر مصر عند بلبيس ،فقبض الصالح على اخيه العادل ،

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٢٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٦٠ - ٢٦١ ؛سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٢٧ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٦ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص٣٣٩ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٩٤ ؛ العليمي : الانس الجليل جـ٢ ص ٥.

وسار في عساكره نحو القاهرة ،وصعد الى قلعة الجبل في اواخر شهر ذى القعدة سنة ٦٣٧هـ/ يونيه ١٢٤٠م وبسط نفوذه على مصر (١) .

لكن التحالف الذى أبرم بين الصالح ايوب وابن عمه الناصر داود سرعان ما انفرط عقده بعد فترة قصيرة من استيلاء أيوب على مصر فقد ذكر المؤرخون ان سبب ذلك يعود الى قيام الناصر بعقد الاجتماعات السرية مع بعض امراء مصر ، ورفض الصالح ايوب اعطاءه قلعة الشوبك وارسال العساكر معه لاسترداد دمشق فاستوحش من الصالح ايوب وعاد الى الكرك ولا سيما وانه علم ان الصالح اسماعيل أوعز الى الفرنج بمهاجمة نابلس . وحينما وصل الناصر الى نابلس ارسل الى الصالح ايوب يطلب المال الذى وعده به ،فبعثه اليه ،وأخذ الصالح ايوب يتأول في يمينه التي أقسمها عند الصخرة المقدسة للناصر داود بأن يسترد له دمشق وغيرها ، وذكر انه لم يفعل ذلك الا مكرها وهو تحت رحمة الناصر داود (٢) . وقد ذكر المؤرخ المعاصر ابن الجوزى ان الصالح ايوب اخبره بالسبب في عدم وفائه للناصر حيث قال : " حلفني على شيء ما تقدر ملوك الأرض عليه ، وهو أن اخذ له دمشق وحمص وحماه وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر وغيرها ونصف ديار مضر ونصف ما في الخزائن من المال والجواهر والخيل والثياب ،فحلفت من تحت القهر والسيف " (٣) .

---

(١) تاريخ ابن الفرات : جـ٦ لوحة ٥٢٣ -٥٢٩ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٨١ ب - ٨٢أ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ٤٤ ب - ٤٥ أ ؛ تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣٤٠ ؛ العليمي : المعتبر في انباء من غبر ورقة ٧٦ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٦٢- ٢٧٠ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٥٤ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٩٤ - ٢٩٧ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣١١ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٢٩ ؛النويرى ،نهاية الارب جـ٢٧ ورقة ٦٩ أ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٧٠- ٢٧١ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٢٨ .

اما الصالح أيوب فبعد استقراره بالقاهرة ،عمد الى توطيد نفوذه فيها ،وتخلص نهائيا من المماليك الاشرفية . بعد أن لمس عدم اخلاصهم له وميلهم الى عمه الصالح اسماعيل ،وشرع في شراء المماليك الترك ،وبنى لهم قلعة الروضة ، فسموا لذلك بالبحرية ،وازداد بهم قوة وتمكن نفوذه في مصر (١) .

وكان الصالح اسماعيل يدرك تمام الادراك أن ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب لن يغفر له الطعنة التي وجهها اليه في الظهر حينما أوهمه ،أنه يتجهز للمسير اليه لمساعدته في الوقت الذى كان يعمل فيه ضده ،وانقض على دمشق واستولى عليها ،وكاد يقضي عليه نهائيا . لذلك قرر الصالح اسماعيل المبادرة بالهجوم على مصر قبل ان يتمكن نجم الدين ايوب من توطيد نفوذه فيها ، وأخذ الصالح اسماعيل يلتمس الحلفاء ، فلم يجد غضاضة في الاستعانة بالصليبيين ،فاعطاهم قلعة صفد (٢) وبلادها وقلعة الشقيف (٣) وبلادها ومناصفة صيدا وطبريه وأعمالها ، وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل ،مقابل مشاركتهم له في هجومه على مصر ، وبادر بالزحف قاصدا مصر في سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م وأرسل في الوقت نفسه يستعين بحمص وحلب ،فلما وصلته نجداتهم ،تقدم الى نهر العوجاء في فلسطين ،فعلم أن الناصر داود يعسكر بالبلقاء ،ولما كان الصالح

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٦٢- ٥٦٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٧٤ - ٢٧٧ .

(٢) صفد : او صفت بلدة متوسطة لها قلعة حصينة تشرف على بحيرة طبرية في فلسطين ، انظر ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٤٢- ٢٤٣ .

(٣) الشقيف : قلعة حصينة جدا في كهف من الجبل قرب بانياس من ارض دمشق بينها وبين الساحل ،انظر ياقوت معجم البلدان .

اسماعيل يدرك تطلع الناصر الدائم نحو دمشق ،فقد خشي ان يعقبه ويستولي عليها ،لذلك قرر اسماعيل المبادرة بالهجوم على قواته ،ونجح في انزال الهزيمة به ،وانسحب الناصر الى الكرك . وعاد الصالح اسماعيل الى العوجاء وبعث الى الصليبيين يطلب منهم النجدات على ان يعطيهم جميع ما استرده صلاح الدين يوسف منهم ،وحينما بلغ الصالح ايوب حشود عمه والصليبيين ،أرسل العساكر المصرية الى لقائهم ،وحينما التقى الفريقان سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤١م اظهرت عساكر الشام اصالة معدنها وتمسكها بعقيدتها وشرفها فانحازت طائعة الى عساكر مصر ومالوا جميعا على الصليبيين وسحقوهم وأسروا منهم اعدادا كبيرة ،وبهؤلاء الأسرى بنى الصالح ايوب قلعة الروضة والمدارس الصالحية بالقاهرة (١) .

وفي سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م دخل الناصر داود في تحالف الصالح اسماعيل وحمص وحلب ضد الصالح أيوب ، ورد الاخير بارسال قوة عسكرية بقيادة كمال الدين بن شيخ الشيوخ لقتال الناصر داود ، الذى استعد لمواجهة ابن الشيخ والتقى به قرب جبل القدس وانزل به الهزيمة وأسره فوبخه واطلقه مع اصحابه ،فعادوا الى القاهرة (٢) . وفي السنة التالية ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م عاود الصالح ايوب محاولة غزو بلاد الشام ،فاراد الخروج

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٨٥أ ؛ النويرى : نهاية الأرب جـ٢٧ ورقة ٧٢ أ ب ؛ العليمي : تاريخ من ملك مصروكا والشام ورقة ١١٥أ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكتون ورقة ١٢٩أ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٠٣- ٣٠٥ ؛الذهبي : دول الاسلام جـ١ ص١٤٣- ١٤٤ ؛ الصفدى : الوافي بالوفيات جـ٩ ص ٢١٥ ؛ العليمي : الانس الجليل جـ٢ ص ٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٠٠-٣٠١ ؛سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٣٦- ٧٣٧ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٤٧ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٠٩ ؛ الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٤٤ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٥٧ .

بنفسه الا انه تراجع عن الخروج على رأس جيشه وعهد مرة أخرى الى كمال الدين بن الشيخ بقيادة حملته على الشام ولكن الحملة فشلت بسبب وفاة كمال الدين بن الشيخ عند وصوله الى غزة (١) .

أدرك الصالح ايوب انه ليس من السهل غزو بلاد الشام بعد تلك الاخفاقات التي تعرض لها ،وبخاصة وأن ملوك الشام جميعا تحالفوا ضده ، ولم يعد معه سوى المظفر صاحب حماه الذى أصيب بالفالج واشتد به المرض (٢) . ويبدو أن الصالح ايوب لم يكن يريد لعلاقته مع عمه الصالح اسماعيل أن تصل الى طريق مسدود ، لأن ابنه المفيث عمر ما زال معتقلا لديه بقلعة دمشق ، ومن الطبيعي ان يخشى على حياته ، لذلك قرر العمل على اطلاق سراحه عن طريق المفاوضات. ففي سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م ترددت الرسل بينه وبين عمه اسماعيل ، واستقر الرأى بينهم على ان تكون ملكة دمشق للصالح اسماعيل ، وأن تقام الخطبة و السكة في بلاد الشام للصالح أيوب ،وأن يطلق اسماعيل سراح المفيث عمر وحسام الدين بن ابي علي الهذباني من الاعتقال ،وجرى الاتفاق أيضا على انتزاع بلاد الناصر داود من يده بحيث يكون بعضها للصالح ايوب والجزء الاخر لعمه اسماعيل (٣) .

---

(١) الذهبي : دول الاسلام ج٢ ص ١٤٥ ; ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٦١ ;ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٤٥ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ج٥ ص ٣٢٣ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٩١ ب ;الذهبي : تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٢ أ ب ;ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٢٧-٣٢٨ ;سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٤١ ; ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٥٢ ;ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٧٢ ; المقريزى : السلوك ج١ ص ٣١٤ ;ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٦٢ ;ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٤٦-٣٤٧ ;العليمي : الانس الجليل ج٢ ص٦ .

وشرع الصالح اسماعيل في تنفيذ الاتفاق فارسل المنصور صاحب حمص على رأس عسكر دمشق للاستيلاء على عجلون ،وهي من املاك الناصر داود ،غير أنه اخفق في الاستيلاء عليها وتكبد امامها خسائر فادحة وأقيمت الخطبة بدمشق وحمص للصالح ايوب ، وأطلق الصالح اسماعيل سراح حسام الدين بن ابي علي الهذباني وبعض اصحابه ،كما اطلق المغيث عمر بن الصالح ايوب ولكنه استبقاه الى جانبه ريثما يتم توقيع الصلح رسميا وأخذ اليمين من والده نجم الدين ايوب (١) .

واثناء تردد الرسل بين الجانبين ،وقع بيد الصالح اسماعيل رسالة سرية ارسلها ابن أخيه الصالح ايوب الى الخوارزمية يطلب منهم التحرك ضد اعدائه في بلاد الشام ،واخبرهم انه باق على عداوته للصالح اسماعيل ،وان هدفه من المفاوضات إطلاق سراح ابنه المغيث عمر، وبعدها سوف يقصد دمشق ويستولى عليها (٢) . وبادر الصالح اسماعيل بقطع المفاوضات ،وأعاد المغيث الى الاعتقال ،والغى الخطبة للصالح ايوب وسحب قواته من امام عجلون ،وراسل الناصر داود ، وصالحه واتفق معه على قتال الصالح ايوب ،وانضم اليهما صاحب حمص وحلب ،وصارت كلمة ملوك بلاد الشام موحدة ضد الصالح ايوب (٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٢٨- ٣٣٠ ؛ الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٤٧ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣١٤؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٢١ .

(٢) الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ١٢ ب ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٣٠-٣٣١ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٣١- ٣٣٢ .

وحينما ادرك ملوك الشام ان الخوارزمية لا بد وأن يهاجموا بلاد الشام ،وأنهم لا يستطيعون مواجهتهم اذا انضموا للصالح ايوب ، اتفقوا سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م على مراسلة الصليبيين والتحالف معهم ضد الصالح ايوب وانصاره من الخوارزمية ،وسلم الصالح اسماعيل وحلفائه للصليبيين بيت المقدس وطبرية وعسقلان ،وكوكب ،وضمنوا لهم نصيبا من مصر اذا ملكوها . وكان لا بد ان يغرى هذا التفريط في حقوق المسلمين ،الصليبيين فحشدوا قواتهم لمناصرة اسماعيل و بقية ملوك الشام ،وأرسل الصالح اسماعيل جزءا من عسكره الى غزة فعسكروا بها ، وبعث بالمنصور بن المجاهد الى عكا واتفق مع الصليبيين على المضي الى مصر لقتال الصالح أيوب (١) .

و بعث الصالح ايوب الى انصاره الخوارزمية الذين كانوا يقيمون شرق الفرات طالبا منهم القدوم الى الشام لنصرته على عمه الصالح اسماعيل وحلفائه ،فاستجاب الخوارزمية لطلبه و عبروا الفرات في اوائل سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م و نهبوا كل البلاد التي مروا بها ،وهاجموا القدس ، واستعادوه من الصليبيين ثم ساروا الى غزة ونزلوا بها ،وبعثوا الى الصالح ايوب يخبرونه بقدومهم ،ويطلبون منه ارسال عساكر مصر للانضمام اليهم ومقاتلة اعدائه جميعا ،فخلع الصالح ايوب على رسلهم و بعث الخلع والتحف لزعمائهم و بعث العساكر اليهم (٢) .

----

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٩٢ أ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ١٣ أ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٣٢-٣٣٣ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣١٥ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧٢ ؛ رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٣٩٠ ؛
Campball, G.R. The Crusades p.415.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٣٦-٣٣٧ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٥٣ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣١٦-٣١٧ .

وخرجت عساكر الشام من دمشق بقيادة المنصور صاحب حمص و بعث الناصر داود بقواته واجتمع الجميع بيافا ومعهم الصليبيون بكل قواتهم ، وساروا الى غزة . وفي جمادى الاولى سنة ٦٤٢هـ/ اكتوبر ١٢٤٤م التقت الخوارزمية وعساكر مصر مع المنصور صاحب حمص قائد جيوش ملوك الشام وحلفائهم الصليبيين ،ودارت معركة رهيبة انتصر فيها الخوارزمية وعساكر مصر انتصارا ساحقا وسحقت قوات الصليبيين ومن معهم من عساكر دمشق وحمص وغيرها و نهب الخوارزمية اثقالهم واسلحتهم.(١)

---

(١) الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ١٣ب - ١٤أ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٣١ ب ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٢٦ - ٣٣٩ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٤٥ - ٧٤٧ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٥٣ - ٣٥٤ ؛ ابوالفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧٢ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٤١٤ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣١٦ - ٣١٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٤ - ١٦٥ ؛ الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٤٨ .

وانظر تفصيل معركة غزة في الفصل الثالث ص: ٣١١ - ٣١٧ .

الصالح أيوب واعادة توحيد الدولة الأيوبية

٦٤٣-٦٤٧هـ/ ١٢٤٥-١٢٤٩م

كان من الطبيعي ان يتطلع الصالح أيوب بعد انتصار قواته في معركة غزة الى استثمار ذلك النصر والانتقام من عمه الصالح اسماعيل جزاء خيانته واعتضاده بالصليبيين ،وذلك بالاستيلاء على دمشق واعادة توحيد الدولة ،فارسل نوابه واستولوا على غزة والسواحل والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار ،وكانت هذه البلاد جميعها في حوزة الناصر داود ،ولم يبق بيده سوى الكرك والبلقاء والصلت وعجلون (١) . وبلغ الصالح أيوب نبأ موت ابنه المغيث في سجنه بقلعة دمشق سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م فاشتد غضبه وحقده على عمه اسماعيل واتهمه بقتله وصمم على حربه (٢) .

وجهز الصالح أيوب قواته وأسند قيادتها الى وزيره معين الدين ابن شيخ الشيوخ ،وأمره بالمسير الى الشام ومنحه سلطة مطلقة على قواته وأمواله ،فرحل معين الدين نحو بلاد الشام ،وكتب الصالح ايوب الى الخوارزمية لينضموا الى قواته الزاحفة على دمشق ،فانضموا اليها عند غزة ،وسار معين الدين الى دمشق التي تحصن بها الصالح اسماعيل والمنصور صاحب حمص ،وحاصرت قوات الصالح ايوب دمشق في اواخر سنة ٦٤٢هـ/اواخل سنة ١٢٤٥م (٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٤٠ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣١٨ .

(٢) العليمي : المعتبر في انباء من غبر ورقة ٧٦ ب ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤٦ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٥٤ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ص١٧٢ ؛ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٥ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣١٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٤١ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٥٤ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣١٩ .

وظل حصار دمشق مستمرا " وعاشت الخوارزمية في اعمال دمشق"[١] وقطعوا الطرق المؤدية اليها[٢] . وفي تاسع المحرم ٦٤٣هـ/ ٦يونيــة ١٢٤٥م أمر معين الدين بن الشيخ الجنود بالزحف على دمشق . فتقدموا الى اسوارها من جميع الجهات ،وضربوها بالمنجنيقات ورموا بالنيــران في احياء قصر حجاج والشاغور وغيرها داخل دمشق ،فرد الصالح اسماعيل باحراق الاحياء الواقعة خارج الأسوار مثل زقاق الرمان والعقيبة ،وقُطعت قنوات المياه الداخلة الى دمشق ،فاشتدت الضائقة الاقتصادية على أهــل دمشق وارتفعت الأسعار ،كما انعدم الأمن داخلها وانتشرت بهاأعمال النهب والسلب وهتك الأعراض ،وجرى بها اعمال في غاية البشاعة والسوء[٣].

ودام حصار دمشق بضعة أشهر[٤] ،حتى شعر المحصورون داخل دمشق بعجزهم عن مواجهة عساكر مصر والخوارزمية لكثرتها ،وقلة عــدد العساكر المدافعة عن المدينة ،ونفاد ما بقلعة دمشق من المؤن والذخائر فضلا عن تخلى الحلبيين عن مساعدتهم[٥] . وقرروا طلب الصلح ،وفــي

----

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣١٩ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٥٢ .

(٣) الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٦٢ أ ب ،ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٥ ،المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٢٠ ، وقد أورد سبط ابن الجوزى مثلا على الفظائع التي جرت ،فذكر ان رجلا كان يقطن في أحد الاحياء التي اضرمت فيها النيران وكان له عشـر بنات ابكار فقال لهن " اخرجن فقلن لا والله ،الحريق ولا الفضيحة فاحترقت الدار واحترقن ولم يخرجن " انظر مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٥٢ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٦ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٤٨ .

ربيع الاخر خرج المنصور صاحب حمص من دمشق واجتمع ببركة خان زعيم الخوارزمية ،واستبشر الناس خيرا بهذا الاجتماع وعاد المنصور الى دمشق (١) . ويبدو أنه اقنع الصالح اسماعيل بعدم جدوى المقاومة . وعهد اسماعيل الى وزيره امين الدولة السامرى بترتيب الصلح مع ابن الشيخ ، فخرج الوزير من دمشق وقابل معين الدين بن الشيخ وتحادث معه ،وتقرر تسليم دمشق ،وان يخرج منها الصالح اسماعيل وصاحب حمص مع اتباعهم دون التعرض لاموالهم ،وأن يعوض الصالح اسماعيل ببعلبك وبصرى واعمالها وجميع بلاد السواد الواقعة نواحي البلقاء ، وان يكون للمنصور حمص وتدمر والرحبة ،وأعطى معين الدين بن الشيخ يمينه على ذلك ،وسار المنصور إلى بلاده ،وغادر اسماعيل دمشق الى بعلبك ،ودخل ابن الشيخ بقوات الصالح ايوب الى دمشق في جمادى الاولى ٦٤٣هـ/اكتوبر ١٢٤٥م (٢).

وبعد فترة وجيزة من الاستيلاء على دمشق ،وصل اليها امر الصالح ايوب بعدم اعطاء الأمان لعمه اسماعيل ، وأمر بالقبض عليه وارساله الى مصر ،ولكن بعد فوات الأوان ، وقد انكر الصالح أيوب على قائده معين الدين بن الشيخ اطلاق سراح عمه الصالح اسماعيل "فانه كان لا يرى الا اعدامه حنقا عليه بسبب اتهامه بقتل ولده ولما بدا منه في حقه" (٣).

---

(١) سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٥٣ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٩٧ أب ، الذهبي :تاريخ الاسلام جـ ٥ ورقة ١٤ أ ،النويرى : نهاية الأرب : جـ٢٧ ورقة ٨١ أب ، الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٣١ ب ؛ الذيبسياوى : الزهر الزاهر ،ورقة ١٢٠ أب ؛تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣٥٥ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٥٣ ؛ المقريزى : السلوك جـ٢ ص ٣٢٠ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٢٠١ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٦ ؛ الصفدى : الوافي بالوفيات جـ٩ ص ٢١٥-٢١٦ .

(٣) ابن واصل ،مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤٩ .

اما معين الدين فانه قام بعد دخوله دمشق بتنظيم شئونها فاسند الوظائف المهمة الى رجال يثق بهم[١]. ولكن ابن الشيخ لم يلبث ان توفي في رمضان ٦٤٣هـ/ فبراير ١٢٤٦م فجعل الصالح ايوب نيابة دمشق الى قائده حسام الدين بن ابي على الهذباني ،كما أسند ولاية قلعة دمشق الى الطواشي شهاب الدين الكبير ،وتعاون الرجلان في ادارة شئون دمشق حيث " يجتمعان كل يوم ويتفقان على مصالح الدولة "[٢].

وسرعان ما تعرض نفوذ الصالح ايوب في بلاد الشام للخطر من قبل حلفائه بالأمس ،وهم طائفة الخوارزمية ،اذ كانوا يتوقعون الحصول على ثمن كبير من الصالح أيوب جزاء خدماتهم له ،وأن يقطعهم الاقطاعات الواسعة بمصر ،ويقاسمهم بلاد الشام وهو ما لم يحدث كما أن ابن الشيخ حين استولى على دمشق لم يعطهم من الاقطاعات ما يرضيهم[٣]. بل انه - كما يذكر المقريزى - منعهم من دخول دمشق ،خوفا من تعرضهم للسكان بالنهب. وأقطعهم ساحل الشام " بمناشير كتبها لهم "[٤]. ويبدو أن اقطاعهم الساحل لم يكن يشكل أى اغراء لهم ،وذلك بسبب خضوع اهم مدن ساحل الشام للصليبيين ،وهذا سيدخلهم في نزاع معهم. ولذلك قرر الخوارزمية الانفصال عن الصالح أيوب والعمل ضده ،فنهبوا داريا - وهي احدى قرى غوطة دمشق - وانسحبوا شرقا[٥].

---

(١) سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٥٣ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٦.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٤٩-٣٥٠ ؛وانظر ايضا المقريزى: السلوك جـ١ ص ٣٢١-٣٢٢.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٤٩-٣٥٠.

(٤) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٢١.

(٥) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٥٣ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٦.

وأخذ الخوارزمية يبحثون عن الحلفاء للعمل ضد الصالح أيوب ، وكان يلي غزة من قبله مملوكه ركن الدين بيبرس الصالحي ، فراسلوه وعرضوا عليه ان يميل الى جانبهم،ويكونوا يدا واحده وأن يزوجوه امرأة منهم ،ويبدو انه تعاطف معهم ،غير ان سيده الصالح ايوب استدرجه واستدعاه الى القاهرة " فاعتقله بقلعة الجبل وكان آخر العهد به "(١) . كما راسل الخوارزمية ايضا الناصر داود صاحب الكرك ، فوجد في محالفتهم فرصة لاستعادة ما فقده من بلاده لحساب الصالح ايوب ،فاجتمع بهم وتزوج منهم وتمكن بمساعدتهم من استعادة نابلس والقدس و بيت جبريل والأغوار(٢) . ولم يكتف الخوارزمية بذلك بل بعثوا الى الصالح اسماعيل العدو اللدود للسلطان نجم الدين ايوب واستمالوه الى جانبهم " وحلفوا له فقدم عليهم ، وصاروا معه ، واتفقت كلمة الجميع على محاربة السلطان الملك الصالح نجم الدين "(٣) كما يقول ابن واصل .

وجه الجميع هجومهم ضد دمشق عاصمة بلاد الشام و فرضوا عليها الحصار الشديد في ذى القعدة ٦٤٣هـ/ ابريل ١٢٤٦م ويظهر أن المؤن والأقوات كانت قليلة قبل الحصار ،و نفدت اثناء الحصار ، وعانت دمشق من غلاء شديد لم تشهد له مثيلاً طوال عصر الحروب الصليبية ،بحيث بلغ سعر غرارة القمح الف وستمائة درهم ،وسعر قنطار الدقيق ستمائة درهم ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٥٠ - ٣٥١ ؛ وانظر ايضا : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٢٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٥٠ ؛ابن شداد :الأعلاق الخطيرة : قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٢٤٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٢٥ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٥١ .

وعدمت الأقوات وانتشرت المجاعة داخل دمشق حتى اكل الناس الميتات والدم والقطط والكلاب ،ومات الكثير من الناس على الطرق ،وانتشرت الروائح الكريهة داخل دمشق بسبب تعفن جثث البشر وضجر من بقي من السكان على قيد الحياة من غسل وتكفين الموتى ودفنهم ،فأخذوا يحفرون الابار ويرمون الجثث فيها (١) . ومع ذلك فقد ظلت دمشق صامدة بسبب صلابة واليها حسام الدين بن ابي علي الهذباني رغم قلة العساكر التي كانت تحت قيادته (٢) .

على أن الصالح ايوب تمكن خلال حصار الخوارزمية لدمشق من استمالة المنصور ابراهيم صاحب حمص الى جانبه ، واوعز اليه بقتالهم . فشرع المنصور في حشد الجيوش من العرب والتركمان والحلبيين وغيرهم فلما علم الخوارزمية بحشوده عند حمص ،فكوا حصار دمشق وساروا الى حمص لقتاله ومعهم الصالح اسماعيل ،وعسكر الناصر داود ، وخرجت حامية دمشق في إثرهم وانضمت الى المنصور ،والتقى الجمعان في أول سنة ٦٤٤هـ/مايو ١٢٤٦م عند بحيرة حمص حيث دارت معركة حاسمة ، انتصرت فيها قوات الصالح ايوب وحلفائه على الخوارزمية وحلفائهم ، وقتل الكثير منهم كما قُتل زعيمهم بركة خان ،وتفرقوا أيدى سبأ ، فمنهم

---

(١) الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٦٢ أ ب ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ١٤ ب - ١٥ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٥٣ - ٧٥٤ ؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١٧٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٦- ١٦٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٢٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٥٢ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٢٥ .

من ذهب الى المغول وانضموا اليهم ،وطائفة ذهبوا الى مصر ،وفلول أخرى تفرقوا في بلاد الشام لخدمة ملوكها (١) وقدترتب على هزيمة الخوارزمية أن توطدت العلاقات بين الصالح ايوب وبين المنصور ابراهيم بن المجاهد صاحب حمص ، كما تحسنت علاقات الصالح ايوب مع أهل حلب "واتفقت كلمة الجميع" (٢).

ولجأ الصالح اسماعيل - بعد هزيمته مع حلفائه الخوارزمية عند حمص - الى حلب واستجار بملكها الناصر يوسف بن العزيز ، وبعث الصالح ايوب الى الناصر يوسف يطلب تسليم عمه اسماعيل فاعتذر ملك حلب عن تسليمه وجاء في اعتذاره لمبعوث السلطان قوله : " وليس من المروءة اذا استجار انسان بانسان أن يخفر ذمته و يسلمه الى عدوه " فقبل الصالح ايوب عذر الناصر يوسف على مضض وسكت عن طلبه (٣).

ولكن الصالح أيوب قرر تجريد عمه اسماعيل من امارته في بلاد الشام فاوعز الى واليه على دمشق حسام الدين بن ابي علي الهذباني بذلك ، فسار الاخير بعسكر دمشق وحاصر بعلبك ، فسلم المنصور محمود ابن اسماعيل بعلبك وبلادها لحسام الدين الذى ولىّ عليها ورتب امورها ، وقبض على المنصور وأخوته وانصارهم وصادر اموالهم وبعث بالجميع الى القاهرة حيث جرى اعتقالهم بقلعتها (٤).

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٥٤ ، ٣٥٨ - ٣٥٩ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٦٠ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٧ ؛ابو الفداء: المختصر جـ٣ ص ١٧٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٢٥- ٣٢٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٥٩-٣٦٠ .

(٣) المصدر السابق جـ٥ ص ٣٦٠ ؛وانظر ايضا : اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ١٨٣- ١٨٥ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٦١-٣٦٢ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٢٤ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٥٩ ؛ابو الفداء : المختصر جـ٣ ص ١٧٥ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٧ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٢٦ .

وبعد أن فرغ الصالح أيوب من عمه اسماعيل التفت الى ابن عمه الناصر داود فارسل فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ على رأس حملة كبيرة الى الشام لقتال الناصر داود الذى استخدم بعض فلول الخوارزمية ، ووصل الجيش المصرى الى غزة وأوقع بالناصر داود وفلول الخوارزمية في ربيع الاخر ٦٤٤هـ / سبتمبر ١٢٤٦م وارتد الناصر الى الكرك واستولى ابن الشيخ على ما كان بيده من البلاد ،وهي القدس ونابلس وبيت جبريل والصلت والبلقاء ، وولي فيها من قبله ثم توجه الى الكرك ،ودمر ضياعها ، وحاصرها حصارا شديدا ، حتى قل ما بيد الناصر داود من الاموال والذخائر ، فارسل يطلب الأمان ، فاشترط عليه ابن الشيخ اخراج الخوارزمية الذين استخدمهم ،فبعث بهم اليه ،فجندهم ابن الشيخ في جيشه ،وترك الكرك على حالها (١) . ثم سار الى بصرى وهي اخر املاك الصالح اسماعيل في بلاد الشام فحاصرها واستولى عليها (٢) .

أما الصالح ايوب فبعد تقليم اظافر خصومه في بلاد الشام ، قرر المسير اليها لتفقد احوالها بنفسه ،فوصل الى دمشق في ذى القعدة ٦٤٤هـ/ مارس ١٢٤٧م وزينت المدينة لقدومه وانفق أربعين الف درهم على المدارس والأربطة ،والمصالح العامة ،كما تصدق على الفقراء ،وأحسن الى أهل دمشق وخلع على اعيانها ،ثم ذهب الى بعلبك ورتب امورها وعاد الى دمشق (٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٦٣ - ٣٦٥ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧٥ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٢٤-٣٢٥ ؛النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٢٦ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٢٥ .

(٣) الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٧٠ ب ؛ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٦٣ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٩ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٦٠ - ٣٦١ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٨ .

وخلال اقامته في بلاد الشام أخضع بعض الحصون الهامة فتسلم حصن عجلون بعد وفاة صاحبه سيف الدين بن قلج (١). وارسل بعض اعوانه الى عز الدين ايبك صاحب صرخد يطلب تسليمه اليه ،ولم يسع عز الدين الا الموافقة فتنحى عن صرخد للصالح ايوب (٢). واخيرا تسلم حصن الصبيبة (٣) من ابن عمه السعيد بن العزيز بن العادل وعوضه عنه اقطاعا بمصر (٤). ووصل اليه بدمشق الاشرف موسى بن المنصور ،صاحب حمص ،والمنصور صاحب حماه فاكرمهما وقربهما (٥).

وغادر الصالح ايوب دمشق في اوائل سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٨م عائدا الى مصر ومر اثناء رجوعه ببيت المقدس وأمر بعمارة اسواره ،وأوصى بصرف كل خراج ولاية القدس على عمارته واذا أعوزه شيء حُمل اليه من مصر ، وتصدق فيه بالفي دينار وغادره عائدا الى القاهرة (٦).

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٦٣ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧٥ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٢٦.

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٦٣ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٦٣ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٩ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٧١ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٢٦.

(٣) الصبيبة : اسم لقلعة بانياس وهي من الحصول المنيعة ،وبانياس بلدة صغيرة تشتهر باشجار الحمضيات وهي على مسافة مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب . انظر ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ، Lestrange, Palestine under the Moslems p.419.

(٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٦٦ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٩ ؛الذهبي : العبر جـ٥ ص ١٨٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٥٦.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٧٣ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧٦.

(٦) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٦٣-٧٦٤ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٦١ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٧١ ؛ الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٥٠ ؛الذهبي : العبر جـ٥ ص ١٨٢.

وبعد وصوله الى القاهرة ارسل مبعوثا الى دمشق ومعه قائمة باسماء بعض زعماء واعيان دمشق ،ثبت له ولاءهم لعمه اسماعيل فخشي أن يقوموا بالتآمر لتسليمها اليه مثلما حدث في المرة السابقة ،فاعتقلهم واليه على دمشق وارسلهم اليه ،وفرض عليهم الاقامة الجبرية في مصر ، ولم يعودوا الى الشام الا بعد وفاته (١) .

واضطر السلطان الصالح ايوب للعودة مرة اخرى الى بلاد الشام بسبب تطور الحوادث بين حمص وحلب ،ففي سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٨م ،جرت مراسلات بين الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص و بين الصالح ايوب وتنازل الاشرف للصالح ايوب عن قلعة شميميش ،وحينما بلغ ذلك اهل حلب ،خشوا أن يطمع ذلك نجم الدين في حلب ،فقرروا مهاجمة حمص والاستيلاء عليها ،فامر الصالح ايوب فخر الدين يوسف بن الشيخ بالمسير الى الشام على رأس فرقة من فرسانه ريثما يلحقه هو ببقية الجيش الى دمشق (٢) .

وبينما كانت عساكر الصالح ايوب تزحف على الشام تمكن الحلبيون من الاستيلاء على حمص من الأشرف موسى ،ووصل الصالح أيوب الى دمشق في سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م رغم شدة مرضه ،فاقام بدمشق وبعث بالامير فخر الدين بن الشيخ لاسترداد حمص فنصب عليها المنجنيقات ، وضمنها منجنيق ضخم زنة حجره مئة واربعون رطلا ، وكادت حمص تسقط في يد جيش الصالح أيوب ،غير أنه بلغه من الانباء ما يفيد باحتشاد الصليبيين

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٠٥ ؛ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ جـ١٥ ورقة ١٠ ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٦٦-٧٦٨ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٧٣ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٥٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٧٧-٣٧٨ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٣٠ .

في قبرص ووصول طلائع الحملة الصليبية السابعة الى دمياط ، فاضطر السلطان الصالح ايوب للاستجابة لوساطة مبعوث الخليفة وترك حمص بايـــدى الحلبيين وامر جيشه بالعودة الى مصر للدفاع عنها ،وعاد هو محمولا فـي محفة بسبب ازدياد مرضه (١) .

أما الكرك ،فيبدو ان صاحبها الناصر داود ، توقع أن يشـن الصالح ايوب عليه هجوما كبيرا وينتزعها منه بعد فراغه من حمص ، فبعث اليه بدمشق يعرض التنازل عن الكرك ،على أن يعوضه بقلعة الشوبك واقطاعا بمصر ، فوافق الصالح أيوب على هذا العرض وأوفد احد اعوانه لاستلام الكرك غير ان الناصر داود ما لبث -حينما بلغه عودة الصالح ايوب الى مصر اضافة الى سماعه بقدوم الحملة الصليبية السابعة - أن تراجع عن عرضه ورفض التنازل عن قلعته المنيعة (٢) .

ولكن تراجُع الناصر داود لم يُطِل في عمر مملكته الصغيرة ،ففي سنـة ٦٤٧هـ /١٢٤٩م ذهب الى حلب ليعقد فيما يبدو تحالفا جديدا ضد

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٠٥ أ ب ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ١٦ ب ؛ ابن شاكر : عيون التواريخ جـ١٥ لوحة ١٠ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٧٠ ؛ ابـن خلكان : وفيات الاعيان جـ٦ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ؛ابو الفدا ؛المختصر جـ٣ ص ١٧٧ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٣٠-٣٣٢ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٧٤ ؛الذهبي : العبر جـ٥ ص ١٨٨ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، القسم الاول ص ٨٩ .

(٢) ابن واصل : تاريخ الواصلين ورقة ٣٥٥ أ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٣٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٢٩ .

الصالح أيوب مع مملكة حلب ،ولا سيما بعد تدهور علاقاتها مع الصالح ايوب بسبب حمص -وكان قبيل مغادرته الكرك - قد اناب ابنه الأصغر المعظم شرف الدين عيسى على القلعة ،وترك ابنيه الاخرين ، الظاهر شادى ، والأمجد حسن ، وهما أكبر سنا ،فاشتد غضبهما وقبضا على اخيهما المعظم ،واتفقا على تسليم الكرك للسلطان الصالح ايوب ،فسافر الأمجد حسن اليه بالمنصوره وعرض عليه استلام الكرك ،فاكرمه السلطان واعطاه مبلغا كبيرا من المال . وارسل معه خادمه بدر الدين الصوابي نائبا على الكرك والشوبك ،وغادر ابنا الناصر داود الى القاهرة فاقطعهما الصالح أيوب اقطاعات كبيرة بمصر ،وقد سر الصالح أيوب سرورا عظيما بالاستيلاء على الكرك واستكمال وحدة مصر والشام ،وجعل الكرك مخزنا لأمواله واسلحته وذخائره (١).

----

(١) الصفدى : تحفة ذوى الألباب ورقة ١٥٨ أ ؛الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ١٩ أ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ جـ١٥ لوحة ١٦ - ١٧ ؛ العليمي : تاريخ من ملك مصر وعكا والشام والسواحل ورقة ١١٥ ب ؛ العليمي :المعتبر في انباء من غبر ورقة ٧٦ ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٧٣ ؛ ابوالفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧٩ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٢٧ - ٣٢٨ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٦٢ .

بلاد الشام في مفترق الطـــرق

انهيار الأيوبيين وقيام دولة المماليك ٦٤٧ - ٦٥٧هـ / ١٢٤٩- ١٢٥٩م

عاد السلطان الصالح أيوب من بلاد الشام مريضا محمولا في محفــة لشدة مرضه ،ومع ذلك فقد قام بتنظيم شئون الدفاع عن مصر ازاء حملـــة لويس التاسع ،غير أن القدر لم يمهله فتوفي بالمنصورة في ١٥ شعبــان ٦٤٧هـ/نوفمبر ١٢٤٩م بعد ان عهد لابنه المعظم تورانشاه بولايـــة العهد اثناء مرضه (١) . ونظرا لأن تورانشاه لم يكن موجودا بمصر ،فقد استقر رأى شجر الدر - أرملة الصالح أيوب - و فخر الدين بن الشيخ (قائد الجيش) على كتمان خبر وفاة السلطان ريثما يتم استدعاء السلطان الجديد من حصن كيفا ودياربكر بالجزيرة وشرعت شجر الدر في تقليد توقيـــع السلطان على الأوامر والمراسيم مثلما كان يفعله قبل موته ،لتوهم عسكـــره بأنه ما زال حيا ،حتى لا يفت خبر موته في عضد المسلمين في وقت يواجهون فيه عدوا عنيدا هو الملك لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبيـــة السابعة (٢) .

---

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ٤٥ أ ب ؛ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ جـ٥ لوحة ١٧ ؛سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٧٥ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٨٣ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٣٩ ؛العيني: السيف المهند ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٢) ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ٤٥ ب ؛ ابن شاكر : عيـون التواريخ جـ٥ لوحة ١٧-١٨ ،ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٧٠- ٣٧٣ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٦٤ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٨٣ ،ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧٩- ١٨٠ ؛ الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٥٢- ١٥٣ ؛ ابن العبرى تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٨- ٢٥٩ .

وكان الصالح أيوب قد جعل ابنه تورانشاه نائبا عنه بحصن كيفا على البلاد التابعة له شرق الفرات ، وبعد موت الصالح ايوب بعث فخر الدين بن الشيخ بالفارس اقطاى زعيم المماليك البحرية الى الشرق لاحضار تورانشاه ،وأمر ابن الشيخ في الوقت نفسه باقامة الخطبة على منابر مصر لتورانشاه ونقش اسمه على السكة بعد ابيه (١) .

غادر تورانشاه حصنه ومعه خمسون فارسا ،وسار متخفيا خوفا من اعداء والده ،وعلى رأسهم اهل حلب ،الذين ما أن علموا بمسيره حتى جهزوا كتيبة للقبض عليه ،ولكنه سلك طريق الصحراء ،حتى كاد يموت مع اصحابه عطشا ،وتمكن بعد مشقة بالغة من الوصول الى دمشق في اواخر رمضان ٦٤٧هـ/ ديسمبر ١٢٤٩م (٢) . وقد استقبله نائب والده بدمشق الامير جمال الدين بن يغمور ،واخذ له العهد من امراء دمشق وقادتها و أعلنه سلطانا على مصر والشام ، فقام تورانشاه بصرف اموال قلعة دمشق على قادة وعساكر دمشق كما امر باحضار اموال اخرى من الكرك وانفقها في دمشق ،وبعد أن اقام في بلاد الشام بضعة عشر يوما أقرّ ابن يغمور على نيابة دمشق ثم غادرها الى مصر (٣) .

وصل تورانشاه الى مصر في ذى القعدة ٦٤٧هـ/يناير ١٢٥٠م ، وتسلم مقاليد الحكم من ارملة والده شجر الدر ،وبعد وصوله تمكن المسلمون

----

(١) المقريزى : المقفى ورقة ٢٨٩أ .

(٢) المقريزى : المقفى ورقة ٢٨٩ أ ،السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص١٣٤- ١٣٥ .

(٣) ابن واصل : تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٤٧هـ ،المقريزى : المقفى ورقة ٢٨٩ أ ب ،سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٧٥ ،المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٥١ - ٣٥٢ ، السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ١٣٥ .

من انزال الهزيمة بالحملة الصليبية السابعة ،ووقع لويس التاسع في الأسر مع كثير من فرسان الحملة (١) . غير ان تورانشاه لم يستغل هذا النصر في توطيد نفوذه تدريجيا على مصر ، فقد كان عابثا ومفتقرا الى الحنكة السياسية وعدم المعرفة بطبيعة الدولة الايوبية في مصر ، تلك الدولة التي وطد الصالح ايوب نفوذه عليها بواسطة مماليكه الذين اطلق عليهم اسم البحرية . وكان من المهم أن يقوم تورانشاه بمداراة تلك الطائفة الجديدة ريثما يقوم بتوطيد نفوذه . الا انه لم يفعل فاماط اللثام عن تهوره ،معلنا عزمه على القضاء على المماليك البحرية ، كما أساء الى أرملة والده شجر الدر ، وهي التي لعبت دورا حاسما في وصوله الى سدة الحكم ،فضلا عن مكانتها لدى طائفة البحرية ،فاوعزت اليهم بالتخلص منه ، وفعلا قتلوه في محرم ٦٤٨هـ/ مايو ١٢٥٠م (٢) .

وبمقتل تورانشاه انتهت الدولة الايوبية من مصر ،واسند المماليك منصب السلطنة الى شجر الدر ،ارملة الصالح ايوب التي اشتهرت بحسن سيرتها وقوة شخصيتها (٣) . غير ان قيام امرأة في حكم المسلمين قد

---

(١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٤٧ - ٥٠ ؛ المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٥١ - ٣٥٦ ؛ سعيد عاشور : مصر والشام ص ١١٣ - ١١٤ ؛علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ٣٧ .

(٢) بيبرس : التحفة الملوكية في الدولة التركية ورقة ١ أ ب - ٢ أ ؛ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ٤٦ أ ب ؛ الديري : الجدول الصفي من البحر الوفي ورقة ٢٢٠ ب - ٢٢١ أ ب ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ص ٤٧-٥٠ ؛ السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ١٣٥- ١٣٦ ؛المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٥٩- ٣٦٠ ؛ ابن الفوطي : تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب جـ٤ قسم ١ ص ٣٧-٣٨ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ؛ سعيد عاشور: مصر والشام ص ١٥٥- ١٥٧ .

(٣) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٢٣٧ ؛ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة
===

احرجها كثيرا ، فتزوجت من الأمير عز الدين ايبك اتابك العسكر وتنازلت له عن الحكم ليصبح اول سلاطين المماليك [١] .

ولن نتعرض هنا لشرح الحوادث التي صاحبت سقوط الأيوبيين وقيام دولة المماليك في مصر وانما الذى يهمنا موقف بلاد الشام من هذه التطورات الجديدة والأثر الذى تركته على بلاد الشام عشية الغزو المغولي .

فبعد مقتل المعظم تورانشاه اوفدت القاهرة مبعوثا الى دمشق لأخذ يمين الولاء من نائب السلطنة بالشام جمال الدين بن يغمور والأمراء القيمرية [٢] للسلطانة الجديدة شجر الدر ،ولكنهم رفضوا طلبه . كما سار الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل الى غزة واستولى على اموالها ثم سار الى قلعة الصبيبة واستولى عليها ،وحينما علم المماليك بذلك احاطوا بداره في القاهرة واخذوا ما كان له بها [٣] .

ولم يقتصر رد الفعل في بلاد الشام على قيام دولة المماليك على ذلك بل ان بلاد الشام الخاضعة للايوبيين لم تتقبل الوضع الجديد في مصر ، ذلك أن نائب الكرك بدر الدين الصوابي حين سمع بنبأ مقتل تورانشاه ، اتفق مع نواب الشوبك على اطلاق سراح المغيث عمر بن العادل بن الكامل الذى كان معتقلا بالشوبك ، واحضره بدر الدين الصوابي الى الكرك

=== جـ ٦ ص ٣٧٢-٣٧٤ ؛ سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ١١ .

(١) بيبرس : التحفة المملوكية ورقة ٢أ ب ؛المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٣٧ ؛سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ١٢-١٥ .

(٢) القيمرية :نسبة الى قلعة قيمر التي تقع فيما بين الموصل وخلاط ، وهم اكراد ،انظر ياقوت : معجم البلدان ، سعيد عاشور : مصر والشام حاشية رقم (١) .

(٣) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٦٦ .

وسلمه ما كان بها من اموال الصالح أيوب واعلنه ملكا عليها و على الشوبك وما يتبعها من بلاد في ١٣ ربيع الاول ٦٤٨ هـ/ ١٦ يونيه ١٢٥٠م ، واصبح بدر الدين الصوابي مدبرا ووزيرا لدولة المغيث الجديدة (١) .

كما ارسل الامراء القيمرية من دمشق مبعوثا الى الملك الناصر يوسف بن العزيز صاحب حلب يخبرونه برفضهم مبايعة شجر الدر ويحثونه على القدوم الى دمشق ليملكها . فخرج الناصر يوسف من حلب في مستهل ربيع الاخر ٦٤٨هـ/ ٣ يوليه ١٢٥٠م ووصل الى دمشق وفتح له الامراء القيمرية ابوابها ودخلها في ٨ ربيع الاخر ٦٤٨هـ/ ١٠ يوليه ١٢٥٠م، بدون قتال ،وخلع على الامراء القيمرية ووهبهم الاموال ،وملك قلعة دمشق وشرع في توطيد نفوذه على بلاد الشام (٢) .

و يجب ان نشير هنا الى ان خضوع دمشق لحلب أمر له دلالته خلال الحقبة موضع الدراسة فطوال العصر الايوبي ظلت حلب تكافح في سبيل استقلالها عن دمشق واحتفاظها بشخصيتها المتميزة وهنا انعكس الوضع ،وانقادت دمشق لسيطرة حلب ،والسبب في هذا واضح تماما وهو سقوط الايوبيين في مصر وشعور زعماء بلاد الشام من الايوبيين وانصارهم

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٧ ورقة ١٠٤ أ ب ؛ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ،قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٧٥ - ٧٦ ؛ابن ايبك كنز الدرر جـ ٧ ص ٦٤٨ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٦٦ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى جـ٤ ص ١٧٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤٣١ - ٤٣٢ .

(٢) ابن خطيب الناصرية : الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب جـ ٢ لوحة ٤٤٣ - ٤٤٤ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١١٥ أ ؛ الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٧٢ أ ب ؛ الجنابي : البحر الزاخر جـ٢ ورقة ٢٣ أ ب ؛ ابن شاكر : عيون التواريخ جـ١٥ لوحة ٢٥ - ٢٦ ؛سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٧٩- ٧٨٠ ؛ أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٨٣ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٦٦- ٣٦٧ ؛ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٢- ٤١٣ .

بالحاجة الماسة لتوحيد قواهم وجهودهم لمواجهة التطور الخطير الذى حدث في مصر على حساب الايوبيين حتى ولو اقتضى الأمر تخلي دمشق عن الزعامة لمنافستها الرئيسة حلب .

اخذ الناصر يوسف بن العزيز يعمل على توسيع دائرة نفوذه في بلاد الشام بعد استيلائه على دمشق ، فارسل الى بعلبك في جمادى الاخرة ٦٤٨هـ/ سبتمبر ١٢٥٠ م وطلب من نائبها ويدعى شرف الدين عيسى بن ابي القاسم تسليمها فابى قائلا : " في عنقي يمين للملك الأوحد ابن المعظم -تورانشاه- لا يمكنني التسليم اذا لم يعوضوه عنها " فعوضه الناصر يوسف عنها قرى زراعية في اقليم الجزيرة يبلغ دخلها السنوى مئة الف درهم ،وتسلمها وضمها الى مملكته [(١)] . كما ضم الناصر يوسف القدس وفلسطين اليه [(٢)] . وخضعت له عجلون والسلط وبصرى وصرخد واعمالها وتقدمت عساكره صوب غزة [(٣)] .

وحاول الناصر يوسف الاستيلاء على الكرك والشوبك ،فأرسل رسولا الى بدر الدين الصوابي في جمادى الاولى ٦٤٨هـ/ أغسطس يطلب تسليمها اليه ،فتظاهر الصوابي بأنه لا يملك من امرهما شيئا وأحضر المغيث عمر امام مبعوث الناصر يوسف واخبره ان المغيث هو ملك الكرك والشوبك فلما خاطبه الرسول في تسليم الكرك والشوبك اجابه المغيث قائلا : "اني كنت في الحبس وقد منَّ الله باطلا قي وليس لي ولا من

----

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ،قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦ .

(٣) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٨٦ .

بقي من أهلي موضع ينضوون اليه ... والسلطان أعز الله نصره اذ أخذ هذا الحصن لا بد له من نائب ،والمملوك نائبه فيه ، لا أصدر ولا أرد الا عن رأيه ومراسمه " وهكذا استطاع المغيث بهذا الاستعطاف اقناع الناصر يوسف بصرف النظر عن الكرك و الشوبك وأقره عليهما (١).

وقد أقلقت هذه التطورات الجديدة في بلاد الشام المماليك البحرية وأدركوا أنه لا يوجد مبرر شرعي لحكمهم مصر ، فقرروا اقامة صبي من بني أيوب لجعله سلطانا اسميا عليها ،وليكون الحكم الحقيقي لهم ،فانتخبوا الاشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل -وكان عمره دون العاشرة- واعلنوه سلطانا على مصر في جمادى الاولى ٦٤٨ هـ/ اغسطس ١٢٥٠ م وخطبوا له ،وجعلوا المعز ايبك اتابكا له (٢). ويبدو أن المماليك البحرية أرادوا - بهذا الاجراء - الحيلولة دون قيام بني أيوب - في بلاد الشام - بمحاولة استعادة مصر ،وفي الوقت نفسه ارسل المعز ايبك فرقة عسكرية بقيادة الامير ركن الدين خاص ترك الكبير الى غزة ،لمراقبة الموقف في بلاد الشام عن كثب . غير ان الامير ركن الدين خاص ترك تراجع الى الصالحية (٣)

---

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ،قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٧٥ - ٧٦.

(٢) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٣ أ ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٥٥ - ٥٦ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٨٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٥ - ٦ ؛ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ١ ص ٦ - ٧ ؛ سعيد عاشور ،مصر والشام ص ١٦١.

(٣) الصالحية : بلدة بناها الصالح ايوب سنة ٦٤٤ هـ في اول الرمل بين مصر والشام وأنشأ بها سوقا وجامعا لتكون قاعدة لجيوشه اذا خرجت الى الشام. انظر المقريزى : الخطط جـ١ ص ١٨٤.

عندما وجد عسكر الناصر يوسف عند غزة ، وتشاور مع اصحابه ،فاتفقوا على مراسلة المغيث عمر صاحب الكرك ،وطلبوا منه القدوم الى مصر لخلع المعز وتعيينه سلطانا عليها ،وخطبوا له بالصالحية في جمادى الاخرة ٦٤٨ هـ/ سبتمبر ١٢٥٠م (١) .

ومن الواضح ان المغيث عمر خشي من المخاطرة بالمسير الى مصر كي لا يتعرض للمصير الذى انتهى اليه تورانشاه على ايدى المماليك ، اضافة الى خشيته من الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق الذى لن يرضى بالسلطنة لاحد غيره ،اما المعز ايبك فقد خشي من هذه الحركة التي تزعمها الامير ركن الدين خاص ترك ،وأعلن في القاهرة بأن البلاد للخليفة العباسي المستعصم بالله ،واخيرا تمكن بعض المماليك من القبض على ركن الدين خاص ترك وسلموه الى المعز ايبك ،وبذلك فشلت أول محاولة للقضاء على دولة المماليك الناشئة (٢) .

و في أعقاب تلك المحاولة ارسل المعز ايبك فرقة عسكرية مكونة من ألفي فارس من المماليك البحرية بزعامة فارس الدين أقطاى الجدار الى غزة لمواجهة جيش الناصر يوسف المعسكر بها ،وتمكن اقطاى من انزال الهزيمة بعسكر الناصر في رجب ٦٤٨هـ/اكتوبر ١٢٥٠م وفروا الى دمشق وعاد اقطاى بفرسانه الى القاهرة (٣) .

----

(١) ابن واصل : تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٤٨هـ ؛ بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٣ ب ؛اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٥٦ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٨٣ ؛ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ١ ص ٨ - ٩ .

(٢) ابن واصل : تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٤٨هـ ؛بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٣ ب ؛اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٥٦ ؛ Lanepool, A History of Egypt p.257.

(٣) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٤ أ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٧٠ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

وعلى الرغم من هزيمة عسكر الناصر عند غزة ،فان ذلك لم يثن عزمه عن غزو مصر ، فقد استقررأيه ورأى امراء بني ايوب في بلاد الشام علــى استعادة مصر من المماليك ،غير أن الناصر يوسف خشي من الناصر داود على نفوذه في بلاد الشام اذا ما تركه بها طليقا وسار نحو مصر ،لذلك اعتقله وسجنه بقلعة حمص في شعبان ٦٤٨هـ/ نوفمبر ١٢٥٠م (١) ٠

وكان أشد امراء الناصر يوسف تحريضا على غزو مصر هو مدبر دولته الامير شمس الدين لؤلؤ الأميني ،الذى كان يعبر عن قدرته علــى استعادة مصر "بمائتي قناع" على حد زعمه (٢) . ويبدو أنه أقنــع الناصر يوسف بسهولة القضاء على قوة المماليك . وتصور الناصر يوسف أنــه سيغدو سلطانا على مصر والشام "ولم يعلم أن أيام تلك الدولة - الأيوبية - قد انقضت ،وبروق هذه - المماليكية - قد أومضت وشتان بين الاقبـــال والادبار" على حد تعبير بيبرس الداوادار (٣) ٠

خرج الناصر يوسف بعساكر دمشق في منتصف شهر رمضـان ٦٤٨ هـ/ ديسمبر ١٢٥٠ م وصحبته جماعة من ملوك اهل بيته وعلــى رأسهم الصالح اسماعيل والاشرف موسى بن ابراهيم بن شيركوه ،وتورانشاه واخيه نصرة الدين ابنا السلطان صلاح الدين ،والظاهر شادى بن الناصر

---

(١) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٤ أ ؛ ابن شاكر : عيون التواريخ جـ ١٥ لوحة ٢٦ ؛ النويرى : نهاية الارب جـ٢٧ ورقة ٩٧ أ ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٨٠ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٨٤ ٠

(٢) ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٦٠ ويقصد بمائتي قناع اى مائتي امراة - انظر النجوم الزاهرة جـ٧ حاشية رقم (٤) ٠

(٣) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٣ أ ٠



داود واخوه حسن ،والامجد عباس بن العادل وغيرهم (١) . وحين وصول الخبر بمسيرهم نحو مصر ،اضطربت دولة المماليك الناشئة ،و تم القبض على جماعة من المماليك أتُهِموا بالميل الى الناصر يوسف ،وشرع المعز ايبك في اعداد المماليك لمواجهة الخطر الداهم ،وصدرت الاوامر ايضا بالاستعانة بعرب الصعيد (٢) .

ويُفهم مما ذكره ابن ايبك ان الناصر يوسف مرض ثم عوفي (٣) ، الأمر الذى ابطأ في حركته الى مصر ،واتاح فرصة للمماليك للاستعداد له . وقد حاول المعز ايبك إفشال حملة الناصر يوسف و من معه من ملوك الشام ببعض الاجراءات ،فعمد الى اطلاق سراح المنصور محمد وأخيه عبدالملك ابني الصالح اسماعيل - وكانا معتقلين بالقاهرة منذ زمن الصالح أيوب - وخلع عليهما ،وذلك كي يزرع بذور الشك والريبة في نفس الناصر يوسف ازاء والدهما اسماعيل (٤) . كما اعلن المعز ايبك في القاهرة بانتظام الصلح بينه وبين المغيث عمر صاحب الكرك ، حتى يوهم الناصر يوسف ويجعله يخشى على املاكه ببلاد الشام من المغيث، فيحجم عن غزو مصر (٥) .

---

(١) ابن خطيب الناصرية : الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب جـ٢ لوحة ٤٤٥ ؛ ابن حبيب درة الاسلاك في دولة الاتراك ورقة ٢ ب ؛ ابن شاكر: عيون التواريخ جـ١٥ لوحة ٢٦ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٧٢ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٨٤ ؛ ابن نصرالله : شفاء القلوب ص ٤١٣ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

(٣) ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٨ ص ١٦ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٧٣ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٨٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٣ .

(٥) ابن واصل : تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٤٨ هـ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٧٣ .

غير أن كل تلك المحاولات لم تنجح في النيل من عزم الناصر ، اذ يبدو أنه أدرك المغزى من تلك الاجراءات التي اتخذها المعز ايبك فقرر المضي قدما في حملته على مصر . وفي يوم الخميس ١٠ ذى القعدة ٦٤٨هـ/ ٢ فبراير ١٢٥١ م التقى الناصر يوسف بقوات المماليك بالقرب من العباسة (١) ،وتمكنت قوات الناصر يوسف من انزال الهزيمة بالمماليك ، الذين فر اكثرهم نحو الصعيد ،وتبعتهم القوات الشامية تطاردهم وتجمع الغنائم ، في الوقت الذى بقي فيه الناصر يوسف ثابتا في مكانه في جماعة من مماليكه منتظرا نتيجة المعركة غير ان بعض مماليكه الاتراك استجابوا لنداء رابطة الدم ،اضافة الى كراهيتهم لمدبر دولته شمس الدين لوء لوء ، فانضموا الى المعز ايبك الذى تمكن بمساعدتهم ومن بقي معه من اتباعه من انزال الهزيمة بالناصر يوسف الذى فر هاربا الى الشام و قُتِلَ مدبر دولته لوء لوء الاميني ،ووقع في الاسر الكثير من بني ايوب ومنهم الصالح اسماعيل وابني صلاح الدين الكبير والاشرف موسى بن ابراهيم ابن شيركوه وغيرهم (٢) .

ومن العجيب أن عساكر الناصر يوسف الذين كانوا قد انتصروا في

---

(١) العباسة : بليدة تقع على طريق القاصد مصر من الشام وبينها وبين القاهرة خمسة عشر فرسخا عمرها السلطان الكامل وجعلها احدى منتزهاته ،انظر ياقوت معجم البلدان .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١١٦ أ ب ؛ابن حبيب : درة الأسلاك في دولة الاتراك ورقة ٢ب - ٣ أ ؛ابن خطيب الناصرية الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب جـ٢ لوحة ٤٤٥ ؛الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ٣٥ ب - ٣٦ أ ؛ابن شاكر : عيون التواريخ جـ ١٥ لوحة ٢٦-٢٧ ؛سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٨٠-٧٨١ ؛اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٥٦- ٥٧ ؛المقريزى: السلوك جـ١ ص ٣٧٤- ٣٧٥ ؛ابو الفدا : جـ٣ ص ١٨٤-١٨٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٦ - ٧ .

بداية الأمر ،وصلوا الى القاهرة وا ستبشر الناس بوصولهم ، وخطب للناصر يوسف يوم الجمعة ١١ ذى القعدة ٦٤٨ هـ ببعض مساجد مصر ،وهم لا يدرون أن الدائرة دارت على الناصر وجنده مما يدل على أن سكان مصر لم يقبلوا سيطرة المماليك باعتبارهم أرقاء ، ثم وصل الخبر الى القاهرة بانتصار المعز ايبك وفرار الناصر يوسف الى الشام ، فقررت عساكره الانسحاب الى الشام . وعاد المعز ايبك الى القاهرة منصورا وقد توطدت دعائم سلطته الجديدة (١) . وبعد فترة وجيزة من وصول المعز ايبك ،قام المماليك باعدام الصالح اسماعيل وبعض انصار الايوبيين الذين وقعوا في الأسر (٢) .

وبعد المعركة توجه فارس الدين اقطاى الجمدار قائد المماليك البحرية على رأس ثلاثة الاف فارس ،ووصل الى غزة ،واستولى على الساحل ونابلس الى نهر الاردن وذلك في مستهل سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م . فسارع الناصر يوسف فارسل عسكره الى غزة واستعادها وخيم بها . وحينما علم المعز ايبك بذلك خرج من القاهرة بجيشه وعسكر قرب العباسة ، غير انه لم تقع مواجهة حاسمة بين الطرفين وجمد الموقف بينهما مدة سنة وترددت بينهم الرسل للبحث عن حل للنزاع بين الطرفين (٣) .

---

(١) ابن ايبك : كنز الدرر جـ٨ ص ١٧-١٨ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٨٥ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٧٦-٣٧٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٧-١٠ ؛ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٤ .

(٢) ابن ايبك : كنز الدرر جـ٨ص ١٨ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص٣٧٨ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١١٨ ب ؛ ابن حبيب : درة الاسلاك في دولة الاتراك ،ورقة ٤ أ ،بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٥ أ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٨٥ ،ابن ايبك : كنز الدرر جـ٨ص ١٩ ؛ ابن كثير : البداية جـ١٣ ص ١٨١ ،المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٨١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٤ .

ولم تكن الخلافة العباسية - رغم ظروفها الصعبة - غائبة عن مسرح هذه الحوادث ، اذ بذلت جهدها لاصلاح ذات البين ففي سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م قدم مبعوث الخليفة العباسي محاولا عقد الصلح بين الطرفين ولكنه اخفق في البداية بسبب اشتراط الناصر يوسف بأن تكون الخطبة والسكة بمصر له ، فرفض المعز ايبك ذلك الشرط وقال المماليك البحرية : "نحن خلصنا مصر والشام بسيوفنا من الفرنج ولا صلح بيننا الا أن يكون لنا من غزة الى العقبة" ورفض الناصر يوسف شروط البحرية فدارت المناوشات بين الجانبين طيلة سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م.(١)

وفي سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م تمكن المماليك من استمالة نائب المغيث عمر على قلعة الشوبك وتسلموها منه وبذلك لم يبق بيد المغيث سوى الكرك والبلقاء وبعض مناطق الغور(٢) . ويبدو أن سيطرة المماليك على قلعة الشوبك الحصينة وذات الموقع الهام ،جعل الناصر يوسف يتنازل عن تشدده ،وقدم تنازلات هامة ووافق على الصلح الذى تضمن ، ان يكون للمماليك مصر وغزة والقدس ونابلس والساحل ،وللناصر يوسف بقية بلاد الشام وأن يطلق المعز ايبك بقية الاسرى من اصحاب الناصر يوسف وتم توقيع الصلح بين الجانبين سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م وهكذا اعترف الناصر يوسف بقيام دولة المماليك بل وأقر سيطرتها على اجزاء هامة من بلاد الشام(٣) .

---

(١) ابن ايبك : كنز الدرر جـ٨ ص ٢٢.

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٢١ ب ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٨ ص ٢٣ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٨٦ .

(٣) ابن حبيب : درة الأسلاك ورقة ٦ أ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٨٩ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٨٦ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٨ ص ٢٢-٢٣ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٨٥- ٣٨٦ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١٠ ؛

Lane Pool, A History of Egypt. P. 259

على أن السلام لم يدم طويلا بين الناصر يوسف والمعز ايبك ، ففي مصر ازداد نفوذ فارس الدين اقطاى الجمدار قائد المماليك البحرية، وشعر المعز ايبك بخطورته على نفوذه داخل مصر ،فدبر المعز مؤامرة راح ضحيتها اقطاى الجمدار في شعبان ٦٥٢هـ/ اكتوبر ١٢٥٤م ،ونجم عن مقتله تفرق انصاره من المماليك البحرية ،فذهبت طائفة منهم الى الشام بزعامة بيبرس البندقدارى ،وراسلوا الناصر يوسف وطلبوا منه قبولهم في خدمته ،فاجاب طلبهم وقدم لهم الاعطيات ،وأقطع بيبرس جينين وزرعين (١) .

حاول بيبرس البندقدارى واصحابه من البحرية ،حمل الناصر يوسف على غزو مصر ،فسار معهم الى الغور ، وارسل الى غزة فرقة عسكرية ،وتأهب المعز ايبك لمواجهته فخرج وعسكر بالعباسة في سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م (٢) .
ومن الواضح ان الناصر يوسف لم يكن يهدف من ايواء البحرية ،وقبولهم في خدمته الى غزو مصر من جديد ، بعد أن تلقى درسا قاسيا في حملته السابقة ،وانما كان هدفه الضغط على المعز ايبك ،لانتزاع بعض التنازلات منه . ومما يبرهن على صحة هذا القول ،أن الناصر يوسف قبل

---

(١) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٦ أ ب ؛ النويرى : نهاية الأرب جـ٢٧ ورقة ١١٦ أ ؛ ابن ايبك كنز الدرر جـ٨ ص ٢٥ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٩٠ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٢٧٢ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٩١-٣٩٢ ؛تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٤٣٢- ٤٣٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١٠-١٢ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٩١-٢٩٢ = وزرعين : قرية تقع قرب مدينة الناصرة بفلسطين انظر:

Lestrange: Palestine under the Moslems p.441

(٢) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٦ ب ؛ابن ايبك ،كنز الدرر جـ٨ ص ٢٨-٢٩ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٩٠ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٩٣ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٤٣٣ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٥ .

وساطة مبعوث الخليفة العباسي وتم توقيع الصلح بينه وبين المعز ايبك في سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م وحصل بموجب الصلح الجديد على تنازل المعز ايبك عن كل ما اعطته الاتفاقية السابقة من بلاد الشام اذ تضمن الصلح : ان يستبعد الناصر يوسف البحرية من خدمته ،وان يكون الشام جميعه له ، ويكون الحد بين مملكته وبين دولة المماليك في مصر بئر القاضي الواقعة فيما بين الوراده والعريش (١) .

وحاول المماليك البحرية بعد هذا الصلح الانتقام من الناصر يوسف واغتياله والاستيلاء على مملكته غير انه حينما شعر بخطورتهم طردهم من دمشق ،فخرجوا غاضبين وساروا الى القدس ،واستولوا عليه سنة ٦٥٥هـ /١٢٥٧م ، ثم استولوا على غزة فارسل الناصر يوسف في إثرهم جيشا ولكنهم انتصروا عليه ،فعاد وأرسل قوات كبيرة لمحاربتهم واستطاعت انزال الهزيمة بهم عند البلقاء ،فانسحبوا الى ناحية الكرك حيث دخلوا في خدمة المغيث عمر صاحب الكرك (٢) .

وشرع البحرية في تحريض المغيث عمر على غزو مصر ،واستعادة ملك آبائه بها ،زاعمين له ان امراء الجند بمصر كاتبوهم ،ووعدوهم بمد يد المساعدة لهم . وقد اقتنع المغيث باقوالهم وطمع في الاستيلاء

----

(١) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٧ أ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٩٠-١٩١ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١٢-١٣
= والورادة : منزل في طريق مصر من الشام في وسط الرمل والماء والملح فيها سوق ومنازل ومسجد ،وبرج للحمام الزاجل حيث ينقل الى مصر تقارير بالوارد والصادر. انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٧ ب ؛اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٤٩-٥١ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٩٢-١٩٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٤٤-٤٥ ؛ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٦ .

على مصر [١]. ويبدو أن مما شجعه على قبول رأيهم ما وقع من الاضطراب في مصر بسبب مقتل المعز ايبك وشجر الدر [٢]. فقد ظن المغيث أن بمقدوره استغلال تلك الظروف واسترداد سلطان الأيوبيين على مصر، ولذلك استجاب لاغراءات البحرية، وانفق فيهم الاموال، وبعث اليهم بفرقة من عسكره بقيادة مدبر دولته بدر الدين الصوابي، وسار الجميع الى مصر. غير أن الامير سيف الدين قطز اتابك الملك المنصور بن ايبك استطاع انزال الهزيمة بهم في معركةٍ دارت قرب الصالحية في ذى القعدة ٦٥٥هـ/ نوفمبر ١٢٥٧م كما وقع العديد من زعماء البحرية في الأسر وعلى رأسهم سيف الدين قلاوون الالفي وبلبان الرشيدى، أما زعيمهم بيبرس البندقدارى وبدر الدين الصوابي فقدهربا الى الكرك [٣].

----

(١) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٧ ب ؛ النويرى : نهاية الارب جـ٢٧ ورقة ١١٦ أ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٥١ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٩٣ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٤٢٠-٤٢١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٤٥ ؛ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٦ .

(٢) في ربيع الاول سنة ٦٥٥هـ/ابريل ١٢٥٧م ازدادت الوحشة بين شجر الدر وزوجها المعز ايبك بعد ان عزم ايبك على الزواج من ابنة صاحب الموصل ، فدبرت شجر الدر مؤامرة راح ضحيتها المعز ايبك ، ولكن مماليكه انتقموا له فقتلوها بعد ذلك مباشرة ، وأقاموا ابن المعز ايبك ويدعى نور الدين علي سلطانا ولقبوه بالملك المنصور ، وعينوا سيف الدين قطز اتابكا للملك الصغير . انظر ابوشامة: ذيل الروضتين ص ١٩٦ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٨ ص ٣٠-٣١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٧٣ ، ٣٧٦ ؛ ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ١ ص ١١-١٤ ؛ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٩٣ - ٢٩٥ .

(٣) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٧ ب - ٨ أ ؛ النويرى : نهاية الأرب جـ٢٧ ورقة ١١٦ أ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٥١-٥٢ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٩٣ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٤٥ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٦ .

ولكن هذه الهزيمة لم تفت في عضد ركن الدين بيبرس الذى يبدو انه كان يريد السيطرة على مصر بصورة غير مباشرة عن طريق المغيث عمر ، واستغلال اسمه ونسبه في الفوز بعرش دولة المماليك الناشئة . فقد استغل بيبرس مراسلة بعض امراء العساكر المصرية في تحريض المغيث عمر على معاودة الهجوم مرة اخرى على مصر . كما انضم الى المغيث وبيبرس بعض عساكر الناصر يوسف صاحب الشام ،وشعر المغيث بازدياد قوته وطمع في الاستيلاء على مصر ، وسار بنفسه في صحبة الظاهر بيبرس ،وتقدما بالعساكر الى غزة في سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م بقصد المضي الى مصر (١) .

وخرج عسكر مصر بزعامة سيف الدين قطز لصد الحملة الجديدة وهرب الى بيبرس والمغيث العديد من امراء المماليك الذين كاتبوهما ، مما شجعهما على المضي قدما في حملتهما على مصر ،فتقدما الى الصالحية والتقى الفريقان في ١٤ ربيع الاخر ٦٥٦هـ/ ٢٠ مايو ١٢٥٨ م حيث دارت معركة حامية ، كاد يتحقق فيها النصر للمغيث وبيبرس ، لولا استبسال قطز وحماسته التي حالت دون تحقيق ذلك ، وانتصر المماليك بزعامة قطز ، وحلت الهزيمة الساحقة بالمغيث ووقعت امواله وذخائره غنيمة في أيدى المماليك وأسر قطز الكثير من اتباع بيبرس فأمر بقتلهم . وهكذا فشلت آخر محاولة قام بها الايوبيون لاسترداد مصر من أيدى المماليك (٢) .

---

(١) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٨ أ ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٨٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٩٨ .

(٢) النويرى : نهاية الارب جـ٢٧ ورقة ١١٦ أ ؛بيبرس : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة جـ٩ تحقيق زبيدة محمد عطا "رسالة دكتوراه لم تطبع" ص ١٣ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٩٥ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٩٨ - ٩٩ .

ظل بيبرس واتباعه من البحرية يهددون النفوذ الايوبي في بلاد الشام ويستنزفون قواهم وقوى الايوبيين في معارك جانبية لا طائل من ورائها . فبعد فشل حملتهم الاخيرة على مصر ، قصدوا غور الأردن حيث التقوا بطائفة من الاكراد يسمون الشهرزورية (١) ، هربوا من بلادهم امام زحف المغول ،وساروا الى الشام ، والتقى بهم بيبرس وتزوج منهم ، ودخلوا معه في طاعة المغيث عمر صاحب الكرك (٢) . وخشي الناصر يوسف من ازدياد نفوذ البحرية بزعامة بيبرس وخطورتهم على نفوذه في بلاد الشام ،وخصوصا بعد انضمام الشهرزورية اليهم ، فأرسل فرقة لمحاربتهم سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م ولكنهم انزلوا الهزيمة بفرقته عند غور الاردن ، فعاد وأرسل اليهم جيشا كبيرا بقيادة اثنين من كبار امرائه بيد أن البحرية تمكنوا مرة اخرى من الايقاع بعسكر الناصر يوسف وانتصروا عليه قرب غزة وأسروا قائديه (٣) .

----

(١) الشهرزورية ،نسبة الى شهرزور ،وهي كورة واسعة في الجبال بين اربل وهمذان ،واهلها اكراد اشتهروا بالبطش وشدة البأس ،انظر ياقوت : معجم البلدان ؛ القلقشندى صبح الاعشى جـ٤ ص ٣٦٦ .

(٢) النويرى : نهاية الارب جـ٢٧ ورقة ١١٦ أ ب ؛ بيبرس ، زبدة الفكرة جـ٩ ص ١٣ .

(٣) ابن واصل : تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٥٦هـ ؛ بيبرس ؛ زبدة الفكرة جـ٩ ص ١٣ - ١٤ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٩١ - ٩٢ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٩٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٤٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤٣٢ .

وبعد هذين الانتصارين أقنع البحرية المغيث عمر بمحاربة الناصر يوسف ،وأغروه بسهولة الاستيلاء على دمشق وتوحيد بلاد الشام تحت لوائه . وقد استجاب المغيث الى ذلك وصمم على انتزاع دمشق من الناصر يوسف ، وبخاصة بعد هزيمة جيشه مرتين على أيدى البحرية . ولم يجد الناصر يوسف بدا من مواجهة خطر المغيث والبحرية ، فخرج بجيوشه من دمشق والتقى بالمغيث وحلفائه من البحرية والشهرزورية وانزل بهم الهزيمة قرب اريحا في غور الاردن وهرب المغيث الى الكرك واعتصم بها ،وسار الناصر يوسف نحو القدس وتسظر في احواله ، وعاد الى دمشق في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م (١) .

وعلى الرغم من انتصار الناصر يوسف على المغيث وحلفائه من البحرية ،فان غارات البحرية تواصلت على اعمال دمشق نفسها الأمر الذى جعل الناصر يوسف يقرر ملاحقتهم واستئصال شأفتهم ، واستعان في ذلك بالمنصور صاحب حماه ،وخرج من دمشق في أوائل سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٩م وطارد المماليك البحرية بزعامة بيبرس حتى لجأوا الى الكرك ،وسار الناصر يوسف في اثرهم الى قرب الكرك ،وعسكر امامها قرابة ستة اشهر ، واظهر تصميمه على القضاء على البحرية ،ودارت المفاوضات بينه وبين المغيث صاحب الكرك ،وطالب الناصر يوسف المغيث بتسليم البحرية اليه ،وهدده ان لم يجب طلبه (٢) ،وحين شعر

---

(١) ابن واصل : تاريخ الواصلين مخطوط حوادث سنة ٦٥٦ هـ ، بيبرس زبدة الفكرة جـ٩ ص ١٤ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ص ٤١١-٤١٤ .

(٢) ابن واصل : تاريخ الواصلين مخطوط حوادث سنة ٦٥٧ هـ؛ بيبرس التحفة الملوكية ورقة ١ ب ؛ النويرى : نهاية الارب جـ٢٧ ورقة ١١٧ أ ب ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٨ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ص ١٩٨ .

ركن الدين بيبرس بتخاذل المغيث ،بادر بمراسلة الناصر يوسف ،وطلب الأمان له ولعشرين من اصحابه وان يقطعه نابلس وجينين وزرعين ، فاجابه الناصر الى طلبه ،ولم يقطعه الا نابلس فقط ، ونزل بيبرس من الكرك وانضم الى الناصر يوسف في رجب ٦٥٧ هـ/ يوليه ١٢٥٩ م ، اما بقية المماليك البحرية فقد ارسلهم المغيث مكبلين الى الناصر يوسف الذى سجنهم في قلعة حلب ، اما الشهرزورية فقد غادروا بلاد الشام الى مصر (١) . واخذ بيبرس من جديد في تحريض الناصر يوسف على غزو مصر مرة اخرى ، ولكن الناصر يوسف رفض تحريضه ، فطلب بيبرس ان يوليه على اربعة الاف فارس ليتوجه بها الى شط الفرات ليمنع المغول من العبور الى بلاد الشام ،فلم يجب الناصر طلبه ،وعندئذ راسل بيبرس الملك سيف الدين قطز واستحلفه لنفسه وغادر بلاد الشام الى مصر (٢) .

وقد جرت كل هذه الحوادث في الوقت الذى اجتاح فيه المغول بغداد ،وشرعوا في زحفهم على الجزيرة وبلاد الشام . ولا شك أن هذه الحروب التي دارت رحاها بين الأيوبيين انفسهم ،ثم بينهم وبين دولة المماليك في مصر ،ودخول البحرية في علاقات متشابكة مع الناصر يوسف ،والمغيث عمر . كل هذه الحوادث صرفت انتباه هذه القوى الاسلامية عن مجابهة بقايا الصليبيين في بلاد الشام . كما استنزفت الكثير من الطاقات المادية والبشرية التي كان يمكن ادخارها لمواجهة زحف المغول على بلاد الشام .
١ .هـ

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق مخطوط حوادث ٦٥٧هـ ؛بيبرس : زبدة الفكرة جـ٩ ص ١٤ ؛اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٣٤٢-٣٤٣ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤٣٢- ٤٣٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢١٨ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٩٨ ؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٥٣-٥٤ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١٠٠-١٠١ .

الفصل الثالث

موقف ملوك بني أيوب من الصّليبيين في بلاد الشام

٦١٥ - ٦٥٦هـ / ١٢١٨ - ١٢٥٨م

الفصل الثالث

موقف ملوك بني أيوب من الصليبيين في بلاد الشام

٦١٥ - ٦٥٦ هـ / ١٢١٨ - ١٢٥٨ م

١ - الموقف في بلاد الشام بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل ٥٨٩ - ٦١٤ هـ.

٢ - اثر الحملة الصليبية الخامسة في تاريخ بلاد الشام ٦١٤-٦١٨هـ.

٣ - خلفاء السلطان العادل موقفهم من الصليبيين ٦١٨ - ٦٤٠هـ.

٤ - الصالح أيوب واسترداد بيت المقدس و معركة غزة ونتائجها ٦٤١ - ٦٤٦ هـ.

٥ - الموقف بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام عشية الغزو المغولي ٦٤٦ - ٦٥٦ هـ.

*

الموقف في بلاد الشام

بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل

قام السلطان صلاح الدين كما هو معروف بجهد كبير في جهاد الصليبيين ،واستعاد منهم بالقوة اجزاء واسعة من بلاد الشام ،كانوا قد اغتصبوها منذ بداية الحروب الصليبية . وكان يهدف في نهاية المطاف الى اقتلاع جذور الوجود الصليبي بكامله . ولم يقدر للعمل العظيم الذى بدأه صلاح الدين وقطع فيه شوطا بعيدا أن يستمر بعد وفاته . ولم يحرز الأيوبيون بعده من النجاح ما يمكن مقارنته بما فعله صلاح الدين ، مع أن الدولة الأيوبية دامت بعده أكثر من نصف قرن الا انها لم تستطع الارتقاء بفريضة الجهاد الى المستوى الذى وصلت اليه زمن صلاح الدين . بمعنى أن الدولة الأيوبية تحولت من موقف الهجوم واسترداد البلاد المغتصبة الى موقف الدفاع عما بقي في حوزتها من ممتلكات ازاء الصليبيين كما سنرى في هذا الفصل . وكان ذلك في الواقع هو السبب الرئيس الذى ادى الى سقوطها حيث فقدت مبرر وجودها الشرعي بعد أن اخفقت في حمل راية الجهاد مثلما كانت عليه زمن صلاح الدين .

غير أن ذلك لا يعني أن جهاد المسلمين ضد الصليبيين توقف نهائيا بعد صلاح الدين كما لا يعني أيضا توقف الاعمال العدائية والحملات المتكررة التي قام بها الصليبيون ضد بلاد المسلمين في بلاد الشام وغيرها .

فالأمر الذى لا شك فيه أن حرب الوراثة التي اندلعت بين الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين ٥٨٩هـ/١١٩٣م أضعفت موقف المسلمين

ازاء الصليبيين حتى أن العزيز عثمان صاحب مصر جدد الصلح معهم سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م (١)، كما فقد اخوه الافضل لحساب الصليبيين حصنا هاما في السنة نفسها وهو حصن جبيل ،اذ قامت حاميته الكردية ببيعه للصليبيين بستة الاف دينار وغادرته ،وفشل الافضل في محاولة استرداده منهم (٢).

والحقيقة ان وفاة صلاح الدين وحدوث الانقسام والمنازعات بعده بين أفراد الأسرة الأيوبية شجع القوى الصليبية في أوربا على القيام بحملة صليبية جديدة تزعم الدعوة اليها هنرى السادس امبراطور المانيا (١١٩٠-١١٩٧م / ٥٨٦-٥٩٣هـ) الذى كان يتطلع الى اخضاع الدولة البيزنطية والاراضي المقدسة في بلاد الشام لنفوذه . وبدأت جموع الصليبيين الالمان تتوافد على بلاد الشام للاستيلاء على بيت المقدس وغيره من الاماكن المقدسة (٣).

ويبدو أن قدوم تلك الأفواج الجديدة من الصليبيين الألمان جعلت عز الدين اسامة والي مدينة بيروت يحاول عرقلة وصولهم الى عكا قاعدة الصليبيين الرئيسه ، فشرع في ارسال السفن الحربية المحملة بالمجاهدين المسلمين للاغارة على سفن الصليبيين و قطع الطريق عليهم وذلك سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م ،وقد كان لهذه الغارات اثرها على الصليبيين فشكوا الى العادل والعزيز أعمال أسامة التي اعتبروها خرقا للهدنة القائمة بين الجانبين . فلم يمنعا اسامة من ذلك لأنه كان يقوم بعمل

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٢٩ .

(٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ،قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٩٦ - ٩٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦ ؛ ابو شامة: ذيل الروضتين ص ٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢٠٣ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٨٧٩ - ٨٨٠ ؛ رنسيمان: الحروب الصليبية جـ٣ ص ١٦٩ .

مشروع وهو الحيلولة دون ازدياد قوة الصليبيين في عكا و من ثمة مهاجمة بلاد المسلمين (١) .

ارسل الصليبيون بالشام الى اوربا يطلبون النجدة لحرب المسلمين ، ويخوفون النصارى في اوربا من استيلاء المسلمين على ما تبقى بأيديهم من بلاد الشام" فأمدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة وكان اكثرهم ملك الألمان"(٢) اذ بادر هنرى السادس ملك المانيا الى إرسال حملة عاجلة الى بلاد الشام .ووصلت تلك القوات الى عكا وشرعت في شن الغارات على بلاد المسلمين (٣) ،وبلغت الجرأة بالصليبيين الجدد الى حد الاغارة على اطراف بلاد القدس وهاجموا المسلمين فيه " فقتلوا منهم جماعة وأسروا جماعة ، ورجعوا بغنائم كثيرة "(٤) .

ولم يجد العادل مفرا من التصدى للعدوان الجديد فبعث الى ملوك بني أيوب بالجزيرة وبلاد الشام ومصر يحثهم على إرسال الجيوش لجهاد الفرنج ، فقدمت اليه العساكر واجتمعت الجيوش الاسلامية في عين جالوت وتقدموا الى مروج عكا حيث أوقعوا بالصليبيين الألمان ومن معهم من اتباع هنرى دى شامبني ملك الصليبيين بالشام (١١٩٢-١١٩٧م/ ٥٨٨ - ٥٩٤ هـ) . وانتصر المسلمون وأسروا جماعة من الصليبيين وعادوا بغنائم وفيرة (٥) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٢٦ ؛فايد عاشور : الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في العصر الايوبي ص ٢٦٢ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٢٧ .

(٣) رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ١٦٩-١٧١ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٣ ص ٧٤ .

(٥) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٤٠ أ ب ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٧٤ ؛ ابو شامة : الروضتين جـ٢ ص ٢٣٣ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٨٨٢ .

وقد نتج عن تلك الهزيمة التي مني بها الصليبيون ،أن أرسل هنرى دى شامبني الى هنرى السادس يحثه على القدوم الى الشام ، ويحرضه على الانتقام من المسلمين ،ولا سيما وان والده فردريك بربروسا دفن في صور اثناء قيامه بحملته على بلاد الشام. وفي ذلك يذكر أبو شامة نقلا عن العماد الكاتب أن الفرنج قالوا في رسالتهم لهنرى السادس: " ان عظام ابيه الى الان في صور في تابوت مكلل بالديباج وكأنه في الأسر منتظر الافراج ،فانه لا يقبر الا بالبيت المقدس اذا استخلص والان ما كان غلا ثمنه استرخص فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض ولهو عن كل سنة وفرض"(١).

أما بالنسبة للجانب الاسلامي فقد تقدم العادل بقواته الى يافا واستولى عليها وعلى قلعتها في شوال ٥٩٣ هـ/ سبتمبر ١١٩٧ م وأخذ المسلمون من يافا الاف الأسرى من الصليبيين وغنموا كميات كبيرة من الأموال والمؤن والعدة(٢). وحاول العزيز عثمان صاحب مصر من جانبه عرقلة الامدادات الصليبية القادمة الى الشام فارسل من اسطول مصر اربعة غربان(٣) ، وقصدوا الطريق البحرى المؤدى الى

---

(١) ابو شامة : الروضتين جـ٢ ص ٢٣٣.

(٢) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٤٠ ب ،ابن الاثير :الكامل جـ١٢ ص١٢٧ ،المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٤٠ .

(٣) الغربان : مفردها غراب ،وهي نوع من المراكب أخذه العرب عن القرطاجنيين والرومان وغيرهم من امم البحر المتوسط ، وقد سمى بهذا الاسم لأن مقدمته تشبه رأس الغراب ،ومن خصائصه انه كان مزودا بجسر من الخشب يهبط على سفن العدو فيقتحمها الرجال ويقاتلون عدوهم بالاسلحة البرية ،انظر : سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ص٣٥٩ - ٣٦٠.

عكا حيث تمكنت غربان المسلمين من أخذ عدة بطس (١) صليبية برجالها ومؤنها ،وأحرقوا أخرى فغرقت وبها خمسون صندوقا من الذهب والفضة كان قد جمعها الفرنج من اوربا لدعم حملتهم الصليبية ، وعاد رجال البحرية الاسلامية بغنائمهم الى مصر " وكان لوصولهم يوم عظيم و فتح جسيم " (٢) .

ولم يتمكن الصليبيون في عكا من تقديم المساعدة ليافا ، بسبب موت الملك هنرى دى شامبني المفاجيء ،مما جعل عرش مملكة الصليبيين بالشام شاغرا . وبحث الصليبيون عن زعيم ليتزوج بايزابيل أرملة هنرى دى شامبني ،لكي يقوم بالدفاع عن كيانهم الدخيل ضد المسلمين ،ووقع اختيارهم على عمورى لوزجنان ملك قبرص (٣) (٥٩٤ - ٦٠٢هـ/١١٩٧-١٢٠٥م) "وكان رجلا عاقلا يحب السلامة والعافية " على حد قول ابن الأثير (٤) .

ولكن على الرغم من ميل عمورى لوزجنان للسلامة الا أنه أراد - فيما يبدو - أن يبرهن على جدارته بحكم الصليبيين في بلاد الشام ،ففكر في الهجوم على بيروت لتعويضهم عن سقوط يافا بيد المسلمين . وكانت

----

(١) البطس : مفردها بطسة ،وهي نوع من مراكب البحر الكبيرة ،وقد يصل عدد الشرع في البطسة الواحدة الى اربعين شراعا . وقد لعب هذا النوع دورا هاما في الحروب الصليبية . اذ كانت البطس أشهر سفن الصليبيين ،فشحنوها بالمجانيق والمقاتلة ،والاسلحة ،والذخيرة ، وسائر آلات الحرب والحصار . كما شحنوها بالاقوات والميرة ،وتصل حمولة البطسة الى بضع مئات من الرجال باسلحتهم . ولها طبقات متعددة : انظر سعاد ماهر: البحرية في مصر الاسلامية ص ٣٣١-٣٣٢ .

(٢) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٤٠ ب - ١٤١ أ .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٢٨ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٨٨٣ .

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٢٨ .

بيروت قاعدة عسكرية هامة طالما شن منها المجاهدون المسلمون الغارات على مراكب الصليبيين في البحر ، ولم يكن احتمال مهاجمة الصليبيين بيروت بعيدا عن ذهن العادل ،ولذلك امر بتخريب ربضها حتى لا يفيد منه الصليبيون ،ولما اراد تدمير المدينة رفض عز الدين أسامة صاحبها وتعهد بالدفاع عنها ،وتقدم الصليبيون شمالا وجرت بينهم وبين المسلمين مناوشة قرب صيدا ثم تقدموا نحو بيروت ، فادرك صاحبها عز الدين اسامة عجزه عن المقاومة . فانسحب منها ،واستولى الصليبيون عليها دون قتال في ذى الحجة ٥٩٣ هـ/ اكتوبر ١١٩٧م (١) ، ولم يسع الرعايا المسلمين حول بيروت سوى الاذعان للفرنج وتقديم الاتاوة لهم أما عز الدين اسامة فبقي بيده الاقليم الجبلي التابع لبيروت (٢).

وأغرى سقوط بيروت الصليبيين بتوسيع عدوانهم على بعض الموانيء التابعة للمسلمين فقرروا المضي الى جبلة واللاذقية للاستيلاء عليهما ، غير أن العادل ارسل الى ابن اخيه الظاهر صاحب حلب اواخر سنة ٥٩٣ هـ/ ١١٩٧م يحذره فاستعد الظاهر وحشد جيشا من التركمان وهدم حصني جبلة واللاذقية وأجلى سكانهما ، واحتشد العسكر الاسلامي في جبلة واللاذقية منتظرا قدوم الصليبيين وجاء البرنس بوهيمند الثالث أمير انطاكية (٥٦٠ - ٥٩٩ هـ/ ١١٦٣- ١٢٠١ م) الى ساحل اللاذقية ، وأرسل الى قائدى الظاهر واجتمع بهما وأشار عليهما بعدم تدمير اللاذقية

---

(١) العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢١١ ؛ تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣٠٨ ؛السيوطي : اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى ورقة ١٢٢ ب ؛ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٢٧ ؛صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢١- ٢٢ ؛ الحريرى : الاعلام والتبيين ص ٨٨.

(٢) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢.

وعندئذ سار الظاهر الى اللاذقية في اوائل سنة ٥٩٤هـ/ اواخر ١١٩٧م وأمر بعمارة ما تهدم من تحصينات المدينة وعاد الى حلب[١]. ويبدو أن بوهيمند الثالث لم يشأ الاعتداء على اللاذقية ، وذلك لأنه أدرك عدم قدرته على مجاهرة مملكة حلب بالعداء ولا سيما وأنها تجاور امارته في انطاكية ،الأمر الذى سيهدد امارته بالخطر اذا ما اخفقت الحملة الالمانية على فلسطين وجنوب الشام.

أما الملك العادل فقد رد على استيلاء الصليبيين على بيروت فأرسل بعض العساكر للاغارة على صور الخاضعة للصليبيين ، فقطعوا اشجارها ودمروا قراها وابراجها . وحينما علم الصليبيون بذلك رحلوا من بيروت الى صور للدفاع عنها ضد المسلمين[٢].

ولما كان العادل يعتقد أن الصليبيين سيكتفون ببيروت عوضا عن يافا ، وأنهم لن يتقدموا الى غيرها ،فقد سمح للعساكر الشرقية - التي قدمت اليه من اقليم الجزيرة - بالعودة الى بلادهم[٣]. ولكنه كان مخطئاً في حدسه اذ سرعان ما تقدم الصليبيون في منتصف المحرم ٥٩٤هـ/ نوفمبر ١١٩٧م الى حصن تبنين[٤] وضربوا الحصار حوله ،

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢١٦ ب ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٤٠-١٤١ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص١٢٧ ؛تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٨٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ١٢ ص١٢٨ .

(٤) يقع حصن تبنين في جبل بني عامر بين صور ودمشق . انظر : ياقوت : معجم البلدان .

فأرسل العادل على عجل الى العزيز عثمان يحثه على الخروج بعساكر مصر ولا سيما وأن العادل أضحى في قلة من العساكر بعد رحيل عساكر الشرق ، فخرج العزيز من مصر مسرعا الى الشام ،بينما رابط العادل قريبا من تبنين . وقد صمدت حامية تبنين في وجه الحصار حتى وصل العزيز في ربيع الأول ٥٩٤ هـ/ يناير ١١٩٨ م وحينما شاهد الصليبيون اجتماع عساكر مصر والشام خافوا ، ووصل في الوقت نفسه عمورى لوزجنان من قبرص فآثر السلامة وبخاصة وقد حل فصل الشتاء فاشتد البرد و هطلت الثلوج والامطار اضافةالى وفاة ملك الالمان هنرى السادس في الغرب ،فانسحب الصليبيون الى صور و تعقبهم المسلمون يلتقطون من ظفروا به منهم ،وغنموا شيئا كثيرا من عسكرهم . وأمر العزيز بنقل المؤن والذخائر الى تبنين واصلاح ما تهدم من أسوارها ،وأبقى معظم عساكر مصر عند عمه العادل ،وعاد هو الى مصر تاركا لعمه تقدير امر الحرب أو الصلح مع الصليبيين (١) .

---

(١) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام مخطوط حوادث سنة ٥٩٤ هـ ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٢٨-١٢٩ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٤٥٥ - ٤٥٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٧٥ - ٧٦ ؛ابو شامة : الروضتين جـ٢ ص ٢٣٣ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٣٥- ١٣٧ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ١٦٩ ؛ الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٠٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢٠٤- ٢٠٥ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٨٨٤ - ٨٨٥ .

وقد واصل العادل شن الغارات على الصليبيين مرة بعد أخرى حتى أجبرهم على طلب الصلح ، كيما يتفرغ لحل المشكلات داخل الدولة الأيوبية . وفعلا تم عقد الصلح بين الجانبين في شعبان ٥٩٤هـ/ يوليه ١١٩٨م وتضمن الصلح احتفاظ العادل بيافا مقابل أن يحتفظ الصليبيون ببيروت ،على أن تصبح صيدا مناصفة بين الطرفين ومدة الصلح ثلاث سنوات (١) .

وبعد مضي زهاء خمس سنوات على توقيع الهدنة استأنف الصليبيون الأعمال العدائية ضد المسلمين ،فقد ذكر ابن العديم أن جموعا من الفرنج خرجت من البحر واجتازوا باللاذقية عن طريق البر، وكان هدفهم البحث عن أى نقطة ضعف في تحصينات اللاذقية للانقضاض عليها ،ولكن خططهم فشلت عندما خرج اليهم سيف الدين ابن علم الدين والي اللاذقية واشتبك معهم وهزمهم وقتل منهم عددا كبيرا

---

(١) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام حوادث ٥٩٤هـ ؛العيني : عقد الجمان جـ١٣ ص ٢١٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص٧٨ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٣٩ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ٩٣ - ٩٤ ؛ المقريزى جـ: السلوك جـ١ ص ١٤١ = وقد ذكر الدكتور سعيد عاشور ان بعض المراجع الصليبية حددت مدة الهدنة بخمس سنوات وثلاث أشهر ، انظر الحركة الصليبية جـ٢ ص ٨٨٦ حاشية رقم (١) غير أننا وجدنا بعض المصادر العربية حددتها باكثر من خمس سنوات ووافقت بذلك المراجع التي اشار اليها الاستاذ عاشور ،فابو شامة ذكر ان مدتها خمس سنوات وثمانية اشهر . انظر ذيل الروضتين ص١٣ ، بينما ذكر الحريرى ان مدة الهدنة خمس سنين ونصف . انظر الحريرى : الاعلام والتبيين ص٨٨ ، ٨٩ ونحن نرجح رأى الحريرى وابي شامة وسعيد عاشور بتقدير الهدنة باكثر من خمس سنوات بدليل انه لم تقع اشتباكات بين المسلمين والصليبيين الا بعد مضى اكثر من خمس سنوات .

وأسر آخرين وضمنهم بعض زعمائهم وأرسل الأسرى والغنائم الى حلب (١).

وترامت الى مسامع المسلمين أيضا انباء تفيد بوصول بعض جموع الفرنج الى عكا واجتماعهم بها وأن حشودا اخرى بدأت تتجمع في جزيرة صقلية لقصد مصر ،وازاء ذلك ارسل الظاهر صاحب حلب الى عمه العادل خمسمائة فارس ومائة راجل من الحلبيين ليرسلهم الى مصر للمساعدة في صد العدوان المتوقع (٢). غير أن سوء الاحوال الاقتصادية بعكا وانتشار الغلاء بها وندرة المؤن والأقوات أجبرت القادمين الجدد من الصليبيين على العودة الى اوربا (٣).

وعلى الرغم من اخفاق تلك التحركات التي قام بها الصليبيون ، فان المنصور صاحب حماه بادر بالخروج الى بارين لمراقبة تحركاتهم ، وأرسل الى العادل يطلب المدد ،فأمر الاخير الأمجد صاحب بعلبك والمجاهد شيركوه صاحب حمص بتقديم العون للمنصور وحينما اكتملت النجدات لديه تقدم لقتال الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا من حصن الاكراد (٤) وطرابلس والحصون التي حولها والتقى بهم في ثالث رمضان ٥٩٩هـ/ يونيه ١٢٠٣م وهزمهم وأسر من قادتهم وفرسانهم جماعة

----

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٥٣-١٥٤.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٣٥ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٤٥-٢٤٦ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٦٠

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٤٠ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٤٨ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٦٠.

(٤) حصن الاكراد : حصن منيع على الجبل الذى يقابل حمص من جهة الغرب وهو بين حمص وبعلبك ،انظر ياقوت : معجم البلدان.

" وبعث بهم الى حماة فدخلوها راكبين خيولهم ،لابسين عددهم وبأيديهم رماحهم وكان يوما مشهودا ".(١)

وأرسل الداوية (٢) بعد المعركة مباشرة الى المنصور صاحب حماه رسولا ليخبره بوصول الفرنج الى عكا في ستين الف فارس وانهم سوف يقصدون جبلة واللاذقية وأن مقدم الاسبتارية (٣) ومقدم الداوية والملك عموري لوزجنان سوف يمضون الى ملك الارمن ليصلحوا بينه وبين

----

(١) العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٧٨ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٤٣ - ١٤٥ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٥٢ - ٢٥٥ .

(٢) الداوية : وهي طائفة فرسان المعبد (Temples) وتختلف عن الاسبتارية في كونها نشأت أصلا على اساس حربي منذ سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م ، واتخذت هذه المنظمة العسكرية من ساحة المسجد الأقصى مقرا لها ،وتعهد أتباعها بحماية الطريق بين يافا وبيت المقدس ،ثم اسهم فرسان الداوية في جميع الاعمال العدائية التي قام بها الصليبيون في بلاد الشام واضحت الداوية تابعة للبابوية مباشرة شأنها في ذلك شأن الاسبتارية وشكلت مع الاسبتارية أقوى دعامتين للوجود الصليبي في بلاد الشام = انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ١ ص ٤٨٧-٤٨٩ ،رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٢ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٧ حاشية رقم (٥) ، الباز العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ٣٥٩ .

(٣) الاسبتارية (Hospitallers) طائفة من الفرسان الصليبيين نشأت منذ فجر الحروب الصليبية وبدأت أول الأمر على هيئة جمعية هدفها العناية بمرضى الصليبيين وايواء الحجاج ورعايتهم ،وطبقت مبادئ الديرية البندكتيه في فلسطين ولم تلبث ان تخلت عن تبعيتها للبندكتية وانتمت للبابوية مباشرة ،

===

صاحب انطاكية ثم يتحد الجميع على قتال المسلمين . ولم تكن هذه الانباء التي حملها مندوب الداوية سوى محاولة لتخويف الملك المنصور لاجباره على توقيع الصلح مع الاسبتارية ، بعد أن انزل بهم الهزيمة السابقة في شالث رمضان ٥٩٩ هـ/ يونيه ١٢٠٣ م ، فقد طلب الاسبتارية من الداوية التوسط لدى المنصور . وهكذا حاول الداوية تخويف المنصور بحمل هذه الانباء الكاذبة غير ان المنصور أبدى شجاعة ورباطة جأش في جوابه لمبعوث الداوية وقال له : " بأنا لا نجزع بما تقول ولا نكترث ولو انهم اضعاف ذلك لناجزتهم ... ولا سبيل الى مصالحة الاسبتار بوجه " وعندما آدرك مبعوث الداوية اصرار المنصور على عدم مصالحة الاسبتارية تضرع اليه معتذرا عن قوله الأول وتوسل اليه إبقاء الصلح بينه وبين الداوية فأجابه المنصور الى طلبه " فَسُرَّ الرسول بذلك وقام وكشف رأسه وقبل يده "(١) .

=== ثم تطورت واكتسبت صفة حربية فاصبح اعضاؤها يرتدون زى الرهبان ويقاتلون من على ظهور الخيل كالفرسان تماما ،ونذروا انفسهم لقتال المسلمين واشترك افرادها في العدوان على المسلمين منذ سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٧م وكانت مع طائفة الداوية من الدعائم الاساسية التي اسهمت في حماية كيان الصليبيين طوال اكثر من قرن من الزمان ، وقد سيطر الاسبتارية على العديد من القلاع الحصينة في بلاد الشام مثل حصن الاكراد ، وقلعة المرقب وغيرها = انظر: سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ١ ص ٤٨٦ - ٤٨٧ ؛ الباز العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ٢٥٧ - ٣٥٨ ؛ رنسيمان : الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٢٤٧ - ٢٤٩ ؛ جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ٢٣٣ .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٤٥-١٤٧ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

وحينما علم الاسبتارية برفض المنصور مصالحتهم بادروا بالعدوان فاجتمعوا من حصن الأكراد والمرقب ومن وصل اليهم من الغرب ، واغاروا على بارين ،فتقدم اليهم المنصور وانزل بهم هزيمة ساحقة " وقتل منهم مقتلة عظيمة " وأسر منهم جماعة وذلك في أواخر رمضان ٥٩٩هـ/يونيه ١٢٠٣م وعاد المنصور الى حلب ومدحه الشعراء بهذه المناسبة (١) .

وبعد انتصار المنصور على الاسبتارية أرسل الى السلطان العادل يخبره برغبتهم في الصلح ،ويطلب أوامره في ذلك الأمر فرد عليه العادل برسالة اوضح له فيها انه لديه من التقارير ما يؤكد ضعف موقف الصليبيين جميعا في بلاد الشام. وترك العادل للمنصور الحرية في عقد الصلح مع الاسبتارية اذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين (٢) . ودارت المراسلات بين المنصور والاسبتارية وتم عقد هدنة بين الجانبين في أوائل سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م (٣) .

و يجب أن نشير هنا الى الحملة الصليبية الرابعة التى دعي اليها البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م) وكان هدفها الاتجاه الى مصر غير انها انحرفت عن هدفها واستولت على القسطنطينية عاصمة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٤٨ - ١٤٩ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٥٦ - ٢٥٧؛ وانظر أيضا : العيني : عقد الجمان جـ١٣ مخطوط لوحة ٢٧٨ - ٢٧٩ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٠٩ ب ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٠٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٥٢ - ١٥٣ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٦٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٥٤ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ١ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٠٥ .

الدولة البيزنطية في سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م واقام بها الصليبيون امبراطورية لاتينيه ظلت قائمة حتى سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م (١) .

ومن المعروف أن الدولة البيزنطية دأبت منذ فجر الحركة الصليبية على وضع العراقيل امام الصليبيين بسبب النفور المستحكم بين الكنيستين الشرقية والغربية (٢) ،غير ان استيلاء الصليبيين على القسطنطينية واقامة امبراطورية لاتينية بها منح جموع الصليبيين القادمين من أوربا ميزة فريدة حيث وفر لهم قاعدة متقدمة يستطيعون الحصول على مساعدتها ودعمها في حملاتهم على بلاد الشام ،ونتج عن ذلك تغيير ميزان القوى لصالح الصليبيين . وقد أدرك هذه الحقيقة المؤرخ ابن الاثير فذكر انه في سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م "خرج جمع كثير من الفرنج في البحر الى الشام وسهل الأمر عليهم بذلك لملكهم قسطنطينية وأرسوا بعكا وعزموا على قصد بيت المقدس" (٣) .

وبعد أن اخذوا قسطا من الراحة بعكا خرجوا الى نواحي الاردن وأغاروا على بلاد المسلمين وفتكوا بهم ،وكان السلطان العادل بدمشق فأرسل على عجل يستدعى العساكر من بلاد الشام ومصر ،وسار بنفسه الى الطور لمنع الصليبيين من المضي قدما في غاراتهم على بلاد الشام ،

---

(١) عن الحملة الصليبية الرابعة والاستيلاء على القسطنطينية واقامة امبراطورية لاتينية بها انظر تفصيل هذا الموضوع في :
The Cambridge Medieval History Vol. IV
(The Byzantine- Empire)pp. 275-330.
وانظر ايضا كتاب : اسمت غنيم ،الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٨٩٥ .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٩٤ .

ولكنهم أغاروا على كفركنا بمرج عكا وأخذوا كل من كان بها من المسلمين ونهبوا أموالهم . وحث أمراء الجيش السلطان العادل على مهاجمة الأراضي الخاضعة لهم الا أنه تردد في اجابة رغبة قادته ، وأخيرا جرت المراسلة بينه وبين الفرنج وعقد الصلح بين الجانبين في سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٥م وتنازل لهم العادل عن جميع المناصفات التي كانت للمسلمين في صيدا والرملة وصفد كما أعطاهم الناصرة وغيرها وسار عائدا نحو الديار المصرية (١) .

وهنا يتبادر الى الذهن تساؤل هو ،لماذا تلكأ العادل في الانتقام من الصليبيين رغم الحاح قادته بالاغارة عليهم ؟ ولماذا قدم لهم تلك التنازلات في الصلح الذى عقده معهم ؟ من الواضح ان السلطان العادل كان على علم تام باستيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية وأدرك أن ذلك منح الصليبيين ميزة عسكرية هامة وأعطاهم قاعدة متقدمة يستطيعون بمساعدتها الاستمرار في حملاتهم على بلاد الشام ،ويبدو أن العادل توقع قدوم حملة جديدة كبيرة ، لذلك آثر عدم استنفاد قواه في معارك صغيرة مع الصليبيين في بلاد الشام اضافة الى ايثاره عدم استثارة البابوية والصليبيين في الغرب الأوربي ،لأنه تعلم من التجارب السابقة مع الصليبيين ان كل هزيمة يوقعها المسلمون بالصليبيين يترتب عليها ردة فعل عنيفة لدى الغرب الأوربي ويتمثل رد الفعل

---

(١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٥٣ب؛الجنابي : البحر الزاخر جـ٢ ورقة ١٨أ ب ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٩٤-١٩٥ ؛ ابن واصل ؛ مفرج الكروب جـ٣ ص١٥٩ ، ١٦٢ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص١٣ ، ٢٠ - ٢١ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٩٤ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٦٣-١٦٤ .

ذلك في تجريد حملة جديدة الى بلاد الشام . ويبدو أن كل هـــذه الاعتبارات هي التي حملت السلطان العادل على عدم مهاجمة الصليبيين بالشام بل وتقديم التنازلات لهم لتوقيع الصلح معهم.(١)

ومن الواضح ان الصلح الذى عقده العادل مع الصليبيين كـان قاصرا على مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولم يلتزم فرسان الاسبتارية فـي حصن الاكراد وغيره بالهدنة التي عقدها العادل مع الصليبيين . ومما يبرهن على صحة هذا القول ان الاسبتارية أغاروا في سنة ٦٠١هـ/١٢٠٥م على حماه لأن الهدنة التي كانت بينهم وبين مملكة حماة انتهت ،وانضم الى الاسبتارية في هذه الغارة بعض الصليبيين الاخرين ، ووصلوا الـى قرب مدينة حماة نفسها وقتلوا أعدادا من المسلمين العزل وسبوا النســاء الغسالات من على ضفة نهر العاصي وعادوا الى حصونهم محملين بالغنائم، ولم يستطع المنصور صاحب حماة عمل شيء ازاء هذه الغارة سوى طلب النجدة من المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق الذى أرسل اليه عســـكرا لمساعدته ولكنه لم يشتبك مع الصليبيين بعد أن دارت المفاوضات بيــن المنصور والفرنج وعقد الجانبان هدنة بينهما لمدة معينة.(٢)

ولكن الصليبيين نظروا الى هذه الهدنة على انها بينهم و بيــن مملكـة حماة فقط ولذلك أغاروا في السنة نفسها على أراضي حمص وقتلوا

---

(١) انظر أيضا سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٠٤ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصور ص ٤٤ - ٤٥ وحاشية رقم (١) ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٦٣ - ١٦٤ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢٢-٢٤ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٥١ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٠٦ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٧ ص ١٥٥-١٥٦.

وأسروا من اهل حمص جماعة ،فتصدى لهم المجاهد صاحب حمص وردهم على أعقابهم [(١)] . ولم يكتف المجاهد بذلك بل شن الغارة على أعمال حصن الاكراد التابع للاسبتارية وغنم اعدادا هائلة من الأغنام والماشية [(٢)].

ولم تتوقف المناوشات بين المسلمين والصليبيين طيلة سنة ٦٠١هـ/١٢٠٥م ،فقد نشبت معركة بين والي جبلة التابعة لمملكة حلب وبين الاسبتّارية في حصن المرقب واستطاع والي جبلة انزال الهزيمة بهم غير أنّهم اسروا ابنه فارتفعت معنوياتهم وطمعوا في المسلمين [(٣)] . فأرسل الظاهر صاحب حلب عسكره الى حصن المرقب فهدموا احد ابراجه وعادوا الى حلب وأيديهم ملآنة بالغنائم [(٤)] . ورد الصليبيون في طرابلس على ذلك بالاغارة على جبلة واللاذقية في ذى القعدة ٦٠١هـ/١٢٠٥م ، وتمكنوا من استدراج المسلمين والايقاع بهم اذ نصبوا معظم معسكرهم كمينا للمسلمين وامروا فرقه صغيرة من الصليبيين بالتقدم الى جبله وحينما شاهدت حامية جبلة فرقة الفرنج طمعت فيها لقلة عددها ،فطاردوها فخرج عليهم كمين الفرنج وقتلوا من المسلمين جماعة كثيرة وعادوا الى طرابلس بالغنائم والسبى [(٥)] .

---

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصور ص ٤٦١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٦٤ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢٤-٢٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٦٨ .

(٣) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٤٣ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢٩ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٦٥ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢٩ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٦٦ - ١٦٧ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٣٠ - ٣١ .

وتواصلت اعتداءات الصليبيين في بلاد الشام على بلاد المسلمين فأغاروا من حصن الاكراد وطرابلس على حمص ولا سيما في سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٧م ، ويبدو أنهم طمعوا في الاستيلاء على حمص ولم يستطع المجاهد صاحب حمص دفعهم عن مملكته فاستنجد بالظاهر صاحب حلب وغيره من ملوك الشام ، ولم ينجده الا الظاهر حيث أرسل له عسكرا لمساعدته على صد الصليبيين (١).

وازاء ذلك العدوان الصليبي المتكرر لم يجد العادل بدا من القيام بمسؤولياته تجاه المسلمين باعتباره سلطان الدولة الأيوبية ،فخرج من مصر بجيوشه الى بلاد الشام في سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٧م وفي طريقه نازل عكا وطالب حنادى بر يين الوصي على مملكة بيت المقدس بأن يكف عدوان قراصنة الصليبيين في قبرس الذين هاجموا مصر في العام السابق وتعرضوا لبعض سفن الاسطول المصرى في عرض البحر، فأجاب صاحب عكا بأنه ليس في وسعه إعطاء الاوامر لصليبيي قبرس لأنه لا سلطة له عليهم ، وتم توقيع الصلح بين العادل وصاحب عكا الذي اطلق بموجب الصلح سراح الأسرى المسلمين واصبح في مقدور العادل ان يتفرغ للاسبتارية وانصارهم في حصن الاكراد وطرابلس وغيرها (٢).

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٢٧٣ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٢٧٣ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص١٧٢ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص٤٧-٤٨ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٩٥ ؛ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢١٥ ؛سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٠٨ .

ورحل العادل عن عكا وسار الى دمشق ثم خرج منها عازما على الجهاد ،وأرسل يستدعى ملوك بني أيوب لشد أزره والوقوف الى جانبه في مواجهة الصليبيين ،فجاءته العساكر من الجزيرة وبلاد الشام واجتمع عنده زهاء عشرة الاف فارس وعسكروا معه عند بحيرة حمص ،وبعد أن قضى شهر رمضان ٦٠٣هـ/ابريل ١٢٠٧م أشاع انه يريد قصد طرابلس ليباغت الاسبتارية في حصن الاكراد ثم سار اليه وقاتله قتالا شديدا وفتح برجا قريبا منه يسمى أعناز وأخذ منه خمسمائة أسير وأموالا وسلاحا كثيرا.(١)

ثم توجه العادل بجيوشه الى جهة امارة طرابلس الصليبية ،وحاصر إحدى القلاع القريبة منها ونصب عليها المنجنيقات وضربها حتى فتحها واستولى على ما كان فيها من اموال وذخائر ، ورحل عنها الى طرابلس ونازلها وقذفها بالمنجنيقات وضيق على الفرنج بها اشد تضييق ،وهاجمت عساكر المسلمين قرى طرابلس وبساتينها وقطعوا عيون الماء المؤدية الى طرابلس واستمر القتال حتى شهر ذى الحجة سنة ٦٠٣هـ/ يوليه ١٢٠٧م.(٢) ولقد كان في مقدور العادل في هذه الحملة بما توافر له من امكانات مادية كبيرة فتح طرابلس والقضاء على إحدى الامارات الصليبية الهامة في بلاد الشام، ففرسانه بلغوا هذه المرة عشرة الاف فارس إضافةالى مجموعة قيمة من المنجنيقات والات الحصار ،غير أن العادل حسب ما ذكره المؤرخون

---

(١) العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٩١ - ٢٩٢ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١١١ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٧٢-١٧٣ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٤٩ - ٥٠ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٦٦ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٠٧-١٠٨ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ١٦٠.

(٢) العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحه ٢٩٢ ؛الخطيب العمرى :الدر المكنون ورقة ١١١ أ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٧٣ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٥١ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٦٦ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٠٨.

المسلمون لا حظ في اصحابه " فشلا وضجرا "(١) ولم يوضح المؤرخون سبب ذلك الضجر والفشل ، على أن السبب لا يمكن أن يخفى عنا ، فنقطة الضعف التي عانت منها العسكرية الاسلامية زمن الحروب الصليبية تكمن في طبيعة الاقطاع الحربي الذى ساد تلك الحقبة ، فالجنود الذين احترفوا الجندية كانوا كما سبق أن اوضحنا (٢) يمتلكون اقطاعات زراعية وليس لهم رواتب مقررة ، وكانوا يحتاجون الى العودة الدورية الى اقطاعاتهم للعناية بمحصولاتهم والاشراف على تخزينها وبيعها ، ويتضح هذا من أن العادل ادرك الضجر من عساكره في ذى الحجة ٦٠٣هـ/ الموافق لشهر يوليه ١٢٠٧م وشهر يوليه كما هو معروف من اشهر الصيف حيث تنضج فيه معظم الفواكه ، ويبدأ فيه حصاد القمح في بلاد الشام والجزيرة ، ولهذا فمن الطبيعي أن يتقاعس فرسان الأيوبيين بغية الاذن لهم بالعودة لجنى محصولاتهم والاشراف على فلاحيهم . ولذلك عاد السلطان العادل الى حمص وتبادل المراسلات مع صاحب طرابلس الذى بعث اليه بمال وهدايا وثلاثمائة اسير من المسلمين وتم توقيع الصلح بين الجانبين في آخر شهر ذى الحجة سنة ٦٠٣هـ/ يوليه ١٢٠٧م.(٣)

----

(١) العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٩٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٧٣ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ ص ٥١ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٦٦.

(٢) انظر ما سبق الفصل الأول ص : ٦٦ - ٦٧ .

(٣) العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٩٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٧٣ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٥١ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٦٦ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ١٦٠.

ولكن فرسان الداوية والاسبتارية دأبوا دائما على خرق الهدنة مع المسلمين ،فقد ذكر بعض المؤرخين أنهم شنوا الغارة سنة ٦٠٥ هـ/ ١٢٠٨ - ١٢٠٩ م على حمص ووصلوا الى باب تدمر - أحد أبواب حمص - بعد أن مدوا جسرا من الخشب على نهر العاصي و عبروا عليه الى الضفة الشرقية للنهر ،ولكن المسلمين في حمص تصدوا لهم وردوهم على أعقابهم وحازوا أخشابهم وما تركوه من اثقالهم (١) .

ولم تتوقف جموع الصليبيين المتعصبين عن التدفق على بلاد الشام ، ففي سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠ م تحركوا جهة ساحل الشام واحتشدت بعكا اعداد كبيرة منهم ،وشرعوا في شن الغارات على بلاد المسلمين في فلسطين ،فخرج المعظم بن العادل صاحب دمشق للتصدى لهم (٢) .

ولقد اثارت غارات الصليبيين المتكررة حفيظة جمهور المسلمين في عاصمة بلاد الشام دمشق اذ أدت كما يذكر المؤرخ المعاصر سبط ابن الجوزى الى قيام حركة جهاد شعبية ،انطلقت من دمشق للثأر من الصليبيين ، فاجتمع عشرات الالوف من سكان دمشق في الجامع الاموى للاستماع الى موعظة المؤرخ سبط ابن الجوزى التي القاها عن فضائل الجهاد ، وبلغت الحماسة بالمسلمين حدا جعل الكثير من نسائهم يقدمن على قص شعورهن لجعلها شكالات لخيول المجاهدين ، ويقول سبط ابن الجوزى

---

(١) العيني : عقد الجمان ،جـ١٣ لوحة ٣١٤ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٦٧ .

(٢) العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٣٢٧ ؛ الجنابي : البحر الزاخر جـ٢ ورقة ١٨ أ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٥٧ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ١٠٧ .

عن تلك الشعور: " ولما صعدت المنبر أمرت باحضارها فحملت على أعناق الرجال وكانت ثلاثمائة شكال ،فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة وقطعوا مثلها وقامت القيامة ". وخرج سبط ابن الجوزى من دمشق واحتشد المطوعون من سكان دمشق في إثره ووصلت الحماسة بين صفوف سكان دمشق ذروتها حتى أن قرية واحدة من قراها تسمى زملكا انخرط جميع سكانها في صفوف الخارجين للجهاد وذكر ابن الجوزى ان عدد من خرج منها " ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح " وخرجت تلك الجموع من دمشق احتسابا للجهاد في سبيل الله ،ووصلوا الى عقبة فيق " والطير لا يقدر ان يطير خوف الفرنج " وساروا حتى وصلوا الى نابلس فاستقبلهم المعظم عيسى بن العادل ،واجتمع بهم في جامع نابلس ، وأحضروا الشعور بين يديه " فأخذها وجعلها على صدره ووجهه وجعل يبكي وكان يوما عظيما ". وعندما وصلت اخبار تلك الجموع الى الصليبيين في عكا وغيرها من المعاقل تحصنوا داخل اسوارهم وقلاعهم ولم يتجاسروا على الخروج ،فأغار المسلمون على بلادهم وقطعوا أشجارهم ،وقتلوا وأسروا من ظفروا به منهم . ثم سار المسلمون في صحبة المعظم الى الطور حيث استقروا به على بناء قلعة على الطور. ولقد نجم عن هذه الحركة الشعبية أن اشتد الخوف بالصليبيين فراسلوا السلطان العادل يطلبون الصلح فأجابهم اليه .(١)

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٤٤ - ٥٤٥ ؛ وانظر أيضا العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٣٢٧ - ٣٢٨ ؛ ابو شامة: ذيل الروضتين ص٦٩ - ٧٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ص٥٧ - ٥٨ ؛ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ٥ ص ١٨ .

ويمكن أن نستنتج من هذه الحادثة التي أوردها سبط ابن الجوزى الحقائق التالية :

أولا : شعور عامة المسلمين في بلاد الشام بوجوب اقامة فريضة الجهاد التي تصبح فرض عين على كل مسلم قادر وبخاصة وأن العدوان مستمر على بلاد المسلمين من جانب الصليبيين .

ثانيا : رفض المسلمين في بلاد الشام لحالة الجمود التي خيمت على سياسة الحكام المسلمين بعد وفاة صلاح الدين ،حيث توقف زخم حركة الجهاد لتحرير البلاد المغتصبة من أيدى الصليبيين وهي السياسة التي بدأها صلاح الدين وقطع فيها شوطا بعيدا .

ثالثا : استعداد جميع المسلمين في بلاد الشام لتقديم التضحيات وحشد الطاقات وتقديم الغالي والنفيس في سبيل استرداد الحقوق وتصفية الوجود الصليبي الدخيل من بلاد الشام .

رابعا : أظهر المسلمون في دمشق - بهذه الحركة - رفضهم لسياسة المهادنة التي يلجأ اليها ملوك الشام بعد كل اشتباك مع الصليبيين .

وقد استمر الملك المعظم عيسى بن العادل في بناء قلعة الطور على جبل الطور المشرف على طبرية طوال سنة ٦٠٨ هـ/ ١٢١١-١٢١٢م وأنفق في سبيل ذلك أموالا كثيرة حتى غدت قلعة الطور في غاية الحصانة والمنعة . وقد شعر الصليبيون في عكا ويافا وغيرها من مدن ساحل فلسطين ،بخطورة بناء تلك القلعة لأنها تشرف على قلاعهم وحصونهم المقابلة للمسلمين في بلاد الشام ،فسارعوا بطلب الصلح من السلطان العادل وأرسلوا في الوقت نفسه الى الغرب الأوربي يشرحون للصليبيين وللبابا انوسنت الثالث خطورة بناء قلعة الطور ذات الموقع الهام وتهديدها

المباشر للمتلكات الصليبية في بلاد الشام ،و يحثونهم على القيام بحملة صليبية للاستيلاء على هذه القلعة الجديدة ،وهكذا كان بناء قلعة الطور من الأسباب الرئيسة التي أدت الى قدوم الحملة الصليبية الخامسة.(١)

وفي سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م قتل الباطنية(٢) في بلاد الشام ريموند بن بوهيمند الرابع امير انطاكية وطرابلس (١٢٠١-١٢١٦م) بينما كان في كنيسة انطرطوس ،ويبدو أن ذلك كان بايعاز من طائفة الاسبتارية أعداء بوهيمند الرابع ،فاشتد حزنه وغضبه وشن الحرب على بلاد الباطنية

---

(١) سبط ابن الجوزى :مرآة الزمان جـ٨ ص٥٤٥ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصور ص٦٣ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص٧٠ ، تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص١٠٧ ؛ياقوت الحموى : معجم البلدان (مادة طور) ؛محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة ص١٤٦ .

(٢) الباطنية:فرقة من الاسماعيلية الذين يثبتون الامامة في اسماعيل بن جعفر الصادق ،والباطنية لقب من القابهم لقولهم :" ان لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا " وقد أسس حركة الباطنية الحشيشية الحسن بن محمد الصباح الذى سافر من ايران وقابل الخليفةالفاطمي المستنصر ،وتلقى منه أصول الدعوة وعاد الى فارس واستولى سنة ٤٧٣هـ/ على قلعة آلموت التي عرفت باسم عش العقاب لمناعتها وحصانتها . ووضع الحسن الصباح لاتباعه تنظيما دقيقا وقسمهم الى خمس مراتب . وألف كتابا من أربعة فصول ضمنه أهم مبادئ دعوته . وجند فئة من أتباعه عرفت باسم الفدائيين او الحشيشية -لتعاطيهم الحشيش أثناء تنفيذ عملياتهم -وتميزت طائفة الحشيشية بقوة ابدانها وطاعتها العمياء لزعمائها فهم لا يتحرجون عن اغتيال خصومهم بالخناجر مهما كانت النتائج حتى اتخذوا من الاغتيال فنا . وقد ظهر

===

. . . .

=== نفوذهم في بلاد الشام منذ أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ،واستطاع الباطنية خلال النصف الاول من القرن السادس الهجرى / الثاني عشر الميلادى ،السيطرة على العديد من القلاع الحصينة في بلاد الشام مثل مصياف قرب طرابلس والخوابي وغيرها . وبدأوا نشاطهم بعد وصول الصليبيين ، ولعبوا دورا هاما في بذر روح الكراهية بين السكان تجاه الحكام الترك والامراء المحليين الاخرين . واغتالوا بعض زعماء المسلمين والصليبيين في بلاد الشام على حد سواء ،الأمر الذى جعل زعماء الجانبين يقدمون لهم العطايا والأموال إتقاء لشرهم . بل وبلغت الجرأة بالباطنية في بلاد الشام أن حاولوا اغتيال صلاح الدين مرتين الا انهم اخفقوا في ذلك مما جعل صلاح الدين يهاجم قلاعهم سنة ٥٧٢ هـ ،ثم قبل اعتذارهم له وتركهم ليتفرغ لجهاد الصليبيين . انظر: الشهرستاني : الملل والنحل ص١٩٨-٢٠٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص ١٤٦-١٤٧ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص١٤١ - ١٤٢ ، ١٤٩ - ١٥٠ ، ١٩٠ ، ٢٢١ - ٢٢٥ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص٥٢ ،ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص٤١٩ ، ٤٣٠ ، فيليب حتى : تاريخ سورية جـ٢ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ،ابو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية جـ١ ص ٦١ - ٦٢ ، برنارد لويس : الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية) ص٦٣ ، Cahen, La Syrie du Nord , p.191 , Gibb. The Damascus Chronicle of the Crusades, pp.29-30.

في بلاد الشام ،ونازل قلعة الخوابي (١) التي كانوا يتحصنون بها ،وقتل منهم وسبى ، فأرسلوا الى الظاهر صاحب حلب ،يستنجدونه ،فأرسل لهم فرقة عسكرية للدخول الى حصنهم لمساعدتهم في الدفاع عنه ، كما أرسل فرقة من الفرسان الى جهة اللاذقية للضغط على صاحب انطاكية ،ولكن الصليبيين تغلبوا على تلك النجدات التي أرسلها الظاهر ،وقتلوا بعض رجاله وأسروا آخرين . ولما سمع المعظم عيسى صاحب دمشق بتلك الانباء ، سار في عسكره مغيراً على اعمال طرابلس ،فنهب قراها واستاق اغنامها ومواشيها ،واسر الكثير من الصليبيين الذين وجدهم في طريقه . وعند ذلك اضطر الصليبيون الى الانسحاب عن حصن الخوابي ،واطلقوا اسرى الظاهر صاحب حلب وأرسلوا اليه يتلطفونه ويعتذرون عما بدر منهم ازاءه ،وهكذا فشلت حملتهم على بلاد الباطنية بفضل الغارة العنيفة التي شنها المعظم عيسى على بلاد امارة طرابلس الصليبية. (٢)

---

(١) تقع قلعة الخوابي في الاقليم الجبلي على بعد خمسة عشر ميلا الى الشرق من مدينة أنطرطوس التي تقع على ساحل بلاد الشام شمال مدينة طرابلس انظر :

Lestrange, Palestine under the Moslems p.485.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٦٦ - ١٦٧ ؛ رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٢٤٧ .

أثر الحملة الصليبية الخامسة في تاريخ بلاد الشـــام

٦١٤ - ٦١٨ هـ / ١٢١٧ - ١٢٢١م

ظل الصليبيون في الغرب الأوربي يتطلعون دائما الى الاستيلاء على بيت المقدس منذ استعادته على يد صلاح الدين ، حتى أن البابـــا انوسنت الثالث أرسل رسالة الى السلطان العادل يطلب منه التنازل عـــن بيت المقدس ،ويحذره من مغبة الاحتفاظ به ، وظل البابا انوسنـــت الثالث يدعو لحملة صليبية جديدة سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م ،ورغم وفاتــه سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٦م فان خليفته هونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧م) سار على نهجه في الدعوة للقيام بالحملة ،فارسل الى ملك هنغاريا اندريه الثاني (١٢٠٥ - ١٢٣٥م) يدعوه الى القيام بحملته الصليبية التي سبق أن وعد بها ،فوافق على طلبه فبعث البابا الى "حنا دى بريين" ملـك مملكة بيت المقدس يخبره ان الحملة الجديدة على وشك القدوم اليه.(١)

والواقع أن تفكير الصليبيين منذ بداية القرن السابع الهجـــرى / الثالث عشر الميلادى ، اتجه نحو الدعوة الى السيطرة على مصر. اذ آمن الصليبيون بالشام وانصارهم في الغرب الأوربي ،بأن مصر هي مركزالمقاومة الحقيقي في العالم الاسلامي ضد الحركة الصليبية ،وأنه منذ أن نجـــح نور الدين محمود في توحيد مصر والشام في إطار جبهة اسلامية واحـــدة والصليبيون مطوقون بالمسلمين . هذا فضلا عما اثبتته التجارب مـــن أن صلاح الدين اعتمد على مصر ،بمواردها البشرية والمادية الضخمة فـــي

---

(١) رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٢٥٧ - ٢٦٠، وانظر أيضا :
Harold Lamb. The Crusades the Flame of Islam p.240.

الحصول على أدوات الجهاد ،فاستمد منها كل ما احتاجه من قوة ومن رباط الخيل حتى أنزل بالصليبيين الهزيمة الساحقة في حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م واسترد منهم بيت المقدس ، ولم يعد بيد الصليبيين في اواخر عهده سوى بعض مدن الشريط الساحلي من بلاد الشام . لذلك أدرك الصليبيون ان الاستيلاء على بيت المقدس لن يدوم طويلا طالما بقيت مصر الاسلامية بعيدة عن سيطرتهم . بل وستكيل لهم الضربات حتى تستعيد بيت المقدس مرة أخرى ،ولذلك استقر رأيهم على الاستيلاء على مصر لضمان السيطرة الدائمة على بيت المقدس (١) .

ومن هنا يمكن لنا القول:إن الصليبيين أدركوا قوة مصر التي انبثقت اولا من عظمة موضعها حيث الامكانات المادية الضخمة والموارد البشرية الهائلة وقدرتها على مد المجاهدين بما يحتاجونه من أدوات الجهاد ، وانبثقت تلك القوة ثانيا من تفرد موقعها بين القارات الثلاث حيث منحها ذلك الموقع مكانة فريدة وجعل منها قوة رائدة للدفاع عن محيطها الاسلامي . كما جعل منها ذلك الموقع في الوقت نفسه مطمعا لكل القوى المتربصة بالاسلام والمسلمين باعتبارها محور المقاومة الاساسي ، لذلك لا نعجب اذا اتجه تفكير الصليبيين للسيطرة على مصر كيما يدوم استعمارهم للاراضي المقدسة في بلاد الشام .

واذا كان الصليبيون قد ادركوا حقيقة ان مصر اضحت قاعدة ومركزا للقوة الاسلامية شرق البحر المتوسط (٢) . فان المؤرخين المسلمين

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٢٠ - ٩٢١ ؛
Campbell , The Crusades pp.382-383,

(٢) The Cambridge History of Islam p.207.

ادركوا هذا الاتجاه الذى طرأ على تفكير الصليبيين ، اذ يقول المؤرخ ابن واصل ؛ " ولما طالت مدة اجتماع الفرنج بمرج عكا اجتمعوا للمشورة في ماذا يبدأون بقصده ، فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية اولا ، وقالوا : "ان صلاح الدين انما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر ، وتقويته برجالها ،فالمصلحة ان نقصد أولا مصر ونملكها وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن القدس و غيره من البلاد"[(١)].

وبدأت طلائع الحملة الصليبية الخامسة في الوصول الى عكا سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧ م بقيادة اندريه الثاني ملك هنغاريا الذى كان يقود خمسة عشر الف مقاتل كما شارك في الحملة ليوبولد السادس دوق النمسا وهيو الأول ملك قبرس (١٢٠٥ - ١٢١٨ م) . واجتمع الصليبيون في عكا واستقر رأيهم على الاستيلاء على قلعة الطور للأهمية العسكرية التي تمتاز بها وسيطرتها على اقليم الجليل ، ثم التقدم بعد ذلك لاحتلال بقية فلسطين و جميع ما استرده صلاح الدين من الصليبيين قبيل موته[(٢)].

وحين سمع السلطان العادل بوصول طلائع الحملة الصليبية الى عكا (الحملة الهنغارية) خرج مسرعا من مصر لصد هذه الجموع الصليبية الجديدة . ونظراً لأنه كان في قلة من العساكر ،فانه حينماوصل الى الشام تحاشى الاصطدام بالصليبيين ،لأن هزيمته امامهم وهو السلطان سيكون لها آثار سيئة على الموقف الاسلامي برمته ،ولذلك

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥٨ ؛ وانظر ايضا : تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٨٣ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥٤ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص٢١٩ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص٩١٦ - ٢١٧.

فعندما وصل الى بيسان تراجع حتى لا يواجه الصليبيين فسأ له ابنه المعظم عيسى قائلا : " الى اين ؟ فشتمه بالعجمية وقال بمن أقاتل ؟ أقطعت الشام مماليكك وتركت اولاد الناس الذين يرجعون الى الأصول ، وذكر كلاما كثيرا في هذا المعنى "(١) ، كما يذكر ابن الأثير ان العادل لم يشأ ان يلقى الصليبيين فيمن معه " خوفا من هزيمة تكون عليه وكان حازما كثير الحذر ، ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل الى البلاد ويجمع العساكر "(٢) ، ويستنتج بعض الباحثين المحدثين من عبارة ابن الاثير هذه ، ان السلطان العادل لم يكن مستعدا للحرب(٣) . غير أن الامر لم يكن كذلك ،وانما طبيعة تكوين الدولة الأيوبية كانت هي السبب لانها تعتمد في عسكريتها على نظام الاقطاع الحربي ، فبلاد الدولة الايوبية كما هو معروف مقسمة الى اقطاعات بين امراء البيت الأيوبي وغيرهم من القادة العسكريين الذين كان عليهم مقابل تلك الاقطاعات تقديم الخدمة العسكرية للسلطان وقت الحرب ، بمعنى أن الدولة الأيوبية لم تكن ذات جيش كبير دائم التواجد مع السلطان والى جانبه وانما يوجد وقت الحرب فقط ، حتى اذا ما انتهى القتال تعود هذه العساكر الى اقطاعاتها . يضاف الى ذلك أن السلطان العادل فوجيء بوصول الصليبيين الى عكا واندفاعهم الى بيسان بحيث لم يتوفر له الوقت اللازم لاستدعاء العساكر قبيل وصول الصليبيين الى بيسان ،وهو الأمر

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٨٣ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٢ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٨٦ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢١ ؛ وانظر ايضا : ابن واصل مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥٥ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢٢٠ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٩٨ .

(٣) انظر محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص ٨٣ احاشية رقم (٣) .

الذى تحقق في نهاية المطاف وأسهم في فشل الحملة الصليبية الخامسة برمتها .

وعلى أية حال فقد اطمأن اهل بيسان وما حولها بقرب السلطان العادل منهم (١) . غير أنه سرعان ما انسحب مندفعا امام الصليبيين وعبر نهر الاردن قاصدا الصعود نحو دمشق في اواخر شعبان سنة ٦١٤هـ/ نوفمبر ١٢١٧م (٢) . ولقد جاء انسحاب العادل كارثة على اهل بيسان اذ تقدم ملك هنغاريا على رأس قواته اليها " وبها الاسواق والغلال والمواشي شيء لا يعلمه الا الله تعالى فأخذ الجميع " (٣) . ويفهم من هذه العبارة : أنه كان يوجد في بيسان سوق دورى لسكان المنطقة ، تُباع وتُشترى فيه المؤن والمواشي والذخائر وغيرها . ومما يزكي هذا الرأى ان ابن الاثير يقول : " فأخذ الفرنج كل ما في بيسان من ذخائر قد جمعت وكانت كثيرة ، وغنموا شيئا كثيرا " (٤) . ويمكن لنا أن نتصور حجم الكارثة التي لحقت بأهل بيسان اذا ما عرفنا ان غارة الصليبيين كانت في أواخر شعبان ، والمعروف أن الاسواق الدورية في البلاد الاسلامية تبلغ ذروة نشاطها خلال المواسم الدينية ولا سيما قبيل شهر رمضان والعيدين .

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥٥ ؛ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢١ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢٢١ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٨٣ ؛ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢١ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥٥ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٨٣ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٢ .

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢١ .

ولم يقتصر عدوان الصليبيين على بيسان واسواقها بل نهبوا كل المناطق الواقعة ما بين بيسان وبانياس فنشروا سراياهم العسكرية في جميع قرى المنطقة ووصلت غاراتهم الى قرب بلاد السواد الواقعة شرقي طبرية . وحاصروا نابلس ثلاثة أيام ثم عادوا الى مرج عكا و معهم من الغنائم والسبي ما يفوق الوصف ، اضافة الى ما فعلوه باهل تلك المناطق من القتل والحرق والخراب ، وبعد ان اخذوا قسطا من الراحة بمرج عكا ، أغاروا مرة ثانية على مناطق صيدا والشقيف ،ولم يسلم احد من سكان هذه المناطق الاسلامية الا من تمكن من الفرار والنجاة بنفسه (١) .

وانتشرت موجات عارمة من الخوف والقلق بين صفوف المسلمين داخل مدينة دمشق وما جاورها (٢) . وتوقع العادل ان يشن الصليبيون الهجوم على دمشق ،فأرسل الى والي دمشق يأمره بالاستعداد وتجنيد الرجال وتدريب سكان دمشق وقراها على أعمال المقاومة ،وأمر بنقل غلة داريا - أشهر قرى غوطة دمشق - الى داخل القلعة ،وغمر اراضي

---

(١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٧٠ أ ب ؛ العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٣٦٨ ؛الجنابي : البحر الزاخر جـ٢ ورقة ١٨ ب ؛ ابن الاثير: الكامل جـ١٢ ص ٣٢١ - ٣٢٢ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥٥-٢٥٦ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧-١٨ ؛ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢٢١- ٢٢٢ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٩٨ - ٣٩٩ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٨٦- ١٨٧ .

(٢) يورد ابن الاثير قصة في ذلك فيقول : " لما سار العادل الى مرج الصفر رأى في طريقه رجلا يحمل شيئا وهو يمشى تارة وتارة يقعد ليستريح فعدل العادل اليه وحده فقال يا شيخ لا تعجل وارفق بنفسك ،فعرفه الرجل فقال : يا سلطان المسلمين انت لا تعجل فإنا اذا رأيناك سرت الى بلادك وتركتنا مع الاعداء كيف لا نعجل ؟" ويلتمس ابن الاثير العذر للسلطان العادل في انسحابه قائلا : " وبالجملة فالذى فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرق العساكر ،انظر الكامل جـ١٢ ص ٣٢٢ .

الفوطة بالمياه لمنع الصليبيين من التقدم خلالها . ولقد أدت هذه الاجراءات الى اضطراب دمشق ولجوء سكان قرى الفوطة الى داخل المدينة "وغلت الاسعار وعزم الناس على النزوح عن البلد متى تحققوا طلوع الفرنج من الغور ،وكان للناس ضجيج بالجامع في اوقات الصلاة وبكاء ودعاء"(١).

وأرسل العادل ابنه المعظم على رأس فرقة عسكرية الى نابلس للدفاع عن بيت المقدس.(٢) كما أرسل" الى ملوك الشرق مستحثا لعساكرهم"(٣) وكان اول ملوك بني ايوب وصولا الى دمشق المجاهد شيركوه صاحب حمص. الذى ما ان وصلها حتى خرج الدمشقيون لاستقباله واطمأنوا بقدومه وزال خوفهم . وبعد ان اقام بدمشق يوما واحدا غادرها الى مرج الصفر حيث يقيم العادل منتظرا وصول كافة العساكر الاسلامية اليه(٤).

وتجاوز الصليبيون في غاراتهم غور الأردن الى الجولان ،وقرروا أخيرا مهاجمة قلعة الطور ، وقد ساعدتهم ظروف الطقس على مباغتة حامية الطور اذ تقدموا في يوم كان "كثير الضباب ، فما أحس بهم اهل الطور الا وهم عند الباب وقد الصقوا رماحهم بالسور" وكان ذلك في ثاني أيام رمضان ٦١٤هـ/ ١٣ ديسمبر ١٢١٧م. ولكن المسلمين خرجوا من داخل القلعة

----

(١) ابو شامة: ذيل الروضتين ص ١٠١-١٠٢ ؛وانظر ايضا العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٣٦٨ - ٣٦٩ ؛ تاريخ ابن الجزرى ،لوحة ٣٢٥ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ١٩١-١٩٢ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٧٦ ؛الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١١٦.

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٢ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥٦ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢٢٢.

(٣) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٢.

(٤) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٢ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ١٩٢ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٧٦ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٨٧.

وقاتلوهم حتى أبعدوهم الى اسفل جبل الطور ،وعادوا في رابع رمضان وطلعوا جميعا الى الجبل "ومعهم سُلَّمٌ عظيم . . . وألصقوا السلم بالسور"(١) فقاتلهم المسلمون في جرأة وبسالة وتمكنوا من احراق السلم ،ورغم كثافة الصليبيين وقلة عدد المدافعين عن الطور فقد ابدى المسلمون شجاعة فائقة في الدفاع عن الحصن ، واتفقوا على الاستماتة في الجهاد ، لأنهم علموا أن تسليم انفسهم للصليبيين يعني الانتحار لما عرف عن الصليبيين الجدد من روح التعصب والحقد الاعمى ضد الاسلام والمسلمين . وتمكن المدافعون من الحاق أفدح الخسائرفي صفوف الصليبيين ،وقتلوا العديد من زعمائهم واستشهد بعض ابطال المسلمين . ولقد ترتب على صمود المدافعين عن الحصن ،إنسحاب الصليبيين سادس رمضان ٦١٤هـ / ٧ ديسمبر ١٢١٧م قاصدين عكا ،فجاء المعظم بن العادل وصعد الى قلعةالطور ،و خلع على المدافعين وكافأهم على حسن جهادهم . وبذلك فشل الصليبيون في الاستيلاء على حصن الطور الذى كان بناؤه من الاسباب المباشرة للحملة الخامسة .(٢)

وبعد انسحاب الصليبيين قام بطريق بيت المقدس واسقف عكا بتعميد الاطفال الأسرى المسلمين ، وهوأمر يكشف ارتباط التبشير بالفكرة الصليبية بحيث لا يمكن فصلهما عن بعض(٣) كما يكشف ذلك التعميد

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٨٤ ؛ وانظرايضا : ابو شامة ذيل الروضتين ص ١٠٢ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٨٥ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٢-١٠٣ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ١٩٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٧٧ ؛ محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص ١٨٨ .

(٣) محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص ١٨٨ .

ايضا روح التزمت والتعصب الديني لدى الصليبيين وحقدهم العميق تجاه الاسلام والمسلمين .

وبعد أن فشل الصليبيون امام الطور أراد ديونيس ابن اخت ملك هنغاريا أن يستأنف غاراته من جديد ،ولا سيما بعد الغنائم التي حازها الصليبيون في غاراتهم على بيسان وغيرها . وقرر ديونيس مهاجمة المناطق الجبلية الواقعة شرق صيدا ،وقد نصحه صاحب صيدا الصليبي من مغبة الاشتباك مع سكان الجبال ، موضحا له ان هوءلاء السكان رعاة وبلادهم وعرة فرفض ديونيس الاصغاء لنصيحته . فسار ومعه خمسمائة من فرسان الفرنج الى منطقة جزين الجبلية شرقي صيدا ، فاخلى السكان بلدة جزين وكمنوا للفرنج الذين ما ان ترجلوا عن خيولهم حتى فاجأهم السكان وقتلوا اكثرهم " وأسروا ابن اخت الهنكرى " وهرب الباقون يريدون صيدا ،وكان معهم أحد اسرى المسلمين ويدعى الجاموس ،فقال لهم : " أنا اعرف الى صيدا طريقا سهلا أوصلكم اليها ،فقالوا : ان فعلت أغنيناك " فاستدرجهم الى أودية وعرة ومسالك شديدة والمسلمون خلفهم يطاردونهم ويقتلون منهم ويأسرون ، فشعروا ان الجاموس خدعهم وغرر بهم للقضاء عليهم فقتلوه ،ومع ذلك فقد أبيد معظمهم وأسر الكثير ولم يصل منهم الى صيدا سوى ثلاثة أشخاص فقط ،وسيق الاسرى الى دمشق " وكان يوما عظيما "(١).

وفي أواخر سنة ٦١٤هـ/ ١٢٢١ م سار اندريه الثاني ملك بلغاريا عائدا الى بلاده عن طريق البر ، وكانت حملته على بلاد الشام

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٨٥ - ٥٨٦ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٣ .

بلا ثمرات بالنسبة للصليبيين سوى ما قامت به قواته من اعمال تخريبية ، كما توفي هيو الأول ملك قبرص . ثم تشاور حنا دى بر يين ملك الصليبيين بالشام ودوق النمسا وغيرهما من زعماء الصليبيين واستقر رأيهم على تحصين مدينة قيسارية (١) ،وبناء قلعة كبيرة في عثليت (٢) جنوبي جبل الكرمل (٣) ، وهي القلعة التي عرفت باسم " قلعة الحجاج " وبعد اتمام تلك التحصينات عاد الصليبيون الى عكا في انتظار القوات الرئيسة للحملة الصليبية الخامسة (٤) .

غير انه تجدر الاشارة هنا الى أن رحيل ملك هنغاريا ووفاة ملك قبرص لا يعني نهاية الحملة ،لأن حملتهما كانت مجرد مقدمة أو طليعة للحملة الخامسة فقط ، اذ أخذت بعد ذلك جموع الصليبيين تصل تباعا الى بلاد الشام ،ففي اوائل سنة ٦١٥هـ/ مايو ١٢١٨م وصل الى عكا ثلاثون الف رجل من الهنغاريين اتباع الملك اندريه الثاني ويبدو أنها كانت قواته الرئيسة ،وانما سار هو طليعة لها ،وهذا يعني ان الحملة الهنغارية لم تنته برحيله ،كما وصلت الى عكا جموع اخرى من النمساويين والاسكندنافيين وغيرهم (٥) .

---

(١) قيسارية : بلد على ساحل الشام تعد في اعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام سيرا على الاقدام . انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) عثليت : حصن بسواحل الشام يعرف بالحصن الاحمر ،فتحه صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ . انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٣) جبل الكرمل : هو الجبل المشرف على حيفا بساحل فلسطين ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٤) رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٢٦٥-٢٦٦ ؛ محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص ١٩١ - ١٩٣ .

(٥) Lamb.H. The Crusades the Flame of Islam p.242. وانظر ايضا : رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٢٦٧ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٢٤ .

وقد اتصل الصليبيون - المحتشدون في عكا بزعامة حنا دى بريين - بنجاشي الحبشة النصراني وقصدوا من وراء ذلك ان يتعاون معهم في ضرب الاسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة.(١) وعلى الرغم ان محاولة الصليبيين مع ملك الحبشة لم تنجح في تحقيق هدفها الدنيء ،فانها تكشف بجلاء عن الحقد الأعمى المتأصل في نفوس الصليبيين ضد الاسلام والمسلمين ،وتدل أيضا على جهلهم التام بمبادئ الدين الاسلامي الحنيف ، الذى لم يتعرض لكنائس النصارى ومعابدهم بأى سوء منذ ظهور الاسلام . اذ عاش النصارى في أمن وسلام في داخل حدود الدولة الاسلامية طيلة عصورها التاريخية المتتابعة ، ولم يواجهوا أى اضطهاد أو سوء ،لأن المسلمين عاملوهم معاملة حسنة شعارها التسامح والرأفة ، فتركوا لهم الحرية الدينية ، وممارسة شعائرهم بالطريقة التي يرونها ، بل وحتى بعد انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين واسترداد بيت المقدس منهم لم يشأ أن يأخذ بثأر المسلمين منهم جزاء تلك المذبحة المريعة التي ارتكبوها عند دخولهم بيت المقدس سنة٤٩٢ هـ/١٠٩٩م بل لقي أسرى الصليبيين المتعصبين منه كل رحمة وتسامح فسمح لهم بمغادرة القدس إلى صور ، ولم يتعرض لكنائس النصارى او أديرتهم حتى أشاد به المؤرخون الصليبيون أنفسهم(٢) . واضافة الى هذا فان تلك المحاولة التي قام بها الصليبيون

----

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٢٤ .

(٢) عن تسامح صلاح الدين مع اسرى الصليبيين وحسن معاملته لهم انظر تفاصيل ذلك في رسالة الماجستير للزميل عبدالله سعيد الغامدى : استرداد بيت المقدس في عصر صلاح الدين ص ٢٣٨- ٢٤٣ (رسالة ماجستير من جامعة أم القرى ،كلية الشريعة ،قسم التاريخ سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) .

مع ملك الحبشة تشير بما لا يدع مجالا للشك الى انحراف الصليبيين عن مبادئ العقيدة المسيحية الاصيلة التي أرسل بها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام والتي تدعو الى التسامح والسلام مع سائر البشر. وأن ما يعتقده الصليبيون من إنتماء للديانة المسيحية لا يمت للمسيحية الحقيقية بصلة .

وعلى أية حال فقد أقلع الصليبيون بجموعهم الكثيفة من عكا بقيادة حنا دى بر يين قاصدين مصر ،وابحروا حتى وصلوا قرب دمياط حيث يصب احد فروع نهر النيل في البحر المتوسط ،وتقع مدينة دمياط على الضفة الشرقية لذلك الفرع ،فنزل الصليبيون اواخر ربيع الأول ٦١٥هـ/ مايو ١٢١٨ م ونزلوا ببر الجيزة على الضفة الغربية لفرع النيل بحيث صار يفصلهم عن مدينة دمياط فرع نهر النيل. (١)

وكان المسلمون في مصر قد بنوا في مجرى النيل المحاذى لدمياط برجا بالغ التحصين وجعلوا فيه سلاسل حديدية ضخمة لمنع المراكب المعادية من الصعود في نهر النيل الى ديار مصر" ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن أقاصي ديار مصر وأدانيها" (٢) .

وبعد أن استقر الصليبيون ببر الجيزة المقابل لدمياط،بنوا حول معسكرهم سورا ،وحفروا خندقا وشرعوا في قتال اهل دمياط ، واتخذوا

---

(١) الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١١٥ أ ؛ تاريخ ابن الجزرى مخطوط لوحة٣٢٥ ؛ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٣ ،ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥٨ ؛ تاريخ ابن الفرات : ٥ قسم ١ ص ٢٢٧-٢٢٨. ؛ The Cambridge History of Islam p. 207.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٣.

الات ومرمات (١) وابراجا يزحفون بها في المراكب نحو برج السلسلة في محاولات جادة للاستيلاء عليه لكي تدخل سفنهم في مياه النيل ،وكان برج السلسلة مشحونا بالمدافعين المسلمين الذين ما انفكوا يدافعون عنه في شجاعة فائقة . وحينما نزل الصليبيون ببر الجيزة تقدم الملك الكامل الى قرب دمياط على الضفةالشرقية في مكان يسمى "العادلية" (٢) . وتقدمت عساكره على ضفة النهر الشرقية لمنع العدو من العبور اليها .

وظل الصليبيون يقاتلون برج السلسلة زهاء ثلاثة أشهر دون أن يظفروا بشيء بل وكسرت مرماتهم وآلاتهم . بينما ظل السلطان العادل يواصل ارسال النجدات تباعا من بلاد الشام الى ابنه الكامل بثغر دمياط حتى لم يبق معه في بلاد الشام سوى القليل من العساكر وذلك خوفا على مصر من الصليبيين الذين عقدوا العزم على الاستيلاء عليها (٣) .

ولجأ السلطان العادل الى الضغط على البلاد الخاضعة للصليبيين في بلاد الشام ،فأمر ابنه الأشرف موسى ان يهاجم بلاد الفرنج ،فسار بعسكره الى حمص سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ودخلوا منها الى صافيتا (٤)

---

(١) المرمة : نوع من السفن الكبيرة في العصور الوسطى ،يظهر انها من أصل ايطالي ،انظر ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦٠ حاشية رقم (١) ؛ سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ص ٣٦٨ .

(٢) العادلية : قرية قرب ثغر دمياط أسسها السلطان العادل سنة ٦١٤هـ / انظر ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦٠ ؛حاشية رقم (٢) .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥٩- ٢٦١ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ؛محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص ٢١٣ .

(٤) صافيتا : من اشهر حصون الداوية في بلاد الشام وبه برج يسميه الصليبيون القصر الأبيض ويقع الى الجنوب الشرقي من أرواد وتقع كل تلك المناطق على الجبال التي تسمى حاليا بجبال العلويين المشرفة على ساحل الشام الممتد فيما بين اللاذقية وطرطوس .

انظر جوزيف نسيم ،العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ٢٣٥ حاشية رقم (١) وانظرخريطة بلاد الشام في آخر الرسالة ص :٥٩٤

" فخربوا ربضها (١) ،ونهبوا رستاقها (٢) ،وهدموا ما حولها من الحصون" (٣)
ثم تقدموا الى ربض حصن الاكراد فنهبوا ما حوله وحاصروا الحصن حتى أوشك على السقوط بأيدى المسلمين ،غير أن جهد الاشرف ضد الصليبيين سرعان ما تلاشى ،واستنزف في حرب داخلية بين المسلمين ، فبينما كان الاشرف يتقدم في ممتلكات الصليبيين ببلاد الشام و يهدد معقل الاسبتارية في حصن الاكراد إذ داهم مملكة حلب خطر من الشمال من قِبل سلطان سلاجقة الروم كيكاوس بن كيخسرو (٦٠٧-٦١٦هـ / ١٢١٠-١٢١٩م) ، الذى هاجم مملكة حلب طامعا في الاستيلاء عليها و على مملكة الاشرف في منطقة الجزيرة ،الأمر الذى هدد النفوذ الايوبي في بلاد الشام والجزيرة على حد سواء ،وجعل أتابك حلب يستنجد بالاشرف الذى لم يجد بدا من الذهاب الى حلب لصد سلطان سلاجقة الروم واستعادة البلاد التي استولى عليها في شمال الشام وبذلك زال الضغط الذى هدد معاقل الداوية والاسبتارية في بلاد الشام (٤) .

اما السلطان العادل فقد استدعى ابنه المعظم وأوضح له أن بناء قلعة الطور ، كان سببا في قدوم الحملة الصليبية الخامسة و تهديد بلاد

----

(١) الربض : وجمعه أرباض ،وهو ما حول المدينة او البلدة ،انظر ابن منظور: لسان العرب جـ٧ ص ١٥٢ .

(٢) الرستاق : كلمة فارسية معربة جمعها رساتيق ،وهي السواد من النخل والشجر والبساتين . انظر لسان العرب جـ٣ ص ٢٢٤ ، جـ١٠ ص ١١٦ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨٠ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦٥ ؛ وانظر ايضا ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٣٩ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨٠-١٨١ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦٣- ٢٦٨ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٠٩ ،وعن تفاصيل حملة سلطان سلاجقة الروم على مملكة حلب وشمال الشام ،انظر الفصل الرابع ص : ٣٥٢ - ٣٥٦ .

الشام كلها ،وأشار عليه بهدمها وارسال حاميتها الى دمياط لمساعدة المسلمين ،ونقل أسلحة القلعة وذخائرها الى القدس والكرك و عجلون ودمشق ، وقد تلكأ المعظم بادىء الأمر في إجابة طلب والده ،لأن قلعة الطور تابعة لمملكة دمشق التي منحها له ولكن العادل استرضاه بالمال ووعده باقطاعات اخرى في مصر فاستجاب المعظم لطلب والده و هدم قلعة الطور (١).

وظل الصليبيون من جانبهم يشنون الهجمات المتابعة على برج السلسلة حتى تمكنوا اخيرا من الاستيلاء عليه في ٢٩ جماد الاولى ٦١٥هـ/ ٢٤ اغسطس ١٢١٨م ، وقاموا بقطع السلاسل التي كانت تحول دون دخول سفنهم في نهر النيل (٢). ولقد جاء سقوط برج السلسلة خسارة فادحة للمسلمين حتى أن العادل عندما بلغه الخبر ببلاد الشام ، لم يحتمل الصدمة " فدق بيده على صدره ومرض مرض الموت " وتوفي في سابع جمادى الثانية /آخر اغسطس من السنة نفسها (٣). وهو ما يوضح مدى الأهمية

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٩٣ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٠٩ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٧٥ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ،ص ٢٢٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٢٢ .

(٢) العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٣٧٣ ؛ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٤ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص٥٩٣؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ١٩٦ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٢٥ - ٩٢٦ ؛ محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص٢٢٦ ؛ محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر و هزيمته في المنصورة ص ٤٥ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٩٣ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص١١٢ ؛زيادة : حملة لويس التاسع ص٤٦ .

العسكرية لبرج السلسلة الذى اعتبره المعاصرون قفل الديار المصرية.(١)

وقد أدرك السلطان الجديد الكامل بن العادل الخطر الكامن وراء سقوط برج السلسلة ، لذلك أمر باقامة جسر بعرض مجرى النيل لمنع سفن الصليبيين من الدخول الى مصر ،غير ان الصليبيين تمكنوا من قطع الجسر ،فامر الكامل باحضار عدة مراكب وأغرقها في المجرى وتمت إعاقة السفن الصليبية ،ولكن الصليبيون تمكنوا مرة اخرى من تجاوز تلك العقبة ،فعمدوا الى خليج هناك يعرف بالأزرق كان النيل يجرى

----

(١) يقول المؤرخ أبو شامة في ذلك : " وأذكر وانا بدمشق حين بلغ الناس أخْذ برج السلسلة وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة ومنهم شيخنا ابو الحسن السخاوى رحمه الله ورأيته يضرب يدا على يد و يعظم امر ذلك ،وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه فقال هو قفل الديار المصرية . وصدق .. فاني لما رأيته سنة ثمان وعشرين وستمائة -٦٢٨ هـ- بان لي صحة ما أشار الشيخ اليه . وذاك انه برج عال مبني في وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه وفي ناحيته سلسلتان تمتد احداهما على النيل الى دمياط ،والاخرى على النيل الى الجيزة فيمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها اذا أريد ذلك حين قتال العدو ، فهو قفل البلاد بالديار المصرية ، إذا وثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور اليها ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت الى القاهرة و مصر والى قوص واسوان ".
ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٠٩ .

فيه قديما ، فحفروه حفرا عميقا وأجروا فيه الماء الى البحر المتوسط وتمكنت سفنهم من دخول النيل إلى قرب العادلية وبذلك اصبح في امكـــان الصليبيين مهاجمة المعسكر الاسلامي عن طريق البحر. (١)

ولقد شجعت تلك الانتصارات التي أحرزها الصليبيون عند دمياط حامية عكا الصليبية ،فخرجت للاغارة على بلاد فلسطين الا ان المعظم تمكن من الايقاع بها عند القيمون (٢) في جمادى الثانية ٦١٥هـ/ سبتمبر ١٢١٨م وقتل المسلمون معظم افراد الحامية وأسروا من افرادها مئة فارس وأحضروا الى بيت المقدس "منكسة أعلامهم". (٣)

ولكي يصرف المعظم الصليبيين عن مصر رأى ان يلحق نصره السابق بمهاجمة قيسارية فخرج لهدم قلعتها الجديدة ومعه عدد ضخم من الات الحصار ،وتمكن المسلمون من دخول قيسارية ،ودمروها ثم اتجـه المعظم لمهاجمة قلعة عثليت ولكن الداوية تحصنوا وراء أسوارها ،ولم يتمكن المعظم من الاستيلاء عليها فتركها على حالها. (٤) على أن المعظم سرعان ما تراجع عن الضغط على الصليبيين في بلاد الشام ،وعمد بـدلا من ذلك الى هدم قلعتي بانياس وتبنين وكانتا في حوزة المسلمين

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٦ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٩٥ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ص ٩٢٦.

(٢) القيمون : حصن قرب الرملة من اعمال فلسطين انظر ياقوت : معجم البلدان.

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٩٣ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٩ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ١٩٨ ؛سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٢٧.

(٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٠٤ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٧ ؛سعيد عاشور: الحركةالصليبية ص ٩٢٧-٩٢٨.

وأعلن أنه خربهما خوفا من استيلاء الصليبيين عليهما الامر الذى يمنحهم - اذا استولوا عليهما - قاعدتين هامتين يمكنهم عن طريقهما التقدم بسهولة الى بقية بلاد الشام (١). ويبدو انه فعل ذلك بعد أن تلقى استغاثة أخيه الكامل طالبا النجدة ، فقرر الذهاب الى مصر وخشي من سقوطهما بأيدى الصليبيين الامر الذى سيجعل من مهمة استعادتهما امرا بالغ الصعوبة لما عرف عنهما من حصانة حيث كانتا " قفلا للشام " كما يقول الذهبي (٢).

ورحل بعض الصليبيين إلى أوربا بعد الاستيلاء على برج السلسلة بعد ان رأوا أنهم وفّوا بقسمهم الصليبي ، ولكن ذلك لا يعني ضعف موقف الصليبيين أمام دمياط ،فقد وصلت الى الصليبيين المرابطين قبالة دمياط ، في جمادى الاخرة ٦١٥هـ/ سبتمبر ١٢١٨م إمدادات ضخمة من أوربا ، بقيادة مندوب البابا ،الكاردينال بلاجيوس ،الذى اصبح منافسا خطيرا للملك حنا دى برين على قيادة الصليبيين وهوالأمر الذى ساعد في نهاية المطاف على فشل الحملة الصليبية برمتها (٣).

وفجأة تطور الموقف لصالح الصليبيين بسبب المؤامرة التي حاك خيوطها القائد الكردى عماد الدين احمد بن المشطوب ، لعزل السلطان الكامل واحلال اخيه الصغير الفائز بن العادل محله في حكم مصر ومن ثمه سيطرة ابن المشطوب على مقاليد الأمور فيها (٤) واشتد القلق

----

(١) الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١١٥ ب ؛سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٩٧ - ٥٩٨ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٣ .

(٢) الذهبي : العبر جـ٥ ص ٥٣ .

(٣) رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٢٦ - ٩٢٧ ،

Campbell: The Crusades pp.383- 384.

(٤) المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٩٥ - ١٩٦ ؛

Stevenson, The Crusaders in the East.p.304.

بالسلطان الكامل حينما علم بالموءامرة ،ولم يستطع مواجهة المتآمرين لأن ابن المشطوب يسيطر على قطاع كبير من العساكر الاكراد ،وانسحب الكامل ليلا من العادلية وسار الى قرية تسمى أشموم طناح (١) فعسكر عندها ، وحينما اصبح العساكر لم يجدوا السلطان بينهم تفرقوا وتركوا اثقالهم ، فلما وصل النبأ للصليبيين ،اهتبلوا الفرصة وعبروا النيل الى الضفة الشرقية في ٢٠ ذى القعدة ٦١٥ هـ/ ٥ فبراير ١٢١٨ وتقدموا الى العادلية حيث استولوا على كميات ضخمة من الموءن والميرة والاسلحة والذخائر بعد أن اصبح المعسكر الاسلامي خاليا من الرجال ،وبذلك أضحى الصليبيون وجها لوجه أمام مدينة دمياط (٢) .

وعلى الرغم من وصول المعظم الى اخيه الكامل بعد يومين من موءامرة ابن المشطوب وقبضه عليه ونفيه الى الشام ،الا انه كان لانسحاب السلطان واضطراب عساكره واستيلاء الصليبيين على معسكر العادلية ،نتيجة سيئة اخرى على الموقف الاسلامي ، وذلك حينما اجتمعت قبائل العرب الذين لم يكونوا على وعي بطبيعة الحملة الصليبية الخامسة ، فجاءوا ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط " وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا في الافساد ، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج " (٣) . وبعد أن ساعد المعظم أخاه

----

(١) اشموم طناح : او اشمون طناح ، من اقدم القرى المصرية قرب دمياط سماها العرب اشمون الرمان نسبة الى اسمها القبطي ،كما سميت طناح نسبة الى طناح التي كانت معها في كورة واحدة ،وقد ازدهرت في العصر المملوكي وصارت مدينة كبيرة وقاعدة لكورة الدقهلية ، انظر ياقوت : معجم البلدان ؛ابن دقماق : ألانتصار لواسطة عقد ألامصار جـ٥ ص٦٨ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٥ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٩٦ ؛زيادة : حملة لويس التاسع ص ٤٨ ؛ سعيد عاشور : ألحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٣٠ ،

Lanepool, A History of Egypt p.221.

(٣) ابن ألاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

الكامل وتغلب على ابن المشطوب عاد الى بلاد الشام بينما ظل الكامل يكافح الفرنج الذين ظلوا يشددون الضغط على دمياط التي ظلت صامدة بقية سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٩م (١) .

" ولما اشتدت مضايقة الفرنج لثغر دمياط وأشرفت على الأخذ خاف المعظم .. صاحب دمشق أن تصل من البر أمم عظيمة اذا سمعوا بقوة أصحابهم وتمكنوا من الديار المصرية والملك الكامل مشغول بمحاربة من بديار مصر من الفرنج فيقصدون البيت المقدس وهو عامر فيملكونه ولا يمكن بعد ذلك استنقاذه منهم " (٢) . وبناء على هذه القناعة التي توصل اليها المعظم ، قرر تدمير أبراج بيت المقدس وتخريب أسواره وتحصيناته فأرسل إلى أخيه العزيز عثمان بن العادل ومملوكه عز الدين ايبك بالقدس يأمرهما بتدمير الأسوار وتخريب التحصينات " فتوقفا وقالا نحن نحفظه " فأرسل اليهما المعظم يخبرهما ان الفرنج لو أخذوه " لقتلوا كل من كان فيه وحكموا على دمشق وبلاد الاسلام " (٣) ، فشرعوا في تدمير الأسوار وتخريب التحصينات في أول المحرم سنة ٦١٦هـ / ١٩ مارس ١٢١٩م ، ودمروا جميع الأبراج ما عدا برج داود غربي القدس . ولقد ترتب على هذا الاجراء انتشار موجات عارمة من الذعر والفزع والسخط بين سكان

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٩ .
(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص ٣٢ .
(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٠١ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٥ - ١١٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٤٤ ؛ وانظر ايضا العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٣٩٥ - ٣٩٦ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٤٥ ب ؛ السيوطي : اتحاف الاخصا ورقة ١٢٣ أ ب ؛ الاهدل : غربال الزمان ورقة ١٤٥ ب ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٠٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٨٣ ؛ الحريرى : الإعلام والتبيين ص ٩٣ - ٩٤ .

بيت المقدس " ووقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة ،وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ والعجائز ،والشباب والصبيان الى الصخرة والاقصى فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت الصخرة و محراب الاقصى من الشعور" (١).

وبعد هذا الاحتجاج الصارخ خرج سكان القدس هاربين ،وقد تركوا اموالهم وبيوتهم ظانين أن فرسان الفرنج يسيرون في إثرهم ،وتفرقوا أيدى سبأ ، فبعضهم هاجر الى مصر وبعضهم نزح الى الكرك وآخرون لجأوا الى دمشق " ومات خلق كثير من الجوع ومن العطش وكانت نوبة لم يكن في الاسلام مثلها ،ونُهبت الأموال التي كانت لهم بالقدس" (٢) ولم يبق الا القليل من السكان بالقدس ، وقام المعظم بنقل ما كان فيه من المؤن والذخائر وغير ذلك الى حصونه الاخرى مثل الكرك والشوبك ، وقد انتشر الحزن وعم الأسى نفوس المسلمين في بلاد الشام على تدمير اسوار القدس وتحصيناته وهجا الشعراء الملك المعظم (٣).

وهنا يتبادر الى الذهن سؤال هو : هل كان تدمير أسوار القدس وتحصيناته عملا صائبا ؟ الراجح ان ذلك العمل كان خطأ جسيما ارتكبه المعظم ،فالصليبيون لم يستولوا على القدس خلال الحملة

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٠١ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٥ - ١١٦.

(٢) الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٥٣ ب - ١٥٤ أ ؛سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٠١ - ٦٠٢ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٦ ؛ وانظر ايضا ابن ايبك كنز الدرر جـ٧ ص ٢٠٢ ؛ العليمي : الأنس الجليل جـ١ ص ٤٠٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٤٥.

(٣) الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٥٤ أ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٢ ،وانظر نماذج من ابيات الشعر التي قيلت في هدم القدس ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٦.

الخامسة ، كما أن الموقف عند دمياط مازال جامدا بين المسلمين والصليبيين فدمياط كانت ما تزال صامدة وقت تدمير أسوار بيت المقدس . والحق ان مخاوف المعظم من قدوم حشود صليبية كبيرة بهدف الاستيلاء على بيت المقدس ليس لها ما يبررها ، ولا سيما وأن ابراج القدس وأسواره كانت قد بلغت في ذلك الوقت الغاية في العظمة والحصانة والمنعة " فانه من حين استنقذه الملك الناصر صلاح الدين - رحمه الله - من الفرنج ما زالت فيه العمارة قائمة فكان كل برج من ابراجه نظير قلعة " كما يقول ابن واصل (١) . وهذا يعني أن عمارة أسوار وتحصينات وأبراج بيت المقدس ظلت مستمرة زهاء ثلاثين سنة حتى اصبح في إمكان فرقة عسكرية الدفاع عنه في ظل تحصيناته القوية ، كما أن كلا من العزيز عثمان وعز الدين ايبك تكفلا بحمايته لكن المعظم رفض الاصغاء لقولهما ، وكانت النتيجة أنّ سفح في الرمل أموال وجهود ثلاثين سنة ظلت تُنفق في بناء تلك التحصينات وعمارتها . ثم لماذا لم يستفد المعظم من الدرس السابق الذى ضربه عمه صلاح الدين عندما قدمت الى الشام الحملة الصليبية الثالثة وحاول ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا الاستيلاء على بيت المقدس فقام صلاح الدين بتخريب ما حول المدينة المقدسة مثل الرملة وعسقلان وغيرها وتحصن هو ببيت المقدس للدفاع عنها رغم انها كانت في ذلك الوقت ٥٨٧هـ/ ١١٩١م ضعيفة التحصين (٢) . عكس ما وصلت اليه

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٢ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١٨٧ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٤١٠ ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٧١ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٨٤٢ - ٨٤٥ .

زمن الحملة الصليبية الخامسة ، حيث صارت من الحصانة والمنعة ،بما يجعل من عملية الاستيلاء عليها بالقوة أمرا صعبا عسيرا ، ان لم يكن مستحيلا .

أيا كان الأمر فقد استمر الصليبيون في الضغط على دمياط (١) ، بينما قدمت النجدات للكامل من بلاد الشام وعلى رأسها المنصور صاحب حماه والمجاهد صاحب حمص والامجد صاحب بعلبك وغيرهم حتى أن المقريزى يقدر عدد المسلمين بعد وصول النجدات باربعين الف مقاتل (٢) . وهورقم مبالغ فيه الا ان الصليبيين ايضا تلقوا بدورهم امدادات من فرنسا (٣) . كما ظلت كتائب الفرسان والمؤن والاقوات تصل اليهم تباعا من جزيرة قبرص (٤) .

ويبدو ان الكامل خشي إن سقطت دمياط بايدى الصليبيين أن يمنحهم ذلك قاعدة مهمة في مصر مما يهدد القاهرة ذاتها ،ومن أجل ذلك تقدم الى الصليبيين بعرض للصلح وتضمن العرض اعادة بيت المقدس اليهم مع عسقلان وطبرية وكافة الاراضي التي استردها صلاح الدين منهم عدا قلعتي الكرك والشوبك ،وأن يعيد اليهم خشبة الصليب المقدس الذى غنمه المسلمون منهم بقيادة صلاح الدين في معركة حطين سنة٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وذلك كله مقابل جلاءهم عن مصر (٥) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٦ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٠٣ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٣١ .

(٤) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص ٤٠ .

(٥) Lanepool, A History of Egypt p.222, Campbell , The Crusades p.385.

وقد قَبِلَ الملك حنا دى بر يين عرض السلطان الكامل وأيده في ذلك الامراء الفرنسيون ، ولكن المندوب البابوى بلاجيوس رفض العرض وأيده فرسان الداوية والاسبتارية ،والايطاليين الذين لا هم لهم سوى مصالحهم التجارية ،لأن السيطرة على مصر يمنحهم ميزة تجارية فريدة و يعفيهم من الرسوم التي كانوا يدفعونها للأيوبيين مقابل مرور تجارتهم عبر مصر ، ولذلك تطلع بلاجيوس للسيطرة على مصر ،ويبدو انه اتخذ من الاصرار على تسليم الكرك والشوبك ذريعة للمضي في حملته على مصر ، و رفض الكامل التخلي عن قلعتي الكرك والشوبك [(١)] . والحقيقة ان رفض الكامل التنازل عن الكرك والشوبك يعود للأهمية العسكرية لهما اذ ان تسليمهما للصليبيين يعني التخلي تماما عن كل مكاسب صلاح الدين السابقة ، اضافة الى أن تسليمهما الى الصليبيين يفصل الدولة الأيوبية في مصر عن بلاد الشام فصلا تاما و بالتالي يحول دون اتصالهما الأمر الذى يسهل على الصليبيين ضرب كل من القطرين على حدة .

أحاط الصليبيون بدمياط وقاتلوها برا وبحرا ولكي يمنعوا عساكر الكامل من مهاجمتهم أثناء تقدمهم الى دمياط ، حفروا خندقا بينهم وبين المسلمين ،وبعد صمود طويل دام تسعة أشهر ، استسلمت دمياط للصليبيين في ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ/ ٥ نوفمبر ١٢١٩ م ، فدخلوها وحولوا جامعها الى كنيسة وارتكبوا فيها اعمالا قبيحة من السبي والقتل والهتك ، وتفرق سكانها أيدى سبأ [(٢)] .

----

(١) Campbell , The Crusades p.386 ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٣٢ ؛ نظير سعداوى : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ص ٧٣ - ٧٤ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٥ ب ؛ العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٣٩٢ - ٣٩٤ ؛ الاهدل : غربال الزمان ورقة ١٤٥ ب ؛ ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٦ ، ===

ولقد حاول المعظم عيسى بن العادل - بعد سقوط دمياط - حَمْل سكان دمشق والشام على الاشتراك في الجهاد ضد الصليبيين، وربما جال في ذهنه تلك الحماسة الدافقة والرغبة الجامحة في جهاد الصليبيين التي ابداها سكان دمشق سنة ٦٠٧ هـ عندما تزعم المؤرخ سبط ابن الجوزى الحملة الشعبية من سكان دمشق وخروجها الى نابلس لقتال الصليبيين (١). فقد ذكر سبط ابن الجوزى ان الملك المعظم كتب اليه وهو بدمشق يقول له: " قد جرى على دمياط ما جرى وأريد أن تحرض الناس على الجهاد فاني كشفت ضياع الشام فوجدتها الفي قرية منها الف وستمائة أملاك أهلها، وأربعمائة سلطانية وكم مقدار ماتقوم به هذه الاربعمائة من العساكر، وأريد ان يخرج الدماشقة ليذبوا عن املاكهم ... فجلست بجامع دمشق وقرأت كتابه عليهم .. فتقاعدوا فكان تقاعدهم ثمنا لأخذه الثمن والخمس من أموالهم" (٢) ولم يبين لنا سبط ابن الجوزى سبب ذلك التقاعد. والحق أننا لا نستطيع تفسير هذا التقاعد المناقض لتلك الحماسة التي ابداها سكان دمشق سنة ٦٠٧ هـ، الا بانهيار الروح المعنوية بين صفوف المسلمين وبخاصة سكان بلاد الشام

=== ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٢-٣٣ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٦ - ١١٧ ؛ الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١١٩- ١٢٠ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٧٢٤ - ٧٢٥ ؛ خاشع المعاضيدى وآخرون : الوطن العربي والغزو الصليبي ص ٢٠٤- ٢٠٥ ،

The Cambridge History of Islam, p.208.

(١) انظر ما سبق ص : ٢٤٣- ٢٤٤ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٠٤ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٧ .

في هذا الوقت ، ولا سيما بعد أن اصبح التتر يضغطون على بلاد المسلمين من الشرق بينما يهددهم الصليبيون من الغرب بل ويهددون مركز القوة الاسلامية وقلبها في مصر وبلاد الشام ، وقد عبّر المؤرخ ابن الاثير عن وضع المسلمين المعنوي بعد سقوط دمياط أصدق تعبير حين قال : " وأشرف الاسلام وأهله على خطة خسف في شرق الأرض وغربها : أقبل التتر من المشرق حتى وصلوا الى نواحي العراق وأذربيجان وأران وغيرها ،وأقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دمياط من الديار المصرية مع عدم الحصون المانعة بها من الأعداء ،وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على ان تُملك ،وخافهم الناس كافة ،وصاروا يتوقعون البلاء صباحا ومساء "(١) .

وكيفما كان الأمر فبعد استيلاء الصليبيين على دمياط ، شرعوا في بث سراياهم في المناطق المجاورة لها " ينهبون ويقتلون " وبدأوا في عمارة دمياط وتحصينها " وبالغوا في ذلك حتى أنها بقيت لا ترام " ولم يقتصر الموقف على ذلك ، بل إن الصليبيين في الغرب عندما سمعوا بانتصار اخوانهم في دمياط " اقبلوا اليهم يهرعون من كل فج عميق ،واصبحت دار هجرتهم "(٢) .

اما السلطان الكامل فقد انسحب - عقب سقوط دمياط - جنوبا وعسكر في مكان سمي فيما بعد بالمنصورة وتقع الى الشرق حيث يتفرع النيل هناك إلى فرعين يذهب أحدهما إلى دمياط والاخر الى اشموم طناح ،وعسكر الكامل هناك ، حيث وفر له ذلك المكان حصانة عسكرية

---

(١) ابن الاثير: الكامل جـ١٢ ص ٣٢٧ .

(٢) المصدر نفسه جـ١٢ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

هامة كان لها ابلغ الأثر في انزال الهزيمة بالحملة الصليبية الخامسة والسابعة بعدها (١).

وتابع الكامل إرسال الرسائل الى اخويه المعظم صاحب دمشق ، والاشرف صاحب الجزيرة وارمينية وديار بكر يحثهما للاسراع بنجدته . والحق فلقد قدّم المعظم كل ما وسعه ،كما رحل الى اخيه الأشرف بالجزيرة يحثه على مد يد المساعدة للكامل . لكن الأشرف اعتذر لأنه كان مشغولا - وقتذاك - بتمرد زعماء الجزيرة عليه وخروجهم على طاعته ، مما لم يمكنه في هذا الوقت من تقديم المساعدة الفعالة للكامل ، فقبل المعظم عذره وعاد الى بلاد الشام (٢).

وفي هذه الأثناء يتغير الموقف داخل المعسكر الصليبي فيتعرض للضعف ،بسبب ما حدث بين الصليبيين من انقسام عقب استيلائهم على دمياط ،مما جعل حنا دى بريين يعود الى الشام تاركا المندوب البابوى بلاجيوس قائدا وحيدا للصليبيين في دمياط لمدة عام كامل ٦١٧هـ/ ١٢٢٠ - ١٢٢١م دون القيام بعمل عسكرى ذى أهمية ،كما كان لانغماس الفرسان - خلال فترة الركود تلك - في الفسوق والفجور وارتكاب المعاصي والأعمال القبيحة (٣) ، من الأثر ما ساعد المسلمين على تنظيم صفوفهم و تجميع قواهم

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص٣٣ ؛ محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص٣٣٨ - ٣٤٠ ،

Lanepool , A History of Egypt, P.223.

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٣٢٧ ،وعن نزاع الاشرف مع زعماء الجزيرة انظر ،ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٣٧ - ٣٤٧ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص٧٠-٧٧ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٣٦ - ٩٣٧ ؛ محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص٣٤١-٣٥٩ .

من جديد ، فتمكن الاشرف خلال تلك المدة من توطيد نفوذه في اقليم الجزيرة ودخل زعماؤها في طاعته ،وعندئذ أرسل الكامل الى اخويه الاشرف والمعظم يطلب قدومهما لنجدته (١) .

سار المعظم الى الاشرف بالجزيرة واصطحبه مع عساكره الى الشام وقررا المضي الى مصر لتقديم المساعدة لاخيهما الكامل وحسم الموقف مع الصليبيين . وحين وصولهما الى الشام استدعى الاشرف عسكر حلب ، كما انضم اليه عسكر حماه بقيادة الناصر قلج ارسلان وعسكر حمص وعسكر صاحب بعلبك وغيرهم من امراء الشام ، وتقدم الاشرف بعساكر الشام والجزيرة قاصدا مصر ، وسار اخوه المعظم في إثره ، فوصل الجميع الى مصر في جمادى الاخرة سنة ٦١٨هـ/ يوليه ١٢٢١م (٢) .

وكان الصليبيون قد تلقوا نجدة بقيادة لويس دوق بافاريا في جمادى الاولى سنة ٦١٨هـ/ يونيه ١٢٢١ م كما عاد اليهم من جديد حنا دى بريين صاحب عكا ،وقرر بلاجيوس الزحف بجموع الصليبيين إلى القاهرة للاستيلاء عليها (٣) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٣٢٨ .

(٢) الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٥٢ أ ؛ العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٤١٨ ؛ ابن دقماق ،الجوهر الثمين ، ورقة ٤٣ ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص٦١٩-٦٢٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٩٤ - ٩٥ ؛ ابو شامة: ذيل الروضتين ص١٢٨-١٢٩ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٣٧ ؛رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

ولقد أدى وصول النجدات إلى الكامل الى رفع الروح المعنوية لدى المسلمين بحيث يمكن تشبيه هذا الحشد الاسلامي بذلك الذى توافر لصلاح الدين حين قام بمحاصرة عكا (١) . وتمخض عنه تعديل ميزان القوى لصالح المسلمين ،واستقر رأى الكامل واخيه الاشرف على الزحف الى أحد فروع النيل ويسمى بحر المحلة وقاتلوا الصيبيين و تقدمت شواني (٢) المسلمين واشتبكت مع شواني الفرنج فغنموا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال والأموال ،وفرح المسلمون بذلك " واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم ،واستطالوا على عدوهم " (٣) .

و يبدو أن السلطان الكامل بلغه نبأ تعهد الامبراطور فردريك الثاني (١٢١٢-١٢٥٠م) ملك الامبراطورية الغربية المقدسة بالقدوم للاشتراك في الحملة ،ولا سيما وأن فردريك امر لويس دوق بافاريا ان لا يقوم بهجوم كبير الا بعد ان يصل في إثره (٤) . ولذلك لم يفتر الكامل بالامدادات التي وصلت اليه خشية وصول فردريك الثاني ، فتقدم بعرضه

----

(١) Lanepool, A History of Egypt, p.223.

(٢) الشواني : مفردها شيني : من اقدم السفن ،وكانت اهم قطع الاسطول الروماني وفي العصور الوسطى كانت من اهم القطع التي يتألف منها الاسطول الاسلامي ،وكانت اكبر السفن واكثرها استعمالا لحمل المقاتلين ،وكانوا يقيمون فيها ابراجا وقلاعا للدفاع والهجوم ، وكان متوسط ما يحمله الشيني الواحد مئة وخمسين رجلا و يجدف بمائة مجداف . انظر سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ص ٣٥٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٩ ،ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٩٥ .

(٤) رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ ،
The Cambridge History of Islam, p. 208.

لاجراء الصلح مرة اخرى ، ويذل للصليبيين تسليمهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية ، وجميع ما فتحه صلاح الدين من ساحل الشام ما عدا الكرك والشوبك . مقابل جلاء الصليبيين عن مصر وإعادة دمياط . غير ان الصليبيين بزعامة بلاجيوس رفضوا العرض وأصروا على تسليم الكرك والشوبك . ودفع ثلاثمائة الف دينار لتعمير اسوار بيت المقدس ومن الواضح ان بلاجيوس تشدد بغية الحيلولة دون قبول شروطه بعد ان توهم ان الطريق الى القاهرة اضحى سالكا أمامه (١) . ولا سيما بعد ان لمس مدى الحماس الطاغي الذى يعتلج في نفوس الصليبيين الجدد الذين أتوا اخيرا من أوربا (٢) .

وتقدم الصليبيون وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات هي بحيرة المنزلة وبحر اشموم - احد فروع النيل - و فرع دمياط غربا ، وأمامهم جنوبا رأس المثلث حيث يتفرع النيل الى الفرعين السابقين (٣) . وكان الغرور قد بلغ بالصليبيين درجة مفرطة بحيث لم يأخذوا معهم من الميرة " ما يقوتهم عدة ايام ظنا منهم ان العساكر الاسلامية لا تقوم لهم وأن القرى والسواد جميعه يبقى بايديهم يأخذون منه ما أرادوا من الميرة ، لأمر يريده الله بهم " (٤) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٩٥ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٢٠٩-٢١١ ؛ Campbell, The Crusades p.398 ، ويذكر المقريزى ان المبلغ الذى طلبه الصليبيون خمسمائة الف دينار ، انظر المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٠٧ .

(٢) Stevenson , The Crusaders in The East, p.305.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٤١ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٣٨ ؛ محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، خريطة رقم ٦ .

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٩ .

وكان السلطان الكامل قد أعد خططه ،فعبرت فرقة من عساكر المسلمين الى الارض التي عليها الصليبيون " ففجروا فجوة عظيمة في النيل ،وكان ذلك في قوة زيادته "(١) وحدد المقريزى ذلك بأول ليلة من شهر توت - رجب ٦١٨هـ/ اغسطس ١٢٢١ م - وهو وقت ارتفاع الفيضان وشدة حرارة الصيف " والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر ولا بأمر النيل "(٢) وغمرت المياه كل الارض التي يقيم عليها الصليبيون ، ولم يبق لهم غير جهة واحدة ضيقة يسلكونها ،فنصب الكامل الجسور على النيل وعبرت العساكر واستولوا على الطريق الذى سوف يسلكه الصليبيون في عودتهم الى دمياط . وهكذا احيط بالصليبيين فوقعوا في مأزق صعب ،وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ،وطوقتهم عساكر المسلمين من كل ناحية يرمونهم بالسهام ويضيقون عليهم الخناق (٣) . ووصل في هذه الاثناء مركب عظيم يسمى مرمه ، وحولها عدة حراقات (٤) تحميها وجميعها محملة بالمؤن والسلاح للصليبيين فاشتبكت معها شواني المسلمين وظفروا بالمرمة ، وما معها من الحراقات واخذوها غنيمة ، الامر الذى حطم معنويات الصليبيين " ورأوا انهم قد ضلوا الصواب بمفارقة دمياط في أرض يجهلونها "(٥).

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٩٦.

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٠٧.

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٢٣٠ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٩٦ ، ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٢٩.

(٤) الحراقة : جمعها حراقات وحراريق وهي سفن بها مرامي للنيران وقيل هي المرامي نفسها ، ومهمتها رمي النار على الاعداء . انظر سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ص٣٣٩ - ٣٤٠.

(٥) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٣٢٩ - ٣٣٠ ؛ وانظر ايضا ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٩٦.

وبعد أن ايقن الصليبيون انه لم يعد في مقدورهم القتال في أرض موحلة ،ولا سيما بعد ان بلغت المياه الى ركبهم ،وليس في امكانهم الانسحاب في أمان ، وانهم معرضون للهلاك ، ارسلوا الى السلطان الكامل يطلبون الصلح ، فعرضوا عليه استعدادهم للجلاء عن دمياط وكل أرض مصر ، مقابل السماح لهم بالخروج سالمين ، فأجابهم السلطان الكامل الى طلبهم ،ورفض مشورة اخويه المعظم والاشرف بالاجهاز عليهم . وطلب الكامل منهم إرسال رهائن من ملوكهم حتى تسليم دمياط ، فأرسلوا اليه عشرين من زعمائهم وعلى رأسهم حنا دى بريين صاحب عكا ، والمندوب البابوى بلاجيوس ،وبعث الكامل مقابل ذلك ابنه الصالح أيوب وبعض خواصه . وفعلا انسحب الصليبيون الى دمياط واخيرا تم جلاؤهم عنها ، وتسلمها المسلمون في ٩ رجب سنة ٦١٨ هـ / ٧ سبتمبر ١٢٢١م.(١)

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٦ أ ب ؛ الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٥٢ ب - ١٥٣ أ ؛ العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٤٢٠ - ٤٢٣ ؛ ابو الفدا : التبر المسبوك حوادث ٦١٨ هـ مخطوط ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١١٨ أ ب ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٣٠ - ٣٣١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٩٧ - ٩٩ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٢١١ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٠٧ - ٢٠٩ ؛ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ؛ الحريرى : الاعلام والتبيين ص ٩٤ - ٩٥ ؛ نظير سعداوى : الحرب والسلام ص ٧٩ ،
The Cam bridge History of Islam, p.208.

ورحل الصليبيون الى أوربا بينما عاد الملك حنا دى بـريين برجاله الى الشام بعد ان عقد مع السلطان الكامل هدنة مدتها ثمان سنوات على ان يطلق كل من الجانبين أسرى الجانب الاخر[١] . واحتفل الكامل واخوته باسترداد دمياط، وفشلت الحملة الصليبية بفضل اتحادهم وتعاونهم ،ومدحهم الشعراء بهذه المناسبة[٢] .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٠٩ ؛

Stevenson , op.cit.p.307.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٠٠-١٠٥ ؛ الصفدى : الوافي بالوفيات جـ١ ص ١٩٦ - ١٩٧ ؛ اليافعي : مرآة الجنان جـ٤ ص ٣٩ .

خلفاء السلطان العادل وموقفهم من الصليبيين

٦١٨ - ٦٤٢ هـ

أسهم التعاون بين أبناء العادل الثلاثة في إفشال الحملة الصليبية الخامسة ،وتم شرح الدور الذى لعبه المعظم بن العادل صاحب دمشق في الضغط على الصليبيين في بلاد الشام خلال هجوم الصليبيين على مصر ، ومما هو جدير بالذكر في هذا المجال ذلك الدور الذى قام به المعظم في التجسس على الصليبيين ،لما له من أهمية وطرافة في الوقت نفسه. فقد ذكر الصفدى ان المعظم تنكرفي زى زيات - بائع زيوت - ودخل الى عكا للاطلاع عن كثب على تحركات الصليبيين واستعداداتهم ،ورهن خاتمه عند صاحب حانوت ثم عاد الى دمشق ، وأرسل الى صاحب عكا حنا دى بريين - يخبره بذهابه الى عكا " وأمره أن يفك خاتمه ،فقامت قيامته وكاد يموت غيظا".(١)

أما المؤرخ المعاصر سبط ابن الجوزى فقد ذكر ان المعظم كان في أيام الحرب ضد الصليبيين " يرتب النيران على الجبال من نابلس الى عكا وعلى جبل قريب منها يقال له الكرمل كان عليه المنورون وبينهم وبين الجواسيس علامات "وكانت استخبارات المعظم حتى في عكا ذاتها ، اذ جند بعض نساء الفرنج ،للعمل في خدمته ،وكانت طاقات بيوتهن تفتح قبالة جبل الكرمل ، فاذا قرر الفرنج شن الغارة على المسلمين تفتح المرأة - التي تعمل مخبرة للمعظم - الطاقة ،واذا كان عدد فرسان الغارة مئة ، توقد المرأة شمعة واحدة واذا كانوا مئتين توقد شمعتين وهكذا (٢). وكان أولئك النسوة يعطين اشارات متفقاً عليها

---

(١) الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٥٣ أ.

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٤٦.

للجهة التي سوف يقصدها الصليبيون . وكان المعظم يعطيهن جزاء خدماتهن تلك اموالا كثيرة وهدايا قيمة حتى ان صديقه المؤرخ سبط ابن الجوزى انتقد إسرافه في إعطاء الأموال بكثرة للجواسيس ،فاخبره المعظم ان تلك الأموال التي يدفعها لا تُقارن ابدا بما يمكن أن يحدث للمسلمين لو لم يتجسس على الصليبيين ويعلم تحركاتهم . وضرب المعظم مثالا على ذلك حينما قرر الامبراطور فردريك الثاني ان يقوم بحملته الصليبية زمن الحملة الخامسة ،فبعث بأحد فرسانه الى الشام ليوافيه بالاخبار ،وامره بكتمان الخبر حتى ينزل الامبراطور فجأة الى الشام ، اثناء انشغال الايوبيين بالحملة الخامسة على مصر ،الامر الذى سوف يمكنه من المسير الى عاصمة الشام دمشق . واستطاعت امرأة صليبية تعمل لحساب المعظم كشف أمر ذلك الفارس الذى ارسله الامبراطور ،واخبرت المعظم بذلك ،فارسل لها ثيابا من الحرير و عنبرا وأشياء اخرى ثمينة وأوعز اليها بجمع كل أخبار ذلك الفارس . وتمكنت تلك المرأة من استدراجه حتى وثق بها ، وصار يطلعها على رسائل الامبراطور، فتقوم هي بدورها باخبار المعظم بذلك ،وتمكن المعظم من معرفة نوايا فردريك الثاني وخططه ، و يضيف المعظم في رده على سبط ابن الجوزى حين اتهمه بالاسراف قائلا : " فلو لم أدار عن المسلمين ، فلو جاء الانبرور [الامبراطور] وساق أهل الشام ومواشيهم وأموالهم ما لا يعد ولا يحصى ، فانا أفدى المسلمين بالشىء الكثير ،واحفظ الخطير بالحقير "(١)

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٤٦ - ٦٤٧ ؛ وانظر أيضا اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٨ أ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢٨٠ .

ولم تقتصر جهود المعظم على استطلاع اخبار الفرنج بالشام فحسب ، بل تعدت ذلك الى الغرب الاوربي مصدر الحملات الصليبية المتلاحقة ضد بلاد المسلمين ، فقد ذكر سبط ابن الجوزى أن والي الشوبك - ويدعى سعد الدين بن مسعود - أخبره أنه كان يوجد بولايته راهب نصراني منصرف للعبادة في بيعته باحد الجبال قرب الشوبك ،فجاء كتاب المعظم الى الوالي يامره بنفي ذلك الراهب ،فنفاه فغاب مدة سنة ثم عاد الى الشوبك بكتاب من المعظم يأمره بالاحسان اليه وإعادته الى صومعته والعناية باموره ،وبحث الوالي عن سبب نفيه وعودته بعد سنة مكرما ، فاتضح له ان المعظم جنّد الراهب ،وأرسله الى جزر البحر المتوسط ليكشف له اخبار الامبراطور فردريك الثاني " وانما نفاه حتى لا يُتهم واطلق له أرضاً يعيش منها وأعطاه مائة دينار "(١) . ويتضح من كل هذا دهاء المعظم الذى لم يستخدم المسلمين في أعمال الجاسوسية بل عمد الى تجنيد العملاء من الصليبيين وبعض رجال الدين النصارى للقيام بهذه المهام وذلك لكي لا تحوم الشكوك والشبهات حولهم الامر الذى يتيح لهم العمل بحرية تامة ، حيث يستطيعون الوصول الى كل المناطق الهامة والحساسة من المعاقل الصليبية التي يصعب أن يصل اليها الجواسيس من المسلمين .

على أن جهود المعظم ضد الصليبيين لم يكتب لها الدوام بسبب الخلاف الذى دب بينه وبين اخويه الكامل والاشرف ،واحتدم ذلك الخلاف وتفاقم حتى وصل مرحلة بالغة الخطورة ، فتحالف المعظم مع

----

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٤٧ ؛ وانظر ايضا اليافعي جامع التواريخ المصرية ورقة ١٨ أ ؛ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٨٠ .

جلال الدين الخوارزمي أقوى ملوك المسلمين في ذلك الحين وأصبح الكامل مهددا ،ولم يجد من الحكام المسلمين من يقف الى جانبه لمواجهة تحالف أخيه المعظم مع الخوارزمي ، وخشي الكامل أن يهاجم الخوارزمي ممتلكات اخيه الاشرف في الجزيرة ثم يمتد خطره على الدولة الايوبية في مصر والشام (١) . ولذلك قرر الاستعانة بالامبراطور فردريك الثاني امبراطور الامبراطورية المغربية المقدسة . كرد فعل على تحالف اخيه المعظم مع جلال الدين الخوارزمي و للضغط على المعظم لكي يتخلى عن حليفه ويعود الى طاعته من جديد باعتباره سلطان الدولة الأيوبية ،فأرسل الكامل فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ إلى الامبراطور فردريك الثاني يطلب منه القدوم الى عكا ، ووعده ان يعطيه بيت المقدس و بعض فتوح صلاح الدين . وجميع هذه البلاد التي عرض الكامل تسليمها كانت داخلة في مملكة المعظم صاحب دمشق (٢) .

والحق ان الامبراطور فردريك الثاني كان قد وعد منذ زمن مبكر ٦١٢هـ/ ١٢١٥م بالقيام على رأس حملة صليبية ، ولكن تبين فيمابعد أن الامبراطور غير مستعد لاظهار وعده الى حيز الوجود على الرغم من المطالبات المستمرة لثلاثة من البابوات له بتنفيذ وعده (٣) . وفي

----

(١) عن الخلاف بين المعظم واخويه الكامل والاشرف واسبابه وتطوراته ، انظر ما سبق الفصل الثاني ص: ١٢٣- ١٣٥ .

(٢) اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ورقة ١٤ ب ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٠٦ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢١ ؛

Conder, The Latine Kingdom of Jerusalem, p. 312, Stevenson, op.cit. p.310.

(٣) Painter, A History of the Middle Ages, p.217

سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م تزوج فردريك الثاني من يولاند ابنة حنا دى بريين الوريثة الشرعية لمملكة بيت المقدس ،وبذلك اضحى لدى الامبراطور حافز شرعي للقيام بحملته الا انه ظل -مع ذلك- متقاعسا عن بدء رحلته الى الاراضي المقدسة ، الامر الذى جعل البابا جريجورى السابع (١٢٢٧-١٢٤١م) يصدر ضده قرار الحرمان سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م.(١)

على أى حال ، فقد جاء عرض الملك الكامل تسليم بيت المقدس وبعض مدن الساحل الى فردريك الثاني في صالح الاخير الذى وجد في ذلك العرض فرصة سانحة يجب اقتناصها لتسوية الخلاف مع البابوية ولا بطال اية حجج تتذرع بها ضده (٢) ،فبادر بتلبية طلب الكامل

---

(١) Painter. Ibid. p. 217 : وجدير بالملاحظة هنا أن الازمة الناشبة بين الامبراطور فردريك الثاني والبابوية لم يكن سببها تقاعسه عن القيام بحملته الصليبية وانما يعود اصلا الى النزاع الطويل الذى دار بين البابوية والامبراطورية في غرب أوربا من أجل السيادة العليا على العالم المسيحي . وعن ذلك النزاع وأدواره ونتائجه - راجع : سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى جـ١ ص ٣٢٨ - ٣٩٤ ; Painter,op.cit.pp276-288

(٢) يرى بعض الباحثين المحدثين ،انه ربما تكون اخبار حملة فردريك المنتظرة قد وصلت الى اسماع الكامل الذى ادرك ان الامبراطور بهذه الحملة سيقع في عداء مع المعظم صاحب دمشق وبيت المقدس ، لذلك فان الكامل رأى ضرورة الاتفاق مع فردريك على تسليمه بيت المقدس ليتفادى وقوع حرب صليبية جديدة . انظر حامد زيان : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ابان الحروب الصليبية (رسالة دكتوراه قدمت بجامعة القاهرة ولم تطبع) ص ١٢٣ . لكن من الصعب التسليم بهذا الرأى ، لان

===

وأرسل له هدية قيمة تضمنت تحفا نادرة وبعض الخيول التي كان من بينها فرس الامبراطور نفسه فضلا عن بعض الجواهر (١) .

فلما وصل مبعوثه الى مصر أمر السلطان الكامل بالاحتفاء بمقدمه وترتيب الاقامات له في الطريق من الاسكندرية الى القاهرة ، حتى اقترب من القاهرة ،تلقاه بنفسه ،واكرمه ،وأنزله في دار الوزير صفي الدين بن شكر ،وبعث الكامل الى ابن اخته العزيز صاحب حلب بثلاثة افراس من هدية الامبراطور بينها فرسه وبعض مراكب الذهب وغيرها . وأمر السلطان بالرد على هدية الامبراطور باضعافها من تحف الهند واليمن والشام والعراق وسروج الذهب ،وأمر بجعل احد السروج مرصعا بالجواهر بما قيمته عشرة الاف دينار مصرية وبعث بها مع احد اصحابه ويدعى جمال الدين اسماعيل بن منقذ الشيزرى (٢) .

=== استدعاء الكامل لفردريك ،وكما اوضحنا آنفا ، كان سببه الخلاف الذى نشب بينه وبين المعظم وتحالف الاخير مع الخوارزمي بحيث اصبح الكامل في عزلة وبات نفوذه مهددا ولم يجد من القوى الاسلامية المعاصرة من يستطيع الوقوف الى جانبه ومواجهة تحالف أخيه مع الخوارزمي ، فلم يجد امامه سوى فردريك الثاني . وليس معنى ذلك ان الكامل كان مصيبا في توجهه للتحالف مع عدو لدود للاسلام والمسلمين ، يستعين به على اخيه المعظم والخوارزمي وهم مسلمون مثله ، فلا شك ان ذلك خطأ جسيم منه ،وللمزيد من البراهين على صحة هذا التحليل ،انظر ما سبق ص١٢٣- ١٣٥ .

(١) ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص١٤٨ - ١٤٩ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢٣ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص١٤٨ - ١٤٩ ، وحاشية رقم (٢) نقلا عن ابن الفرات ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢٣ ؛ حامد زيان : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ابان الحروب الصليبية ص١٢٦ .

ومن الواضح ان الامبراطور فردريك الثاني كان على معرفة تامة بالقوى الاسلامية الموجودة في بلاد الشام . فقد ذكر ابن نظيف الحموى في حوادث سنة ٦٢٤هـ أن رسول الامبراطور وصل الى الاسماعيليه بالحصون الشامية حاملا معه جواب رسالة الاسماعيلية التي كانوا قد بعثوها اليه ومع الرسول هدية لهم بما قيمته ثمانون الف دينار ،وكان هدف الامبراطور من تلك الهدية العمل على تحييد الاسماعيلية لكي لا يقفوا ضده ويحاولون اغتياله ،فبعث زعيم الاسماعيلية بالشام بقميصه الى الامبراطور كعنوان امان له حين قدومه الى الشام (١) . غير ان الاسبتارية لم يرضوا بتلك العلاقة الوطيدة بين الامبراطور والاسماعيلية ،ولا سيما وأن فردريك محروم من الكنيسة ،في الوقت الذى كانت فيه الاسبتاريه من أشد طوائف الصليبيين ولاء للبابوية ، لذلك عمد فرسان الاسبتارية الى محاولة إفساد العلاقة بين الامبراطور والاسماعيلية فبعثوا اليهم يطلبون الاتاوة فرد الاسماعيلية بقولهم : " ملككم يعطينا وانتم تأخذون منا ،ومنعوهم " وعند ذلك شن الاسبتارية الغارة على الاسماعيلية " واخذوا من بلدهم جملة " (٢) .

وحاول الامبراطور فردريك الحصول على موافقة الملك المعظم على تسليم القدس وغيرها من البلاد ، فبعد ان فرغ مبعوثه من السلطان الكامل ذهب الى دمشق وقابل المعظم مطالبا بتسليم البلاد التي عرضها الكامل ، فغضب المعظم وخاطب رسول الامبراطور فردريك قائلا : " قل لصاحبك ما أنا مثل الغير ماله عندى سوى السيف " (٣) .

---

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٥١ .

(٢) ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص ١٥١ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٤ ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ص ٦٤٣ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٥١ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر وجامع الغرر جـ٧ ص ٢٨٤ .

وشرع المعظم في الاستعداد لصد الامبراطور ،فسار الى بيت المقدس و خرب اساسات قلاع صفد وكوكب و تبنين وصهاريج المياه الواقعة في الطريق الى بيت المقدس حتى لا يفيد منها الصليبيون بقيادة فردريك اذ ما تقدموا نحو القدس (١) . كما جهز المعظم جزءا من قواته الى جهة طرابلس لمراقبة تحركات الصليبيين . وانفق على عساكره تسعمائة الف درهم لتجهيزها للمواجهة القادمة مع قوات الامبراطور . غير أن الأجل لم يمهل الملك المعظم لحماية بيت المقدس فتوفي في ذى القعدة ٦٢٤هـ/ نوفمبر ١٢٢٧م (٢) .

اما في الجانب الصليبي فقد وصلت الى عكا ٦٢٥هـ/١٢٢٨م فرقتان صليبيتان انتظرتا الامبراطور فردريك الثاني ،ولم تقوما بأى عمل عسكرى يذكر ضد المسلمين (٣) . غير ان المسلمين لم يعبأوا بتلك الجموع الجديدة فتقدم العزيز عثمان بن العادل ،وقاد جيشا من المسلمين وأغار على بلاد صور ، فخرج اليه قرابة مائتي فارس من الصليبيين ، فأوقع بهم بين قتيل وأسير ،وكان من جملة الأسرى ابن والي صور الصليبي ،كما استاق العزيز غنيمة كبيرة من الماشية وستة الاف رأس من الغنم ،وسار بالجميع الى دمشق (٤) .

---

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٤٣ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢٣ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٤٧ - ٦٤٨ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢ ٦ ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٧٧ - ٤٧٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٣٤ .

(٤) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٥٢ - ١٥٣ ؛ وانظر ايضا تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٥٢ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٥٨ .

والواقع أن وفاة المعظم في ذى القعدة ٦٢٤ هـ/ نوفمبر ١٢٢٧م أتاحت الفرصة لاخيه الكامل للاستيلاء على مملكته ،فاتخذ من رفض الناصر داود بن المعظم التنازل له عن قلعة الشوبك ،ذريعة للخروج الى الشام في رمضان ٦٢٥هـ/ اغسطس ١٢٢٨ م ،والاستيلاء على القدس وغيرها من مدن فلسطين التابعة للناصر داود.(١)

على أن المؤرخين لم يوردوا نصوص المراسلات التي دارت بين الكامل وفردريك قبيل موت المعظم ،ووصول الامبراطور الى الشام. وإن كان ابن الفرات أشار الى أن الكامل - حين وصل الى نابلس وسيطر على ممتلكات الناصر داود في فلسطين - بلغه "أن الامبراطور وصل الى يافا في ميعاده فعاد السلطان من نابلس الى تل العجول و نزل عليها"(٢) .

فهو يؤكد ان الامبراطور وصل " في ميعاده " الأمر الذى يُفهم منه انه قد تم خلال المراسلات الاولى بينهما قبيل موت المعظم تحديد الزمن الذى سوف يصل فيه الامبراطور الى بلاد الشام.

و كيفما كان الأمر ،فقد جاء وصول الامبراطور فردريك الثاني الى يافا في شوال ٦٢٥هـ/ سبتمبر ١٢٢٨م بعد ان تغيرت الظروف في بلاد الشام لصالح الكامل ،فالمعظم توفي واخوه الاخر الاشرف عيسى انضم اليه واتفقا على اقتسام مملكة الناصر داود بينهما ، ولم يعد الكامل في حاجة الى مساعدة الامبراطور غير انه وقع في موقف حرج معه ،فهو الذى استدعاه ووعده بتسليمه بيت المقدس وما يتصل بها من بلاد . وقد أشار المؤرخون المسلمون الى ذلك الموقف الذى وقع فيه الكامل فقال بعضهم : " ولما وصل الامبراطور الى عكا نشب به السلطان الكامل لأن اخاه المعظم

---

(١) انظر ما سبق الفصل الثاني ص: ١٣٥- ١٣٦.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٨ - ٢٩.

الذى كان السبب في استدعائه توفي وقد استغنى عنه ولم يمكنه دفعه لما تقدم بينهما من الاتفاق "[١].

وحين وصول الامبراطور فردريك الى عكا اضطر الكامل الى مداراته وملاطفته[٢]. وعمد فردريك الى الحجج السياسية لاقناع الكامل بتسليم بيت المقدس ،فبعث اليه باحد امرائه ويدعى الكونت توماس وصحبته صاحب صيدا وقالا له: " الملك يقول لك ان الجيد للمسلمين والمصلحة لهم ان يبذلوا كل شيء ولا اجيء اليهم والان فقد كنتم بذلتم لنائبي في زمان حصار دمياط الساحل كله ... ومن نائبي ؟ ان هو الا أقل غلماني ، فلا أقل من اعطائي ما كنتم بذلتموه له "[٣]. وشرع الصليبيون في عمارة صيدا وكانت مناصفة بينهم و بين المسلمين ،وسورها خراب ، فاستولوا عليها وعمروها بعد أن ازالوا حكم المسلمين عنها ،وقدتمكنوا من ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها مثل هونين و تبنين زمن الحملة الصليبية الخامسة . و يبدو أن هذا الاجراء كان محاولة من الامبراطور فردريك الثاني لتخويف السلطان الكامل واظهار قوته له في الوقت الذى استمرت فيه الرسل تتردد بينهما بقية سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م[٤].

----

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٩-٣٠ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٣٣.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٧ ؛ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ، ص٢٣٤- ٢٣٥.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٧-٢٨ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص١٦٤ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢٨-٢٢٩ ، ويقصد فردريك عروض الكامل للصليبيين بالتنازل عن بيت المقدس وغيرها لقاء انسحابهم من مصر زمن الحملة الصليبية الخامسة . انظر ما سبق ص: ٢٧١- ٢٧٢ ، ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٤) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٥ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ ٦ لوحة ٢٧ ؛ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٧٨ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٣٥ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٥٦ ؛ ابن الوردى: تتمة المختصر جـ٢ ص٢٢٢ ؛المقريزى : الحريرى ،الاعلام والتبيين ، ص ٩٥ .

وقد تردد الكامل في بادىء الامر في اجابة فردريك الى مطالبه وطالت المفاوضات بين الجانبين (١) . حتى أن البابا بدأ يعمل ضد الامبراطور في أوربا ،فأصدر ضده قرار الحرمان مرة أخرى ،وأشاع انه قُتِلَ ، وشرع في العدوان على ممتلكاته ،فساء موقف الامبراطور فردريك الثاني كثيرا ، ولجأ الى سلاح الاستعطاف والتذلل للسلطان ،ويحكى انه كان يبكي في بعض مراحل المفاوضات ،الامر الذى أثر في تفسية الكامل الذى عرف بالتسامح والبعد عن التطرف في علاقاته مع الصليبيين (٢).

على أن بعض المستشرقين يرى أن السلطان الكامل أصبح مستعدا للاتفاق مع الامبراطور حتى لا يتحالف الأخير مع ابن اخيه الناصر داود (٣) . ولكن هذا الافتراض غير صحيح ،لأنه من الصعب على الناصر داود ،وهو في دمشق أن يُقْدِمْ على التحالف مع الصليبيين خشية سكان دمشق الذين كانوا أكثر المسلمين إحساسا بالخطر الصليبي ،ولن يقبلوا لملكهم بالانحدار الى التحالف مع العدو ، اضافة الى أن الناصر داود لم يكن في وسعه الاتصال بفردريك بعد أن اضحت دمشق محاصرة بقوات عمه الاشرف . ومن الواضح أن الكامل لم يشأ ان يطول جمود الموقف بينه وبين فردريك مما قد يؤدى إلى نشوب الحرب بين الجانبين في وقت كانت ما تزال دمشق صامدة أمام حصار الاشرف كما أن مدينة القدس باتت مفتوحة منذ تدمير أسوارها زمن الحملة الصليبية الخامسة ومن الصعب

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، جـ٦ لوحة ٤٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤١ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٦٥ - ٩٦٦ .

(٣) Campbell: The Crusades , p.405,
Stevenson , The Crusaders in the East, p.311

الدفاع عنها ، إضافة الى أن الناصر داود بعث يستنجد بجلال الدين الخوارزمي أقوى حكام المسلمين في ذلك الوقت ،ويخبره ان عميه الكامل والاشرف لم يهاجما مملكته الا بسبب انتماء والده اليه ودخوله في طاعته [١] . وهكذا أضحى الوقت في غير صالح الكامل ،لان استمرار الموقف جامدا سوف يتيح الفرصة للخوارزمي لتلبية استغاثة الناصر داود .

وقد ذكر احد المؤرخين الاوربيين المحدثين ان فردريك اجتمع بالسلطان الكامل الى الجنوب من قيسارية في شتا عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م [٢] غير انه لم يرد في المصادر العربية ما يشير الى عقد مثل هذا الاجتماع الا انه ليس من المستبعد انعقاده وقتذاك نظرا لقصر المسافة بين تل العجول قرب غزة - حيث كان يقيم السلطان الكامل - ،وبين قيسارية على ساحل فلسطين المقابل لطبرية ،كما أن من المحتمل ان يكون ذلك الاجتماع قد تم بصورة سرية لوضع اللمسات الاخيرة على اتفاقية الصلح بين الجانبين .

ومهما يكن من شيء ،فقد كان السفير المتنقل بين الكامل والامبراطور فردريك خلال مراحل المفاوضات الطويلة ، هو الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الذى انعقدت بينه وبين الامبراطور صداقة متينة [٣] .وتوصل الجانبان الى عقد الصلح بينهما في ٢٨ ربيع الاول ٦٢٦ هـ / ١٨ فبراير ١٢٢٩ م لمدة عشر سنوات ،وتقرر بمقتضى الصلح ان يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة [٤] ، وأن يبقى سور بيت المقدس خرابا

---

(١) انظر ما سبق ، الفصل الثاني ص: ١٤١ .

(٢) Conder , The Latine Kingdom, p. 313.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٩ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ص ٢٤٢ .

(٤) Campbell: op.cit. p. 406, The Cambridge History of Islam p. 208, Painter: op.cit. p. 217.

فلا يجدد ،وتكون جميع القرى التابعة للقدس بأيدى المسلمين ،ويحكمها وال مسلم يقيم بالبيرة شمال القدس ،ويكون الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الاقصى بايدى المسلمين ولا يدخلها الفرنج الا للزيارة فقط (١) .كما كفلت الاتفاقية حرية العبادة للمسلمين والمسيحيين على حد سواء (٢) . ومنحت الاتفاقية الصليبيين عددا من القرى الواقعة فيما بين عكا ويافا وبين اللد وبيت المقدس وذلك لضمان سلامتهم أثناء تنقلهم الى المدينة المقدسة (٣) . وتعهد الامبراطور فردريك الثاني من جانبه للسلطان الكامل بعدم الاشتراك او المساعدة في اية حملة صليبية للهجوم على املاك السلطان ، بل وعرقلة اى جهد صليبي ضد املاكه (٤) .

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن فردريك الثاني استطاع مع ضعف امكانياته ان يحقق من المكاسب ما عجزت عنه جهود ريتشارد قلب الأسد بامكانياته الضخمة ،مع ملاحظة ان فردريك حصل على بيت المقدس دون ان يدخل معركة او يخسر رجلا واحدا (٥) . الا أنه ليس من السهل القبول بهذه المقارنة غير المتكافئة فرتشارد قلب الاسد واجه صلاح الدين

----

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٧ ب - ٢٨ أ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٢-٤٣ ؛السيوطي : اتحاف الاخصا ورقة ١٢٤ أ ؛ابن ايبك : درر التيجان مخطوط حوادث ٦٢٦ هـ ؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤١ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣٠ .

(٢) Painter; op.cit. p.217.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٣ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤١-٢٤٢ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٤١ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣٠ Campbell: op.cit. p.406; Painter:op.cit. p217; The Cambridge History of Islam, p.208.

(٤) Campbell : op.cit. p. 406, Painter:op.cit.p.217

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٦٧ .

ذلك المجاهد العظيم الذى نذر نفسه وعمره لجهاد الصليبيين ، واسترداد ما اغتصبوه من بلاد المسلمين في غفلة منهم ، ولا يمكن لقائد كصلاح الدين آمن بالجهاد ايمانا عميقا ،باعتباره اعظم فرائض الاسلام وافضلها ، وصرف اكثر عمره في جهاد الصليبيين حتى هزمهم في حطين واستعاد منهم بيت المقدس وغيرها . وقدم في سبيل ذلك الاف الشهداء ،لا يمكن لرجل هذه صفاته وسجاياه أن يسمح لريتشارد قلب الأسد بتحقيق أية مكاسب على حساب الاسلام والمسلمين . كما أنه من الظلم مقارنة الناصر صلاح الدين ،بالملك الكامل ، الذى تنازل للصليبيين عن اجزاء هامة من بلاد الشام في سبيل تحقيق أطماعه بضم دمشق الى مملكته .

ويبرر بعض المؤرخين المسلمين هذا التصرف من السلطان الكامل بقولهم : " ورأى الكامل أنه إن شاقق الامبراطور ولم يف له بالكلية أن يفتح له باب محاربة مع الفرنج و يتسع الخرق و يفوت عليه كل ما خرج بسببه فرأى أن يرضى الفرنج بمدينة القدس خرابا ويهادنهم ، وهو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء "(١) . ولكن هذا التصرف حينما ينظر اليه من المنظور الاسلامي لا يمكن اعتباره الا جرما ارتكبه الكامل في حق الاسلام والمسلمين بتنازله عن اراض اسلامية للأعداء ، مقابل التفرغ

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٣ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤٢ = وقد بلغ التزلف ببعض المؤرخين المعاصرين الى حد إصدار فتوى بإباحة فعلة السلطان الكامل ،فابن أبي الدم الحموى أفاض كثيرا في مدح السلطان الكامل والإشادة بصلحه مع فردريك الثاني وتسليمه بيت المقدس ومما قاله عنه انه : "صالحهم صلحا تاماً رأى فيه صلاحا للمسلمين وغبطة . . . وعقد معهم الهدنة الشرعية " انظر ابن ابي الدم الحموى : التاريخ المظفرى لوحة ٥٤٩-٥٥١ ،

===

بالكلية لانتزاع مملكة ابن اخيه المسلم ،مع العلم ان ابن اخيه لم يعلن العصيان ضده ، بل كان في إمكان الكامل بعد موت اخيه المعظم حشد كل قوى ملوك بني أيوب خلفه لجهاد الصليبيين وتحرير الاراضي المغتصبة من قبضتهم.

=== غير اننا نلتمس العذر لابن ابي الدم الحموى لأنه ألّف تاريخه زمن السلطان الكامل وكان يعيش في كنف ابن اخت السلطان وزوج ابنته المظفر صاحب حماه ،ولكن يجدر التحذير بعدم أخذ رواياته عن بني ايوب على علاتها حتى لا تضلل الدارس. كما أصدر ابن واصل هو الاخر فتوى في كتابه التاريخ الصالحي أجاز فيها للسلطان الكامل اعطاء بيت المقدس للامبراطور فردريك ،وبرر فتواه تلك بقوله :" فان الامام يجوز له تسليم بلد من البلاد الاسلامية الى الكفار ، اذا رأى في ترك التسليم لهم ضررا ظاهرا لا يمكن تلافيه " . انظر ابن واصل :التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٠أ =وهنا نعذر ابن واصل في فتواه هذه لأنه ألّف تاريخه هذا للصالح أيوب بن الكامل ولم يجرؤ على نقد الملك الكامل في كتاب سيقدمه هدية لابنه السلطان الصالح ايوب . بينما نجده في كتابه مفرج الكروب الذى صنفه بعد سقوط الدولة الأيوبية يكتب عن تسليم بيت المقدس بموضوعية بعيدة عن التزلف والمؤثرات ونجده يُبْرِزْ السخط العارم الذى عَمَّ صفوف المسلمين بعد تسليم بيت المقدس شأنه في ذلك شأن بقية المؤرخين المسلمين كما سنرى في الصفحات التالية.

ولم يغفر المسلمون المعاصرون للسلطان الكامل هذه الفعلة الشنيعة ، حتى أن أحد قادة جيشه ويدعى سيف الدين بن ابي زكرى حذره من مغبة تسليم بيت المقدس والتفريط في حقوق المسلمين ونصحه قائلا : " ابق دمشق على ابن اخيك الناصر واطلبه واطلب أخاك الملك الاشرف وعسكر حلب ، ونقاتل هذا العدو فاما لنا واما علينا ، ولا يقال عن السلطان أنه أعطى الفرنج القدس ". ولم يجد ابن ابي زكرى من الكامل أذنا صاغية بل غضب عليه واعتقله " وسيره الى مصر فحبسه بها ".(١)

وحينما بعث الكامل ينادى في القدس بخروج السكان المسلمين وتسليمه الى الصليبيين " وقع في أهل القدس الضجيج والبكاء وعظم ذلك على المسلمين ، وحزنوا لخروج القدس من ايديهم وأنكروا على الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه ، إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفار من أعظم مآثر عمه الناصر صلاح الدين ".(٢) وعبر الائمة والمؤذنون الذين في المسجد الاقصى والصخرة وبقية مساجد القدس عن سخطهم وسخط جميع المسلمين بصورة مدوية ومؤلمة ، فأخذوا ستائر المسجد وقناديله الفضية وآلاته وحضروا الى باب خيمة السلطان الكامل "وأذنوا على بابه في غير وقت الاذان " فأمر بسلب ما معهم وزجرهم أعوانه وطردوهم الى خارج معسكره.(٣)

---

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٢٢٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤٣ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٤ - ٤٥ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣١ .

وقد حاول الكامل تبرير تفريطه في مقدسات الاسلام وحقوق المسلمين بقوله : " إنا لم نسمح لهم الا بكنائس وأدر خراب ، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بايدى المسلمين على حاله ، وشعائر الاسلام قائم على ما كان عليه ووالي المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله "(١) غير أن هذا التبرير لم يخفف من الغضب والسخط العارم الذى عم بلاد المسلمين بسبب تسليم بيت المقدس للصليبيين " فقامت القيامة في جميع بلاد الاسلام واشتدت العظائم وأقيمت المآتم "(٢). ففي دمشق اتخذ الناصر داود من تسليم القدس وسيلة دعائية للتشهير بعمه الكامل وتنفير قلوب الناس عنه ،فأوعز الى المؤرخ سبط ابن الجوزى بالجلوس في جامع دمشق والحديث عن التفريط في بيت المقدس ، فوجد ابن الجوزى أن " من الحمية للاسلام موافقته "(٣) فجلس بالجامع الأموى ، وحضر اليه الناصر داود بنفسه وجميع سكان دمشق ،وخطب في الجماهير المحتشدة ذاكرا فضائل بيت المقدس وما جرى عليه ومما تحدث به قوله : "انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين . كم كان لهم في تلك الاماكن من ركعة ،وكم جرت لهم على تلك المساجد من دمعة ، تالله لو صارت عيونهم عيونا لما وفت ،ولو تقطعت قلوبهم اسفا لما شفت ،أحسن الله عزاء المؤمنين ، يا خجلة ملوك المسلمين "

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤٣-٢٤٤ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٥٤ .

(٣) المصدر نفسه جـ٨ ص ٦٥٤ .

كما القى قصيدة تائية عن بيت المقدس حتى ابكى سكان دمشق جميعا في ذلك اليوم (١) .

وحينما اشتد البلاء على المسلمين بسبب تسليم القدس " والانكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الاقطار " (٢) أرسل من لدنه احد اعوانه و يدعى جمال الدين الكاتب الأشرفي الى البلاد الشرقية والى الخليفة في بغداد في محاولة لتسكين غضب المسلمين وتهدئة خواطرهم وازالة انزعاجهم من استلام الصليبيين لبيت المقدس (٣) .

اما الامبراطور فردريك الثاني فبعد توقيع الصلح طلب من الكامل تبنين واعمالها فانعم بها عليه " ودخلت في نسخة المهادنة و تسلم الامبراطور ما وقع عليه الاتفاق " (٤) ثم قام بزيارة بيت المقدس وغادرها بعد ذلك الى عكا ثم ابحر عائدا الى بلاده في جمادى الثانية ٦٢٦هـ/ مايو ١٢٢٩م ولا سيما بعد ان سمع بأن حميه حنا دى بريين سار بقوات البابا وهاجم بعض ممتلكاته في ايطاليا (٥) .

----

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٥٤ - ٦٥٥ ، وانظر ايضا : ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٩ - ٥٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣٣ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٤١ - ١٤٢ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٢٩٥ = ومما جاء في قصيدته التائية قوله :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات
على قبة المعراج والصخرة التى تفاخر ما في الأرض من صخرات

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣١ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ ص ٤٨ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى : ص ١٧٩ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣٢ .

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٥ .

(٥) Painter: op.cit. p.217.

ولم يشمل صلح يافا بين الكامل والامبراطور فردريك ، فرسان الداوية والاسبتارية الذين دأبوا على شن العدوان على بلاد المسلمين في شمال الشام ،فقد كانت علاقاتهم بممالك حلب وحمص وحماه تتوقف على مدى قوة تلك الممالك وقدرتها على الدفاع عن رعاياها المسلمين . ففي سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م وقبل مجيء فردريك الثاني ، ظفر التركمان بفارس مشهور من الداوية بأطراف حلب فقتلوه ،وحينما علم الداوية بذلك ساروا من انطاكية، وباغتوا التركمان المسلمين ،وقتلوا منهم جماعة وأسروا اخرين وغنموا اموالهم وحريمهم ،وحينما علم الاتابك طغريل صاحب حلب بذلك أرسل الى الداوية يتهددهم ،وتمكن عسكر حلب من مطاردة فارسين من الداوية وقتلهما ،وحينئذ أذعن الداوية للصلح " وردوا إلى التركمان كثيرا من اموالهم وحريمهم وأسراهم ".(١)

ولم تتوقف غارات الصليبيين على شمال بلاد الشام بعد رحيل الامبراطور فردريك الثاني ، ففي ذى الحجة ٦٢٦هـ/ ديسمبر ١٢٢٩م هاجموا بلدة بارين ونهبوا ست قرى تابعة لها ،وفي طريقهم وجدوا جماعتين من التركمان والاكراد فأسروهم واستولوا على جميع اموالهم وضمنها بضعة الوف من الماشية ،ولم يجد الصليبيون من يتصدى لهم اذ كان المجاهد صاحب حمص في تدمر وحينما سمع بهجوم الفرنج عاد مسرعا ولكن بعد فوات الاوان وأرسل الى الكامل يخبره بما فعل الفرنج " فشق ذلك عليه " ولكنه لم يفعل شيئا ازاء ذلك .(٢)

----

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٢) ابن الفرات جـ٦ لوحة ٧٨ ؛وانظر ايضا ابن نظيف ; التاريخ المنصورى ص١٨٨ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص٢٧٩ ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٤٨٨ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص٢٣٦ .

وفي السنة التالية ، رمضان ٦٢٧هـ/ أغسطس ١٢٣٠م احتشد فرسان الاسبتاريه من حصن الاكراد وغيرها ،وقرروا الاغارة على اعمال حماة ، ولكن المظفر محمود تصدى لهم بين حماه و بارين وهزمهم وقتل منهم عددا كبيرا وأسر آخرين واستعاد كل ما نهبوه من أموال رعاياه وعاد الى حماه منصورا فمدحه الشعراء بهذه المناسبة.(١)

وكرر الداوية والاسبتارية اعتداءاتهم سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م فهاجموا جبلة التابعة لحلب ،وأخذوا منها غنيمة وأسرى . فارسل الأتابك طغريل في اثرهم بعض القادة فقاتلهم واستعاد منهم الغنيمة والاسرى.(٢) ولكنهم تحركوا من جديد في السنة نفسها ،وشرعوا في الاحتشاد ، فخرج اليهم عسكر حلب واغاروا على قرى المرقب واستولوا على حصن بانياس ودمروه واطلقوا سراح من كان به من الاسرى ،ثم حدثت معركة اخرى لم ينعقد فيها النصر لأى من الجانبين واخيرا " استقرت الهدنة بين عسكر حلب والداوية والاسبتارية " في شعبان ٦٢٨ هـ / يوليه ١٢٣١م.(٣)

وظل الموقف هادئا بين المسلمين والصليبيين في شمال الشام حتى سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م حين توفي العزيز بن الظاهر صاحب حلب ، وانشغل الحلبيون بتعيين مجلس وصاية على ابنه الصغير يوسف حتى يكبر ،

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ١٤٣ - ١٤٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٠٣ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٤٦-١٤٧.

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٥٠٤ ؛ الغزى : نهر الذهب جـ٣ ص ١١٤ ؛ الطباخ : إعلام النبلاء جـ٢ ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٠٩-٢١٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣١٠-٣١١.

ودرء المؤامرات التي نجمت عن ذلك (١) . فاستغل فرسان الداوية - الذين كانوا يسيطرون على بغراس - (٢) تلك الظروف التي مرت بها حلب فاغاروا على اعمالها ،واستاقوا قطعان الماشية والاغنام العائدة للتركمان والبدو وغيرهم . فخرج اليهم المعظم تورانشاه بن صلاح الدين على رأس عساكر حلب ، فنازلوا بغراس مدة ونهبوا ريفها ،وشددوا عليها الحصار ،ونقبوا عدة مواضع من سورها ،ونفد جميع ما بها من المؤن والذخائر ،وكادت تسقط بيد المسلمين غير ان بوهيمند الخامس امير انطاكية (١٢٣٣-١٢٥١م) تدخل في النزاع وتوسط لدى الحلبيين في ترك بغراس على حالها . وقد أجابوا طلبه نظرا للعلاقات الطيبة بين مملكة حلب وامارة انطاكية الصليبية ،وتم عقد الهدنة بين مملكة حلب والداوية ،وترك الحلبيون بغراس بايديهم. (٣)

ولكن الداوية سرعان ما نقضوا الهدنة بعد انسحاب عسكر حلب من امام بغراس الى قرب دربساك التابعة لحلب ،وجمع الداوية فلولهم واستعانوا بصاحب جبيل وغيره من الصليبيين وساروا جميعا ناحية دربساك

---

(١) انظر عن هذه الحوادث ما سبق الفصل الاول ، ص ٨٨ - ٨٩.

(٢) بغراس : هي احدى ثغور شمال بلاد الشام ،وتقع في لحف جبل اللكام وبينها وبين انطاكية اربعة فراسخ (١٢ ميلا) وعلى يمين القاصد انطاكية من حلب. وتقع بغراس الى الجنوب من دربساك على مسافة قريبة ،انظر ياقوت : معجم البلدان ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٣٦٩ - ٣٧٠ ؛اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٤ ب ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٢٧ أ ب ؛ ابن العديم زبدة الحلب ج٣ ص ٢٣٠-٢٣١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٣١- ١٣٢ ؛ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٥٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٣٠٩ .

في محاولة لمباغتة ربضها على غرة من اهله ،ولكن حامية دربساك استعدت لهم وقاتلتهم قتالا شديدا ،وبلغ الخبر عسكر حلب ،فتقدم الى دربساك وقد تعب الصليبيون بسبب بسالةالحامية وصمودها في قتالهم واستغل عسكر حلب حالة التعب تلك وهاجموا الداوية ومن معهم من الصليبيين وألحقوا بهم هزيمة شنيعة ،وقتلوا منهم عددا كبيرا ،كما أسروا اعدادا اخرى من الفرسان والمشاة ، بينما حاول الباقون الاختباء بين الاشجار والغابات المجاورة ،فتبعهم المسلمون وأبادوهم ،ولم ينج منهم الا القليل . وعاد المسلمون الى حلب بالاسرى واعتقلوهم بقلعتها.(١)

ولقد قضت هذه الضربة المدمرة على القوة الرئيسة لفرسان الداوية ،فانحسر خطرهم عن المسلمين في شمال الشام ، بل وحتى عن امارة انطاكية الصليبية نفسها التي لم تسلم من شرهم حتى ان ابن العديم يعلق على هذه المعركة بقوله : " وفتّت هذه الوقعة في أعضاد الداوية بالساحل ، ولم ينتعشوا بعدها وكانوا قد استطالوا على المسلمين والفرنج ".(٢)

أما عن الموقف في جنوب بلاد الشام ،فقد ظل هادئا بين المسلمين والصليبيين ، تنفيذا للهدنة التي أبرمها الامبراطور فردريك الثاني مع السلطان الكامل . ولما اقتربت من نهايتها دعا البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) الى حملة صليبية اخرى . وقد وجدت تلك الدعوة قبولا لدى ثيبوت الرابع ملك نافارو أمير شامبني ، الذى وصل

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٤ ب ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٧٠ - ٣٧١ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٥٧ ؛ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٣١ - ٢٣٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٣٢-١٣٣ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٥٩ ؛ الغزى : نهر الذهب جـ٣ ص ١١٥ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٣٢ .

الى فلسطين بمصاحبة صديقه القديم بطرس موكليرك دوق بريتاني وذلك سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م (١). وبعد مشاورات بين الصليبيين تقرر أن يسيروا الى عسقلان للاستيلاء عليها وبناء تحصيناتها المهدمة ثم اتخاذها قاعدة لمهاجمة دمشق ، وفي تلك الاثناء علموا ان قافلة تجارية من المسلمين تسير في غور الاردن نحو دمشق ، فباغتها الصليبيون وقتلوا رجالها وغنموها (٢).

غير ان هذه الحملة الصليبية سرعان ما واجهت مصيرها المحتوم اذ كان يرابط في غزة أحد قاعدة العسكر المصرى ويدعى ركن الدين الهيجاوى ، فتقدم بقواته والتقى بالصليبيين قرب غزة وأنزل بهم هزيمة ساحقة في منتصف ربيع الاخر ٦٣٧هـ/ نوفمبر ١٢٣٩م فقتل من الصليبيين الف وثمان مئة رجل وأسر منهم ثمانين فارسا ومائتين وخمسين راجلا ،وسيق الأسرى يجرون أذيال الخيبة والندامة الى القاهرة (٣).

عمل الناصر داود صاحب الكرك على استثمار هذه الضربة القاسية التي حلت بالصليبيين لصالحه ،فقرر استعادة بيت المقدس ، وكان الصليبيون بعد موت السلطان الكامل سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م قد عمدوا الى بناء قلعة غربي بيت المقدس وجعلوا برج داود احد ابراجها - ذلك ان برج داود قد تركه المعظم عندما خرب اسوار القدس سنة ٦١٦هـ - وشحن الصليبون

---

(١) Painter: A History of the Middle Ages p.217; Campbell : the Crusades, p. 214; Conder: The Latine Kingdom , p.315.

(٢) Stevenson: op.cit.p.317 ؛رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٩٢ ؛وانظر ايضا ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٧٠ ؛ رنسيمان جـ٣ ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

المقلعة الجديدة بالموءن والذخائر ،مخالفين بذلك نصوص معاهدة يافا المبرمة بين الكامل والامبراطور فردريك الثاني [١] . فسار الناصر داود بقواته نحو القدس ،واختار وقت الهجوم عليه ليكون اثناء انشغال الصليبيين هناك باحد اعيادهم في جمادى الاولى ٦٣٧هـ/ديسمبر ١٢٣٩م [٢] . فدخل الى القدس وفاجأهم وهم منصرفون الى الاحتفالات بعيدهم واستعاده منهم ،ثم ضرب الحصار حول القلعة التي عمروها وضربها بالمنجنيقات حتى استولى عليها وعلى برج داود ،وسمح للصليبيين بمغادرة بيت المقدس بعد ان اعطاهم الامان على انفسهم ، ومدحه الشعراء بهذه المناسبة [٣] . ثم ارسل الى بغداد مخبراباسترداد بيت المقدس من الصليبيين ،وأرسل مع مبعوثه خطابا الى الخليفة العباسي يحيطه علما باستعادة ثالث الحرمين ويستشيره في امر القلعة التي

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥١٣ ؛ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٤٦ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٩١ ؛ ابوالفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٥ .

(٢) السيوطي : اتحاف الاخصا ورقة ١٣٤ ب ؛ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص٢٢٧ .

(٣) السيوطي : اتحاف الاخصا ورقة ١٣٤ ب - ١٣٥ أ ؛الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٥٨ أ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥١٣ - ٥١٤ ؛ الجنابي : البحر الزاخر جـ٢ ورقة ٢١ أ ب ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٢٨ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٤٧ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ١٤٤ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٩١ -١٩٢ ؛ العليمي : الانس الجليل جـ٢ ص ٥ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى جـ٤ ص ١٧٦ ؛ الكتبي : الوافي بالوفيات جـ١ ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

بناها الصليبيون هل يهدمها أم يبقى عليها لحراسة بيت المقدس.(١)

ولم تلبث الحرب الاهلية بين الايوبيين ان القت بظلالها واثارها على ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين وجعلته يميل مؤقتا لصالح الصليبيين . فبعد ان تمكن الصالح أيوب من الوصول الى سدة الحكم في مصر عمل على توطيد نفوذه بها وشرع يفكر في الانتقام من عمه الصالح اسماعيل بن العادل الذى تآمر عليه وانتزع دمشق منه (٢) . فاتجه الصالح اسماعيل الى التحالف مع الصليبيين ضد ابن اخيه الصالح أيوب. ومن الطبيعي ان يرفض الصليبيون تقديم خدماتهم له دون مقابل ،ولذلك أعطاهم صفد وقلعة الشقيف ،وهونين وتبنين ، كما تنازل عن حقوق المسلمين في مناصفات صيدا وطبرية وبعض بلاد الساحل وذلك سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م (٣) .

ولم يجد الصالح اسماعيل حرجا حينما منح الصليبيين هذه البلاد ، في الوقت الذى تنصل فيه بعض أتباعه من ذلك الجرم. ففي اوائل سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م أمر نائبه على شقيف أرنون ويدعى الحاج موسى بتسليمه لفرسان الداوية ، فرفض قائلا : " والله لا جعلته في صحيفتي " فقبض الصالح اسماعيل عليه وضربه ضربا مبرحا حتى قتله وصادر كل امواله وممتلكاته ، غير ان حامية الحصن بزعامة رجل يدعى أحمد الشقيفي ، عنصوا بالحصن على الصالح اسماعيل ورفضوا تسليمه للصليبيين . وراسلوا الناصر داود صاحب الكرك ودخلوا في طاعته. وعندما اتضح للصالح

---

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٢٢٦ - ٢٣٣ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ١٤٤-١٤٥ .

(٢) انظر ما سبق ، الفصل الثاني ص: ١٧٧- ١٨٤ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٨٥ أ ؛النويرى : نهاية الأرب جـ٢٧ ورقة ٧٢ أ ب ؛ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ١٤٧-١٤٨ ، ١٥٢ - ١٥٣ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٠٣ .

اسماعيل " حميتهم للمسلمين وانتصارهم للدين " خرج من دمشق بعسكره وحاصر الحصن حتى أخذه منهم بعد ان طلبوا منه الامان على انفسهم قائلين " انت امرتنا ان نسلمه الى نواب الداوية ،ونحن فما يحل لنا ان نسلمه للفرنج ،ونحن نسلمه اليك وأنت تفعل فيه ما تختار " فسلمه الصالح اسماعيل للداوية وظل بايديهم حتى استرده الظاهر بيبرس.(١)

وتسلم الصليبيون من الصالح اسماعيل قلعة صفد - التي كانت خرابا منذ سنة ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م حين دمرها المعظم زمن الحملة الخامسة - فقرروا اعادة بنائها ، ولما كان البناء يحتاج الى أيدى عاملة كثيرة فقد جمع الصليبيون الف اسير مسلم كانوا في سجونهم وشرعوا في تسخيرهم لبناء القلعة. وكان يحرسهم قرابة مائتي رجل من الصليبيين ، فاتفق الاسرى فيما بينهم على الانقضاض على حراسهم وتجريدهم من اسلحتهم والاستيلاء على صفد ،ولضمان نجاح خطتهم أرسلوا الى الأمير سيف الدين علي بن قلج النورى والي قلعة عجلون من قبل الناصر داود ليبعث اليهم من يتسلم القلعة اذا تخلصوا من حراسهم ، فارسل والي عجلون برسالة الأسرى الى سيده الناصر داود صاحب الكرك الذى ارسلها بدوره الى عمه الصالح اسماعيل . وكان في إمكان الاخير إهمال شأن الرسالة وعدم الرد عليها أو تحذير الأسرى من تنفيذ خطتهم ، ولكنه بدلا من ذلك ارسل الكتاب الى فرسان الداوية ، وحينما اطلعوا عليها قبضوا على اولئك الاسرى ودخلوا بهم عكا " فذبحوهم عن آخرهم" ثم واصل الداوية بناء اسوار قلعة صفد بمساعدة الصالح اسماعيل (٢) .

---

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٧ - ١٤٨ .

الذى ارتكب بعمله هذا جرما شنيعا يتنافى وكل القيم الخلقية ،ناهيك عن خيانة الدين والوطن والشرف.

ولكي يبرهن الصالح إسماعيل على صدق نواياه تجاه الصليبيين سمح لهم بالدخول الى دمشق لشراء السلاح ،فتحرج بعض تجار السلاح من مبايعتهم فاستفتوا الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام (١) ، فأفتى بتحريم بيعهم السلاح قائلا : " انهم يشترونه ليقاتلوا به اخوانكم المسلمين " (٢) .

ولقد اثارت افعال الصالح اسماعيل تلك الرأى العام الاسلامي في بلاد الشام ، وعمد الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام خطيب جامع دمشق الى قطع الدعاء للصالح اسماعيل (٣) . وندد به واكثر من التشنيع عليه ، وساعده في ذلك الشيخ جمال الدين ابو عمرو بن الحاجب المالكي (٤) .

---

(١) عبد العزيز بن عبد السلام بن ابي القاسم بن حسن بن محمد السلمي ،من كبار علماء الشافعية وفقهائها ،كان عالما بالتفسير صالحا عابدا لا يخشى في الله لومة لائم ،ولد سنة ٥٧٧ هـ وصنف الكثير من الكتب في الشريعة وعلومها وتوفي سنة ٦٦٠هـ/ انظر ترجمته مفصلة في السبكي : طبقات الشافعية الكبرى جـ٨ ص ٢٠٩ - ٢٥٥ .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ٢٤٣ ؛ انظر ايضا : نهاية الأرب جـ٢٧ ورقة ٧٢ ب ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٠٤ .

(٣) السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ٢٤٣ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٠٤ ، = وقد استبدل الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام الدعاء للصالح اسماعيل بقوله : " اللهم ابرم لهذه الامة ابرام رشد تعز فيه اولياءك وتذل فيه اعداءك ويعمل فيه بطاعتك ،وينهى فيه عن معصيتك " والناس يبتهلون وراءه بالدعاء . انظر السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ٢٤٣ .

(٤) ولد الشيخ جمال الدين ابو عمرو بن الحاجب باسنا في الصعيد سنة ٥٧٠ هـ وبرع في علوم اللغة العربية والنحو وألف في النحو والفقه ، وتوفي بالاسكندرية سنة ٦٤٦هـ / انظر الادفوى : الطالع السعيد : ص ٣٥٢ - ٣٥٧ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٨٢ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

وكان الصالح اسماعيل في تلك الاثناء غائبا عن دمشق ،وحينما بلغه موقف الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام وصاحبه ابن الحاجب ، اصدر امره بعزل الشيخ عبد العزيز من خطابة جامع دمشق واعتقله مع صاحبه ، ثم اطلق سراحهما بعد مدة ، فغادرا بلاد الشام الى مصر.(١)

وبعد ان تحالف الصالح اسماعيل مع الصليبيين ، سار الى فلسطين حيث انضم اليه الصليبيون بزعامة ثيبوت الرابع ملك نافارو أميرشامبني الذى كان يتوق منذ وصوله الى بلاد الشام الى تدعيم مركز الصليبيين.(٢)
وتقدمت قوات الصليبيين والصالح اسماعيل نحو غزة في بداية طريقها الى مصر ،ولكن السلطان الصالح ايوب جرد العساكر المصرية لملاقاة عمه اسماعيل وحلفائه الصليبيين سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م " وعندما تقابل العسكران ساقت عساكر الشام الى عساكر مصر طائعة ومالوا جميعا على

----

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي - مخطوط- نسخة عارف حكمت ورقة ١٤٦ أ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٠٢-٣٠٤ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٠ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٣٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٥٥ =. وقد ذكر السبكي أن الصالح اسماعيل حاول استمالة الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام فلما أخفق امر باعتقاله مرة اخرى في خيمة بجانب خيمته قرب القدس حيث اجتمع ببعض زعماء الصليبيين ،وظل الشيخ يقرأ القرآن ، فقال لهم الصالح اسماعيل " أتسمعون هذا الذى يقرأ القرآن ؟ قالوا : نعم ، قال : هذا اكبر قسوس المسلمين وقد حبسته لانكاره على تسليمي لكم حصون المسلمين ... وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم . فقالت ملوك الفرنج : لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها " ... انظر طبقات الشافعية جـ٨ ص ٢٤٣- ٢٤٤.

(٢) انظر رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٣٧٩.

الفرنج وهزموهم وأسروا منهم خلقا لا يحصون "[١] وكان ضمن الاسرى بعض زعماء الداوية ،واستطاع الصالح ايوب الوصول الى اتفاق مع الصليبيين اطلق بموجبه سراح بعض الاسرى وان يكون لهم الحق في اعادة بناء عسقلان وتحصينها في مقابل وقوفهم على الحياد في الصراع بينه وبين عمه اسماعيل[٢] .

وفي تلك الاثناء وصل الى عكا الامير الشاب ريتشارد شقيق هنرى الثالث ملك انجلترا في صحبة جيش صليبي جديد ، ولكن على الرغم مما اشتهر به ريتشارد من الحكمة والكياسة فانه لم يكن بوسعه سوى التصديق على تلك الاتفاقية التي عقدت مع السلطان الصالح ايوب وبالتالي لم يحقق للصليبيين الا القليل من المكاسب[٣] .

وفي جمادى الاولى سنة ٦٤٠ هـ / ديسمبر ١٢٤٢م تقدم الفرنج من عكا وقصدوا نابلس التي كانت تابعة للناصر داود ،وكان دخولهم يوم الجمعة فساروا الى المسجد وقتلوا المصلين وكسروا منبر الخطيب، واسروا الكثير من السكان ونهبوا المدينة[٤] . وذكر سبط ابن الجوزى أن الجواد يونس بن مودود بن العادل كان في صحبتهم عندما هاجموا قلنسوه -ضيعة من اعمال نابلس- "وقتلوا فيها الف مسلم وهو قائم لم يتكلم كلمة واحدة " وقد خشي الصالح اسماعيل من الجواد على نفوذه ومكانته لدى الصليبيين فاستدرجه حتى قضى عليه[٥] .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص٣٠٤-٣٠٥ .

(٢) رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٧٩ ؛
Stevenson:op.cit. o. 318; Painter:op.cit.p.218

(٣) Painter:op.cit. p.218

(٤) المقريزى : السلوك جـ١ ص٣١٠-٣١١ .

(٥) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص٧٤٣ - ٧٤٤ .

الصالح أيوب واسترداد بيت المقدس ومعركة غزة ونتائجها

٦٤١ - ٦٤٦ هـ/١٢٤٣ - ١٢٤٨م

ظل الخلاف محتدما بين الصالح أيوب وعمه اسماعيل الذى كان يحالفه من ملوك الشام المنصور صاحب حمص ، وانضم اليهما اخيرا الناصر داود صاحب الكرك ،وفشلت محاولة الصلح بينهم وبين الصالح أيوب ، فاضطر الاخير الى طلب مساعدة الخوارزمية الذين كانوا يقيمون بمنطقة الجزيرة (١) .

وعندما اجتمعت كلمة هوءلاء الثلاثة على قتال الصالح أيوب وتأكدوا انه ارسل يستعين بالخوارزمية ، استقر رأيهم على التحالف مع الصليبيين ،واتفق الصالح اسماعيل مع ابن اخيه الناصر داود في سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م على تسليم بيت المقدس بكامله الى الصليبيين ، وكذلك المسجد الاقصى والصخرة المقدسة وما فيهما من المزارات ،واتفقا ايضا على تسليمهم طبرية والسماح لهم بعمارتها ،وشرعوا في بناء تحصيناتهم . كما اخذ فرسان الاسبتاريه كوكب ،وعزموا على عمارتها ، ثم دخل الصليبيون الى بيت المقدس ،وتسلموا الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى وجميع المزارات الاسلامية والمسيحية وغيرها وبالاضافة الى ذلك فقد تعهد الصالح اسماعيل لحلفائه الصليبيين بجزء من ديار مصر اذا فتحوها ، وبدأ الصليبيون في حشد قواتهم واعدادها لتنفيذ

---

(١) انظر ما سبق ، الفصل الثاني ، ص ١٨٦-١٨٩ .

اتفاقهم مع اسماعيل والناصر داود [١] . وهكذا تخلى الصالح اسماعيل والناصر داود عن مقدسات المسلمين في بيت المقدس وغيرها في برود تام . وليس لنا من تعليق ينطبق على اسماعيل والناصر داود سوى قوله تعالى :

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٩٢ أ ؛ الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ٦٣ أ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ١٣ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣١٥ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧٢ ؛ العليمي : الانس الجليل جـ٢ ص ٦ ؛
Selections From Tarikh Ibn al-Furat, Vol. 2 pp. 1-2.
= ويرى بعض المستشرقين أن الصالح ايوب عرض على الصليبيين العرض نفسه الذى قدمه اسماعيل والناصر داود ،مقابل تحالفهم معه ضدهما = انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٩٥ نقلا عن المؤرخ الفرنسي جروسيه ،وانظر أيضا : رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ،ص ٣٨٩ ؛ Stevenson: op.cit. p. 321.
: غير اننا لا نستطيع قبول هذا الرأى لاسباب هي أولا : أنه لم يرد في المصادر العربية المعاصرة للحوادث أى اشارة على الاطلاق لهذا العرض ،ولو حدث فعلا لذكر ذلك ابن واصل صديق حسام الدين الهذباني قائد الصالح أيوب ووزيره ، ثانيا : ان الصالح ايوب ليس هو الحاكم الذى يُقْدِمُ على التحالف مع الصليبيين بدليل أنه لم يفعل ذلك في أسوأ الظروف التي مرت به حين كان اخوه العادل يحكم مصر ولم يكن بيده غير دمشق ثم أُنتزعت منه واعتُقل بالكرك ومع ذلك لم يفكر في الاستعانة بالصليبيين فكيف يفكر في الاستعانة بهم بعد أن اصبح سلطانا على مصر بامكاناتها الضخمة ؟ وثالثا : وما ينفي هذا الرأى أن بيت المقدس وطبرية وكوكب وجميع البلاد التي اعطاها اسماعيل والناصر داود للفرنج لم تكن تحت سيطرة الصالح أيوب حتى يعرضها عليهم مقابل التحالف معه ،وهل يُعقل ان يعرض عليهم بلادا لا يملكها ؟ .

* قل هل ننبئكم بالأخسرين اعمالا ۰ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * (١).

وقد حكى المؤرخ المعاصر ابن واصل كيف انتهك الصليبيون حرمة المقدسات الاسلامية في بيت المقدس حين مربها في أواخر سنة ٦٤١هـ/١٢٤٤م وهو في طريقه الى مصر فقال : " ودخلت البيت المقدس ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة ، وعليها قناني الخمر برسم القربان ، ودخلت الجامع الأقصى وفيه جرس معلق ، وأبطل بالحرم الأذان والاقامة وأعلن فيه بالكفر " (٢).

ولما وصلت دعوة الصالح ايوب الى الخوارزمية بالجزيرة يحثهم على القدوم اليه لمناصرته عبروا الفرات الى بلاد الشام في زهاء عشرة الاف فارس ، وساروا حتى وصلوا بيت المقدس فدخلوه في صفر ٦٤٢هـ/ يوليه ١٢٤٤م ووضعوا سيوفهم في رقاب النصارى ، وقتلوا من وجدوه بها من الصليبيين ثم دخلوا كنيسة القيامة ونهبوها وهدموا المقبرة التي يعتقد النصارى بأنها مقبرة المسيح ، ونبشوا قبور ملوك الصليبيين بحثا عن الاموال ۰ وطهروا الحرم وما به من المزارات من براثن الصليبيين (٣)، وقد وجدوا في بيت المقدس ستة الاف من الفرنج ، فقتلوا منهم اكثر من الفين وطاردوا الباقين الى قرب يافا بحيث لم يصل اليها سوى ثلثمائة شخص فقط (٤) ۰ واستردوا بذلك بيت المقدس ، ولم يقدر لجيش نصراني

---

(١) سورة الكهف آية ١٠٣ - ١٠٤ ۰

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٣٣ ،
Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 P.2

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٣٦ - ٣٣٧ ،
Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 pp.3-4

(٤) رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٣٩٢ ۰

الوصول اليه حتى الحرب العالمية الأولى [١].

وتوجه الخوارزمية الى غزة ، وراسلوا الصالح أيوب يخبرونه بقدومهم لنصرته ، وطلبوا منه إرسال عسكر مصر اليهم لقتال اعدائه جميعا ، فأمرهم بالبقاء في غزة ريثما تصلهم عساكره ووعدهم ان يعطيهم بلاد الشام [٢]. وجهز الصالح أيوب مملوكه ركن الدين بيبرس الى غزة للانضمام الى الخوارزمية ،وامر قائده حسام الدين بن محمد الهذباني بأن يمضي بفرقة اخرى من العسكر المصرى الى نابلس للمرابطة بها [٣].

وشرع الصالح اسماعيل في العمل على مجابهة الخوارزمية وعساكر مصر فأرسل يستدعي حليفه المنصور صاحب حمص ليجعله قائدا على عساكره ، لما اشتهر به المنصور من الشجاعة وشدة المراس في قتال الخوارزمية ، وتطلع اسماعيل الى ان يكون النصر على الخوارزمية على يديه ،وحين قدم المنصور الى الصالح اسماعيل بدمشق " اقتضى رأيهما ان يقصدا الديار المصرية و أرسلا الى الفرنج وبذلا لهم جميع الأعمال الساحلية من الماء و مغرب اذا ملكوا مصر ، وأشرطا عليهم ان يخرجوا ويمضوا معهما الى مصر بجموعهم ، فارسهم وراجلهم ، فأجابوا الى ذلك وتحالفوا عليه " [٤] ، فقاد المنصور عسكره وعساكر دمشق ووصل اليه نجدة من حلب ،وتقرر أن يكون المنصور قائدا عاما على كل العساكر الشامية والصليبية المتوجهة إلى مصر ،وأن يقيم الصالح اسماعيل في دمشق ،

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٩٨ .

(٢) Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 p.4.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٣٧ ؛
Selections from Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 p.5

(٤) Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 p.5

وسار المنصور بالعساكر الشامية من دمشق ثم عرج على رأس كتيبة صغيرة الى عكا فدخلها ، ونزل في دار فرسان الداوية ،واجتمع بزعماء الصليبيين وتشاور معهم ،وجرى الاتفاق على خروج الصليبيين جميعا بما فيهم الاسبتارية والداوية وكل امراء الصليبيين وفرسانهم " ولم يتأخر منهم أحد "(١) . ويبدو أن مما اغرى الصليبيين على الخروج باكملهم ان المنصور وأسماعيل وعدإهم "ان يكون لهم جزء من الديار المصرية "(٢).

وساروا جميعا إلى غزة ، وبعث المنصور الى الناصر داود صاحب الكرك يطلب حضوره معه لخوض المعركة . ولكن الناصر لم يحضر بنفسه واكتفى بارسال عسكره الى المنصور بقيادة اثنين من كبار امرائه وهما الظهير بن سنقر الحلبي ،والوزيري (٣) ،فاجتمعوا وساروا نحو الخوارزمية وعسكر مصر ، وكان الصليبيون يكونون ميمنة الجيش بينما المنصور بعساكره وعساكر دمشق وكتيبة حلب في القلب أما الميسرة فكانت من نصيب عساكر الناصر داود صاحب الكرك . وكانت اعلام الصليبيين ترفرف . فوق رؤوس المنصور واصحابه ، وفي أعلا سوارى الاعلام شارات الصليب ، ومعهم الرهبان والقسيسين يدورون على كتائب العساكر الشامية يصلبون عليهم ويباركونهم وبأيديهم كاسات الخمر يسقونهم (٤) .

----

(١) Ibid. pp.5-6 ؛ وانظر ايضا ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٣٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٣٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٣٨ ؛
Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 p.6.

(٤) الصفدى : تحفة ذوي الالباب ورقة ٦٣ أ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٤٦ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣١٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٤ ؛
Selections From Tarikg Ibn al-Furat Vol.2 p.6

والتقى الجمعان في مكان يسمى اربيا على بعد بضعة أميال شمال شرق غزة يوم الاثنين ١٢ جمادى الاولى ٦٤٢هـ/١٧ اكتوبر ١٢٤٤م ودارت معركة حامية الوطيس ، وانهزمت عساكر مصر الى قرب العريش ورموا اثقالهم وامتعتهم ، غير ان الخوارزمية ثبتوا في ميدان المعركة وحاقت الهزيمة الساحقة بالقوات الشامية . فأول ما حلت الهزيمة بالميسرة المكونة من قوات الكرك فهرب الوزيري وأسر القائد الاخر الظهير سنقر الحلبي ،ثم انهزم المنصور صاحب حمص ،وعندئذ احاطت الخوارزمية بالصليبيين وحصدوهم بسيوفهم وأسروهم ، ولم ينج منهم الا القليل[١]. ووقع في الاسر من الصليبيين ثمان مئة أسير[٢]. اما عدد القتلى من الصليبيين والشامين وغيرهم فقد ذكر المؤرخ سبط ابن الجوزى أنه شاهدهم بنفسه قائلا : " ولقد اصبحت ثاني يوم الكسرة الى غزة فوجدت الناس يعدون القتلى بالقصب ، فقالوا هم زيادة على ثلاثين ألفا " وقد أيده في هذا التقدير كثير من المؤرخين[٣]. وغنم الخوارزمية وعسكر مصر

----

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٩٤ ب - ٩٥ أ ؛الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ٢٣ أ ب ؛ الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ٦٣ أ ب ؛النويرى : نهاية الارب جـ٢٧ ورقة ٧٩ أ ب ؛الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٣١ ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٤٦ - ٧٤٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٣٨-٣٣٩ ؛المقريزى جـ١ ص ٣١٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٤-١٦٥ ؛
Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 pp.6-7.

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٧ ص ٧٤٦ ؛المقريزى: السلوك جـ١ص ٣١٧ ؛
Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 p.7

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٧ ص ٧٤٦ ؛وانظر ايضا اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٩٥ أ ؛الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٥ ورقة ١٣ب - ١٤ أ ؛ الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ٦٣ ب ؛المقريزى: السلوك

===

أثقال الشاميين وأسلحتهم وموءنهم ،وأموال وخزائن المنصور صاحب حمص ، حتى انه طلب شاشا يتعمم به فلم يجده وجعل يبكي ويقول : " قد علمت أنا لما سرنا تحت صلبان الفرنج أنا لا نفلح "(١) .

ولقد كانت هذه المعركة من اعظم المعارك في تاريخ الحروب الصليبية حتى ان بعض الموءرخين ذكر انه لم يجر مثلها " لا في زمان نور الدين ولا صلاح الدين "(٢) . ويدلل بعض الموءرخين الاوربيين على فداحتها بالنسبة للصليبيين ،بأنه اشترك فيها من فرسان الداوية ثلثمائة فارس ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى ثلاثة وثلاثين ، في حين اشترك مائتي فارس من الاسبتارية ولم ينج منهم الا ستة وعشرون فارسا فقط ، وأسر رئيس الاسبتارية بينما قتل زعيم الداوية .(٣)

واذا كان بعض الموءرخين الاوربيين يعتبرون هذه المعركة من أسوأ المعارك في تاريخ الصليبيين(٤) ، فاننا نعدها بمثابة مسامير النعش الذى حملوا عليه الى هوة السقوط والاندثار على يد المماليك حين سقوط آخر معاقلهم في بلاد الشام سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م.

وعلى الرغم من قيام الخوارزمية بعد معركة غزة بشن الغارات على القرى الخاضعة للصليبيين حتى اطراف مدينة عكا(٥) . فان الصالح أيوب

=== جـ١ ص ٣١٧ ؛الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٤٨ ؛ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٥ ، Selections:op.cit.p7

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٤٦ - ٧٤٧ ؛وانظر أيضا النويرى : نهاية الأرب جـ٢٧ ورقة ٨٠ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٣٩ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٢٣ - ٣٢٤ ؛ Selections: op.cit. p.7 .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٤٦ .

(٣) Stevenson:op.cit. p.323

(٤) Campbell: op.cit. p.417, Stevenson:op.cit. p.323.

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٩٩ .

لم يشأ ملاحقة الصليبيين وتَرْكُ عدوه الصالح اسماعيل وغيره من ملوك الشام يدبرون المؤامرات ضده ،ولذلك وجه الصالح ايوب همه بعد معركة غزة الى الاستيلاء على دمشق وتقليم اظافر خصومه (١) ، غير انه لم يهمل أمر الصليبيين ففي سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٦م أمر قائده ركن الدين بيبرس والامير حسام الدين الهذباني بمنازلة عسقلان وانتزاعها من أيدى الصليبيين ،وكان الصليبيون قد بنوا أسوارها وحصنوها عقب تسلمهم لها من الصالح اسماعيل ،وحاصرها المسلمون وضايقوها ،وجُرح الامير حسام الدين خلال الحصار ،ورغم ذلك فقد واتروا الرمي عليها بالجروخ (٢) والزنبورك (٣) ،ولكنها صمدت بسبب مناعة تحصيناتها . ثم ورد أَمْر الصالح ايوب الى حسام الدين الهذباني بالمضي الى نابلس على أن يبقى ركن الدين بيبرس يحاصر عسقلان (٤) .

ومما ساعد على صمود عسقلان ما قام به هنرى ملك قبرس حين أرسل ثمان شواني تحمل مئة فارس ،وانضم اليها سبع شواني أخرى وخمسين سفينة من عكا تحمل المؤن والمساعدات لحامية عسقلان . وارسل الصالح ايوب اسطولا من احدى وعشرين شانية ليحاصر عسقلان من جهة البحر ويمنع المؤن من الوصول اليها ، وقد أبحر الاسطول المصرى سائرا نحو عسقلان ولكن عاصفة بحرية أعاقته عن الاشتباك مع السفن الصليبية وقذفت باكثر من عشرين سفينة الى الشاطيء بعد ان حطمتها وأبحرت السفن

---

(١) انظر ما سبق الفصل الثاني ،ص ١٩٠ - ١٩٢ .

(٢) الجروخ آلات حربية تستخدم لرمي السهام والنفوط والحجارة ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٦٥ حاشية رقم (٨) .

(٣) الزنبورك : الجمع زنبوركات وهي نوع من القسي ترمى بها السهام وربما تعني بعض انواع السهام ، انظر ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٤٠ حاشية رقم (٢) .

(٤) Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 p.10.

الاخرى عائدة الى مصر وتمكنا لاسطول الصليبي بعد ذلك من مد حامية عسقلان بالموءن ، ثم عاد الى عكا بسبب سوء الاحوال الجوية ، واستطاع الجيش المصرى المحاصر لعسقلان الافادة من حطام السفن المتناثرة على الشاطيء عندما صنعوا منها كبشا ضخما (١) وشق به المقاتلون طريقهم الى تحت الأسوار لنقبها . (٢)

وفي تلك الأثناء تمكن فخر الدين بن الشيخ من فتح طبرية في صفر ٦٤٥ يونيه ١٢٤٧ م ودمر تحصيناتها وذهب الى دمشق (٣) . ثم سار منجدا القوات المحاصرة لعسقلان ، وتمكن الجيش المصرى أخيرا من اقتحام عسقلان في جمادى الثاني ٦٤٥هـ/ اكتوبر ١٢٤٧م ، وقتل معظم المدافعين عن عسقلان من الصليبيين ، ومن نجا منهم وقع في الأسر ، ثم أمر الصالح ايوب بتدمير عسقلان مرة اخرى حتى لا يباغتها الصليبيون عن طريق البحر (٤) .

---

(١) الكبش وجمعها كبوش وكباش وأكبش : وهي الة تتصل بالدبابة لها رأس ضخم وقرنان تدفع نحو الأسوار لهدمها ، انظر المقريزى : اتعاظ الحنفاظ جـ٣ ص ٤٨ حاشية رقم (٤) اما الدبابة التي يركب عليها الكبش فهي عبارة عن الة سائرة من الخشب الثخين وتغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل حتى لا توءثر فيها النيران وتركب على عجلة مستديرة وتحرك فتنجر و تندفع على البكره . انظر الطرسوسي : تبصرة ارباب الالباب ص ١٨ .

(٢) رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٣٩٩-٤٠٠ .

(٣) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٨٠ ؛ ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٥٨ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٧٣ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٤٠ ، ٣٧٨ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٢٧ ؛ Selections.op.cit. pp 10-12 . ابو الفدا : ٣ ص ١٧٦ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٨٠ ؛ الذهبي : العبر جـ٥ ص ١٨٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٥٨ ؛ اليافعي : مرآة الجنان جـ٤ ص ١١٢ ؛ رنسيمان : الحروب الصليبية : ٣ ص ٤٠٠ .

الموقف بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام

عشية الغزو المغولي ٦٤٦ - ٦٥٦ هـ

كان من الطبيعي أن تؤدى معركة غزة واسترداد بيت المقدس الى ردة فعل عنيف لدى البابوية التي دأبت على الدعوة الى شن حرب صليبية عقب كل كارثة تحل بالصليبيين في بلاد الشام ، وقد استجاب لتلك الدعوة لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) الذى اشتهر بتعصبه للنصرانية وشغفه بها وحرصه الشديد على مصالح الصليبيين.(١)

تزعم لويس التاسع آخر حملة صليبية كبيرة الى الشرق وذلك تنفيذا لوعده الذى قطعه على نفسه ،وحشد جموعا ضخمة للقيام بحملته وكانت خطته تقضي بقصد مصر باعتبارها مركز القوة الاسلامية الرئيس.(٢)

وقد وصل لويس التاسع الى قبرص سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ومكث فيها عدة أشهر ،حيث استقبل رسل القسطنطينية و مملكة أرمينية ومبعوث المغول وغيرهم ،

---

(١) انظر سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٠٦-١٠٧ .

(٢) Painter:op.cit.p.218 ،= جدير أن نشير هنا الى أنه قد قام العديد من الباحثين العرب المصريين بتأليف أبحاث عن حملة لويس التاسع على مصر ،ولن نتعرض هنا لشرح الحملة بالتفصيل فالذى يهمنا موقف بلاد الشام وجهود لويس التاسع بعد ذلك في توطيد نفوذ الصليبيين بها= وعن حملة لويس التاسع على مصر انظر = محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر، حسن حبشي حملة القديس لويس على مصر والشام ، عبد الرحمن زكي ،معركة المنصورة وأثرها في الحروب الصليبية .

وتزودت قواته خلال تلك المدة بالموءن ثم ابحر قاصدا مصر للاستيلاء عليها (١). وكان الصالح أيوب في بلاد الشام حينما احتشدت الحملة في قبرس، وحينما بلغه اعتزامها التوجه الى مصر غادر بلاد الشام متوجها الى مصر للدفاع عنها رغم مرضه الشديد (٢).

والحق ان قصة هذه الحملة شبيهة بسابقتها - الحملة الخامسة - التي هاجمت مصر (٣)، فقد أرست في المكان الذى نزلت فيه من قبل الحملة الخامسة، وتمكن الصليبيون بقيادة لويس التاسع من الاستيلاء على دمياط في صفر ٦٤٧هـ/ يونيه ١٢٤٩م بعد انسحاب القوات المكلفة بحمايتها (٤).

وجدير بالملاحظة هنا الموقف الذى وقفته بلاد الشام من سقوط دمياط، حيث حاولت الضغط على الصليبيين المحتشدين في دمياط لاجبارهم على تشتيت قواتهم وارسال قسم منها الى مدن الشام الخاضعة لهم. فحينما وصل نبأ سقوط دمياط الى مدينة دمشق، خرجت قوات الصالح ايوب المرابطة بها الى ساحل الشام وهاجمت صيدا واستولت عليها في ربيع الاخر ٦٤٧هـ/ اغسطس ١٢٤٩م، وحينما بلغ ذلك الخبر القاهرة، عمت موجه من الفرح صفوف المسلمين في مصر واستبشروا به خيرا، كما

---

(١) جوانفيل: القديس لويس ص ٨١-٩٢؛ جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص ٦٤-٨٤؛ الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى "الايوبيون" ص ١٤٤-١٤٥.

(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٠٥ ب؛ ابن شاكر: عيون التواريخ جـ١٥ ورقة ١٠ ب، ابن طولون: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، القسم الاول ص ٨٩.

(٣) Painter: op.cit. p.218

(٤) ابو شامة: ذيل الروضتين ص ١٨٣؛ الحريرى: الاعلام والتبيين ص ٩٦؛ جوانفيل: القديس لويس ص ٩٥ - ٩٦،
Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 pp.17-18
جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص ١٠١-١٠٩، Painter :op.cit. p.218.

وصل الى القاهرة في جمادى الاولى ٦٤٧هـ/ سبتمبر ١٢٤٩م خمسون اسيرا من الصليبيين الذين أسروا في صيدا [١] .

غير أن مما يسترعي الانتباه هنا السهولة التي تم بها اقتحام صيدا وهي المدينة التي استولى عليها الصليبيون عند قدوم الامبراطور فردريك الثاني وحصنوها تحصينا جيدا [٢] وليس من تفسير لذلك سوى ما ذكره ابن الفرات من ان لويس التاسع عندما أبحر مع جموع الصليبيين من قبرص قاصدين مصر " انضمت اليهم افرنج الساحل جميعه " [٣] وهذا يعني انه لم يبق في صيدا سوى حامية قليلة العدد بعد انضمام الصليبيين في بلاد الشام لحملة لويس التاسع ،الأمر الذى يفسر السهولة التي سقطت بها صيدا في ايدى قوات دمشق . على أن تلك القوات لم تقم بأى عمل آخر ضد بلدان الساحل الخاضعة للصليبيين ويعود سبب ذلك الى خوف الحامية على دمشق اذا ما ذهبت في غاراتها بعيدا ولا سيما وأن حلب ما زالت حتى ذلك الحين معادية للصالح ايوب [٤] . ويبدو أن قوات الصالح أيوب لم تحتفظ بصيدا فعادت وانسحبت عنها ، اذ يشير ابن شداد الى انها ظلت بايدى الصليبيين حتى سنة ٦٥١هـ عندما أغار عليها الناصر يوسف [٥] .

ومهما يكن من أمر ،فبعد اقامة لويس التاسع في دمياط زهاء خمسة أشهر تلقى خلالها الامدادات من فرنسا بقيادات اخيه كونت

---

(١) Selections. op.cit.p.22 .

(٢) انظر ما سبق ص ٢٩١ .

(٣) Selections: op.cit.p.15.

(٤) عن علاقة حلب بالصالح ايوب ، انظر ما سبق ، الفصل الثاني ص١٩٩ .

(٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ،ج ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ١٠٠ .

بواتييه ،قرر الزحف جنوبا صوب القاهرة (١) . وكان السلطان الصالح ايوب قد اشتد به المرض وتوفي في ١٥ شعبان ٦٤٧ هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م . ورغم التكتم الشديد الذى اتبعته ارملته شجر الدر وقائد الجيش فخر الدين بن الشيخ لإخفاء خبر موته ريثما يصل ابنه المعظم تورانشاه من اقليم الجزيرة ،فقد تسرب نبأ وفاته الى الصليبيين ،الأمر الذى جعلهم يمضون قدما في سيرهم تحاذيهم سفنهم في النيل - فرع دمياط - لمهاجمة معسكر المسلمين بالمنصورة ثم الزحف على القاهرة (٢) .

وقد تمكن الصليبيون من العبور الى المنصورة ودخلوها في ذى القعدة ٦٤٧هـ/ فبراير ١٢٥٠م وجاء دخولهم اليها "اول ابتداء النصر على الفرنج" (٣) فبالرغم من استشهاد قائد الجيش فخر الدين بن الشيخ ،فان فرسان المسلمين ومقاتليهم ثبتوا " ثم تناخوا على الفرنج فطحنوهم طحنا " (٤) ولقد بلغ عدد ضحايا الصليبيين في المنصورة بضعة الاف مما جعلها بحق مقبرة الجيش الصليبي (٥) .

ولقد أجبرت هذه الهزيمة لويس التاسع على الاحجام عن التقدم ، وبعد وصول تورانشاه شدد المسلمون ضرباتهم للجيش الصليبي ،ونشبت

----

(١) جوانفيل : القديس لويس ص ١٠١ - ١٠٣ ؛ جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ص ١٣١ - ١٣٢ ؛ سعيد عاشور : مصر والشام ص ١١٠ .

(٢) Selections :op.cit.p.23. ؛ سعيد عاشور : مصر والشام ص ١١١ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٥١ .

(٤) الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٥٢ .

(٥) سعيد عاشور : مصر والشام ص ١١٢ .

معارك عديدة بين السفن الاسلامية والصليبية في نهر النيل ،وشلت حركة الصليبيين ،وانقطع المدد عنهم ،وتفشت بينهم الامراض ،ثم شن المسلمون عليهم هجوما كبيرا عند فارسكور - قرب دمياط - في محرم ٦٤٨ هـ/ مارس ١٢٥٠م وحلت الهزيمة الماحقة بالصليبيين ، ووقع لويس التاسع في الأسر، كما وقع الجيش الصليبي بكامله بين قتيل وأسير ،وسيق الملك لويس التاسع الى المنصورة حيث سجن في دار ابن لقمان (١) .

وقد حاول المسلمون خلال المفاوضات التي جرت مع اسيرهم لويس التاسع استرداد ما بايدى الصليبيين من بلاد الشام ،ولكن لويس رفض بحجة ان لا سلطان له على الصليبيين في بلاد الشام ،واخيرا تم توقيع الصلح بين الطرفين وتضمن اعادة مدينة دمياط مقابل اطلاق سراح لويس التاسع نفسه ، مع دفع مبلغ ضخم من المال لفداء بقية الأسرى الصليبيين ،واطلاق سراح أسرى المسلمين ،وان تستمر الهدنة بين الجانبين لمدة عشر سنوات (٢) .

ابحر لويس التاسع من دمياط متوجها الى عكا في ربيع الاول ٦٤٨هـ/ مايو ١٢٥٠م (٣) . في محاولة يبدو أنه قصد منها استعادة جزء من هيبته وكرامته التي مرغها المسلمون في الوحل على شواطيء النيل ،

---

(١) ابن شاكر: عيون التواريخ جـ ٥ ص ٢٤ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٨٤ ؛ الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٥٤-١٥٥ ؛ابوالفدا: المختصر جـ٣ ص ١٨١ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٥٦ ؛ ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٦٧ ؛سعيد عاشور :مصر والشام ص ١١٥ ، Selections: op.cit. pp.34-37. .

(٢) جوانفيل : القديس لويس ص ١٥٦- ١٦٣ ؛ جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ص ٢١٥- ٢١٧ .

(٣) جوانفيل : القديس لويس ص ١٨٣-١٨٤ ؛جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ٨٩- ٩٠ .

وترميم ما أصاب الوجود الصليبي في بلاد الشام من انهيار . وكان الصليبيون في بلاد الشام قد بلغوا اقصى درجات الضعف والتدهور ، اذ ان هزيمة لويس التاسع الساحقة في مصر لم تؤد الى تدمير الجيش الفرنسي فحسب بل قضت على معظم الفرسان المحاربين من الشرق الصليبي بما فيهم فرسان الداوية والاسبتارية (١) . ولم يعد للصليبيين في بلاد الشام من الطاقة والقدرة ما يستطيعون به الدفاع عن كيانهم وأخذ مصيرهم معلقا بما سوف يؤول اليه المخاض الذى أخذ يعتور بلاد الشرق الادنى الاسلامي خلال هذه الحقبة والمتمثل في انهيار الأيوبيين وقيام دولة المماليك وازدياد خطر المغول .

وعلى الرغم من أن الظروف في فرنسا كانت تستدعي عودة لويس التاسع الى بلاده ، فانه قرر بعد مشاورة كبار اتباعه أن يبقى هو في بلاد الشام ،بينما ترك الحرية لباقي الامراء في البقاء معه أو المغادرة الى فرنسا ، وقد غادر العديد من الامراء الى بلادهم وضمنهم اخوة لويس التاسع الذى فضل البقاء في بلاد الشام حفاظا على كيان الصليبيين بها (٢) .

وقد حاول لويس التاسع خلال وجوده في بلاد الشام الافادة من النزاع الذى نشب بين بقايا الأيوبيين في بلاد الشام ودولة المماليك الناشئة في مصر ، بغية تعويض الفشل الذى اصاب حملته على مصر (٣) . فبعد وصوله الى عكا استقبل رسلا انفذهم اليه الناصر يوسف صاحب دمشق

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٣٤ .

(٢) جوانفيل : القديس لويس ص ١٨٩ - ١٩٧ ؛ رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٣) Stevenson: op.cit.p.329 .

شاكيا اليه امراء مصر الذين قتلوا ابن عمه تورانشاه ،وطلب مساعدته ضد المماليك في مصر وتعهد له بتسليم بيت المقدس له اذا ساعده في تحقيق اهدافه (١) . ويبدو ان الناصر يوسف أراد ان يبرهن للملك لويس التاسع على قوته ومقدرته على تهديد الصليبيين في بلاد الشام اذا لم يوافق على عرضه ،فحين استولى الناصر على يوسف على دمشق في ربيع الاول ٦٤٨هـ/ مايو ١٢٥٠م ارسل عسكرا بقيادة رجل يدعى سعدالدين ابن نزار فنزل على حصن شقيف تيزون (٢) وانتزعه من أيدى الفرنج (٣) . ورغم ذلك فقد ذكر جوانفيل ان لويس التاسع ارسل بالجواب للناصر يوسف ، معتذرا عن اجابة طلبه بالتحالف معه ، الى ان يحصل على تعويض من المماليك الذين زعم انهم خرقوا الاتفاقية بينهم وبينه ، فاذا رفضوانهض لمساعدته ضد المماليك في مصر (٤) .

ومن الواضح أن تردد لويس التاسع في قبول عرض الناصر يوسف يرجع الى انه ما زال في مصر اثنا عشر الف أسير صليبي ، لم يشأ لويس التضحية بهم اذا ما تحالف مع الناصر يوسف ضد المماليك (٥) .

والعجيب في تفكير الناصر يوسف هذا ،أنه لم يعتبر بالدروس القاسية التي حلت بكل حاكم مسلم حاول التحالف مع الصليبيين لتحقيق

----

(١) جوانفيل : القديس لويس ص ٢٠٠ .

(٢) شقيف تيزون : اورده ابن شداد بالزاى ،بينما ضبطه ياقوت وابو الفدا بالراء ، وهوحصن منيع قرب صور ويقع شمال صفد على مسافة يوم سيرا على الاقدام . انظر ياقوت ،معجم البلدان ؛ابو الفدا :تقويم البلدان ص ٢٤٤-٢٤٥ ؛ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ قسم لبنان والاردن و فلسطين ص ١٥٩ .

(٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ١٥٩ .

(٤) جوانفيل : القديس لويس ص ٢٠٨ .

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٤٠ .

طموحاته وأطماعه على حساب الحكام المسلمين الاخرين وكان اقرب الشواهد الماثلةأمام الناصر يوسف تلك الكارثة التي حاقت بحكام بلاد الشام في معركة غزة وكان ضمن القوات التي نزلت بها الهزيمة فرقة من عسكر حلب التابعة للناصر يوسف حينما تحالف ملوك الشام مع الصليبيين ضد الصالح ايوب (١).

غير أن المماليك في مصر تمكنوا من شل مشروع الناصر يوسف الموجه ضدهم عندما أفرجوا عن بعض أسرى الصليبيين ،وأرسلوا الهدايا للملك الفرنسي ،واشترطوا عليه مقابل ذلك عدم التحالف مع الناصر يوسف ضدهم ، فاهتبل لويس التاسع تلك الفرصة وارسل الى المماليك ،يطالبهم باطلاق جميع أسرى الصليبيين وارسال رؤس الفرنج المعلقة على اسوار القاهرة واعفاءه من بقية الفدية المستحقة عليه (٢). و يفهم مما ذكره جوانفيل وابن كثير ان المماليك عرضوا على لويس التاسع تسليمه بيت المقدس سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م اذا ما ساعدهم ضد الناصر يوسف (٣).

ولما علم الناصر يوسف بنبأ الاتفاق بين لويس التاسع والمماليك أرسل اربعة الاف رجل الى غزة للحيلولة دون اجتماع الصليبيين بالمماليك ، وخرج لويس التاسع الى يافا في انتظار قدوم جيش المماليك ، وأقام بها عاما كاملا من صفر ٦٥٠ الى ربيع الاول ٦٥١هـ/ مايو ١٢٥٢- يونيه ١٢٥٣م قام خلالها بتحصين يافا ،دون ان يتحقق امله في اجتماع قواته بالمماليك

---

(١) انظر ما سبق ص ٣١١ - ٣١٧ .

(٢) جوانفيل : القديس لويس ص ٢٠٨-٢١٠ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٤٠-١٠٤١ .

(٣) جوانفيل : القديس لويس ص ٢٢٨ ،ابن كثير جـ١٣ ص ١٨٤ .

لمحاربة الناصر يوسف(١) ،لأن المفاوضات نجحت أخيرا بمساعدة مندوب الخلافة العباسية في توقيع الصلح بين الناصر يوسف والمماليك واعترف الناصر بقيام دولة المماليك وتنازل لهم عن اجزاء هامة من بلاد الشام(٢). وبذلك فشلت خطط لويس التاسع ، ولم يحقق اية مكاسب ذات شأن من النزاع الذى نشب بين الناصر يوسف ودولة المماليك في مصر.

ومن الجوانب الاخرى لنشاط لويس التاسع خلال اقامته في بلاد الشام ،قيامه بتحصينات البلدان الخاضعة للصليبيين وبخاصة عكا التي شرع في العناية بتحصينها غداة وصوله اليها في ربيع الاول ٦٤٨هـ/مايو ١٢٥٠م(٣). ثم عمر قلعة قيسارية وشيدها وحصنها ،كما اهتم بارسوف وحصنها(٤). وعمل ايضا على تقوية يافا وتحصينها وانشأ بها الابراج والخنادق وانفق على ذلك اموالا ضخمة(٥).

---

(١) جوانفيل : القديس لويس ص ٢٢٨- ٢٣٠ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٨١ ؛ جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ١٨٠-١٨١ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٤١ ؛ Stevenson: op.cit. p.330.

(٢) انظر ما سبق الفصل الثاني ص ٢١٤.

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٤٢

(٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٢٥٢ - ٢٥٤ ؛ جوانفيل : القديس لويس ص ٢١٠- ٢١١ ؛ وارسوف : مدينة على الساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا ، استولى عليها الصليبيون سنة ٤٩٤ هـ انظر ياقوت : معجم البلدان.

(٥) جوانفيل : القديس لويس ص ٢٤٦ ؛ وانظر ايضا ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٢٥٧.

اما عن الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين ،فقد وقعت بعض الاشتباكات المحدودة بين الجانبين ، غير انها لم تؤد الى تغيير الموقف لصالح اى من الطرفين (١) . على أن اخطر تلك الاشتباكات واقواها مهاجمة قوات الناصر يوسف لمدينة صيدا سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م وتمكن المسلمون خلال ذلك الهجوم من اقتحام المدينة وقتلوا بها اكثر من الف رجل من الصليبيين واضطرت حامية المدينة الى الاحتماء بقلعة صيدا الحصينة (٢) . الأمر الذى أوقع الحزن والاسى في نفس لويس التاسع وجعله يهرع الى صيدا لتحصينها وتقويتها (٣) . ويذكر ابن شداد ان الناصر يوسف صالح الصليبيين بعد هجومه على صيدا على ان تصبح المدينة مناصفة بين المسلمين والصليبيين وظلت كذلك حتى دخول التتار الى بلاد الشام سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م فانتهز الفرنج الفرصة واستولوا عليها (٤) ، ومن المدن الاخرى التي عمل لويس التاسع على تحصينها وتقويتها مدينة صور الساحلية (٥) .

واهتم لويس التاسع خلال اقامته بالشام برفع الروح المعنوية للصليبيين وفض ما وقع بينهم من خلافات (٦) . وبعد ان اقام في بلاد الشام زهاء أربع سنوات غادرها متوجها الى بلاده سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م (٧) ،بعد أن تم توقيع هدنة بين الصليبيين والناصر يوسف صاحب الشام لمدة" عشر سنين وستة أشهر واربعين يوما . . وحلف الفريقان على ذلك (٨) .

---

(١) عن هذه الاشتباكات انظر جوانفيل : الصفحات ٢٣٠ ، ٢٣٨ - ٢٤٠ ، ٢٥٠ - ٢٥٢ .
(٢) جوانفيل : القديس لويس ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٣ .
(٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ١٠٠ .
(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٤٣ .
(٦) المرجع نفسه جـ٢ ص ١٠٤٤ .
(٧) جوانفيل : القديس لويس ص ٣٦٥ - ٣٦٧ .
(٨) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٩٣ .

وفي رأينا أنّ إقامة لويس التاسع في بلاد الشام تلك المدة الطويلة لم تؤد الى أية مكاسب للصليبيين ،فلم يستطع الاستيلاء على بيت المقدس الذى قامت حملته أساسا على مصر من اجل ضمان الاستيلاء عليها . كما أن اجراءات لويس التاسع الدفاعية وتحصيناته للمدن والحصون الخاضعة للصليبيين ،لم تكن السبب في إطالة عمر الوجود الصليبي في بلاد الشام ، وانما السبب الحقيقي يعود الى المنازعات التي نشبت بين المماليك و بين الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب ، ثم الاضطراب الذى نجم عن فرار المماليك البحرية بزعامة بيبرس الى الشام ودخولهم في علاقات متشابكة مع الناصر يوسف والمغيث صاحب الكرك ، وما ترتب على ذلك من إنشغال الزعماء المسلمين في بلاد الشام ومصر بمشاكلهم ومنازعاتهم عن توحيد صفوفهم ضد بقايا الوجود الصليبي . إضافة الى الاضطراب الذى عم بلاد الشام وغيرها من بلاد المشرق الاسلامي بسبب الزحف الكاسح لجحافل المغول على بلاد المشرق الاسلامي . فهذه هي الاسباب الحقيقية التي أمدّت في عمر الوجود الصليبي بدليل انه بعد توحيد مصر والشام على يد الظاهر بيبرس وصد خطر المغول بدأت المدن الصليبية تتساقط تباعا في أيدى المسلمين .

الفصل الرابع

العلاقات الخارجية لملوك بني أيوب
وأثرها في تاريخ بلاد الشام

الفصل الرابـــع

العلاقات الخارجية لملوك بني أيوب وأثرها في تاريخ

بـــلاد الشـــــام

أولا : مع القوى الاسلاميـة :

* مع الخلافة العباسيـة .
* مع سلاجقـة الروم .
* ظهور خطر الخوارزمية .

ثانيا : مع القوى غير الاسلامية :

* مع مملكة أرمينية الصغرى .
* مع الامبراطورية الغربية المقدسة .
* ظهور خطر التتار .

العلاقات الخارجية لملوك بني أيوب وأثرها في تاريخ بلاد الشام

لم يكن الصراع مع الصليبيين هو الحدث التاريخي المهم الوحيد الذى شهدته بلاد الشام قبيل الغزو المغولي . فقد دخلت في علاقات متشابكة مع العديد من القوى الخارجية - اسلامية وغير اسلاميه - كان لها آثار بعيدة على احوال بلاد الشام قبيل الغزو المغولي .

أولا : مع القوى الاسلامية :

مع الخلافة العباسية :

قامت العلاقات بين الدولة الايوبية والخلافة العباسية على أسس قوية منذ وقت مبكر حين أقدم صلاح الدين سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م على اسقاط الخلافة الفاطمية في مصر ،واعلان الخطبة للخليفة العباسي . الأمر الذى دفع الخلافة العباسية الى إرسال الخلع والتشريفات لصلاح الدين ، وأقيمت الاحتفالات في بغداد ابتهاجا بعودة الوحدة للعالم الاسلامي بعد أن انقسم زهاء قرنين من الزمان منذ قيام الخلافة الفاطمية في مصر سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩م (١) .

وقد ازدادت العلاقات قوة ورسوخا بين صلاح الدين والخلافة العباسية بعد قيامه باستئصال جذور التشيع من مصر . وكان صلاح الدين

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ١١ ص٣٦٨- ٣٧١ ؛ البندارى : سنا البرق الشامي جـ١ ص ١١٥-١١٧ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص ٢٠٠ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٤٧ ؛ عبدالله الغامدى استرداد بيت المقدس في عصر صلاح الدين ص ٤٨-٤٩ .

يحرص دوما طوال مرحلة حكمه على اضفاء صبغة الشرعية على كل الاعمال التي يقوم بها عن طريق تأكيد ولاءه الدائم للخلافة العباسية واكرام رسل الخليفة العباسي (١).

وعلى الرغم مما حدث بعد وفاة صلاح الدين من نزاع بين خلفائه من بعده ،وما نشب بينهم من حروب ،ودخولهم في تحالفات عديدة مع قوى خارج البيت الأيوبي ،فانهم حرصوا جميعا على اعلان تبعيتهم الاسمية والروحية للخلافة العباسيةوالتمسك بالولاء لها ، رغم أنها قد دخلت منذ زمن بعيد في طور الضعف والاضمحلال ،وذلك لكي يكسبوا حكمهم صفةالشرعية بل وتنافسوا في إظهار الولاء لها. فحين توفى السلطان صلاح الدين ٥٨٩ هـ / ١١٩٣م وآلت السلطنة الى ابنه الأكبر الافضل صاحب دمشق سارع بارسال رسالتين من انشاء العماد الكاتب يشرح فيهما ارتباط البيت الأيوبي بالولاء للخلافة العباسية ، وقيام صلاح الدين بفريضة الجهاد باسمها. وأكد الافضل في رسالتيه الانتماء لها معلنا فخره واعتزازه بذلك الولاء (٢). كما أرسل من قِبَله مبعوثا بهدية قيمة الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ/ ١١٨٠ - ١٢٢٥م) وتضمنت تلك الهدية صليب الصلبوت الذى غنمه والده صلاح الدين في حطين وكان مصنوعا من " ذهب يزيد على العشرين رطلا مرصعا بالجواهر " كما أرسل فرس والده وخوذته وسيفه واربعة دروع كلها كانت " تركته وبها يقاتل "

---

(١) سعيد عاشور : ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية ، في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٦٩ - ٧٤.

(٢) انظر نص الرسالتين في ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٣ ص ٥ - ٨.

اضافة الى تحف جميلة وهدايا قيمة من الطيب والثياب وغير ذلك.(١)

اما الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب فقد جهّز هو الاخر القاضي بهاء الدين بن شداد بهدايا تبلغ " اضعاف ما سيّره أخوه الأفضل " وأرسله في أبهة جميلة وفرقة من الجند ، فسار القاضي بهدايا الظاهر الى بغداد وبلغ رسالته للخليفة العباسي وعاد الى حلب مكرما.(٢)

وتوطدت العلاقات بين الخلافة العباسية وبين السلطان العادل ، ولا سيما بعد سيطرة الاخير على مصر والشام حتى ان الخليفة الناصر لدين الله بعث سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م بالخلع وسراويلات الفتوة(٣) التي

---

(١) ابو شامة : الروضتين جـ٢ ص ٢٢٥ ؛ وانظر ايضا الاصفهاني : الفتح القدسي ص ٦٥٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٨ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٤٣٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٩ .

(٣) الفتوة نظام اجتماعي اسلامي قديم يعود الى ما تعتمد عليه الفروسية من آداب وصفات اهمها الشجاعة والقوة والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الكذب والرحمة باليتيم واكرام الضيف ومساعدة الضعيف والايثار، ومن الواضح انها تعتمد أساسا على مكارم الاخلاق التي جاء بها الاسلام ، وللفتوة ذكر في الاحاديث النبوية ، ثم نسبت الى علي ابن أبي طالب الذى اعتبره الفتيان منبع الفتوة وأصلها . وظلت الفتوة قائمة في المجتمع الاسلامي خلال العصور الاسلامية تتطور بتطورها فتقوى حينا وتضعف احيانا إلى أن عمل الخليفة الناصر لدين الله على احياء هذا النظام . وكان للفتوة مراسم وقوانين خاصة ، فلا يقبل طلب الشاب بالانتساب اليها الا اذا شهد له فتيان آخرون بتمسكه باهدابها وقيمها . ثم يحتفل بانضمامه على نسق خاص فيشد وسطه بحزام معين ثم يلي ذلك شرب كأس

===

العادل وأولاده فلبسوها في شهر رمضان من السنة نفسها (١) . وحين طلب الخليفة الناصر لدين الله من الظاهر غازى صاحب حلب سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م ان يشترى لحسابه اسلحة وذخائر ليشحن بها بعض القلاع في شرقي العراق ،أرسل الظاهر الاسلحة المطلوبة للخليفة و رفض أن يتقاضى ثمنها (٢) .

وحين وطد العادل نفوذه على بلاد الشام ومصر والجزيرة ،وبعد ان وقف بحزم في وجه الصليبيين و كبح جماحهم عن التوسع في بلاد الشام ،أرسل في اوائل سنة ٦٠٤هـ/ ١٢١٠م مملوكه الدكز العادلي وقاضي عسكره نجم الدين خليل بن المصمودى رسولين الى الخليفة الناصر لدين الله طالبا التشريف والتقليد على مصر والشام والبلاد الجزرية و خلاط فاكرمهما الخليفة وقرر اجابته الى طلبه (٣) .

=== الفتوة المكون من الماء والملح ثم يلبس سراويل الفتوة . وللمزيد من التفاصيل انظر ،ابن عمار البغدادى : الفتوة نشر فوءاد حسنين ،القاهرة ١٩٥٩م ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٠٦ حاشية رقم (٢) ؛ كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص١٤٢- ١٤٥ ؛ مريزن عسيرى : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، رسالة دكتوراه لم تطبع ص ١٠٤-١١١ .

(١) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٣٣ .

(٢) سعيد عاشور : ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية ،بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٨٠ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٣٤ ؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ٣ ص ١٨٠ ؛ابن نظيف التاريخ المنصورى ص ٥٦ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٦٠ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٦٣ .

وارسل الشيخ شهاب الدين السهروردى حاملا الخلع والتقليد للسلطان العادل ،ومر الشيخ السهروردى بحلب فخرج الظاهر في عساكره وأرباب دولته الى لقائه ،ثم سار من حلب نحو دمشق وأرسل الظاهر في صحبته قاضي مملكة حلب ابن شداد وأعطاه ثلاثة الاف دينار لنثرها على السلطان العادل عندما يلبس خلعة الخليفة ، كما بعث المنصور صاحب حماه والمجاهد صاحب حمص مبالغ من المال لنثرها أيضا (١) .

وعند اقتراب مبعوث الخليفة من دمشق خرج العادل وأولاده لاستقباله كما أغلقت الاسواق وخرج الناس جميعا لمشاهدة مبعوث الخليفة . وجلس العادل في قلعة دمشق وقدّم له الشيخ السهروردى خلع الخلافة ،وكانت مكونة من جبة أطلس اسود بطراز مذهب ، وعمامة سوداء بطراز مذهب أيضا ، وطوّقه بطوق مصنوع من الذهب المرصع بالجواهر ، وقلّده بسيف محلى بالذهب ،وقدّم له حصانا أشهب بسرج مطلي بالذهب ونشر على رأسه علم أسود مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة والقابه (٢) . وعندما لبس العادل خلع الخليفة نثر رسل الملوك عليه دنانير الذهب ابتهاجا بهذه المناسبة ،ثم خلع رسول الخليفة على ابني العادل الاشرف والمعظم وعلى وزيره ابن شكر . وركب العادل وولداه بالخلع والتشريفات وتجولا بها في شوارع دمشق ليراها الناس ، ثم وضع كرسي في احد الميادين

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٨٠ - ١٨١ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٦٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٨١ ؛ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٦٣ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٦٣-٦٤ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٠٨-١٠٩ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ١٦٦ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٥٦ ؛ ابن نصر الله ، شفاء القلوب ص ٢١٨ .

وأعلن من عليه بالتقليد للسلطان العادل ،وخوطب فيه " بشاهان شاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين " ثم توجه الشيخ السهروردي الى مصر لاضفاء الخلع بنفسه أيضا على الملك الكامل بن السلطان العادل ثم عاد الى بغداد معززا مكرما ٠(١)

ويتضح من كل هذا مدى حرص بني أيوب في بلاد الشام على اضفاء طابع الشرعية على حكمهم كما يتضح مدى الأهمية والمكانة في نفوس عامة المسلمين في بلاد الشام للخلافة العباسية ومدى تقديرهم للخليفة باعتباره امام المسلمين ورمز وحدتهم ،وليس ادل على ذلك من قيام العادل مع اولاده بالركوب بخلع الخليفة والتجول بها في شوارع دمشق ليرى الناس مدى رضى الخليفة عن السلطان وابنائه ٠

وفي سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م وصل الى بلاد الشام رسول الخليفة العباسي الناصر لدين الله ومعه كتاب صنفه الخليفة وسماه (روح العارفين) ويشتمل على أحاديث نبوية يرويها الخليفة بأسانيد عالية ،وقد سمع كتاب الخليفة في كل بلاد الشام ومصر٠ وفي حلب جلس رسول الخليفة في الجامع الكبير وحضر القاضي ابن شداد وكبار رجال الدولة واعيانها للاستماع الى كتاب الخليفة(٢) ٠ وحمل الرسول الشيخ السهروردى الى الظاهر تشريف الخلافة وكان عبارة عن فرو سمور مفشاة بثوب اطلس أسود ٠ وسيف محلى ، وجلس الملك الظاهر بين يدى الشيخ وهو يقرأ كتاب روح العارفين للخليفة ، وكان الظاهر يقف على رجليه كلما ورد ذكر اسم الخليفة اثناء القراءة احتراما واجلالا لمكانته ٠(٣)

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٨١- ١٨٢ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٦٤-٦٥ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٠٩٠

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٢٨٠

(٣) المصدر نفسه جـ٣ ص ٢٣٢- ٢٣٣٠

على أنه تجدر الاشارة هنا ،أنه اذا كان ملوك بني أيوب في بلاد الشام ومصر يتنافسون على كسب رضا الخليفة والتمسك الدائم باظهار الولاء للخلافة واعلان الانتماء لها فإنها لم تكن قادرة على ان تؤثر فعلا في سير الحوادث ، بل ولم يكن للخليفة دور يتناسب ومكانته في جهاد الصليبيين في ذلك الدور ، فيوقت حشدت فيه البابوية والغرب الأوربي كل جهودهم للاستيلاء على مصر والمتمثل في الحملة الصليبية الخامسة . فقد ذكر المؤرخ المعاصر ابن نظيف الحموى أنه حين كان الصليبيون يحدقون بدمياط سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ،وصل الى مصر سفير الخليفة الى الملك الكامل ولما أدى مهمته تبين انه جاء يحث الملك الكامل على أن يكون الخليفة الناصر لدين الله قدوته وقبلته في نظام الفتوة ورمي البندق (١) .

----

(١) البندق : هو الذى يرمى به ،والواحد بندقة والجمع بنادق . وهي كرات صغيرة تصنع من الطين او الحجارة او الرصاص و يبدو أنها فارسية الأصل ويسمونها " الجلاهقات جمع جلاهق " وكان الفرس يرمون البندق عن الاقواس كما يرمون السهام . واقتبس العرب هذه اللعبة منذ وقت مبكر وشكلوا فرقا من الجند يرمون بها ،وكان رماة البندق في العصر العباسي جماعة كثيرة ،وكانوا يخرجون الى سواد المدن وضواحيها يتسابقون في رمي البندق على الطير وغيره ويعدون ذلك من قبيل الفتوة ،وكانوا يلبسون لذلك سراويل الفتوة ، وانتشرت هذه اللعبة في بلاد العراق والشام ومصر وفارس ثم استخدموا الانابيب حيث يضغط الهواء من مؤخرة الانبوب بما يشبه انابيب البنادق . فلما ظهر البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الانابيب ،وسموا هذه الالة بندقية نسبة اليه ،وقد عني الخليفة العباسي الناصر لدين الله بالبندق حتى جعل رميه فنا لا يتعاطاه الا الذين يشربون كأس الفتوة و يلبسون سراويلها منه مباشرة او من أحد رسله بالوكالة . انظر ،جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي جـ٥ ص ١٥٩-١٦٠ .

ويعلق ابن نظيف الحموى على هدف هذه السفارة باسلوب لاذع ساخر قائلا : " فتعجب الناس من إمام العصر وهمته ".[(١)]

ولما اشتدت الضائقة بالمسلمين بعد سقوط دمياط سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م بعث الخليفة الناصر لدين الله الى سائر الممالك الاسلامية في الجزيرة والشام وغيرها يحث ملوكها على نجدة السلطان الكامل بدمياط[(٢)] . ولم تقم الخلافة نفسها بدور ملموس في جهاد الصليبيين اثناء تلك الحملة.

وبعدما توفى الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م سار ابنه الخليفة الظاهر بامر الله (٦٢٢-٦٢٣هـ/١٢٢٥-١٢٢٦م) على نهجه في إضفاء الخلع والتشريفات على ملوك بني أيوب ،فأرسل الشيخ محي الدين محمد بن الجوزى سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م الى الشام فوصل الى حلب وألبس خلع الخليفة الجديد للملك العزيز بن الظاهر ثم سار الى المعظم صاحب دمشق وبقية بني أيوب بخلع مماثلة[(٣)] .

وليس أدل على تمسك بني أيوب في بلاد الشام بالعلاقات الطيبة مع الخلافة العباسية من موقف المعظم الذى وقفه ازاء حليفه جلال الدين الخوارزمي حين تحالف المعظم معه لمواجهة اخويه الكامل والاشرف،[(٤)]

----

(١) ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص ٧٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٨٠ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٠٤.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٧ ؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ٤ ص ١٧٥ - ١٧٦ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢١٩- ٢٢٠.

(٤) انظر ما سبق الفصل الثاني ص: ١٢٣.

فهاجم الخوارزمي اطراف العراق سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وأزمع على مهاجمة بغداد فأرسل الى حليفه المعظم متهماً الخليفة بأنه الذى حرض المغول على مهاجمة الدولة الخوارزمية ،وطالب جلال الدين المعظم بالقدوم اليه لمهاجمة خليفة بغداد ، فرفض المعظم في حزم قائلا : "انا معك على كل أحد إلا الخليفة فانه إمام المسلمين ".(١)

على أن موقف المعظم هذا لا يعني أنه تخلى عن التحالف مع الخوارزمي ففي سنة ٦٢٣ هـ/١٢٢٦م طالب الشيخ محي الدين بن الجوزى المعظم بترك محالفة الخوارزمي باعتباره خارجا عن الطاعة بتهديده الخلافة العباسية في بغداد ،وأوضح له استعداد الخلافة للاصلاح بينه وبين اخوته غير أن المعظم اعتذر عن التخلي عن محالفة الخوارزمي خوفا من اطباق أخويه الكامل والأشرف على مملكته في الوقت الذى لا تستطيع فيه الخلافة تقديم المساعدة الفعالة لحمايته .(٢)

وعندما ذهب الكامل إلى اقليم الجزيرة سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م ظلت الرسل متبادلة بينه وبين الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣هـ - ٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م) مما يشير الى حرص الجانبين على استمرار العلاقات الطيبة بينهما(٣) . وفي السنة التالية ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م وصل الى مصر مبعوث الخليفة بالخلع والتقليد للسلطان الكامل ولأخيه الأشرف صاحب دمشق

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٣٤ ؛ وانظر ايضا : ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٦٠-٢٦١ .

(٢) ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٤٧-١٤٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١١٢ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٢٨٠-٢٨١ .

(٣) ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص ١٩٥ ،١٩٧ ،١٩٧-٢٠٠ .

ولابنه الصالح ايوب وغيرهم من ملوك وامراء بني ايوب (١) . وفي سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م ذهب مبعوث الخليفة مرة أخرى الى مصر وعند عودته من مصر استقبله المجاهد صاحب حمص وأهل دمشق وفقهائها وأعيانها استقبالا حافلا (٢) .

وكان ملوك بني أيوب في بلاد الشام يرون الخلافة العباسية بمثابة الملاذ الاخير الذى يتحتم اللجوء اليه وقت الأزمات ، ومما يبرهن على صحة هذا القول أن الناصر داود صاحب الكرك حين تدهورت العلاقات بينه وبين عمه الكامل سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م وبات يشعر أن عمه قد ينقض على ما تبقى من املاك ، فكّر في الذهاب الى بغداد ، وشرع في اعداد نفسه وحاشيته للرحيل " ثم سافر ملتجئا الى الخليفة ومستجيرا به ومتمسكا بذيله " (٣) واصطحب معه بعض كبار العلماء ، وحين وصوله الى بغداد أمر الخليفة المستنصر بالله باستقباله في احتفال مهيب وأمر باكرامه وانزاله بدار الوزارة (٤) . وحمل الناصر داود للخليفة هدايا قيمة من الجواهر والتحف النفيسة ، غير أن الناصر داود لم يحظ في بادئ الأمر بمقابلة الخليفة شخصيا ، لأن الأخير آثر عدم إغضاب السلطان الكامل واثارة عتبه ووحشته ، لعلمه ان الناصر داود لم يصل الى بغداد الا وهو غاضب على عمه ، الأمر الذى جعل الناصر داود يتألم لموقف الخليفة ،

----

(١) ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص ٢٣١-٢٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥١ ، ٢٥٦ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٣٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٠٠ .

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٣٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ص ١٠٠-١٠١ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٧٧ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٥٧ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٢٥١ .

فعمد الى انشاء قصيدة رائعة مكونة من تسعة واربعين بيتا يمدح فيها الخليفة ويعتب عليه رفضه مقابلته في الوقت الذى قابل فيه صاحب اربل وهو أقل منه عراقة ومكانة (١). وقد أثارت القصيدة اعجاب الخليفة المستنصر فأمر باستقباله سرا تطييبا لخاطره ،وحتى لا يُغْضِب في الوقت نفسه عمه السلطان الكامل ، وتمت المقابلة ليلا بين الخليفة والناصر داود ،ودارت بينهما المناقشات العلمية والأدبية الى آخر الليل (٢).

وحضر الناصر داود اثناء اقامته في بغداد المناظرات التي كانت تدور في المدرسة المستنصرية ،فناظر العلماء والفقهاء وأثار اعجاب الجميع (٣).

---

(١) مما جاء في القصيدة قوله :

فأنت إمام العدل والمعرق الذى ... به شرفت أنسابه ومناصبه
ويأتيك غيرى من بلاد قريبة ... له الأمن فيها صاحب لا يجانبه
فيلقى دنوا منك لم ألق مثله ... ويحظى ولا أحظى بما أنا طالبه

انظر نص القصيدة في تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٢٣-٣٢٦ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٠٢ - ١٠٦.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٢٦ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ، ص ١٠٦-١٠٧.

(٣) ذكر المؤرخ ابن واصل أن الناصر داود حكى له أنباء تلك الرحلة واخبره أنه حضر إلى المدرسة المستنصرية التى بناها الخليفة المستنصر ،واجتمع بالعلماء ،وكان الخليفة يطل على ايوان المدرسة من روشن في قصره الملاصق للمدرسة و يستمع لمناظرات العلماء . فقام احد الفقهاء ويدعى وجيه الدين القيرواني والقى قصيدة يمدح الخليفة فجاء فيها قوله مخاطبا الخليفة :

لو كنتَ في يوم السقيفة حاضرا ... كنت المقدم والامام الأروعا

===

ثم خلع الخليفة على الناصر داود وعلى اصحابه واكرمهم ،وجهزه للسفر ، وبعث في خدمته رسولا من كبار خواصه ليشفع له لدى عمه الكامل . وحين بلغ الأخير قدومه مع رسول الخليفة خرج من دمشق مع اخيه الأشرف واستقبله بحفاوة " وقبل شفاعة الخلافة فيه "(١).

وبعد أن أقام الناصر داود اياما في دمشق غادرها الى الكرك في صحبة صديقه المؤرخ ابن واصل الذى أقام في كنفه بقية سنة ٦٣٣هـ(٢) . ويشير ابن واصل الى مدى اعتزاز الناصر داود بعلاقته الوطيدة مع الخليفة العباسي فيذكر انه بعدما رجع الى دمشق من رحلته ومعه الأعلام السود جعل رنكه(٣) كله اسود تعبيرا عن انتمائه

=== فغضب الناصر داود لأن ذلك الفقيه الشاعر أساء الأدب مع ابي بكر وعمر بن الخطاب وغيرهما من كبار المهاجرين والانصار فجعل الخليفة المستنصر متقدما عليهم جميعا . وقال لذلك الفقيه بمرأى ومسمع من الخليفة " أخطأت فيما قلت ،كان ذلك اليوم جد سيدنا ومولانا الامام المستنصر بالله العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حاضرا ولم يكن المقدم والامام الأروع الا ابا بكر الصديق " فأعجب الخليفة برد الناصر داود وصدر امره بنفي ذلك الفقيه من بغداد ، انظر ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٠٧-١٠٩ .

(١) المصدر نفسه جـ٥ ص ١١٠-١١١ .

(٢) المصدر نفسه جـ٥ ص ١١١ .

(٣) الرنك - جمعه رنوك - لفظ فارسي معرب معناه اللون ،وقد استعمل بمعنى الشعار او العلامة التي يتخذها الشخص لنفسه وينفرد بها دون غيره وينقشها على ابواب بيوته وممتلكاته كما يضعها على سروج خيوله وسيوفه والاته وذخائره ، انظر ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١١٢ . حاشية رقم (٧) .

الى الخلافة . وكان الخليفة المستنصر قد لقّبه "الولي المهاجر" فلما عاد الناصر الى بلاده امر الخطباء أن يذكروا في الدعاء له اللقب الذى شرفه الخليفة به "، ولما سافر الى الكرك سافر رسول الخليفة معه ليلبسه الخلعة ويتأكد بذلك أمره وتنحسم مادة الطمع فيه " ولما وصلا الى الكرك اقيمت الاحتفالات ابتهاجا بعودة الناصر داود مع مبعوث الخلافة الذى رجع بعد فترة وجيزة الى بغداد بعد أداء مهمته " وأقام الناصر بالكرك مطمئنا آمنا لانتسابه الى الخليفة ".[1]

وهكذا أصبحت الخلافة العباسية تلعب دورا موءثرا في محاولات رأب الصدع وتسوية النزاع بين ملوك بني أيوب في وقت تفاقم فيه خطر التتار من جهة الشرق ففي سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م واثناء حصار السلطان الكامل لاخيه الصالح اسماعيل بدمشق اقنع محي الدين بن الجوزى - مبعوث الخليفة - اسماعيل بتسليم دمشق لاخيه الكامل مقابل تعويضات مناسبة.[2]
وبعد استيلاء الكامل على دمشق وصل اليه رسول آخر في السنة نفسها ومعه مئة الف دينار للسلطان الكامل وطلب منه انفاقها على العساكر لصد خطر التتار الذين شرعوا يهددون بغداد ،وحينما تسلم الكامل كتاب الخليفة وضعه على رأسه تعبيرا عن تقديره وأعلن على الفور اجابة طلب الخليفة وأمر بصرف مائتي الف دينار على اعداد العساكر و أن لا يُصرف شيء من المال الذى بعث به الخليفة وأن يعاد بكماله الى بغداد .[3]

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١١٢-١١٣.
(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٧ أ ب ؛الاصفهاني :البستان الجامع ،ورقة ٢٠٧ أ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٥٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٤٨.
(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٧ ب ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٧ ب ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٥٧.

وذكر المقريزى ان الكامل أمر بتجيهز عشرة الاف فارس بقيادة الناصر داود ، غير ان العدد لم يلبث ان انخفض الى ثلاثة الاف دون سبب معروف (١) . ومن الواضح ان وفاة الكامل في السنة نفسها واضطراب احوال الايوبيين بعده حال دون ارسال قوات كبيرة لنجدة الخلافة.

وقد بذلت الخلافة مساعيها لتطويق النزاع الذى أخذ يتفاقم بين الأيوبيين في بلاد الشام ومصر ، ففي سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨ م واثناء إقامة الصالح ايوب بنابلس وهو في طريقه الى مصر بقصد انتزاعها من اخيه العادل ،وصل محي الدين بن الجوزى رسول الخليفة المستنصر في محاولة للاصلاح بين الاخوين ،واستطاع ابن الجوزى - بمساعدة ابنه الذى أخذ يتنقل بالرسائل بين مصر والشام - الوصول الى اتفاق بين الصالح ايوب واخيه العادل على أن يكون للصالح ايوب دمشق وما يتبعها من البلاد التي كانت تابعة لها زمن الاشرف ،وتُعاد بلاد الناصر داود اليه ، على ان يحتفظ العادل الثاني بمصر ، غير ان تلك الجهود سرعان ما انهارت فجأة عندما انقض الصالح اسماعيل على دمشق واستولى عليها من ابن الصالح ايوب وما تبع ذلك من تطورات وحوادث (٢) . كما فشلت جهود محي الدين بن الجوزى ايضا في محاولة الصلح الاخرى التي حاول اجراءها بين الصالح اسماعيل وابن اخيه الناصر داود بسبب اصرار الاخير على اعادة دمشق اليه (٣) .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٥٧ -٢٥٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢١٦ ، ٢١٨-٢١٩ ،ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٤ ،وانظر ما سبق الفصل الثاني ص :١٧٤-١٨٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٤٨ ، ٢٥٢- ٢٥٣ .

وبعد أن نجح الصالح أيوب في الاستيلاء على مصر سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م حصل فورا على التقليد والخلع من الخلافة العباسية.(١)

واخفقت جهود الخلافة مرة اخرى في تسوية النزاع بين الصالح ايوب وعمه اسماعيل صاحب دمشق بسبب تعنت الأخير.(٢) وبعد أن حلت الهزيمة بقوات الصالح اسماعيل في معركة غزة سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م أرسل وزيره الى بغداد طالبا شفاعة الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م) ليتوسط في الصلح بينه وبين ابن اخيه الصالح أيوب، غير أن وزير الصالح اسماعيل لم يلق أذنا صاغية من الخليفة فعاد الى صاحبه " ولم يتحصل من رسالته على طائل ".(٣)

وبعد أن استولت قوات الصالح ايوب على دمشق سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م بعث برسول من لدنه الى بغداد " يلتمس التقليد بالديار المصرية والشام والشرق والتشريف الامامي " فاستجاب الخليفة المستعصم لطلب الصالح ايوب وبعث له بالتشريف والتقليد ويقول في ذلك المؤرخ ابن واصل: " وكنت يومئذ حاضرا فقرئ التقليد على الناس ثم لبس السلطان التشريف الأسود المذهب، والعمامة والجبة، والطوق الذهب وركب المركوب الذى قدم له بالحلية الذهب وكان يوما مشهودا ".(٤)

---

(١) المقريزى: السلوك جـ١ ص ٢٩٨.

(٢) ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٥٢.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٤١؛ وانظر ايضا ابو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٧٤.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٥١ - ٣٥٢؛ وانظر ايضا سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٥٥؛ الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٤٩؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٥٦.

ونجحت وساطة الخلافة العباسية في سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م عندما تمكن مبعوث الخليفة من تسوية النزاع الذى نشب بين ملكة حلب والصالح ايوب حول حمص ،فاصدر الصالح ايوب امره لعسكره بترك حصار حمص بعد ان كاد يستولى عليها .(١)

والحق ان الخلافة العباسية في بغداد كانت اكثر إحساسا بخطر المغول الوثنيين الذين هددوا قلب العراق وصاروا قاب قوسين أو ادنى من بغداد ،في الوقت الذى قامت فيه دولة المماليك في مصر وبدأ النزاع يشتد بينها وبين بقايا الايوبيين في بلاد الشام الامر الذى جعل الخليفة المستعصم يسعى جاهدا لتوحيد صفوف المسلمين في الشرق الادنى محاولا صد خطر المغول ،لذلك لا نعجب اذا ارسل الخليفة المستعصم الى الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب يأمره بمصالحة المعز ايبك التركماني زعيم المماليك في مصر وأن يتفقا على حرب التتار (٢) .

ففي سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م تفاقم النزاع بين المماليك في مصر والناصر يوسف صاحب الشام واستطاع الشيخ نجم الدين عبدالله بن محمد البادرائي مبعوث الخليفة التوفيق بين الجانبين قاطعا الطريق على الصليبيين في بلاد الشام للافادة من النزاع القائم.(٣) واذا كان الخلاف قد اندلع من جديد بين الطرفين بسبب خروج المماليك البحرية الى الشام فان الشيخ

---

(١) ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٧٧ ؛المقريزى: السلوك جـ١ ص ٣٣١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٢٥ .

(٢) سعيد عاشور : ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية ، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطي ص ٨١-٨٢ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٨٤ ؛ ابن نصر الله :شفاء القلوب ص ٤١٤- ٤١٥ .

البادرائي استطاع مرة أخرى تسوية الخلاف سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م.[١]

وفي سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م ارسل الناصر يوسف المؤرخ كمال الدين بن العديم بهدايا الى الخليفة المستعصم طالبا منه الخلع ، ووصل في الوقت نفسه مبعوث المعز ايبك سلطان المماليك في مصر طالبا الخلعة ايضا ، فتحرج الخليفة ،أى الزعيمين يلبي طلبه ،واستقر رأيه اخيرا على إجابة طلب المعز ايبك ،ثم احضر الخليفة سكينا كبيرة وقال لوزيره : " أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة مني في أن له خلعة عندى في وقت آخر أما في هذا الوقت فلا يمكني فاخذها كمال الدين بن العديم وعاد الى الناصر يوسف بغير خلعة"[٢] وهذا الموقف ان دل على شيء فانما يدل على إحساس الخلافة ببزوغ قو قونجم دولة المماليك وأفول نجم الدولة الأيوبية ، على الرغم من أن الخليفة المستعصم أوفى بوعده وأرسل في السنة التالية ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م الخلعة والطوق والتقليد الى الناصر يوسف بدمشق ، فركب " بالخلعة الامامية وكان يوما مشهودا "[٣].

وارسل الخليفة المستعصم سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م الى المغيث صاحب الكرك طالبا إنفاذ الناصر داود اليه لكي يقدمه على بعض العساكر لمواجهة التتار ، فسار الناصر داود مع رسول الخليفة من الكرك

---

(١) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٧ أ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ص ٥٥ - ٥٦ ؛المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٣٩٨ ، ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٥.

(٢) ابو الفداء : المختصر جـ٣ ص ١٩١ ،وانظر ايضا : اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ١٢-١٣ ؛ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٥ ؛ الغزى : نهر الذهب جـ٣ ص ١٥٧ ؛ الطباخ : إعلام النبلاء جـ٢ ص ٢٧٤.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٥٢ ؛وانظر ايضا : ابو الفداء : المختصر جـ٣ ص ١٩٢.

نحو بغداد وما أن وصلا الى دمشق حتى بلغهما سقوط بغداد بأيدى قوات المغول. (١)

وهكذا ظلت الخلافة حتى آخر لحظة من عمرها تنهض بمسوئولياتها وتعمل قدر طاقتها على توحيد جهود المسلمين لمواجهة الاخطار الخارجية ولا سيما من جانب الصليبيين والمغول . (٢)

*

مع سلاجقة الروم :

تعود جذور العلاقات بين الأيوبيين في بلاد الشام وسلاجقة الروم الى زمن صلاح الدين حيث لجأ اليه معز الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان صاحب ملطية بسبب طمع أخيه قطب الدين في مملكته ،فأكرمه صلاح الدين وزوجه من ابنة اخيه الملك العادل الأمر الذى جعل اخاه قطب الدين يحجم عن مهاجمة ممتلكاته في ملطية ومايتبعها (٣) . وفي سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م فقد معز الدين قيصر شاه ملطية لحساب اخيه الاخر ركن الدين ،فهرب الى الشام مستنجدا بحميه السلطان العادل غير أنه لم يقدم له مساعدة تذكر (٤) . ويبدو أن العادل لم يشأ في تلك الفترة الانغماس في مشكلات دولة سلاجقة الروم في وقت كان يعمل فيه جاهدا على اعادة توحيد الدولة الأيوبية وبَسْط نفوذه عليها .

---

(١) ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٩٥ .

(٢) سعيد عاشور : ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية ، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٨٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٧٦ .

(٤) المصدر نفسه جـ١٢ ص ٢٠١ .

والحق أن تَجَاوُرْ الدولة الأيوبية مع دولة سلاجقة الروم واشتراكهما معا في حدود طويلة متداخلة في شمال الشام وأعالي الجزيرة ،أدى الى قيام علاقات متشابكة بين الدولتين . وهي علاقات تميزت بالشد والجذب حسب ما تمليه مصالح كلا الدولتين . فسادتهما صفة الود والمصاهرة والمصالح المشتركة حينا ،وشابتها سمة العداء والمنافسة أحيانا . فلما استولى السلطان العادل على مملكة ابن اخيه الافضل وجرده من اكثر ممتلكاته في اعالي الجزيرة ، ولم يبق بيده غير سميساط ،أعلن الأفضل سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٣م انحيازه لسلطان سلاجقة الروم ، وبذل له الطاعة و خطب له ببلاده نكاية في عمه العادل ،فارسل سلطان سلاجقة الروم الخلع للافضل فلبسها وضرب السكة باسمه.(١)

وكانت اكثر الممالك الأيوبية الشامية تأثرا بمجاورة دولة سلاجقة الروم هي مملكة حلب نظرا لوقوعها في شمال الشام و مجاورتها لدولة سلاجقة الروم ، اضافةالى تداخُل الثغور الشامية والجزرية بين المملكتين ، حيث كان بعضها يتبع مملكة حلب وبعضها الاخر يتبع دولة سلاجقة الروم . وقد حرصت مملكة حلب في عهد الملك الظاهر على الاحتفاظ بعلاقات حسن الجوار مع دولة سلاجقة الروم لادراك الظاهر بعدم قدرته بمفرده على الدخول في مجابهة معها(٢) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٨٢ - ١٨٣ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٥٠ - ١٥٢ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٤١ .

(٢) انظر ، احمد المولوي : صحائف الاخبار ،ورقة ٥٧٦أ .

ولكن أطماع سلطان سلاجقة الروم عز الدين كيكاوس بن كيخسرو (٦٠٦- ٦١٦هـ/ ١٢١٠ - ١٢١٩م) في حلب وجميع بلاد الشام لم تلبث أن ظهرت بعد وفاة الظاهر بن صلاح الدين سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م.[1] وكان أول اجراء اتخذه كيكاوس ان أرسل الى زعماء حلب معزيا بوفاة الظاهر، ومقترحا في الوقت نفسه تعيين الافضل بن صلاح الدين صاحب سميساط أتابكا للعسكر لأنه عم الملك الصغير العزيز " وهو أولى بتربيته و حفظ ملكه " وبدا هدف كيكاوس من هذا الاقتراح واضحا ، اذ كان يرمى الى السيطرة على حلب عن طريق الافضل الخاضع لنفوذه. غير أن هذا الاقتراح لم يلق قبولا لدى أغلب الحلبيين ،واستقر الرأى اخيرا على رفضه.[2]

و عند ذلك قرر كيكاوس غزو حلب ،فحشد جموعا ضخمة من المقاتلين كما استعد بالمنجنيقات[3] ،ولكي لا يواجه مقاومة فعالة لجأ الى الاستعانة بالأفضل صاحب سميساط لعلمه أن طائفة كبيرة من عسكر حلب يميلون اليه ،فضلا عن تعاطف السكان معه ،فاستدعاه من سميساط، وحين قدومه اليه أمر باستقباله بحفاوة بالغة و قدّم اليه هدايا كثيرة من الخيل والخيام والسلاح ،واتفق معه على أن يسير في صحبته لغزو حلب ،وتضمن الاتفاق أنّ جميع ما يستولون عليه من مملكة حلب ، تُسَلَّمْ للملك

---

(١) المولوى: صحائف الاخبار ورقة ٥٧٦ أ.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٧٦-١٧٧ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥٠-٢٥١.

(٣) المولوى : المصدر نفسه ،ورقة ٥٧٦ أ ؛ ابن العديم : المصدر نفسه جـ٣ ص ١٨١.

الأفضل على أن يقيم الخطبة والسكة بها للسلطان كيكاوس ،ثم يسيرون بعد ذلك الى الشرق للاستيلاء ،على أملاك الاشرف مثل الرها وحران وغيرها (١). وعمد كيكاوس الى مراسلة بعض امراء حلب الذين يميلون الى الملك الأفضل ووعدهم بالاقطاعات المغرية في جنوب اسيا الصغرى ، ومنهم على سبيل المثال علم الدين قيصر الذى راسله وكتب له توقيعا بابلستين (٢) ، فاعلن عصيانه على الحلبيين وسار باتباعه الى السلطان كيكاوس وانضم اليه ، كما سانده في حملته بعض حكام الجزيرة وعلى رأسهم صاحب آمد (٣).

وسار كيكاوس وصحبته الافضل في ربيع الاول سنة ٦١٥هـ/ يونيه ١٢١٨ م نحو مملكة حلب ، فاستولى على قلعة رعبان وسلمها للافضل ، مما جعل سكان مملكة حلب يرحبون بحملته لميله للملك الأفضل (٤). ثم سار الى قلعة تل باشر وحاصرها حصارا شديدا حتى استولى عليها فاخذها لنفسه وولّى فيها من قبله ولم يسلمها للافضل حسب الاتفاق ،

---

(١) الصفدى : تحفة ذوى الالباب ،ورقة ١٥٠ ب ؛ العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٣٨٥ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١١٥ أ ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٤٨ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦٣- ٢٦٤ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١١٩ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٢) ابلستين : مدينة مشهورة ببلاد الروم انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨١-١٨٢ .

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٤٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦٤ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢٤٣ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ١٠٤ .

مما كان له أسوأ الأثر في نفس الاخير واستوحش واعتبر تصرف كيكاوس اول الغدر ، وبات يشعر انه يرتكب عملا خطيرا بمساعدة كيكاوس على انتزاع مملكة ابن اخيه وإزالة الملك من بيته لحساب سلاجقة الروم ، فشرع يعمل على إفشال حملة كيكاوس ،فبعد ان كان يشير عليه عقب الاستيلاء على رعبان بمعاجلة حلب قبل وصول النجدات اليها ،اصبح يشير عليه بعد الاستيلاء على تل باشر بتجريد حلب من جميع القلاع التابعة لها ، وهو يهدف بذلك الى إطالة زمن الحرب ريثما تتمكن حلب من تدبير امور الدفاع عن نفسها . كما أن الاهالي نفروا من كيكاوس حينما أخذ تل باشر لنفسه ولم يسلمها للأفضل(١) . وسار كيكاوس الى منبج فاستولى عليها وشرع في تحصينها(٢).

ولم يكن بمقدور مملكة حلب الصمود في وجه سلطان سلاجقة الروم بجيوشه الكثيفة وامكاناته الضخمة ، لذلك ارسل الحلبيون يطلبون نجدة الملك الاشرف بن العادل الذى كان يهاجم ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام لتخفيف الضغط على دمياط حيث شرعت الحملة الصليبية الخامسة تهاجم مصر ، فسار الاشرف لنجدة حلب وارسل يستدعي بقية عساكره ، كما استدعى ايضا قبائل العرب الشامية من طي وغيرهم ونزل بجيوشه خارج حلب(٣).

---

(١) العيني : عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٣٨٥ ؛المولوي : صحائف الاخبار ورقة ٥٧٦ ب ؛ابن الاثير: الكامل جـ١٢ ص ٣٤٩ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦٤ ؛ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨٢ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ص ٢٤٣-٢٤٤ ؛تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٤٠١ .

(٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ لوحة ٣٦٢ نسخة اياصوفيا ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦٦ ؛ابو الفدا : المختصرجـ٣ ص ١١٩ .

(٣) المولوي : صحائف الاخبار ورقة ٥٧٦ ب ؛ العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٣٨٥ ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٤٨ .

ويذكر صاحب صحائف الاخبار أن الاشرف اجتمع باخته ضيفة خاتون والدة الملك العزيز وتشاور معها في كيفية التصدى لخطر سلاجقة الـــروم ، فاخبرته ان الجواسيس أفادوا بأن مع السلطان كيكاوس عساكر كثيرة ، ومن الصعب مواجهته عسكريا في ميدان مكشوف ،ولا بد من استخدام الخدعة والحيلة للتغلب عليه ،فاحضرت روميا كان له علاقات وطيدة مع بعض خواص كيكاوس وقادة عسكره ،وأغرته بالمال والهدايا مقابل أن يذهب الى معسكر سلطان الروم ليخبر أحد خواص السلطان بأنه علم ان الاشرف واخته يراسلان بعض قادة السلطان ،وقد اتفقا معهم على الغدر به عند وقوع المعركة ، وانهما ارسلا رسائل لأولئك الامراء وهي في انتظارهم في مكان معين خارج حلب ،واراد كيكاوس ان يتأكد من صدق الرومي فارسل الى المكان الذي عينه مكانا للهدايا والاموال فوجدها جاهزة فعلا ،فاستوحش مـــن قادتـه ودبت الريبة والشك الى نفسه ،وظن أن هناك إتفاقا سريـــا بين قادته وزعماء حلب (١) . فارسل مقدمة عسكره نحو حلب فالتقت بهـا العرب من طي ،وبعض عسكر الاشرف في وادى بزاعا (٢) في ربيع الاخـر ٦١٥هـ/ يوليه ١٢١٨م وأنزلوا بها الهزيمة واسروا جماعة منها وقتلـــوا آخرين ،وغنموا أسلحتهم وخيولهم ، ووصل الاشرف الى ميدان المعركة وقد انتهت ، فارسل الأسرى الى حلب (٣) .

----

(١) المولوي : صحائف الاخبار ورقة ٥٧٦ ب.

(٢) بزاعا: بلدة من اعمال حلب بين منبج وحلب ، كان فيها عيون ومياه جارية واسواق حسنة ، انظر ياقوت: معجم البلدان .

(٣) المولوي : المصدر نفسه ورقة ٥٧٦ ب ؛ العيني : عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٣٨٥ - ٣٨٦ ؛ تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣٢٥ - ٣٢٦ ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٣٤٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص١٨٢ - ١٨٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص٢٦٧ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٠٩ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص١٩٦ .

وعندما بلغ النبأ كيكاوس وهو بمنبج على رأس جيشه الرئيسي أيقن بأن قادته قد غدروا به فعلا [(١)] ، وملأ الرعب قلبه ورحل مسرعا الى بلاده خائفا يترقب . ويعلق ابن الاثير على فراره هذا قائلا : "وانما فعل هذا لأنه صبي غر لا معرفة له بالحرب والا فالعساكر ما برحت تقع مقدماتها بعضها على بعض" [(٢)] . وسار الاشرف يطارد فلول عساكر كيكاوس ، واستعاد تل باشر ورعبان ومنبج وغيرها ،وأعادها جميعا الى ابن اخته العزيز صاحب حلب وذلك في جمادى الاولى ٦١٥هـ/ اغسطس ١٢١٨م [(٣)] .

والواقع انه على الرغم من هزيمة كيكاوس وفشل حملته على حلب فان تصرفه هذا يدل دلالة واضحة على انه لم يكن على وعي بطبيعة الحركة الصليبية وأهدافها . وهكذا لم يتعاون مع الأيوبيين في بلاد الشام على جهاد الصليبيين وصد الحملة الخامسة بل كان عامل تهديد للنفوذ الايوبي في شمال الشام الأمر الذى أشغل جزءا كبيرا من القوات الأيوبية في التصدى لخطر سلاجقة الروم . فلو قدر لسلاجقة الروم خلال هذه الفترة التعاون مع الأيوبيين وتم حشد قوات الجانبيين معا ضد الصليبيين لأمكن سحق الحملة الخامسة في وقت مبكر واحراز قدر كبير من النجاح ضد بقية الامارات الصليبية في بلاد الشام .

---

(١) المولوى : صحائف الاخبار ورقة ٥٧٦ ب .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٤٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨٣ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦٨ ؛ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ؛ الغزى : نهر الذهب جـ٣ ص ١١٢ ؛
The Cambridge History of Islam p.246.

وكيفما كان الأمر ، فقد توفي السلطان كيكاوس سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م وخلفه على عرش دولة سلاجقة الروم اخوه علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو (٦١٦ - ٦٣٤هـ / ١٢١٩-١٢٣٦م) "فراسل الاشرف واتفق معه"(١).

وسادت العلاقات حسن الجوار بين الأيوبيين في بلاد الشام ، وبين سلاجقة الروم اكثر من عشر سنوات وتبادل الطرفان الرسائل والهدايا والمجاملات(٢). كما زوج المعظم ملك دمشق شقيقته ابنة السلطان العادل من السلطان علاء الدين كيقباذ وتوطدت العلاقات بين الجانبين(٣). ولم يعكر صفوها سوى ما حدث من التنافس بين الأشرف وسلطان الروم على بسط نفوذهما على منطقة الجزيرة وديار بكر(٤).

ولم تلبث تلك العلاقات أن تحولت الى تحالف كامل وتنسيق شامل بين الأيوبيين في بلاد الشام بزعامة الاشرف وبين سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ بسبب الخطر المشترك الذى هدد كلا الجانبين من قبل جلال الدين منكبرتي سلطان الدولة الخوارزمية الذى استولى في سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م على مدينة خلاط عاصمة الاشرف بمنطقة

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨٨ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٠ .

(٢) انظر على سبيل المثال ،ابن نظيف : التاريخ المنصورى الصفحات ١١٢ ، ١٢١ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٣ - ١٤٤ ، ١٤٦ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢١ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٣٤ - ٤٣٥ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٨٤ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٤٦ .

(٤) انظر ايضاً ،ابن نظيف : التاريخ المنصورى ،الصفحات ١٣١ ، ١٦٥- ١٦٦ ، ١٨٠- ١٨١ ، ١٨٨ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ١٣ .

الجزيرة واصبح النفوذ الايوبي بالجزيرة مهددا لأن سقوط خلاط الحصينة يعني تهاوي بقية ممتلكات الايوبيين بسهولة في يد جلال الدين (١) .
كما شمل التهديد دولة سلاجقة الروم ، ذلك ان صاحب أرزن الروم (٢) ركن الدين جيهانشاه ، وهو ابن عم السلطان علاء الدين كيقباذ ،انضم الى جلال الدين منكبرتي وساعده على حصار خلاط ،فخشي كيقباذ أن يؤدى التحالف بين ابن عمه والخوارزمي الى تهديد دولته ، فارسل يستنجد بالسلطان الكامل واخيه الأشرف ويطلب التحالف معهما لصد خطر الخوارزمي (٣) . ويظهر من مضمون رسالة كيقباذ الى الاشرف حرصه الشديد على التحالف مع بني ايوب لدرء الخطر الذى هدد الدولتين معا ، فقد جاء فيها قوله : " والان فبلادى وأموالي بحكمك فتصل ... بالعساكر الى قرشهر - مدينة في اسيا الصغرى - وتنجرد وحدك و تصل

----

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٥٩ ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٨٧ - ٤٨٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٠٨ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٨٣- ١٨٦ ؛ النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٣٢٠- ٣٢٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٩٤ - ٢٩٧ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٤٠٨ ؛ الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٣٤ ؛ السبكي : طبقات الشافعية جـ١ ص ٣٤١ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٤٦ .

(٢) ارزن الروم : مدينة مشهورة من مدن أرمينية قرب خلاط وغالبية أهلها أرمن ولها ولاية واسعة كثيرة الخيرات ، انظر: القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص ٤٩٤ ، ياقوت : معجم البلدان .

(٣) المولوي : صحائف الاخبار ورقة ٥٨٠أ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٨٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٩٨ .

الى عندى بقيسارية نتفرج ونحظى بخدمتك ونصل أنا وانت الى العسكر بالعساكر ، فوالله لا قنعت لك بخلاط بل بجميع البلاد "(١).

وذكر ابن الاثير ان علاء الدين بلغ من حرصه على الاتفاق مع الأشرف أن أرسل اليه في يوم واحد خمسة رسل يطلب قدومه اليه ولو بمفرده(٢).

وشرع الأشرف في إعداد عساكر الشام للمضي الى سلطان الروم للاتحاد معه ضد الخوارزمي ، فطلب الاشرف من أتابك حلب نجدة فأجابه الى طلبه وجرد معه عسكر حلب بقيادة عز الدين بن مجلي(٣).

كما انضم اليه عسكر حمص بقيادة المنصور ابراهيم بن المجاهد أسد الدين شيركوه ،ونجدة من عسكر حماة إضافة الى عساكر دمشق وغيرها . وبلغ مجموع عساكر الشام التي سارت تحت قيادة الاشرف زهاء خمسة الاف فارس ،وكانت من خيرة العساكر الأيوبية في ذلك الحين لخبرتها الطويلة في حروب الصليبيين اضافة الى أن خيولهم عربية أصيلة وأسلحتهم في غاية الكثرة والجودة(٤).

وفي شعبان ٦٢٧هـ/ يوليه ١٢٣٠م توجه الاشرف بفرقة عسكرية لمقابلة السلطان كيقباذ . وسارت في اثره العساكر الشامية ، فوصل اليه بسيواس(٥) ،واستقبله بحفاوة كبيرة وقدّم له ولعساكره الشامية الاقامات

---

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٢٠٣-٢٠٤ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٨٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٠٩ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٩٨ = ويقول ابن الاثير عن عز الدين هذا ان اسمه عمر بن على وهو من الاكراد الهكارية ،ومن الشجاعة في الدرجة العليا وله الاوصاف الجميلة ،والاخلاق الكريمة ،انظر ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٩٠ .

(٤) ابن الاثير : المصدر نفسه جـ١٢ ص ٤٩٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٩٨ .

(٥) سيواس : مدينة بأرض الروم مشهورة ،تتميز بحصانتها وهي كثيرة

===

والنفقة ،فبلغ مجموع ما قدّمه له اربعمائة ألف درهم سلطانية ، وعشرين الف مكوك غلة وعشرة الاف رأس غنم ، وقدّم لكل واحد من اخوته مئة الف درهم و عددا من الخيول والسروج وغيرها ،واقاموا في سيواس سبعة أيام ، فاحضر كيقباذ خلالها زوجته ابنة العادل لمشاهدة اخوتها " وقدّموا لها وقدّمت لهم أشياء "(١) وكان في صحبة الاشرف من اخوته العزيز عثمان بن العادل وشهاب الدين غازى ،وابن اخيه الجواد يونس ابن مودود بن العادل وغيرهم من امراء بني أيوب.(٢)

وفي رمضان ٦٢٧هـ/ اغسطس ١٢٣٠م شرع الأشرف في تنظيم عساكره ، واعدادها لملاقاة جلال الدين الخوارزمي ،وارسل كيقباذ يستدعي عساكر ارزنجان(٣) لمساعدته فساروا اليه ،وفي الطريق نزلوا لأخذ قسط من الراحة في احد المروج ، فباغتهم جلال الدين على غفلة وقتل منهم زهاء ثلاثة الاف رجل ولم ينج منهم الا اعداد قليلة.(٤)

ولقد فتت تلك الكارثة التي حلت بجيش ارزنجان في معنويات عساكر الروم والشام والجزيرة ، ورغم ذلك فقد تقرر خوض المعركة ، وجرى ترتيب الجيوش المتحالفة بحيث تكون عساكر الشام في المقدمة وخلفها عساكر

=== الخيرات والثمرات واهلها مسلمون و نصارى ،والمسلمون من التركمان وعوام طلاب الدنيا و يشتغل جزء كبير من سكانها بالتجارة ،انظر القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص ٥٣٧.

(١) ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٦٠.

(٣) ارزنجان : من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط واكثر سكانها أرمن وفيها مسلمون هم أعيان اهلها ،انظر ياقوت : معجم البلدان.

(٤) سبط ابن الجوزى : المصدر نفسه جـ٨ ص ٦٦٠ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٢٠٥- ٢٠٧.

سلاجقة الروم ، والتقى الجانبان في يوم السبت ٢٨ رمضان ٦٢٧هـ/ ١٠ أغسطس ١٢٣٠م قريبا من ارزنجان في منطقة وعرة تسمى ياسى جمن [(١)] ، ولما شاهد جلال الدين كثرة العساكر ولا سيما " عسكر الشام ، فانه شاهد من تجملهم وسلاحهم ودوابهم ما ملأ صدره رعبا ، فانشب عز الدين بن علي القتال ومعه عسكر حلب ، فلم يقم لهم جلال الدين ولا صبر و مضى منهزما هو وعسكره و تمزقوا لا يلوي الأخ على أخيه " [(٢)] ومما ساعد ايضا على انتصار عساكر الشام وسلاجقة الروم أنه حين وقوع المعركة " أرسل الله ضبابا فلم ير أحد كفه " [(٣)] كما هبت رياح شديدة في وجوه عساكر الخوارزمية [(٤)] . ومن الطبيعي ان يساعد ذلك عساكر سلطان الروم لمعرفتهم بطبيعة المنطقة وطرقها بعكس عساكر الخوارزمي الذين يجهلونها تماما . وقد ظهر أثر ذلك واضحا حين اشتدت وطأة هجمات سلاجقة الروم وعساكر الشام وفر الخوارزمية باثقالهم ، وتردى أكثرهم من رؤوس الجبال ، وصادفوا في طريقهم منخفضا سحيقا فتهافت فيه أكثرهم [(٥)] ، بحيث بلغ عدد من قتل في ذلك المنخفض

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٦٠ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٢٠٧-٢٠٨ ؛

The Cambridge History of Islam p.247.

= وياسى جمن : موضع بين خلاط وارزن الروم ، انظر القزويني : اثار البلاد ص ٥٦٨ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٩٠ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٦١ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٠٩ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٠٠ .

(٥) سبط ابن الجوزى : المصدر نفسه جـ٨ ص ٦٦١ ؛ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٢٠٩-٢١٠ ؛النسوى : سيرة جلال الدين ص ٢٣١ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٩٩ ؛ ابن العديم:

===

زهاء الف وخمسمائة اضافةالى أموال الخوارزمي وخزائنه وامتعته التي غدت غنيمة سائغة لسلاجقة الروم وعساكر الشام [(١)] .

وبعد تحقيق النصر قدّم علاء الدين كيقباذ للأشرف واخوته واصحابه من ملوك الشام عطايا ضخمة من الاموال والخلع والثياب والتحف وعاد كيقباذ الى بلاده [(٢)] . اما الاشرف فقد سار الى خلاط فاستردها بعد أن اصبحت " خاوية على عروشها خالية من الاهل والسكان " [(٣)] .

ثم جرت المراسلات بين جلال الدين الخوارزمي وبين الأشرف وكيقباذ وتم الاتفاق بينهم على ان يحتفظ كل واحد بما تحت يده من البلاد ، مع إطلاق سراح الأسرى من الجانبين ، وعاد الاشرف الى دمشق سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م [(٤)] .

ولم تلبث العلاقات بين سلاجقة الروم والأيوبيين في بلاد الشام أن تدهورت سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م حين استولى الكامل على آمد وخضع له جميع حكام الجزيرة ودخلوا في طاعته " واستشعر منه علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان " [(٥)] . وانتهز سلطان الروم رجوع

=== : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٠٩ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٤٦ ، Tha Cambridge History of Islam p.247 .

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٢١٠ ؛ وانظر ايضا : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٦١ .

(٢) ابن نظيف الحموي : المصدر نفسه ص ٢١١ ؛ سبط ابن الجوزي ، المصدر نفسه ص ٦٦١ ، وقد قدر سبط ابن الجوزي قيمة الهدايا بمبلغ مليوني دينار وهو مبلغ مبالغ فيه دون شك .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٩٠ .

(٤) المصدر نفسه جـ١٢ ص ٤٩١ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٦٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٤ ص ٣٠٠-٣٠١ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٤٦ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٤ .

الكامل الى مصر سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م فاستولى على خلاط وبعض القلاع المحيطة بها ، وشرع في عمارتها ونقل اليها الفلاحين والفلال وزرعها ، وبدأ يتطلع الى بسط نفوذه على بقية بلدان الجزيرة(١) . وتطورت الامور باقليم الجزيرة الى وقوع الغارات المتبادلة والاشتباكات المسلحة بين عساكر الكامل بقيادة ابنه الصالح ايوب وبين سلاجقة الروم(٢) .

واستقر رأى الاخوين السلطان الكامل والملك الاشرف على المسير الى بلاد سلاجقة الروم والاستيلاء عليها . فكتب السلطان الكامل الى ملوك بني ايوب في بلاد الشام يأمرهم بتجهيز عساكرهم للمسير معه الى بلاد الروم ،وخرج من مصر على رأس عساكره في شعبان ٦٣١هـ/ يونيه ١٢٣٤م ، وانضم اليه ابن اخيه الناصر داود صاحب الكرك ، ثم سار الى دمشق ومنها الى سلمية حيث انضم اليه المجاهد صاحب حمص والمظفر صاحب حماة ، فضلا عن عسكر حلب بقيادة تورانشاه بن صلاح الدين وغيرهم من ملوك بلاد الشام والجزيرة من بني ايوب حتى أن المؤرخين ذكروا انه اجتمع تحت قيادته في هذه الحملة ستة عشر ملكا من بني أيوب بعساكرهم الكثيفة(٣) .

----

(١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠١ أ ؛اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٤ أ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٥٧ ؛ تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣٣٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٣١٦ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٢٥٥- ٢٥٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٧٤ ؛ المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٤٧ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٢٥٩ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٤ أ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٥٧ - ٢٥٨ ؛ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٣ ص ٢١٦- ٢١٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٧٤ - ٧٥ ؛ سبط ابن

===

والملاحظ أنه على الرغم من مشاركة عسكر حلب في هذه الحملة فانها احتفظت بعلاقات طيبة مع سلاجقة الروم ، اذ يذكر المؤرخون أن كيقباذ ارسل الى العزيز - ملك حلب - يخبره بعدم اعتراضه على مساعدة عسكر حلب للسلطان الكامل شريطة أن لا يشارك العزيز بنفسه ومما جاء جاء في رسالة سلطان الروم الى ملك حلب قوله : " انا راض منك بأن تمده بالاجناد والاموال على ان لا تنزل اليه ابدا " و في الوقت نفسه أعفى السلطان الكامل العزيز " من النزول اليه ورضي كل من السلطانين بفعله "(١) .

وتقدم السلطان الكامل بعساكره من منبج جهة بلاد الروم ، فوجد السلطان كيقباذ قد حفظ جميع الدروب التي تربط بين آسيا الصغرى ، وبلاد الشام بالرجال والعتاد ،وهي طرق يصعب سلوكها على الجيوش، فنزل السلطان الكامل على النهر الأزرق (٢) جنوب اسيا الصغرى واستطاعت عساكر سلاجقة الروم منع جيوشه من التوغل في بلادها حيث كانت تقاتل من مناطق مرتفعة لم تستطع الجيوش الشامية الطلوع اليها (٣) ،إذ من

=== الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٨٤ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٥٤ - ١٥٥ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ؛ - وعن اسماء الملوك الذين ساروا تحت قيادة الكامل ،انظر مفرج الكروب جـ٥ ص ٧٥-٧٦ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٥٤-١٥٥ .

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٦٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢١٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٧٦ .

(٢) النهر الأزرق : نهر بالثغور بين بهسنا وحصن منصور في طرف بلاد الروم من جهة حلب ،انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ،ورقة ٥٤ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٦٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢١٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٧٧ .

المعروف جغرافيا ان جنوب هضبة الاناضول عبارة عن مرتفعات وعرة صعبة المسالك ،وهكذا كانت الجغرافيا احد العوامل الرئيسة التي ساعدت على فشل حملة الكامل في تحقيق أهدافها .

ومن الصعوبات الاخرى التي برزت امام الحملة الأيوبية النقص الخطير في المؤن والغلال لدى جيش الكامل [١] ،فقد رأينا انه حشد معه معظم عساكر الدولة الأيوبية واذا كان الأمر بدا وكأنه يستطيع بتلك العساكر الوصول الى اهدافه فان الحقيقة أن تموين تلك الأعداد الضخمة مهمة بالغة الصعوبة ،ويبدو أن السلطان الكامل لم يعمل حسابها .

ومن أسباب فشل الحملة أيضا ،ان ملوك الشام علموا أن الكامل اخبر بعض خواصه أنه اذا نجح في الاستيلاء على ممتلكات سلاجقة الروم فسيقوم بتوزيعها على ملوك الشام والجزيرة من بني أيوب لينفرد هو بملك مصر والشام والجزيرة [٢] . فاجتمعوا سرا بزعامة الاشرف والمجاهد وقرروا التخاذل والعمل على إفشال حملته ،وكتبوا الى سلطان الروم كيقباذ يخبرونه بموقفهم ،فعثرت عيون الكامل على الرسل ومعهم الرسائل فاعتقلوهم وسلموها اليه فاحتفظ بها [٣] .

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٤ ب ؛ تاريخ ابن الفرات: جـ٦ لوحة ٢٦٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢١٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٧٧ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٥٥ أ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٦٠ - ٢٦١ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٧٧ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٦٤ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٤٨ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣) اليافعي : المصدر نفسه ورقة ٥٥ أ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

وعندما أدرك الكامل صعوبة موقفه بقلة الأقوات وتخاذل ملوك الشام وامتناع الطرق الى بلاد الروم بالرجال والعتاد ، لم يشأ التراجع وانما قرر المضي قدما في حملته عبر مناطق أخرى ، فرحل بالعساكر الى اطراف بهسنا في اعالي الفرات " وجهز بعض الامراء الى حصن منصور فهدموه "(١) . وجاء صاحب خرتبرت (٢) الى الكامل ودخل في طاعته وأشار عليه بغزو بلاد الروم من جهة خرتبرت لسهولة الطريق منها الى بلاد سلاجقة الروم (٣) ،فاقتنع الكامل بمشورته ،ورحل بالعساكر شرقا ،وعبر الفرات على جسر كان قد أقامه والده العادل ،وظلت العساكر تتدفق عليه عدة أيام لكثرتهم ،ثم سار الى السويداء قرب آمد وعسكر بها ،وامر المظفر - صاحب حماة - بقيادة ميمنة العسكر للمضي بهم الى خرتبرت وبعث معه احد امرائه ويدعى شمس الدين صواب العادلي وقرر الكامل ان يسير في اثرهم ببقية العساكر لدخول بلاد الروم ، ولكن المظفر وصواب العادلي ومن معهما التقوا بعساكر سلاجقة الروم بقيادة كيقباذ الذى كان يقود جيشه المكون من اثني عشر الف فارس ، فدارت معركة كبيرة بين عساكر الروم ومقدمة عساكر الكامل بقيادة المظفر ، فحلت به

---

(١) تاريخ ابن الفرات ،جـ٦ لوحة ٢٦١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٧٨ = وحصن منصور من أعمال ديار مضر يقع غربي الفرات قرب سميساط ، ياقوت : معجم البلدان .

(٢) خرتبرت : اسم ارمني والمقصود به حصن زياد الذى اشتهر زمن الدولة الحمدانية ويقع في اقصى ديار بكر من بلاد الروم بينه وبين ملطية مسيرة يومين على الاقدام ،وبينهما الفرات ،انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٦١ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢١٨ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٧٨ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٦٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٨٣ .

الهزيمة ولجأ المظفر الى قلعة خرتبرت وتحصن بها مع شمس الدين صواب العادلي ، فزحف سلطان الروم على القلعة ونصب عليها تسعة عشر منجنيقا وشدد عليها الحصار حتى نفدت الأقوات بها فطلب المظفر من سلطان الروم الأمان له ولمن معه فاجابه الى طلبه وسلمه القلعة في ذى القعدة ٦٣١هـ/ اغسطس ١٢٣٤م واستقبله علاء الدين وقدّم له هدايا قيمة ليحافظ على علاقته الطيبة مع ممالك الشام الصغيرة لكي لا توءيد سياسة الكامل واطماعه في ممتلكات سلاجقة الروم . ثم عاد المظفر الى الكامل الذى كان يعسكر بالسويداء ،وبدأت العلاقات تتدهور بينه وبين ملوك الشام الاخرين .(١)

وهكذا أدت تلك الهزيمة التي حلت بمقدمة عساكر الكامل الى تثبيط همته إضافة الى ظروف الطقس السيئة فقد " دخل فصل الشتاء وحال بين الفريقين ،وعاد كل الى بلاده ".(٢)

---

(١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠١ أ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٣ ب - ٢٣٤ أ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٥ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٦٣- ٢٦٤ ؛ ابن ايبك : درر التيجان ، مخطوط حوادث ٦٣١هـ ؛ المولوي: صحائف الاخبار ورقة ٥٨١ أ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ، ورقة ١٢٥ ب ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢١٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص٧٨- ٨٢ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٨٤ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٥٥ ؛ المقريزى : السلوك ج١ ص ٢٤٩ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٨٣ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ج ٤ ص ٧٣ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٢٠ .

وانتهز السلطان كيقباذ بن كيخسرو فرصة عودة السلطان الكامل الى مصر وانقشاع فصل الشتاء فسار بجيوشه الى الجزيرة سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٥م ونازل مدينة الرها جادا في حصارها ، فنصب عليها المجانيق واستولى عليها وعلى قلعتها ،ثم سار الى حران واستولى عليها ايضا ، وولى عليها وعلى حران الولاة من قبله ،كما سقطت في يده بعض البلدان التابعة لهما مثل سروج والرقة والسويداء وغيرها (١) . ولقد شكل استيلاء سلطان الروم على الرها وحران تهديدا خطيرا للنفوذ الأيوبي في بلاد الجزيرة والشام للأهمية العسكرية للرها وحران اللتين تقعان على اطراف الفرات الشمالية حيث تلتقي طرق المواصلات التي تربط بلاد الشام بالجزيرة والعراق واسيا الصغرى .

واذا كان السلطان الكامل سلم فعلا بفشل حملته على دولة سلاجقة الروم فانه لم يكن في مقدوره التسليم بضياع الرها وحران بسبب اهميتهما العسكرية . ولذلك بادر بتجهيز جيوشه من جديد وسار بصحبة اخيه الاشرف صاحب دمشق والمجاهد صاحب حمص والمظفر صاحب حماة ، وقطع الفرات وحاصر الرها حتى استردها في جمادى الاولى ٦٣٣ هـ/ يناير ١٢٣٦م ثم نازل حران واستعادها أيضا وأسر عساكر سلاجقة الروم الذين كانوا بهما وارسلهم مقيدين الى مصر ، كما استرد عدداً من الحصون والقلاع التي اخذها كيقباذ ثم عاد بجيوشه

---

(١) الاصفهاني : البستان الجامع ،ورقة ٢٠١ أ ب ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٤ أ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٩٢ ؛ ابن ايبك : درر التيجان ،مخطوط ، حوادث ٦٣٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٩٨ - ٩٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٢٠ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٩٤ ؛ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٣ القسم الاول ص٨١-٨٢ ، ١٠٨ ؛ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٩ ؛ خطط المقريزى : جـ ٢ ص ٣٧٧ .

الى الشام ومنها الى مصر (١) .

اما مملكة حلب فقد حرصت دائما على ان تظل علاقتها وطيدة مع دولة سلاجقة الروم ، التي رغبت بدورها أن تبقى مملكة حلب قائمة لتكون حاجزة بينها وبين الدولة الأيوبية في مصر وبقية بلاد الشام ، ويدل على ذلك ما قام به السلطان علاء الدين كيقباذ سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م عندما كف غارات التركمان في اعمال حلب وأرسل الى زعماء مملكة حلب يتعهد بحماية الملك الصغير الناصر يوسف ويعرض عليهم مساعدته ونصرته ، فرد الحلبيون بارسال الهدايا للسلطان السلجوقي فأكرم الأخير رسولهم اكراما كثيرا وحلف الايمان للملك الناصر يوسف ابن العزيز بمساعدته " والذب عن بلاده ودفع من يقصدها " على حد قول ابن العديم (٢) .

وفي شوال سنة ٦٣٤هـ/ يونيه ١٢٣٧م توفي السلطان كيقباذ وخلفه ابنه غياث الدين كيخسرو (٦٣٤-٦٤٣هـ/ ١٢٣٧-١٢٤٥م) فحرص الحلبيون على استمرار العلاقات الطيبة معه ، فارسلوا المؤرخ ابن العديم لتجديد الأيمان التي قطعها والده لمملكة حلب بالمحافظة

---

(١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠١ ب - ٢٠٢ أ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٣٨- ٣٣٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٠٩-١١٠ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٩٥ - ٦٩٦ ؛ ابو الفداء : المختصر جـ٣ ص ١٥٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٤٤ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣١٥ - ٣١٦ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٩ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٥١ ؛ ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٩٣ ؛ خطط المقريزى جـ٢ ص ٢٧٧ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٢٩- ٢٣٠ ؛ وانظر ايضا : اليافعي جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٤ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٦٧-٣٦٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٣٠-١٣١ .

عليها ومناصرتها ، و في هذا الصدد يقول ابن العديم : " فحلّفته على ذلك في ذى القعدة "[١].

وفي سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م تحالف ملوك الشام بزعامة الأشرف ضد اطماع السلطان الكامل صاحب مصر في ممالكهم ،وراسلوا سلطان سلاجقة الروم واتفقوا معه على مناصرتهم[٢] . ولما حاصر السلطان الكامل دمشق سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م أرسل صاحبها الصالح اسماعيل يستنجد بسلطان الروم غير ان الاخير لم يقدم له اية مساعدة[٣] . وحين سقطت دمشق بيد الكامل خشي الحلبيين أن يزحف على بلادهم فتابعوا إرسال الرسل الى سلطان سلاجقة الروم طالبين مساعدته ، فارسل لهم " نجدة من أجود عساكره و عرض عليهم أن يسيّر غيرها ،فاكتفوا بمن سيره " كما أرسل الى الكامل يحذره من مغبة مهاجمة حلب فتوفى الكامل في رجب ٦٣٥هـ/ مارس ١٢٣٧م وحالت وفاته دون اصطدامه بجيش سلاجقة الروم المرابط في حلب[٤] .

وازدادت العلاقات قوة ورسوخا بين مملكة حلب و بين سلاجقة الروم بعد وفاة السلطان الكامل ،ففي سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م قدِمَ الى

----

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٣٢ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٦٠ - ٣٦٢ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٢٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٢١ - ١٢٤ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٥٩ ؛ اليافعي : مرآة الجنان جـ٤ ص ٨٨ .

(٣) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٤ ب ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٦ أ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٣٦ ؛ وانظر ايضا ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٨٠ - ١٨١ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٢٦٩ .

حلب رسول السلطان غياث الدين كيخسرو خاطبا غازية خاتون شقيقة الناصر يوسف صاحب حلب على أن يتزوج الملك الناصر بدوره من اخت السلطان كيخسرو ، وقد اجاب الحلبيون ذلك الطلب وتولى المؤرخ ابن العديم عقد النكاح بين كيخسرو والأميرة الحلبية على مذهب الامام ابي حنيفة لصغر سن الزوجة ، وقبل النكاح عن السلطان كيخسرو رسوله عز الدين قاضي دوقات (١) على صداق قدره خمسون الف دينار. ونثر الذهب عند الفراغ من العقد بدار السلطنة بقلعة حلب ، ثم سافر ابن العديم الى بلاد الروم وكيلا عن الناصر يوسف ليعقد له العقد على اخت كيخسرو ،فاجتمع به قرب قيسارية وتم عقد نكاح الناصر يوسف على ملكة خاتون ابنة كيقباذ على صداق قدره خمسون الف دينار ،ثم عاد ابن العديم الى حلب بعد أن توطدت العلاقات بين سلاجقة الروم ومملكة حلب بهذه المصاهرة ،وضربت البشائر في البلدين ابتهاجا بهذه المناسبة (٢).

----

(١) دوقات اوتوقات : بلدة في ارض الروم بين قونية وسيواس ذات قلعة حصينة ،وابنية مكينه بينها وبين سيواس مسيرة يومان سيرا على الاقدام ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٤ أ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٣٤ - ٤٣٥ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٢٧ ب - ١٢٨ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٣٧ - ٢٤٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٨٣ - ١٨٥ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٢ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٣٠ - ٣٣١ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٧٢ ؛ الغزى : نهر الذهب جـ ٣ ص ١١٦ ؛ الطباخ : إعلام النبلاء جـ٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

وعلى أثر تلك المصاهرة ارسل السلطان كيخسرو الى حلب توقيعا بإقطاع الناصر يوسف الرها وسروج ،وإقطاع المجاهد صاحب حمص عانة والخابور ،وجميع هذه البلاد من املاك الصالح ايوب بن الكامل ، وحين وصل مبعوث كيخسرو الى حلب ، قبلت الملكة ضيفة خاتون - الوصية على ابن ابنها الناصر يوسف - تلك التواقيع ولكنها آثرت عدم التعرض لتلك البلاد وتركتها بيد ابن اخيها الصالح أيوب (١) .

وحينما اندلعت الحرب الأهلية في بلاد الشام بين الأيوبيين لم تجد مملكة حلب حرجا في الاستجابة لطلب السلطان كيخسرو باقامة الخطبة له بحلب مع الناصر يوسف ،ونقش اسمه على السكة ،وفي ذلك إشارة واضحة الى قبولها بالتبعية الاسمية لسلطنة سلاجقة الروم ، بعد أن غدا منصب السلطنة في الدولة الأيوبية مثار نزاع بين الصالح أيوب واخيه العادل ، وقد احتفل الحلبيون باقامة الخطبة للسلطان السلجوقي ، وجرى نثر الدنانير واظهار السرور وذلك في اواخر سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م (٢) .

ولقد دلل الحلبيون على اخلاصهم لسلطان سلاجقة الروم عندما رفضوا سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤٢م دعوة المظفر غازى بن العادل الذى طلب منهم الدفاع عنه في ميافارقين اذا ما قصده سلطان سلاجقة الروم ، وذلك حتى لا تتأثر علاقاتهم الطيبة مع السلطان

----

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٤١ - ٢٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٩٠ - ١٩١ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٣١ .

غياث الدين كيخسرو (١) .

ولقد تنافس ملوك الشام خلال الحرب الأهلية على كسب ود سلطان سلاجقة الروم لشد أزرهم في نزاعهم مع بعضهم وبعض (٢) .
وفي سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م أمر الصالح اسماعيل بن العادل صاحب دمشق باقامة الخطبة لسلطان الروم على منبر دمشق ، وظلت قائمة بضع سنوات نكاية في عدوه الصالح نجم الدين ايوب سلطان مصر (٣) .

وعندما بسط الناصر يوسف بن العزيز نفوذه على دمشق وكثير من بلدان الشام ،قدمت اليه بدمشق زوجته ملكة خاتون سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م وزفت اليه بدمشق واقيمت لها الاحتفالات الباهرة ، واقام لها النواب والقضاة استقبالات فخمة بالهدايا والاقامات على طول الطريق من بلاد اسيا الصغرى الى دمشق ،واستمرت العلاقات وطيدة بين الجانبين حتى سقوط بلاد الشام بايدى المغول سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م (٤) .

----

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٦٠ - ٢٦١ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٠٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٥٠ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٠٢ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٣٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٥٤ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٠٨ .

(٤) بيبرس : التحفة الملوكية ،ورقة ٦ ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٩١ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٩٠ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية جـ١ القسم الاول ص ٨٨-٨٩ .

خطر الخوارزميــــة :

سبق شرح الدور الذى لعبه الملك المعظم حينما تحالــف مع جلال الدين منكبرتي سلطان الدولة الخوارزمية لمواجهة تحالف أخويه الملك الاشرف والملك الكامل ضده . وبعد موت المعظم حاصر الاشرف والكامل ابنه الناصر داود بدمشق سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢١م فاستنجد الناصر داود بحليف والده جلال الدين(١) . غير أنه من الواضح ان بُعْـــد المسافة بين دمشق والدولة الخوارزمية وما يلزم رُسُل الناصر من وقــت طويل للوصول الى بلاط جلال الدين ، حال دون نجدة الأخير للناصر داود في الوقت المناسب ،فسقطت دمشق بيد الأشرف والكامل فـــي شعبان ٦٢٦هـ/ يونيه١٢٢٩م ، بينا جاءت نجدة جلال الدين متأخرة ، فتقدم في شوال ٦٢٦هـ/ اغسطس ١٢٢٩م الى الجزيرة و ضرب الحصار على مدينة خلاط عاصمة الاشرف بالجزيرة ،وظل جلال الدين يحاصرهـا مدة طويلة صمدت خلالها حاميتها التابعة للاشرف كما ابدى سكان خلاط مقاومة عنيدة للدفاع عن مدينتهم لمعرفتهم بالمصير المظلم الذى ينتظرهم اذا مااستسلموا للخوارزمي ، ورغم حلول فصل الشتاء وشدة البرد وهطول الثلج ،فقد أظهر جلال الدين الخوارزمي عزما منقطع النظير في حصــار خلاط حتى سقطــت بيده قهرا في اواخر جمادى الأولى ٦٢٧هـ/ابريل ١٢٣٠م ، ووضع جلال الدين السيف في رقاب سكان خلاط ، وقتل كل من ظفر به منهم ، ولم ينج منهم الا اعداد قليلة ،ودمر الخوارزميون خــلاط

----

(١) انظر ما سبق الفصل الثاني ، ص ١٤١ .

بكاملها وسبوا النساء واسترقوا الأطفال [١].

ولقد ادى سقوط خلاط - كما سبق أن اوضحنا - الى تكوين تحالف قوى بين الايوبيين وسلاجقة الروم وتمكنوا من انزال الهزيمة الساحقة بالخوارزمي عند ياسي جمن وما ترتب على ذلك من مراسلات بين جلال الدين والاشرف حتى توصل الجانبان الى عقد الصلح بينهما [٢].

والحق أن الاشرف لم يكن يسعى الى تحطيم قوة جلال الدين وانما كان هدفه فقط ابعاد خطره عن أملاك الايوبيين ،فقد جاء في رسالة بعث بها الاشرف لجلال الدين قوله : " فما اشتهينا نتم أذيتك لأن خلفك أعداء كثيرين " [٣] ، كما جاء في رسالة اخرى بعث بها الأشرف الى وزير جلال الدين قوله " ان سلطانك سلطان الاسلام والمسلمين وسندهم والحجاب دونهم ودون التتار وسدهم " [٤] وهذا يعنى أن الأشرف أدرك اهمية بقاء الدولة الخوارزمية سدا منيعا امام التتار ،ولذلك سعى لعقد الصلح مع جلال الدين . غير ان الأمر لم يتطور الى اقامة جبهة اسلامية متحدة تقف في وجه المغول ،وترك جلال الدين وحده ليقف أمام خطر المغول الذين قضوا على دولته قضاء مبرما وهددوا بقية الدول الاسلامية الاخرى في بلاد الشرق الأدنى .

----

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٤٨٧ - ٤٨٨ ؛ النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٩٤- ٢٩٥ ؛
The Cambridge Medieval History Vol.IVV p.748

(٢) انظر ما سبق ص : ٣٥٧ - ٣٦٢ .

(٣) ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص ٢١٦ .

(٤) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٣٤ .

وعلى أية حال ، فقد هُزِمَ جلال الدين امام المغول ودخل الى اقليم الجزيرة حيث اغتاله أحد الاكراد قرب ميافارقين سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م وسقطت بموته الدولة الخوارزمية (١) . وجاءت نهايته كارثة مزدوجة مُنِيَتْ بها منطقة الشرق الأدنى فمن ناحية ، خلت المنطقة من الدولة الخوارزمية التي وقفت ردحا من الزمن تحت قيادة جلال الدين في وجه التتار ، ومن ناحية اخرى دخل أتباعه منطقة الجزيرة واسيا الصغرى وشنوا غارات مدمرة على بلاد الشام والجزيرة ، كان لها اثار سيئة على هذه البلاد قبيل الغزو المغولي .

تمزقت عساكر جلال الدين بعد هزيمته ، ولكنهم عادوا فتجمعوا ، ودخلوا آسيا الصغرى ، فاستخدمهم السلطان علاء الدين كيقباذ وكانوا يزيدون على اثنى عشر الف فارس ، وكان لهم جماعة من المقدمين على رأسهم حسام الدين بركة خان ، وكشلوخان وبردى خان ، وساروخان ، وقد ظلوا في خدمة السلطان السلجوقي كيقباذ الى أن توفي سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م وخلفه ابنه كيخسرو فقبض على زعيمهم بركة خان ، فخرجوا عن خدمته ، ونهبوا بلاده وعبروا الفرات الى الجزيرة ، فاستمالهم الصالح أيوب ، وأرسل الى أبيه الكامل يستأذنه في تجنيدهم ، وأقطعهم مواضع بالجزيرة وتوسط

---

(١) النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٨٢ - ٣٨٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٢٠ - ٣٢٢ ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٩٧ - ٥٠٤ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٤٧ .

في اطلاق سراح زعيمهم بركة خان من أسر كيخسرو (١) .

ولم يلبث الخوارزمية أن خرجوا على الصالح أيوب حين بلغهم نبأ وفاة والده ٦٣٥هـ/١٢٣٨م ،فخشي منهم على نفسه وذهب الى سنجار واختفى بها " وتحكمت الخوارزمية في البلاد الجزرية " (٢) الأمر الذى أطمع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في سنجار ، فسار اليها وحاصرها حصارا شديدا ،وتمكن الصالح ايوب اثناء الحصار من استمالة الخوارزمية من جديد ، فقدموا اليه وأنزلوا الهزيمة بصاحب الموصل ونهبوا معسكره ، واشتد بهم عضد الصالح ايوب (٣) . وقرر المضي في استخدامهم والتقرب اليهم فزوج زعيمهم بركة خان من اخته لامه ، وأقطعه الرها وحران سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م (٤) .

ومن الملاحظ أن الخوارزمية لم يكونوا يعرفون الاخلاص في الولاء والطاعة بل كان ولاؤهم لمن يدفع لهم أكثر ، فحالما اندلعت الحرب الأهلية في بلاد الشام استدعاهم المظفر صاحب حماه وحاصر بهم حمص، غير ان صاحبها المجاهد را سلهم بدوره وبذل لهم الأموال والعطايا فأخذوها منه مما أفزع المظفر وخشي أن ينقلبوا ضده فعاد الى بلاده بينما ترك

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٧١ - ٣٧٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٣٢ ؛ ابن واصل ،مفرج الكروب جـ٥ ص ١٣٣-١٣٥ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٥٩ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٤٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٩٧ ؛ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٧٨-١٧٩ ؛ وانظر ايضا سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٠٤ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٢ ،المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٦٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٨٦-١٨٩ ؛ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٤٢-٢٤٣ ؛سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٠٤ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٩٧ .

الخوارزمية حصار حمص وعادوا الى إقطاعاتهم بالجزيرة(١) .

وبعدما أُعتقل الصالح ايوب بالكرك سنة٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م(٢) ،رحل أحد اتباعه ويدعى جمال الدين بن مطروح الى الجزيرة واجتمع بزعيم الخوارزمية بركة خان وطلب منه النهوض لنصرة الصالح أيوب ،والاغارة على مملكتي حلب وحمص بسبب تحالفهما مع الصالح اسماعيل ضد الصالح ايوب ومهاجمتهما للمظفر صاحب حماه الحليف المخلص للصالح ايوب(٣) .

فشرع الخوارزمية في الضغط على الحافظ ارسلان بن العادل صاحب قلعة جعبر ،حتى اضطر لتسليمها الى اخته ضيفة خاتون-الوصية على مملكة حلب-وامتدت غارات الخوارزمية إلى بالس(٤) و نهبوها ففر سكانها الى منبج وحلب(٥) .

ولما عبر الخوارزمية الفرات ،ووصلوا بغاراتهم الى بلاد الشام وهددوا مملكة حلب ،أصبح لا مناص من التصدى لخطرهم سيما وأنهم دأبوا على محاكاة المغول في غاراتهم على البلاد ، اذ مارسوا أعمال التخريب والقتل والنهب والهتك دونهوادة أو رحمة . فخرج اليهم عسكر حلب بقيادة المعظم تورانشاه بن صلاح الدين في زهاء ألف وخمسمائة

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٠٥-٢٠٦ ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٣ ،المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٨٠ .

(٢) انظر ما سبق الفصل الثاني ص ١٧٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٤) بالس : بلدة بالشام بين حلب والرقة على ضفة الفرات الغربية انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٥) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٦٦ - ٥٦٧ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ؛ابن واصل : مفرج الكروب ،جـ٥ ص ٢٧٩- ٢٨٠ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٠٢-٣٠٣ ؛ الصفدى: الوافي بالوفيات جـ٨ ص ٣٤٢ .

فارس فقط لأن بقية عسكر حلب كانوا موزعين على القلاع مثل شيزر ،وحارم وقلعة جعبر وغيرها لحمايتها ، اضافة الى إرسال نجدة من حلب الى سلاجقة الروم لمساعدتهم في صد غارات المغول ،في الوقت الذى كان فيه عدد الخوارزمية يزيد على اثني عشر الف فارس ، فضلا عن انضمام الامير علي ابن حديثة الطائي بجموعه من العرب الى الخوارزمية نكاية في الحلبيين الذين تحالفوا مع بعض القبائل الأخرى المنافسة له (١) .

والتقى الفريقان بوادي بزاعا بين حلب ومنبج الى الشمال الشرقي من حلب في ربيع الاخر ٦٣٨هـ/ نوفمبر ١٢٤٠م وصدم عسكر حلب الخوارزمية صدمة قوية تزحزحوا لها ،الا ان الخوارزمية تكاثروا عليهم ، كما ان العرب بقيادة علي بن حديثة خرجوا من بين البساتين ، التي كمنوا بها ،وأطبقوا جميعا على عسكر حلب ،وانزلوا بهم هزيمة شديدة وقتلوا اكثرهم وأسروا اخرين ،وكان ضمن الأسرى قائد العسكر الحلبي المعظم تورانشاه بن صلاح الدين بعد أن اصيب بجروح بالغة كما أُسر اخوه نصرة الدين ،وقُتل ابن اخيه الصالح بن الأفضل ،وابن الملك الزاهر ،وجماعة أخرى من كبار القادة ،وحالما وقعت الهزيمة بعسكر حلب قام حلفاؤهم من العرب بنهبهم ،فكانوا أشد عليهم من أعدائهم (٢) .

----

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٦٧ - ٥٦٨ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٨١ - ٢٨٣ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٦٨ - ٥٧٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٠ - ٢٥١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٧ ؛ابن آيبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٤١ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٠٣ .

وبعد المعركة مباشرة نزل الخوارزمية حول حيلان (١) وانتشروا على نهرها الى قرية قافين (٢) ، وفرضوا اتاوة حربية على الأسرى ، وقتلوا طائفة منهم مما دفع الباقين الى تقديم الاموال مقابل خلاصهم ،وبعد أن أخذوا منهم الأموال اطلقوا بعضهم ،وغدروا بالباقين فلم يطلقوا سراحهم. (٣)

وترتب على المعركة انتشار الاضطراب والذعر في داخل مدينة حلب ،فأمرت ضيفة خاتون الوصية على عرش حلب بحفظ الأسوار والابواب ،وجفل سكان القرى الى حلب فدخلوها بأموالهم وامتعتهم ، ولم يكن بالمدينة غير مائتي فارس قاموا بحراسة اسوارها (٤) .وأرسل الخوارزمية سراياهم الى أعمال حلب لشن الغارة على قراها ، وبلغوا عزاز وتل باشر وجبل سمعان وبرج الرصاص (٥) ، وبلد الحوار (٦) ،وطرف العمق (٧) .

----

(١) حيلان : من قرى حلب تخرج منها عين فوارة كثيرة الماء ثم تسيل كالنهر الى حلب وتدخل اليها في قناة وتتفرق الى الجامع والى جميع احياء مدينة حلب ،انظر ياقوت: معجم البلدان .

(٢) قافين : قرية معروفة قرب حلب انظر ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥١ حاشية رقم (٤) .

(٣) تاريخ ابن الفرات، جـ٦ لوحة ٥٧٠ ؛ابن العديم زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٨٤ .

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٧٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٢ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٨٤- ٢٨٥

(٥) برج الرصاص ،قلعة لبهارساتيق من أعمال حلب قرب انطاكية ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٦) الحوار: كورة بين عزاز والجومة من نواحي حلب ،انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٧) العمق ،كورة بنواحي حلب ،قبالةانطاكية ومنها تصدر اكثر الميرة التي تستهلكها أنطاكية ،انظر ياقوت : معجم البلدان .

وقد باغتوا سكان هذه البلاد وهم غافلون فنهبوا كل ما وجدوه من المواشي والأموال والامتعة وسبوا الحريم والصبيان و قتلوا الأطفال ، وارتكبوا من الفواحش مع نساء المسلمين ما لم يفعله الا الكفار والمغول ، ثم رحلوا الى الباب (١) وبزاعا فعذبوا سكانهما حتى اخذوا جميع اموالهم ، ثم رحلوا الى منبج ودخلوها في ٢١ ربيع الاول ٦٣٨هـ/اكتوبر ١٢٤٠م وقتلوا اكثر اهلها ونبشوا القبور بحثا عن الاموال وسبوا النساء والاطفال ،ووصلت الوحشية بهم درجة موغلة في الهمجية والبربرية ، حتى أن طائفة من نساء منبج دخلن المسجد الجامع للامتناع به . فاقتحم الخوارزمية عليهن الجامع وفعلوا ببعضهن الفاحشة داخله "وكان الواحد منهم يأخذ المرأة وعلى صدرها ولدها الرضيع فيأخذه منها ويضرب به الأرض و يأخذها ويمضي " . ثم عاد الخوارزمية الى اقطاعاتهم شرقي الفرات بعد أن دمروا وخربوا العمران حول مدينة حلب (٢) .

ووصل خبر هزيمة الحلبيين وغارات الخوارزمية المدمرة الى حمص حيث كان المنصور ابراهيم بن المجاهد يتأهب لشن الغارة على معاقل الصليبيين ومعه زهاء الف فارس من عساكر حمص ودمشق ، فقرر صرف النظر عن قتال الصليبيين وسار بقواته على عجل لنجدة حلب ،وعندما وصلها اتفق معه الحلبيون على توحيد الجهود وتجنيد العساكر لمواجهة

----

(١) الباب : بليدة في طرف وادى بطنان من أعمال حلب بينها وبين منبج ميلين وتبعد عن حلب عشرة أميال ،انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٧٠-٥٧١ ؛ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ ؛ انظر ايضاً أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٧-١٦٨ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٠٣ .

خطر الخوارزمية " ووقع التوثق منه وله بالأيمان والعهود ".(١)

وأرسل الحلبيون المؤرخ كمال الدين بن العديم الى دمشق لأخذ يمين الصالح اسماعيل للملك الصغير الناصر يوسف صاحب حلب ولجدته ضيفة خاتون ابنة العادل ،وطلب ابن العديم منه إرسال نجدة أخرى الى حلب لمساعدتها على الصمود في وجه الخوارزمية فاجابه الى طلبه ، كما اطلق الحلبيون أسرى الداوية لكي يكتفوا شرهم ويتفرغون لمواجهة الخوارزمية(٢).

أما الخوارزمية فحالما سمعوا باجتماع العساكر في حلب احتشدوا في حران وقرروا العبور مرة اخرى الى حلب قبل إكتمال العساكر بها ، وكانت السيدة ضيفة خاتون قد استمالت زعماء العرب بالعطايا والاقطاعات ، فانفصلوا عن الخوارزمية ،وانضموا الى خدمة الحلبيين ،وسار الخوارزمية من حران في رجب ٦٣٨هـ/ فبراير ١٢٤١م وعبروا الفرات ،فبرز اليهم المنصور ابراهيم وعسكر شرقي حلب في انتظارهم(٣).

ووصلت الخوارزمية الى الفايا(٤) ثم الى دير حافر(٥) والى

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٣- ٢٥٤ ؛ وانظر ايضا : تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ص ٥٧١ -٥٧٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٧٣ ؛ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٤ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٨٨ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٧٣ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٤ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٤) فايا : كورة كبيرة بين منبج و حلب و هي تابعة لمنبج وتقع في قبلتها عند وادى بطنان ولها قرى عامرة وبساتين وعيون جارية انظر ياقوت : معجم البلدان.

(٥) دير حافر : قرية بين حلب وبالس ،ياقوت : معجم البلدان.

الجبول [١] وظل المنصور معسكرا في مكانه دون الاشتباك معهم ،ثم ساروا الى تل أعرن [٢] وحدثت بعض المناوشات بينهم وبين العرب ، وعاثت الخوارزمية في القرى التي مروا بها فاحرقوا الأقوات وأخذوا ماقدروا عليه ،وكان السكان قد فروا خلال جولاتهم السابقة عن قراهم . ثم تقدمت الخوارزمية الى سرمين [٣] واقتحموا بها دار الدعوة التابعة للاسماعيلية ،وكان السكان قد وضعوا فيها امتعتهم وأموالهم ظنا منهم ان الخوارزمية لا يجسرون على التعرض لها خوفا من الاسماعيلية ،ثم أوغلوا في غاراتهم الى معرة النعمان جنوب حلب ،فساروا الى بلدة كفر طاب وأحرقوها ،وتقدموا الى شيزر و نهبوا ربضها ،وقذفهم المدافعون عن قلعة شيزر الحصينة بالجروخ والحجارة وقتلوا منهم جماعة . وحين بلغ الخوارزمية استعداد عسكر حلب للقائهم وأنه سيقطع عليهم خط الرجعة الى اقطاعاتهم ،ساروا الى جهة حماة وتجاوزوها جنوبا ،ولم يتعرضوا لقرى مملكة حماة بالأذى لأن ملكها المظفر كان من أشد المناصرين للصالح أيوب ،وهم يظهرون ان كل ما يفعلونه من نهب وتخريب انما هو خدمة له وتنكيل باعدائه . ودخل بعضهم حماة فباعوا جزءا من الغنائم التي نهبوها وتزودوا بما يحتاجونه . [٤]

---

(١) الجبول قرية كبيرة الى جانب ملاحة حلب وفي الجبول يصب نهر بطنان ويسمى نهر الذهب ثم يجمد ملحا فيمتار منه كثير من بلدان الشام والجزيرة ويبلغ مقدار ما يباع منه مئة وعشرون الف درهم سنويا ،انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) تل أعْرَن : قرية كبيرة جامعة من نواحي حلب ذات كروم وبساتين ومزارع ،ياقوت : معجم البلدان .

(٣) سرمين : بلدة مشهورة من اعمال حلب اكثر اهلها اسماعيلية ، ياقوت معجم البلدان .

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٧٣ - ٥٧٤ ؛ابن العديم :

===

وخشيت الخوارزمية من اعتراض عسكر حلب بقيادة المنصور لهم اذا ما عادوا من الطريق التي سلكوها عبر مملكة حلب ،فساروا الى سلمية ، ثم انطلقوا شرقا عبر الصحراء طالبين الفرات لعبوره عند الرقة ، وحين سمع الحلبيون بوجهتهم الجديدة ساروا لاعتراض طريقهم واصطدمت الخوارزمية بجموع العرب المحالفين لحلب قرب الرصافة (١) ، وقد تعبت خيول الخوارزمية وضعفت من شدة السير وطول المسافة وقلة العلف في الصحراء ،فلم تستطع الخوارزمية مواجهة العرب ، فالقوا باثقالهم وكل ما معهم من غنائم ،فاشتغلت العرب بنهبها مما اتاح الفرصة للخوارزمية للمسير الى الفرات فوصلوه قبالة الرقة في الخامس من شعبان ٦٣٨هـ/ اواخر فبراير ١٢٤١م غير ان عسكر حلب بقيادة المنصور وصل الى صفين (٢) بعد وصول الخوارزمية اليها بساعة واحدة ، فتحصن الخوارزمية في بعض البساتين وتمكنوا من عبور الفرات ليلا الى حران (٣) . وعبر المنصور بعساكره الفرات وتعقبهم الى قرب سروج والرها ، فعمدت الخوارزمية الى تجنيد عامة السكان من اهل حران لشد أزرهم وتكثير عددهم ، غير أن عسكر المنصور لم يعبأ بذلك ، والتقى بالخوارزمية قرب الرها في ٢١ رمضان ٦٣٨هـ/ مارس ١٢٤١م ونشبت المعركة بين الجانبين فانهزم الخوارزمية

== زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٥- ٢٥٦ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٨٨- ٢٩٠ ؛ وانظر ايضا ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٨ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٠٣ .

(١) الرصافة : مواضع كثيرة ،والمقصود هنا رصافة الشام وتقع غربي الرقة على البر وتبعد عنها اربعة فراسخ انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) صفين : موضع مشهور على شاطئ الفرات الغربي بين الرقة وبالس ، ياقوت : معجم البلدان .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٧٤- ٥٧٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٩٠- ٢٩٢ .

ونهب الحلبيون وحلفاؤهم معسكرهم ، ففر الخوارزمية الى حران وأخذوا نساءهم وهربوا ،والمنصور بعساكره في اثرهم حتى لجأوا الى عانة (١) التابعة للخليفة العباسي ، فتوقف الحلبيون عن مطاردتهم. (١)

وقطف الحلبيون ،وصاحب الموصل ،وسلاجقة الروم ثمار هزيمة الخوارزمية ، فعم الفرح مدينة حلب ،وضربت البشائر بها ،ووصلت أعلامهم وأسراهم الى حلب ،واستولى العسكر الحلبي بعد المعركة على حران وقلعتها ،واطلق سراح الاسرى الذين بها . كما جاء صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ واستولى على نصيبين (٣) ودارا (٤) ،واطلق سراح المعظم تورانشاه بن صلاح الدين من اسره بدارا ،وأحسن اليه وقدم له الهدايا وأرسله مكرما الى عسكر حلب ،كما استولى الحلبيون ايضا

---

(١) عانة : بلدة مشهورة على الفرات قرب الحديثة وهيت ،تعد في اعمال الجزيرة ،ياقوت : معجم البلدان .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥٧٦ ؛ ابن العديم زبدة الحلب ج٣ ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٢٩٢- ٢٩٣ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٣٤ ؛ابو الفدا: المختصر ج٣ ص ١٦٨ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٤٤ ؛ المقريزى : السلوك ج١ ص ٣٠٣ ؛ ابن نصر الله ، شفاء القلوب ص ٤١٠- ٤١١ ؛ الغزى : نهر الذهب ج٣ ص ١٥٢- ١٥٣ .

(٣) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل من الموصل الى الشام وقيل ان فيها وفي قراها قرابة اربعين الف بستان مما يشير الي غناها ،وبينها وبين الموصل مسيرة ستة ايام ،انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) دارا : في لحف جبل بين نصيبين وماردين من بلاد الجزيرة ، هي ذات بساتين ومياه جارية ،ياقوت ،معجم البلدان .

على سروج والرها ،ورأس عين [١] ،وجملين [٢] والموزر والرقة وضموها جميعا الى مملكتهم . اما المنصور ابراهيم ابن صاحب حمص فقد اخذ لنفسه بلاد الخابور [٣] وقرقيسياء [٤] . بينما استولى سلاجقة الروم على السويداء . وكان سلطان الروم قد بعث بنجدة لمساعدة المنصور وعسكر حلب على قتال الخوارزمية ولكنها وصلت بعد انتهاء المعركة ، فارسل الحلبيون لافرادها الخلع والنفقات ثم ساروا جميعا الى آمد وانتزعوها من يد تورانشاه بن الصالح ايوب [٥] .

---

(١) رأس عين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر ،وتبعد عن كل من نصيبين وحران زهاء خمسة عشر فرسخا وعن دنيسر عشرة فراسخ وفي رأس عين عيون كثيرة تجتمع فتصب في نهر الخابور ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) جملين والموزر : قلعتان لهما علان متسعان من بلاد مضر وديار بكر على مسيرة يوم من حران ،انظر ابن شداد ،الاعلاق الخطيرة جـ٣ ص ٦٨ .

(٣) الخابور: اسم لنهر من روافد الفرات وهو ولاية واسعة تتبعه عدة بلدان مثل قرقيسياء وماكسين والمجدل و عربان وغيرها ،ياقوت معجم البلدان .

(٤) قرقيسياء بلد على نهر الخابور عند مصبه في نهر الفرات ،انظر : ياقوت معجم البلدان .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٨ - ٢٦٠ ؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٩٤ - ٢٩٦ ، ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٦٨ .

على أن تلك الهزيمة التي حلت بالخوارزمية لاتعني زوال خطرهم فقد عاودوا الحركة في سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤٢م وخرجوا الى الموصل مما اضطر صاحبها الى مسالمتهم واعطاهم نصيبين ثم اتفقوا مع المظفر غازى بن العادل صاحب ميافارقين ، وقصدوا آمد ،فخرجت اليهم قوات حلب بقيادة تورانشاه بن صلاح الدين ودفعتهم عنها ، ودارت معارك عديدة بين الجانبين وتهادن الطرفان على تسوية محددة واطلق الحلبيون سراح الاسرى من الخوارزمية وعادت قوات حلب الى بلادها ،ولكن التسوية لم تستمر فشرع الخوارزمية مع حليفهم المظفر غازى ابن العادل في الاغارة من جديد على بعض بلدان الجزيرة وامتدت غاراتهم من الموصل الى رأس عين .(١)

واستقر الرأى في حلب على استدعاء المنصور ابراهيم صاحب حمص، وهو المتمرس في قتالهم ، فعبر بعسكر حلب الفرات الى حران ،فانسحب الخوارزمية مع المظفر غازى بن العادل الى ميافارقين ،وانضم اليهم جموع كبيرة من التركمان بزعامة امير يقال له ابن دودى ،ورغم ذلك فقد التقت بهم قوات حلب بقيادة المنصور في صفر ٦٤٠هـ/ أغسطس ١٢٤٢م وانزلت بهم الهزيمة وولت الخوارزمية والتركمان الادبار ،فوقع عسكر حلب على معسكرهم واستولى عليه باكمله وبه جميع نسائهم ،واستولى المنصور على اموال المظفر غازى وخزائنه وحصل الشاميون على غنائم وفيرة من الماشية والاغنام والامتعة ،ووصلت الأغنام المنهوبة الى مدن الشام .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٦٠ - ٢٦٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٠٤ - ٣٠٦ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

وبيعت بأبخس الأثمان ، ورجع المنصور بعساكره الى حلب فوصلها في مستهل جمادى الاولى ٦٤٠هـ/ اواخر اكتوبر ١٢٤٢م (١)

ودرج الخوارزمية على الحركة بعد كل مرة ينسحب فيها عسكر حلب ، فما أن غادر الجزيرة الى بلاد الشام حتى عاثت الخوارزمية والتركمان في الجزيرة من جديد ، مما جعل عسكر حلب يعود مرة أخرى لقتالهم في جمادى الاخرة ٦٤٠هـ/ نوفمبر ١٢٤٢م فانضوت الخوارزمية الى صاحب ماردين الملك السعيد نجم الدين غازى ، وجرت بين الفريقين بعض المناوشات التي لم تسفر عن نتيجة حاسمة لأى من الجانبين ، وفشلت محاولة قام بها سلطان سلاجقة الروم للاصلاح بينهما "وتضرر عسكر حلب بالمقام لقلة العلوفة " فعاد الى حلب. (٢)

وللخوارزمية دور اخر أبعد اثراً واكثر حسما لعبوه في تاريخ بلاد الشام حين قدموا اليها سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م استجابة لدعوة الصالح ايوب فاستردوا بيت المقدس وناصروه ضد اعدائه من ملوك الشام والصليبيين وأنزلوا بهم الهزيمة الساحقة في معركة غزة (٣) ، والتي ترتب عليها ، قيام جيوش الصالح ايوب بمساعدة الخوارزمية من استعادة دمشق سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م من الصالح اسماعيل ، واعادة الوحدة

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٦٢- ٢٦٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٠٩-٣١١ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٣٨ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧١.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٦٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣١٣-٣١٤.

(٣) انظر تفصيل هذه الحوادث فيما سبق الفصل الثالث ص ٣١١-٣١٧.

بين مصر والشام ، غير أن الخوارزمية ما لبثوا ان خرجوا على الصالح أيوب وعاثوا في اعمال دمشق وهددوا نفوذه في بلاد الشام حتى تمكنت قواته بقيادة المنصور صاحب حمص من إنزال الهزيمة الساحقة بهم عند حمص سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م وتمزقت جموعهم وتفرقوا أيدى سبأ.(١)

وهكذا لعب الخوارزمية في تاريخ بلاد الشام دورا مزدوجا ومتناقضا في الوقت نفسه ، فمن ناحية نشروا الخراب والدمار في بلاد الشام والجزيرة وكانوا معول هدم على الحياة الاقتصادية ومظاهر العمران في تلك البلاد قبيل الغزو المغولي ،ومن ناحية اخرى ساعدوا الصالح ايوب على توحيد الدولة الايوبية من جديد فاستردوا بيت المقدس نهائيا من ايدى الصليبيين وانزلوا بهم هزيمة ساحقة في معركة غزة كان لها آثار بعيدة المدى في تحطيم قوة الصليبيين وتمهيد السبيل للماليك فيما بعد لاقتلاع جذور الوجود الصليبي من اساسه في بلاد الشام.

---

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع في الفصل الثاني ، ص١٩٠ - ١٩٦.

ثانيا ـ مع القوى غير الاسلامية :

مع مملكة أرمينية الصغرى :

تمخضت فتوحات السلاجقة منذ منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى في هضبة ارمينية عن هجرة اعداد كبيرة من الأرمن عن مواطنهم الاصلية الى الاقاليم الواقعة غربي الفرات وشماليه. وقد اشتدت هجرة الأرمن عقب انتصار السلاجقة في معركة ملازكرد سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م ، فهاجر كثير منهم الى جبال طوروس الواقعة جنوب اسيا الصغرى والمعروفة عند المؤرخين والجغرافيين العرب باسم جبال اللكام (١). وقد اختار الأرمن هذه المناطق لوعورتها وحصانتها الطبيعية وبُعْدها عن الطرق الرئيسة التي سلكها السلاجقة في غزواتهم واصبحت هذه المناطق التي نزح اليها الأرمن تعرف باسم ارمينية الصغرى ، وأنشأ الأرمن في هذه المناطق بعض الامارات ، غير أن اقواها لم تلبث ان سقطت بيد الاتراك السلاجقة (٢). ولما بدأ الضعف

----

(١) ذكر ياقوت ان جبل اللكام هو امتداد لسلسلة جبال لبنان فيطلق عليها اللكام عند انطاكية والمصيصة وملطية وسميساط وقاليقلا وطرسوس وغيرها من المناطق في جنوب اسيا الصغرى المحاذية لشمال بلاد الشام : انظر ياقوت:معجم البلدان ،مادة "لبنان" ومادة : "اللكام".

(٢) سعيد عاشور ،سلطنة المماليك و مملكة ارمينية الصغرى ، في بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص٢٢٨-٢٢٩ ؛ رنسيمان : الحروب الصليبية جـ١ ص ١١٢-١١٣ ؛ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص٤٠٢ ؛ علي الغامدى : بلاد الشام قبيل الغزوالصليبي ص٣٢٣ - ٣٢٥ ؛ عليه الجنزورى : امارة الرها الصليبية ص ١٢٢ ، دائرة المعارف الاسلامية ،مادة ارمينية ،
Cahen: La Syrie du Nord. p.190 ; The Cambridge Medieval History , Vol IV pp.628-629.

والانقسام يعترى دولة السلاجقة في الربع الاخير من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى عمد الارمن في هذه المناطق التي نزحوا اليها الى الاستقلال عن القوى الاسلامية الاخرى (١) . وحين قدم الصليبيون في الحملة الصليبية الاولى سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م شقوا طريقهم بسهولة كبيرة عبر هذه المناطق بسبب المساعدات التي قدمها الارمن للصليبيين (٢) . كما تمكن بعض قادة الصليبيين بمساعدة الارمن من تأسيس أول امارة صليبية قامت في الشرق وهي امارة الرها سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م (٣)

وقد استطاع حكام الارمن الحفاظ على كيانهم في هذه المناطق طوال القرن السادس الهجرى / الثاني عشر الميلادى ،رغم ما احاط بهم من صعوبات جمة ،وصراعات عميقة بين القوى الكبرى المحيطة والمتمثلة في الدولة البيزنطية وسلاجقة الروم ،والقوى الاسلامية في بلاد الشام والجزيرة ومصر ،والامارات الصليبية (٤) .

ولقد أسهم ليو الثاني حاكم أرمينية الصغرى (٥٨٣- ٦١٦هـ/ ١١٨٧ - ١٢١٩م) في الحملة الصليبية الثالثة على بلاد الشام زمن السلطان صلاح الدين ،وقد تلقى ليو الثاني المكافأة على جهوده

---

(١) The Cambridge Medieval History Vol.IV p.628 ; Cahen . op.cit. p.190

(٢) William of Tyre. A History of deeds done Beyond the Sea Vol.I . p.187.

(٣) Ibid. p.197.

(٤) انظر سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة ارمينية في كتاب ، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٣٤- ٢٣٦ .

الصليبية من قِبَلْ هنرى السادس امبراطور المانيا الذى بعث له بالتاج حيث تُوج ليو الثاني ملكا على أرمينية الصغرى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م في كنيسة طرسوس في حضور حشد كبير من رجال الدين الصليبيين والأرمن وكبار الامراء ،وقد رأى الارمن في هذا التتويج احياء لملكيتهم القديمة في ارمينية الكبرى وبعثا لمجدهم السالف.(١)

ولقد ترتب على ظهور مملكة ارمينية الصغرى على مسرح الحوادث في الشرق الأدنى أن قامت بنصيبها في ممارسة السياسة الصليبية ضد المسلمين ،ولا سيما وقد تلقت التاج عن طريق الغرب الأوربي الذى ما انفك يرسل الحملات الصليبية ضد المسلمين في بلاد الشام. وردا على تلك السياسة الصليبية التي انتهجتها مملكة أرمينية الصغرى ، فقد شرع المسلمون في التصدى لها اذ يذكر ابو شامة أن الاسطول المصرى قام في سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م بغارة بحرية على شواطىء ارمينية الصغرى وعاد الى مصر ومعه اربعمئة وخمسون اسيرا .(٢)

ولما كانت مملكة حلب هي أقرب الممالك الأيوبية في بلاد الشام الى مملكة أرمينية الصغرى ، فقد كان من الطبيعي أن تكون اكثر الممالك الشامية تأثرا بتلك السياسة الصليبية التي سارت عليها ارمينية الصغرى . ولقد بدأ الاحتكاك بين مملكة حلب و مملكة ارمينية الصغرى بسبب تطلع

---

(١) سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة ارمينية الصغرى ، في بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص٢٣٧ .

(٢) ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٣ .

ليو الثاني الأرمني لبسط نفوذه على انطاكية [١] ،في الوقت الذى كانت تحرص فيه مملكة حلب بزعامة الظاهر على بقاء انطاكية بعيدة عن نفوذ اى قوة كبرى معادية ، ذلك أن مملكة حلب وامارة انطاكية الصليبية جمعت بينهما مصالح اقتصادية مشتركة ، فقد كانت منطقة العمق الزراعية التابعة لمملكة حلب تزود انطاكية بحاجتها من القمح [٢] . كما ان مملكة حلب كانت بدورها تعتمد على ميناء انطاكية في التزود ببعض السلع الأخرى التي تحتاجها [٣] . وكان سقوط انطاكية بيد ملك ارمينية الصغرى يعني تهديدا مباشرا لمملكة حلب ، لذلك لا نعجب اذا مدت مملكة حلب يد المساعدة لانطاكية ازاء اطماع ملك أرمينية الصغرى .

---

(١) تطلع ليو الثاني الى السيطرة على انطاكية بعد موت صاحبها بوهيمند الثالث سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م وكان لبوهيمند الثالث يسمى ريمو ندروبان .ووفقا لأحكام القانون الاقطاعي الأوربي في العصور الوسطى كان من المفروض ان يحكم ريموندروبان باعتباره ابن الوريث الشرعي ،ولكن الصليبيين في انطاكية عز عليهم أن يتولى حكمهم أميرأمه أرمنيه فاستدعوا بوهيمند الرابع حاكم طرابلس وعم ريموند وسلموه حكم انطاكية ،فقام ليو الثاني الارمني يدافع عن حقوق ريموندروبان واتخذ من ذلك ذريعة لبسط نفوذه عليها : انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية. جـ٢ ص ٩٤٥ ؛رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ١٨١ - ١٨٤ ،
The Cambridge Medieval History Vol.IV p.631,
Stevenson: The Crusaders in The East, p.299.

وعن مشكلة الوراثة تلك وما دار من نزاع بسببها انظر المراجع السابقة فما يهمنا هنا هو ما يتصل بعلاقة الأرمن بالمسلمين في بلاد الشام. وانظر أيضا الملحق الرابع .

(٢) ياقوت : معجم البلدان مادة العمق .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ،جـ٣ ص ١٤٠ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٤٨ .

وبدأت غارات ليو الأرمني سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣م حين قدم ونزل قرب جسر الحديد بين حلب وانطاكية وأتلف بعض المزارع التابعة لبوهيمند الرابع ولفرسان الصليبيين "وقطع مادة الميرة المتواصلة من انطاكية الى حلب".(١)

وفي ربيع الأول سنة ٦٠٠ هـ/ ديسمبر ١٢٠٣م هاجم ليو الثاني ملك الأرمن انطاكية "وجدّ في حصارها والتضييق عليها" فلما علِمَ الظاهر صاحب حلب خرج مسرعا وعسكر عند حارم قبالة انطاكية ، فاضطر ملك الأرمن الى الانسحاب الى بلاده فرجع الظاهر الى حلب.(٢) غير ان ليو الثاني عاد فجأة الى انطاكية في ربيع الاخر سنة ٦٠٠هـ/ يناير ١٢٠٤م بعد أن "راسله أهلها وضمنوا له تمليكها فسار اليها بغتة" ويُفهم من اشارة ابن واصل هذه أنه كان يسكن انطاكية طائفة كبيرة من الأرمن ومن الطبيعي أن يتعاطفوا بدافع من عصبيتهم ونعرتهم مع ليو الأرمني ،وفوجيء بوهيمند الرابع بمباغتة ملك الأرمن له ففزع ولم يستطع الصمود أمامه فاعتصم بقلعة انطاكية "ونادى بشعار الملك الظاهر ووصل الخبر بذلك على جناح طائر فخرج من حلب بالعساكر وقصد انطاكية" ولم يكن بمقدور ملك الأرمن مواجهة الظاهر من الخارج وحامية القلعة حيث يعتصم بوهيمند الرابع فضلا عن موقف الأهالي من البيزنطيين والصليبيين والداوية المعادي للأرمن ،والذين قاوموا

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٤٠ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٤٧- ٢٤٨ ؛ وانظر ايضا : المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٦٠.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٥٣ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٥٢.

فعلا ليو الثاني وساندوا بوهيمند الرابع فاضطر ملك الأرمن الى الانسحاب الى بلاده مرة أخرى ،وعاد الظاهر بدوره الى حلب (١).

ولم يتخل ليو الثاني عن اطماعه في انطاكية ، وسعى جاهدا لاجبار الظاهر على التخلى عن مساعدتها ولو عن طريق القوة فاغار ملك الأرمن سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٥م على بلاد العمق التابعة لحلب واستاق ماشيتها وشرع في عمارة حصن في احد الجبال القريبة من دربساك - " ليضيق به عليها " وأرسل الى الظاهر يساومه على التخلي عن انطاكية مقابل ان يعيد جميع ما نهبه من بلاد العمق ،فأجابه الظاهر الى طلبه لكي يستعيد اموال سكان العمق . وبعد أن ضمن ملك الارمن عدم تدخل الظاهر بادر بحصار انطاكية و خرب بساتينها ومزارعها الواقعة خارج اسوار المدينة " ووقع فيها غلاء عظيم فكان الملك الظاهر يمد أهل انطاكية بالغلال حتى قويت " (٢).

ولما شعر ليو الثاني ملك أرمينية أن الظاهر قد خدعه وأنه لم يتخل عن انطاكية الا موءقتا لكي يستعيد اموال رعاياه ، عاود الكرة فشن الغارات على اعمال مملكة حلب ،وباغت ربض دربساك ليلة عيد الميلاد ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥-١٢٠٦م غير أن اهل الربض صمدوا في وجهه ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٥٤-١٥٥ ؛وانظر ايضا الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١١٠ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٥٥-١٥٦ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢-٣ ؛ أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٠٥ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٦٢-١٦٣ ؛ الغزى :نهر الذهب جـ٣ ص ١١٠ ؛ الطباخ : إعلام النبلاء جـ٢ ص ٢٠٥-٢٠٦ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ص ٩٤٦.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٥٦.

وفي الصباح انتشر الأرمن في بلاد العمق ،ونهبوا من كان فيه من التركمان ،ثم انسحبوا بما معهم من غنائم الى جبال اللكام الحصينة.[(١)] ولم تقتصر غارة ملك الأرمن على بلاد العمق وانما ايضا على التركمان النازلين على النهر الأسود[(٢)] فاخذ منهم " عالما لا يحصى واستاق نعمهم ومواشيهم ،وسار الى دربساك فحرق ربضها وعاد الى بلاده ".[(٣)]

وازاء ذلك العدوان المتواصل والغارات المتكررة جمع الظاهر عساكره وأرسل الى عمه العادل وغيره من ملوك الشام طالبا المساعدة لكبح جماح ملك الأرمن ،وعهد الظاهر الى قائديه فارس الدين ميمون القصرى ، وسيف الدين بن علم الدين بن جندر بالمسير الى حارم لصد عدوان ليو الثاني ملك أرمينية ،وسار الظاهر بنفسه الى مرج دابق[(٤)] ،فعسكر به ، غير أن ملك الأرمن خالف العساكر الحلبية وسلك طرقا اخرى وباغت ميمون القصرى واصحابه ،ودارت بينهم معركة حامية في شوال ٦٠٢هـ/ مايو ١٢٠٦م وحلت الهزيمة بعسكر حلب ووقع اكثرهم بين قتيل وأسير وعاد الأرمن واعتصموا بجبالهم وحصونهم.[(٥)]

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص١٥٧.

(٢) النهر الأسود نهر بالثغور في اطراف بلاد المصيصة وطرسوس ، انظر ياقوت معجم البلدان .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٧٠ ؛تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٤١-٤٢.

(٤) دابق : قرية قرب حلب من اعمال عزاز بينها وبين حلب اربعة فراسخ وعندها مرج معشب نزه ، انظر ياقوت؛معجم البلدان .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٥٧-١٥٨ ؛ ابن الاثير: الكامل جـ١٢ ص ٢٣٨-٢٣٩ ؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ٣ ص ١٧٠ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٢٦ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٤٣ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ١٥٩ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٩٠.

وحين بلغ الظاهر ما حل بعسكره ، رحل من مرج دابق فوصل الى مكان المعركة ، " فشاهد حالة قبيحة من كثرة القتلى " فساروخيم على جسر الحديد وراسل الصليبيين بانطاكية واتفق معهم على أن يجندوا عشرة الاف راجل ، ويقصدون بلاد ليو الثاني الارمني من جهتهم ، ويسير هو من جهة حلب " ويجتمعون على استئصال شأفته وقلع أثره "(١) ولكن هذا المشروع لم ينفذ ،ويبدو أن سبب ذلك صعوبة التوغل في بلاد ليو الثاني الأرمني للحصانة الطبيعية التي تتمتع بها بلاده ،وقد أدرك هذه الحقيقة المؤرخ ابن الأثير ، فقال عن بلاد ليو الأرمني : " فليس اليه طريق لأن جميع بلاده لا طريق اليها الا من جبال وعرة ومضايق صعبة فلا يقدر غيره على الدخول اليها ولا سيما من ناحية حلب ، فان الطريق منها متعذر جدا "(٢) . ولذلك قبل الظاهر عرض ملك الأرمن الصلح وترددت الرسل بين الجانبين ،واتفقا على ان يهدم ليو الثاني الحصن الذى بناه قرب دربساك وأن يعيد جميع ما أخذه في غاراته على بلاد الشام ولا سيما مملكة حلب ،وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين وأن لا يتعرض لانطاكية وتم الصلح في اواخر سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٦م على أن تكون مدة الهدنة ثمان سنوات(٣) .

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٧٠- ١٧١ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٤٣ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٢٣٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٥٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٧١ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٤٣ .

ولقد كان الظاهر صاحب حلب يتوق على الدوام الى الخلاص من خطر مملكة أرمينية الصغرى ،ولذلك فحين طلب منه سلطان سلاجقة الروم كيخسرو الأول إرسال نجدة اليه للاشتراك معه في مهاجمة بلاد ملك الأرمن ليو الثاني . أجابه الى طلبه وأرسل اليه عسكرا بقيادة سيف الدين بن علم الدين بن جندر ، وأيبك فطيس ،فاجتمعوا بسلاجقة الروم عند مرعش (١) سنة ٦٠٥هـ/ ١٢٠٩م. وهاجموا بلاد الأرمن وافتتحوا عدة حصون فراسل ليو الثاني السلطان العادل طالبا حمايته ،فارسل الاخير الى كيخسرو والى الظاهر طالبا وقف هجومهم على أرمينية الصغرى ،وفي الوقت نفسه بدأ موسم البرد وتساقط الثلوج ، فبادر كيخسرو وصالح ملك الأرمن على أن يعيد حصن بغراس الى الداوية ،وأن لا يتعرض لانطاكية وأن يطلق سراح الاسرى من المسلمين وعدم الهجوم على مملكة حلب أو مضايقتها ، وانسحب كيخسرو الى بلاده وعادت النجدة الحلبية الى بلادها (٢) .

وظل الصراع محتدما داخل انطاكية بين ريموند روبان يؤيده ملك الأرمن ليو الثاني وبين عمه بوهيمند الرابع ،وبعد صراع مرير تمكن ليو الثاني ملك أرمينية الصغرى من تدبير مؤامرة سنة ٦١٢هـ/١٢١٦م فأطاح بحكم بوهيمند الرابع ودخل انطاكية ونَصَّبَ ريموند روبان أميرا على انطاكية . وحتى لا يقع ليو الثاني في عداء مع الظاهر اطلق سراح الأسرى

---

(١) مرعش : مدينة في الثغور تقع بين بلاد الشام وبلاد الروم ،انظر ياقوت معجم البلدان .

(٢) العيني : عقد الجمان ،جـ١٣ لوحة ٣١٤ ؛ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٥٩- ١٦٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٨٧ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١١١ ؛ تاريخ ابن الفرات : جـ٥ قسم ١ ص ٨٢ .

المسلمين في المدينة ،وأعاد بغراس الى الداوية ،وطلب الصلح من الظاهر واضطر ليو الثاني الى الانسحاب عائدا الى بلاده تاركا ريموند روبان حاكما على انطاكية بسبب هجوم سلطان سلاجقة الروم كيكاوس على بلاده (١) .

وضاق الظاهر ذرعا بمجاورة ليو الثاني الأرمني له في انطاكية عن طريق ريموند روبان وأخذ يتحين الفرص للخلاص من ذلك الخطر الجديد ،فجاءته في المحرم سنة ٦١٣هـ/ ابريل ١٢١٦م رسالة من سلطان سلاجقة الروم كيكاوس ،يطلب منه الاجتماع به عند مرعش للهجوم على ملك الأرمن ليو الثاني وانتزاع انطاكية منه ، على أن يشن كيكاوس الهجوم من جهة مرعش بينما يتقدم الظاهر بعسكره من ناحية دربساك ،في الوقت الذى يشن فيه بوهيمند الرابع صاحب طرابلس الهجوم على بلاد الأرمن من جهة انطاكية ،وبعث كيكاوس برسالته الى الظاهر مع رجل يدعى عبدالرحمن المنبجي ،فادى الرجل الرسالة بعد أن زاد فيها شروطا تضر الظاهر وتفيد كيكاوس ولم يشأ الظاهر أن يبت فيها فأرسلها الى عمه السلطان العادل يستشيره في ذلك " فهجّن عليه العادل رأيه وأشار اليه بأن لا يجتمع اليه اصلا وعرفه ما في ذلك من المفاسد" (٢) ولم يوضح ابن واصل سبب رفض العادل لرأى ابن أخيه

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٣٣ ؛تاريخ ابن الفرات ، جـ٥ قسم ١ ص ١٦٩ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ١٨٢ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٤٨ ،رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٢٤٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ٢٣٤ ؛ وانظر تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ١٩٠ - ١٩١ = وقد اختلط الامر على ابن العديم في فهم الدوافع التي حملت الظاهر على الاتفاق مع سلطان سلاجقة

===

الظاهر في الاجتماع بسلطان سلاجقة الروم لمحاربة ارمينية الصغرى ،وما هي المفاسد التي سوف تترتب على ذلك غير أنه يبدو أن العادل رأى أن استيلاء سلطان سلاجقة الروم على مملكة ارمينية الصغرى وانطاكية سوف يوءدى الى ازدياد وتعاظم نفوذه ،الأمر الذى سوف يغريه بالطمع في ممتلكات الأيوبيين في بلاد الشام . ومما يبرهن على صحة هذا الرأى الحملة الفاشلة التي قام بها كيكاوس بعد موت الظاهر سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م بغية الاستيلاء على مملكة حلب (١) وقبل أن يحقق اى نجاح ضد مملكة أرمينية الصغرى .

وكيفما كان الأمر فقد وقع الظاهر في موقف حرج مع سلطان سلاجقة الروم بعد أن وعده بالمساعدة ،وظلت رسل كيكاوس تصل تباعا الى حلب تحث الظاهر على الحركة ، كما عمد ليو الثاني ملك أرمينية الصغرى الى إفشال مشروع كيكاوس ،فارسل الى الظاهر بحلب رسالة تدل على دهائه وحنكته أعلن فيها أنه مملوك الظاهر " وغرس دولته " واستشار فيها نخوة الظاهر قائلا : " وقد دخلت عليه دخول العرب أطلب منه انقاذى من هذه الورطة ،وأكون مملوكه ما عشت " وذكر للظاهر في رسالته انه قدم له عدة خدمات حين حاصر دمشق زمن حرب الوراثة " وبقيت البلاد شاغرة ما شغلت قلبه ولا آذيت بلده بل ساعدته بمالي ورجالي وكذلك لما حاصر دمشق المرة الثانية ،وقد بُذِلَت لي الأموال كلها لاشغل

=== الروم ،فظن انه فعل ذلك خوفا من عمه العادل ،انظر ابن العديم زبدة الحلب جـ٣ ص ١٦٨ ، ورواية ابن واصل الواردة في المتن هي الارجح لأنّ العلاقات بين الظاهر وعمه كانت قد استقرت منذ سنة ٦١٠هـ انظر ما سبق الفصل الاول ص : ٧٦ - ٧٧ .

(١) انظر ما سبق ص : ٣٥٢ - ٣٥٦ .

قلبه و يفتر عن الحصار فلم أفعل . وان كان الا برنس - بوهيموند الرابع - قد خدم السلطان - الملك الظاهر - فخدمتي أكثر من خدمته وسوف يُبْصر السلطان خدمتي وملازمتي بابه الشريف ، وقد أوصيت ابن اختي - ريموند روبان - الذى نصَّبتُه بانطاكية بملازمة خدمته ".(١) والواقع ان هذه الرسالة التي بعث بها ليو الثاني ملك أرمينية الصغرى إلى الظاهر وابدى فيها الكثير من ضروب التذلل والتملق والخضوع للظاهر ، تشير بوضوح الى مدى الخطر الذى شعر به اذا ما نجح كيكاوس في مشروعه ضد مملكة ارمينية الصغرى ،إذ لن يستطيع ليو الثاني التصدى في وقت واحد لقوات السلاجقة والظاهر صاحب حلب ، والصليبيين بزعامة بوهيمند الرابع في طرابلس ،و بالتالي لم يجد ملك الأرمن حرجا في إعلان خضوعه للظاهر كيما يحمى مملكته من السقوط ، وبعث مع الرسالة هدية عظيمة فاخرة ،وقد نجح في مسعاه ،فمال الظاهر الى قوله واخذ يفتش عن ذريعة لالغاء الحلف مع كيكاوس الذى بعث اليه بقاضي عسكره يحثه على الحركة ، وبينما هو عنده اذ ورد عليه من أخبره ان بعض عسكر كيكاوس بمرعش أغاروا على اطراف مملكة حلب و قتلوا جماعة من سكانها الأرمن وأسروا جماعة ، فاتخذ الظاهر من ذلك ذريعة لرفض الاتفاق مع سلاجقة الروم وقال لقاضي كيكاوس " العجب انكم تطلبون منا المعاونة و تخربون بلادنا " ولم تنفع حجج القاضي في اقناع الظاهر بالعدول عن موقفه "فاعرض الظاهر عن الحركة لنصرة عز الدين - كيكاوس - ورجع عن عزمه الأول".(٢)

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص٢٣٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٣٥-٢٣٦ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ١٩١-١٩٣ ؛وانظر ايضا ابن العديم ،زبدة الحلب جـ٣ ص ١٦٨-١٦٩ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ١٨٤ .

وحرصت مملكة حلب دائما على منع قيام وحدة بين مملكة ارمينية الصغرى وانطاكية. اوبعبارة اخرى ، منع أيٍ من القوتين من السيطرة على الاخرى لأنّ ذلك يعني تطويق مملكة حلب من الشمال والغرب وتهديدها تهديدا خطيرا. ولذلك فحين توفي ليو الثاني ملك ارمينية الصغرى سنة ٦١٦ هـ/ ١٢١٩م امتدت أطماع بوهيمند الرابع صاحب طرابلس وانطاكية إلى السيطرة على مملكة ارمينية الصغرى ،وبدأ في حشد قواته لتحقيق اهدافه فأرسل الأرمن إلى الاتابك شهاب الدين طغريل بحلب يستنجدونه ويخوفونه من سيطرة بوهيمند الرابع على بلادهم المجاورة لمملكة حلب من الشمال ، وعندئذ أمدَّهم الأتابك بالنجدات والسلاح ،وشرع في تهديد انطاكية من جهته الأمر الذى جعل بوهيمند الرابع يحجم عن الايغال في بلاد الأرمن خوفا على انطاكية من اتابك حلب طغريل وأدى ذلك الى فشل حملته سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م ولم يتحقق له أى غرض تجاه ارمينية الصغرى،(١) ونجحت بذلك مملكة حلب في ابعاد الخطر والحيلولة دون سيطرة ارمينية الصغرى على انطاكية او العكس .

واذا كانت مملكة ارمينية الصغرى قد شغلت خلال حكم ليو الثاني بمشكلات الوراثة على امارة انطاكية فان ذلك لا يعني تخليها عن العداء للمسلمين او ممارسة دورها الصليبي . فحين اصبح هيثوم الأول ملكا على أرمينية (٦٢٣-٦٦٧هـ/ ١٢٢٦-١٢٦٩م) وضع دعائم سياسة خارجية جديدة كانت اكثر خطرا على المسلمين في بلاد الشام

----

(١) ابن الاثير: الكامل جـ١٢ ص٤٦٤-٤٦٦ ؛رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٠٧-٣٠٩ ؛
The Cambridge Medieval Hisotry, Vol.IV p.633

وتتمثل تلك السياسة في احلال التعاون مع المغول محل التحالف مع الغرب الاوربي بعد فتور تيار الحركة الصليبية .(١)

فعلى الرغم من اعتراف هيثوم بالتبعية الاسمية موءقتا لسلاجقة الروم درءاً لخطرهم فإنه حين اجتاح المغول اسيا الصغرى سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م رفض هيثوم مساعدة سلاجقة الروم بل عمد بعد هزيمتهم الى التعبير عن حقده ضدهم فنهب معسكرهم وأغار على بلادهم وقتل الكثير من رعاياهم المسلمين (٢) . وحين لجأت زوجة سلطان سلاجقة الروم كيخسرو الثاني وابنته الى هيثوم هربا من قائد المغول بايجو نويان الذى اجتاح اسيا الصغرى كانت الشهامة/ تقتضى من هيثوم حماية امرأتين لجأتا الى بلاطه وقت الشدة ،ولكنه ضرب بقواعد العرف والاخلاق عرض الحائط واختار ان يتقرب الى المغول على حساب المثل والفضائل ،فسلم زوجة الحاكم المسلم وابنته الى بايجونويان .(٣)

وتطلع هيثوم الى الحصول على مساعدة مباشرة من المغول ضد المسلمين في بلاد الشام واسيا الصغرى ، فبعث سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م باخيه سمباد الى خان المغول الاكبر كيوك خان (٦٤٤-٦٤٧هـ/ ١٢٤٦-١٢٤٩م) بعاصمته قراقورم في جوف منغوليا ، فعاد سمباد بوعد من المغول ببقاء مملكة ارمينية الصغرى واعادة ما انتزعه السلاجقة من بلادها (٤) . ولم يكتف هيثوم ببعثه اخيه ، فعاد وخرج

---

(١) سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة ارمينية الصغرى ، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٤٣ أ .

(٢) ابن شداد ،الاعلاق الخطيرة جـ١ القسم الثاني مخطوط لوحة ٣٠٩ نسخة اياصوفيا ؛المولوى : صحائف الاخبار ورقة ٥٨٣ أ .

(٣) سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٤٣ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٤٩ - ٤٥٠ ؛سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٤٣ ؛ The Cambridge History of Islam, p.211.

بنفسه سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م متنكرا الى بلاط الخان الجديد منكوقاآن (٦٤٨-٦٥٥هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٧م) في قراقورم ،وحصل هيثوم على تاكيد جديد بضمان امنه وأمن مملكته وكان هيثوم يتوخى ان يتحالف المغول مع المسيحيين لطرد المسلمين من بلاد الشام (١) .

غير انه من الواضح أنّ المغول لم يكونوا ينظرون الى هيثوم وغيره من ملوك الدول المعاصرة لهم نظرة الند للند ،وانما نظرتهم الى الاتباع الذين يجب ان يبذلوا لهم على الدوام فروض الطاعة والولاء ،وما حصل عليه هيثوم كان يعتبره قادة المغول من مظاهر عطفهم على اتباعهم . ولكن هيثوم حاول الافادة من ذلك الاتجاه لدى المغول ، فاتصل بالصليبيين في بلاد الشام ودعاهم الى المشاركة في مشروعـه ضد المسلمين ولكنه لم يلق الاستجابة الا من بوهيمنـد السادس حاكم انطاكية (٦٤٩-٦٨٦هـ/ ١٢٥١-١٢٨٧م) بسبب الجمود الذى اصاب الحركة الصليبية ، وذبول حماسة الغرب الاوربي تجاه مساعدة الامارات الصليبية فـي بلاد الشام. ورغم ذلك فقد ظل هيثوم على وفائه للمغول وتطلعـا الى مساعدتهم ضد المسلمين ،فلما بدأ زحف المغول بقيادة هـولاكو على العراق والجزيرة والشام انخرطت اعداد كبيرة من الارمن بقيادة هيثوم في صفوف قوات المغـول ،ولعبوا دورا حاسما في التنكيل بالمسلميـن ، وفاقوا المغول في وحشيتهم وهمجيتهم ضد المسلمين ،فدمروا مساجدهم

----

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٤٥٩ - ٤٦٠ ؛ سعيد عاشور : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ؛ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ،
The Cambridge History of Islam p.211.

بقيادة هيثوم وحولوها الى كنائس ،ومن ذلك جامع حلب الذى احرقه هيثوم بنفسه . وظل الأرمن بقيادته على تحالفهم مع مغول فارس طوال فترة حكمه .(١)

*

مع الامبراطورية الغربية المقدسة :

إذا كان الامبراطور فردريك الثاني قد نجح بحملته الصغيرة في اخذ بيت المقدس عن طريق الصلح من السلطان الكامل سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م فان ذلك يرجع الى ظروف الاخير وشخصيته (٢) . على ان علاقة فردريك الثاني امبراطور الامبراطورية الغربية المقدسة بالمسلمين اتسمت بالود والصداقة بصورة عامة ويعود ذلك الى ما اتصف به الامبراطور فردريك الثاني من الثقافة الواسعة واجادته للغات عديدة من بينها اللغة العربية اضافة الى نشأته بجزيرة صقلية حيث المؤثرات العربية الاسلامية (٣) . وقد ادرك المؤرخون المسلمون اثر بيئته الثقافية التي نشأ بها على شخصيته وعلاقته بالمسلمين فابن واصل يقول : " وكان الامبراطور من بين ملوك الفرنج فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب مائلا الى المسلمين ،لأن مقامه في الأصل ومرباه بلاد صقلية وهو وأبوه وجده كانوا ملوكها وأهل تلك الجزيرة

---

(١) سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة ارمينية الصغرى ،بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٤٤-٢٤٦ ؛ The Cambridge History of Islam pp. 211-212

(٢) انظر ما سبق الفصل الثالث ص ٢٨٤ - ٢٩٩ .

(٣) سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي ؛ بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ١١٢ ؛ فشر : تاريخ اوربا العصور الوسطى جـ١ ص ٢٤٩-٢٥٠ .

غالبهم المسلمون "(١) اما المقريزى فيصفه بأنه كان " عالما متبحرا في علم الهندسة والحساب والرياضيات "(٢) . وبعد وصوله الى الشام سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م بعث الى السلطان الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة ، فعرضها الاخير على بعض علماء المسلمين البارزين في هذه العلوم فكتبوا الاجابة عليها ، فبعث بها الكامل الى الامبراطور (٣) .

وحين تم توقيع صلح يافا بين الجانبين استأذن الامبراطور السلطان الكامل في زيارة القدس فأذن له وأمر القاضي شمس الدين قاضي نابلس "وكان جليلا في الدولة متقدما عند ملوك بني ايوب" امره ان يرافق الامبراطور فردريك الثاني في زيارته لبيت المقدس وروى القاضي قصة دخوله للمؤرخ ابن واصل فقال : " ودخلت معه الى الحرم فرأى ما فيه من المزارات ثم دخلت معه الى المسجد الاقصى فاعجبته عمارته وعمارة قبة الصخرة المقدسة "(٤) وحين وصوله الى محراب المسجد الأقصى اعجبته نقوشه وزخارفه ورأى من جمال المنبر ودقة صنعته ما أثار دهشته ثم صعد فيه الى اعلاه ثم نزل واخذ بيد قاضي نابلس

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٣٤ ؛ وانظر ايضا ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٤١ ؛ العليمي : الانس الجليل جـ١ ص ٤٠٥-٤٠٦ .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٢٣٢ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٧ ؛ اليافعي جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٨ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤٢ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣٢ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤٤ ؛ وانظر ايضا ابن الفرات : جـ٦ لوحة ٤٥ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣٢ ؛ وقد ذكر سبط ابن الجوزى عن خادم الصخرة المقدسة انه اخبره عن زيارة

===

وخرجا من المسجد الاقصى ،واثناء خروجه رأى قسيسا وبيده الانجيل وهو يَهِمُ بدخول المسجد فزجره فردريك وعنَّفه وقال : " ما الذى اتى بك الى هاهنا والله لئن عاد احد منكم يدخل الى ها هنا بغير اذني لآخذن ما في عينيه ،نحن مماليك هذا السلطان الكامل وعبيده ،وإنما تصدق علي وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الانعام منه ،ولا يتعدى احد منكم طوره " فعاد القسيس ادراجه وهو يرتعد خوفا ،وسار الامبراطور الى الدار التي عينت له فنزل بها (١) .

وكان السلطان الكامل قد أمر القاضي بمنع المؤذنين ان يرفعوا الاذان من على المآذن ما دام الامبراطور في بيت المقدس ، فنسي القاضي أن يُبَلِّغ مؤذن الحرم ويدعى عبدالكريم بالأمر السلطاني ، فصعد المؤذن عبد الكريم في وقت السحر الى المئذنة وشرع يتلو الايات التي تختص بالنصارى ،ثم اذّن للفجر ،وفي الصباح استدعى القاضي المؤذن عبد الكريم واخبره بأمر الكامل ،وفي الليلة الاخرى لم يؤذن حسب

=== الامبراطور لها فقال " نظر الى الكتابة التي في القبة وهي : وقد طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين . فقال الامبراطور متعجبا ومن هم المشركون ؟ " ثم سأل القوام عن سر وجود الشباك على نوافذ قبة الصخرة فاخبره قائلا : "لئلا تدخلها العصافير " فقال الامبراطور : " قد بعث الله اليكم بالخنازير " ويقصد الصليبيين .
انظر سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ص ٦٥٥ - ٦٥٦ ؛
وانظر ايضا ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٢٩٣- ٢٩٤ .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤٤- ٢٤٥ ؛ وانظر ايضا : تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٥- ٤٦ ؛سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٥٥- ٦٥٦ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣١ .

الأوامر ،ثم سأل الامبراطور فردريك الثاني قاضي نابلس عن سبب عدم سماعه الاذان ،فاخبره بأمر السلطان فقال فردريك " اخطأتم يا قاضي تغيرون انتم شعاركم وشرعكم ودينكم لاجلي ، فلو كنتم عندي في بلادي هل كنت ابطل ضرب الناقوس لاجلكم الله الله لا تفعلوا أول مـــا تنقصون عندنا "(١) ثم قال الامبراطور فردريك الثاني لقاضي نابلس : " والله إنَّ اكثر غرضي في المبيت في القدس أن اسمع أذان المؤذنين وتسبيحهم بالليل" ثم رحل فردريك الثاني الى عكا.(٢)

دلّت تصرفات الامبراطور فردريك الثاني على احتقاره للبابويـــة واستخفافه بها ، فقد ذكر ابن واصل ان الامبراطور سأل الأميـــر فخر الدين بن الشيخ بعكا قائلا " اخبرني عن الخليفة الذى لكم ما أصله ؟ " فاخبره فخر الدين أنه ينتسب الى عم النبي صلى الله عليه وسلم فقال الامبراطور " ما احسن هذا لكن هؤلاء القليلوا العقول - يعني الفرنج - ياخذون رجلا من المزبلة ليس بينه وبين المسيح نسب ولا سبب، جاهلا فدما يجعلونه خليفة عليهم قائما مقام المسيح فيهم وانتم خليفتكم ابن عم نبيكم فهو احق الناس بمرتبته "(٣).

ولقد أثارت افعال واقوال الامبراطور فردريك ازاء البابويـــــة والمسلمين دهشة المؤرخين المسلمين حتى ان سبط ابن الجوزى يقول : " والظاهر من كلامه انه كان دهريا وإنما كان يتلاعب بالنصرانية"(٤)

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٨ ب ؛ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٥٦-٦٥٧.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٦ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤٥ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣١.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٥١ ؛وانظر ايضا تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٧.

(٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٥٦.

اما المؤرخ ابن الفرات حين ترجمته للامبراطور فردريك في حوادث سنة ٦٤٨ هـ فيرجح انه كان مسلما سرا مستدلا بافعاله واقواله فيقول في ذلك " ويقال ان الامبراطور كان مسلما في الباطن وما قدمنا شرحه يدل على ذلك ،والله اعلم بحاله وما كان عليه "(١) غير انه ليس لدينا من الادلة ما يقطع بصحة أى من هذه الاقوال .

وكيفما كان الأمر فان الامبراطور فردريك الثاني لم يكن يقيم اى اعتبار للبابوية ولا للمصالح الصليبية في بلاد الشام ،حتى بيت المقدس لم يكن يهدف من إستعادته إلا لحفظ مكانته في الغرب الأوربي وإبطال اية حجج تتذرع بها البابوية ضده ،ويدل على ذلك اعتذاره للأمير فخر الدين بن الشيخ سفير الكامل -بعد تسلمه بيت المقدس حيث اخبره " بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئا من ذلك ، فماله من غرض في القدس ولا غيره ،وانما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج"(٢) اما ما عدا ذلك فلم يكن يهمه مصير بيت المقدس بعد تحقيق اهدافه وانتصاره على البابوية ،ويشير ابن الفرات الى انه بعد ان تأكدت المودة بينه وبين السلطان الكامل وتوطدت الصداقة بينهما بعد عودته الى بلاده " عرض على السلطان الكامل إعادة بيت المقدس وكل شىء بعد تاكيد مودة وصداقة بينهما "(٣) . ولكن يبدو ان إنصراف الكامل الى المنازعات داخل الدولة الأيوبية ، ومع جيرانها كسلاجقة الروم

----

(١) Selections From the Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 p.48.

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣٠ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٨ .

والخوارزمية حال دون اهتمام الكامل بعرض الامبراطور حتى لا يفتح على نفسه جبهة جديدة مع الصليبيين في بلاد الشام ومع البابوية والغرب الأوربي .

وظلت المراسلات والاتصالات مستمرة بين السلطان الكامل وبين الامبراطور فردريك الثاني بعد عودة الاخير الى بلاده ففي سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م وحينما كان السلطان الكامل في حران بمنطقة الجزيرة وصل اليه رسول الامبراطور فردريك الثاني وحمل معه رسالتين الى صديقه فخر الدين ابن الشيخ ،وقد اورد ابن نظيف الحموى وابن الفرات نص الرسالتين ويظهر من نصهما ان ابن الشيخ - وزير السلطان الكامل - كان قد طلب من صديقه الامبراطور موافاته باخباره على الدوام ،فاخبره في الرسالتين بأن البابا استغل وجوده في بلاد الشام وغدر به وزعم انه توفى وهاجم املاكه في لمبارديا بايطاليا واوضح فردريك في رسالتيه انه تمكن من الانتصار على اعدائه وأعاد الى طاعته جميع من اغراهم البابا بالعصيان عليه اثناء غيبته ببلاد الشام (١) .

وورد الى السلطان الكامل وهو بحران رجل يدعى احمد بن ابي القاسم المعروف بالرمان من جزيرة صقلية وينتمي الى طائفة من المسلمين يسكنون في جبال صقلية الوعرة ،وقد دأبوا على الخروج على الامبراطور فردريك الثاني الذى رد على ذلك بمهاجمة معاقلهم وإخراجهم

----

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ١٠٤-١٠٨ ؛ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص١٨٩ - ١٩٤ = وانظر نص الرسالتين في الملاحق : الملحق الخامس .

من اوطانهم الى السهول حتى لا يعودوا الى العصيان مرة اخرى ، وطلب احمدبن ابي القاسم هذا من السلطان الكامل ان يتوسط لهم لدى الامبراطور للسماح لهم بالعودة الى جبالهم ،او الاذن لهم بالهجرة الى مصر ،فكتب السلطان الكامل رسالةالى صديقه الامبراطور يشفع فيهم وعاد احمد بن ابي القاسم الى بلاده (١) . غير ان ابن نظيف الحموى وابن الفرات تركا الموضوع غامضاً ولم يذكرا شيئا عن موقف الامبراطور فردريك من شفاعة السلطان الكامل في هوءلاء المسلمين ،ولم يرد خبر هذه الحادثة عند غيرهما من الموءرخين . ولكننا نرجح أن تلك الشفاعة لقيت أذنا صاغية من الامبراطور فردريك الثاني ، الذى كان يعتز دائما بصداقة السلطان الكامل ولا يفتأ يردد امام اصدقائه قائلا : "ان صديقي السلطان المسلم أثمن لدى من اى شخص اخر ما عدا ولدى الملك كونراد" (٢) .

ويُفهم من نص رسالة بعث بها الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل الى الامبراطور فردريك الثاني سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م استمرار العلاقات الودية بين الدولة الايوبية ،والامبراطورية الغربية المقدسة اذ جاء فيها قوله : " فاما ذكره المقام العالي السلطاني الملكي . . . من انه لا فرق بين المملكتين فهذا هو المعتقد في صدق عهده وخالص وده ولا زال ملكه عاليا وشرفه ناميا" (٣) .

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ١٠٨ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٩٤-١٩٥ .

(٢) سعيد عاشور : الامبراطورية فردريك الثاني والشرق العربي ، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ١٢٧ .

(٣) القلقشندى : صبح الاعشى جـ٧ ص ١١٧-١١٨ .

وفي سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣ م بعث الامبراطور فردريك الثاني الى السلطان الكامل بهدية قيمة ضمنها دب ابيض كثيف الشعر ، اثار اعجاب المؤرخين فذكروا انه كان ينزل الى البحر فيصيد السمك وياكله ،اضافة الى طاووس ابيض جميل [(١)] ، وديك رومي ضخم " قدر الجدى الكبير اخضر كأنه درة ".[(٢)]

وقد استمرت العلاقات الوطيدة بين الدولة الايوبية وبين الامبراطورية الغربية المقدسة حتى بعد وفاة السلطان الكامل ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م فسار العادل الثاني على نهج ابيه في مراسلة الامبراطور فردريك الثاني وملاطفته وتبادل الهدايا معه.[(٣)]

وحين استولى الصالح ايوب على مصر والشام ،احتفظ الجانبان بعلاقات الود والصداقة بينهما ،وفي سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤١م ارسل الامبراطور فردريك الثاني سفارة من رجلين الى الصالح ايوب ،وجرى استقبال سفيريه في القاهرة بكل مظاهر التشريف والفخامة و مكث السفيران بالقاهرة حتى اوائل فصل الربيع [(٤)] . ويبدو ان الصالح أيوب رد على تلك السفارة ،فارسل الى الامبراطور فردريك الثاني ، الشيخ العلامة سراج الدين الارموى قاضي قونية - كبرى مدن سلاجقة الروم - فأقام الشيخ سراج الدين في بلاط الامبراطور مدة مكرما ،

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٦ أ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣١٢ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٨٣ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٨٣ .

(٢) ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣١٢ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٨ ؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤٦ .

(٤) رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٣٨٢ .

وصنف له كتابا في المنطق " واحسن اليه الامبراطور احسانا كبيرا وعاد سراج الدين الى الملك الصالح مكرما "[(١)].

وقد التزم الامبراطور فردريك الثاني بالتعهد الذى قطعه على نفسه للسلطان الكامل في اتفاقية يافا سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م بعدم المشاركة او المساعدة في اية حملة صليبية و عرقلة اى جهد صليبي ضد اراضي الدولة الايوبية[(٢)] . فحين قرر لويس التاسع ملك فرنسا القيام بحملته الصليبية على مصر سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨م حاول فردريك الثاني إثناء لويس عن عزمه فارسل اليه ينهاه عن المضي قدما في حملته ،وحذره من مغبة الامر ولكن الملك الفرنسي لم يذعن لقوله ، وعندئذ ارسل الامبراطور أحد اعوانه الى السلطان الصالح ايوب في زي تاجر ليخبره بعزم لويس التاسع غزو مصر ويحذره منه ويشير عليه بالاستعداد له . وقد توخى الامبراطور فردريك السرية التامة في رسالته الى الصالح ايوب خوفا من الفرنج حتى لا يعلموا بـ " ممالأة الامبراطور للمسلمين عليهم " على حد قول المؤرخ ابن واصل[(٣)] . وقد اورد ابن ايبك فقرة من نص الرسالة التي بعث بها فردريك الثاني الى الصالح ايوب يحذره من لويس التاسع جاء فيها قوله : " إنه قد وصل في خلق كثير

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤٧ .

(٢) انظر ما سبق ،الفصل الثالث ،ص ٢٩٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤٧ ؛وانظر ايضا ابن ايبك كنز الدرر جـ٧ ص ٣٦٥ - ٣٦٦ ؛ المقريزى : الخطط جـ١ ص ٢١٩ ؛حامد زيان : العلاقات بين جزيرة صقلية و مصر والشام ابان الحروب الصليبية ص ١٥١ - ١٥٢ .

وقد اجتهدت غاية الاجتهاد في رده عن مقصده ،وخوّفته فلم يرجع لقولي فكن منه على حذر " وحين وصلت رسالة الامبراطور فردريك الثاني الى الصالح ايوب "احترز وجهز الالات برسم القتال وتحصين دمياط "(١) وعندما فشلت حملة لويس التاسع وعاد الى بلاده يجر اذيال الخيبة ارسل اليه فردريك الثاني " يذكّره نصحه له وما جرّ عليه لجاجه ومخالفته ،ويعنّفه على ذلك "(٢).

وقد ذكر المؤرخ ابن واصل أنّه ذهب في سفارة من قِبَل السلطان الظاهر بيبرس إلى الملك مانفريد بن فردريك سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م وحين اجتمع به وجده متميزا محبا للعلوم مثل ابيه ، وذكر انه بالقرب من البلد الذى نزل فيه مدينة تسمى لوجاره أهلها كلهم مسلمون من اهل جزيرة صقلية وتقام فيها الجمعة وجميع الشعائر الاسلامية "وهي على هذه الصفة من عهد ابيه الامبراطور ،ووجدت اكثر اصحابه الذين يتولون اموره الخاصة به مسلمين ويعلن في معسكره بالاذان والصلاة "(٣).

----

(١) ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٦٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٨ .

(٣) المصدر نفسه ج٤ ص ٢٤٨ .

ظهور خطر التتار :

في الوقت الذى كانت فيه بلاد الشام و مصر تتعرض لهجوم الحملة الصليبية الخامسة ٦١٤- ٦١٨هـ/ ١٢١٧-١٢٢١م والتي هدفت الى احتلال مصر باعتبارها مركز المقاومة الاسلامية التي يجب اخضاعها لضمان السيطرة الدائمة على بيت المقدس وبقية سواحل الشام.(١) في ذلك الوقت بالذات كانت جحافل المغول بقيادة جنكيز خان(٢) قد بدأت تدك وتدمر بقوة مروعة الجزء الشرقي من العالم الاسلامي ، وكأن تلك الجحافل المغولية كانت على موعد مع الغرب الأوربي الصليبي في الاطباق على العالم الاسلامي . وقد استشف المؤرخ الفذ ابن الاثير بفكره الناقد ونظرته الفاحصة هذه الحقيقة في معرض حديثه عن غزوات المغول فقال : " ولقد بلى الاسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها احد من الأمم ،منها هؤلاء التتر .... أقبلوا من المشرق ، ففعلوا الافعال التي يستعظمها كل من سمع بها .. ومنها خروج الفرنج .. من المغرب الى الشام ،وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها .. "(٣).

والحق ان غزو المغول للأمم الاخرى ليس حدثا عاديا ولا هجرة طبيعية من الهجرات التي عرفها تاريخ الانسان ،بل كان اعصارا مدمرا

----

(١) انظر ما سبق ،الفصل الثالث ص ٢٤٩- ٢٨٠.

(٢) عن ظهور جنكيز خان وتوحيده للقبائل المغولية انظر ، فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ص١٩- ٥٧ ؛ الباز العريني : المغول ص٣٧- ٦٨.

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٦٠- ٣٦١.

ابتليت به البشرية عامة والمسلمون والحضارة الاسلامية بصورة خاصة .(١)

ولن نشرح هنا غزوات المغول على بلاد المسلمين فيما وراء النهر وخوارزم وايران ،وانما الذى يهمنا شرح غاراتهم التي وصلت الى مشارف بلاد الشام وموقف حكام المسلمين في مصر والشام والجزيرة من غزوات المغول . فلقد استطاع المغول خلال عامي ٦١٦-٦١٧هـ/ ١٢١٩-١٢٢٠ م الاستيلاء على بلاد ما وراء النهار واقليم خوارزم وأزالوا من الوجود معظم مدنها الكبيرة مثل بخارى وسمرقند وجرجانية وجند ونيسابور ،وقتلوا الملايين من سكان تلك البلاد المسلمين في وحشية رهيبة لم يشهد لها تاريخ البشرية مثيلا ودمروا الحضارة الاسلامية الزاهرة بتلك المناطق والتي ظل المسلمون يشيدون بناءها زهاء ستة قرون .(٢)

وفي سنة ٦١٧هـ/١٢٢١م انطلق جيش مغولي اخر انفذه جنكيز خان الى الاجزاء الغربية من الدولة الخوارزمية لمطاردة ملكها محمد خوارزمشاه في محاولة جادة للقبض عليه ففر الى بحر الخزر (قزوين) ولقد نجم عن تلك المطاردة استيلاء المغول على مدن

---

(١) وضع المؤرخ ابن الاثير تقييما/ تاريخيا لحركة الغزو المغولي باعتبارها حادثة فريدة قل ان نجد لها نظيرا في التاريخ الانساني . انظر ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٥٨ - ٣٦١ .

(٢) عن غزوات المغول لبلاد ما وراء النهر وخوارزم وتدمير المدن الاسلامية في تلك الاقاليم ،انظر تفاصيل الموضوع في : النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتي ص٤٧ - ٢٣١ ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٥٨ - ٣٩٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٤-٦٤ ؛الصياد : المغول في التاريخ ص ٩٥ - ١٣٨ ؛السيد الباز العريني : المغول ص١٢٢-١٤٤ ،حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص٦٧-٢٠٠ .

هامة مثل الري وقم وهمدان واقليم اذربيجان ،وظل اولئك المغول يتوغلون في غاراتهم المدمرة فاجتاحوا بلاد الكرج غرب بحرالخزر، حتى وصلوا شبه جزيرة القرم وأنزلوا الهزيمة بالروس والقفجاق وغيرهم ، ثم عاد الجيش المغولي الى منغوليا بعد ان دمر كل الاقاليم التي مر بها . واكتشف المغول خلال غاراتهم هذه انه لا يوجد بجميع البلاد التي مروا بها جيش قوى يستطيع الصمود في وجههم (١) . ولقد اثارت تلك الغارة التي اقتربت من حدود الخلافة العباسية الاضطراب في بغداد "وانزعج الخليفة وامر الناس بالقنوت في الصلاة و حصّن بغداد واستخدم العساكر" (٢).

وفي سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م انسحب جنكيز خان الى منغوليا حيث توفي وشُغل المغول لفترة محدودة بانتخاب ابنه اوكتاى خاناً اكبر على المغول (٦٢٦ - ٦٣٩هـ/ ١٢٢٩ - ١٢٤١م) . ولقد تمكن جلال الدين منكبرتي خلال تلك الفترة من استعادة اجزاء واسعة من بلاد الدولة الخوارزمية التي سقطت بيد المغول زمن جنكيز خان ، ثم دخل جلال الدين في منازعات عميقة مع خصومه في ايران حتى انتصر عليهم جميعا (٣) . وقد رأينا كيف دخل الى الجزيرة وحارب الايوبيين وانتزع من الملك الاشرف صاحب دمشق مدينة خلاط حتى هزم اخيراً امام تحالف سلاجقة الروم مع الايوبيين في بلاد الشام (٤) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٣٧٢ - ٣٨٩ ؛رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٤٢٥- ٤٢٧ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦١٩ .

(٣) فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ص١٦٨ - ١٦٩ .

(٤) انظر ما سبق ص ٣٥٧ - ٣٦٢ ، ٣٧٤ - ٣٧٥ .

والحق ان هجوم جلال الدين على بلاد الجزيرة وما نجم عن ذلك من حرب شديدة مع الايوبيين وسلاجقة الروم يعتبر خطأً كبيراً وقع فيه جلال الدين منكبرتي إذ استنزفت تلك الحرب قواه وقوى خصومه معا في وقت كان يجب فيه عليهم جميعا توحيد قواهم لدرء خطر المغول المنتظر ، فقد ارسل خان المغول الجديد اوكتاى بن جنكيز خان حملة ضخمة فسارت الى ايران سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م ولم يستطع جلال الدين مواجهة المغول في ميدان مكشوف وظل يتقهقر امامهم وهم يجدون في اثره (١). وحاول طلب النجدة من ملوك الشام لصد خطر التتار ،فقد كان في اسره مجير الدين بن العادل اخو الملك الاشرف منذ استيلائه على خلاط ، وحمّله رسالة الى اخيه الاشرف وقال له : " نفسك لك فتعرف اخاك الاشرف بالتتر ، فما هم قليل وهم اعداء الدين " (٢).

وظل جلال الدين يرسل الرسل تباعا الى الاشرف وغيره من ملوك الشام والجزيرة وبقية بلدان الشرق الادنى طالبا نجدته ومساعدته وشد أزره والوقوف الى جانبه ،وقد شرح في رسائله التي بعث بها مدى الخطر الداهم الكامن وراء زحف المغول في اعداد لا حصر لها ،وبين ان التجارب برهنت على أن المدن والقلاع والحصون لا تستطيع الصمود امامهم ، غير أن استغاثة جلال الدين ونداءاته

----

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٩٥ - ٤٩٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣١٤- ٣٢٠ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٦٦ ؛ الصياد : المغول في التاريخ ص ١٧١ .

(٢) ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص ٢٢٧- ٢٢٨ .

ذهبت ادراج الرياح ، فحكام الشرق الادنى كانوا مشغولين بمنافساتهم ونزاعاتهم الشخصية وظلوا على ذلك حتى دهمهم الخطر جميعا.(١)

وفر جلال الدين هاربا حتى كبسه المغول قرب آمد وتفرقت عساكره فوصل الى احدى قرى ميافارقين حيث قتله أحد الاكراد في شوال ٦٢٨ هـ/ اغسطس ١٢٣١م(٢) وبموته اصبحت بلاد الشام والجزيرة والعراق واسيا الصغرى مفتوحة على مصراعيها امام المغول ، فقد كان جلال الدين سداً بين المسلمين " وبين التتار "(٣).

وقد ادرك الملك الاشرف بن العادل بعد فوات الاوان اهمية بقاء الدولة الخوارزمية قوية في مواجهة المغول ،فبعد مقتل جلال الدين دخل بعض اصحاب الاشرف عليه يهنئونه بهزيمته ومقتله فرد الاشرف قائلا " تهنوني وتفرحون . . . والله لتكونن هذه الكسرة سببا لدخول التتار إلى بلاد الاسلام ، ما كان الخوارزمي الا مثل السد الذى بيننا وبين يأجوج ومأجوج "(٤) ولقد صدق الاشرف في قوله فمنذ مقتل جلال الدين سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م حتى قبيل معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م لم يجد المغول من يستطيع الصمود في وجههم ودرء خطرهم.

----

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٤١ ب - ٤٢ أ ؛ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٩٨ ؛ الصياد : المغول في التاريخ ص ١٧٢.

(٢) النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٣٨٤ ؛ الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٣٤ ؛ الصياد : المغول في التاريخ ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٣) الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص ١٣٤.

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٧٧.

ومهما يكن من امر فقد شرعت طائفة من المغول بعد مقتل جلال الدين في نهب سواد آمد وارزن وميافارقين وقصدوا مدينة أسعرد بديار بكر فقاوم اهلها ثم بذل لهم المغول الامان حتى استسلموا فقتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم الا من فر بنفسه وبلغ عدد القتلى اكثر من خمسة عشر الف نسمة ،وظلوا يعيثون نهبا وتخريبا في ديار بكر بالجزيرة ،ثم وصلوا الى نصيبين و نهبوا سوادها وقتلوا من عثروا عليه من سكانها وامتدت غاراتهم المدمرة الى سنجار والموصل وغيرها (١) . وقد ذكر المؤرخ المعاصر ابن نظيف الحموى أن عدد المغول الذين أغاروا على الجزيرة لم يبلغوا الف فارس و مع ذلك فما " وجدوا من رد لهم نشابا " وهرب معظم سكان الجزيرة الى الشام بينما كان الاشرف مقيما عند اخيه العادل بمصر (٢) . وكل ذلك إن دل على شيء فانما يدل على مدى الضعف والخور الذي انتاب المسلمين ، وقد أورد ابن الاثير حوادث تبرهن بما لا يدع مجالا للشك على الانهيار التام للروح المعنوية لدى المسلمين بحيث لم يعد لجماعة من المسلمين الصمود في وجه جندى مغولي واحد (٣) .

وذكر ابن نظيف الحموى في حوادث سنة ٤٢٨ هـ وصول رسل التتر الى الشام " واجتمع بهم الملك المجاهد بحمص " (٤) غير أنه

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٩٩ - ٥٠٠ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٦٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٢٥- ٣٢٨ .

(٢) ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص ٢٣٠ .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٥٠٠-٥٠١ ؛وانظر ايضا ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٢٧-٣٢٨ .

(٤) التاريخ المنصورى ص ٢٣١ .

لم يذكر فحوى الرسالة التي حملوها وماذا كان رد المجاهد عليها كما لم يرد في المصادر الاخرى اي اشارة الى تلك السفارة الى صاحب حمص .

ومن الواضح ان تلك الفرقة المغولية التي اجتاحت اقليم الجزيرة سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١ م لم تكن تهدف الى الاستيلاء على البلاد وانما كان هدفها معرفة بلاد الشام والجزيرة ومدى قدرة حكامها على الصمود في وجه المغول ،ويدل على ذلك رسالة أوردها ابن الاثير بعث بها تاجر من الري الى اصحابه بالموصل جاء فيها قوله : " لا تظنوا ان هذه الطائفة التي وصلت الى نصيبين والخابور والطائفة الاخرى التي وصلت الى اربل و دقوقا كان قصدهم النهب وانما ارادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردهم ام لا ، فلما عادوا اخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع وأن البلاد خالية من ملك وعساكر فقوى طمعهم وهم في الربيع يقصدونكم "(١) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٥٠٣ ، لم يكن المغول يواجهون اية مشكلات تموينية وهي التي تعاني منها الجيوش المنظمة عادة فقد اثّرت طبيعة بلادهم الجغرافية القاسية في منغوليا في تكوينهم الجسماني وفي تكوين دوابهم و جعلت لهم قدرة عجيبة على الصبر وقوة التحمل . وقد ادرك ابن الاثير هذه الحقيقة فقال : " انهم لا يحتاجون الى ميرة او مدد ياتيهم فإنهم معهم الاغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب ياكلون لحومها لا غير ،وأما دوابهم التي يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها ، وتاكل عروق النبات لا تعرف الشعير فاذا نزلوا منزلا لا يحتاجون الى شيء من خارج " انظر ابن الاثير ،الكامل جـ٢ ص١٦٠ ، ولذلك لا نعجب لسرعة غزواتهم المدمرة ،التي امتدت الى اواسط اوربا .

وقد اتخذت تلك الطلائع المغولية السابقة من موغان (١) باذربيجان مشتى لها لتعود بعد انقضاء فصل الشتاء للاغارة على الجزيرة وشمال العراق ،ففي سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣٢م عادوا للغارة من جديد لجس نبض القوى الاسلامية بالعراق والجزيرة والشام ، وقد اهتم الخليفة العباسي المستنصر بالله اهتماما عظيما فبعث بالرسل تباعا إلى السلطان الكامل واخيه الملك الاشرف يحثهم على الخروج الى الشام والمضي لقتال التتار. كما استخدم الخليفة العرب وغيرهم من الأجناد ،وبذل الاموال بسخاء لصد التتر الذين اغاروا مرة اخرى على الجزيرة وقتلوا وسبوا وجفل الناس من بين ايديهم ، وتقدم الكامل والأشرف بعساكر الشام والجزيرة الى الشام و عبرا الفرات ،وحين سمع التتار بقدومهما - وكانوا قد ضربوا الحصار حول خلاط - انسحبوا عنها وتركوا حصارها (٢). وسار الكامل فاستولى على آمد كما مر معنا (٣) ، ولكنه بدلا من توحيد قواه مع سلاجقة الروم وامراء الشام والجزيرة قام بحملته المشهورة على آسيا الصغرى بغية الاستيلاء على بلاد السلاجقة ، والتي أفضت الى الفشل وما ترتب على ذلك من اذكاء نار الخلافات بينه وبين سلاجقة الروم من ناحية ،وبينه وبين ملوك الشام الايوبيين من ناحية أخرى (٤) ،

----

(١) موغان : ولاية واسعة بها قرى ومروج باذربيجان على يمين القاصد من اردبيل الى تبريز وكانت منازل التركمان لسعة رقعتها وكثرة عشبها ثم اتخذها التتر مشتاة وجلا عنها تركمانها انظر القزويني : اثار البلاد واخبار العباد ص ٥٦٤.

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصور ص ٢٣٢ - ٢٣٥ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٧٣ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٧٨.

(٣) انظر ما سبق ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٤) انظر ما سبق ص ٣٦٢ - ٣٦٧.

في وقت كان المسلمون في اشد الحاجة الى تجميع الصفوف وتوحيد القوى وتنقية النفوس لصد الخطر المغولي الداهم.

ومن الواضح ان المغول اتخذوا من موغان في اذربيجان قاعدة متقدمة لهم ، لوضع بلاد العراق والجزيرة والشام واسيا الصغرى تحت المراقبة الدائمة لرصد حركات القوى الاسلامية بها و معرفة مدى قوتها واختبارها على الدوام عن طريق الغارات المتلاحقة لأن حكام المغول لم يقرروا في ذلك الحين اجتياح هذه البلاد بعد. ومما يبرهن على صحة هذا الرأي ، تلك الغارات التي كان يقوم بها المغول على الجزيرة والعراق وتحاشيهم في بعض الاحيان الاصطدام بالجيوش القوية ،مثلما حدث سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م عندما قطع المغول اعالي دجلة وكان السلطان الكامل قد فرغ لتوه من استعادة الرها وحران من سلاجقة الروم ،وحين بلغ المغول نبأ وجوده بالجزيرة عادوا ادراجهم.(١) وفي سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م حاصروا اربل في شمال العراق ،فارسلت الخلافة العباسية العساكر لنجدتها وأمرت بتحصين بغداد ،وعاث المغول في اربل وحاصروا قلعتها وحين بلغهم اقتراب عساكر الخليفة انسحبوا الى الشرق (٢).

وداوم المغول الغارات على العراق سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م ففي صفر من السنة نفسها هاجموا اربل مرة اخرى وامتدت غاراتهم الى قرب بغداد ونهبوا السكان فأعلن الخليفة الجهاد ،واستطاع المسلمون

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٥١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٩٣.

(٢) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص٩٨ - ٩٩ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٨٩٩.

إنزال الهزيمة بالمغول قرب تكريت واطلقوا سراح الاسرى المسلمين غير انه لم يمض وقت طويل حتى عاود المغول شن الغارة على اعمال بغداد في رجب من سنة ٦٣٥هـ/ مارس ١٢٣٨م وكان الخليفة في ذلك الوقت قد تلقى النجدات من بلاد الشام ،ومع ذلك فقد انزل المغول الهزيمة بجيش المسلمين في الخانقين شمال شرق بغداد وقتلوا منهم اعدادا كبيرة وفر الباقون الى بغداد.(١)

وفي سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م وصل الى ملوك الجزيرة والشام رسول تولي ابن جنكيز خان - شقيق اوكتاى خان المغول الاكبر - يأمرهم بالدخول في طاعته وهدم اسوار مدنهم ويحذرهم من مغبة العصيان عليه(٢) ،ورغم ذلك فقد ظل ملوك الشام والجزيرة وسلاجقة الروم منغمسين بدون وعي في منازعات لا تنتهي وكأنهم يمهدون بذلك لسقوط بلادهم بأيدى التتار(٣) .

وفي سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٣م اقدم المغول على خطوة بالغة الخطورة عندما قرروا الاستيلاء على اسيا الصغرى ،اذ أن ذلك يشير بوضوح الى تصميمهم على الاطباق على بلاد الشام والجزيرة والعراق ومصر من جهتي الشرق والشمال . فقد زحف جيش مغولي كبير بقيادة بايجو نويان الى مدينة ارزن الروم في جنوب شرق اسيا الصغرى وحاصرها

---

(١) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص١٠٩ - ١١٣ ؛ابن العبرى تاريخ مختصر الدول ص٤٣٨ - ٤٣٩ ؛ الصياد : المغول في التاريخ ص١٨١ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص١٥٥ - ١٥٦ ؛ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٤٢ .

(٣) ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٤٦ ؛وانظر ايضا : ابن العديم زبدة الحلب ج٣ ص ٢٦٣- ٢٦٥ ؛ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣١٠ .

حصارا شديدا ،ولكن واليها من قبل السلطان السلجوقي غياث الدين كيخسرو الثاني ويدعى سنان الدين ياقوت صمد في وجوههم ودافع عنها ببسالة فائقة حتى اقترب فصل الشتاء وأوشك المغول على الانسحاب فاتصل بهم احد القادة الخونة داخل المدينة وكان يتولى حراسة احد الابراج ، وبذل لهم تسليم البرج مقابل حصوله على الامان مع اهله واموالـه ،فوافق المغول على عرضه وتسلموا البرج منه واقتحموا مدينة ارزن الروم فقتلوا الرجال والاطفال وسبوا النساء و نهبوا الاموال "وجعلوا البلد قاعا صفصفا "(١).

و شعر السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني بالخطر المحدق بدولته فأرسل نائبه شمس الدين الى الجزيرة ،وسعى في الصلح بين مملكة حلب والخوارزمية والمظفر غازى بن العادل في محاولة لتوحيد جهودهم جميعا ضد المغول ثم سار النائب شمس الدين مع عسكر حلب الى بلاد الشام طالبا النجدة من الحلبيين ،فجردوا معه فرقة كبيرة بقيادة احد الامراء ويدعى ابو المعالي ناصح الدين الفارسي ، وحين وصل عسكر حلب الى اسيا الصغرى استقبله السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني و خلع على افراده واكرمهم وضمهم الى عسكره ،وشرع في التأهب لمواجهة المغول (٢).

----

(١) المولوى : صحائف الاخبار ورقة ٥٨٢ ؛ وانظر ايضا :
The Cambridge Medieval History , Vol.IV, p.748;
The Cambridge History of Islam p.249.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٦٧- ٢٦٨ ؛ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣١٤ ، ٣٢٦-٣٢٧ ؛ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٧١ .

وسار السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني بقواته والتقى بقائد المغول بايجونويان في مكان يسمى كوسه طاغ (اى الجبل الاقرع) قرب توقات سنة (٦٤١هـ / ١٢٤٣م ودارت المعركة ،فحلت الهزيمة بالسلطان غياث الدين وقتل اكثر عسكره وامرائه ،وغنم المغول ما معهم من الاموال والاثقال .(١)

اما السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني فقد هرب عقب المعركة الى توقات ومنها الى قونية ، ثم سار الى سيواس ولجأ الى قاضيها نجم الدين القيرشهرى الذى كان قد تقرب الى جنكيز خان حين استولى على خوارزم وحصل منه على توقيع بالأمان فسلم التوقيع للقائد بايجونويان ،فقبله ووضعه على رأسه اجلالا واحتراما لمؤسس امبراطورية المغول ،واجاب القاضي ببذل الامان لأهل البلد على ارواحهم على شرط ان ينهب المدينة ثلاثة ايام. ثم تقدم المغول الى قيسارية فنهبوها وأبادوا سكانها اما السلطان كيخسرو الثاني فقد فر الى غرب اسيا الصغرى ،ثم أذعن سلاجقة الروم للمغول وقدموا لهم الاتاوة السنوية رمزا للخضوع والتبعية .(٢)

---

(١) المولوى : صحائف الاخبار ورقة ٥٨٣ أ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١٣١ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٦٩ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٢٧ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ؛ فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ص١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) المولوى : صحائف الاخبار ورقة ٥٨٣ ب - ٥٨٤ أ ب ؛وانظر ايضا الذهبي: دول الاسلام جـ٢ ص١٤٧ ،البازالعريني : المغول ص١٧٨- ١٧٩ ؛الصياد : المغول في التاريخ ص١٨٣ ؛
The Cambridge Medieval History Vol.IV, pp.748-749, The Cambridge History of Islam p. 211.

وكان لهزيمة سلاجقة الروم على أيدى المغول اثار بعيدة المدى على تاريخ بلاد الشام ، فقد عادت فلول النجدة الحلبية بقيادة ناصح الدين الفارسي الى حلب "في أسوأ حال" وثار التركمان في اطراف بلاد الشام وأسيا الصغرى يعيثون نهبا وفسادا ،كما استولت المغول "على آمد و خلاط وبلادهما "(١) كما هاجر الى بلاد الشام أعداد كبيرة من سكان اسيا الصغرى "فاضطرب الشام لذلك اضطرابا كثيرا"(٢) .

وذكر بعض المؤرخين أن أحد قادة المغول ويدعى يسارنوين غزا بلاد الشام عن طريق آسيا الصغرى سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م ووصل الى حيلان قرب حلب ثم عاد منها " لحفي اصاب خيول المغول "كما نجم عن غارات المغول هذه اثار سيئة على الحياة الاقتصادية بشمال بلاد الشام واسيا الصغرى " وأقحطت البلاد بعد ترحال التتار " وانتشرت الأوبئة وهلك الكثير من الخلق " وباع الناس اولادهم باقراص الخبز "(٣) .

والحق ان سيطرة المغول على اسيا الصغرى المتاخمة لحدود بلاد الشام الشمالية جعل تلك البلاد في متناول المغول متى ما اتخذوا القرار بغزوها .

واذا كانت بعض فرق المغول قد أغارت على أطراف بغداد

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٢٣ ؛ وانظر ايضاً ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٦٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٢٥ .

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٤٦ ؛ وانظر ايضا ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٣ القسم الثاني ص ٤٧٢ .

سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م [(١)] وعلى بعض مناطق الجزيرة سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م [(٢)] ،فانه من الواضح ان هدف تلك الغارات اختبار قدرات القوى الاسلامية في هذه المناطق تمهيدا للغزوة الكبرى التي قادها هولاكو . وفي سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م جهز خان المغول منكو قاآن جيشا مغوليا ضخما واسند قيادته الى اخيه هولاكو خان وأمره بالمسير غربا للاستيلاء على منطقة الشرق الادنى الاسلامي ، وتمكن هولاكو في سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م من الاستيلاء على قلاع الاسماعيلية في غرب ايران وقضى على تلك الطائفة قضاء مبرما [(٣)] .

ثم تقدم هولاكو بجحافل المغول الى بغداد وهزم جيش الخليفة العباسي الضعيف ،وحاصر بغداد فاستسلم الخليفة المستعصم لهولاكو واقتحم المغول بغداد في المحرم ٦٥٦هـ/ فبراير ١٢٥٨م وقام المغول بارتكاب مذبحة رهيبة دامت اربعين يوما وراح ضحيتها اكثر من ثمان مئة الف نسمة من المسلمين ،اما الخليفة فقد قتله المغول ونهبوا بغداد نهبا شنيعا ودمروا كنوز الحضارة الاسلامية في مختلف الآداب والفنون ، لتدخل بلاد الشرق الادنى بسقوط الخلافة العباسية حقبة

---

(١) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص١٩٩-٢٠٠ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١٦٨ .

(٢) ابن حبيب : درة الاسلاك ورقة ٥أ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٨٧ ؛ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج٣ ص ٤٧٦ ؛ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٢٦٠-٢٦١ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج٢ ص ١٥٦ ؛عماد الدين خليل : الامارات الارتقية ص٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ،المجلد الثاني ج١ ص٢٣٤-٢٥٨ ؛ العريني : المغول ص٢٠٧-٢١٢ .

جديدة في تاريخها[١] .

اما عن موقف بلاد الشام من غزو المغول للعراق والقضاء على الخلافة العباسية وتدمير مدينة بغداد ، فقد اصبحت بلاد الشام منذ زمن بعيد نهباً للفوضى والانقسام ،وكان ملكها الناصر يوسف منغمسا في نزاع لا ينتهي مع المماليك في مصر ،ومع المغيث عمر صاحب الكرك ،ومع طائفة المماليك البحرية بقيادة ركن الدين بيبرس والذين كانوا قد فروا الى الشام منذ سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م[٢].

وقد اتضح من موقف الناصر يوسف - صاحب دمشق وحلب - ازاء المغول انه لم يكن مدركا لابعاد الخطر المغولي وطبيعة المرحلة القادمة ولذلك جاءت مواقفه متناقضة ، وقد ظهر تناقضه هذا لهولاكو حتى قبيل غزو الاخير للعراق[٣] . وذكر المؤرخون أنه بعث ابنه العزيز محمد الى هولاكو بهدايا سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م[٤] ،

---

(١) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص٣٢٣- ٣٣١ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٩٨ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص١٩٣- ١٩٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص٢٠٠-٢٠٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص٤٧ - ٥٣ ؛ الدياربكرى: تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس ج٢ ص ٣٧٦ - ٣٧٧ ؛ الصياد : المغول في التاريخ ص٢٤٩- ٢٧٠ ؛ العريني : المغول ص٢١٣-٢٢٠.

(٢) انظر ما سبق الفصل الثاني ، ص ٢٠٥- ٢٢١.

(٣) رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ المجلد الثاني ج١ ص ٣٠٥.

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٤٥ ؛ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص٥٦ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص٤١٦.

ويضيف المقريزى أن العزيز طلب على لسان ابيه من هولاكو ان يبعث معه نجدة لينتزع مصر من ايدى المماليك (١) . وبعد سقوط بغداد وبداية زحف المغول الى الجزيرة قاصدين بلاد الشام ، وبعد ان تلقى الناصر يوسف رسالة هولاكو (٢) ، بعث بالمؤرخ ابن العديم الى المماليك في مصر طلبا للمساعدة ضد المغول (٣) .

والحق ان تخاذل ملوك وحكام بلاد الشرق الادنى وتفرق كلمتهم قبيل الغزو المغولي هو الذى مهد الارض الخصبة لنجاح غزو المغول ، وقد عبر عن ذلك احدهم عندما قال : " والله ما خرجت البلاد عن ايدينا الا بتخاذل بعضنا عن بعض فلو كانت الكلمة مجتمعة لم يجر علينا ما جرى " (٤) .

ولا يفوتنا ان نشير هنا الى وعي ركن الدين بيبرس قائد طائفة المماليك البحرية الذى كان مدركا تمام الادراك لابعاد الغزو المغولي ومخاطره ، يدل على ذلك موقفه حين طلب من الناصر يوسف سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م أن يقدمه على رأس اربعة الاف فارس " أو يقدم عليهم غيره " ويمضى بهم الى شط الفرات الغربي لحراسته ومنع المغول من اقامة الجسور والعبور الى بلاد الشام ، ولما رفض الناصر يوسف طلبه

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٤١٠-٤١١ .

(٢) انظر نص رسالة هولاكو الى الناصر يوسف في ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٨٤ - ٤٨٥ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٤١٥-٤١٦ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفا ص ٧٥٠- ٧٥٢ .

(٣) ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٩٩ ؛ المقريزى ؛ السلوك جـ١ ص ٤١٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٧٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢١٥ .

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٣٤٤ .

عمد بيبرس الى مراسلة سيف الدين قطز . وقرر الانضمام اليـــه ، وتناسي الخلافات مع زملائه مماليك مصر ،وسار اليها وانضم الى قطـــز ولعب دورا حاسما وهاما كما هو معروف في صد خطر المغول فـــي معركة عين جالوت (١) .

وجدير بالذكر هنا ان تشير الى مشاركة النصارى من الأرمـن والكرج للمغول في غزو بغداد ،كما تمتع النصارى من سكان بغداد بعطف المغول وذلك بايعاز من دوقوزخاتون زوجة هولاكو النصرانية (٢) .

والحق انه لا يمكننا الحديث عن خطر المغول دون الاشارة الى محاولات زعماء الصليبيين في غرب اوربا لاقامة تحالف صليبـــي مغولي للقضاء نهائيا على المسلمين في بلاد الشام. فقد اشرنا الـى الدور الذى لعبه هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى ومحاولته التحالف مع المغول . اما الغرب الاوربي فقد أدرك منذ النصف الاول من القــرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى مدى قــوة المغول وخطرهــم وجبروتهم حين وصلوا بجحافلهم حدود المانيا ، وهددوا اوربا بقوة ، ورأت البابوية الافادة من حركة المغول الذين لم يعارضوا بعثات التبشيـــر بينهم ،فسعت البابوية جاهدة لاقامة تحالف مغـــولي صليبي ضد المسلمين في بلاد الشام ومصر (٣) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١٠٠-١٠١ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٦٧

(٣) جوانفيل : القديس لويس ،مقدمة المترجم ص ١٧ -١٨ .

فقد اوفد البابا انوسنت الرابع (٦٤٠-٦٥٢هـ/١٢٤٢-١٢٥٤م) سفارتين الى بلاط خان المغول يدعوهم الى اعتناق المسيحية ، غير ان خان المغول طلب من البابا وجميع زعماء الغرب الأوربي إعلان خضوعهم له ودخولهم في طاعته واعترافهم بسيادة المغول (١) .

وحين كان لويس التاسع في قبرس ٦٤٦هـ/١٢٤٨م وهو في طريقه لغزو مصر تلقى سفارة من نائب خان المغول على فارس ، وعرضت تلك السفارة استعداد المغول لعقد تحالف مع لويس التاسع وغزو الاراضي المقدسة وانتزاع بيت المقدس من المسلمين . فبادر لويس التاسع الى إرسال سفارة من قبله الى خان المغول وحملها بالهدايا القيمة للخان المغولي ، وهدف منها الى اجتذاب خان المغول الى المسيحية (٢) . ويبدو أن تلك السفارة لم تحقق هدفها بسبب رغبة خان المغول في اخضاع جميع الملوك المعاصرين له مما جعل لويس التاسع يتطلع الى محالفة مغول روسيا فارسل سفارة اخرى اليهم ،ولكنهم بعثوا برسالته الى خان المغول في قراقورم والذى اشترط اعتراف لويس التاسع بالتبعية للمغول (٣) .

وهكذا فشلت جهود الغرب الأوربي في اقامة تحالف صليبي مغولي كامل ضد المسلمين باستثناء الدور الذى لعبه هيثوم ملك أرمينية الصغرى الذى شارك في هجوم المغول على بلاد الشام ولم ينجح سوى

---

(١) جوانفيل : القديس لويس ،مقدمة المترجم ص ١٨ ؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٤٧ ؛رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ص ٤٤٦ .

(٢) جوانفيل : القديس لويس ص ٨٤-٨٦ ؛ حسن حبشي : الشرق العربي بين شقي الرحى ص ٣٦- ٣٧ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٤٨ .

(٣) سعيد عاشور ، المرجع السابق جـ٢ ص ١٠٤٨- ١٠٤٩ .

في اجتذاب بوهيمند السادس صاحب انطاكية ، اما بقية الصليبيين في بلاد الشام فقد تقاعسوا عن اجابة هيثوم الى طلبه (١) . وكان ذلك من حسن حظ المسلمين اذ لو تحالف الصليبيون جميعا في بلاد الشام مع المغول لهددوا مؤخرة جيش المماليك ولما تحقق للمسلمين النصر في عين جالوت .

---

(١) The Cambridge History of Islam pp.211-212

وانظر ما سبق ص ٤٠٢ - ٤٠٥ .

الفصل الخامس

أهم مظاهر التطور الحضاري في بلاد الشام

الفصل الخامس

اهم مظاهر التطور الحضارى في بلاد الشام

الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي :

- دور ملوك بني أيوب في ازدهار الحركة الفكرية
- أهم المدارس في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي
- علوم الشريعة
- علوم العربية (النحو واللغة ، والشعر والأدب
- الفلسفة
- الدراسات الطبيعية (الطب والصيدلة ،والرياضيات ،والفلك)

اهم ملامح الحالة الاقتصادية لبلاد الشام قبيل الغزو المغولي :

- (الزراعة ، الصناعة ، التجارة)
- (اهم المنشآت العمرانية والمرافق العامة)

*

((الحياة العلمية في بلاد الشـــام))

((قبيل الغزو المغولي))

على الرغم مما شهدته بلاد الشام من حوادث سياسية متشابكة تناولها البحث مفصلة في الفصول السابقة ،فإن مما يسترعي الانتباه التطور العلمي والانتاج الفكرى الكبير الذى شهدته بلاد الشام خلال هـــذه الحقبة .

والحق أنه لا يمكن تتبع الحركة العلمية في بلاد الشام بصــورة مفصلة خلال هذه الفترة ، نظرا لما شهدته بلاد الشام من مئـــات المدارس في مختلف بلدان الشام ولما ظهر فيها من علماء كثيريـــن . كما أن الايغال في شرح هذا الموضوع يحتاج الى مجلدات الامر الـذى يطغى على موضوع الرسالة الذى نقوم بدراسته وبالتالي فسوف يقتصـر البحث على رصد اهم السمات العامة للحركة العلمية والتأريخ لها ولأهم مظاهرها وفي ذلك دلالة كافية على المدى الذى بلغته الحركـــة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي .

دور ملوك بني أيوب في ازدهار الحركة الفكرية :

من الحقائق المسلم بها في تاريخ الحضارة الاسلامية ،أنه كان للملوك والحكام والخلفاء ورجال الدولة اكبر الأثر في ازدهار الجانـب الحضارى ،ولا سيما الحياة العلمية ،وذلك لما ابدوه من تشجيع دائم للعلماء وطلاب العلم ،فأنشأوا لهم المدارس وزودوها بالمكتبات وأجـروا علـــى كل ذلك الجرايات والأوقاف .

وكان لملوك بني أيوب ورجال دولتهم دور بارز في ازدهـــار الحياة العلمية في بلاد الشام ،فالملك الأفضل بن صلاح الدين الـذى

خلف والده في حكم دمشق كان قد تلقى العلم على كثير من العلماء بالاسكندرية وبلاد الشام ومنحه بعضهم الاجازة [(١)] ، كما اشتهر بحسن الخط وجماله ،وكان له شعر جيد ينم عن سعة علمه وكثرة اطلاعه ، وهذا ما دفعه الى تعظيم العلماء وتقريبهم [(٢)] .

وأنشأ الافضل مدرسة بالقدس هي الأفضلية وجعلها خاصة بتدريس المذهب المالكي وأوقف عليها الاوقاف ، وظلت قائمة طوال العصرين الأيوبي والمملوكي [(٣)] .

ولا يقل عنه اخوه الظاهر صاحب حلب في العناية بالعلم والعلماء ، فقد تلقى هو الاخر علومه بالاسكندرية ودمشق وحصل على الاجازة من كبار العلماء المصريين والشاميين [(٤)] . وحين اصبح ملكا على حلب جعل دولته معمورة بالعلماء ،فقرب اليه قادةالفكر ،مثل القاضي بهاء الدين بن شداد وغيره من الفقهاء ، واجاز الشعراء

---

(١) الاجازة لغة : مصدر اجاز بمعنى أذن ،وفي الاصطلاح اذن وتسويغ اتخذه علماء الحديث بأن يأذن الثقة منهم او المحدث لغيره بأن يروى عنه حديثا او كتابا ونحوه ، انظر الفيروزابادى : القاموس المحيط جـ٢ ص ١٧٠ ؛دائرة المعارف الاسلامية جـ١ ص ٤٣٣ .

(٢) سبط ابن العجمى : كنوز الذهب في تاريخ حلب لوحة ٢٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ٤١٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٣٧-٣٨ ؛ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٠١-٢٠٢ ؛الزبيدى : ترويح القلوب ص ٦٩ .

(٣) مجير الدين العليمي : الانس الجليل جـ٢ ص ٤٦ ؛ محمد كرد علي : خطط الشام جـ٦ ص ١٢٢ ؛ عبدالجليل حسن : المدارس في بيت المقدس في العصرين الايوبي والمملوكي جـ١ ص ٣٣٦-٣٣٩ .

(٤) المنذري : التكملة لوفيات النقلة جـ٢ ص ٣٦٨ .

والأدباء بالهدايا والصلات كما ارتفعت مكانة بيوت العلم في دولته مثل بني القيسراني وبني العجمي وبني الخشاب وغيرهم من الأسر العريقة ذات الباع الطويل في ميدان العلم والمعرفة .(١)

أما المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت٦١٧هـ) ملك حماه فقد كان عالما جليلا ، يحب العلم والعلماء وأهل الأدب والشعر ، وكان يتوق على الدوام الى أن يكون في مملكته طائفة كبيرة من العلماء في شتى فروع الأدب ، الأمر الذى أغرى الكثير من العلماء بالقدوم عليه والعيش في كنفه لما وجدوه عنده من تشجيع بالغ لهم وعناية فائقة بصحبتهم . وذكر المؤرخون أنه كان يعيش في بلاطه زهاء مائتي عالم من الفقهاء والنحاة واللغويين والفلاسفة والمهندسين وعلماء الفلك والشعراء وغيرهم ، وقد فرض لهم جميعا الجرايات والرواتب .(٢)

ومن الذين وفدوا على الملك المنصور من العلماء الشيخ الامام سيف الدين ابو الحسن الامدى ، وحين وصوله الى حماه استقبله وبنى له

----

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٧٩ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٩٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٤ ص ٦-٩ ؛ ابن العميد : اخبار الايوبيين ص ١٣٠ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٣٤٢- ٣٤٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢١٧- ٢١٨ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص ٥٥ - ٥٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٧٧- ٧٩ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٢٤ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٢٦ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٢٦٣ ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات جـ٤ ص ١٢ ؛ ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٥٠ .

المدرسة المنصورية وأجرى له الراتب المجزى وواظب على حضور مجلسه والاشتغال عليه في جميع الفنون (١).

وكان المنصور نفسه "عالما بالسير والتواريخ وعلم الكلام" (٢) وقد انعكس ذلك على انتاجه العلمي فصنف كتابا ضخما في التاريخ العام سماه "مضمار الحقائق وسر الخلائق" في نحو عشرين مجلدا (٣)، كما صنف كتابا آخر في طبقات الشعراء، وكان المنصور شاعرا متمكنا (٤). وكان له ايضا عناية فائقة بالكتب فجمع في خزانته الكثير منها في شتى انواع العلوم "وكان يكثر مطالعة الكتب ومراجعتها واستحضار العلماء والبحث معهم" (٥).

اما رجل بني ايوب في ميدان الحياة العلمية "وعالمهم بلا مدافعة" فهو الملك المعظم عيسى بن العادل ملك دمشق (٦). وكان قد تلقى علومه منذ الصغر بمصر والشام على ايدى كبار العلماء والفقهاء (٧)، حتى اصبح عالما ضليعا في عدة علوم، يأتي في مقدمتها الفقه على

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٧٨ ؛ ابن ايبك كنز الدرر جـ٧ ص ٢٦٣.

(٢) ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص ٩٠.

(٣) كتاب المضمار مفقود اكثره ولم يبق منه الا جزء واحد نشره حسن حبشي بالقاهرة سنة ١٩٦٨م.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٧٨-٨٦ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٢٦٤.

(٥) ابن واصل : نفسه جـ٤ ص ٨٠.

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٦٨.

(٧) المنذرى : التكملة لوفيات النقلة جـ٣ ص ٢١٢.

مذهب الامام ابي حنيفة إذ داوم الاشتغال بمذهبه حتى اصبح متميزا فيه (١) . ومن الطريف انه التزم بالمذهب الحنفي في الوقت الذى كان فيه ملوك بني ايوب على المذهب الشافعي حتى أن والده السلطان العادل سأله ذات مرة قائلا : " كيف اخترت مذهب ابي حنيفة وأهلك شافعية ؟ " فاجابه على سبيل المداعبة : " ياخوند أما ترضون ان يكون فيكم رجل واحد مسلم ؟ " (٢) وبلغ اهتمامه بمذهبه حدا جعله يأمر الفقهاء ان يجردوا له مذهب ابي حنيفة في كتاب واحد ، فجردوه له في عشر مجلدات ،فسماه التذكرة وصار "لا يفارقه سفرا ولا حضرا" واخذ في مطالعته ودراسته حتى استوعبه وكتب على ظهر كل مجلده " أنهاه حفظا عيسى بن ابي بكر بن ايوب "فقال له صديقه المؤرخ سبط ابن الجوزى : " ربما يؤخذ هذا عليك .... وانت مشغول بتدبير الممالك وتكتب خطك على عشر مجلدات أنك حفظتها " فقال له المعظم" ليس الاعتبار بالالفاظ وانما الاعتبار بالمعاني ... فاسألوني عن جميع مسائلها فان قصّرت كان الصحيح معكم والا فسلموا لي ما قلت " (٣).

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٧ ب ؛ الجنابي : البحر الزاخر جـ٢ ورقة ١٩ ب ؛العليمي : المعتبر في انباء من غبر ورقة ٧٥ أ ؛ ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٤٧١ ؛ اليافعي : مرآة الجنان جـ٤ ص ٥٧ - ٥٨ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهرية ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢١١ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢٤ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٤٧ ؛وانظر ايضا : الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٥١ ب ؛القرشي : الجواهر المضية في طبقات الحنفية جـ١ ص ٤٠٢ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهرية جـ١ ص ١٤٣ .

وحينماوقف المعظم على تاريخ بغداد لموءلفه ابي بكر احمد ابن ثابت البغدادى وجد فيه مطاعن على ابي حنيفة رواها الخطيب عن جماعة من المحدثين ،فقام المعظم بتحقيقها وبيّن بطلانهاوصنف في ذلك كتابا سماه (السهم المصيب في الرد على الخطيب) وردّ فيه على جميع المطاعن التي اوردها الخطيب عن ابي حنيفة وضمن كتابه هذا مباحث قيمة في الفقه والنحو ،وتتبع سيرة الخطيب حتى روى له اشعارا جرحه بها . وقد ذكر الموءرخ ابن واصل انه رأى هذا الكتاب بالقدس، فطالعه فوجده في "غاية الحسن".(١)

ولم يقتصر تفوق المعظم بالفقه فحسب ،بل برز ايضا في علوم النحو والادب واللغة ،وكان استاذه فيها الشيخ تاج الدين ابو اليمن ابن الحسن الكندى عالم النحو المشهور ،وقد قرأ المعظم على يديه كتاب سيبويه ،وكتب عليه خطه في عدة مواضع يقول في بعضها : "أتممت هذا الكتاب مطالعة ومراجعة ، وانا بمدينة ارسوف" ويقول في موضع آخر : " أتممته مطالعة ومراجعة وأنا بنابلس".(٢) مما يشير الى اهتمامه الفائق بطلب العلم حتى اثناء تنقله بين بلدان مملكته وجهاده للصليبيين .

كما اهتم المعظم ايضا باللغة وأمر أن يُجمع له كتاب جامع في اللغة يتضمن كتاب "الصحاح للجوهرى"و يضاف اليه ما فات الصحاح من التهذيب للأزهرى والجمهرة لابن دريد على أن يُبوب الكتاب بحيث

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢١٢ ،وانظر ايضا : ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢٧٦ .

(٢) ابن واصل : المصدر نفسه جـ٤ ص ٢١٠-٢١١ .

يصبح كل قول وحديث في الباب الذى يقتضي معناه مثل باب الطهارة ، وباب الغزوات ،والتفسير ،وغير ذلك ليصبح كتابا جامعا .(١)

واعتنى المعظم بالعلوم الاخرى فدرس القراءات والاحاديث وانكب على قراءة أمهات الكتب المختصة بهما ،كما اهتم بالعروض وكان له ديوان شعر .(٢)

وكان من الطبيعي لحاكم هذه ثقافته وسعة اطلاعه أن يصبح بلاطه مرتعا خصبا للعلم والعلماء "ونفق العلم في سوقه" كما يقول ابن الاثير ،فقصده العلماء من سائر الافاق فاكرمهم واجرى عليهم الجرايات الوافرة وكان يجالسهم و يستفيد منهم ويفيدهم (٣) . وبلغ من حرصه على اجتذاب العلماء الى بلاطه ان كان يراسلهم ويطلب منهم القدوم اليه ، ومن ذلك على سبيل المثال انه ارسل في سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م رسالة الى سالم بن واصل -والد المؤرخ المشهور - يطلب حضوره من حماه الى دمشق ،فسافر صحبة ابنه جمال الدين محمد الى دمشق فاكرمهما المعظم غاية الاكرام ،وشاهد المؤرخ ابن واصل من اهتمام المعظم بالعلم ما أثار دهشته فكان "يحاضر الفقهاء والعلماء ويباحثهم في دقائق العلوم"(٤) .

وكان المعظم يحث طلاب العلم على الاشتغال بجد ونشاط فخصص لهم المكافآت وأعلن أن من حفظ الجامع الكبير في الفقه الحنفي

----

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٤٧١ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٢١ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢٦٧ .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٤٧١ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص١٤١ .

لأبي الحسن بن عبيدالله الكرخي فله مئة دينار و من حفظ الايضاح في النحو لابي علي الفارسي فله جائزة اخرى قدرها مائتا دينار ، وقد حفظ الكتابين جماعة من طلبة العلم فاعطاهم المكافآت التي وعدهم بها (١).

وقد عاش في بلاط المعظم طائفة كبيرة من العلماء والأدباء وكانوا لا يفارقونه حتى في اسفاره ، و منهم - على سبيل المثال - فخرالقضاة نصر الله بن براقة المصرى الأديب البارع وصاحب النظم والرسائل . وشرف الدين بن عنين الشاعر المشهور ، وجمال الدين بن شيث كاتب الانشاء وكان اديبا جيد الترسل له معرفة قوية بعلم الكيمياء و غيرهم من العلماء الافاضل (٢).

كما اسهم المعظم بقسط وافر في ازدهار الحياة العلمية عن طريق انشاء المدارس و منها المدرسة المعظمية بعاصمته دمشق ، والتي انشأها سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م حيث تولى التدريس بها عدد من العلماء المشهورين (٣). واكمل بناء مدرسة والده بدمشق وأوقف عليها الاوقاف و دفن والده بها ونسبها اليه (٤). وبنى بالقدس

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٧ ب - ١٨ أ ؛ الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٥٢ أ ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٤٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهرية : القسم الأول ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢١٤-٢١٧ .

(٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ قسم تاريخ مدينة دمشق ص ٢٢٠ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٥٧٩ .

(٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ قسم دمشق ص ٢٤٠ ، النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٣٥٩ .

مدرسة الحنفية عند باب المسجد الأقصى ، وبنى على آخر صحن الصخرة من جهة القبلة مدرسة أخرى تسمى النحوية والمعظمية ، وخصصهما لتدريس علوم العربية واوقف عليها الاوقاف الحسنة .(١)

ومن ملوك بني ايوب الذين لعبوا دورا بارزا في ازدهار الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك ، وكان قد نشأ في دمشق وتلقى العلم على كبار علماء عصره ، وأفاد من العلماء الذين كانوا يدرسون في مدرسة والده المعروفة باسم المدرسة الفروخ شاهية مثل الشيخ تاج الدين الكندى عالم النحو الشهير (٢) . وبعد أن آلت الى الامجد مملكة بعلبك اظهر عناية فائقة بعلوم عصره ، وصار يحب العلماء والشعراء وأهل الأدب ويمنحهم الجوائز الكثيرة . وغدا الامجد شاعرا فحلا ، ويعتبر من اشعر ملوك بني ايوب على الاطلاق وله ديوان شعر مطبوع ، ويتميز شعره بالجودة والابداع ويقف على قدم المساواة مع شعراء عصره المجيدين (٣) .

وقد مدح الشعراء الملك الأمجد وقصدوه من بلاد الشام لينالوا جوائزه ، ولازموا خدمته ، وممن وفد اليه ومدحه الشاعر شرف الدين بن عنين ومن الذين لازموا خدمته والعيش في كنفه الشيخ الأديب شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن ،

---

(١) العليمي : الأنس الجليل جـ١ ص ٤٠٣ ؛ العمرى : مسالك الابصار جـ١ ص ٣٥٩ ؛ عبد الجليل حسن : المدارس في بيت المقدس جـ١ ص ٢٥١ .

(٢) ديوان الامجد : مقدمة المحقق ص ٢٦ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ ؛ الكتبي : فوات الوفيات جـ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٨ .

كما رافقه مهذب الدين ابو اسعد النحوى الضرير وكان عالما بالعربية وله فيها مؤلفات مشهورة.(١)

كما قرب الامجد اليه كبار الاطباء ،بل واسند منصب الوزارة الى الطبيب المشهور مهذب الدين بن ابي سعيد بن خلف السامرى ،وولىّ منصب الوزارة بعده الى امين الدولة ابي الحسن بن غزال بن ابي سعيد وكان عالما بالطب ايضا (٢) . وكل ذلك يشير بوضوح الى اهتمام الامجد بالعلماء وتقديره لهم وتفضيلهم بالمناصب حتى على المحترفين في ميدان السياسة والادارة.

اما الناصر داود بن المعظم عيسى فقد كان من الطبيعي ان يتأثر بحكم نشأته بوالده المعظم العالم القدير ،فنشأ في حياة والده ملازما للاشتغال بالعلوم في شتى فروعها " ومشاركا في كثير منها وحصل منها طرفا جيدا " وسمع بالشام والعراق على ايدى كبار العلماء وحصل على الاجازة العلمية من بعضهم (٣) . وقد حرص على اجتذاب كبار علماء عصره اذ يذكر ابن واصل أنه ارسل في سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م رسالة الى والده بحماه يستدعيه الى الكرك ،فسافر ابن واصل مع والده ووصلا الى الكرك في اوائل سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م فاحسن الناصر داود اليهما " وشاهدنا ملكا ذا فضل باهر وعلم زاخر"(٤) .

---

(١) ابن واصل ،مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٩١- ٢٩٣.

(٢) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٧٢١- ٧٢٣ ؛ ديوان الملك الامجد ص ٢٩- ٣٠.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ١٢٧ ؛وانظر ايضا ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص ٢٧٥.

(٤) ابن واصل :مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٣٠.

واستدعى الناصر علماء آخرين ليعيشوا في كنفه ومنهم شمس الدين الخسرو شاهي وغيره لأنه "احب ان يكون عنده جماعة من أهل العلم يستأنس بهم"(١).

ولقد كان تقديره للعلماء عظيما حتى انه كان يتردد الى شمس الدين الخسرو شاهي ليقرأ عليه عيون الحكمة للشيخ ابن سينا ، وكان اذا وصل الى قرب منزل الشيخ الخسرو شاهي يأمر اتباعه ومماليكه بالوقوف مكانهم ثم يترجل بنفسه حاملا كتابه تحت ابطه ويتقدم الى باب الشيخ ويدخل عليه ويسأل عما خطر له ثم يعود ادراجه " ولم يمكن الشيخ من القيام له "(٢).

وكان الناصر داود شغوفا بالمناقشات العلمية و عقد المناظرات مثل ذلك المجلس الذى عقده بالكرك سنة ٦٢٩ هـ/ ١٢٣٢م عندما وفد عليه عمه السلطان الكامل ودارت المناقشات وانضم علماء الناصر داود الى الكامل لانهم شافعية مثله وبقي الناصر بمفرده وتصدى لهم جميعا خلال النقاش لأنه ينتمي الى المذهب الحنفي الذى كان عليه والده(٣).

ويعتبر الناصر داود شاعرا مشهورا ، وقد وضعه ابن واصل في المرتبة الثانية بعد الملك الأمجد ،في ترتيبه لشعراء بني ايوب(٤).

---

(١) المصدر السابق جـ ٥ ص ٤٠.

(٢) ابن العبرى :تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٤.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٠٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٤.

(٤) ابن واصل : المصدر نفسه جـ٤ ص ٢٨٥- ٢٨٦.

وما ورد من نماذج لشعره يدل على انه كان شاعرا متمكنـا ويتميز شعره بجزالة اللفظ وجمال المعنى وقوة السبك وجمال الصورة(١)

ولن يتعرض البحث لدور جميع ملوك بني ايوب الذين حكموا بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ،ويُكْتفى بما ورد من امثلة على دورهم في ازدهار الحياة العلمية . غيرانه جدير بالذكر هنا دور بعض العلماء الافاضل الذين خدموا الدولة الايوبية في بلاد الشام وتقلدوا مناصب هامة وكان لهم دور بارز لا يمحى في تطور الحياة العلمية وازدهارها .

واشهر هؤلاء العلماء واعمقهم اثرا في الحياة العلمية ،القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشهير بابن شداد ،وكان قد تلقى علومه الاولى في مسقط رأسه الموصل ، فحفظ القرآن الكريم ، و تلقى علوم الحديث والتفسير والقراءات والادب على ايدى كبار شيوخهـا ، ثم رحل في سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧١ م الى بغداد مركز الحضارة الاسلامية في ذلك الحين ،وتعين معيدا بالمدرسة النظامية لمدة اربع سنوات ثم عاد الى بلاده ،واصبح مدرسا بالمدرسة التي انشأها القاضي كمال الدين ابو الفضل محمد بن عبدالله الشهرزورى ولازم الاشتغال معه والانتفاع بعلمه مع غيره من العلماء(٢) .

---

(١) انظر نماذج من شعره في ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٠٢- ١٠٦ ، ٣١٨ - ٣٢١ ، ٣٥٥ - ٣٥٧ ، ٣٦٤ - ٣٦٨ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ١٤٨- ١٧١ ؛ وانظر مايلي ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٧ ص ٨٤ - ٨٧ ؛ السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ٣٦٠ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية مقدمة المحقق ص ٣ ، بروكلمان : تاريخ الادب العربي جـ٦ ص ١١-١٢ .

وفي سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٨م حج ابن شداد ،وفي طريق عودته قرر زيارة بيت المقدس ، وحين سمع صلاح الدين بقدومه طلب مقابلته وأكرم وفادته وسمع منه الحديث وطلب منه البقاء معه واسند اليه قضاء عسكره وقضاء بيت المقدس . وظل ملازما لصلاح الدين حتى وفاة الاخير سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م (١) .

وقد صنف ابن شداد العديد من المؤلفات القيمة وهي (دلائل الحكام عند التباس الاحكام) ويتعلق بالاقضية في مجلدين (٢) . و (دروس في الحديث) ، القاها بالقاهرة عندما قدم اليها مبعوثا سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م (٣) و (الموجز الباهر في الفقه) (٤) . وله كتاب (العصا) وهي قصة موسى عليه السلام مع فرعون (٥) .

----

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٧ ص ٨٧-٨٨؛ السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ٣٦٠ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية : مقدمة المحقق ص ٣ -٤ .

(٢) ابن خلكان : المصدر نفسه جـ٧ ص ٩٩ ؛ السبكي : المصدر نفسه جـ٨ ص ٣٦١ ؛ وهو مخطوط بدار الكتب المصرية (الفهرس القديم لدار الكتب جـ٣ ص٢٩٧ - ٢٩٨) ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية : مقدمة المحقق ص ٨ .

(٣) وهو مخطوط بالمكتبة البودليانية في اكسفورد ١/ ١١٧ ؛ بروكلمان : تاريخ الادب العربي جـ٦ ص ١٣ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية : مقدمة المحقق ص ٨ .

(٤) ابن خلكان : المصدر السابق جـ٧ ص ١٠٠ ولم يذكره بروكلمان ولا محقق النوادر السلطانية .

(٥) مخطوط بمكتبة باتنه ٢/ ٥١٦ : ٢٧٧٢ ، بروكلمان جـ ٦ ص ١٤ .

و (فضائل الجهاد) وألفه خصيصا لصلاح الدين [١] . و(دلائل الاحكام) وافرده للاحاديث النبوية المستنبط منها الاحكام [٢] . و (اسماء الرجال الذين في المهذب للشيرازى) [٣] واخيرا (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وهو المعروف بسيرة صلاح الدين [٤] .

غير أن دور بهاء الدين ابن شداد في ازدهار الحياة العلمية ظهر بعد موت صلاح الدين فاعتمد عليه الافضل واحترمه غاية الاحترام " وكان يشاوره في جليل الأمور ودقيقها " وقد ادرك الظاهر صاحب حلب اهمية القاضي بهاء الدين فقرر اجتذابه اليه وارسل الى اخيه الافضل يطلب منه أن "يتحفه بالقاضي بهاء الدين ليكون عنده ويتيمن برأيه ، فاجابه الملك الافضل الى ذلك وسيّره اليه " [٥] .

---

(١) مخطوط بمكتبة كوبرلى بتركيا برقم ٧٦٤ بروكلمان ، تاريخ الادب العربي جـ٦ ص ١٤ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية مقدمة المحقق ص ٩ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٧ ص ٩٩-١٠٠ = وتوجد نسخة منه بالمكتبة الاهلية في باريس برقم ٧٣٦ ؛ بروكلمان المرجع السابق جـ٦ ص ١٣ ؛ابن شداد : النوادر السلطانية : مقدمة المحقق ص ٨ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية : مقدمة المحقق ص ٩ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٧ ص ١٠٠ وقد حققه جمال الدين الشيال وطبع بالقاهرة سنة ١٩٦٤م .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٨ ؛ وانظر ايضا : تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٨٧ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٧ ص ٩١ .

ولما وصل ابن شداد الى حلب سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م فوض اليه الظاهر قضاء مملكته وجعله اقرب الناس اليه واقطعه الاقطاعات الوافرة ،وصار له مكانة عظيمة " لم يصل اليها احد من المعممين "(١) . وظل على تلك المكانة الرفيعة بعد موت الظاهر سنة ٦١٣هـ/١٢١٧م واصبح المرجع لاهل حلب في الرأى والمشورة " ولم يكن لاحد معه في الدولة كلام"(٢) كما يقول ابن خلكان .

ولم يجعل القاضي بهاء الدين بن شداد تلك المكانة التي بلغها تذهب هدرا بل استثمرهالصالح الحياة العلمية ،وصب جهوده على جَعْل حلب مركزا من مراكز الحياة الفكرية ،وكانت حلب حين وصوله اليها " قليلة المدارس فاعتنى ... بترتيب امورها وجمع الفقهاء بها وعمرت في ايامه المدارس الكثيرة "(٣) .

وكان الظاهر قد قرر لابن شداد إقطاعا جيدا يدر عليه اكثر من مئة الف درهم في السنة ،فاجتمعت لديه ثروة كبيرة وانفقها على بناء مدرسته التي خصصها لتدريس المذهب الشافعي بالقرب من باب العراق - احد ابواب حلب - وهي المعروفة بالصاحبية ،وبنى الى جانبها مدرسة اخرى لتدريس الحديث ،وأوقف على المدرستين اوقافا جليلة لضمان استمرارهما في اداء دورهما العلمي بعد وفاته (٤) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٧ ص ٩١ .

(٣) المصدر نفسه جـ٧ ص ٨٩ .

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٨٧- ٢٨٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٨٩-٩١ ؛ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، جـ١ ص ١٠٢ ؛ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٧ ص ٨٩-٩٠ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية : مقدمة المحقق ص ٤ .

وبعد اكتمال بناء المدرستين وقيام ابن شداد بنفسه بالتدريس فيهما اضحت حلب قبلةً لطلبة العلم ، ومقصداً للعلماء من مختلف انحاء العالم الاسلامي ،ويقرر هذه الحقيقة المؤرخ ابن خلكان الذي كان واحدا ممن سافروا الى حلب خصيصا للاستماع الى ابن شداد والتتلمذ على يديه فيقول : " ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد ، وحصل بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع بها "(١) ويقول عن وصوله إلى حلب في موضع آخر : " ولما وصلت الى حلب لأجل الاشتغال بالعلم الشريف وكان دخولي اليها يوم الثلاثاء مستهل ذى القعدة سنة ست وعشرين وستمائة وهي اذذاك أم البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين "(٢) . كما يذكر ابن واصل انه سافر الى حلب سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م يقصد الاستفادة من ابن شداد ،فانتظم في مدرسته اكثر من سنة للتزود بعلمه والاشتغال على يديه .(٣)

وظل ابن شداد طوال حياته "محسناً إلى كل من يرد الى حلب من الفقهاء واهل العلم "(٤) . ولم تقتصر جهوده على الاحسان الى طلاب العلم ورعايتهم فحسب ،بل عمل جاهدا على رفع مكانتهم لدى سلطان حلب واعيان دولته بحيث صار " للفقهاء حرمة تامة ورعاية كبيرة وخصوصا جماعة مدرسته ، فانهم كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على سماطه "(٥) . وزادت

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٩ ص ٩٠ .

(٢) المصدر نفسه جـ٧ ص ٤٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٩ .

(٤) المصدر نفسه جـ٥ ص ٩١ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٧ ص ٩١ .

افضاله على طلبة العلم وأسى موئلا لطلبة العلم الذين كانوا يأتون اليه من البلاد " لثلاث اجتمعت فيه ، العلم ، وا لمال ، والجاه ، وهو لا يبخل بشيء منها "(١) .

وهكذا ازدهرت الحياة العلمية في حلب زمن القاضي بهاء الدين ابن شداد واصبحت تنافس اشهر مراكز الحضارة الاسلامية كبغداد والقاهرة حتى وفد اليها العلماء من سائر الاقطار .

اما وزير حلب القاضي الاكرم جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الواحد القفطي ، فقد تولى وزارة حلب زمن الملك العزيز ابن الظاهر منذ سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٨م وظل يلي منصب الوزارة حتى عزله سنة ٦٢٨هـ(٢) / ١٢٣١م غير ان العزيز ما لبث ان عاد واسند اليه منصب الوزارة مرة اخرى سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م وظل القفطي في منصبه حتى وفاته سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م(٣) .

وقد ولد علي بن يوسف القفطي بمدينة قفط احدى مدن صعيد مصر سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م وتلقى علومه العربية والاسلامية على اختلاف فروعها بالقاهرة على ايدى كبار العلماء ،ثم أتم دراسته في مدينة بيت المقدس(٤) .

---

(١) السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ٣٦١- ٣٦٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣١٢ ؛الادفوى : الطالع السعيد ص ٤٣٧ ؛الزركلي : الاعلام جـ٥ ص ٣٣ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ٥ ص ١١٥ ؛ احمد بدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٧٣- ٢٧٤ .

(٤) الادفوى : الطالع السعيد ص ٤٣٦- ٤٣٧ ؛ احمد بدوى : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٧٤ .

ولقد أقبل علي بن يوسف على طلب العلم في نشاط جم وشغف منقطع النظير ، فلم يتزوج او يُكَوّن اسرة ،وصرف حياته كلها على اقتناء الكتب ودراستها و مطالعتها ،وجمع من الكتب النفيسة ما لا يوصف ،حتى طبقت شهرته الافاق ،وقُصِدَ بالكتب من كل حدب وصوب ،وكان لا يحب من الدنيا سواها (١) . وشهد له معاصره ياقوت الحموى بالتفوق في جمعها واقتنائها رغم اشتغال ياقوت نفسه بالتجارة فيها حتى قال عنه : " لم ارَ مع اشتغالي على الكتب و بيعي لها وتجارتي فيها اشد اهتماما منه بها ولا اكثر حرصا منه على اقتنائها ،وحصل له منها ما لم يحصل لأحد " (٢) . وقدّر ابن شاكر قيمة كتبه بخمسين الف دينار ،وأورد حادثة تبرهن على عشقه للكتب و تقديره للعلم ، فذكر انه حصل على نسخة جميلة من كتاب الأنساب للسمعاني بخط المؤلف نفسه ،ولكن كان ينقصها مجلد واحد من أصل خمسة ،وظل الوزير علي بن يوسف يبحث عن المجلد الناقص ويطلبه من مظانه فلم يتمكن من الحصول عليه ، وذات مرة كان أحد اصدقائه في السوق ، فوجد اوراقا من المجلد المفقود لدى بعض صُناع القلانس فاحضرها الى الوزير علي بن يوسف ، فاستدعى الاخير صانع القلانس وسأله عن مصدر الاوراق فاخبره انه اشتراه في جملة ورق وعمله قواليب للقلانس فحزن الوزير القفطي حزنا شديدا " حتى انه بقي اياما لا يركب إلى القلعة

---

(١) ابن شاكر: عيون التواريخ جـ١٥ لوحة ١٤ ؛ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ١٥ ص ١٨٧-١٨٨ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص ٢٣٦.

(٢) ياقوت : معجم الادباء جـ ١٥ ص ١٨٨ .

وقطع جلوسه ،وأحضر من ندب على الكتاب كما يُندب الميت المفقود ... وحضر عنده الاعيان يسلونه كما يُسلى من فقد له عزيز".(١)

ولم تذهب جهود الوزير القفطي في سبيل جمع الكتب ودراستها هدرا فقد اصبح عالما موسوعيا لا يُشق له غبار في شتى فروع العلوم كالنحو ، واللغة والأدب ، والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والرياضة والفلك والهندسة ،والتاريخ ،والجرح والتعديل وجميع فنون العلم على الاطلاق.(٢)

ولقد أسهم الوزير علي بن يوسف القفطي في ازدهار الحياة العلمية في بلاد الشام اذ صنف الكثير من الكتب التي تدل على طول باعه وسعة ثقافته ،ومؤلفاته هي : كتاب (الضاد والظاء) وهو ما اشتبه في اللفظ واختلف في الخط . وكتاب (الدر الثمين في اخبار المتيمين) ، وكتاب (من ألوت الأيام اليه فرفعته ثم التوت عليه فوضعته) ، وكتاب (اخبار المصنفين وما صنفوه) ،وكتاب (اخبار النحويين) ،وكتاب (تاريخ مصر) ، منذ اقدم العصور حتى زمن صلاح الدين في ستة مجلدات ،وكتاب (تاريخ المغرب ومن تولاها من بني تومرت) ،وكتاب (تاريخ اليمن منذ اختطت الى الان) ،وكتاب (المجلى في استيعاب وجوه كلا) ،وكتاب (الاصلاح لما وقع من الخلل في كتاب الصحاح للجوهرى) ،وكتاب (الكلام على الموطأ) وكتاب (الكلام على الصحيح للبخارى) ، وكتاب (تاريخ محمود بن

----

(١) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ جـ١٥ لوحة ١٤-١٥ .

(٢) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ١٥ ص١١٩ ؛ ابن العماد ؛ شذرات الذهب جـ٥ ص٢٣٦ .

ابن سبكتكين وبنيه الى حين انفصال الأمر عنهم) ،وكتاب (اخبار السلجوقية) ،وكتاب (الرد على النصارى وذكر مجامعهم) ،وكتاب (مشيخة زيد بن الحسن الكندى) ، وكتاب (نهزة الخاطر و نزهة الناظر في احسن ما نقل من على ظهور الكتب) ،وكتاب (اخبار العلما باخبار الحكما) ،وكتاب (المحمدون من الشعراء) ،وكتاب (اشعار اليزيديين) ،وكتاب (تاريخ بني بويه) ، وكتاب (الايناس في اخبار آل مرداس)(١) .

ومما يؤسف له ان معظم مؤلفات وزير حلب علي بن يوسف القفطي مفقودة(٢) . والمعروف انه اوصى بمكتبته بعد موته سنة ٦٤٦هـ/ للناصر يوسف صاحب حلب(٣) ،ويبدو ان تلك المكتبة القيمة بقيت

---

(١) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ جـ١٥ لوحة ١٥ ؛ ياقوت : معجم الادباء جـ١٥ ص ١٨٦- ١٨٧ ؛ الادفوى : الطالع السعيد ص٤٣٧ ؛احمد بدوى : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص٢٧٤ - ٢٧٥ ؛ محمد كرد علي : خطط الشام جـ٤ ص٣٨ .

(٢) لم يبق من كتبه سوى ثلاثة هي : كتاب (اخبار العلما باخبار الحكما) ويحتوى على اربع عشرة واربعمائة ترجمة للاطباء والحكماء من اقدم العصور الى ايام المؤلف ،وهو على جانب كبير من الاهمية لأنه معين لا ينضب من المعلومات الخاصة بمعارف العرب عن مؤلفات الاغريق ،ويدلنا الكتاب على اثار قيمة من كتب الاغريق المفقودة ،وهو مطبوع في ليبزج ١٩٠٣م اما الكتاب الثاني فهو (انباه الرواة على انباء النحاة) ٤أجزاء حققها محمد ابو الفضل ابراهيم وطبع في القاهرة ١٩٥٠، ١٩٥٢، ١٩٥٥، ١٩٧٣م والكتاب الثالث هو (المحمدون من الشعراء) تحقيق حسن معمرى ومراجعة حمد الجاسر وهو من منشورات دار اليمامة بالرياض ، انظر احمد بدوى: الحياة العقلية ص٢٧٥ ، بروكلمان : تاريخ الادب العربي جـ٦ ص ٤٥ وحاشية رقم ١-٢ .

(٣) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ جـ١٥ لوحة ١٤ .

بقلعة حلب ،ومن المرجح انها دُمِّرت اثناء اجتياح المغول لحلب سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م إذ ان الفترة بين وفاة الوزير القفطي سنة ٦٤٦هـ وسقـــوط حلب بيد المغول لم تكن تكفي ليتناقل العلماء كتبه وينسخونهــا وبالتالي تتوزع على بقية بلدان العالم الاسلامي مما يكفل لها البقـــاء ولا سيما وان بلاد الشام شهدت فترة حرجة عشية الغزو المغولي .

ومن الملاحظ على اسماء الكتب التي صنفها القفطي ،انه كتب في التاريخ اكثر من نصف موءلفاته وبخاصة كتابه في تاريخ مصر الـــذى كان في ستة مجلدات ولا شك ان ضياع تلك الموءلفات التاريخية القيمـة أفقدنا ذخيرة ضخمة ومعلومات لا تقدر بثمن سيما وان مكتبته لـــم يكن لها نظير ، وربما لو قُدر لموءلفاته التاريخية البقاء لوضعتـــه في الدرجة الاولى بين الموءرخين العرب المسلمين امثال ابن الأثيـــر ، وابن خلدون ، والمقريزى وغيرهم .

ولقد شهد له ياقوت الحموى ـ وهو الجغرافي والأديب والموءرخ الضليع ـ بالتفوق فقال عنه : " وكنت ألازم منزله ويحضر أهل الفضـل وارباب العلم فما رأيت احدا فاتحه في فن من فنون العلم ... الا قـام به احسن قيام وانتظم في وسط عقدهم أحسن انتظام "(١) ، مع ملاحظـة ان هذه الشهادة قيلت في ابن القفطي قبل وفاته باكثر من عشرين سنة اذ أن ياقوت توفي سنة ٦٢٦ هـ بينما توفي ابن القفطي سنة ٦٤٦ هـ ولا شك ان ابن القفطي حقق خلال تلك الحقبة التي لم يدركها ياقوت الكثير من المنجزات العلمية .

وهكذا اصبح مجلس ابن القفطي قبلة للأدباء ومنتدى للعلماء ومن الطبيعي أن يُسهم ذلك في ازدهار وتطور الحياة العلمية في بـلاد الشام قبيل الغزو المغولي .

----

(١) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ١٥ ص١٧٩ .

اهم المدارس في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي :

كان المسجد كما هو معروف المدرسة الاولى للمسلمين ، اما انشاء المدارس المتخصصة في بلاد الشام فلم تبدأ الا في اواخر القرن الخامس الهجري ، وعندما جاء نور الدين زنكي (٥٤١ - ٥٦٩ هـ/ ١١٤٨ - ١١٧٣ م) توسع في انشاء المدارس ،وسار على نهجه بعد ذلك صلاح الدين وتوسع الحكام والامراء ورجال الدولة الأيوبية في انشاء المدارس في بلاد الشام[(١)] .

والحق انه لا يمكن في هذا المجال استعراض جميع المدارس التي شهدتها بلاد الشام خلال الحقبة موضع الدراسة ويُكتَفَى بذكر أهمها كدليل على تطور وازدهار الحركة العلمية . غير انه جدير بالذكر هنا ان عدد مدارس حلب التي شرحها المؤرخ المعاصر عزالدين ابن شداد بلغ عددها ٤٦ مدرسة[(٢)] ، وبلغ عدد مدارس عاصمة بلاد الشام دمشق ٩٢ مدرسة[(٣)] ، بينما بلغت المدارس خلال الفترة نفسها في مدينة بيت المقدس زهاء ١٢ مدرسة[(٤)] ،ناهيك عن المدارس الاخرى في بقية مدن الشام الهامة مثل حماه و حمص والخليل وغيرها .ومن اهم المدارس في بلاد الشام :

---

(١) انظر محمد كرد علي : خطط الشام ج٦ ص ٦٨-٧٠ .

(٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج١ ص ٩٦-١٢١ .

(٣) المصدر نفسه ج٢ قسم مدينة دمشق ص ٢٠٠-٢٦٦ .

(٤) مجير الدين العليمي : الانس الجليل ج٢ ص ٣٣-٤٧ ؛ عبد الجليل حسن : المدارس في بيت المقدس في العصرين الايوبي والمملوكي ج١ ص ١٨١- ٣٩٩ .

المدرسة العادلية بدمشق :

تعتبر من اكبر المدارس الشافعية بدمشق وتقع داخل المدينة الى الشمال الغربي من الجامع الأموى . وقد بدأ بناءها نور الدين محمود سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م ولكنه توفي بعد ان وضع محرابها فقط ولم تتم ، وظلت على حالها الى زمن السلطان العادل ، فشرع في إكمال بنائها وتوفي ايضا قبل اتمامه فتولى ابنه المعظم بناءها سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م وجعله متميزا لا نظير له في بناء المدارس ، وأوقف عليها الاوقاف ودفن والده فيها ونسبها اليه واصبحت مدرسة عظيمة .(١)

وافتتح المعظم عيسى المدرسة رسميا سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م والقى قاضي القضاة بالشام جمال الدين يونس بن بدران المصرى اول درس بها ، وحضر اعيان الشيوخ والقضاة والفقهاء ، كما حضر الملك المعظم بنفسه ، ودارت المناقشات حول الدرس مع العلماء بايوان المدرسة ، وقد رُتِّبَتْ الجلسة في انتظام مهيب ، فجلس المعظم وعن يمينه شيخ الحنفية جمال الدين الحصيرى ، ويليه شيخ الشافعية فخر الدين بن عساكر ، ثم القاضي محي الدين بن الشيرازى ، ثم القاضي محي الدين بن الزكى ، وجلس عن يسار المعظم مدرس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين المصرى

---

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ ص ٢٤٠ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٣٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٦٨ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٣٥٩ - ٣٦١ .

والى جانبه العالم والفيلسوف الكبير سيف الدين الآمدى ،ثم القاضي شمس الدين بن سني الدولة ،ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر ،ودارت حلقة صغيرة والناس وراءها متصلون ملء الديوان ،وقد اجتمع في تلك الحلقة الافتتاحية كبار الفقهاء واعيان المدرسين مثل تقي الدين بن الصلاح وغيره (١) .

والحق ان هذا الافتتاح المهيب يشير الى العناية الفائقة والاهتمام الكبير الذى حظيت به المدرسة العادلية وما كان للعلم من تقدير في هذا العصر والحرص الشديد على نشره بين عامة الشعب .

وقد ذكر ابو شامة - الذى كان طالبا بالمدرسة - أن اول مدرسيها الفقيه جمال الدين بن بدران المصرى كان يدرس بها الفقه ،ولكنه قبل بدء درس الفقه كان يمهد له ببعض الايات من القرآن الكريم ويقوم بتفسيرها ومناقشتها مع طلبته وظل يسير على ذلك المنوال حتى فرغ بتلك الطريقة من تفسير القرآن بكامله سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م وهي السنة التي توفي فيها (٢) . وتولى التدريس بعده في العادلية كبار العلماء والفقهاء ،وظلت هذه المدرسة قائمة طوال العصرين الأيوبي والمملوكي (٣) .

----

(١) ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٣٢-١٣٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج٣ ص ٩٧-٩٨ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

(٢) ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٤٨ .

(٣) انظر اسماء العلماء الذين تعاقبوا على التدريس في المدرسة العادلية في ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج٢ ص ٢٤٠ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٣٦٣ .

ويبدو أنه الحقت بالمدرسة مكتبة ضخمة كما أن بعض الفقهاء أوقفوا كتبهم على طلبة العلم (١) . ومما يدل على قيمة المكتبة التي الحقت بها ان أبا شامة صنف بها كتابه تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين ،وكذلك ابن خلكان صنف بها كتابه المشهور ،وفيات الأعيان (٢) . كما ان النعيمي بعد ذلك الف كتابه (الدارس في تاريخ المدارس بها) اذ يقول : " وفيها قدر الله سبحانه وتعالى جمع هذا الكتاب " (٣) . وكل ذلك يدل على أن مكتبة المدرسة العادلية كانت تضم بين جنباتها مجموعة ضخمة من الكتب في شتى فروع المعرفة بحيث اصبحت تكفي كمراجع لتأليف الموسوعات الكبيرة الانفة الذكر .

وقد أورد ابو شامة - وهو احد مدرسي العادلية - اشارة طريفة لها مغزى كبير فقال في حوادث سنة ٦٥٥ هـ : " توفي الأمير بدر الدين ابن الحسن المعزى الميروقي ،وكانت له بنت عندنا بالمدرسة العادلية" (٤) . وهذه الاشارة تدل دلالة واضحة على ان التعليم في بلاد الشام لم يكن قاصرا على البنين بل كان يشمل البنات ايضا .

وقد سميت العادلية بالكبيرة تمييزا لها عن المدرسة العادلية الصغيرة والتي انشأتها زهرة خاتون ابنة السلطان العادل سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م (٥) . وتقع العادلية الصغرى داخل باب الفرج - احد ابواب

---

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٣٦١-٣٦٢ .
(٢) احمد بدوى : الحياة العقلية ص ٦٥ .
(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٣٦٢ .
(٤) ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٩٥ .
(٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ ص ٢٤٣ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٣٦٨ .

دمشق - شرقي باب القلعة ،وقد أوقفت زهرة خاتون عددا من القرى الزراعية وأحد الحمامات الكبيرة التابعة لها للصرف على المدرسة ، وقررت لها مدرسا ومعيدا واماما ومؤذنا وبوابا وخادما وقيما وعشرين فقيها ،و ينفق على الجميع من الاوقاف المذكورة ،وقد تولى التدريس في هذه المدرسة عدد من العلماء (١) .

المدرسة الشامية البرانية :

وقد أنشأتها ست الشام بنت ايوب اخت صلاح الدين (٢)

---

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٣٦٨ .

(٢) يصف المؤرخون ست الشام بنت أيوب بانها كانت فاضلة عاقلة كثيرة البر والصلات والاحسان والصدقات ، وكان يُعمل في دارها كل سنة من المأكولات والاشربة والعقاقير بالوف الدنانير، وتفرقها على الناس والمحتاجين . وكان بابها ملجأ للقاصدين ومفزعا للمكروبين ،وقد اسست مدرستين ،وكانت الاخرى داخل دمشق وتسمى احيانا الحسامية نسبة لابنها حسام الدين لاجين ،وقد توفيت ست الشام بدمشق سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م انظر سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٠٦-٦٠٧ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص١١٩ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٨٤-٨٥ ؛ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٢٠٤ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٢٧٨ .

"وهي من اكبر المدارس واعظمها واكثرها فقها، وأكثرها اوقافا" كما يقول ابن شداد (١) . وقد تولى التدريس بها جماعة من القضاة والعلماء وظلت قائمة حتى عصر المماليك (٢) .

المدرسة الدخوارية :

وهي من المدارس الهامة في دمشق لأنها اختصت بتدريس الطب . وقد انشأها الطبيب المشهور مهذب الدين عبد الرحيم بن حامد الملقب بالدخوار ، ونسبت اليه ،وكان أوحد زمانه في مجال الطب ،والمدرسة هي أصلا داره فتبرع بها سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م وجعلها خاصة بدراسة الطب وأوقف عليها عددا من الضياع واماكن اخرى تدر دخلا وفيرا للصرف منه على الأطباء والطلبة وكل المشتغلين بدراسة الطب ،ويبدو انها كانت اشبه بكلية للطب ،وقد درّس بها مهذب الدين نفسه وفي سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٢٩م حضر اليها الطبيب سعد الدين ابراهيم ابن الحكيم موفق الدين بن عبد العزيز وبعض كبار القضاة والعلماء والفقهاء للاستماع الى شرح الطبيب شرف الدين الرحبي الذى شرع يدرس بها ، واستمر على ذلك عدة سنين ،وتولى التدريس بها بعده عدد من الاطباء المشهورين ، وظلت تقوم بدورها في تدريس الطب زمنا طويلا (٣) .

---

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ ص ٢٤٩ ،وانظر ايضا ؛ النعيمي ،الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٢٧٧ .

(٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ٢ ص ٢٤٩-٢٥٠ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٢٧٧- ٢٧٨ .

(٣) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٧٣٣ - ٧٣٤ ؛انظر أيضا ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ ص ٢٦٥ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ٢ ص ١٢٧ .

واشتهرت حلب ايضا بكثرة مدارسها و نبوغ العلماء الذين علوا بالتدريس فيها ومن المدارس المشهورة التي انشئت خلال هذه الفترة على سبيل المثال :(١)

المدرسة الظاهرية :

وقد أنشأها الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب وانتهت عمارتها في عهده سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م وفوض نظارة المدرسة وادارتها الى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد واشرك معه في امر المدرسة شرف الدين ابا طالب ابن العجمي ،وشرط أن يكون مشاركاً للقاضي بهاء الدين بن شداد طوال حياته ، على ان يتولاها بعد موته ثم لعقبه من بعده . وأول من افتتح التدريس بها ضياء الدين ابو المعالي محمد بن الحسن بن أسعد ابن عبد الرحمن العجمي ، وعمل الظاهر دعوة عظيمة لفقهاء واعيان حلب وحضر بنفسه اول درس بها ،وظلت المدرسة الظاهرية في رعاية العلماء من اسرة بني العجمي حتى سقوط حلب بيد المغول سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م.(٢)

---

(١) تجدر الاشارة هنا الى ان أشهر مدارس حلب واكثرها اوقافا وعلماء هي تلك التي أنشئت زمن نور الدين زنكي مثل المدرسة النوريه ، والمدرسة الحلاويه ،وما يهم هنا سوى الاشارة الى اهم المدارس التي أنشئت في حلب قبيل الغزو المغولي ، وعن النوريه والحلاوية وغيرها انظر ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ ص ٩٦-١٠٤ ، ١١٠-١١٣.

(٢) سبط ابن العجمي : كنوز الذهب في تاريخ حلب لوحة ١٠٥ ؛ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ ص ١٠٧-١٠٨.

المدرسة الشرفية :

انشأها الشيخ شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن بن عبد الرحيم، المعروف بابن العجمي، وانفق على بنائها وتجهيزها اكثر من اربعمائة الف درهم، وأوقف عليها اوقافا جليلة، ودرس فيها ابنه محي الدين محمد، واشتغل معه عشرة معيدون " لم يكن في عصرهم في سائر البلاد مثلهم " على حد قول ابن شداد. وظل محي الدين يدرس بها حتى قتل بايدى المغول حينما اجتاحوا حلب سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.(١)

المدرسة الفردوس :

أنشأتها الصاحبة ضيفة خاتون ابنة الملك العادل، وزوجة الملك الظاهر، والحقت بها رباطا، وجعلت فيها مجموعة من الفقهاء والطلبة وأوقفت عليها اوقافا كثيرة شملت قرية قرب حلب تسمى كفر زنيبا وطاحونتها وغير ذلك وتعتبر هذه المدرسة من اكبر مدارس حلب من حيث البناء، حتى أن اعمدتها من الرخام الأصفر "ومحرابها من اعاجيب الدنيا يرى الناظر اليه وجهه فيه من صفاء معدنه " وقد تعاقب التدريس عليها جماعة من العلماء والفقهاء.(٢)

المدرسة الأتابكية :

انشأ الاتابك شهاب الدين طغريل بحلب مدرستين عرفتا باسم الاتابكية، وانتهت عمارة الاولى سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، وأول من

---

(١) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، جـ١ ص ١٠٦.

(٢) سبط ابن العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب، مخطوط، لوحة ١٠٨.

درس بها الشيخ جمال الدين بن خليفة بن سليمان القرشي ،الحوراني الاصل ، وظل يلي منصبه بها حتى توفي سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤١م وكان فقيها عالما ،ووليها بعده مجد الدين عبد الرحمن بن كمال الدين ابن العديم فخرج حين اجتاح المغول حلب الذين احرقوها ضمن ما دمروه من مراكز الحضارة الاسلامية (١) .

اما المدرسة الاتابكية الثانية فقد اسسها ايضا الاتابك طغريل واكتمل بناؤها سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣ م ،وأول من درس بها صفي الدين بن عمر الحموى ثم خلفه نظام الدين محمد بن محمد بن عثمان البلخي الاصل البغدادى المولد والمنشأ ،وظل يدرس بها حتى توفي سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م ، وخلفه ابنه تقي الدين احمد الذى قتل بايدى المغول ،ومن الطريف ان هذه المدرسة نجت من التدمير زمن المغول وظلت تقوم بدورها طوال عصر المماليك (٢) .

و في ضوء ذلك التشجيع العلمي العظيم من قبل ملوك الشام ورجال الدولة ،وقيام مئات المدارس في جميع بلاد الشام ،من الطبيعي أن تزدهر الحياة الفكرية وتتطور تطورا كبيرا في شتى ميادين العلم والمعرفة وسوف نعرض لأهم ميادين العلوم التي ازدهرت خلال هذا العصر وتطورت من خلال التأريخ لأهم العلماء الذين اسهموا بقسط وافر في ميادين الفكر ،والذين اضحت مؤلفاتهم مراجع هامة للعلماء من بعدهم ومعينا لا ينضب للدارسين ،وكان ظهورهم و بروزهم واشتغالهم

---

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جا ص ١١٤ .

(٢) ابن شداد : المصدر نفسه جا ص ١٢١ ؛النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جا ص ١٢٩ .

بالتدريس والتصنيف مظهرا من مظاهر ازدهار الحركة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي .

أولا : علوم الشريعة :

وهي العلوم التي انصبت على دراسة الشريعة الاسلامية وعلومها مثل التفسير والحديث والفقه والاصول والقراءات ونحو ذلك والتي ازدهرت في بلاد الشام خلال هذه الحقبة ،وقد ظهر الكثير من العلماء الفقهاء والمحدثين والمفسرين والأصوليين مما يشير الى مدى الازدهار الذى اصابته العلوم الشرعية خلال هذه الفترة . غير انه جدير بالملاحظة هنا الى ان الحضارة الاسلامية تميزت في ناحيتها الفكرية بالشمول ،اذ غالبا ما اشتهر العلماء بالعلم الموسوعي الواسع -كما سنرى - بمعنى أن يكون الفرد منهم عالما متضلعا في كل علوم الشريعة اضافة الى علوم العربية والتاريخ واحيانا بالطب والعلوم الأخرى وسوف نقوم بتقسيمهم تبعا للفرع الذى اشتهروا فيه اكثر والذى اسهموا فيه بنصيب اوفر وكان لهم فيه اكثر المؤلفات . ومن اشهر العلماء الذين برزوا في ميدان العلوم الشرعية :

ابن قدامة :

هو ابو محمد عبدالله بن احمد بن محمد بن قدامة المقدسي الملقب بموفق الدين ولد بجماعيل (١) سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م في اسرة

----

(١) جماعيل : قرية على جبل نابلس من ارض فلسطين ظهر فيها عدد من العلماء الأجلاء ،مثل الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي وابن قدامة وغيرهما ، انظر ياقوت : معجم البلدان مادة جماعيل .

عرفت بالتقوى والصلاح ، وقدِمَ الى دمشق مع اسرته سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م وشرع في الاقبال على طلب العلم فحفظ القرآن وسمع الحديث وارتحل مرتين الى العراق مع ابن عمه الحافظ عبد الغني بن عبدالواحد وذلك سنتي ٥٦١ هـ و ٥٦٧هـ/ ١١٦٦م و ١١٧٢م ودرس الفقه ببغداد على مذهب الامام احمد بن حنبل على ايدى كبار العلماء والفقهاء كما رحل الى مكة للغرض نفسه سنة ٥٧٣ هـ/١١٧٨م وبرع في الحديث والتفسير والأصول والقراءات وسائر علوم الشريعة.(١)

"وأصبح إماما من أئمة المسلمين وعلما من اعلام الدين في العلم والعمل".(٢) وتعمق ابن قدامة في علوم الفقه والأصول حتى بلغ درجة الاجتهاد ، وهي مكانة صعبة المنال لم يبلغها احد في زمنه.(٣)

وحين استقر بدمشق توفر على الاشتغال بالفقه وتدريسه ، وحدث بشيء من مسموعاته ، وعلى الرغم من كونه حنبليا فانه لم يكن يعرف التعصب المذهبي بدليل تدريسه بعض مؤلفات الشافعي ، إذ يذكر ابو شامة انه دَرَسَ على يديه مسند الامام الشافعي.(٤)

وتولى ابن قدامة إمامة الحنابلة بجامع دمشق "وبرع وأفتى وناظر وتبحر في فنون كثيرة".(٥) ولم تشهد بلاد الشام إماما في منزلته منذ زمن الامام الأوزاعي . وشهد له معاصروه من العلماء

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٢٧-٦٢٨ ؛ابوشامة: ذيل الروضتين ص١٣٩-١٤١ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص٩٩-١٠٠ ؛الكتبي : فوات الوفيات جـ٢ ص١٥٨-١٥٩ ؛ ابن العماد : شذرات الذهبي جـ٥ ص ٨٨ .

(٢) ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٣٩ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص ٨٨ .

(٤) ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٣٩- ١٤٠ .

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٠٠ .

بالتفوق في شتى مجالات العلوم التي اشتغل بها فقد كان " اماما في القرآن ، اماما في التفسير ،اماما في علم الحديث ومشكلاته ،اماما في الفقه بل أوحد زمانه فيه ،اماما في علم الخلاف ،أوحد زمانه في الفرائض اماما في اصول الفقه ،اماما في النحو ،اماما في الحساب ، اماما في النجوم السيارة والمنازل "(١) .

ولم تقتصر جهود ابن قدامة على التدريس والفتيا بل امتدت الى التأليف فصنف كتبا في الفقه وأصوله ،و علوم الحديث ،ولقد كان لتلك الكتب ابعد الأثر في الحياة العلمية في عصره و في الفكر الاسلامي بعده . ومن مؤلفاته في الفقه (المغني) شرح به مختصر الخرقي ووضعه في عشرة مجلدات ،وصرف فيه جهدا مضنيا حتى اكمله (٢) . وكتاب الكافي في اربع مجلدات ، وكتاب العمدة في مجلد صغير ، وألف كتابا في مناسك الحج واخر في ذم الوسواس ،وصنف كتاب (المقنع) الذى شرحه ابن أخيه عبد الرحمن بن محمد ، و من مؤلفاته في اصول الفقه (روضة الناظر) وفي اصول الدين كتاب (الاعتقاد) وكتاب (البرهان في مسألة القرآن) ،وكتاب (القدر) و فضائل الصحابة وكتاب (ذم التأويل) كما ألف في التأريخ معجما لشيوخه ،وآخر اسمه (التبيين في نسب القرشيين) وكتابا سماه (الاستبصار في نسب الأنصار) وألف في اللغة (قنعة الأريب في الغريب)

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب جه ص ٨٩-٩٠ .

(٢) وهو مطبوع عدة طبعات ،واخر طبعاته عن دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م .

وغير ذلك من الرسائل والفتاوى وفي شتى فروع العلوم الشرعية واللغوية (١).

وكان ابن قدامة - مع تبحره في العلوم وحيازته قصب السبق على اقرانه وخصوصا في مذهب احمد بن حنبل - ورعا زاهدا تقيا لينا متواضعا فيه حلم وتؤده . قصر اوقاته للعلم والعمل ، وحين كان يناظر خصومه يسوق الحجج المفحمة والبراهين الساطعة على ارائه ولا يتحرج ولا ينزعج من هجوم خصومه عليه (٢).

ولقد أطنب المؤرخون - ولا سيما المعاصرون - في وصف زهده وتقواه وتعبده وشهدوا له بالكرامات الدالة على ايمانه وصلاحه ، وظل يقوم بدوره في نشر علوم الشريعة ومحاربة البدعة حتى توفي بدمشق في رمضان ٦٢٠ هـ/ اكتوبر ١٢٢٣م (٣).

فخر الدين بن عساكر :

هو شيخ الشافعية ببلاد الشام ، واسمه عبدالرحمن بن محمد ابن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين الدمشقي المعروف بابن عساكر ولا يوجد في اجداده من اسمه عساكر ويبدو انه أتى عن طريق احدى امهاتهم (٤).

----

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٢٧-٦٢٨ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان مادة جماعيل ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٠٠ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص ٩٠-٩١ ؛ احمد بدوى : الحياة العقلية ص ١٧٦-١٧٧.

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص ٨٨ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٢٧-٦٢٩ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٤٠-١٤١ .

(٤) ابو شامة : المصدر نفسه ص ١٣٦.

وينتمي فخر الدين الى اسرة عريقة تعتبر من اشهر الأسر التي تميزت بالعلم والفضل زمن الحروب الصليبية واسهمت بقسط وافر في ازدهار العلوم الشرعية خلال قرنين من الزمان ، فقد اشتهر منهم قبل فخر الدين هذا عماه هبة الله ،وابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله صاحب الموسوعة الضخمة في علوم الحديث والرواية والتاريخ والمعروفة باسم (تاريخ مدينة دمشق)ومن الذين اشتهروا من هذه الأسرة ايضا عم فخر الدين الحافظ ابو محمد بن ابي القاسم وابنه العماد ، اضافة الى شقيق فخر الدين تاج الامناء احمد وغيرهم من العلماء الافاضل .(١)

ولقد كان من الطبيعي أن يتأثر فخر الدين بن عساكر بحكم نشأته في بيت اشتهر بالعلم والفضل ،فاقبل منذ صغره على تلقي العلم على ايدى كبار علماء اسرته واشتغل بالفقه الشافعي على شيخه قطب الدين مسعود النيسابورى حتى برع في ذلك وانفرد بعلم الفتوى على مذهب الشافعي ،وصارت الفتاوى ترسل اليه من سائر الاقطار(٢) .

واشتغل فخر الدين بالتدريس مكان استاذه وحميه قطب الدين النيسابورى بالمدرسة الجاروخية(٣) بدمشق ، ثم تولى التدريس بالمدرسة

----

(١) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٣٦ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٣٠ - ٦٣١ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ١٠٠-١٠٦ .

(٢) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٣٦ .

(٣) اسس المدرسة الجاروخية الأمير سيف الدين جاروخ التركماني أحد قادة الدولة الايوبية داخل مدينة دمشق قرب باب الفراديس وتولى التدريس بها عدد من العلماء ومن ضمنهم فخر الدين بن عساكر ، وظلت هذه المدرسة قائمة طوال العصرين الايوبي والمملوكي . انظر ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ ص ٢٢٩-٢٣٠ ؛النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٢٢٥ .

الناصرية بالقدس التي أنشأها صلاح الدين الايوبي ،وقد جمع فخر الدين بين الوظيفتين فكان يقيم بدمشق اشهرا وبالقدس أشهرا للتدريس للطلبة بالمدرستين (١) . ويبدو أنه كان ينيب نائبا عنه حينما يغيب عن احدى المدرستين ،ثم اسند اليه السلطان العادل التدريس بالمدرسة التقوية (٢) ،حيث اجتمع بها حشد من الفقهاء والعلماء للاستماع اليه حتى صارت تلك المدرسة تسمى نظامية الشام تشبيها لها بالمدرسة النظامية المشهورة في بغداد (٣) . كما درّس فخر الدين ابن عساكر ببعض المدارس الاخرى بدمشق (٤) .

وقد انتفع به كثير من طلبة العلم واعتكفوا بمجلسه لينهلوا من علمه الواسع وقد اشتهر بالتواضع والتقوى ،كما كان يقوم بعد عصر كل يوم بقراءة الحديث على مستمعيه بدار الحديث النورية حتى أن اباشامة ذكر انه سمع على يديه معظم كتاب دلائل النبوة (٥) .

وقد عرض عليه السلطان العادل منصب القضاء فرفض خوفا وورعا ،واخفق العادل في اجباره على قبول منصب القضاء رغم ضغطه الشديد عليه (٦) .

----

(١) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٣٧ ؛السبكي : طبقات الشافعية جـ ٨ ص ١٧٩ ؛ العليمي : الانس الجليل جـ٢ ص ١٠٣ .

(٢) المدرسة التقوية نسبة الى واقفها الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ملك حماه . انظر ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ ص ٢٣٥ .

(٣) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٣٧ .

(٤) السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ١٧٩ .

(٥) ابو شامة : المصدر السابق ص ١٣٧ .

(٦) المصدر نفسه ص ١٣٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٠١ ؛ السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ١٧٨ .

ولفخر الدين بن عساكر مصنفات في الفقه و الحديث وغيرهما من علوم الشريعة ،غير ان المؤرخين لم يذكروا لنا اسماء تلك المؤلفات المفقودة . وقد تفقه على يديه كثير من العلماء ياتي على رأسهم تلميذه الفذ عز الدين بن عبد السلام . وظل فخر الدين بن عساكر يمارس دوره العلمي في نشاط جم حتى وفاته سنة ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣م.(١)

الناصح بن الحنبلي :

وهو ابو المفرج عبد الرحمن بن نجم الدين بن عبد الوهاب ابن الشيخ ابي الفرج السعدى العبادى الشيرازى الاصل الدمشقي المولد والمنشأ الفقيه الحنبلي ولد بدمشق سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م وفيها تلقى علومه الأولى على أيدى كبار العلماء ثم رحل في طلب العلم الى بغداد واصبهان والموصل وغيرها من مراكز الفكر الاسلامي ، وبعد ان اصبح عالما متمكنا رحل الى كثير من البلاد ونصح ووعظ بها واصبح له حرمة ومكانة عند الملوك ،وحضر فتح بيت المقدس مع السلطان صلاح الدين ثم استقر أخيرا بدمشق.(٢)

وفي دمشق اشتغل الناصح بالتدريس في عدد من مدارسها كما أنشأت له الصاحبة ربيعة خاتون بنت ايوب مدرسة بجبل الصالحية بدمشق عرفت باسم الصاحبية وعهدت اليه بالتدريس بها سنة

----

(١) المنذري : التكملة لوفيات النقلة جـ٣ ص ٤٢٩ ؛ السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ١٧٧ ؛الذهبي : العبر جـ٥ ص ٨٠-٨١ ؛ الكتبي : فوات الوفيات جـ٢ ص ٢٨٩-٢٩٠ ؛ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٥٦ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص ٩٣ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٠٠ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص ١٦٤- ١٦٥.

٦٢٨هـ/ ١٢٣١م وحضرت بنفسها من وراء الستر للاستماع الى أول درس القاه بها [(١)].

وقد انتهت إلى الناصح رئاسة المذهب الحنبلي في بلاد الشام حتى انه حين استقر به المقام بدمشق استقبله ابن قدامة وقال له : " سررت بقدومك مخافة أن اموت وانت غائب فيقع وهن في المذهب وخلف بين اصحابنا " [(٢)].

وقد برز الناصح الحنبلي في علوم الحديث والفقه الحنبلي ،وله عدة مؤلفات منها كتاب (اسباب الحديث) في عدة مجلدات ، وكتاب (الاستشهاد بمن لقيت من صالحي العباد في البلاد) وكتاب (الانجاد في الجهاد) وكتاب (تاريخ الوعاظ) وكتاب (المقامة الدمشقية) وكتاب (الاجماع والنص) ،و (المروق في التفسير) وكتاب (الحدائق في الوعظ والجدل) ، و (شرح أسماء الله تعالى) ، و (مختارات من المسند والبخارى ومسلم والاقيسة والخطب) وغير ذلك من المؤلفات القيمة ،وظل يقوم بمهام الوعظ والتدريس بدمشق حتى توفي سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م [(٣)].

----

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ ص ٢٥٧ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ٢ ص ٧٩ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهرية ص ١٥٦ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص ١٦٥ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص ١٦٥ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٠٠ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص ١٦٦ .

تقي الدين بن الصلاح :

هو أبو بكر عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردى الشهرزورى الأصل ،الموصلى المنشأ الدمشقي الدار المعروف بابن الصلاح ، الفقيه الشافعي ومفتي بلاد الشام و محدثها ،كان أحد فضلاء عصره و علماء زمنه في التفسير والحديث والفقه واسماء الرجال وكل ما يتعلق بعلوم الحديث واللغة ،وكانت له مساهمات في علوم عديدة ،وفتاويه مشهورة صائبة (١).

تلقى ابن الصلاح علومه الاولى بالموصل على مشاهير العلماء ثم سافر الى خراسان في طلب العلم وجاء الى بلاد الشام ، وتولى التدريس بالمدرسة الناصرية بالقدس وأقام بها فترة من الزمن حتى شرع المعظم في هدم اسوار بيت المقدس سنة ٦١٦ هـ /١٢١٩م زمن الحملة الصليبية الخامسة ، فانتقل ابن الصلاح الى دمشق وتولى التدريس في عدد من مدارسها مثل المدرسة الرواحية التي انشأها الزكي ابو القاسم هبة الله بن عبد الواحد بن رواحة الحموى ، وحين بنى الاشرف بن العادل دار الحديث بدمشق فوض الى ابن الصلاح تدريس علوم الحديث بها ،وتولى التدريس ايضا في مدرسة ست الشام زمرد خاتون بنت ايوب داخل دمشق ،وظل يلي التدريس بهذه المدارس الثلاث

----

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ٢٤٣ ؛ السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ٣ ص ١٦٨ ؛ العليمي : الانس الجليل جـ٢ ص ١٠٤ .

طوال حياته[(١)].

وقد صنف تقي الدين بن الصلاح عددا من المؤلفات في علوم الحديث والفقه ، منها كتاب في علوم الحديث ،واخر في مناسك الحج وكتاب (مشكل الوسيط) في الفقه ،وكتاب في الفتاوى وهو كثير الفائدة وكتاب (ادب المفتي والمستفتي) ونكت على المهذب ،وكتاب فوائد الرحلة وهو أجزاء كثيرة مشتملة على فوائد غريبة من انواع العلوم نقلها في رحلته الى خراسان وكتاب (طبقات الفقهاء الشافعية) وله مصنفات اخرى على بعض المسائل ، وظل يمارس دوره في التدريس والتأليف حتى توفي بدمشق سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م[(٢)].

عز الدين بن عبد السلام :

هو ابو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن ابي القاسم ابن حسن بن محمد بن مهذب السلمي الدمشقي ،شيخ الاسلام والمسلمين وأحد الأئمة البارزين الملقب بسلطان العلماء ،كان امام عصره بلا نزاع،

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص٧٥٧-٧٥٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ٢٤٣-٢٤٤ ؛ العليمي : الانس الجليل جـ٢ ص ١٠٤ ؛ السبكي : طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٣٢٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٨ ؛ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ٢٥٦ ؛ الذهبي : العبر جـ٥ ص ١٧٧-١٧٨ ؛ ابن قنفذ : الوفيات ص ٣١٦ وحاشية رقم (١) ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ٢ ص ٢٠-٢١ ؛ عبد الجليل حسن : المدارس في بيت المقدس جـ١ ص ٢١٠

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ٢٤٤ ؛ العليمي : الانس الجليل جـ٢ ص ١٠٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٨ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٢٠-٢١.

ولم يكن يخشى في الله لومة لائم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون خوف أو وجل من سلطان او غيره له شجاعة في الحق فريدة.(١)

ولد العز بدمشق سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م وفيها تلقى علومه على ايدى كبار العلماء فدرس الفقه على يد فخر الدين بن عساكر شيخ الشافعية ببلاد الشام في زمنه ،وعلى يد القاضي جمال الدين بن الحرستاني ،وقرأ الاصول على سيف الدين الامدى وغيره ، ودرس الحديث على كبار علماء آل عساكر ،ودرس جميع علوم الشريعة والعربية على كبار شيوخها في بلاد الشام ، وفاق اقرانه ،وبرز في التفسير والحديث والفقه ، وبلغ مرتبة الاجتهاد ،وانتهت اليه رئاسة مذهب الشافعي ، وقصده الطلبة من جميع الاقطار للتفقه على يديه ،وتخرج عليه عدد كبير من العلماء مثل شيخ الاسلام ابن دقيق العيد ، وهو الذى لقبه بسلطان العلماء ،والامام علاء الدين ابو الحسن الباجي ، والحافظ ابو محمد الدمياطي والعلامة ابو محمد هبة الله القفطي وغيرهم.(٢)

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جه ص ٣٠٢ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ج٨ص ٢٠٩ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور ج١ ص ٢٧٣ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب جه ص ٣٠١- ٣٠٢.

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج٨ ص ٢٠٩-٢١٠ ؛ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٣٥ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب جه ص ٣٠١ - ٣٠٢ = وللمزيد عن تاريخ العز ابن عبد السلام ودوره في محاربة البدع والوقوف ضد تجاوزات واخطاء الحكام وجهاد الصليبيين والمغول . انظر السبكي : المصدر نفسه ج٨ ص ٢٠٩- ٢٥٥ فهي من اطول التراجم التي وردت للعز في المصادر.

تولى عز الدين بن عبد السلام الخطابة والامامة بالجامع الأموى بدمشق (١) ،غير انه لم يلبث أن اصطدم بملكها اسماعيل الذى تنازل للصليبيين عن بعض بلاد المسلمين سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م فرفض العز الدعاء له في الخطبة ،وندد بتصرفه واكثر من التشنيع عليه فعزله عن الامامة والخطابة ، وظل العز ثابتا على موقفه ثم غادر بلاد الشام الى مصر (٢) ، حيث استقبله الصالح ايوب بحفاوة بالغة وعينه خطيبا لجامع عمرو بن العاص واسند اليه منصب القضاء بمصر ثم تولى تدريس المدرسة الصالحية بالقاهرة ، وقضى بقية حياته بمصر محاربا للبدع ،ولعب دورا حاسما في رفع الروح المعنوية لدى المسلمين زمن الحملة الصليبية السابعة ، و حث المماليك على الخروج الى بلاد الشام لصد المغول ، وقد كان لتوجيهاته وفتاويه في الجهاد أبعد الأثر في انتصار المسلمين في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م (٣) .

ولعز الدين بن عبد السلام موءلفات قيمة مشهورة في التفسير والفقه والحديث والأصول اهمها (القواعد الكبرى) وكتاب (مجاز القرآن) "وهذان الكتابان شاهدان بامامته وعظيم منزلته في علوم الشريعة" على حد قول السبكي (٤) . وقد اختصر القواعد الكبرى في

----

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٣٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٠٢-٣٠٣ ؛ السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ٢١٠ وانظر ما سبق الفصل الثالث ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٣) السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ٢١٠-٢١٢ ، ٢١٥-٢١٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٤) السبكي : المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٤٧ .

قواعد صغرى ، والمجاز في آخر ،وله كتاب (شجرة المعارف) وكتاب (الدلائل المتعلقة بالملائكة والنبيين عليهم السلام والخلق اجمعين) وله في التفسير كتاب مختصر ،وكتاب (الغاية في اختصار النهاية) و (مختصر صحيح مسلم) و (الامام في أدلة الاحكام) ، و (بيان احوال الناس يوم القيامة) و (بداية السول في تفضيل الرسول) وله أيضا كتاب (الفرق بين الايمان والاسلام) و (فوائد البلوى والمحن) وله كتابان آخرن في الفتاوى وغير ذلك من الكتب[(١)].

وتوفي عز الدين بن عبد السلام بعد عشرين عاما اقامها في مصر يحيط به الاكبار والاجلال وذلك سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وشهد السلطان الظاهر بيبرس جنازته وحضر الصلاة عليه ودفنه ، كما شيعه كبار رجال الدولة وعساكرها وطبقات الشعب[(٢)].

ثانيا : علوم العربية : النحو واللغة والشعر والأدب :

النحو واللغة :

من الحقائق الثابتة المعروفة ارتباط ازدهار علوم الشريعة بعلوم النحو واللغة ، ذلك أن معرفة النحو واللغة لا غنى عنها لفهم معاني ومقاصد القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة . ولذلك لا نجد خلال العصور الاسلامية عالما بالشريعة الا ويكون في الوقت نفسه متضلعا في النحو وعلوم العربية .

---

(١) السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص٢٤٧ - ٢٤٨ ؛ احمد بدوى : الحياة العقلية ص١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص٣٠٢ ؛احمد بدوى : الحياة العقلية ص١٦٤ .

وفي خلال الحقبة موضع الدراسة ازدهرت علوم العربية ولا سيما النحو واللغة وظهر الكثير من العلماء ،وسوف نعرض لأهمهم واشهرهم للدلالة على مدى الازدهار الذى شهدته علوم اللغة في هذا العصر .

الكندى[1] : تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندى . ولد سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م وكان من أشهر علماء عصره وأوثقهم رواية ودراية . متضلعا في علوم العربية وآدابها ، وقد عاش عمرا مديدا صرفه في طلب العلم والافادة منه ،وتلقى علوم العربية على ايدى كبار العلماء ،ودرس عليهم امهات الكتب في علم النحو واللغة كما سمع الاحاديث من كبار المحدثين ،وسكن دمشق واقام بها ، وازدحم عليه شيوخ العلم وطلبته من ابناء الملوك وغيرهم ،واضحى امام العربية في بلاد الشام ،ونبغ في النحو والعروض والادب والشعر وله خبرة فائقة بالنقد والتحقيق ،وليس أدل على مكانته من العدد الكبير والمكانة المرموقة التي بلغها تلاميذه الذين تلقوا العلم على يديه مثل ابي الحسن السخاوى والبوني وابن معطي ،والملك المعظم صاحب دمشق وغيرهم.[2]

---

(١) عاش الكندى اكثر حياته قبيل الحقبة موضع الدراسة ،ونشير اليه هنا بسبب الاثر الذى تركه في علوم العربية ببلاد الشام.

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٧٥ ؛ ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ١١ ص ١٧١ - ١٧٥ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٩٥ ؛ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٢ ص ٣٣٩- ٣٤٠ ؛ القفطي : انباه الرواة على انباه النحاة جـ٢ ص ١٠-١١ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٧١-٧٢ ؛ السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة جـ١ ص ٥٧٠ - ٥٧٣ .

كما أن الوزير علي بن يوسف القفطي افرد أحد كتبه للحديث عن الكندى وسماه (مشيخة زيد بن الحسن الكندى) ولكنه مفقود مع الأسف .(١)

وقد اشتغل الكندى بالتدريس اكثر من اشتغاله بتأليف الكتب ولذلك تخرج على يديه -كما مرآنفا - كبار علماء العربية ،ومؤلفاته لا تتناسب مع ما حازه من شهرة وبُعْدِ صيت ،فله حواشي على شرح الواو لديوان المتنبي ،وله تعليقات على خطب ابن نباته المصرى ،وكتاب آخر سماه (نتف اللحية من ابن دحية) رد فيه على ابن دحية الكلبي الذى الف كتابا سماه (الصارم الهندى في الرد على الكندى) بعد ان انتقده الكندى في مجلس وزير السلطان العادل ابن شكر .(٢)

وتوفي الكندى بدمشق سنة ٦١٣هـ/١٢١٦ بعد ان ساهم في ازدهار العربية وعلومها .(٣)

ابن الحاجب : هو ابو عمرو عثمان بن عمر بن ابي بكر ، كان والده جنديا حاجبا للأمير عز الدين موسك الصلاحي ،أحد قادة صلاح الدين ، ولذلك عرف باسم ابن الحاجب ،وهو كردى الأصل عربي المولد والمنشأ والثقافة ،ولد باسنا من صعيد مصر سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م واخذه والده معه الى القاهرة ، فدرس القراءات على الغزنوى

----

(١) انظر ما سبق ص ٤٥٤ .

(٢) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ١١ ص ١٧٥ ؛ احمد بدوى : الحياةالعقلية ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٧٧ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٩٨ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٧١ - ٧٢ ؛ السيوطي : بغية الوعاة جـ١ ص ٥٧٣ .

والشاطبي ،وسمع الحديث من البوصيرى ،وتفقه على مذهب الامام مالك على ايدى كبار الفقهاء مثل ابي منصور الابيارى وابن البناء وغيرهما ، ثم سافر واستقر بدمشق سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م ولازم القاسم بن عساكر مشتغلا على يديه ،وقد تميز ابن الحاجب بالذكاء الخارق والفهم العميق ،فاتقن علوم العربية غاية الاتقان (١) . وقد وصفه ابو شامة بانه : "كان ركنا من اركان الدين في العلم والعمل بارعا في العلوم الاصولية وتحقيق علم العربية ،متقنا لمذهب مالك بن انس رحمه الله ، وكان من أذكى الأمة قريحة ، وكان ثقة حجة متواضعا عفيفا ، كثير الحياء منصفا محبا للعلم وأهله ناشرا له ،محتملا للاذى صبورا على البلوى" (٢).

اشتغل ابن الحاجب خلال اقامته بدمشق بالتدريس فاتخذ من زاوية المالكية بالجامع الأموى حلقة للتدريس "وأكب الخلق على الاشتغال عليه والتزم لهم الدروس وتبحر في الفنون وكان الأغلب عليه علم العربية" (٣).

ولابن الحاجب مؤلفات قيمة في علوم العربية والفقه واصوله وعلم العروض ،ففي علم النحو الف الكافية للناصر داود صاحب الكرك ، وهي عبارة عن ارجوزة قام بشرحها ،كما شرح المفصل في النحو

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ٢٤٨- ٢٤٩ ، الأدفوى : الطالع السعيد ص ٣٥٢- ٣٥٣ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٧٨ ؛ السيوطي : بغية الوعاة جـ٢ ص١٣٤ ؛ابن فرحون : الديباج المذهب جـ٢ ص ٨٦ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ٢ ص ٣-٤ ؛ طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة جـ١ ص١١٧-١١٨ .

(٢) ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٨٢ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص٢٤٩ .

للزمخشرى ،وصنف في الصرف الشافية وقد اعتنى العلماء بالشافية والكافية وشرحوهما [١] . وله كتاب الامالي في النحو ايضا وغير ذلك من المؤلفات في علوم العربية وآدابها ،وبصفة عامة تميزت مؤلفاته في النحو بسلامة التحقيق وجودة الآراء "ومصنفاته في غاية الحسن وقد خالف النحاة في مواضع وأورد عليهم اشكالات والزامات مفحمة يعسر الجواب عنها" [٢] وصنف في العروض (المقصد الجليل في علم الخليل) وهو عبارة عن ارجوزة في العروض ، غير أن مؤلفاته لم تكن كبيرة الحجم حيث ركز على تحرير اللفظ والدقة في التحقيق [٣] .

وفي مجال الفقه المالكي الذى كان يتولى زعامته في بلاد الشام ألف العديد من الكتب وعلى رأسها كتاب (الجامع بين الامهات) وقد حاز هذا الكتاب على شهرة عريضة حتى ان الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد وهو أحد أئمة الشافعية اشاد بهذا الكتاب واطنب في مدحه [٤] .
وفي اصول الفقه اختصر كتاب الاحكام للامدى وانتشرت كتبه في سائر البلاد ولا سيما بلاد العجم ،وظل الطلبة بعده يتدارسون كتبه ويفيدون منها [٥] .

---

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٥٤ ؛السيوطي : بغية الوعاة جـ٢ ص ١٣٥ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون جـ٢ ص ١٣٧٠ ؛ طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة جـ١ ص ١٤٧-١٤٨ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب جـ٢ ص ٨٨ ؛ احمد بدوى : الحياة العقلية ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(٢) السيوطي : بغية الوعاة جـ٢ ص ١٣٥ .

(٣) احمد بدوى : الحياة العقلية ص ٢٠٨ .

(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب جـ٢ ص ٨٧-٨٨ .

(٥) ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٧٨ .

واشتهر ابن الحاجب بالحزم والقوة في الحق، فساند زعيم الشافعية بدمشق عزالدين بن عبد السلام في موقفه من الصالح اسماعيل الذى فرط في بعض بلدان المسلمين في بلاد الشام لحساب الصليبيين، مما اغضب اسماعيل على ابن الحاجب وابن عبد السلام ،فغادرا بلاد الشام الى مصر سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م واشتغل ابن الحاجب بالتدريس في القاهرة ثم غادرها الى الاسكندرية وتوفي بها سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م بعد ان اسهم بقسط وافر في تطور علوم العربية بمصر والشام.(١)

<u>علم الدين السخاوى</u> : هو ابو الحسن على بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصرى السخاوى ولد سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م ودرس في بداية حياته الفقه على مذهب مالك ثم انتقل إلى مذهب الشافعي.(٢) وشرع في دراسة علوم العربية فاخذ عن الشيخ ابي محمد القاسم الشاطبي علم القراءات والنحو واللغة وعلى ابي الجود غياث بن فارس بن مكي المقرئ وسمع بالاسكندرية من السلفي وابن عوف ،وبمصر من البوصيرى وابن ياسين(٣)، واشتغل في مصر معلما لابناء الامير عماد الدين بن موسك احد قادة الدولة الايوبية وانتقل معه الى دمشق وفيها لازم الكندى وقرأ عليه علوم العربية والأدب.(٤)

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٠٢-٣٠٣ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٧٦ ؛السيوطي : بغية الوعاة جـ٢ ص ١٣٥ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ٢٥٠ ؛ احمد بدوى : الحياة العقلية ص ٢٠٦- ٢٠٧ .

(٢) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ١٥ ص ٦٥ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ٣٤٠ ؛القفطي : انباه الرواة على انباه النحاة جـ٢ ص ٣١١ .

(٤) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ١٥ ص ٦٦ .

وبعد وفاة الكندى صار علم الدين السخاوى " فقيها يفتي الناس واماما في النحو والقراءات والتفسير ، قصده الخلق من البلاد لأخذ القراءات عنه "(١) . واتخذ حلقة بجامع دمشق للتدريس وأقبلت عليه اعداد غفيرة من طلبة العلم ليأخذوا عليه القراءات وعلوم العربية (٢) .

وله مصنفات منها ، التفسير حتى سورة الكهف في اربع مجلدات وشرح الشاطبية في مجلدين ، وشرح المفصل للزمخشرى في اربع مجلدات وله كتاب اسمه سفر السعادة وسفير الافادة ،وله في القراءات كتاب ، جمال القراء وتاج الاقراء ،وغير ذلك من المؤلفات المفيدة (٣) .

وظل علم الدين السخاوى مواظبا على وظيفته وعنايته بطلبته حتى توفي بدمشق سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م. وقد وصفه تلميذه أبو شامة بقوله " وختم بموته موت مشايخ الشام يومئذ وفقد الناس علما كبيرا ،ومنه استفدت علوما جمة كالقراءات والتفسير وعلوم فنون العربية "(٤) .

----

(١) السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ٢٩٧ .

(٢) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ١٥ ص ٦٦ ؛ ابن خلكان وفيات الاعيان جـ٣ ص ٣٤٠ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ٥ ص ٢٢٢ .

(٣) ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ١٥ ص ٦٦ ؛ ابن خلكان المصدر السابق جـ٥ ص ٣٤٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٧٠ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ٢٥٦- ٢٥٧ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ٥ ص ٢٢٢ .

(٤) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٧ .

الشعر والأدب :

رأينا كيف ازدهرت الحياة الفكرية في هذا العصر ومن الطبيعي أن يشمل ذلك الازدهار ميدان الشعر والادب ولا سيما وأن معظم حكام بني ايوب في هذا العصر كانوا ادباء وشعراء . قرضوا الشعر ، ولبعضهم دواوين مثل الملك الامجد ملك بعلبك صاحب الديوان الكبير الذى يضعه بين فحول الشعراء في عصر الحروب الصليبية (١) .

وقد غزر الشعر وكثر قائلوه وتركت حوادث العصر والظروف التي سادته بصماتها على الشعراء فلم يتركوا غرضا من اغراض الشعر الا وأسهموا فيه بنصيب ، فنجد في ذلك العصر شعر المدح والهجاء والفخر والغزل والرثاء وغيرها من اغراض الشعر ، وجدّ في هذا العصر اتجاه جديد في اغراض الشعر ، فتحدث الشعراء عن وصف المعارك مع الصليبيين ومدحوا الملوك والحكام الذين خاضوا تلك المعارك (٢) .

وسنرى فيما يلي بعض الأمثلة التي توضح ازدهار الشعر و مجالسه في هذا العصر كدليل على قوته وازدهاره

---

(١) انظر ما سبق ص ٤٤٣ .

(٢) تناول عدد من الباحثين الأدب في عصر الحروب الصليبية في دراسات شاملة ومفصلة ، ومنهم الدكتور عبداللطيف حمزة الذى ألف كتابا باسم أدب الحروب الصليبية وطبع بالقاهرة سنة ١٩٤٩م ، والدكتور احمد بدوى وله دراسة قيمة بعنوان الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، وطبع بالقاهرة (بدون تاريخ) وللدكتور ناظم رشيد بحث بعنوان الادب عند بني ايوب بمجلة المورد العراقية العدد الثالث ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ص ٣٥ - ٤٠

ففي سنة ٥٩٩هـ/ ١١٠٣ م على سبيل المثال انزل الملك المنصور صاحب حماة الهمزيمة بالصليبيين وأسر منهم جماعة من فرسانهم فبعث بهم الى حماة ودخلها مظفرا فمدحه بهاء الدين أسعد السنجاري بقصيدة يهنيه بهذا النصر و مما جاء فيها قوله [1] :

المجد يدرك بالعسالة الذبل والمشرفية لا بالوعد والأمل

ما لذة العيش الا صوت معمعة ينال فيها المنى بالبيض والأسل

وابرز الى الموت يوم الروع مدرعا قلبا اذا زالت الأفلاك لم يزل

ياأوحد العصر يا خير الملوك ومن فاق البرية من حاف و منتعل

جاهدت في الله طوعا والملوك غدوا

يستهترون بذات الحلى والحلل

يداك باطنها للجود مذ خلقت وظاهرها للثم والقبل

وانت شرفت ايوبا على شرف فيه وفقت كرام السادة الأول

أغمدت بيض المواضي في الرقاب و قد

حليت عاطلها ضربا من القلل

عاجلتهم بالمنايا والحتوف فلا تترك لهم اجلا يبقى الى أجل

و يتضح من هذه الأبيات مدى قوة الشعر في هذا العصر واحتفاظه بكثير من مظاهر البلاغة والجزالة التي عرف بها الشعر العربي ولا سيما زمن الشعراء الفحول امثال المتنبي والمعرى وابن ابي حصينة وابن حيوس وغيرهم.

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٤٤- ١٤٥.

وبعد أن حقق المسلمون النصر على الصليبيين سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١ م وفشلت الحملة الصليبية الخامسة فشلا ذريعا في تحقيق اهدافها . أقيم احتفال بهذه المناسبة وهنّأ الشعراء ابناء العادل الثلاثة الكامل محمدا والاشرف موسى والمعظم عيسى الذين كان لتعاونهم ووحدتهم ابعد الاثر في احراز النصر على الصليبيين ومما قاله ابن عنين مادحا المعظم :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا
اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا
من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رايا وعزما وهمة
ودينا وان كانوا قد اختلفوا لسنا (١)
تداعوا بانصار الصليب فأقبلت
جموع كأن الموج كان لهم سفنا
واطمعهم فينا غرور فأرقلوا
الينا سراعا بالجياد وارقلنا
فما برحت شمر الرماح تنوشهم
بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى
وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا
طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى

---

(١) يشير الشاعر هنا الى اختلاف الُسِنَةْ الصليبيين لكون الحملة مكونة من عناصر مختلفة من الهنغاريين والايطاليين والالمان والفرنسيين وغيرهم من العناصر الأوربية .

لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا فالقوا بايديهم الينا فأحسنا

وما برح الاحسان منا سجيـــة توارثها عن صيد آبائنا الأبنا

يسير بنا من آل أيوب ماجـــد ابى عزمه أن يستقر به مغنى

سرى نحو دمياط بكل سميـذع نجيب يرى ورد الوغى المورد الأهنا

وقد عرفت أسيافنا ورقابهـــم مواقعها فيها فان عادوا عدنا

منحناهم منا حياة جديـــدة فعاشوا باعناق مقلدة منـــا

ولو ملكوا لم يأتلوا في دمائنـــا ولوغا ولكننا ملكنا فأسجحنـــا (١)

كما ألقى ابن عنين قصيدة اخرى مدح بها الملك الأشرف موســـى

مطلعها :

جل العتاب الى الصدود توصـــلا ريم رمى فاصاب منى المقتلا (٢)

اما الشاعر بهاء الدين بن زهير بن محمد بن علي القوصي فقد مــــدح

السلطان الكامل بقصيدة قوية السبك جميلة المعاني مثل قوله فيها :

بك اهتز عطف الدين في حلل النصر وردت على اعقابها ملة الكفر

وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها لقد فرحت بغداد اكثر من مصر

ولو لم يقم في الله حق قيامــه لما سلمت دار السلام من الذعر

وأقسم لولا عزمة كامليـــــة لخافت رجال بالمقام وبالحجر (٣)

----

(١) ديوان ابن عنين ص ٣٠ - ٣١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص١٠٠-١٠١

(٢) ديوان ابن عنين ص ١١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٠١

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٠٢ .

وقد ابدع احد الشعراء في وصف نجدة الأخوين المعظم عيسى والأشرف موسى لاخيهما السلطان الكامل محمد في قوله من قصيدة :

أعاد عيسى إنَّ عيسى أتاكـــم ... وموسى جميعا ينصران محمدا (١)

ومما قالته جارية الاشرف موسى ست الفخر بنت التاجر تمدح سيدها قولها من قصيدة بديعة المعنى :

ولما طغى فرعون عكا وقومـــــه ... وجاء الى مصر ليفسد في الأرض

أتى نحوهم موسى وفي يده العصا ... فغرقهم في اليم بعضا على بعض (٢)

ويتضح من هذا المجلس الذى عقد مدى تشرب بني ايوب للثقافة العربية رغم اصولهم الكردية ،حتى ليخيل للقارئ انهم عرب يعيشـــون في القرون الاولى زمن ازدهار الشعر العربي ،حين كان ذلك الشعـــر يمثل سلاحا إعلاميا حاسما في ميدان المقارعة والحجة.

ولم يقل شعر الرثاء في هذا العصر في قوته وجزالته وبعد اثره في النفس عن بقية اغراض الشعر الاخرى ،ففي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م على سبيل المثال توفيت ملكة خاتون ابنة السلطان العادل وزوجة المنصور صاحب حماه ،فحزن عليها المنصور حزنا شديدا وجلس للعزاء بقلعة حماة ، وحضر العلماء والأدباء مجلس العزاء ومنهم المؤرخ ابن واصل وكـــان عمره حينئذ نحو اثنتى عشرة سنة ،حضر مع والده وبعد أن قرأ القراء

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ١٠٥ .

(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص ١٠٥ = والمقصود بفرعون عكا = ملك عكا حنا دى بريين قائد الحملة الصليبية الخامسة ،والمقصود بموسى الملك الاشرف موسى بن العادل ،وتشير الشاعرة الى غرق الصليبيين في مياه النيل حين فجر المسلمون السدود والقناطر فاجتاحت المياه المعسكر الصليبي .

بين يديه وتكلم الوعاظ ،جاء دور الشعر فانشدوا المراثي بعد أن اقترح عليهم المنصور أن ينظموا المراثي على وزن قصيدة ابي العلاء المعرى التي مطلعها :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعوانا على السهر

فعمل جماعة من الشعراء قصائد على هذا الوزن والروى ،وأجود قصيدة قيلت نظمها الشاعر حسام الدين خشترين بن تليل ،وهو أحد الجنود الاكراد ولكنه كان شاعرا مجيدا ،وقد ابدع في قصيدته التي القاها ووصف لبس الملك المنصور السواد ومما جاء في القصيدة قوله (١) :

لو كان من مات يفدى قبلها لفدى ام المظفر الاف من البشر

وراح من دونها للطعن أسد شرى على خيول لديها نزوة النمر

صيد اذا شهروا اسيافهم كتبوا بها حروفا على الهامات في سطر

وللملك المنصور قصائد رثاء رائعة قالها بعد موت زوجته تدل على أنه كان شاعرا مطبوعا قوى الاسلوب جزل الالفاظ صادق المشاعر ومما قاله في احدى تلك القصائد البديعة:

دموع كالغيوث الهاطلات لماض من كآباتي وآتي

على من في الضريح لها انيس صلاة واصلتها بالصلات

ايا من وجهها عندى عزيز ويامن موتها أوهى حياتي

سلام الله كل صباح يوم على تلك العظام الباليات

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٦٥-٦٨ ء وهي قصيدة جميلة اورد منها ابن واصل ثلاثين بيتا .

أساكنة اللحود عليك مني … دموع دونها ماء الفرات
وفقدك صير الأيام عندي … لبعدك كالليالي الحالكات
ولم أك للحداد أخا لباس … يعين على صروف النائبات
ولكني أذبت سواد عيني … فسال مع الدموع السائلات
وها انا منك في اصفاد حزن … لغير سماع نوح لا أواتي
وابكي كلما غنى حمام … واندب في العشية والغداة
وتبكي الصالحات عليك حزنا … بكاء الامهات على البنات (١)

وللمنصور صاحب حماة ديوان شعر ولكنه مفقود - مع الاسف - وقد اورد ابن واصل نماذج من شعره ، وتدل القصائد على انه كان شاعرا متمكنا ويتميز شعره بالعذوبة وجزالة الالفاظ وجمال الصورة (٢) .

ومما قاله في الغزل :

يا ظبية البان هل وصل يسر به … لينجلي بلذيذ الوصل أشجان
لا تبعثوا في نسيم الريح نشركم … فانني من نسيم الريح غيران
كيف السلو ولي قلب يخالفني … وفي الهوادج أقمار وغزلان (٣)

ومما قاله من قصيدة يفتخر بها هذه الأبيات :

الفخر بالفضل ليس الفخر بالنسب … والناس في ذاك من درومن خشب

----

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٦٨-٦٩ .
(٢) انظر تلك النماذج في ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٨- ٨٦ .
(٣) المصدر نفسه ج٤ ص ٨١ -٨٢ .

انا الذى لم ينل من ذا الورى أحـــد ... ما نلته قط من عجم ومن عـــرب

سموت فيهم باصل لا يقاومــــه ... أصل ومن بعده بالعلم والأدب

ايوب جدى حقيقا حين ينسبنـــي ... يا حسنها رتبة تعلو على الرتـــب

كم قد أبدت بسيفي كل مفتخـــر ... حامي الحقيقة يوم الجحفل اللجب

وكم تركت بني الافرنج في رعـــب ... فصرت أدعى لديهم جالب الرعب

وقد ازدهر الشعر والادب في بلاط المنصور ازدهارا كبيرا بسبب تشجيعه وحبه للشعر واغداقه الجوائز والاموال على الشعراء ،فقد ذكر ابن واصل ان الملك المنصور كان ("يحب العلماء والفضلاء وأهل الادب والشعـــر ويحب سماع المديح ويجيز عليه الجائزة الكثيرة ".(١)

وقد تسامى شعر الرثاء في هذا العصر بحيث نستطيع أن نقرر أنه يتساوى في قوته واثره مع غرر شعر الرثاء العربي على مر العصور ، ومما يبرهن على هذا القول تلك القصيدة الرائعة التي رثا بها الناصـر داود صاحب الكرك الخليفة العباسي المستنصر بالله حين بلغه نبـأ وفاته سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م ، وقد جاء فيها قوله :(٢)

أيا رنة الناعي عبثت بمسمعـــي ... فأججت نار الحزن مابين اضلعي

نعيت اليّ البأس والجود والحجى ... فأوقفت آمالي وأجريت ادمعـــي

رويدا فقد فاجأتني بفظيعــــة ... يضيق بها صدر الفضاء الموسع

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٧٧-٧٨.

(٢) القصيدة مكونة من ٤٥ بيتا وقد اوردها ابن واصل انظرجه ص ٣١٨-٣٢١.

أبا جعفر يا باني المجد بعدما تهدم ركن المجد من كل موضع
ويا كافل الاسلام في كل موطن وراعي رعاة الدين في كل مجمع
أحقا طوتك الحادثات كما طوت قرونا مضت من عهد كسرى و تبع
ولو كان خطب الموت يقبل فدية ويدفعه سعى الكمى المدرع
فديتك بالنفس النفيسة طائعا ودافعت بالجيش اللهام الممنع
لقد كنت لي حصنا حصينا من العدى اليه التفاتي في الخطوب ومفزعي
سابكيه ايام الحياة وان أمت بكته عظامي في قرارة مضجعي

وفي سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م انتزع الصالح ايوب من ابن عمه الناصر داود معظم بلدان مملكته وضايقه بالكرك حتى قل ما بيده من الاموال والذخائر ،وحين اشتدت الضائقة بالناصر داود جادت قريحته بعمل قصيدة رائقة السبك حسنة المعاني جزلة الالفاظ ، تعتبر من قلائد شعره ،وغرر الشعر العربي في عصره ، يعاتب فيها ابن عمه الصالح ايوب ويذكره ما له من اليد عنده وما اولاه من الجميل حين قام بخدمته والذب عنه ومواجهة اعدائه عندما قصدوه واهدروا دمه ، ثم اخراجه له من الكرك ومساعدته على امتلاك مصر ، وانه لم يحسن له الثواب على فعله هذا وقطع رحمه بمقاتلته ومما جاء في القصيدة قوله (١) :

قولوا لمن قاسمته ملك اليد ونهضت فيه نهضة المستاسد
يا قاطع الرحم التي صلتي بها كتبت على الفلك الاثير بمسجد

---

(١) القصيدة مكونة من ٤٩ بيتا ،انظرها في ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٦٥- ٣٦٨ .

والقصيدة بالفة الجمال تدل بما لا يدع مجالا للشك على ازدهار الشعر في هذا العصر ،وعلى ان بني ايوب اصبحوا عرب الثقافة واللغة والتفكير .

وقد برز في هذا العصر - بالاضافة الى ملوك بني ايوب - الكثير من الشعراء اشهرهم جميعا الشاعر :

شرف الدين بن عنين : هو أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن الحسين بن عنين الانصارى ،ولد بدمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م وفيها تلقى علومه على أيدي كبار علمائها ،حيث اقبل على علوم عصره في همة ونشاط فدرس التفسير والمنطق والحساب والهندسة واتقن علوم العربية وحفظ الكثير من اشعار العرب لدرجة انه حفظ كتاب الجمهرة لا بن دريد ، وكان خاتمة شعراء العربية الفحول ،وحين اصبح شاعرا كبيرا عمد الى انشاء قصيدة ناقدة مكونة من خمس مئة بيت سماها مقراض الاعراض هجا فيها صلاح الدين ورجال دولته وجمعا كبيرا من اعيان دمشق ، فنفاه صلاح الدين عن دمشق فطاف بالعراق والجزيرة وأذربيجان وخراسان والهند وبلاد ما وراء النهر ،ولم يطب له المقام بتلك البلاد ، فقدم الى اليمن ومدح ملكها طغتكين بن ايوب - اخو صلاح الدين - وأقام في كنفه مدة وبعد ان عفى عنه السلطان العادل سافر الى مصر ثم غادرها الى دمشق وظل بها حتى توفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م .(١)

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٥ ص ١٤-١٥ ؛ديوان ابن عنين : مقدمة المحقق ،ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٤١-٤٣ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٩٦-٦٩٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٣٨ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ص٢٤٠ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٩٣-٢٩٥ ؛ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص ١٤٠-١٤٢ ؛ احمد بدوى : الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٢٢ .

وقد هيأت الثقافة الواسعة التي حصلها ابن عنين اضافة الى ما لديه من استعداد فطري قوى لأن يصل الى درجة كبيرة من اتقان الشعر ،وقد تميز شعره بجودة الأسلوب وقوة التعبير وجزالة النص وسلامة الجمل في الغالبية العظمى من شعره ، ولا ينزل عن هذا المستوى الا قليلا في مواضع الهزل حين يروقه أن يستعمل اللحن او الالفاظ والتراكيب العامية التي تشيع بدمشق في عصره واجدا في ذلك وسيلة للتأثير حين يتهكم ويسخر حتى يسير شعره على الالسنة كي يبلغ ما يريد ممن يتهكم و يسخر (١) . ومما قاله يمدح السلطان العادل واولاده :

ملك اذا خفت حلوم ذوى النهى   في الروع زاد رزانة وتوقدا

وله البنون بكل ارض منهم   ملك يقود الى الأعادى عسكرا

ومما قاله يصف حنينه وغربته :

حنين الى الاوطان ليس يزول   وقلب عن الاشواق ليس يحول (٢)

وقد ظهر خلال هذا العصر شعراء آخرين لا يتسع المجال لذكرهم .

اما الكتابة والنثر في هذا العصر فقد تنوعت بين الكتابات السلطانية والرسائل الاخوانية والأدب التهذيبي والنثر الوصفي وغير ذلك من فروع الكتابة (٣) .

---

(١) احمد بدوى : الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٢٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٢٩ - ٢٣١ .

(٣) انظر تفصيل الكتابة والنثر في المرجع السابق ص ٣٠٢ - ٤٠٠ .

الفلسفـــة :

والمقصود بها العلم الذي يبحث فيما وراء الطبيعة وقد ازدهرت علوم الفلسفة قبل العصر الأيوبي زمن الفاطميين غير أن صلاح الديـــن كان يكره الفلسفة ولذلك لم تزدهر في عصره.[١]

ولكن المعظم بن العادل ملك دمشق اعتنى بالفلسفة وبعلمائها وكذلك فعل ابنه الناصر داود ،والملك المنصور صاحب حماة ، غير أنـــه بعد وفاة المعظم وتولي الأشرف حكم دمشق بعد انتزاعها من الناصـــر داود سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م جرى تحريم الفلسفة والمنطق وكل ما كـان يعرف بعلوم الأوائل ، اذ أمر الأشرف مناديه في دمشق ان ينادى بأن لا يشتغل احد من العلماء بشيء من العلوم سوى علوم التفسير والحديث والفقه ،ومن اشتغل بالمنطق والفلسفة وعلوم الأوائل فسوف ينفى مـــن البلاد ،الأمر الذى ادى الى قلة عدد العلماء في هذا المجال بعـــد أن رأوا ما آلت اليه احوال علماء الفلسفة وما اصابهم من فقر وفاقـــة نتيجة اشتغالهم بها.[٢]

كما انتشر تيار محاربة الفلسفـة بين الفقهاء ،فقد كان شـــيخ الشافعية بدمشق تقي الدين بن الصلاح " لا يُمَكِّنُ احدا في دمشق من قراءة المنطق والفلسفة والملوك تطيعه في ذلك ".[٣]

---

(١) احمد بدوى : الحياة العقلية ص٢٨٧.

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٣١ ب ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٢٤-١٤٨ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٣٩٣.

(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٢١.

ورغم ذلك التيار المعارض لعلم الفلسفة ، الا انها لم تختف نهائيا ،وظلت تُفصح عن نفسها بين حين وآخر من خلال بعض كبار العلماء الذين سنتناول اشهرهم وهو سيف الدين الامدى لكي نتبين من خلال دراسة تاريخه وضع الفلسفة في هذا العصر والتيار المؤيد لها والتيار المعارض .

سيف الدين الآمدى : هو ابو الحسن على بن ابي على بن محمد ابن سالم التغلبي الامدى ،ولد بآمد بعد سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م ، وتلقى علومه الاولى بها ثم رحل الى بغداد وعمره خمس عشرة سنة ودرس على يد كبار فقهائها المذهب الشافعي ،والاصول وعلم الجدل والمناظرة(١). وقد ذكر الوزير القفطي أن سيف الدين الامدى أخذ علوم الاوائل - الفلسفة والمنطق - عن بعض علماء النصارى واليهود ببغداد مما اثار حفيظة الفقهاء فاتهموه في عقيدته فغادر العراق الى مصر سنة ٥٩٢هـ/١١٩٧م(٢).

وفي مصر اشتغل سيف الدين الامدى بالتدريس بالجامع الظافرى بالقاهرة ولمع نجمه فأقبل عليه الطلبة واشتهر لدى عامة الناس بفضله وعلمه ،فحسده بعض فقهاء البلاد وتعصبوا عليه واتهموه بفساد العقيدة واتخاذ مذهب الفلاسفة والحكماء وكتبوا محضرا بذلك الاتهام حتى يستباح دمه فاضطر الى مغادرة مصر الى بلاد الشام(٣).

---

(١) القفطي : تاريخ الحكماء ص ٢٤٠ ؛ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ١٩٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٥ ؛ السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ٣٠٦-٣٠٧ .

(٢) القفطي : تاريخ الحكماء ص ٢٤١ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ٢٩٣ ؛السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ٣٠٧ ،النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٣٩٣ ، ابن قنفذ : الوفيات ص ٣١٢-٣١٣ ،وحاشية رقم (١) .

واستقر سيف الدين الامدى بحماه حيث استقبله ملكها المنصور وعهد اليه بالتدريس في مدرسته التي بناها بحماه. وقد وصف ابن واصل سيف الدين الامدى بأنه كان "إماما عظيما متقدما في علمي الكلام وأصول الفقه وعلم المنطق وسائر العلوم الحكمية ، وكان عَلَماً في هذه العلوم عَظُمَ في الافاق صيته واشتهر ذكره ،وصنّف التصانيف البديعة في جميع هذه الفنون ورد فيها على الامام فخر الدين الرازى والامام ابي حامد الغزالي وغيرهما من اكابر المتقدمين وبيّن بطلان أقاويلهم"(١).

وحين عمّت شهرته الافاق كتب اليه الملك المسعود صاحب آمد يطلب قدومه اليه لكي يوليه قضاء بلاده ،وحينما بلغت تلك الدعوة المنصور صاحب حماه لم يؤثر فراقه فبعث اليه بالشهود واستحلفه بالمصحف الشريف والأيمان المغلظة ان لا يفارق حماه الا باذنه ، غير انه في سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م كتب المعظم صاحب دمشق الى سيف الدين يستدعيه الى دمشق ويعده الوعود الجميلة ،فتسلل من حماه دون علم المنصور ودخل دمشق فعهد اليه المعظم بالتدريس في المدرسة العزيزية "واحسن اليه الا انه كان يظن أن المعظم يفعل في حقه من الاحسان أضعاف ما وقع منه"(٢). ويذكر ابن واصل ان الشاعر شرف الدين بن عنين هو الذى حمل المعظم على التقصير في حق سيف الدين الامدى ، بسبب نقد الاخير لفخر الدين الرازى ، وكان ابن عنين من اشد المتعصبين لاراء الرازى ،ورغم ذلك فقد ظل المعظم يداوم على حضور مجالسه ويسمع مناظراته ومجادلته ،وكان بارعا في الاحتجاج والمناظرة ،ولا يقدر أحد على مجاراته او دحض حججه ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٧٨.

(٢) المصدر نفسه ، جـ ٥ ص ٣٧-٣٨.

حتى ان ابن واصل طلب من صديقه الناصر داود بن المعظم أن يقارن بين سيف الدين الامدى وبين بقية علماء الفلسفة الذين يجادلونه مثل شمس الدين الخسروشاهي وغيره فقال الناصر داود : " سبحان الله ، كيف تقول هذا ؟ كل هؤلاء عند سيف الدين كالفراريج للذبح ، سيف الدين كان يرى أنه افضل من استاذهم فخر الدين فهو لا يعتد بهم " (١).

ولما توفي المعظم سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م ازدادت مكانة سيف الدين لدى ابنه الناصر داود فأقبل عليه واعطاه ثمانية الاف درهم اشترى بها جوسقا (٢) وبستانا ،ولازم حضور مجلس الناصر داود مع بقية العلماء الذين كانوا يقفون ضده في المناظرات " وصنف سيف الدين بدمشق للملك الناصر كتابا في العلوم العقلية سماه فرائد القلائد ، طلبه الناصر منه فصنفه حسب اقتراحه " (٣).

وبعد استيلاء الاشرف والكامل على دمشق من ابن اخيهما الناصر داود سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م بقي سيف الدين الامدى في دمشق ،وأعرض عنه الملك الاشرف ولا سيما وأن سياسته تقضي برفض الاشتغال بعلوم الفلسفة فعزله عن التدريس بالمدرسة العزيزية فأقام سيف الدين في جوسقه وبستانه مضطهدا حتى وفاته سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م (٤).

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٨-٣٩.

(٢) الجوسق : هو الحصن وقيل شبيه بالحصن ، وهو معرب واصله كوشك بالفارسية ،والجوسق يطلق ايضا على القصر ، انظر ابن منظور: لسان العرب مادة "جسق".

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ٤٠.

(٤) المصدر نفسه جـ ٥ ص ٤٠-٤١ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٣ ص ٢٩٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٤١ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٣٩٣.

وقد صنّف الامدى مصنفات كثيرة منها كتاب (الباهر في علم الأوائل) في خمس مجلدات وكتاب (أبكار الافكار في اصول الدين) في اربع مجلدات ، وكتاب (المآخذ على فخر الدين بن خطيب الرى في شرح الاشارات) وكتاب (دقائق الحقائق) وكتاب (رموز الكنوز) وكتاب (غاية المرام في علم الكلام) وكتاب (كشف التمويهات في شرح التنبيهات) ألفه للملك المنصور صاحب حماه ، وكتاب (غاية الأمل في علم الجدل) وكتاب (منتهى السالك في رتب المسالك) وكتاب (منتهى السول في علم الأصول) وكتاب (الترجيحات في الخلاف) وكتاب (المؤاخذات في الخلاف) وكتاب (المبين في معاني الفاظ الحكماء والمتكلمين) وغير ذلك من الكتب (١) .

ومن المؤسف ان تلك الثروة الفكرية القيمة لم يصلنا منها شيء ، وربما لو قدر لها البقاء لوضعت صاحبها الامدى جنبا الى جنب مع الطبقة الاولى من كبار الفلاسفة المسلمين كابن سينا وابن رشد ، والرازى ، والغزالي ، والفارابي وغيرهم . ويبدو أن معاداة ملوك دمشق له وكثرة معارضيه واعدائه والتيار العام المعادى للفلسفة في تلك الحقبة حالت دون وصول مؤلفاته ، ومن المرجح ان ايدى العبث امتدت اليها بعد موته فدمرتها .

----

(١) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء ص ٦٥١ ؛ القفطي : تاريخ الحكماء ص ٢٤١ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ٢٩٤ ؛ السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ٣٠٧ ؛ ابن تغري بردي(؟) ابن قنقذ : الوفيات ص ٣١٢ وحاشية رقم (١) .

على أنه جدير بالذكر هنا الى ان تلك الاتهامات التي قذف بها سيف الدين الامدى في عقيدته ليس لها اساس من الصحة ، وانما بدافع الغيرة والحسد بدليل أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ابدى اعجابه به وقال : " لو ورد على الاسلام متزندق يشكك ما تعين لمناظرته غير الامدى لاجتماع أهلية ذلك فيه "(١) ، ولو لمس ابن عبد السلام شيئا يشكك في عقيدته لما توانى عن ذكر ذلك بل والوقوف في وجهه . كما ان ابن كثير ذكر انه "كان حسن الاخلاق سليم الصدر رقيق القلب "(٢) ورجّح ان تلك الاتهامات باطلة .

وخلاصة القول : انه إذا كان قد ظهر بعض الحكام امثال المنصور صاحب حماه والناصر داود ووالده المعظم الذين شجعوا الفلسفة وما يتصل بها من علوم ،فان التيار العام في بلاد الشام ومصر والعراق في هذه الفترة كان يعارض علوم الفلسفة والمنطق والخلاف والجدل ،وبالتالي انحسرت هذه العلوم بعكس ما كان معروفا عن المسلمين حتى القرن الخامس الهجرى حين بلغت هذه العلوم شأنا عظيما وتصدى فلاسفة المسلمين لعلماء اليونان والنصارى وغيرهم من اصحاب المذاهب المنحرفة ودحضوا حججهم وبينوا بطلان عقائدهم . ولذلك لا نعجب اذا ما انحسرت هذه العلوم في هذا العصر وما تلاه من عصور وتضاءل شأنها .

---

(١) السبكي : طبقات الشافعية جـ٨ ص ٣٠٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٤٠-١٤١ .

الدراسات الطبيعية :

الطب والصيدلة : ازدهر الطب في بلاد الشام خلال هذه الفترة ازدهارا كبيرا واصبح سوقه نافقا بدليل أن الطبيب المعاصر ابن ابي اصيبعة ترجم لاكثر من خمسين طبيبا شاميا زمن الحروب الصليبية واكثرهم عاصر الفترة موضع الدراسة(١) . ومما ساعد على ازدهار الدراسات الطبية معرفة طلبة العلم " بشرفها وكثرة احتياج الناس اليها وأن صاحبها الملتزم لما يجب من حقوقها يكون مبجلا حظيا في الدنيا وله الدرجة العليا في الاخرة "(٢) .

ومما يدل على المكانة الرفيعة التي بلغها الاطباء في ذلك العصر حصول عدد منهم على منصب الوزارة لدى بعض ملوك بني ايوب في بلاد الشام(٣) ، فضلا عما كانت تدره مهنة الطب من خير وفير على صاحبها ، فعلى سبيل المثال كان الطبيب موفق الدين بن عبد العزيز يحصل من السلطان العادل على " الانعام الكثير والافضال الغزير والمنزلة العلية والجامكية السنية "(٤) وكانت رواتبه النقدية من السلطان العادل تزيد على مئة دينار(٥) .

وكان بدمشق مدرستان لتعليم الطب اشتغل بالتدريس فيهما كبار الاطباء(٦) .

---

(١) انظر ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٦٠٣- ٧٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٦٦٣ ، ٧٢١- ٧٢٤ .

(٤) المصدر نفسه ص ٦٧١ .

(٥) المصدر نفسه ص ٧٢٩ .

(٦) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ ص ٢٦٥- ٢٦٦ ، النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ١٢٧ ، ١٣٥ .

كما هيأ البيمارستان النورى (١) الفرصة لطلبة الطب بدمشق للتدرب عمليا على ايدى كبار الاطباء ، ومشاهدة طرق فحصهم للمرضى ومعرفة الامراض ووصف العلاج اللازم (٢) . ومن المرجح أن البيمارستانين الآخرين كانا يقومان بتخفيف الضغط عن البيمارستان النورى (٣) .

---

(١) البيمارستان النوري ، انشأه نور الدين زنكي بعد ان ضم دمشق إلى مملكته سنة ٥٤٩هـ/١١٤٤م وقد ذكر أبو شامة انه انفق على بنائه مبلغا ضخما ،وجعله عاما لجميع مرضى المسلمين ، ابو شامة : الروضتين جـ١ ص ٩ = وذكر ابن ابي اصيبعة أن نور الدين زود البيمارستان بمكتبة ضخمة تحولت إلى مركز للبحث لطلبة الطب ، وعهد إلى الطبيب أبي المجد ابن ابي الحكم بالعناية بالمرضى ومعالجتهم ،وجعل تحت امرته جماعة من الخدم والممرضين ،وكان ابوالمجد حين يفرغ من علاج المرضى والكشف عليهم ينصرف الى المكتبة لتدريس الطلبة لمدة ثلاث ساعات انظر ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٦٢٨ = وقد ذكر ابن جبير في رحلته البيمارستان النورى واوضح انه كان كبيرا جدا وجرايته في اليوم الواحد ١٥ دينارا وله مشرفون لهم سجلات باسماء المرضي والنفقات التي يحتاجون اليها ،وكان الاطباء يمرون على المرضى كل يوم للاطلاع على احوالهم و تقرير ما يحتاجون اليه من الادوية والاغذية ، وكل ذلك يشير الى مدى التقدم الطبي الذى كان عليه هذا البيمارستان زمن الحروب الصليبية ، انظر رحلة ابن جبير ص ٢٥٥ .

(٢) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٧٣١ - ٧٣٢ .

(٣) اشار ابن جبير الى وجود بيمارستان قديم غير البيمارستان النورى يقع قرب الجامع الأموى ، انظر رحلة ابن جبير ص ٢٥٥ ، اما البيمارستان الاخر فهو الذى انشأه الامير سيف الدين ابو الحسن يوسف بن ابي الفوارس بن موسك القيمرى المتوفي سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م وكان من اكبر الامراء في دمشق واعظمهم مكانة وهومن الاكراد القيمرية . انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٣٩- ٤٠ .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن البيمارستان النورى شهد خلال هذه الفترة تطورا كبيرا وتوسعة عظيمة على يد الطبيب بدر الدين المظفر بن قاضي بعلبك مجد الدين عبد الرحيم بن ابراهيم ، فبعد ان جمع ثروة طائلة من مهنة الطب عمد سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م واشترى دورا كثيرة مجاورة للبيمارستان النورى واضافها اليه وأنشأ بها قاعات كبيرة للمرضى ،وبناها احسن البناء واجرى الماء اليها وتولى بنفسه مهنة تدريس الطب بالبيمارستان النورى ،حتى ان الصالح ايوب كافأه على جهوده بتعيينه رئيسا على سائر الاطباء سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م (١).

كما تقدمت علوم الصيدلة وعرف الاطباء الأدوية المفردة والمركبة وكان بعضهم يقوم بصناعة الادوية وعمل المراهم والمعاجين كما عرفوا الاقراص وغيرها (٢).

والحق أن المجال لا يسمح باستعراض كل الانجازات الطبية وجهود جميع الاطباء في هذا العصر ، وسوف يعرض البحث لتاريخ شخصيتين هامتين احدهما برع في مجال الطب والاخر في ميدان الصيدلة ،وفي ذلك العرض براهين قاطعة على التقدم الذى شهدته الدراسات الطبية وعلم الصيدلة في هذه الفترة ، فمن اشهر الاطباء :

مهذب الدين عبد الرحيم بن على بن حامد ويعرف بالدخوار ، شيخ الاطباء بدمشق كان أوحد عصره . وفريد دهره وعلامة زمانه في مجال الطب (٣) ،وانتهت اليه مهنة الطب ومعرفتها على الوجه الأكمل ،

---

(١) ابن ابي اصيبعة :عيون الانباء ص ٧٥١.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٢٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٧٢٨ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٧٢ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ١٥٩ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ١٢٧.

وتحقيق كلياتها وجزئياتها ، لم يكن له مثيل في عصره ولم يبلغ تلك المكانة الا بعد ان اتعب نفسه في الاشتغال وتحصيل علوم الطب حتى فاق اطباء عصره ،وقد نشأ مهذب الدين في اسرة نبغت في صناعة الطب ،فقد كان والده علي بن حامد طبيبا للعيون وكذلك اخوه ، فسار على نهجهما الا انه واصل طلب العلم واخذ عن اشهر حكماء عصره ، حتى بلغ مرتبة عالية وأصبح مرجعا للاطباء ،وألّف في الطب كتبا كثيرة ، ذكر ابن ابي اصيبعة أنه رأى منها " نحو مائة مجلد أو اكثر في الطب وغيره ".(١)

وحين ظهرت مواهب مهذب الدين وتفوقه في المعالجه وانتشرت شهرته في البلاد وثق به الملك الكامل بن العادل غاية الثقة وخصوصا عندما نجح سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م في معالجة والده السلطان العادل من مرض شديد اصابه ،وكافأه على ذلك بمبلغ سبعة الاف دينار ،وفي سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م انتشر وباء عظيم وهلك اكثر الناس ،ومرض بذلك الوباء الملك الكامل وكثير من خواصه ،واستطاع مهذب الدين معالجته حتى برىء مع اصحابه ، وحصل نظير ذلك على الكثير من الخلع والهدايا بما يقدر باثني عشر الف دينار ، وعينه العادل على رئاسة اطباء بلاد الشام ومصر، وصار يختبر الاطباء بنفسه ويعطيهم التواقيع بمزاولة مهنة الطب .(٢)

وحين استقر الملك المعظم بن العادل في ملك دمشق سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م استخدم عددا من الاطباء منهم الحكيم رشيد بن الصوري ،والقاسم بن ابي اصيبعة - والد موفق الدين مؤلف عيون الانباء - اما مهذب الدين الدخوار فقد اطلق له المعظم

----

(١) ابن ابي اصيبعة ص٧٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ص٧٢٩-٧٣١ .

" جامكية وجراية وآثران يفرغه للاشراف على البيمارستان النورى وتدريس الطلبة ،ومن تلقى علوم الطب على يديه في ذلك الحين موفق الدين ابن ابي اصيبعة الذى يقول في ذلك " ولازمته ... في وقت معالجته للمرضى بالبيمارستان ، فتدربت معه في ذلك وباشرت اعمال صناعة الطب وكان في ذلك ايضا معه في البيمارستان لمعالجة المرضى الحكيم عمران وهو من أعيان الاطباء واكابرهم في المداواة والتصرف في انواع العلاج ،فتضاعفت الفوائد المقتبسة من اجتماعهما ومما كان يجرى بينهما من الكلام في الامراض ومداواتها ومما كانا يصفانه للمرضى" (١) .

ولقد أشاد ابن ابي اصيبعة كثيرا ببراعة الطبيب مهذب الدين ودقته في تشخيص الأمراض ووصف الأدوية التي تبرىء في اسرع وقت ممكن " ويحصل من تأثيرها شيء كأنه سحر" (٢) كما ابدى دهشته من قدرته على فهم حالة المريض عن طريق جس نبضه وما يدل عليه ذلك (٣) .

ولمهذب الدين فضل بعيد الأثر في تطور الطب خلال حياته وبعد موته ايضا حين اسس المدرسة الدخوارية التي كانت من اعظم مدارس الطب في بلاد الشام خلال العصور الوسطى (٤) .

وكان مهذب الدين بارعا في علم الأجنة وله فيه كتاب يسمى (الجنينة في الطب) واختصر كتاب الحاوى في الطب للرازى ،وله ابحاث اخرى صغيرة تدل على تفوقه مثل المقالة التي صنفها في الاستفراغ بدمشق سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م (٥) . ورغم ان موءلفاته بلغت

---

(١) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٧٣١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧٣٢ .

(٤) انظر ما سبق ص ٤٦١

(٥) ابن ابي اصيبعة : المصدر السابق ص ٧٣٥ .

اكثر من مئة كتاب حسب ما ذكره ابن ابي اصيبعة الا انه من المؤسف ان تلك الثروة فُقِدَتْ ولم يصلنا منها شيء شأنها في ذلك شأن كثير من كنوز الفكر الاسلامي التي أتت عليها عوادى الزمن .

وظل مهذب الدين الدخوار يزاول العمل بالبيمارستان النوري والتدريس لطلبة الطب حتى توفي بدمشق سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م (١) .

ابن البيطار : هو الحكيم العالم ضياء الدين ابو محمد عبدالله ابن احمد الاندلسي الأصل الشهير بابن البيطار ، شُغِفَ بعلوم الصيدلة منذ صغره ،واجتمع بالمغرب بعدد كبير من علماء النبات وتحقيق انواعه ومنابته ، كما درس كتب علماء الاغريق في النبات وسافر من أجل ذلك إلى بلاد اليونان والروم لمشاهدة النباتات الواردة في كتب علماء تلك البلاد على الطبيعة (٢) . ثم قَدِمَ الى دمشق واستقر بها ، واجتمع به ابن ابي اصيبعة ودرس على يديه علم الصيدلة ،وقد وصفه بحسن الاخلاق وكمال المروة ثم قال : " ولقد شاهدت معه ظاهر دمشق كثيرا من النبات في مواضعه " وقرأ عليه كتب حكماء الاغريق في الصيدلة وأشاد بمقدرته وتفوقه على من سبقه من علماء النبات بحيث استطاع ان يجمع بين ما وصل اليه علماء الاغريق وما ابدعه علماء المسلمين بعدهم (٣) .

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٧٢ ؛ ابو شامة: ذيل الروضتين ص ١٥٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٣٠ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ١٢٩ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهرية القسم الاول ص ٢٣١- ٢٣٢ .

(٢) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ جـ١٥ لوحة ١٦ ؛ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٦٠١ ؛ التلمساني : نفح الطيب جـ٢ ص ١٩١ ؛ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات جـ٢ ص ١٥٩-١٦٠ .

(٣) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٦٠١ ؛وانظر ايضا التلمساني : نفح الطيب جـ٢ ص ٦٩٢ .

وقد " انتهت اليه معرفة النبات وصفاته وأماكنه ومنافعه " على حد قول التلمساني (١) .

وخدم ابن البيطار السلطان الكامل ، فجعله رئيسا على سائر العشابين والصيادلة ، ثم خدم ابنه الصالح ايوب وحظي عنده بمكانة رفيعة وعناية فائقة وظل يقوم بدوره المتميز حتى وفاته بدمشق سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م (٢) .

ولضياء الدين ابن البيطار عدد من المؤلفات القيمة اهمها جميعا (الجامع في الادوية المفردة) حيث استقصى فيه ذكر الأدوية المفردة واسمائها واثارها ومنافعها ، والصحيح منها وغير ذلك ، ويعتبر هذا الكتاب من افضل كتب الادوية ، وقد صنفه للملك الصالح ايوب (٣) .
ومما يدل على اهمية كتاب الادوية المفردة انه كان له تأثير بعيد المدى على العقاقير في اوربا خلال عصور النهضة واصبح مرجعا للأوربيين حتى القرن التاسع عشر الميلادى (٤) .

----

(١) التلمساني : نفح الطيب جـ٢ ص ٦٩٢ .
(٢) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ جـ١٥ لوحة ١٦ ؛ ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٦٠١-٦٠٢ ؛ التلمساني : نفح الطيب جـ٢ ص ٦٩٢ .
(٣) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٦٠٢ .
(٤) زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٢٤ .

الرياضيات والفلك :

والمقصود بعلوم الرياضيات ، الحساب والجبر والهندسة وكانت من العلوم المعروفة خلال هذه الحقبة وقد ارتبط بها علم الفلك ، فلم يظهر عالم رياضي الا وقد عرف علم الفلك واشتغل به ، كما أن بعض الأطباء اشتهروا ايضا ببراعتهم وتفوقهم في الرياضيات والفلك ، فقد كان على سبيل المثال الطبيب نجم الدين بن اللبودى عالما بالرياضيات والفلك وله فيهما مؤلفات قيمة مثل اختصاره لكتاب اوقليدس وكتاب (كافية الحساب في علم الحساب) وكتاب (غاية الغايات في المحتاج اليه اوقليدس والمتوسطات) وكتاب (الرسالة الكاملة في علم الجبر والمقابلة) وله في علم الفلك كتاب (الزاهي في اختصار الزيج المقرب المبني على الرصد المجرب) (١) .

كما كان رشيد الدين ابو الحسن علي بن خليفة -عم ابن ابي اصيبعة- عالما بالفلك ، فقد اخذ علم النجوم عن ابي محمد الجعدى وكذلك بالرياضيات حتى أن ملك بعلبك الامجد بهرام شاه استدعاه الى بلاده ورأى من تفوقه في الحساب ما اثار دهشته فطلب منه أن يريه شيئا من علم الحساب فصنف له اربع مقالات (٢) . ومن أشهر علماء الرياضيات والفلك الذين اشتهروا خلال هذه الفترة :

المهندس مؤيد الدين محمد بن عبد الكريم الحارثي ، ولد ونشأ بدمشق واشتهر بلقب المهندس لمعرفته بالهندسة ،وكان في بداية حياته نحاتا ونجارا حتى أنه عمل اكثر واجمل ابواب البيمارستان النورى ،

----

(١) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٦٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣٧ - ٧٣٨ .



ثم حفظ مؤلفات اوقليدس في الهندسة واشتغل ايضا " بصناعة النجوم وعمل الزيجات " ومما ساعده على التفوق والابداع قدوم الشرف الطوسي الى دمشق وكان عالما بالهندسة والرياضيات فاخذ عنه ،ولعب دورا هاما في العناية بمنشآت دمشق فقام على سبيل المثال باصلاح ساعات الجامع الأموى وظل يقوم على صيانتها طوال حياته " وكان له على مراعاتها وتفقدها جامكية مستمرة ".(١)

وللمهندس محمد بن عبد الكريم بعض المؤلفات القيمة منها رسالة في رمز التقويم ،ومقالة في رؤية الهلال .(٢)

ومن أشهر علماء الرياضيات والفلك في هذا العصر .

الشيخ علم الدين قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني بن مسافر الاسفوني وينعت بالعلم ،ويعرف ايضا بتعاسيف ،ولد باسفون احدى قرى صعيد مصر سنة ٥٧٤هـ/١١٧٩م وتلقى علومه على مشاهير علماء عصره بالديار المصرية والشامية ،وكان عالما بالرياضيات ،ثم سافر الى الموصل لتلقي علوم الموسيقى على يد الشيخ كمال الدين بن يونس ، فقرأ عليه اكثر من اربعين كتابا في الموسيقى خلال سنة .(٣)

ولقد برع العلم تعاسيف في علوم الحكمة والرياضيات والهندسة والفلك ، وحين وردت اسئلة الامبراطور فردريك الثاني في هذه العلوم الى

---

(١) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص٦٦٩ - ٦٧٠.

(٢) المصدر نفسه ص٦٧١.

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٣١٥ - ٣١٦ ؛ الادفوى : الطالع السعيد ص٤٦٩ - ٤٧٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤٢ وحاشية رقم (٣) ؛ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٨٦ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٨٢.

السلطان الكامل سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م كلف الاخير علم الدين تعاسيف بالاجابة عنها (١).

وخدم تعاسيف الملك الاشرف بن العادل وعمر له عمائر عظيمة بديعة منها الجوسق المسمى طيحة في مدينة راس عين بالجزيرة، وقد بناه على شكل مثمن وبازائه نهر يتصل ببلاد الخابور المتصلة بالفرات (٢).

وبعد وفاة الاشرف سافر علم الدين قيصر الى حماه فاستقبله صاحبها المظفر تقي الدين محمود، واحسن اليه وقربه وولاه تدريس المدرسة الحنفية النورية بحماه، وشرع علم الدين في تصميم المنشآت العمرانية بحماه للملك المظفر، فبنى له ابراجا على سور حماه في غاية الحسن والجمال، كما انشأ له طاحونا في الجانب الاسفل من حماه على نهر العاصي، وبنى على الطاحون برجا عظيما للمراقبة، وصنع له الات رياضية اخرى، ثم عمل له كرة من الخشب المدهون ورسم عليها جميع الكواكب السيارة المرصودة في السماء وقد كان ابن واصل يساعد علم الدين قيصر في عمل تلك الكرة الفلكية وفي ذلك يقول: "وكنت اساعد الشيخ علم الدين على تحريرها وكان السلطان الملك المظفر يحضرنا ونحن نرسمها، ويسألنا عن المواضع الدقيقة فيها، فنخبره، فيدرك ما تقول لصحة ادراكه وقوة ذهنه" (٣) وقد توفي علم الدين قيصر في دمشق سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م (٤).

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣٢ ؛ الادفوى : الطالع السعيد ص٤٧٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٤٢ ، حاشية رقم (٣).

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٤٥-١٤٦.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٤٣ - ٣٤٤ ؛ وانظر ايضا الادفوى : الطالع السعيد ص ٤٧٠ ؛ ابو الفدا ؛ المختصر جـ٣ ص ١٧٣.

(٤) الادفوى : الطالع السعيد ص ٤٨٠ ؛ ابو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٨٦.

أهم ملامح الحالة الاقتصادية لبلاد الشام قبيل الغزو المغولي :

من الصعب جدا رسم صورة واضحة للحالة الاقتصادية لبلاد الشام خلال هذه الحقبة نظرا لما شهدته من اضطرابات وتقلبات سياسية اضافة الى ان المؤرخين ركزوا في حديثهم على الأحوال السياسية والاضطرابات بين ملوك بني ايوب وجهادهم ضد الصليبيين ،وما حدث من النزاع مع القوى الاسلامية الاخرى كالخوارزمية وسلاجقة الروم وغيرهم .

غير أن مملكة حلب حظيت ببعض الاخبار الاقتصادية ،أوردها عزالدين ابن شداد مؤلف كتاب (الاعلاق الخطيرة) وياقوت الحموى في معجم البلدان وفي ضوء ذلك يمكن اعطاء صورة واضحة عن اقتصاديات مملكة حلب الامر الذى يساعد على فهم الحالة الاقتصادية لبلاد الشام بصفة عامة .

فقد ذكر ابن شداد نقلا عن المؤرخ يحيى بن ابي طي النجار الحلبي الذى الف كتابا عن حلب سماه (عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر) فذكر ان موارد مدينة حلب بمفردها زمن الملك الظاهر غازى ابن صلاح الدين بلغ سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢م - اى موارد سنة - ٥٠٠ ر ٩٨٤ ر ٦ درهم (١) . وهو مبلغ كبير بلا شك يشير بوضوح الى مدى الثراء الذى تمتعت به مملكة حلب ، مع العلم أن هذا المبلغ قاصر على دخل مدينة حلب فقط دون ان يدخل في ذلك حساب المبالغ الاخرى الواردة من البلاد التابعة لها .

---

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ قسم ١ ص ١٥٠ ؛انظر ايضا محمد كرد علي : خطط الشام جـ٥ ص ٦٣ - ٦٤ .

وحين تحدث ياقوت عن حلب في معجمه حوالي سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م أشار الى ما تمتعت به من خيرات زمن ملكها العزيز بن الظاهر ،الذي كان صغيرا وكان يقوم بتدبير دولته الاتابك طغريل ،وقد اشاد ياقوت بعدله ورأفته برعيته ، وذكر أن مملكة حلب تمتد من الشرق الى الغرب مسيرة خمسة ايام - سيرا على الاقدام - ومن الجنوب الى الشمال مثل ذلك ، وفيها اكثر من ثمانمائة وعشرين قرية كلها مملوكة لاهلها ، ولا يوجد بها اراض سلطانية الا مقاطعات يسيرة إضافةالى مائتين ونيف قرية مشتركة بين الرعية والسلطان . وكان في هذا الوقت يتولى وزارة حلب علي بن يوسف القفطي صديق ياقوت الحموى وكان مسئولا عن دواوينها وهو الذى زود ياقوت بهذه المعلومات عن حلب وقراها [١] .

وقد ذكر الوزير القفطي لياقوت ان موارد حلب تقوم بنفقة وتجهيز خمسة الاف فارس ،حسب نظام الاقطاع الحربي الأيوبي [٢] . وانه لو لم يقع اسراف في خواص السلطان وامرائه لاصبحت تلك الموارد كافية لارزاق وتجهيز سبعة الاف فارس ذلك ان اتباع سلطان حلب يبلغون الف فارس ويحصل الواحد منهم في العام من عشرة الاف الى خمسة عشر الف درهم ويمكن توفير ما يصرف على هؤلاء بما يجهز الف فارس آخر. وذكر القفطي لياقوت ان في أعمال حلب إحدى وعشرون قلعة مشحونة بالذخائر والجنود وتكتفي بمواردها للصرف على جنودها عن طريق ما يتبع هذه القلاع من اراض زراعية وفوق ذلك ،فان موارد حلب مما يزيد من فضلات الاقطاعات

----

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ،مادة حلب جـ٢ ص ٢٨٥ .

(٢) عن نظام الاقطاع الحربي انظر ما سبق الفصل الأول ص ٦٦-٦٧ .

الخاصة من جميع الجبايات التى تصل الى حلب من العنب والحبوب بما يقارب عشرة الاف درهم يوميا وقد اورد الوزير ابن القفطي مثالا على ذلك فقال " وقد ارتفع اليها - اى ورد الى حلب - في العام الماضي وهو سنة ٦٢٥ هـ من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي يجبى فيها العشور من الافرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع سبعمائة الف درهم ، وهذا مع العدل الكامل والرفق الشامل بحيث لا يرى فيها متظلم ولا متهضم ولا مهتضم وهذا من بركة العدل وحسن النية ".(١)

وقد أشار ياقوت الى عناية سكان حلب بشئونهم الاقتصادية وحرصهم الشديد على استثمار اموالهم وتنميتها ، وأكد ان بحلب بيوتات قديمة معروفة بالثروة منذ القدم " ويتوارثونها ويحافظون على حفظ قديمهم بخلاف سائر البلدان ".(٢)

ولم تكن موارد مملكة حلب ثابتة على الدوام فمن المعروف انه بعد انتصار الحلبيين على الخوارزمية سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م(٣) اصبحت بعض مناطق الجزيرة تابعة لمملكة حلب مثل الرها وحران ، وقد امدنا ابن شداد بقائمتين مفصلتين عن موارد حران والرها فعلى سبيل المثال اشار الى انه يتبع حران ثمانمائة قرية منها خمسمائة قرية عامرة يصرف مغلها في تجهيز الف فارس والباقي يحمل الى بيت المال.(٤) وفي سنة ٦٤٠ هـ

---

(١) ياقوت : معجم البلدان مادة حلب جـ٢ ص ٢٨٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٦ .

(٣) انظر ما سبق الفصل الرابع ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

(٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٣ ص ٦٧ .

بعث الناصر يوسف ملك حلب بالمؤرخ عز الدين ابن شداد الى حران لكشف مواردها ، فذكر الاخير ان دخلها السنوى بلغ الفي الف درهم - مليوني درهم - بينما كانت زمن الملك الأشرف تدر ثلاثة ملايين درهم.(١) ويبدو ان ارتفاع الموارد وانخفاضها يكون حسب الأحوال الاقتصادية وما يصيبها من خصب وقحط . فضلا عن أن غارات التتار كان لها اثار سيئة على مواردها ، فقد نجم عن غاراتهم على منطقة الجزيرة تراجع موارد حران الى اقل من مليوني درهم وقد اورد ابن شداد تفاصيل الميزانية العامة لمنطقة حران التابعة لمملكة حلب بعد مضايقة التتار لها فكانت على النحو التالي :

الاسقاء	مئة وسبعون الف درهم
الضواحي	مئة وخمسون الف درهم
الباب الكبير	مئة وثلاثون الف درهم
دار الوكالة	مئة وخمسة وعشرون الف درهم
الجهات المجموعة	مئة الف درهم
الأقطان	ثلاثون الف درهم
الصبغ	ثلاثون الف درهم
العرصة	اربعون الف درهم
الجوالي	خمسة عشر الف درهم .
فائض الأوقاف	مئة الف درهم .
العداد	خمسون الف درهم
الحمامات	عشرة الاف درهم

----

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٣ ص ٦٥.

الاوثار	ثمانية الاف درهم
السجون	خمسة الاف درهم
الجنايات	اربعون الف درهم
الخفارتين	مائة وستون الف درهم
المواريث	مائة وستون الف درهم
المفادنة	مائة الف درهم (١)

ويبلغ اجمالي الواردات لقصبة حران مليون واربعمائة وثلاثة وعشرون الف درهم ٤٢٣٫٠٠٠ر١ درهم .

اما الرها وهي تابعة ايضا لمملكة حلب فكانت مواردها تصرف في اعداد وتجهيز ونفقة خمسمئة فارس (٢) . وكان يتبعها عدد كبير من القرى تبلغ سبعمائة قرية تشتمل على أربعة عشر الف وستمائة فدان وكانت مواردها على النحو التالي :

البساتين	خمسة وثلاثون الف درهم
ورق التوت	خمسة وعشرون الف درهم
عناب	ثلاثون الف درهم .
الرباع	خمسة وعشرون الف درهم .
الطواحين	اربعة الاف درهم
العشر	خمسة وعشرون الف درهم
الختم	عشرة الاف درهم
المقاث	أحد عشر الف درهم

---

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٣ ص ٦٥-٦٦ .

(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص ٩٩ .

الثلج	خمسة الاف درهم
عداد الغنم	ستون الف درهم
الجنايات	ثلاثون الف درهم
المواريث	ثلاثون الف درهم
العرصة	خمسة وعشرون الف درهم
الجوالي	خمسة وعشرون الف درهم
الافراح	خمسة وثلاثون الف درهم
الدرب	خمسة وعشرون الف درهم
السجون	خمسة وعشرون الف درهم
المفادنة	مئة وخمسة الاف درهم
الصبغ	خمسة الاف درهم .

ويبلغ مجموع بنود الميزانية بمختلف بنودها خمسمائة وستة واربعون الف درهم بدون الغلال العينية ٥٤٦,٠٠٠ درهم .(١)

وقد أورد ابن شداد قائمة مفصلة لموارد مملكة حلب في اواخر زمن الناصر يوسف بعد سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م اى عشية الغزو المغولي ، فكانت موارد الميزانية كمايلي(٢) :

---

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٣ ص ٩٩-١٠٠ = اشار المحقق الى ان مجموع البنود الواردة في قائمة ابن شداد مقدارها ٥٣٥٠٠٠ أى دون مجموعها العام بمقدار احد عشر الف درهم وربما كان ذلك بسبب سقوط بعض بنود الميزانية سهوا حين النسخ ، بما يتفق والمجموع الذى اشار اليه ابن شداد في نهاية القائمة . انظر: المصدر نفسه جـ٣ ص ١٠٠ حاشية رقم (١) .

(٢) ترد القائمة هنا بالفاظ ابن شداد دون تعديل .

دار الزكاة	الف الف ومائتي الف
العشر	ستمائة الف
الوكالة	مائتي الف
سوق الخيل والجمال والبقر/	ثلاثمائة الف وثمانين الفا
دار كورة الجوانية	ثلاثمائة الف وخمسين الفا
المبطيخ	مائة الف
دار كورة برانية العنب	ثمانين الفا
الخضر	خمسين الفا
المدبغة	مائة الف وخمسين الفا
دكة الرقيق	مائة الف
صبغ الحرير	ثمانين الفا
سوق الغنم	اربعمائة الف وخمسين الفا
سوق التركمان للغنم	ثلاثمائة الف
عرصة الخشب	خمسين الفا
ضمان الاوتار	اربعين الفا
المسابك	خمسة الاف
البيلونة	عشرين الفا
سمسرة الخضر	عشرين الفا
البساتين	خمسين الفا
دار الضرب	مائة الف
الرباع	اربعمائة الف درهم
الحكورة	مائة الف درهم
ذخيرة الحطب والفحم	عشرين الف درهم
المصابن	عشرة الاف درهم

عداد العرب	مائة الف درهم
الملح المجلوب	ثلاثمائة وخمسين الف درهم
المسالخ	ما ئة الف درهم
الاجتياز بخان السلطان/	مائة الف درهم
القلي	عشرين الف درهم
الساسة	مائة الف درهم
عداد التركمان بحلب	مائةالف وخمسين الف درهم
وغنم	ثلاثين الف رأس قيمتها ستمائة الف درهم
الجوالي	مائة الف درهم
الفرح واللطف	ستمائة الف درهم
حمام السلطان	ثمانين الف درهم
السجون	ستين الف درهم
نحيرة الذمة	خمسين الف درهم
البقل	عشرين الف درهم
القبانين	خمسين الف درهم
الحديد	خمسين الف درهم
القنب	خمسين الف درهم
الحرير	ثمانين الف درهم
الخراج	ثلاثين الف درهم
ضمان المزابل	عشرة الاف درهم
المواريث الحشرية تقديرا	
لا تحريرا	ثلاثمائة الف درهم (١)

ويبلغ مجموع ميزانية مملكة حلب ٠٠٠ر٢٧٠ر٨ درهم ثمانية ملايين ومائتين وسبعين الف درهم.

---

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ القسم الاول ص ١٥١-١٥٣.

وفي ضوء هذه القوائم التي اوردها ابن شداد عن مملكة حلب وبعض المناطق التابعة لها يمكن استنتاج الحقائق التالية :

أولا : قوة اقتصاد مملكة حلب وتنوع مواردها وكثرة خراج البلاد التابعة لها ويمكن ان نقيس على ذلك بقية ممالك الشام الأخرى .

ثانيا : تنوع النشاط الاقتصادي في حلب وممالك الشام الاخرى ،وتمثل ذلك النشاط في الزراعة والرعي والصناعات المختلفة والتجارة ،وتنوع الحرف في بلاد الشام .

ثالثا : ان كثيراً من الجهات التي ترد عن طريقها الاموال تدل على أن العدل لم يكن سائدا في بعض الاحيان اذ تدل تلك القوائم على وجود ضرائب تعسفية غير شرعية .

وعلى أية حال فمما يؤسف له ان ابن شداد وياقوت الحموي لم يوردا ارقاما اخرى عن بقية بلدان الشام على الرغم من أن ابن شداد خص مدينة دمشق بجزء كبير من كتابه الاعلاق الخطيرة الا انه لم يشر لا من قريب ولا من بعيد الى مواردها ،اما ياقوت فلم يفصل في الحديث عن الاحوال الاقتصادية لبلاد الشام الاخرى فهو مثلا حين تحدث عن حماة قال : " وحماه مدينة كبيرة كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار واسعة الرقعة حفلة الاسواق "(١) ولم يفصل في احوالها الاقتصادية ،وبالتالي فسيكون الحديث عن اقتصاديات بلاد الشام الاخرى بصورة مجملة دون اعطاء ارقام تفصيلية لعدم توفرها .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ،مادة حماه جـ٢ ص ٣٠٠ .

الزراعـــــة :

تعتـمد الزراعة في بلاد الشام على الامطار كثيرا [(١)] ،وذلك علـى الرغم من وجود بعض الانهار مثل نهر الاردن ونهر بردى ،والعاصـي ، ونهر الفرات ،وذلك لأنّ طبيعة بلاد الشام الجبلية تحول دون الاستفادة الكاملة من تلك الانهار على عكس ما هو عليه الحال في مصر والعراق حيـث تستفيد تلك البلاد من مياه النيل ودجلة والفرات ، اذ ان مصر والعراق تنعم بسهولة فيضية لا تتوافر في بلاد الشام ،ومع ذلك فتشير الاثار الموجـودة على تلك الانهار الشامية الى ان السكان قاموا ببناء السدود والنواعير وأنشأوا القنوات وافادوا الى حد كبير من تلك الانهار [(٢)] .

والمعروف ان مزارع الشام ومنتجاتها يضرب بها المثل في جودتها وكثرة مياهها وخصوبة ارضها [(٣)] . فكانت حلب تنتج التين والزبيب والفستق والحبة الخضراء بكميات وافرة وتصدر هذه المنتجات الى مصر والعراق [(٤)] .

وقد فصل ياقوت الحموي في المنتجات الزراعية التي تنتجها مملكة حلـب في عصره معتمدة في ذلك على الامطار فقط ، فذكر انه يزرع في ارضهـا القطن ، والسمسم ،والبطيخ ،والخيار ،والدخن ، والكروم ،والذرة ،والمشمش، والتفاح " عذيا لا يسقى الا بماء المطر ويجيء مع ذلك رويا يفوق ما يسقـى بالمياه والسيح في جميع البلاد وهذا لم أره فيما طوفت من البلاد فـي

---

(١) النويري : نهاية الارب جـ٨ ص ٢٥٥ .

(٢) محمد كرد علي : خطط الشام جـ٤ ص ١٣٢-١٣٣ .

(٣) المرجع نفسه جـ٤ ص ١٣٨ .

(٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ ص ١٥٣ .

غير ارضهما "[١]. ولما تحدث عن غور الأردن أشار الى ان اكثر منتجاته الزراعية قصب السكر ومنها يصدر الى البلاد الاخرى [٢]. اما مملكة دمشق فان اخصب مناطقها الغوطة وطولها مرحلتان وعرضها مرحلة وبها ٥٣٤٥ بستانا متنوعا و ٥٠٠ بستانا اخر للكروم [٣].

وحين زار ابن جبير بلاد الشام اشاد بجودة انتاج البلاد الزراعي وكثرة خيراتها فوصف منبج بأنها محاطة بالبساتين من الشرق والغرب مختلفة الثمار ملتفة الأشجار [٤]، ووصف بلاد المعرة بانها منطقة سواد لخصوبة ارضها التي تزرع "كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وانواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من اخصب بلاد الله واكثرها ارزاقا" [٥].

اما فلسطين فهي من المناطق الشامية الخصبة غير ان اكثر مزروعاتها تعتمد على المطر شأنها في ذلك شأن مملكة حلب ، ما عدا منطقة نابلس التي اشتهرت بكثرة مياهها الجارية ،وتوجد بمنطقة البلقاء بفلسطين بلدة تسمى حسبان لها واد اشتهر باشجاره وبساتينه وكثرة مزارعه كما كان يتبع حصن عجلون المشرف على الغور منطقة زراعية مشهورة بكثرة اشجارها وخصوبة أرضها [٦].

----

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ،مادة حلب ج٢ ص ٢٨٤- ٢٨٥.
(٢) المصدر نفسه مادة غور ج٤ ص ٢١٧ ؛ محمد كرد علي : خطط الشام ج٤ ص ١٤٧.
(٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج٢ قسم دمشق ص ١٣.
(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٢٣.
(٥) رحلة ابن جبير ص ٢٢٩.
(٦) ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٢٧ - ٢٢٩.

وتميزت بلاد الشام جميعها بانتاج الزيتون الوفير (١) . وقد احصى صاحب خطط الشام اكثر من خمسين صنفا من اصناف العنب تنتجها دمشق وواحد وعشرين صنفا من المشمش تنتجها ايضا مما يدل على وفرة الانتاج وجودته (٢) .

وكانت تقوم زراعة النخيل في المناطق التابعة للملك الاشرف والقريبة من نهر الفرات مثل الرحبة وقرقيسيا وعانة وغيرها ومنها يجلب التمرالى بقية بلدان الشام (٣) .

وخلاصة القول : ان بلاد الشام انتجت ما يسد حاجتها من الحبوب والخضروات والفواكه ، بل وصدرت في بعض الاحيان ما يفيض عن حاجتها الى البلاد الأخرى (٤) .

الصناعة :

لما كانت بلاد الشام تزرع قصب السكر في غور الاردن فمن الطبيعي أن يترتب على ذلك صناعة السكر (٥) . كما عرف الشاميون صناعة الورق وعن طريق بلاد الشام انتقل الى اوربا زمن الحروب الصليبية وكان يعرف باسم الكاغد الشامي (٦) .

---

(١) محمد كرد علي : خطط الشام جـ٤ ص ١٤٩-١٥٠ .
(٢) المرجع نفسه جـ٤ ص ١٥٥ .
(٣) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٥١ .
(٤) عن شئون الزراعة وما يتصل بها في بلاد الشام خلال تاريخها كله انظر ، محمد كرد علي : خطط الشام جـ٤ ص ١٣١-١٩٨ .
(٥) احمد رمضان : المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ص ١٠٨ .
(٦) جورجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي جـ١ ص ٢٠٠ ؛ احمد رمضان : المرجع السابق ص ١٠٨ .

واشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج المموه بالمينا والخزف ، وبلاطات القاشاني ،وكان الزجاج الشامي يضرب به المثل في الرقة والصفاء ،فيقال : " أرق من زجاج الشام " وكانت معامل الزجاج في حلب ، وارمناز المجاورة لها مشهورة بصناعته وتصدره الى العراق حيث يتم استخدامه والتباهي بجماله في قصور الخلفاء واشتهرت الخليل بصناعة المصابيح الزجاجية الجميلة ،وتنوعت المصنوعات الشامية من الزجاج ، فظهرت الاواني المزجاجية الزخرفية والأكواب والاباريق وغيرها ، وعن طريق بلاد الشام انتقلت صناعةالزجاج الى اوربا زمن الحروب الصليبية.(١)

اما صناعةالفخار الذى يحتاج لتربة ملائمة فقد تركز في بلدة أرمناز المجاورة لحلب حيث " يعمل بها قدور وشربات جيدة حمر طينية ".(٢)

واشتهرت بلاد الشام بالصناعات الجلدية مثل السروج والاحذية والاحزمة والمطارح والمقاعد وغيرها وتصدر الفائض الى البلدان الأخرى.(٣)

وكانت صناعةالحديد والنحاس مزدهرة في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين . ولا سيما الادوات المصنوعة من النحاس الاصفر والاحمر والبرونز المكفت بالذهب والفضة والتي زخرت بها الاسواق الشامية واقبل على شرائها الصليبيون.(٤) ولا زال في مستودع الجامع الأموي بدمشق بقايا مصنوعات نحاسية من هذا العصر

----

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ج٤ ص ٢١٧-٢١٨.

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان مادة ارمناز ج١ ص١٥٨.

(٣) محمد كرد علي : خطط الشام ج٤ ص ٢٠٦ ؛ احمد رمضان : المجتمع الاسلامي في بلاد الشام ص١٢٣.

(٤) احمد رمضان : المرجع السابق ص١٢٣.

تدل على اتقان النحاسين والحدادين لصناعتهم في هذا العصر [١]

وتفوقت صناعة السيوف الدمشقية على ما سواها فتفنن الصياقلة في صنعها من اجود انواع الحديد ،وقد عرفت بصفاء مائها واخضرار لونها وارهاف حدها وشدة لمعانها ،وكانت تكتب عليها ايات واشعار بماء الذهب ، وكذلك على الخناجر والرماح ،وقد عرفها الصليبيون و تقلدوها وغدوا يفاخرون بلبسها واقتنائها ،كما ان صناعة تنزيل الذهب على السيوف والخناجر والمدى من اهم الصناعات الشامية [٢] .

اما صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية فتعتبر بلاد الشام من أعرق بلدان الدنيا في هذا الميدان ، فقد اشتهرت بعلبك بهذه الصناعة منذ أقدم العصور ،كما اشتهرت صفد بالثياب الصفدية واشتهرت حمص بمصنوعاتها من الثياب والفوط وغيرها ،وليس ادل على تفوق صناعة المنسوجات الشامية من أن اسم الدمقس مشتق من اسم مدينة دمشق ومنها انتشر الى سائر البلاد [٣] .

وخلاصة القول ان بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية كانت من اشهر مناطق العالم بمنتجاتها الصناعية [٤] .

---

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ص ١٢٣ .

(٢) المرجع نفسه ج٤ ص ٢١٣-٢١٤ .

(٣) المرجع نفسه ج٤ ص ٢٠٠- ٢٠٢ .

(٤) للمزيد من التفصيل عن الصناعات الشامية انظر خطط الشام ج٤ ص ١٩٩- ٢٣٢ .

التجـــارة :

من المعروف أن بلاد الشام تتمتع بموقع تجارى هام حيث تتوسط مع مصر قارات العالم القديم وقد منحها ذلك الموقع مكانة فريدة منذ أقدم العصور .

ولقد كان للاسباب الاقتصادية التجارية اكبر الاثر في تحريك القوى البحرية التجارية الايطالية - جنوا ، بيزا ، البندقية - للاسهام في الحركة الصليبية وتقديم المساعدات للصليبيين مقابل ما حصلت عليه تلك الدول التجارية من امتيازات واسعة في موانيء الشام ومدنه التي سقطت بأيدى الصليبيين ، ولم يلبث التجار الاوربيون أن اسسوا لانفسهم مراكز ثابتة في عكا وصور وصيدا ، والسويديه واللاذقية وغيرها من الموانيء . وشرعوا في جلب المنسوجات القطنية والحريرية والاواني الزجاجية المصنوعة في بلاد الشام والعلاج والاخشاب والعقاقير ، والتوابل الواردة من الشرق الاقصى ، وتصديرها الى أوربا ، وكانت تلك المواد تأتي بواسطة القوافل عن طريق الجزيرة العربية والعراق وتصل الى دمشق ومنها الى موانيء الشام الساحلية حيث يتم شحنها الى الغرب.(١)

وعلى الرغم مما داربين المسلمين والصليبيين من عداء وصراع طويل اكثر من قرنين من الزمان ، فان التجارة بين الجانبين ظلت قائمة وبخاصة حين يتوقف القتال وتعقد الهدنة بين الطرفين ، وليس أدل على ذلك ما ذكره ابن جبير في رحلته حين زار بلاد الشام ورأى التبادل

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١١٩٩ - ١٢٠٠ .

التجارى القائم بين المسلمين والصليبيين فقال: "ومن أعجب ما يحدث في الدنيا ان قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين"(١) كما اشار ابن جبير الى رحيله في قافلة الى عكا حيث نزلت القافلة بامان في مكان معد لنزول القوافل الاسلامية(٢). ومما يبرهن ايضا على ما اصابته التجارة من حرية وامان في هذا العصر أن الصليبيين قدموا الى دمشق سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠م لشراء السلاح من أسواقها لمحاربة المسلمين أنفسهم وذلك بعد أن تحالف الملك الصالح اسماعيل مع الصليبيين ضد ابن اخيه الصالح نجم الدين ايوب صاحب مصر، فافتى شيخ الشافعية حينذاك عز الدين بن عبد السلام بعدم جواز بيع الاسلحة للصليبيين طالما تستخدم لقتل المسلمين(٣).

ولم تفقد بلاد الشام أهميتها التجارية الا بعد غزو المغول للعراق وقفلهم طريق الخليج العربي الذى كان يرتبط ببغداد ودمشق وموانىء الشام، واتخذ المغول الطريق البرى عبر امبراطوريتهم حتى البحر الاسود ثم أوربا دون الحاجة للمرور ببلاد الشام(٤).

----

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧١.

(٢) المصدر نفسه ص٢٧٥.

(٣) انظر ما سبق الفصل الثالث ص ٣٠٨.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٢٠٠

أهم المنشآت العمرانية والمرافق العامة :

من الطبيعي ان ينعكس الازدهار الاقتصادى والثراء المالي في أى بلد من البلدان على المنشآت العمرانية والمرافق العامة ،إذ أن السيولة النقدية تتيح للسلطات الحاكمة القيام بالمشروعات العامة لرفع مستوى المعيشة للسكان وتوفير اسباب الراحة لهم . ولأن بلاد الشام شهدت خلال هذه الحقبة فترات من الثراء المالي والازدهار الاقتصادى فقد ادى ذلك الى قيام الحكام بكثير من المشروعات هدفت الى رفع مستوى السكان في بلاد الشام .

وقد حظيت حلب بكثير من المنشآت العمرانية والمرافق العامة ففي سنة ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م قام ملك حلب الظاهر غازى بن صلاح الدين بانشاء مرفق بالغ الأهمية وهو شبكة مياه لمدينة حلب ، فقد كانت تقع الى الشمال من حلب قرية تسمى حيلان بها عين فوارة كثيرة المياه تسيح الى ناحية حلب على شكل نهر ، وقد افاد الحلبيون منها في عصور سابقة (١) . ولكن الظاهر أحضر المهندسين والصناع و خرج بنفسه معهم الى منبع هذه العين وبعد أن درسوها اخبروه بأنه يمكن توزيعها على جميع احياء وشوارع حلب ودورها ومدارسها واربطتها ، و تبقى كمية اخرى من المياه تكفي البساتين والاراضي الزراعية بحلب ،فأمر بالشروع في العمل وساهم بنفسه فيه واحضر جميع امرائه للاشتراك فيه ،وأمر بقياس المسافة من حيلان الى باب مدينة حلب فكانت خمسة وثلاثين الف ذراع ،بذراع النجارين وهو ذراع و نصف ، ثم قسم تلك المسافة على الامراء واتباعهم و معهم الصناع والعمال ،

----

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، مادة حيلان جـ٢ ص ٣٣٢ ؛ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ ص ١٤٣ .

وحمل اليهم الكلس والزيت والحجارة والآجر وتم اصلاح القناة وتغطيتها ،وامر بترك مواضع بدون غطاء لتنقية المياه خلالها و تفقد المجرى ، وتم اكمال المجرى الى حلب في ثمانية وخمسين يوما ثم شرع في انشاء القنوات داخل مدينة حلب (١).

وقد افرد ابن شداد في كتابه الأعلاق الخطيرة فصلا كاملا عن هذه الشبكة المائية التي أنشأها الظاهر وقدّم شرحا مستفيضا للقنوات الفرعية التي توزعت على جميع أحياء حلب ودورها ومدارسها واربطتها ومساجدها وغير ذلك ،وذكر أسماء الصهاريج والاحواض التي تتجمع فيها المياه الأخرى التي تتوزع فيها وبعد أن أفاض في الشرح قال " وهذا آخر ما جدده الملك الظاهر وأنشأه من القساطل التي تجرى فيها المياه و ينتفع بها سوى ما هو سائح الى برك المساجد والمدارس والربط والحمامات والدور والبساتين وغير ذلك ، وصرف على هذه القساطل والطرقات اموالا كثيرة ووقف عليها الملك الظاهر اوقافا سنية" (٢) وهكذا نعمت حلب بشبكة مائية فريدة قل أن نجد لها نظيرا في المدن خلال العصور الوسطى .

و لم تقتصر اصلاحات الظاهر ومنشآته على شبكة المياه هذه ، بل قام

----

(١) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة جـ١ ص ١٤٤ - ١٤٥ ؛ وانظر أيضا : تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٧٧ - ٧٨ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٦٣ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٨٦-١٨٧ ؛ابو الفدا :المختصر جـ٣ ص ١١١ .

(٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ ص ١٤٥-١٤٩ - والقسطل في لغة أهل الشام هو الموضع الذى تفترق منه المياه ،انظر : ياقوت : معجم البلدان ،مادة قسطل جـ٤ ص ٣٤٧ .

باصلاحات واسعة في اسوار حلب فبنى سورا جديدا ظاهر السور القديم وبنى به ابرجة جديدة وكبيرة كأنها القلاع ،وأنشأ بتلك الابراج أبوابا ضخمة وأمر بحفر خندق خارج السور ، وكان على الدوام يشرف بنفسه على سير العمل في هذه المنشآت . وقد انتهى العمل في هذه المشروعات سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م (١) .

وظلت التجديدات والاصلاحات قائمة في اسوار حلب و قلعتها زمن الظاهر غازى وطوال العصر الأيوبي حتى سقوط حلب بيد المغول سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م (٢) مما يشير الى توفر الأموال اللازمة لتلك المنشآت العمرانية والمرافق الواسعة .

أما في دمشق وجنوب بلاد الشام فقد شهدت هذه المنطقة منشآت ومرافق واصلاحات طوال هذه الحقبة فبالاضافة الى عشرات المدارس التي أنشئت خلال هذه الفترة ،فقد قام السلطان العادل سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م باصلاح قلعة دمشق ،فهدم ابنية قديمة بها ،وأعاد بناء سورها وجعل به اثنى عشر برجا كل برج منها كأنه قلعة صغيرة وحفر حولها خندقا عميقا واجرى الماء اليه زيادة في التحصين (٣) ، كما شرع العادل في السنة نفسها

---

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج ١ ص ١٧ ؛ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٦٥- ١٦٧ .

(٢) انظر ابن العديم : بغية الطلب مخطوط اياصوفيا لوحة ١٢٢ ؛ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج١ ص ١٨-٢١ ؛ ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص ١٠٨ ؛ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٩٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٩٦ .

(٣) ابن طولون : الشمعة المضية في اخبار القلعة الدمشقية لوحة ١ ؛ العيني : عقد الجمان ج٣ لوحة ٣٠٩ ؛ الخطيب العمرى : الدر المكنون ورقة ١١ ب ؛ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج٢ ص ٣٩ ؛ ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص٦ ٥ ؛ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٨٢ ؛ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص٣٤ ؛أبو الفدا : المختصرج٣ ص ١٠٩ ،المقريزى : السلوك ج١ ص ١٦٨ .

في بناء فصيل (١) دائر على سور دمشق بالحجر والجير وامر بتعميق الخندق الخارجي واجراء الماء اليه (٢) .

وفي سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م زمن السلطان العادل بدأ العمل في مصلى كبير خاص بالعيدين خارج دمشق وبني له منبر كبير عال (٣) . وفي السنة نفسها جددت ابواب الجامع الأموى من الجهة الغربية بالنحاس الاصفر (٤) . وامر العادل بتبليط صحن الجامع وأروقته الداخلية (٥) .

وأنشأ المعظم بن العادل الكثير من المرافق العامة والمنشآت العمرانية في جنوب بلاد الشام ، فحين سلمه والده العادل الكرك سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م زاد في عمارته وتحصيناته ونقل اليه ارباب الصناعات المختلفة حتى اصبح مدينة متكاملة مكتفية بمواردها كما قام بزراعة الحدائق والاشجار في قرى الكرك وأجرى خلالها العيون (٦) .

وفي جبال الغور الشرقية انشأ المعظم قلعة جديدة جنوب عجلون هي قلعة الصلت وقد اختار لها موقعا هاما على جبل يعرف برأس الامير وحصنها تحصينا كبيرا وادخل الماء اليها من عين مجاورة (٧) .

----

(١) الفصيل : حائط دون الحصن او دون اسوار المدينة ،انظر ابن منظور : لسان العرب مادة فصيل.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ١٤١ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٤٩ .

(٣) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٧٦ ؛ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٥٧ .

(٤) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٧٦ .

(٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٢ ص ٧٧ ؛المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٨٠ .

(٦) ابن شداد :الاعلاق الخطيرة جـ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٧٣ .

(٧) المصدر نفسه جـ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٨٣-٨٤ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى جـ٤ ص ١٠٦ .

اما حصن الشوبك القريب من الكرك فحين تسلمه من والده قام بتحصينه وتجميله وزراعته " ونقل اليه الأشجار من سائر الاقطار حتى صار يضاهي دمشق في روائها ،وتدفق مياهها وطيب هوائها".(١)

ووجه المعظم اهتمامه لتوفير سبل الراحة والطمأنينة للحجاج الوافدين من شمال الشام ودمشق واسيا الصغرى صوب الاراضي المقدسة فقام ببناء حمامين قرب مدينة معان شرقي فلسطين ،احدهما للرجال والآخر للنساء وأقام الدور والخانات لراحة الحجاج والمسافرين عبر هذه المناطق ، كما عبد الطريق و مهد الاجزاء الوعرة منه ،وغرس الاشجار على جانبي الطريق من بلاد الشام الى اطراف الحجاز لتوفير الظل للمسافرين كما أنشأ صهاريج المياه في طريق الحجاج ،وقد قرر أن يبنى في كل منزلة الى الاراضي المقدسة بالحجاز داربها جميع وسائل الراحة للحجاج والمعتمرين والمسافرين ،وبنى المساجد في طرق المسافرين ،كما بنى القلاع والحصون على طول الطريق لحمايتهم ،واوقف على كل ذلك الاوقاف الجليلة لضمان قيام تلك المرافق بخدماتها.(٢)

أما الملك الأشرف فحين أصبح ملكا على دمشق سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م قام بعدد من الاصلاحات فبنى دار الحديث النبوى بعاصمة الشام وأوقف

----

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٨٠.

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٨ ب ؛الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٥٢ ب ؛سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص٦٤٩ - ٦٥٠ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٥٢ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص٢٨٤ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص٥٨٤ - ٥٨٥.

عليها اوقافا كثيرة وجعلها خاصة بتدريس حديث النبي صلى الله عليه وسلم.[(١)]

وكان باحد احياء دمشق خان تباع فيه الخمور و تنتشر به المفاسد فأمر بهدمه وأنشأ مكانه جامعا تصلى فيه الصلوات الخمس والجمع وسماه جامع التوبة وجعله في غاية الحسن والجمال وأوقف عليه اوقافا حسنة[(٢)]. كما بنى الاشرف ثلاثة مساجد اخرى بدمشق[(٣)]. وبنى القصور الجميلة ومنها قصره بالنيرب - احدى ضواحي دمشق - الذى اضحى من اجمل القصور في بلاد الشام[(٤)].

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، جـ ٦ لوحة ٣٩٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٤٢-١٤٣ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهرية جـ١ ص ٩٥ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٢٢ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢٩٥.

(٢) العليمي : تاريخ من ملك مصر وعكا وحلب والشام والسواحل ورقة ١١٤ أ ب ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٣ ب - ٢٠٤ أ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٩٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٤٣ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣١٣.

(٣) ابن ايبك : كنز الدرر جـ٧ ص ٣٢٢.

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٩٤ - ٣٩٥ ؛ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ١٤٣- ١٤٤.


الخاتمة

الخاتمة

بحمد الله وتوفيقه انتهى موضوع البحث الذى قام بدراسة شاملة لأوضاع بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ،وقد اوضحت الدراسة الكثير من الحقائق اهمها : أن الدولة الأيوبية ورثت نظم الحكم وفلسفته عن الدولة السلجوقية الأم - شأنها في ذلك شأن الدولة الزنكية - وأسوأ ما ورثته من تلك النظم ، أنه كان ينظر الى الدولة على أنها ارث يقسم بين ابناء السلطان بعد موته ، وقد أدت تلك النظرة الى تمزق الدولة وضعفها وكان ذلك من أهم الاسباب التي أودت بحياتها في نهاية المطاف.

وقد اظهرت الدراسة افتقار ابناء صلاح الدين الى الكثير من صفات القيادة العسكرية الفذة ،والحنكة السياسية النافذة التي اشتهر بها والدهم ، فلم يستطع أحد منهم بسط نفوذه على الدولة الأيوبية ،الامر الذى هيأ الفرصة لعمهم العادل لكي يهيمن على اجزاء الدولة الأيوبية ويوحدها من جديد تحت قيادته مستغلا ما دار من نزاع بين أبناء أخيه .

كما برهنت الدراسة على ما نجم عن الاقطاع الحربي الأيوبي من آثار سيئة على الأوضاع السياسية في بلاد الشام ،إذ تطلع الأمراء المقطعون الى محاولة نيل استقلالهم عن ملوك بني أيوب ،وتأكيد سيطرتهم على اقطاعياتهم في بلاد الشام. كما أن ولاء أولئك الأمراء ارتبط بمقدار مايمنحه لهم ملوك بني أيوب من اقطاعات ،وكانوا - أى الأمراء المقطعون - على استعداد دائم لتغيير ولائهم لمن يمنحهم اقطاعات اكبر وأكثر ايرادا ،الأمر الذى زاد من تدهور بلاد الشام ،وأوصلها الى درجات خطيرة من التفكك والاضطراب .

واتضح من الدراسة أن قيام الممالك الأيوبية الصغيرة في بلاد الشام مثل حلب وحمص وحماه وبعلبك كان من عوامل القلق السياسي ، الأمر الذى تمخض عنه زيادة حدة الخلافات وتعميق الانقسامات ووصول بلاد الشام الى مرحلة من التمزق أصبحت معها محاولات الاصلاح غير مجدية . ومما زاد الأمور سوءا واضطرابا أن مقاليد الحكم داخل الممالك الصغيرة أصبح مثار خصام بين الاخوة ،فتعقدت المشكلات وتفاقمت المنازعات مما عاد بأوخم العواقب على أوضاع بلاد الشام .

ومن النتائج التي توصل اليها البحث أن القبائل العربية لم تلعب دورا مؤثرا في تاريخ بلاد الشام وجهاد الصليبيين قبيل الغزو المغولي ، بعكس ما اشتهر عن أثر القبائل العربية في تاريخ بلاد الشام خلال القرون الأولى (من القرن الأول الى الخامس الهجرى) ويعود سبب ذلك الانكماش لدور القبائل العربية الى أنها فقدت نفوذها السياسي منذ زمن بعيد لحساب العناصر التركية والكردية ،ولم يبق لها من المكاسب ما تدافع عنه .

ومن الحقائق التي اثبتتها الدراسة أن السلطان العادل لم يستفد من الدرس الماثل أمامه ،حين اقتسم أبناء اخيه صلاح الدين المملكة وترتب على ذلك نشوب النزاع بينهم ، فعمد السلطان العادل الى تقسيم المملكة مرة اخرى بين أولاده الأمر الذى أدى الى وقوع المنافسات بينهم - مثلما حدث بين أبناء صلاح الدين - وتطورت تلك المنازعات الى الاستعانة بقوى خارجية - اسلامية وغير اسلامية - مما عاد بأفدح الضرر على الجبهة الاسلامية ازاء الصليبيين وأدى الى تدهور الدولة الأيوبية وتبديد مواردها . ذلك أن النزاع بين أبناء السلطان العادل وصل الى نقطة بالغة الخطورة على

بلاد الشام ،فالمعظم بتحالفه مع جلال الدين الخوارزمي أثار طمع الخوارزمية في بلاد الشام والجزيرة ، ووقع الملك الكامل في عزلة سياسية كاملة بعد أن أضحى عاجزا عن مساعدة أخيه الاشرف ضد الخوارزمي بسبب منع المعظم للمساعدات القادمة من مصر الى الأشرف مما حفز الكامل للاستعانة بالامبراطور فردريك الثاني الذى جاء على رأس حملة صليبية صغيرة ،وتسلم من الكامل بيت المقدس دون قتال . وهكذا اصبحت أطماع أبناء العادل في املاك بعضهم البعض مدعاة للقلق والاضطراب السياسي في وقت كان يتحتم فيه عليهم توحيد القوى البشرية الاسلامية وحشد الطاقات المادية لمواجهة عدوان الصليبيين المستمر على بلاد الشام و مصر ،اضافة الى وجوب الاستعداد وبناء جبهة اسلامية متحدة ،ولا سيما أن خطر المغول بدأ يظهر للعيان .

كما نجم عن المنازعات بين خلفاء السلطان العادل نتائج وخيمة على الحالة الاقتصادية فيبلاد الشام حينما كانت أطراف النزاع تتبادل الغارات ضد بلاد بعضها البعض الأمر الذى تمخضعنه أضرار بالغة على صغار المزارعين وعامة السكان الذين ليس لهم مصلحةفي تلك المنازعات ولكنهم دفعوا ثمنا باهظا دون مبرر .

وبينت الدراسة أن اندلاع الحرب الأهلية بين الأيوبيين في بلاد الشام قضى على الكثير من القيم والمفاهيم ،فأصبح بعضملوك بني أيوب لا يتحرجون حتى عن التحالف مع الصليبيين ضد بعضهم البعض بل وتسليم بلاد المسلمين للصليبيين ثمنا لذلك التحالف ،والسير بعساكرهم تحت أعلام الفرنج وصلبانهم الأمر الذى قضى على هيبة الدولة الأيوبية ، تلك الدولة التي قامت أساسا برفع راية الجهاد ضد الصليبيين لتحرير

الأراضي التي اغتصبوها من بلاد الشام . وبوقوع الدولة الأيوبية في أتون تلك المنازعات الداخلية المستمرة فقدت مبرر وجودها الشرعي ،فعلى سبيل المثال تعرضت دمشق عاصمة بلاد الشام منذ وفاة صلاح الدين وحتى عشية الغزو المغولي للحصار والاستيلاء من قبل الأيوبيين أكثر من عشر مرات في الوقت الذى لم تتعرض فيه المدن الرئيسة الخاضعة للصليبيين مثل عكا وصور وانطاكية لحصار واحد من قبل الأيوبيين .

وتجدر الاشارة الى أن الحروب التي اندلعت بين الايوبيين في بلاد الشام وبينهم وبين الخوارزمية ثم دخول طائفة المماليك البحرية أخيرا في منازعات بلاد الشام ،كل تلك الحروب أهدرت الكثير من الطاقات البشرية والمادية للمسلمين ،والتي كان يمكن ادخارها لجهاد الصليبيين ودرء خطر المغول .

واتضح من البحث أن الدولة الأيوبية أفادت من شراء المماليك وتجنيدهم في تحقيق بعض المكاسب الآنية ، غير أن المماليك هم الذين قضوا على الدولة الأيوبية في نهاية المطاف .

والحق أن الدولة الأيوبية في بلاد الشام ومصر أخذت منذ سنة ٦٣٥هـ/ تعاني آلام الموت التدريجي البطيء . واذا كانت الدولة الأيوبية بدت بعد انتصار الصالح أيوب على منافسيه وتوحيد مصر والشام (٦٤٢ - ٦٤٧هـ) وكأنها استعادت قوتها وعنفوانها ،فان ذلك كان مجرد صحوة مؤقتة وأخيرة بل هي أشبه بصحوة الموت التي تسبق القدر المحتوم .

وبرهنت الدراسة على فتور تيار الجهاد ضد الصليبيين بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي ،فتوقفت حركة الاسترداد المنظم للبلاد المغتصبة ، واقتصر موقف المسلمين على الدفاع وشن الغارات المضادة ردا على الحملات

والغارات الصليبية المتتالية . كما لم يدرك خلفاء صلاح الدين أبعاد الاستراتيجية العظيمة التي وضعها صلاح الدين وهي اقامة جبهة اسلامية متحدة من النيل الى الفرات لوضع الصليبيين بين شقي الرحى ،وفرطوا - دون وعي منهم - في تلك الوحدة مما كان له أسوأ الأثر على الموقف الاسلامي برمته ازاء الوجود الصليبي .

وقد أوضح البحث أنّ السلطان العادل لم يوغل كثيرا في الضغط على الصليبيين في بلاد الشام حتى لا يستثير أوربا والبابوية لتجريد حملات جديدة بعد أن ادرك ان كل كارثة تحل بالصليبيين في بلاد الشام يعقبها رد فعل عنيف لدى البابوية والغرب الأوربي فيقومون بتجريد حملة جديدة للانتقام من المسلمين .

ومن الحقائق التي أثبتتها الدراسة ان الصليبيين أدركوا منذ بداية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى أن مصر تمثل مركز المقاومة الاسلامية الرئيس لما تمتعت به من موارد ضخمة فضلا عن موقعها الفريد ، ولذلك توجهت نحوها الحملات الصليبية بغية الاستيلاء عليها حتى يمكن بعد ذلك ضمان السيطرة الدائمة على الاراضي المقدسة في بلاد الشام.

واتضح من الدراسة الأهمية البالغة للوحدة والتضامن بين الحكام المسلمين ،فحين اتفق الاخوة الثلاثة أبناء السلطان العادل - الكامل والمعظم والأشرف - تمكنوا من دحر الحملة الصليبية الخامسة رغم أنها تكونت من عشرات الألوف من الصليبيين على اختلاف أجناسهم ،وفشلت الحملة فشلا ذريعا في تحقيق أىّ هدف من أهدافها . وعندما دب النزاع بين الاخوة الثلاثة بعد هزيمة الصليبيين ،أدى ذلك الى مجيء حملة صليبية صغيرة - الحملة السادسة - بقيادة فردريك الثاني وكان عدد أفرادها لا يتجاوز بضع مئات من المحاربين ،واستطاعت - بسبب الصراع بين أبناء

العادل - الحصول على بيت المقدس من السلطان الكامل دون قتال . وهذا يوضح حقيقة كبرى وهامة في تاريخ الحروب الصليبية - بل وفي كل صراع بين المسلمين وأعدائهم - وهي أنه كلما اتحدت القاهرة ودمشق تحقق النصر الحاسم على أعداء المسلمين وحينما تنقسم العاصمتان وتختلفان ينعكس ذلك على الجبهة الاسلامية فيخسر المسلمون جولات الصراع مع الأعداء .
فعندما اتحدت دمشق مع القاهرة زمن الحملة الصليبية الخامسة أدى ذلك الى فشل الحملة رغم قوتها وضخامتها ولما اختلفت العاصمتان نجحت الحملة السادسة رغم ضعفها وقلة مواردها - وبدون قتال - في انتزاع بيت المقدس من المسلمين . كما ترتب على الحرب الأهلية بين دمشق والقاهرة إعطاء الصليبيين بيت المقدس واجزاء اخرى من مدن فلسطين وسواحل الشام ، وحينما عادت الوحدة بين دمشق والقاهرة زمن الصالح أيوب أدى ذلك الى فشل حملة لويس التاسع على مصر .

وبرهنت الدراسة على خطأ سياسة هدم أسوار وتحصينات المدن الاسلامية خوفا من وقوعها بأيدى الفرنج ، مثل قيام الملك المعظم عيسى بن العادل بهدم اسوار وتحصينات بيت المقدس متوقعا سقوطه بيد الصليبيين زمن الحملة الصليبية الخامسة ، وبعد أن فشلت الحملة ظهر ذلك الخطأ واضحا جليا . فمن المؤكد أن بقاء بيت المقدس مدينة مفتوحة - بعد هدم اسوارها وتحصيناتها - هو الذى ساعد على قبول السلطان الكامل للتخلي عن بيت المقدس وتسليمها للامبراطور فردريك الثاني . إذ لو بقيت أسوارها وتحصيناتها على حالها ، لتمكن الكامل من ابقاء حامية بها للدفاع عنها وانصرف هو لتحقيق أهدافه في السيطرة على دمشق .

ومن الحقائق التي أثبتتها الدراسة أن الهزيمة الساحقة التي حلت

بالصليبيين في معركة غزة وقعت خلال الحرب الأهلية بين ملوك الشام وبين الصالح أيوب ،ولم تكن المعركة موجهة أساسا لجهاد الصليبيين مثل معركة حطين ،وانما كان هدف الصالح أيوب محاربة أعدائه من ملوك الشام الذين تحالفوا مع الصليبيين بغية القضاء عليه ،واستطاعت قواته بمساعدة الخوارزمية من انزال الهزيمة بملوك الشام وحلفائهم الصليبيين . ولكن هذه المعركة الحاسمة هي التي قررت مصير الصليبيين في بلاد الشام لأنها قضت على البنية الأساسية لقواتهم ،ولم يعد لهم بعدها من الطاقة والقدرة ما يستطيعون به مواجهة المسلمين في ميدان مكشوف . واذا كانت بقايا الصليبيين في بلاد الشام استمرت بعد معركة غزة اكثر من ربع قرن من الزمان فان سبب ذلك هو انشغال المسلمين في بلاد الشام بالمنازعات فيما بينهم عشية الغزو المغولي ، ثم انصراف دولة المماليك الفتية لتوطيد نفوذها في مصر ثم التصدى للمغول وطردهم من بلاد الشام وابعاد خطرهم الى ما وراء الفرات.

ومن النتائج التي توصل اليها البحث أن حملة ملك فرنسا لويس التاسع على مصر والشام أوقعت اليأس والاحباط في نفوس الصليبيين في الغرب الأوربي واقتنعوا بعدم جدوى إرسال الحملات الصليبية الى الشرق . كما أن تلك الحملة لم تحقق أية مكاسب قيمة للصليبيين في بلاد الشام ولم تطل في عمر الوجود الصليبي داخل بلاد المسلمين ،وأصبح ذلك الوجود الغريب والدخيل مرتبطا بالنتائج التي ستتمخض عن قيام دولة المماليك والغزو المغولي لبلاد الشام.

وأوضحت الدراسة حرص ملوك بني أيوب على الارتباط بالخلافة العباسية في بغداد لاكساب حكمهم الصبغة الشرعية نظرا لأن الخلافة

العباسية كانت تمثل - وقتذاك - رمز وحدة المسلمين ،كما أنها حاولت - قدر استطاعتها - إيجاد حلول للمنازعات التي نشبت بين ملوك الأيوبيين في بلاد الشام ومصر ثم بينهم وبين دولة المماليك بعد قيامها بغية توحيد صفوف المسلمين ولا سيما وأن الخلافة العباسية كانت أكثر إحساسا بخطر المغول الذى بدأ يلوح في الأفق منذ أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجرى .

وتبين من البحث أن" سلاجقة الروم لم يكونوا على وعي تام بطبيعة الحركة الصليبية ،ولذلك لم يتعاونوا مع الأيوبيين على درء الخطر الصليبي ، بل سببوا خطرا شديدا للأيوبيين زمن الحملة الصليبية الخامسة حينما هاجموا شمال الشام في وقت كان يجب فيه عليهم - باعتبارهم مسلمين - تقديم العون والمساعدة للأيوبيين لمواجهة الحملة الصليبية الخامسة التي هددت بلاد الشام ومصر. كما صرف الأيوبيون وسلاجقة الروم جهودهم وامكاناتهم في معارك جانبية لا طائل من ورائها مثل الحملة الضخمة التى قادها السلطان الكامل ضد سلاجقة الروم ، والتي كان لها آثار سيئة على الدولة الأيوبية وعلى وحدة البيت الأيوبي نفسه ، فضلا عن فشلها في تحقيق أية مكاسب على حساب سلاجقة الروم. ولو وجه السلطان الكامل تلك الحملة ضد الصليبيين في بلاد الشام لاحرز الكثير من الانتصارات ضدهم ولتمكن من تدعيم وحدة بني أيوب ورفع مكانتهم آنذاك في نظر عامة المسلمين .

وأثبت الدراسة أن جلال الدين الخوارزمي استنفد قواه في صراع مرير مع الأيوبيين وسلاجقة الروم ولم يحاول التضامن معهم لدرء خطر المغول وهو الأمر الذى ساعد على سقوطه سريعا امام جحافل المغول

وانفرادهم ببقية القوى الاسلامية الواحدة تلو الأخرى .

ومن النتائج التي توصل اليها البحث ،أنه بعد كل ما أصاب بلاد الشام من تمزق سياسي وحروب أهلية طويلة جاء الخوارزمية بغاراتهم المدمرة وأضافوا المزيد من أسباب التدهور والانهيار ،اذ أن الخوارزمية دأبوا على محاكاة المغول في نهب وتدمير كل المناطق التي يمرون بها ، ولم يؤثر اسلامهم في سلوكهم اذ كانوا يرون أن لهم الحق في نهب كل مكان تصل اليه أيديهم. ولقد عانت بلاد الشام كثيرا على أيدى الخوارزمية قبيل الغزو المغولي . غير أنه من ناحية أخرى كان لدخول الخوارزمية الى بلاد الشام أثر بعيد في تعديل ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين فبعد أن تحول الموقف لصالح الصليبيين منذ حملة فردريك الثاني جاء الخوارزمية وتحالفوا مع الصالح أيوب وسحقوا الصليبيين في معركة غزة الحاسمة والتي كانت إيذاناً بانهيار بقايا الوجود الصليبي لأنها مهدت السبيل فيما بعد لسلاطين المماليك لاقتلاع جذور الوجود الصليبي نهائيا من بلاد الشام.

وقد اتضح من البحث مدى الروح الصليبية المتعصبة لدى مملكة أرمينية الصغرى ازاء المسلمين ،فتحالف الأرمن مع الصليبيين ومارسوا سياسة صليبية حاقدة ضد الاسلام والمسلمين ،حتى أنهم تطلعوا في نهاية المطاف الى التحالف مع المغول بهدف القضاء على المسلمين في بلاد الشام.

ومن النتائج التي أثبتتها الدراسة ،عدم وعي القوى الاسلامية في بلاد الشام والجزيرة وآسيا الصغرى بمدى وأبعاد الخطر المغولي ولا سيما حين أخذ المغول منذ وقت مبكر في الاغارة على العراق والجزيرة لمراقبة

القوى الاسلامية في هذه المناطق ومعرفة امكاناتها وقدراتها على الدوام تمهيدا للغزوة الكبرى التي قادها هولاكو. كما لم يدرك حكام المسلمين في بلاد الشرق الأدنى مغزى سياسة المغول التي قامت على أساس الانفراد بكل دولة اسلامية على حدة حتى يسهل القضاء عليها جميعا ، فأخضع المغول دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى سنة ٦٤١هـ/ وطوقوا بذلك العراق والجزيرة وبلاد الشام من الشمال والشرق ،الأمر الذى سهل من مهمة هولاكو فيمابعد. واستمر عدم وعي الأيوبيين بخطر المغول الى أن بدأ زحف هولاكو على العراق والجزيرة وبلاد الشام ،وليس أدل على ذلك من المواقف المتناقضة للناصر يوسف صاحب الشام ازاء المغول.

وأخيرا وبعد قيام الباحث بهذه الدراسة والتأمل في تاريخ الدول الاسلامية التي عاصرت الحروب الصليبية ، فقد خَلُصَ الى نظرية في تفسير قيام تلك الدول الاسلامية وسقوطها وهي : أن الدول الاسلامية اكتسبت شرعية وجودها ، منذ عهد الدولة السلجوقية حين بدأ الغرب النصراني في هجومه الصليبي الحاقد ضد الاسلام والمسلمين - من اقامتها لفريضة الجهاد كما أمر بها القرآن الكريم والأحاديث الشريفة. وما أن تتخلى تلك الدول او تتقاعس عن اقامة تلك الفريضة حتى تفقد مبرر وجودها الشرعي وتسقط لتحل محلها دولة أخرى تقيم فريضة الجهاد ، فالدولة السلجوقية اكتسبت شرعية وجودها من قيامها بجهاد البيزنطيين وحينما عجز سلاجقة الشام عن القيام بصد الحملة الصليبية الأولى سقطوا وحلت محلهم الدولة الزنكية التي قامت باداء الجهاد خير قيام زمن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ، وحين عجزت الدولة الزنكية عن اقامة فريضة الجهاد بعد موت نور الدين حلت محلها الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين

الذى أقام فريضة الجهاد في أبهى وأجل صورها ،واستمر اداء تلك الفريضة بصورة أقل في عهد أخيه العادل . وحينما اخفق خلفاؤه من بعده في جهاد الصليبيين فقدت الدولة مبرر وجودها وشرعيته وسقطت بأيدى مماليكها (دولة المماليك) الذين اكتسبوا الشرعية لدولتهم من جهادهم وهزيمتهم للمغول واقتلاع الوجود الصليبي من جذوره في بلاد الشام ودرء الأخطار عن بلاد المسلمين .


الملاحق

الملاحق

الملحق الأول :

بداية الحرب الأهلية واستيلاء السلطان الكامل على دمشق سنة ٦٢٥ هـ .

الملحق الثاني :

الناصر داود واستعادة بيت المقدس من الصليبيين سنة ٦٣٧ هـ .

الملحق الثالث :

حملة كيكاوس على حلب وشمال الشام سنة ٦١٥ هـ .

الملحق الرابع :

سياسة ملك الأرمن ازاء امارة انطاكية وموقف ملك حلب

الملحق الخامس :

نص رسالتين بعث بهما الامبراطور فردريك الثاني الى صديقه فخر الدين بن شيخ الشيوخ وزير السلطان الكامل سنة ٦٢٧هـ .

الملحق السادس :

ثبت باسماء الحكام في بلاد الشام وبعض البلدان الأخرى خلال فترة البحث .

الملحق الأول

بداية الحرب الأهلية واستيلاء السلطان الكامل على دمشق

سنة ٦٣٥ [1] - حوادث سنة ٦٣٥ هـ

ونشرع في ذكر الحوادث الكاينة بعد وفاة السلطان الملك الأشرف معتمدين في ذلك على رسالة الفقيه الفقيه الفاضل العالم عفيف الدين عبد العزيز بن علي بن جعفر الموصلي فاني لم اكن حاضرا بدمشق يومئذ : ولما توفي السلطان الملك الاشرف تقرر في الملك بدمشق أخوه الملك الصالح اسماعيل وتواترت الاخبار بعزم الملك الكامل ... على التوجه من الديار المصرية الى الشام ، فاخذ الملك الصالح في تحصين دمشق ،وتهيئة اسباب الحصار ،وتوجه الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص الى بلده ، والتزم بانفاذ الأموال والأولاد والرجال ،ونزل بدمشق ولده الملك المنصور ابراهيم وتوجه نجم الدين خليل قاضي العسكر رسولا من الملك الصالح الى الروم لطلب النجدة والمساعدة ،وتوجه عز الدين ايبك المعظمي الى صرخد ليدبر أمورها و يعود .

وتزايدت الاخبار بوصول السلطان الملك الكامل ... الى أن تحقق نزوله بغزة فجد الملك الصالح في تحصين البلد ،وقطع الأجسار وعمل الستاير ، وكان قد وصل من حلب ستة من امرائها نجدة للملك الصالح منهم الناصح الفارسي .

واما الملك المظفر صاحب حماه فانه راسل السلطان الكامل ورجع الى طاعته ووردت اليه كتب السلطان بتطييب قلبه ووعده فيها كل وعد جميل .

---

(١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٤ أ ب - ٢٠٧ أ .

ولما كان مستهل ربيع الأول تقدم الملك الصالح بأن لا يبقى احد من الاجناد بظاهر دمشق ، وتقدم بأخذ دور كل من هو من اصحاب الملك الكامل ، ودور جماعة ايتام وغيرهم ، ونودى بأن لا يبقى أحد في العقيبة (١) وقصر حجاج (١) ، وتهددوهم ، فلقي الناس من ذلك شدة ، ثم أمر الملك الصالح بأن يعمل في كل مكان سد وأمامه خندق ، واستخدم رجالة كثيرة ، وفرق السلاح ورتب الأجناد والأمراء على الأسوار ثم وصل السلطان ... الى دمشق ونازلها لعشر بقين من ربيع الأول وعمل اليرك (٢) عند مسجد القدم ، وشرعت اللاوية (٣) في النهب والخراب . ووصل عز الدين ايبك المعظمي من صرخد ودخل البلد في تلك الأيام ، وكان دخوله في يوم شديد على الناس ، قال عفيف الدين المقدم ذكره : رايته يوم دخوله من باب الفراديس وهو قايم حاير لا يستطيع العبور من الزحمة وشدة الغلبة واقمشة الناس بعضها على بعض والخيل تدوسها ولا يستطيع اصحابها منعهم من ذلك ، ودخل عز الدين وحده بعد الشدة ، ولم يقدر الجمدار (٤) الذى له من الدخول معه لفرط الزحمة وضاقت لذلك

---

(١) العقيبة وقصر حجاج من احياء دمشق الواقعة خارج الأسوار ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) اليرك : لفظ فارسي معناه طلائع الجيش . انظر ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص ٤٨ حاشية رقم (١) .

(٣) لم نعثر على تفسير لها في المصادر والمراجع المتداولة ويبدو أنها احدى طوائف الجيش .

(٤) الجمدار : هو المسئول عن العناية بلباس السلطان وثيابه والكلمة مكونة من لفظين فارسيين "جام" ومعناه الثوب و "دار" ومعناه ممسك ، انظر المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٣٣ حاشية رقم (١) .

صدور الناس ،وأيقنوا بالحصار الشديد ،ولزوا في دخول المدينة ،وشرعوا في خراب الخانات بظاهر البلد ، وبقي الحال على ذلك اياما ، ثم ضرب البوق وخرج العسكر والتقوا عند ميدان الحصا ،وأخذ من كل واحد من الفريقين جماعة، وخرج من رجاله خلق . ثم بعث الملك الصالح يستدعي الملك المجاهد صاحب حمص ، فاعتذر أنه خايف على بلاده من صاحب حماه ،ولم يأت ،وسير مائتي راجل نجده ، فأخذ بعضهم في البساتين فسيروا الى الملك الكامل فشنق منهم في يوم واحد نحوا من خمسين رجلا ووصل بعضهم وهم مجروحون .

واستمر القتال والخراب بظاهر دمشق من الدور والخانات والجواسق والقنى ،وقطع الاشجار ،وصار كل من لـه غرض مع واحد وهو غايب خرج الى داره فاخربها وربما احرقها ، ثم ضرب البوق و خرج المفاردة (١) فالتقوا عند الميدان ثم من بعدالظهر الى بعد صلاة الغروب ،وأخذوا مملوكا من مماليك السلطان ،وشيخ يقال له الشخوصي واصبح الناس يخربون وينهبون ، ثم ضرب البوق بعد أيام و خرج جميع العسكر الى قصر حجاج والتقوا فكانت الغلبة للدمشقيين ،واخذوا من العسكر المصرى خمسة عشر فارسا ....

....

---

(١) المفاردة نوع من عساكر الجيش الايوبي وأغلب الظن انهم كانوا احرارا ولم يكونوا من المماليك ،وربما سموا بهذا الاسم لتبعيتهم المباشرة لديوان المفرد الذى تخرج منه نفقة المماليك من جامكيات وعليق وكسوة ونحوه .

انظر ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ حاشية رقم (٥) .

ولما كان السادس والعشرون من ربيع الاخر ضرب البوق وقت صلاة المغرب الى ارتفاع النهار وفي ذلك اليوم ،قتل سيف الدين بن شجاع الدين حلدك من امراء ديار مصر ، وجاءوا به الى القلعة وبه رمق يسير فكلمه الملك الصالح فلم يقدر على رد الجواب ومات في تلك الليلة . . . وأحرقت في ذلك اليوم مدرسة عز الدين ايبك ،والوراقة و تلك الأماكن كلها .

فلما كان مستهل جمادى الاولى ضرب البوق وزحف الملك الناصر صاحب الكرك من العقيبة الى أن قارب باب الفراديس ،وزحف الأمير ركن الدين الهيجاوى من جهة باب توما ، ووصلوا الى جسر الباب بحيث كان النشاب يقع في المدينة ، و ربما قتل بعض العامة في المدينة ، ولم يشك أحد ان المدينة تهجم واستمر القتال الى الليل ،وفي وسط الليل بعث السلطان فرحّل الملك الناصر من العقيبة . ولما اصبح الصباح ،خرج الملك الصالح بالحجارين والزراقين (١) . . . ، فحرقوا ونهبوا وخربوا ، وردموا العقيبة وقصر حجاج والشاغور وباب توما وباب السلامة ،واضطرب الناس في المدينة اضطرابا شديدا خوفا من اخذها بالسيف ،وكان أشد ما على الناس بدمشق الطحين ،فان الانسان كان يشترى غرارة قمح بخمسة وعشرين درهما ويطحنها بثلاثين درهما ،فمنّ الله سبحانه بالرحمة ودخل محيي الدين بن الجوزى وكلم الملك الصالح في الصلح فاجاب الى ذلك وعوضه عن ذلك السلطان رحمه الله بعلبك واعمالها مضافا الى ما كان بيده من بصرى واعمالها . . . وتم الصلح يوم الثلاثاء لسبع مضين من جمادى الأولى ودخل السلطان . . . الى القلعة في الساعة السادسة من يوم الاثنين منتصف جمادى الاولى .

---

(١) الزراقون جمع زراق وهو رامي النفط من الزراقة ، انظر :
Dozy: Supplement Aux Dicionnaires, pp.587-588.

الملحق الثاني

الناصر داود واستعادة بيت المقدس من الصليبيين سنة ٦٣٧ هـ (١)

ولما صرف الناصر داود صاحب الكرك نفسه من الشواغل العارضة من جهة الممالك وتضييع الزمان في الاشتغال بما هنالك ، اقتضى رايه السعيد المبادرة الى استنقاذ بيت المقدس من أيدى النصارى ،الطائفة الفاجرة ، رجاء ثواب الدنيا والاخرة . انه جمع جمعا عظيما وأعد للهجمة على الفرنج في عود الدار على حين غفلة منهم ، وقسم جمعه الذى جمعه ، وجعله فرقا ،وعقد لكل فرقة رايه ،وأعد لكل طايفة جانبا من جوانب البلد يتداعون منه عند الهجمة برفع الأصوات بالتكبير . وانتظر الناصر بالكفرة والمشركين أعداء الدين يوم عيدهم الأكبر الذى مجتمعون فيه على الكفر وشرب الخمر ورفع الصليب على عادتهم في ايام اعيادهم ووصل الناصر . بمن معه ليلة العيد ،ورتب كل فرقة في مكانها الذى اعده لها ، هذا والنصارى في غيهم ولهوهم وكفرهم وشركهم ،وسكرهم ،ثم ان المسلمين أشعلوا النيران ورفعوا الأعلام والرايات وكبروا وهجموا قبيل الصبح على النصارى في مواطن كفرهم وشركهم ،فدهشوا وحاروا حين سمعوا التكبير من كل جانب من جوانب البلد ، ووضع المسلمون فيهم السيف ،واستمروا يقتلون ويأسرون وينهبون . وجاء ملك الفرنج وماشاه وجعل يخاطبه في معنى ما وقع من الناصر ، فجرد سيفه وضرب عنق ملك الفرنج ،وضج المسلمون بالتكبير

---

(١) كمال الدين السيوطي : اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الاقصى ورقة ١٣٤ ب - ١٣٥ أ .

والتهليل ، وكانت وقعة هائلة . وما طلع النهار الا وقد قويت شوكة المسلمين وانصرفت هممهم الى تتبع آثار النصارى من كل فج عميق ، يا لها والله من هجمة ، اتم الله بها النعمة على الأمة ، وناداهم منها لسان الاحسان لا يكن امركم عليكم غمة .

واعتنى الناصر باقامة الشعائر ... وأمر بكتابة البشائر الى سائر الممالك بهذا الفتح المبين والنصر العزيز فكتب وعادت الأجوبة عنها وفي جملتها قصيدة لابن نباته المصرى يمدح فيها الناصر وهي طويلة مشتملة على ابيات كثيرة منها :

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلا سائرا
اذا غدا بالكفر مستوطنا أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا وناصر طهره آخرا

ثم رجع الناصر بعد اتمام هذا الفتح المبين الى الكرك ، وقد سطرت هذه النوبة في صحائف حسناته وتواردت الألسن بالدعاء له وشكر ساعته .

الملحق الثالث

حملة كيكاوس على حلب وشمال الشام (١)

سنة ٦١٥ هـ

وفي سنة ٦١٣ هـ تزوج السلطان عز الدين كيكاوس ..... واستمر على أطيب العيش زمانا حتى كانت سنة ٦١٤ هـ فبلغه أن الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين قد مات وبقيت حلب في يد ابنه وكان صغيرا بتكفل والدته جميع امور الملك ، ولما بلغه ذلك طمع في ملك الشام فجمع الأمراء واستشارهم في ذلك فمنعوه وقالوا له : هذه سمعة قبيحة لا يليق بجناب السلطان أن يطمع في ملك يتيم كان ابوه وجده على المناصحة في المصادقة مع آباء السلطان ، بل اللايق أن يمنع السلطان القاصدين والطامعين في ملكه ،ومع قطع النظر عن ذلك ان الملك الأشرف صاحب الموصل والجزيرة خال ذلك الصبي فينجده ... فيحصل بينه وبين السلطان وحشة بعد المودة التي كانت ، فلم يسمع السلطان منهم ذلك واصر على غزوه ،فسار في جمع عظيم وجيش كثيف وكتب الى الأمير نصرة صاحب مرعش (٢) بالتجهز واللحوق به ، فوصل السلطان الى البستان (٣) فلحق به فيها نصرة الدين بجمع عظيم من الجيش فساروا جميعا على قلاع مرزبان (٤) ورعبان وتل باشر

---

(١) المولوى : صحائف الاخبار ورقة ٥٧٦ أ ب - ٥٧٧ أ.

(٢) مرعش : مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم ،انظر ياقوت معجم البلدان .

(٣) البستان ،وتعرف ايضا باسم أبلستين وهي مدينة مشهورة ببلاد الروم (اسيا الصغرى) تقع غرب قيصرية على بعد ثمانين ميلا ،انظر كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٤) مرزبان : لم يرد لها ذكر في المراجع الجغرافية ،ويبدو انها من الثغور الشامية .

فأخذها بالأمان بعد محاصرة يسيرة ،فرتب فيها المستحفظين .

ولما بلغ الخبر الى الصبي وأمه استنجدت اخاها الملك الأشرف فجاء اليها في جمع عظيم من العرب والاكراد والاتراك ،فعسكر في مرج حلب ، وانتظر الى قدوم السلطان وعسكره ،ولما اجتمع باخته وابنها ،تشاوروا في قتال السلطان ، فقالت الملكة أم الصبي : ان العين قد أخبر بكثرة جمع السلطان ،وكمال عدتهم وشوكتهم ،فالرأى أن نلقي بين السلطان وبين امرائه وحشة ويسيء ظن السلطان فيهم ، فقال لها اخوها الأشرف : فما الطريق فيه . قالت : انني دبرته ،فأمر بشخص رومي فاحضروه ،وكان ذلك الشخص مختلطا بخواص السلطان ويعلم جميع امرائه واسمائهم وبعض سرائر احوالهم وأقوالهم التي جرت بينهم وبين السلطان . فاحسنت اليه الملكة ووعدته باضعافه اذا حصل المقصود من رجوع السلطان خائبا الى دياره ،وقالت له : تسير الى عسكر السلطان وتنزل بخيمة أحد الخواص ،وتقول كنت : في عسكر الشام فاطلعت على امر غريب ، فما تركتني الحمية حتى جئت مجدا بالسير لأطلع أحد الخواص على القضية ليعرضها على السلطان حتى لا يغفل ،وهي أن جماعة من الأمراء قد اتفقوا مع الملك الأشرف على الغدر بالسلطان عند المصاف ،فأرسل اليهم الملك الأشرف وأخته أموالا وهدايا جليلة ومعها المكاتيب اليهم وتلك الأشياء في الموضع الفلاني يترصد حاملها الفرصة ليسلمها اليهم ... ان أردتم أن تعلموا صدقي فارسلوا معي جماعة حتى يقبضوا على الأشياء وحاملها . فعرض ذلك على السلطان فارسل جماعة مع الشخص المذكور ،فساروا وقبضوا على الأشياء وحاملها ،وكانت الملكة قد أعدتها وأرسلتها في الموعد ، فحملوها الى السلطان ،فوجد المكاتيب الى جماعة من امرائه فيها بعض

الأسرار التي جرت بينه وبين هؤلاء الأمراء ،فتوهم السلطان منهم ،وأحسن الى الشخص وحفظ المكاتيب ، فجزم بصدق القول وصحة الأمر ،وغفل عن مكر الأعداء لشبابه وعدم تجربته . ولما استوحش منهم لم يسر بنفسه الى الزحف والقتال فأرسل امير المجلس في اربعة الاف طلايع ، ثم أرسل ملك الامراء في عقبه باربعة الوف اخرى ،فقاتل الملك الاشرف الطلايع فانهزم منهم ،ثم علم أن السلطان بعيد عن الطلايع فانعطف عليهم ،فهزمهم وأسر امير المجلس مع عدة من الامراء . ولما بلغ خبر انهزام الطلايع الى السلطان زادت وحشته ، فعاد من مكانه الى البستان ، فجاء الملك الاشرف واخذ قلاع مرزبان ورعبان وتل باشر بالامان . ولما بلغه عود السلطان أطلق امير المجلس وساير الأمراء ،وأكرمهم وأحسن اليهم وسيرهم الى السلطان .

وأما السلطان فلما بلغ الى البستان أمر أولا بالامراء الذين سلموا الى الملك الأشرف فصلبوهم ، وكان احدهم ولد نصرة الدين الحاجب بمرعش ، ثم جمع الامراء المتهمين واظهر عليهم المكاتيب ، فحلفوا بالله وبجميع الأيمان الغلاظ على أنهم براء من تلك التهمة ،فلم يصدقهم السلطان وسول له الشيطان قتلهم بالعذاب ، فأضربهم وحبسوا في دار وجمع على اطراف الدار حطب كثير ،والقي فيه النار فاحترقوا جميعا بالبكاء والصيحة والأنين ، ولم يرحمهم ولا رق عليهم ...

الملحق الرابــــع

العلاقات مع مملكة أرمينية الصغـــــــرى [١]

(سياسة ملك الأرمن ازاء امارة انطاكية الصليبية وموقف ملك حلب)

وفي سنة ستمائة هجم ابن لاون [٢] انطاكية ،فلم يشعر صاحبهـــا الا وهو على بابها ،فارتاع لذلك ،وقاتله في البلد ثم التجأ الى القلعـــة وصاح بشعار الظاهر [٣] ،فكتب والي حارم على جناح طاير الى الملك ، فخرج بعساكره لنجدة البرنس [٤] ، فلماوصل الى حارم بلغ ابن لاون مسيره فخرج عن انطاكية ،وترك فيها رجالا فقتلوا ،وكتب الظاهر لصاحبها بمــا يطيب به قلبه . حكاه ابن ابي طي ، وقال ابن العديم : سنة احدى ، وزاد ابن لاون من ولد بردس الفقاس الذى كان في زمن سيف الدولة ، ثم ذكر وقعات كانت بين ابن لاون وبين عسكر الظاهر ، وترددت الرسل بينهما على الموادعة ، وشرط عليه أن لا يعرض لانطاكية ،وقرر الصلح الى ثمــان سنين وذلك سنة اثنتين وستماية .

ولما كانت سنة اثنتي عشرة وستمايه هجم ابن لاون انطاكية فملكهـا وسلمها لابن اخته ، وكان السبب في ذلك ان البرنس بيمند [٥] الكبير والـــد الذى ملكها يومئذ قد رزق ولدين أحدهما بيمند الذى هو ملكها والآخــر

---

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ١ قسم ٢ نسخة اياصوفيا لوحة ٣٣٦ - ٣٣٩ .

(٢) هو ليو الثاني ملك ارمينية الصغرى .

(٣) هو الظاهر غازى بن صلاح الدين ملك حلب .

(٤) هو بوهيمند الرابع حاكم طرابلس وانطاكية .

(٥) هو بوهيمند الثالث والد بوهيمند الرابع وريموند .

اسمه ريمند وكان والده يميل اليه فخطب له اخت ابن لاون وزوجه بهـا ونص عليه بالملك وأشهد عليه اهل ملته ،واتفق ان ريمند أصابه الصرع فهلك في حياة ابيه وترك ولدا من أخت ابن لاون اسمه روبين ، فانفـذ ابن لاون الى انطاكية وأخذ اخته وابنها وكان أخوه بيمند ملك طرابلس ، فلما هلك ابوه وتغلب بطريق نصير على انطاكية ثم مات وملكها بيمند ابن ريمند كما قدمنا . وجرت الوقعات التي قدمناها بينه وبين ابن لاون ، وفي خلالها شب ابن أخته روبين فلما انقضت الهدنة التي قررها الملك الظاهر بينه وبين بيمند ،كتب اليه أنك ظالم خارج عن شرع النصرانيـة لأن اباك اخرج الملك عن نفسه الى أخيك ، وان أخاك مات وخلّف ولـدا ، والملك له من بعده ،وكان ابن لاون قد اخذ خط بطريق انطاكية بـأن الملك لابن اخته وسير اليه الخط . فلما وقف بيمند عليه قال هذا ملكـي وفي يدى ، ثم أصعد البطريق الى القلعة فخنقه .

وسار ابن لاون بعد ذلك الى انطاكية وحاصرها دفعات والملـك الظاهر صاحب حلب يدفعه عنها ويمنعه بعسكره منها فلما كان أول السنة التي قدمنا ذكرها بعث أهل قسطنطينية الى انطاكية بطريقا مكان الذى قتل ، فلما حصل في انطاكية أنكر على أهلها موافقتهم لبيمند على ملك انطاكيـة وقال : كلما يتقلبون فيه حرام فاهتاجب الاسبتارية لمقاتلته ،وكاتبـوا ابن لاون في ارسال ابن اخته ليملكوه انطاكية ، فجعل يسير الرجـال شيئا فشيئا الى انطاكـية حتى حصل من أصحابه بها جماعة كثيرة ، ثم واعدهم الى ليلة الاثنين ثالث عشرين شوال ،وجاء في الليل فدخلهـا هجما من باب بولص على مواعدة كانت بينه وبين من كان بها من رجـال ، وملكها ،وامتنعت عليه القلعة ، ولم يكن البرنس بيمند بطرابلس فلما بلغه سار الى تحت المرقب منجدا لمن في القلعة ثم ان ابن لاون ملـك

القلعة وعاد بيمند الى طرابلس وكتب ابن لاون الى الملك الظاهر يعلمه أنه كان في خدمته وانه لا ينقلب الا عن أمره وأنه فتح انطاكية باسمه واطلق اسرى من المسلمين كانوا فيها وسيّرهم الى حلب فأُحْسِنَ جوابه ، ثم خرج منها وسلمها لابن اخته ، ولم تزل في يده الى أن قصدها الظاهر بيبرس ...

الملحق الخامس

العلاقات مع الامبراطورية الغربية المقدسة

(نص رسالتين بعث بهما الامبراطور فردريك الثاني الى صديقه فخرالدين)
(١)
(ابن شيخ الشيوخ وزير السلطان الكامل سنة ٦٢٧هـ)

((بسم الله الرحمن الرحيم. عنوانه ترجمته . قيصر المعظم امبراطور رومية فردريك بن / الامبراطور هنريك بن الامبراطور فردريك المنصور بالله المقتدر بقدرته ،المستعلى بعزته ، مالك المانية ولمبردية (٢) وتسقانية (٣) وايطالية وانكبيرده (٤) وقلورية (٥) وصقلية ، ومملكة الشام القدسية ، معز امام رومية ،الناصر للملة المسيحية ... بسم الله الرحمن الرحيم . شعر:

(من الطويل)

رحلنا وخلفنا القلوب مقيمة تخلت عن الأجسام والجنس والنوع

وآلت على ان لا تخل بودكم مدى الدهر وانسلت تنكب عن طوعي

لو وجدنا الى وصف ما نجده من عظيم الشوق ،ونكابده من أليم/ الاستيحاش والتوق ،الى المجلس السامي الفخرى أدام الله أيامه ،وسرمد أعوامه ،وثبت في الرياسة أقدامه ،وحرس مودته واكرامه ، وأجرى على سبيل

----

(١) ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص ١٩٠ - ١٩٤ ونقل النص عنه ايضا ابن الفرات في تاريخه جـ٦ لوحة ١٠٤-١٠٧ .

(٢) لمبردية: مقاطعة ايطالية عاصمتها ميلانو .

(٣) تسقانية : مطاقعةبايطاليا عاصمتها فلورنس .

(٤) يقول ياقوت (ج ١ ص ٣٩٢) عن الانكبردة انها بلاد واسعة من بلاد الفرنج بين القسطنطينية والاندلس .

(٥) قلورية : هي كلابريا ، مقاطعة بجنوب ايطاليا .

النجاح مرامه ،وسدد عهده وكلامه ،وأجزل من النعم أقسامه ؛ وجدد مع الجديدين سلامه للزمنا في الخطاب شططا ، وحدنا عن الصواب غلطا ، اذ منينا بروعة استيحاش ، بعد سكون وايناس ، ولوعة فراق ،في اثر غبطة واشتياق ،فرأينا السلو ممتنعا ،وحبل التجلد منقطعا ،ومأمول التماسك قد عاد جزعا ،وشمل الاصطبار منصدعا : (من الطويل)

وقد كنت لو خيرت بين فراقكم وبين حمامي قلت يدركني نحبي

/ وتخاله ،أكرمه الله ،ملّنا ،واعتاض بغيرنا ،واختار فراقنا ،وتناسى ودادنا ، فعزينا انفسنا بقول ابي الطيب [1] . (من البسيط)

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم

وبعد ، فعلمنا انه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا ، والحميد من اثارنا ،نشعره حسبما شرحناه له بصيدا أن البابا- باء بالغدر والخديعة - أخذ احدى قلاعنا المنيعة تسمى منت مسين [2] ،أسلمها له أباطها اللعين ، وعند ذلك رام المزيد ، فلم يمكنه لانتظار أهل طاعتنا لرجوعنا السعيد ،فاضطر الى ان زعم اننا متنا ،وحلف القردنالية [3] على ذلك وعلى ان رجوعنا مستحيل ،وراموا خداع العامة بمثل هذه الأباطيل ، وأنه ليس احد بعدنا يحسن حراسة / بلادنا وحفظها برسم ولدنا مثل

----

(١) انظر بيت المتنبي في ديوانه (ط. صادر ١٩٥٨م) ص ٣٣٣.
(٢) في الأصل " قسين ".
(٣) في الأصل " القردمالية ".

البابا ،فلايمان هوءلاء الذين هم أئمة الدين وخلفاء الحواريين ،انخدعت جماعة من الطغام والمفسدين ،فعند وصولنا الى ميناء برنديس المصونة ، ألفينا الملك جوان واللمبرديين في الدخول في ملكنا معاندين ،وقع خبر ورودنا متشككين ،لما قرره القردنالية عندهم باليمين ،وكتبنا ورسلنا بوصولنا سالمين . داخل أعداءنا الجزع ،وحل بهم الروع والفزع ونكصوا الى ورائهم خاسرين مسافة يومين ،وارتد أهل طاعتنا الينا طائعين ،وكذلك اللمبرديين الذين كانوا معظم عسكرهم لم يرضوا لأنفسهم أن يوجدوا على سيدهم مخالفين منافقين ،وانصرفوا على ادبارهم اجمعين ، وأما الملك المذكور واصحابه / ،فأحاط بهم الحياء والخوف ،واجتمعوا الى موضع ضيق يخافون الانصراف عنه ،والخروج منه ،بل لا يقدرون على ذلك ، لأن البلاد باسرها قد عادت لنا والى طاعتنا . ونحن في خلال ذلك قد جمعنا عسكرا مديدا من الألمانية الذين كانوا معنا في الشام ،والذين انصرفوا قبلهم ورمتهم الريح الى بلادنا وغيرهم من أمنائنا ورؤساء دولتنا ، واستعددنا نجد السير الى بلاد أعدائنا .

وبعد فمما نوءثر من المجلس مواصلة كتبه متضمنة شرح سعيد أحواله ومهماته وحاجاته ،وأن يقرى سلامنا على جميع اكابر العسكر وغلمانه ومملوكيه ودخلته ،والسلام عليه ورحمة الله وبركاته . وكتب ببرلت المصونة بتاريخ الثالث والعشرين من شهر أوسو (١) للأندقتنس الثاني ".

---

(١) ترجم أمارى كلمة أسو الى (أون) ،ويبدو أن جملة الاندقتنس الثاني تعني نوعا من التاريخ كان يوءرخ به في ذلك الوقت . انظر أمارى ، مجلة الارشيف ص ١٢٢ .

/ وهذه [١] نسخة الكتاب الثاني . الترجمة كالأول : " فيه من الاخبار بما نشعره به . أنا قد جمعنا عسكرا كثيرا ، وانا نجد السير الى قتال من هم بانتظارنا ، ولم يهرب امام وجهتنا ، والان قد حدث من الأمر حسب حدسنا ، وذلك انهم كانوا قد حاصروا قلعة من قلاعنا ونصبوا عليها المنجنيقات وما شابهها من الدبابات [٢] والالات [٣] ، فلما أحسوا باقبالنا مع بعد المسافة بينهم وبيننا ، لم يتمهلوا الي ، بل أحرقوا ما عملوه من سائر الاتهم ، وانهزموا هاربين أمامنا ، ونحن نجد السير في طلبهم وتفريق شملهم ، وتبديد جمعهم ، وطلب البابا حيثما وجدناه ، ورده خاسئا على قفاه ، نادما على ما نواه ، وما نجده من الأخبار فنحن نكاتب المجلس ان شاء الله ".

---

(١) في الاصل : "وهذا".

(٢) الدبابة : آلة حربية ، انظر المقريزى ج ١ قسم ١ ص ٩٦ ، هامش ٨ .

(٣) في الاصل : " وآلات ".

الملحق السادس

(ثبت بأسماء الحكام في بلاد الشام وبعض البلدان الأخرى خلال فترة البحث)

١ - ملوك بني أيوب في بلاد الشام ومصر:

(أ) الايوبيون في دمشق :

الأفضل نور الدين علي	٥٨٩-٥٩٢هـ/١١٩٣-١١٩٦م
العادل الاول أبو بكر	٥٩٢-٦١٥هـ/١١٩٦-١٢١٨م
المعظم عيسى	٦١٥-٦٢٤هـ/١٢١٨/١٢٢٧م
الناصر داود	٦٢٤-٦٢٦هـ/١٢٢٧-١٢٢٩م
الأشرف موسى	٦٢٦-٦٣٥هـ/١٢٢٩-١٢٣٧م
الصالح اسماعيل (المرة الاولى)	٦٣٥هـ/١٢٣٧م
الكامل محمد	٦٣٥هـ/١٢٣٨م
العادل الثاني بن الكامل	٦٣٥-٦٣٦هـ/١٢٣٨-١٢٣٩م
الصالح نجم الدين ايوب (المرة الاولى)	٦٣٦-٦٣٧هـ/١٢٣٩م
الصالح اسماعيل (المرة الثانية)	٦٣٧-٦٤٣هـ/١٢٣٩-١٢٤٥م
الصالح نجم الدين ايوب (المرة الثانية)	٦٤٣-٦٤٧هـ/١٢٤٥-١٢٤٩م
المعظم تورانشاه	٦٤٧-٦٤٨هـ/١٢٤٩-١٢٥٠م
الناصر يوسف	٦٤٨-٦٥٨هـ/١٢٥٠-١٢٦٠م

(ب) الايوبيون في حلب :

الظاهر غازى	٥٨٢-٦١٣هـ/١١٨٦-١٢١٦م
العزيز محمد	٦١٣-٦٣٤هـ/١٢١٦-١٢٣٦م
الناصر يوسف	٦٣٤-٦٥٨هـ/١٢٣٦-١٢٦٠م

(جـ) الايوبيون في حماه :

المنصور الأول محمد	٥٨٧-٦١٧هـ/١١٩١-١٢٢٠م
الناصر قلج أرسلان	٦١٧-٦٢٦هـ/١٢٢٠-١٢٢٩م
المظفر محمود	٦٢٦-٦٤٢هـ/١٢٢٩-١٢٤٤م
المنصور الثاني	٦٤٢-٦٨٣هـ/١٢٤٤-١٢٨٤م

(د) الايوبيون في حمص :

المجاهد شيركوه الثاني	٦٨٢-٦٣٨هـ/١١٨٦-١٢٤٠م
المنصور ابراهيم	٦٣٨-٦٤٤هـ/١٢٤٠-١٢٤٦م
الأشرف موسى الثاني	٦٤٤-٦٤٦هـ/١٢٤٦-١٢٤٨م

(هـ) الأيوبيون في بعلبك :

الأمجد بهرام شاه	٥٧٨-٦٢٧هـ/١١٨٢-١٢٣٠م
الأشرف موسى العادل	٦٢٧-٦٣٥هـ/١٢٣٠-١٢٣٧م
الصالح اسماعيل	٦٣٥-٦٤٣هـ/١٢٣٧-١٢٤٥م
الصالح نجم الدين أيوب	٦٤٣-٦٤٧هـ/١٢٤٥-١٢٤٩م
المعظم تورانشاه	٦٤٧-٦٤٨هـ/١٢٤٩-١٢٥٠م
الناصر يوسف	٦٤٨-٦٥٨هـ/١٢٥٠-١٢٦٠م

(و) الأيوبيون في الكرك :

العادل الأول	٥٨٤-٦١٥هـ/١١٨٨-١٢١٨م
المعظم عيسى	٦١٥-٦٢٤هـ/١٢١٨-١٢٢٧م
الناصر داود	٦٢٤-٦٤٧هـ/١٢٢٧-١٢٤٩م
الصالح نجم الدين ايوب	٦٤٧هـ/١٢٤٩م
المعظم تورانشاه	٦٤٧-٦٤٨هـ/١٢٤٩-١٢٥٠م
المغيث عمر	٦٤٨-٦٥٨هـ/١٢٥٠-١٢٦٠م

(ز) الأيوبيون في مصر :

العزيز عثمان	٥٨٩-٥٩٤هـ/١١٩٣-١١٩٨م
المنصور محمد	٥٩٤-٥٩٥هـ/١١٩٨-١١٩٩م
العادل الأول	٥٩٥-٦١٥هـ/١١٩٩-١٢١٨م
الكامل محمد	٦١٥-٦٣٥هـ/١٢١٨-١٢٣٨م
العادل الثاني بن الكامل	٦٣٥-٦٣٧هـ/١٢٣٨-١٢٤٠م
الصالح ايوب	٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٣٨-١٢٤٩م
المعظم تورانشاه	٦٤٧-٦٤٨هـ/١٢٤٩-١٢٥٠م

(٢) سلاطين المماليك في مصر :

شجر الدر	٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م
المعز عز الدين ايبك	٦٤٨-٦٥٥هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٧م
المنصور نور الدين علي بن ايبك	٦٥٥-٦٥٧هـ/١٢٥٧-١٢٥٩م
سيف الدين قطز	٦٥٧-٦٥٨هـ/١٢٥٩م

(٣) حكام الصليبيين في بلاد الشام :

(أ) مملكة بيت المقدس الصليبية (١) :

هنرى دى شامبني	١١٩٢-١١٩٧م
عموري لوزجنان ملك قبرص	١١٩٧-١٢٠٥م
مارى ابنة كونراد (تحت الوصاية)	١٢٠٥-١٢١٠م
حنا دى بريين	١٢١٠-١٢٢٥م
الامبراطور فردريك الثاني	١٢٢٥-١٢٥٠م
كونراد الرابع ملك المانيا (ملك اسمي)	١٢٥٠-١٢٥٤م
كونرادين (ملك اسمي)	١٢٥٤-١٢٦٨م

(١) ظل اسم مملكة بيت المقدس قائما بعد استعادة صلاح الدين لبيت المقدس اذ بقي الاسم يطلق على عكا ومايتبعها من بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية .

(ب) امارة انطاكية الصليبية :

بوهيمند الثالث	١١٦٣-١٢٠١م
بوهيمند الرابع	١٢٠١-١٢١٦م
ريموند روبان	١٢١٦-١٢١٩م
بوهيمند الرابع (مرة ثانية)	١٢١٩-١٢٣٣م
بوهيمند الخامس	١٢٣٣-١٢٥١م
بوهيمند السادس	١٢٥١-١٢٦٧م

(جـ) أمراء طرابلس :

بوهيمند الرابع	١١٨٧-١٢٣٣م
بوهيمند الخامس	١٢٣٣-١٢٥١م
بوهيمند السادس	١٢٥١-١٢٨٧م

(٤) الخلفاء العباسيون في بغداد :

الناصر لدين الله	٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م
الظاهر بأمر الله	٦٢٢-٦٢٣هـ/١٢٢٥-١٢٢٦م
المستنصر بالله	٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م
المستعصم بالله	٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م

(٥) سلاجقة الروم :

كيخسرو الأول	٥٨٨-٥٩٦هـ/١١٩٢-١٢٠٠م
سليمان شاه الثاني بن قلج أرسلان	٥٩٦-٦٠٠هـ/١٢٠٠-١٢٠٣م
قلج أرسلان الثالث	٦٠٠-٦٠١هـ/١٢٠٣-١٢٠٤م
كيخسرو الاول (مرة ثانية)	٦٠١-٦٠٧هـ/١٢٠٤-١٢١٠م

تابع (٥) سلاجقة الروم :

كيكاوس الأول بن كيخسرو	٦٠٧-٦١٦هـ/ ١٢١٠-١٢١٩م
كيقباذ الأول بن كيخسرو	٦١٦-٦٣٤هـ/ ١٢١٩-١٢٣٦م
كيخسرو الثاني بن كيقباذ	٦٣٤-٦٤٣هـ/ ١٢٣٦-١٢٤٥م
كيكاوس الثاني بن كيخسرو الثاني	٦٤٣-٦٥٥هـ/ ١٢٤٥-١٢٥٧م
قلج أرسلان الرابع بن كيخسرو الثاني	٦٥٥-٦٦٥هـ/ ١٢٥٧-١٢٦٧م

(٦) ملوك الدولة الخوارزمية :

محمد خوارزمشاه	٥٩٦-٦١٧هـ/ ١١٩٩-١٢١٩م
جلال الدين منكبرتي	٦١٧-٦٢٨هـ/ ١٢١٩-١٢٣١م

(٧) حكام مملكة أرمينية الصغرى :

ليو الثاني	١١٨٧-١٢١٩م
ايزابيل	١٢٢٢-١٢٢٥م
هيثوم الأول	١٢٢٦-١٢٦٩م

(٨) بابوات روما :

سلستين الثالث	١١٩١-١١٩٨م
أنوسنت الثالث	١١٩٨-١٢١٦م
هونوريوس الثالث	١٢١٦-١٢٢٧م
جريجورى التاسع	١٢٢٧-١٢٤١م
سلستين الرابع	١٢٤١م
أنوسنت الرابع	١٢٤٢-١٢٥٤م
الاسكندر الرابع	١٢٥٤-١٢٦١م

(٩) خانات المغول :

جنكيز خان	٦٠٢-٦٢٤هـ/١٢٠٦-١٢٢٧م
اوكتاى قاآن	٦٢٦-٦٣٩هـ/١٢٢٩-١٢٤١م
كيوك خان	٦٤٤-٦٤٧هـ/١٢٤٦-١٢٤٩م
منكو قاآن	٦٤٨-٦٥٥هـ/١٢٥٠-١٢٥٧م
قوبيلاى قاآن	٦٥٨-٦٩٣هـ/١٢٦٠-١٢٩٤م

المصادر والمراجع

المصادر والمراجـــع

أولا - المخطوطـات :

- ابن أبي الدم (أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله الحموى ، ت ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) التاريخ المظفرى . صورة بمركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى برقم ١١٣١ عن نسخة مكتبة خدابخش بالهند رقم ٣٨٦٩ .

- ابن أيبك الداوادارى (أبو بكر عبدالله بن أيبك ، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) درر التيجان و غرر تواريخ الزمان . مكتبة البلدية بالاسكندرية رقم ٣٨٢٨ج .

- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكي ٨١٣-٨٧٤هـ/ ١٤١٠ - ١٤٦٩م) .
المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي . دار الكتـــب المصرية رقم ١٣١٠ . ونسخة مكتبة عارف حكمت جـ١ رقم ٣٢ / ٦٤٢/٦٣٠ وجـ٢ رقم ٦٣٠/ ٩٠٠ .

- ابن الجزرى (محمد بن محمد بن محمد بن الجزرى) فرغ من كتابـــه سنة ٧٩٨هـ ، تاريخ الجزرى صورة بمركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي بجامعة ام القرى برقم ١٣٠٢ عن نسخة المكتبة القومية بطهران رقم ٤٦٩ .

- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) دورة الأسلاك في دولة الاتراك . مكتبة احمد الثالث باستامبول رقم ٣٠١١ .

- ابن خطيب الناصرية (علي بن محمد بن سعد بن محمد بن علي بن خطيب الناصرية ت ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م)
الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب . المكتبة الاحمدية بحلب رقم ١٢١٤ .
- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن دقماق ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)
الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين . مكتبة احمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٠٣ .
- ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن احمد بن عبدالرحمن الكتبي ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) عيون التواريخ . ج ١٥ دار الكتب المصرية رقم ١٤٩٧ .
- ابن شداد (عز الدين أبو عبدالله محمد بن على بن ابراهيم الحلبي ، ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة . مكتبة اياصوفيا باستامبول رقم ٣٠٨٤ ، ومكتبة الفاتيكان برقم ٧٣٠ .
- ابن الشحنة (ابو الوليد محب الدين محمد بن محمد ت ٨١٥هـ/١٤١٢م)
تاريخ ابن الشحنة . صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٢٣٤ عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٦٣٩٣ .
- ابن العديم (كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله ، ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)
بغية الطالب في تاريخ حلب . مكتبة اياصوفيا ٤٠٤٦ ، ومكتبة فيض الله ١٤٠٤ ومكتبة احمد الثالث رقم ٢٩٢٥ تركيا .
- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن علي ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)
تاريخ ابن الفرات . صورة بمركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى برقم ٦١٢ عن نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم ٥٤١ ق .

- ابن قاضي شهبة (بدر الدين محمد بن ابي بكرت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)
  الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ،المجلد الرابع ،القسم الاول ،
  صورة بمركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي برقم ١٥٠١
  عن مكتبة المجمع العلمي العراقي ،بدون رقم.
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م)
  ١ - التاريخ الصالحي . مكتبة فاتح باستامبول رقم ٤٢٢٤.
  ٢ - تاريخ الواصلين . دار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩ .
- ابو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ،ت٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) التبر المسبوك في تواريخ الملوك . دار الكتب المصرية رقم ٨٦ تاريخ .
- الاصفهاني (القاضي عماد الدين محمد بن محمد ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)
  البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان . وذيل عليه علم الدين سنجر المسروري من سنة ٥٩٣ الى سنة ٦٣٥ على المخطوطة نفسها . مكتبة احمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٥٩.
- الأهدل (الحسين بن عبد الرحمن بن محمد بن علي ،ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) ، غربال الزمان . صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٥٢٩ عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ٤٧٢٧.
- بدر الدين الحلبي (أبو محمد الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي ،ت ٧٧٩هـ/ ١٣٣٧م) ، جهينة الاخبار في تاريخ الأنبياء والخلفاء وملوك الأمصار . مكتبة بلدية الاسكندرية رقم٥١٥٧.
- بيبرس الداوادار (ركن الدين بيبرس الخطائي المنصوري الداوادار مملوك السلطان قلاوون الالفي ،ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م)
  التحفة الملوكية في الدولة التركية . صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٢٠٥ عن نسخة مكتبة فينا رقم٢٤٠٢٩.

- الجنابي (ابو محمد الشريف مصطفى بن حسن بن سنان بن احمد بن السيد حسن الحسيني الهاشمي ، ت ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م)
البحر الزاخر في احوال الأوائل والاواخر . مكتبة الحرم المكي رقم ٢ .

- الخطيب العمرى (ياسين بن خير الله بن محمد بن موسى الخطيب العمرى ، ت ١٢٣٢هـ/١٨١٧م)
الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون . صورة بمركز البحث العلمي بجامعة ام القرى برقم ١٠٤٥ عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ٤٩٤٩ .

- الديبسياوى (محمد بن محمد الديبسياوى ت ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م)
الزهر الزاهر في الدلالة على قدرة العزيز القاهر .
نسخة بمركز البحث العلمي بجامعة ام القرى برقم ٥٣٨٦ عن نسخة مكتبة شستربتي ،ايرلنده ،دبلن رقم ٥٣٦٨ .

- الديرى (هبة الله محمد الديرى الحنفي المقدسي ،كان حيا سنة ٨٩٥ هـ)
الجدول الصفي من البحر الوفي . صورة بمركز البحث العلمي بجامعة ام القرى برقم ١٣٨٢ عن نسخة مكتبة الاحقاف باليمن مجموعة ال يحيى رقم ٣٨ تاريخ .

- الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد بن قايماز ،ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)
تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام جـ٥ المكتبة الاحمدية بحلب رقم ٦٤٧ .
جـ ٢٢ صورة بمكتبة مركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي بجامعة ام القرى رقم ١٥٣ .

- الزبيدى (محمد مرتضى الزبيدى ، ت ١٢٠٥هـ/١٧٨٩م)
ترويح القلوب بذكر الملوك بني ايوب . صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٥٦٩ عن نسخة مكتبة جامعة برنستون (مجموعة يهودا) رقم ٤٣٩ تراجم .

- سبط ابن العجمي (موفق الدين أبو ذر احمد بن ابراهيم الحلبي ، ت ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م) كنوز الذهب في تاريخ حلب .
المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية رقم ٨٣٧ تاريخ .

- السيوطي (كمال الدين محمد بن محمد بن ابي شريف السيوطي ، ت ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م) اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى .
دار الكتب المصرية رقم ١٨٢٩ تاريخ طلعت.

- الصفدى (صلاح الدين خليل بن ايبك ،ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)
١ - تحفة ذوى الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب ،مخطوط مصور عن ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٥٢ تاريخ .
٢ - أعيان العصر وأعوان النصر . مكتبة جامعة استامبول رقم ٢٣٨٢ .

- العليمي (قاضي القضاة مجير الدين بن عبد الرحمن بن محمد العليمي الحنبلي المقدسي ، ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م)
١ - كتاب في تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل . صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى رقم ١٢٠٦ عن نسخة المتحف البريطاني رقم ١٥٤٤ .
٢ - التاريخ المعتبر في أنباء من غبر . صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١ / ٣٩٠ مجاميع عن نسخة جامعة برنستون (مجموعة يهودا) رقم ٢٢٦٣ .

- العيني (بدر الدين محمود أبو محمد بن أحمد بن موسى العيني ، ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان .
جـ١٣ مكتبة احمد الثالث رقم ٢٣٩٠ .

- المقريزى (تقي الدين احمد بن على بن عبد القادرت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)
المقفى ، أو - التاريخ الكبير المقفى في تراجم أهل مصر
والواردين اليها . المكتبة السليمانية باستامبول رقم ٤٩٦ .

- المولوى (أحمد بن لطف الله المولوى ، كان حيا سنة ١١١٦ م)
صحائف الأخبار في وقائع الأعصار . مكتبة أحمد الثالث
باستامبول رقم ١٢٥٤/١ .

- النويرى (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب بن محمد ت ٧٣٣هـ/
١٣٣٣م) . نهاية الأرب في فنون الأدب . جـ ٢٧
دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

- الناشرى (علي بن ابي بكر بن علي الناشرى ،ت ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م)
روضة الناظر للسلطان الملك الناصر . صورة بمركز البحث
العلمي بجامعة أم القرى برقم ٢٩٠ عن نسخة المكتبة
الوطنية بباريس رقم ٥٨٢٣ .

- اليافعي (حسن بن ابراهيم بن محمد اليافعي ،كان حيا سنة ٦٧٩هـ)
جامع التواريخ المصرية في ذكر الملوك والخلفاء والسلاطين
الاسلامية . صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم
القرى برقم ١١٤٢ عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٥٤٣ .

*

ثانيا - المصادر العربية المطبوعة :

- القرآن الكريم .

- ابن ابي اصيبعة (موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم ، ت ٦٦٨هـ/
١٢٦٩م) . عيون الانباء في طبقات الأطباء . تحقيق
نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥م .

- ابن الأثير الجزرى (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الملقب بعز الدين ،ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)
١ - الكامل في التاريخ . ط. ليدن ١٨٥١-١٨٧٦م.
٢ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية . تحقيق عبدالقادر طليمات القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م.
- ابن اياس (ابو البركات محمد بن احمد بن أياس الحنفي ، ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م) بدائع الزهور في وقائع الدهور. الجزء الأول تحقيق محمد مصطفى القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ابن ايبك الداوادارى(أبو بكر عبدالله بن أيبك ،ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) كنز الدرر وجامع الغرر . الجزء السابع وعنوانه ،الدر المطلوب في اخبار ملوك بني ايوب . تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.
الجزء الثامن وعنوانه ،الدرة الزكية في اخبار الدولة التركية. تحقيق ألرخ هارمان ،القاهرة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
- ابن تغرى بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الاتابكي ت ٨١٢هـ/ ٨٧٤هـ)
١ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .ط دار الكتب المصرية .
٢ - المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي . الجزء الأول تحقيق احمد يوسف نجاتي . القاهرة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.
- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي ، ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) . رحلة ابن جبير ،المسماة تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار ،بيروت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)
تاريخ ابن خلدون ، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الاكبر.
تحقيق خليل سعادة ومراجعة سهيل زكار ،بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر ،ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .
تحقيق احسان عباس ،بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد ،ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م).
الانتصار لواسطة عقد الأمصار. جـ٤ - ٥ ، نشر فولرزج القاهرة ١٨٩٣م.

- ابن الساعي (ابو طالب على بن أنجب تاج الدين المعروف بابن الساعي الخازن ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م)
الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير . الجزء التاسع ،تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.

- ابن شداد (ابو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشهير بابن شداد ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) .
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ،او سيرة صلاح الدين ، تحقيق جمال الدين الشيال ،القاهرة ١٩٦٤م.

- ابن شداد (عز الدين ابو عبدالله بن علي بن ابراهيم الحلبي ، ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) .
الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ٣ أجزاء ،
الجزء الاول تحقيق دومينيك سورديل ،دمشق ١٩٥٣م.
الجزء الثاني تحقيق سامي الدهان ، قسم مدينة دمشق ط. دمشق ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م وقسم لبنان والاردن وفلسطين ط. دمشق ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م.
الجزء الثالث تحقيق يحيى عبارة ط. دمشق ١٩٧٨م.

- ابن طولون (محمد بن طولون ،ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م).
  ١ - القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية. تحقيق محمد احمد دهمان ج١ دمشق ١٩٤٩م.
  ٢ - قضاة دمشق ،أو الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام . تحقيق صلاح الدين المنجد ،دمشق ١٩٥٦م.
- ابن عبد الظاهر (محي الدين عبدالله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدى المصرى ،ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) . الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر . تحقيق عبد العزيز الخويطر الرياض ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
- ابن سعيد (عبدالله بن سعيد ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) وعلي بن موسى بن محمد بن عبدالملك ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ووالده موسى بن محمد ت ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م . كتب كل واحد من الثلاثة قطعة من كتاب " النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب. تحقيق د. حسين نصار ، القاهرة ١٩٧٠م.
- ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبرى ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م). تاريخ مختصر الدول . ط . بيروت ١٩٥٨م ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
- ابن العديم (الصاحب كمال الدين ابوالقاسم عمر بن احمد بن هبة الله بن ابي جرادة ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)

زبدة الحلب من تاريخ حلب . ج ٣ ،تحقيق سامي الدهان بيروت ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م.

- ابن العماد الحنبلي (ابو الفلاح عبد الحي احمد بن محمد بن العماد ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٩م) . شذرات الذهب في اخبار من ذهب. بيروت ،بدون تاريخ .

- ابن العميد (المكين جرجيس بن العميد ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م) أخبار الأيوبيين . دمشق ١٩٥٨م.

- ابن عنين (محمد بن نصر الله ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) ديوان ابن عنين . تحقيق خليل مردم ،دمشق ١٩٤٦م .

- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي ،ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤م) . تاريخ ابن الفرات. ج٤ قسم ٢ ،ج ٥ قسم ١ ،تحقيق حسن محمد الشماع ،البصرة ١٣٨٩-١٣٩٠هـ/ ١٩٦٩-١٩٧٠م .

- ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم بن علي بن محمد المالكي ، ت ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م) . الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ،جزءان ،تحقيق محمد الاحمدي أبو النور ،القاهرة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

- ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله ، ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) . مسالك الأبصار في ممالك الامصار . الجزء الاول تحقيق احمد زكي باشا ، القاهرة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م.

- ابن الفوطي (كمال الدين عبدالرزاق بن تاج الدين احمد الشيباني ، ت ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م)

١ - تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب . الجزء الرابع ، تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

٢ - الجوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة. تصحيح وتعليق مصطفى جواد ، بغداد ١٣٥١هـ.

- ابن قاضي شهبة (بدر الدين محمد بن ابي بكر ،ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)
الكواكب الدرية في السيرة النورية . تحقيق محمود زايد ،
بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

- ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن القلانسي ، ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)
ذيل تاريخ دمشق . بيروت ١٩٠٨م.

- ابن قنفذ القسنطيني (احمد بن حسن بن علي بن حسن بن علي بن
الخطيب ،ت٨٠٩هـ/ ١٥٠٢م). الوفيات .
تحقيق عادل نويهض ،بيروت ١٩٧١م.

- ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، ت ٧٧٤هـ/
١٣٧٢م) . البداية والنهاية . ج١٣ بيروت ١٩٦٦م.

- ابن منظور (ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ،ت ٧١١هـ/
١٣١١م) . لسان العرب ، بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٩٨م .

- ابن نصر الحنبلي (أبو البركات عز الدين احمد بن ابراهيم بن نصر الله
الكناني العسقلاني ت ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م).
شفاء القلوب في مناقب بني ايوب . تحقيق ناظم رشيد
، بغداد ١٩٧٨م.

- ابن نظيف الحموى (أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف ،عاش في
النصف الأول من القرن السابع الهجرى)
التاريخ المنصورى " تلخيص الكشف والبيان في حوادث
الزمان " تحقيق ابو العيد دودو ، دمشق ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)
مفرج الكروب في اخبار بني ايوب . ج٣ تحقيق جمال الدين
الشيال القاهرة ١٩٦٠م ج ٤ - ٥ تحقيق حسنين محمد
ربيع ،القاهرة ١٩٧٢م، ١٩٧٧م .

- ابن الوردى (زين الدين عمر بن المظفر بن ابي الفوارس ، ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردى) تحقيق احمد رفعت البدراوى ، بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.

- أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ، ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م)

١ - الروضتين في أخبار الدولتين جـ٢ مصر ١٢٨٨هـ.

٢ - تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين . نشر ومراجعة السيد عزت العطار الحسيني ، بيروت ١٩٧٤م.

- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماة ، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)

١ - المختصر في اخبار البشر جـ٣ -٤ ، بيروت بدون تاريخ .

٢ - تقويم البلدان . باريس ١٨٤٠م.

- الأدفوى (ابو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوى الشافعي ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد . تحقيق سعد محمد حسن ، القاهرة ١٩٦٦م.

- أسامة بن منقذ (أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، ت ٥٨٤هـ/ ١١٩٢م) الاعتبار . تحقيق فيليب حتي ، ط برنستون ١٩٣٠م .

- الأصفهاني (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد المشهور بالعماد الكاتب ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م)

١ - الفتح القسي في الفتح القدسي . تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة ١٩٦٥م.

٢ - تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الفتح بن علي ابن محمد البندارى ، بيروت ١٩٧٨م.

- الأمجد (أبوالمظفر بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب الملقب بالملك الأمجد ، ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م)
ديوان الملك الأمجد . تحقيق ناظم رشيد ، بغداد ١٩٨٣م.

- البنداري (قوام الدين الفتح بن علي بن محمد ، ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)
سنا البرق الشامي . القسم الاول ،تحقيق رمضان ششن ، بيروت ١٩٧٠م.

- بيبرس الداوادار (ركن الدين بيبرس الخطائي المنصوري الداوادار مملوك السلطان قلاوون الألفي ،ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م)
زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة . الجزء التاسع ،تحقيق ودراسة زبيدة محمد عطا ، رسالة دكتوراه تحت اشراف سعيد عاشور من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٢م.

- حاجي خليفة (المولى مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الجلبي ،ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م)
كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون . دار الفكر ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م. بيروت.

- الحريري (احمد بن علي ،كان حيا سنة ٩٢٦هـ سنة انتهائه من تأليف الكتاب) الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين . تحقيق ودراسة سهيل زكار . دمشق ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

- الدياربكري (حسين بن محمد بن الحسين ،ت ٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م)
تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس . بيروت بدون تاريخ .

- الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد بن قايماز ت٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)
١ - دول الاسلام. تحقيق محمد فهيم شلتوت ،و محمد مصطفى ابراهيم القاهرة ١٩٧٤م.
٢ - العبر في خبر من عبر. تحقيق صلاح الدين المنجد ، ج ٤ - ٥ الكويت ١٩٦٣م ، ١٩٦٦م.

- رشيد الدين الهمداني (رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة ابو الخير حفيد موفق الدين الهمذاني ت ٧١٨هـ/ ١٣١٨م)
جامع التواريخ ، اوتاريخ المغول ، المجلد الثاني - الجزء الأول تاريخ هولاكو. ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون القاهرة ١٩٦٠م .

سبط ابن الجوزى (شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي الشهير بسبط بن الجوزى ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م).
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان . جـ٨ حيدر اباد ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

- السبكي (تاج الدين ابونصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ت ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م) . طبقات الشافعية الكبرى . تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح حلو ،القاهرة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

- السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . الجزء الثاني القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٣٦م.

- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر بن محمد ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)
١ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ،القاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
٢ - تاريخ الخلفاء . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،القاهرة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

- الشهرستاني (أبوالفتح محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م).
الملل والنحل . تقديم واعداد عبد اللطيف محمد العبد ، القاهرة ١٩٧٧م.

- صالح بن يحيى (صالح بن يحيى بن الحسين ت ٨٤٠هـ/١٤٣٩م)

تاريخ بيروت. تحقيق فرنسيس هورس وآخرون ، بيروت ١٩٦٧م.

- الصفدى (صلاح الدين خليل بن ايبك ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)

١ - الوافي بالوفيات . نشر وتحقيق جمعية المستشرقين الالمانية فسبادن ١٩٦٢- ١٩٨٢م.

٢ - امراء دمشق في الاسلام . تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٥م.

- طاش كبرى زاده (احمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زادة ت ٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م) مفتاح السعادة ومصباح السيادة - ج ١ ، حيدر آباد ١٣٢٩هـ.

- العصامي المكي (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي ، ت ١١١١ هـ / ١٦٦٩م) سمط النجوم العوالي في انباء الاوائل والتوالي . ج ٤ القاهرة ١٣٨٠هـ.

- العليمي (مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي الحنبلي ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م) الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل . بيروت ١٩٧٣م.

- العيني (بدر الدين محمود بن احمد بن موسى بن احمد بن الحسين الشهير بالبدر العيني ، ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)

السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى . تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ١٩٦٦-١٩٦٧م.

- الفيروزبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى ت ٨١٧هـ/ ١٤١٥م)

القاموس المحيط . دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

- القرشي (عبد القادر بن ابي الوفاء القرشي ، ت ٧٧٥هـ/١٣٧٣م)

الجواهر المضية في طبقات الحنفية . حيدر آباد ، الهند ١٣٣٢هـ.

- القرماني (ابوالعباس احمد بن يوسف بن احمد الدمشقي ت ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م) أخبار الدول واثار الأول في التاريخ . بغداد ١٩٨٢م.

- القفطي (الوزير جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)

١ - انباه الرواة على أنباه النحاة . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

٢ - تاريخ الحكما ، أو اخبار العلماء باخبار الحكماء ط. ليبزج ١٩٠٣م.

- القلقشندى (أبوالعباس احمد بن علي بن أحمد ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)

١ - صبح الاعشى في صناعة الانشا . القاهرة ١٩١٩ - ١٩٢٢م .

٢ - قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان . تحقيق ابراهيم الابيارى القاهرة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

٣ - مآثر الاناقة في معالم الخلافة . تحقيق عبد الستار احمد فراج بيروت ١٩٨٠م.

- المقرى التلمساني (احمد بن محمد بن احمد المكنى بابي العباس ،ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب . ج٢ تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

- المقريزى (تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)

١ - السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق محمد مصطفى زيادة ج١ القاهرة ١٩٥٦م.

٢ - خطط المقريزى المعروفة باسم "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، ط القاهرة ١٢٧٠هـ.

٣ - اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا . ج٣ تحقيق محمد حلمي محمد احمد ، القاهرة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

-

- المنذرى (زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى بن عبدالله ابن سلامة المنذرى ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) .
التكملة لوفيات النقلة ٤ أجزاء ، تحقيق بشار عواد معروف ، بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

- النسوى (نور الدين محمد بن احمد بن علي بن محمد المنشى و كان حياً قبل سنة ٦٣٩هـ) . سيرة جلال الدين منكبرتي ، تحقيق حافظ حمدى القاهرة ١٩٥٣م .

- النعيمي (محي الدين عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد بن يوسف ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م) الدارس في تاريخ المدارس . تحقيق جعفر الحسيني ، دمشق ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م .

- النويرى (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب بن محمد ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م) نهاية الأرب في فنون الأدب . ط دار الكتب المصرية .

- اليافعي (ابو محمد عبدالله بن أسعد بن على بن سليمان اليافعي ، ت ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٧م)
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان بيروت ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م .

- ياقوت الحموى (شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموى ، ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)
١ - معجم البلدان . بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .
٢ - معجم الأدباء . بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

- اليونيني (قطب الدين ابو الفتح موسى بن احمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي الحنبلي ، ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) .
ذيل مرآة الزمان . جـ١ ط حيدر آباد ، الهند ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م .

ثالثا - المراجع العربية والمترجمة :

- أحمد احمد بدوى

١ - الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام .

القاهرة ١٩٧٢م .

٢ - الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام .

القاهرة ، بدون تاريخ .

- احمد رمضان احمد .

المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية .

القاهرة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

- احمد مختار العبادى .

قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام . بيروت ١٩٦٩م .

- اسمت غنيم .

الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية .

جدة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

- برنارد لويس .

الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية) بيروت ١٩٧١م .

- جرجي زيدان .

تاريخ التمدن الاسلامي . القاهرة ١٩٣٥م .

- جوانفيل .

القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام . ترجمة وتعليق

حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨م .

- جوزيف نسيم .

١ - العدوان الصليبي على مصر ، هزيمة لويس التاسع في المنصورة

وفارسكور ، الاسكندرية ١٩٨٤م .

٢ ـ العدوان الصليبي على بلاد الشام ،هزيمة لويس التاسع في الاراضي المقدسة ،الاسكندرية ١٩٨٤م٠

- حافظ حمدى ٠

١ ـ الدولة الخوارزمية والمغول القاهرة ١٩٤٩م٠

٢ ـ الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي ٠ القاهرة ١٩٥٠م٠

- حامد زيان غانم زيان٠

العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ابان الحروب الصليبية ٤٩٠- ٦٥٩ هـ ٠

رسالة دكتوراة من جامعة القاهرة باشراف الدكتور سعيد عاشور، ١٩٧٣م٠

- حسن الباشا ٠

الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والاثار٠ القاهرة ١٩٧٨م٠

- حسن حبشي ٠

الشرق الاسلامي بين شقي الرحى "حملة لويس التاسع على مصر والشام" القاهرة ١٩٤٩م٠

- حسنين محمد ربيع ٠

النظم المالية في مصر زمن الايوبيين ٠ القاهرة ١٩٦٤م ٠

- خاشع المعاضدى وآخرون ٠

الوطن العربي والغزو الصليبي ٠ جامعة الموصل ١٩٨١ م

- خير الدين الزركلي ٠

الأعلام ٠ بيروت ١٩٨٠م٠

- دائرة المعارف الاسلامية٠ الترجمةالعربية ١٤ جزء ٠

- زامباور٠

معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ٠ القاهرة ١٩٥١م٠

- زيغريد هونكه .

شمس العرب تسطع على الغرب " اثر الحضارة العربية في أوربه "

ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي بيروت ١٩٧٩م.

- سعاد ماهر .

البحرية في مصر الاسلامية واثارها الباقية . القاهرة ١٩٦٧م.

- ستيفن رنسيمان .

تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة السيد الباز العريني ،

بيروت ١٩٨٢م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور .

١ - الحركة الصليبية . القاهرة ١٩٧٨م.

٢ - العصر المماليكي في مصر والشام. القاهرة ١٩٧٦م.

٣ - قبرص والحروب الصليبية . القاهرة ١٩٥٧م.

٤ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك . بيروت ١٩٧٢م.

٥ - اوربا في العصور الوسطى جـ١ القاهرة ١٩٧٥م.

٦ - بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى بيروت ١٩٧٧م.

- السيد الباز العريني .

١ - الشرق الاوسط والحروب الصليبية . القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

٢ - مؤرخو الحروب الصليبية . القاهرة ١٩٦٢م.

٣ - المغول . بيروت ١٩٨١م.

٤ - الشرق الادنى في العصور الوسطى (١) الايوبيون . بيروت

١٩٦٧م.

- شاكر مصطفى .

التاريخ العربي والمؤرخون ،دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة

رجاله في الاسلام . جزآن ،بيروت ١٩٧٩ - ١٩٨٠م.

- صابر محمد دياب .

سياسة الدول الاسلامية في حوض البحر المتوسط من اوائل القرن الثاني الهجرى حتى نهاية العصر الفاطمي . القاهرة ١٩٧٣م.

- عبدالجليل حسن عبد المهدى .

المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي ، دورها في الحركة الفكرية . عمان ١٩٨١م.

- عبدالرحمن زكي .

السلاح في الاسلام . القاهرة ١٩٥١م.

- عبدالمنعم ماجد ، علي البنا

الأطلس التاريخي للعالم الاسلامي في العصور الوسطى .

القاهرة ١٩٦٧م.

- عبدالله سعيد الغامدى .

استرداد بيت المقدس في عصر صلاح الدين .

رسالة ماجستير من جامعة أم القرى سنة ١٤٠٢هـ.

- علي ابراهيم حسن .

تاريخ المماليك البحرية . القاهرة ١٩٦٧م.

- علي محمد علي عودة الغامدى .

بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي . مكة المكرمة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

- عليه الجنزورى .

امارة الرها الصليبية . القاهرة ١٩٧٥م.

- عماد الدين خليل .

الامارات الارتقية في الجزيرة والشام . بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- فايد حماد محمد عاشور .

الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي .

القاهرة ١٤٠٣هـ.

- فؤاد عبد المعطي الصياد .

المغول في التاريخ . بيروت ١٩٧٠م.

- فيليب حتى .

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ٢ ترجمة كمال اليازجي

بيروت ١٩٥٩م.

- كارل بروكلمان .

تاريخ الأدب العربي . جـ ٦ ترجمة عبد الحليم النجار ،

القاهرة ١٩٧٧م.

- كامل حسين محمد مصطفى الغزى .

نهر الذهب في تاريخ حلب . جـ٣ ، حلب ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م.

- كلود كاهن .

تاريخ العرب والشعوب الاسلامية منذ ظهور الاسلام حتى بداية

الامبراطورية العثمانية . ترجمة بدر الدين القاسم ، بيروت ،

١٩٧٧م.

- كي لسترنج .

بلدان الخلافة الشرقية . ترجمة كوركيس عواد ،و بشير فرنسيس

بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

- محمد ابو زهرة .

تاريخ المذاهب الاسلامية . دار الفكر العربي ، القاهرة ،بدون تاريخ .

- محمد اديب الحصيني .

منتخبات التواريخ لدمشق . بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

- محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي .

اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء . جـ٢ حلب ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م.

- محمد كرد علي .

خطط الشام . بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

- محمد مصطفى زيادة وآخرون .

دراسات عن المقريزى . القاهرة ١٩٧١م.

- محمد مصطفى زيادة .

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة .

القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

- محمود سعيد عمران .

الحملة الصليبية الخامسة "حملة جان دى بريين على مصر"

الاسكندرية ١٩٧٨م.

- مريزن سعيد عسيرى .

الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي . رسالة دكتوراه

من جامعة أم القرى سنة ١٤٠٤هـ/ ١٤٠٥هـ ولم تطبع.

- مسفر سالم الغامدى .

الجهاد ضد الصليبيين قبل قيام الدولة الايوبية في مصر.

جدة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- نظير حسان سعداوى .

١ - الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي . القاهرة ١٩٦١م.

٢ - التاريخ الحربي المصرى في عهد صلاح الدين .

القاهرة ١٩٥٧م.

- هـ. ا. ل. فشر .

تاريخ اوربا في العصور الوسطى . ترجمة محمد مصطفى زيادة

القاهرة ١٩٦٩م.

- يوسف الياس الدبس .

تاريخ سورية . بيروت ١٩٠٠م.

رابعا ـ المراجع الأوربية .

- Ayyubids , Mamlukes and Crusaders. Selections From the Tarikh al - Duwal - Muluk, of Ibn al-Furat in two volumes . Text and translation by U.and M.C.Lyons . Cambridge 1971.

- Cahen, Claud,
  1) La Syrie du Nord al, Epoquedes Croisades , Paris, 1940 .
  2) Article , Ayyubids in Encyclopaedia of Islam, (New Edition) London , 1960.

- The Cambridge History of Islam, Vol. 1 A London 1970.

- The Cambridge Medieval History , Vol. IV " The Byzantine Empire , Part I , Byzaintum and its Neighbours " London, 1964.

- Campbell " G" .
  The Crusades. London , 1935.

- Cander , " C.R"
  The Latin Kingdom of Jerusalem , 1099-1291 London , 1897.

- Dozy , " R"
  Supplement Aux Dictionnaires Arabes. Toms 2 , Paris 1967.

- The Encyclopaedia of Islam , (New Edition), London 1960.

- Gibb, " H.A.R."
  The Damascus Chronicle of the Crusades, London , 1967.

- Lamb, Harold,
  The Crusades The Flame of Islam . London 1931.

- Lane - Poole, Stanly,
  A history of Egypt in the Middle Ages , London , 1936.

- Lestrange, Gey,
  Palestine under the Moslems. Beirut, 1965.

= Painter, Sidney,
  History of the Middle Ages, London, 1975 - 1976.

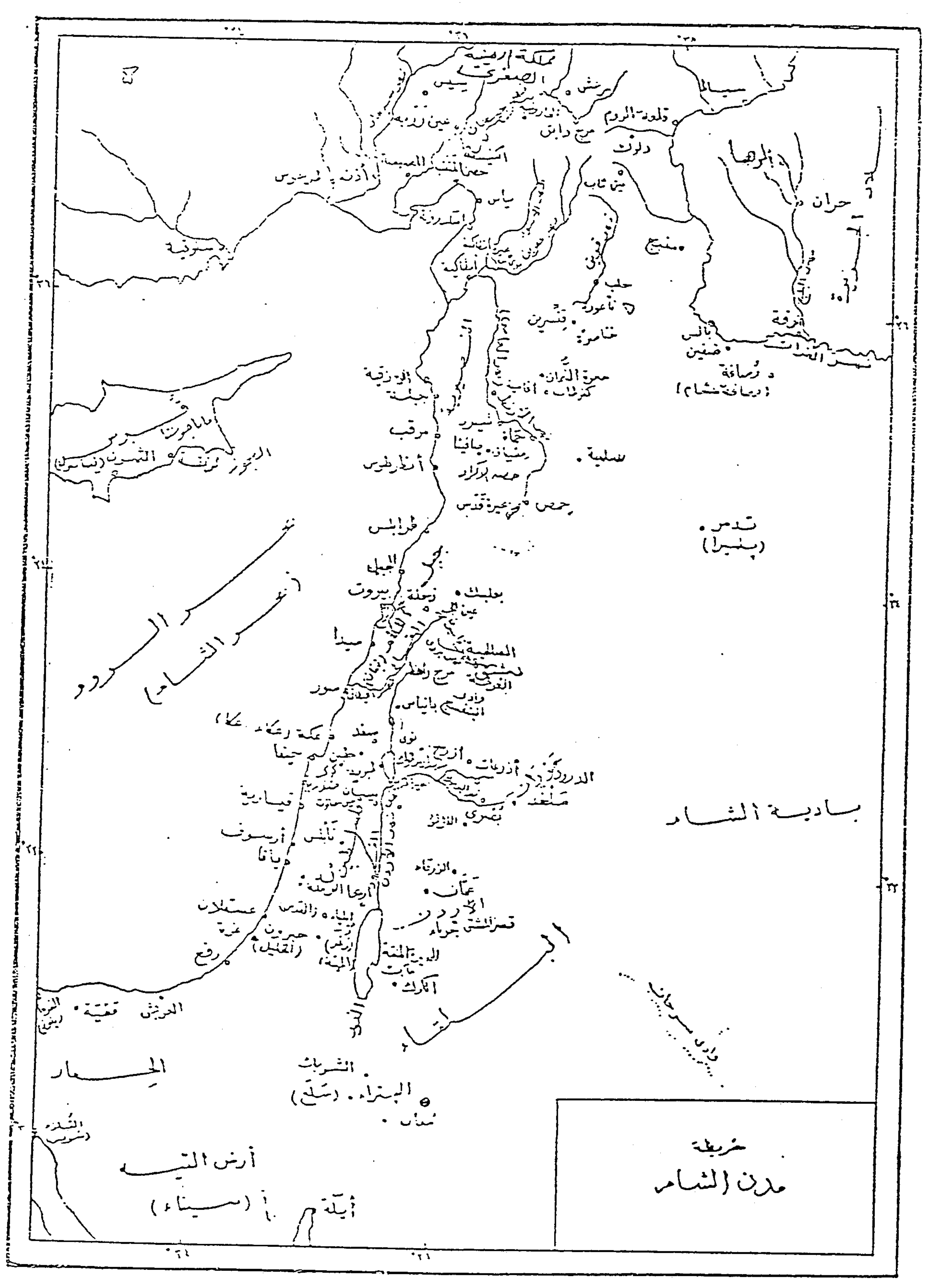
- Rabie , Hassanein,
  The Financial System of Egypt , London, 1972.

- Stevenson , W. B.,
  The Crusaders in the East . Cambridge 1907.

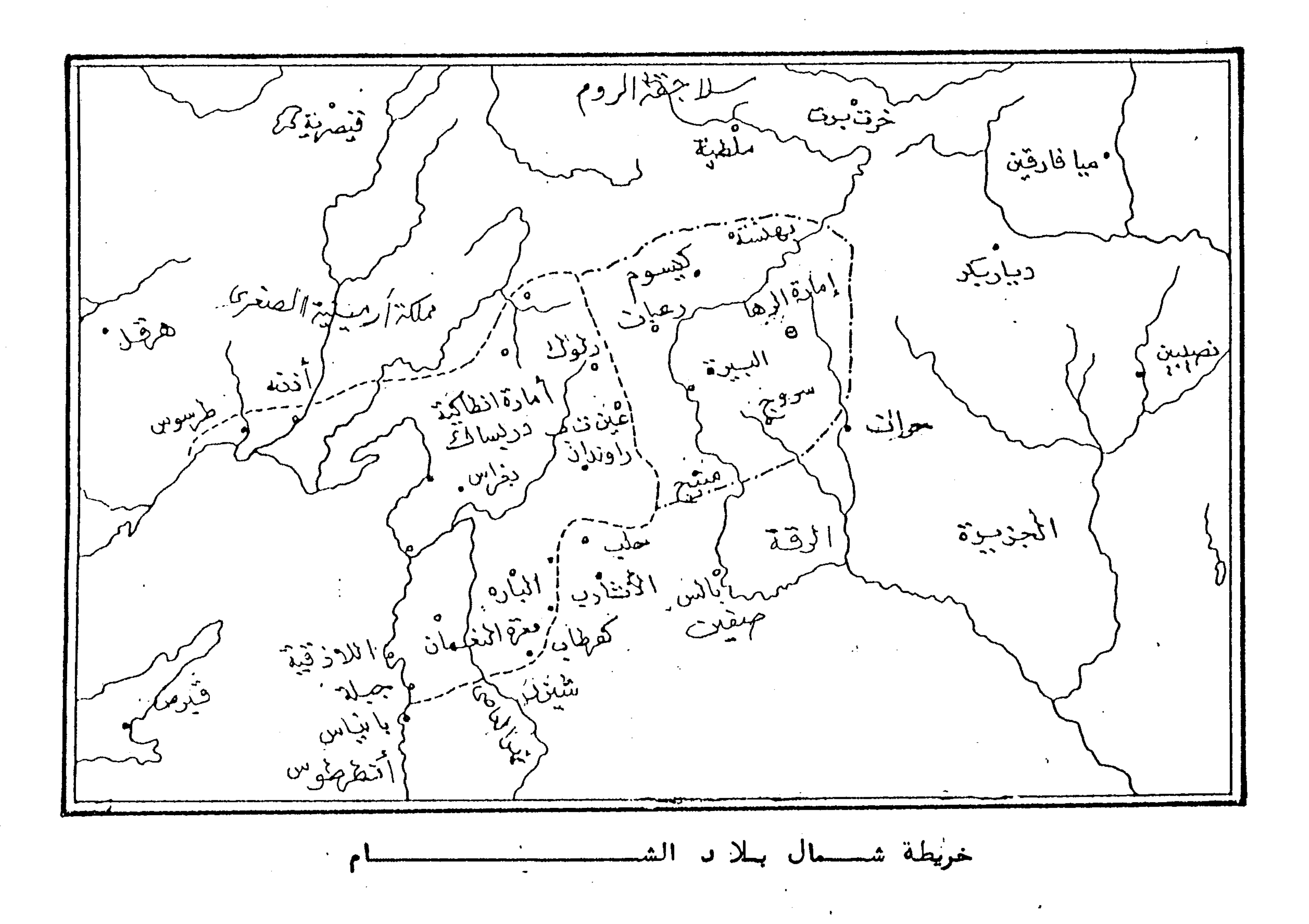
- William of Tyre,
  A History of deeds done beyond the Sea, 2 Vols , translated and annotated by Emily Babcock and A.C. Krey, New York 1943.

- Zakkar , Suhayl,
  The Emirate of Aleppo (1004-1094), Beirut, 1971.

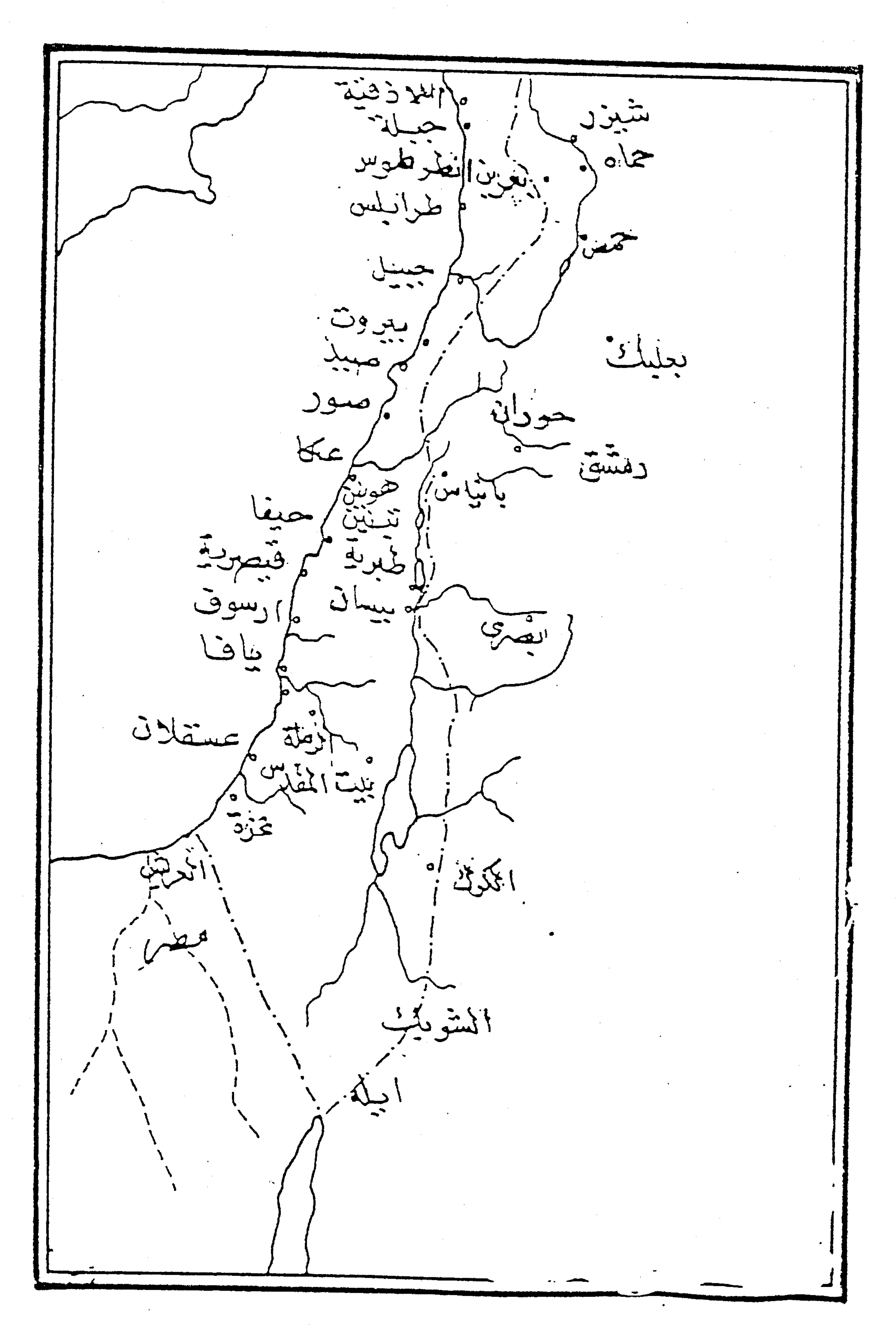
الخرائط



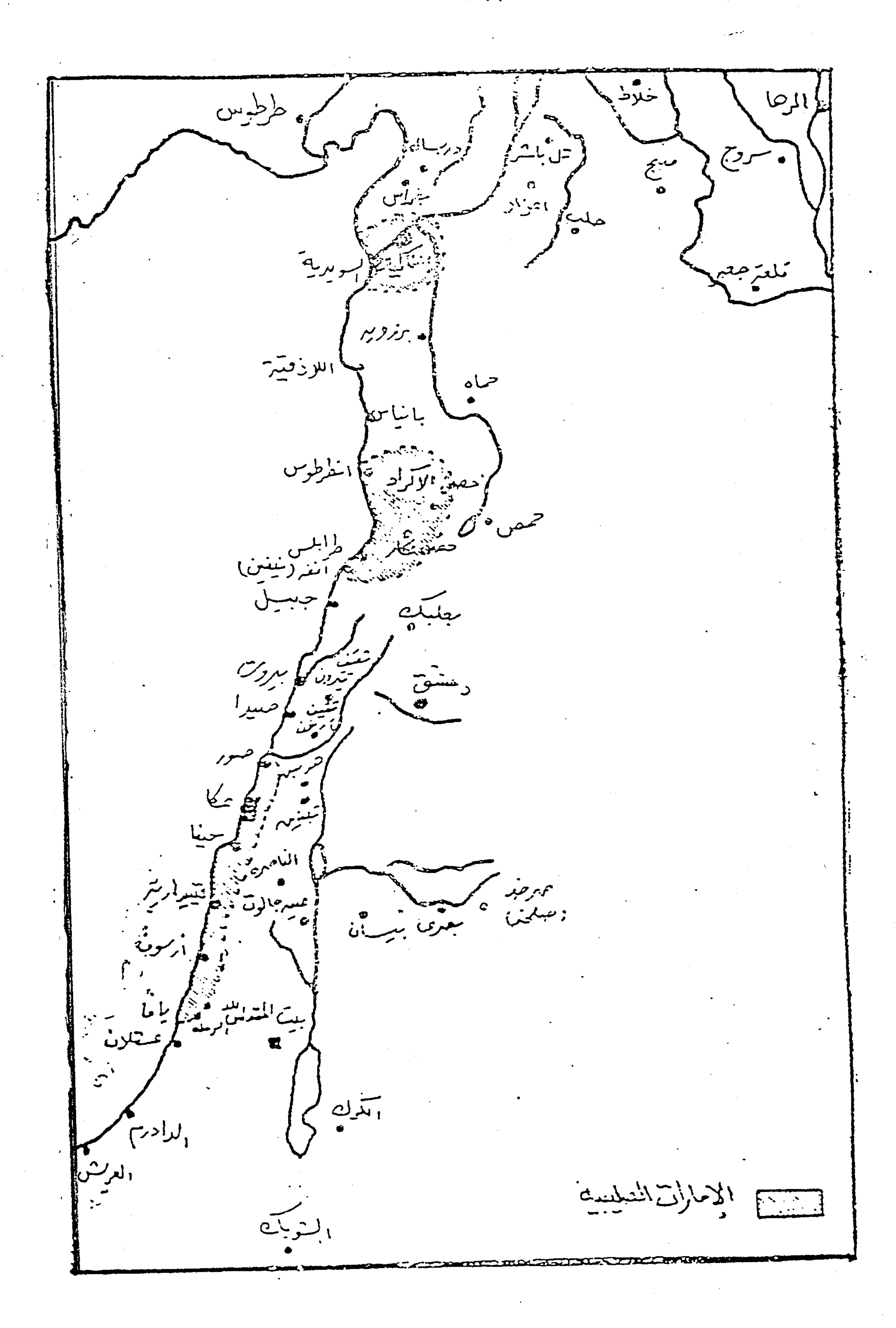
نقلا عن الأطلس التاريخي للعالم الاسلامي في العصور الوسطى



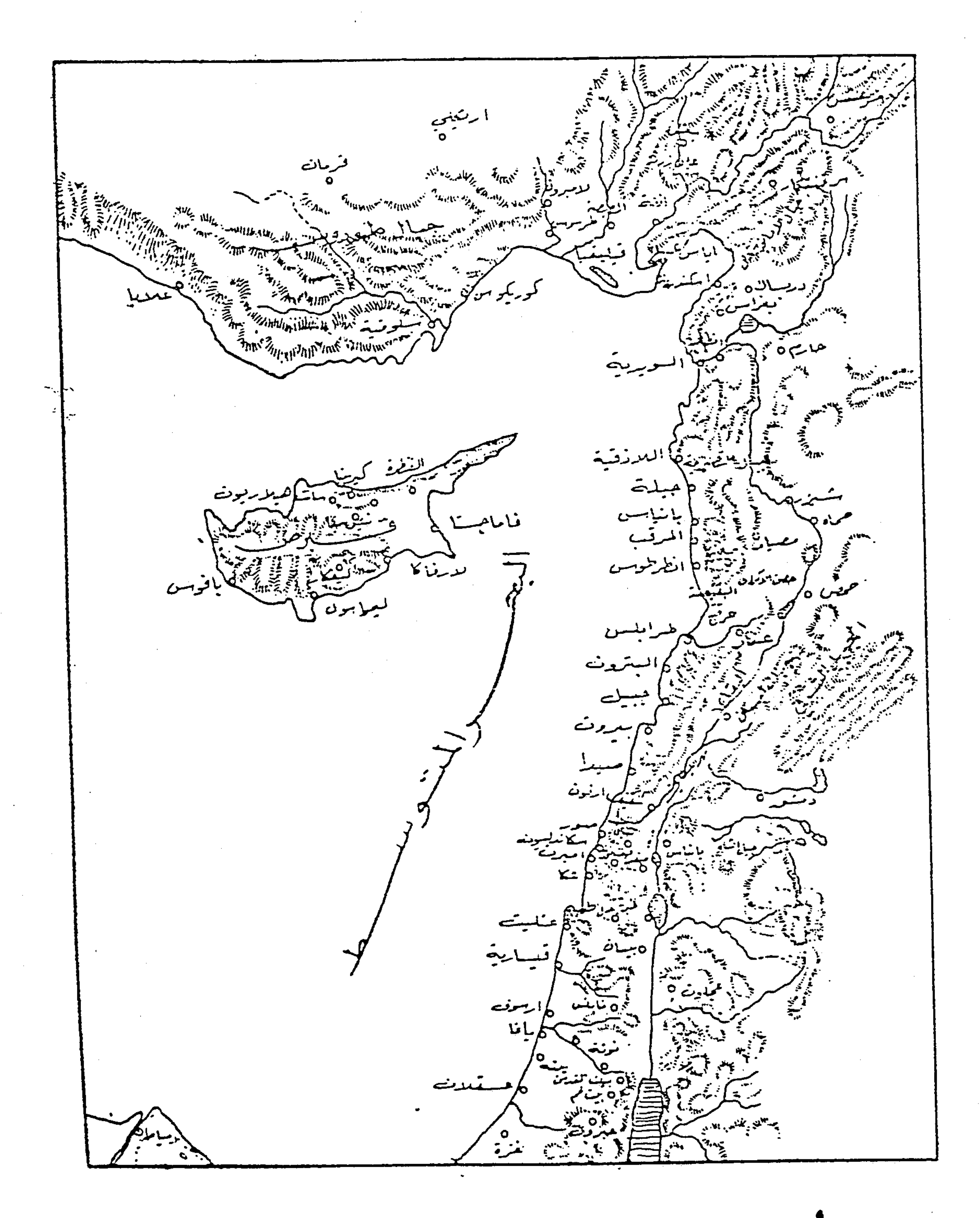
خريطة شمال بلاد الشام



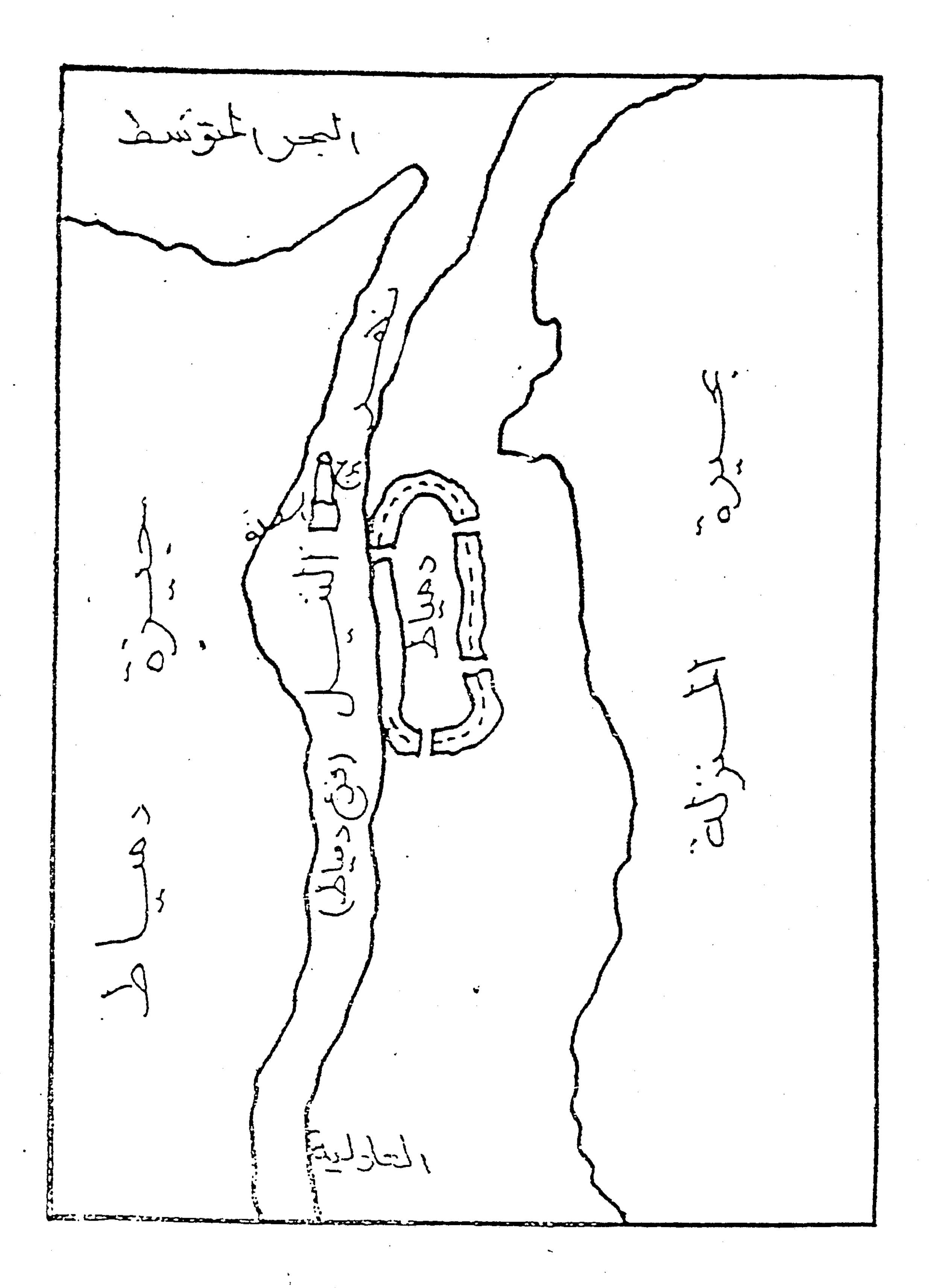
خريطة جنوب بلاد الشـــــــــام



بلاد الشام عقب صلح الرملة ١١٩٢م/ ٥٨٨هـ ـ نقلا عن محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة

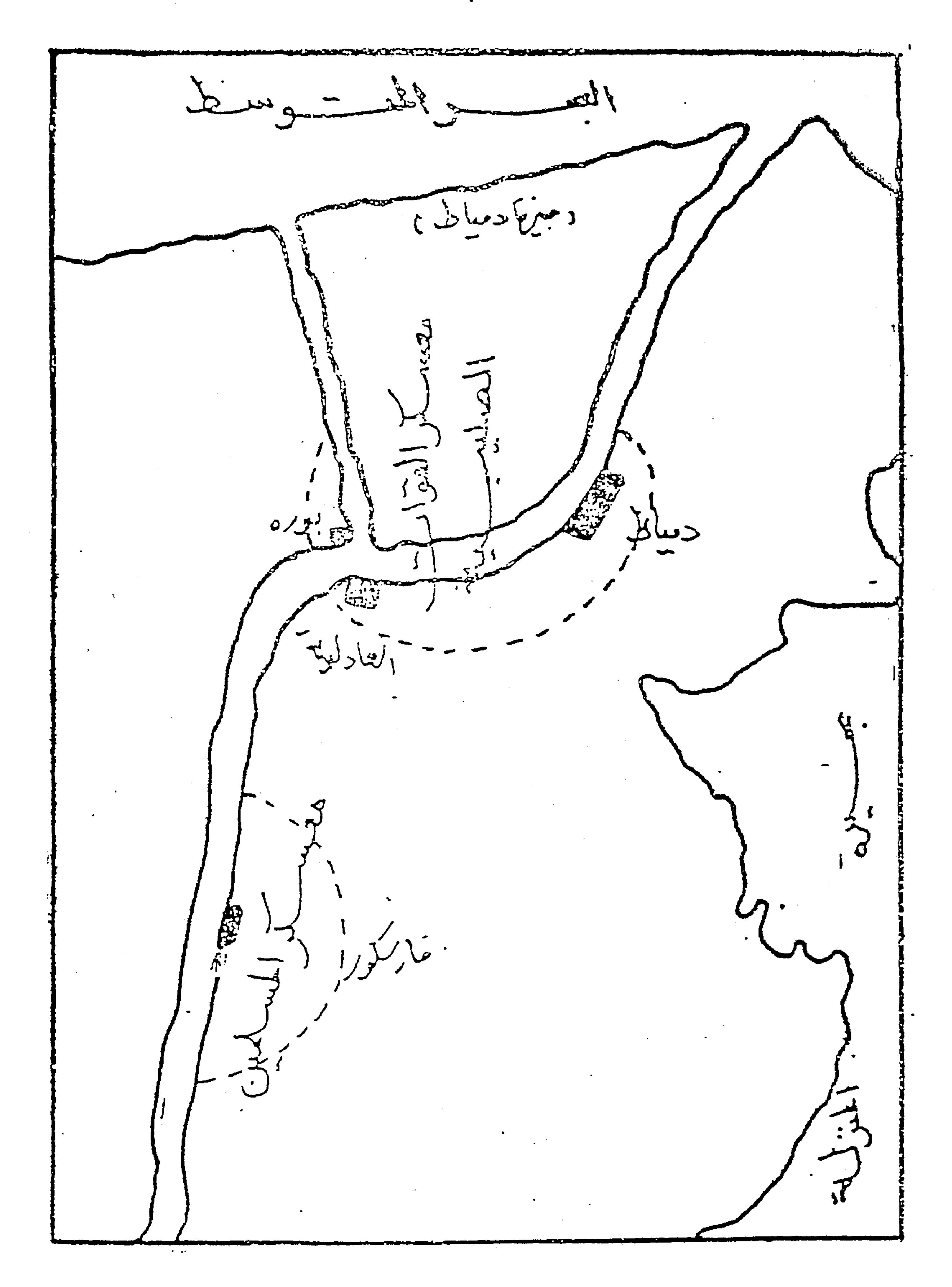


الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر الميلادى ـ نقلا عن رنسيمان : الحروب الصليبية .

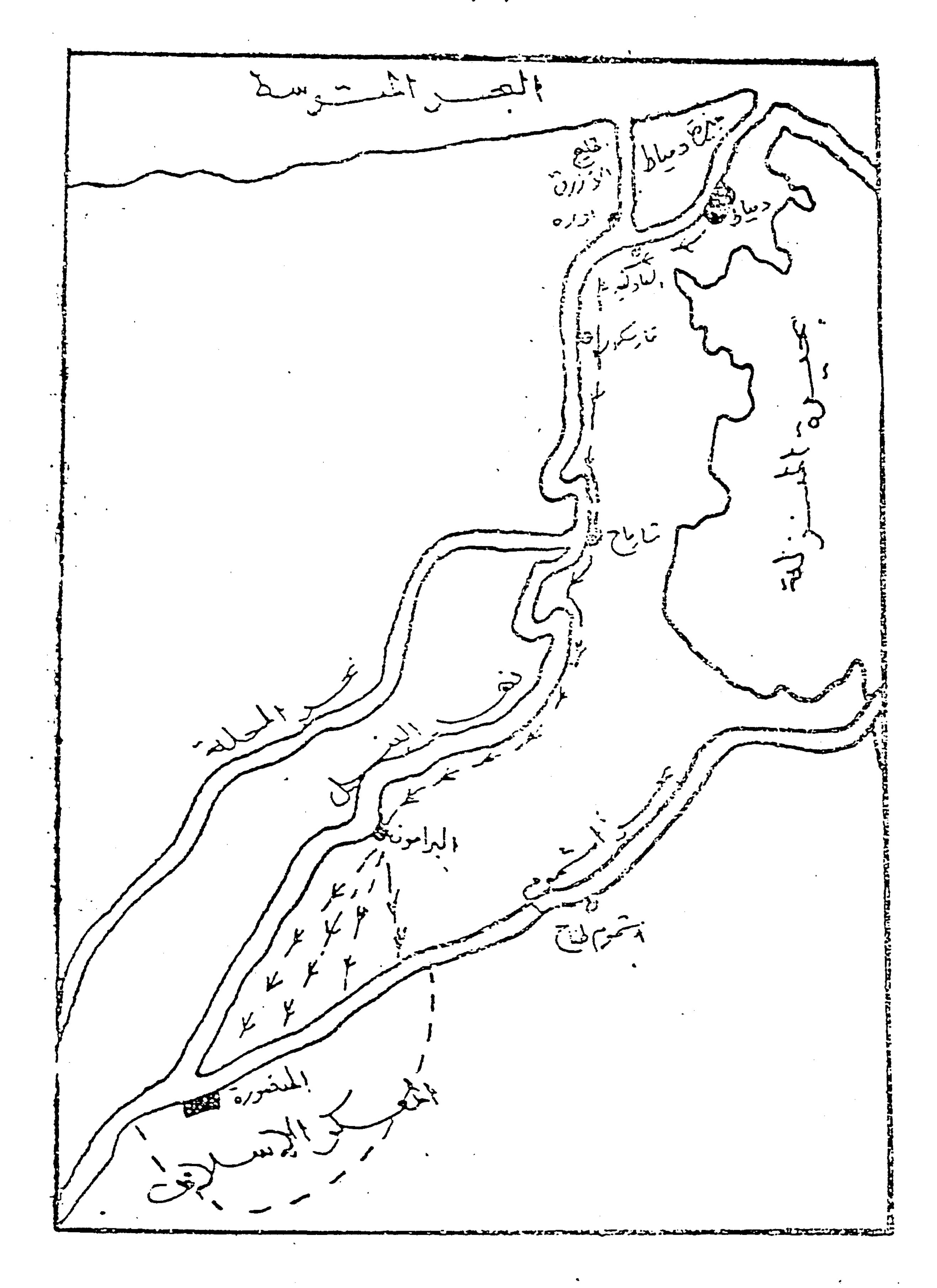


دمياط القديمة زمن الحملة الصليبية الخامسة

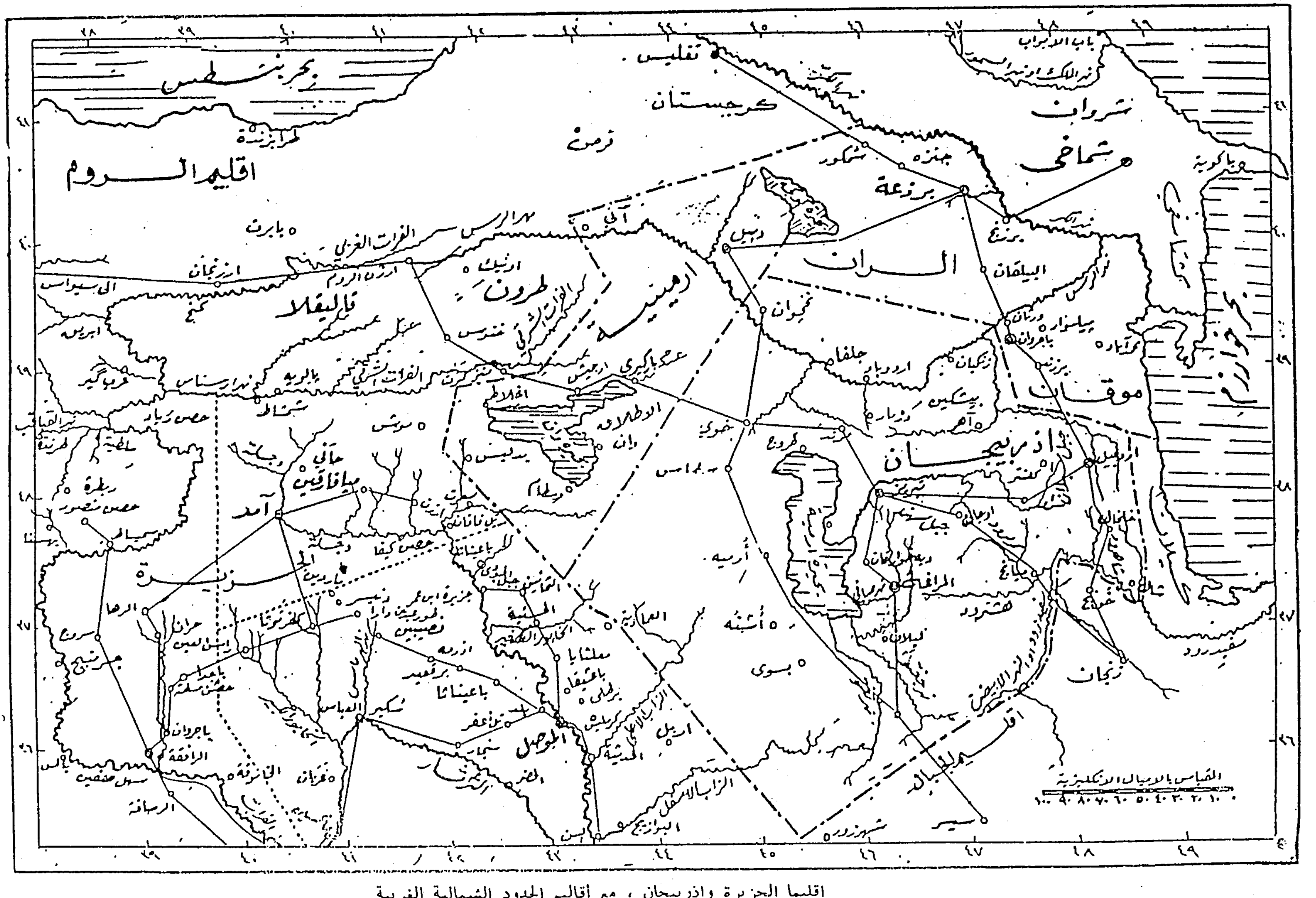
نقلا عن محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة .



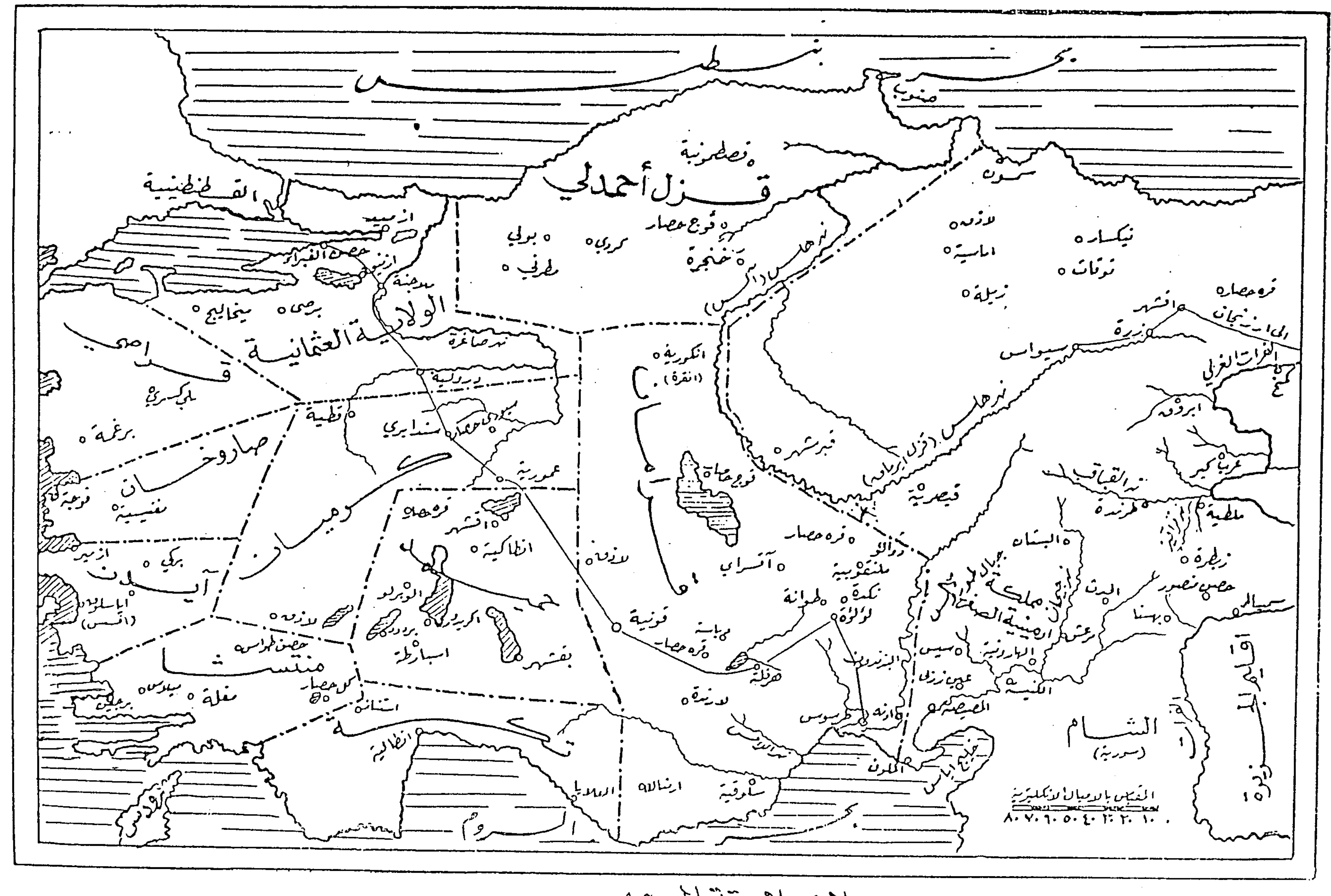
مواقع القوات الاسلامية والصليبية بعد ٥ فبراير ١٢١٩م/ ١٨ ذو القعدة ٦١٥ هـ ،نقلا عن محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة .



←←← خط سير القوات الصليبية من دمياط الى المنصورة (ابتداء من ١٧ يوليو ١٢٢١م/ ٢٥ جمادى الثاني ٦١٨هـ) نقلا عن محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة .



اقليما الجزيرة وأذربيجان، مع أقاليم الحدود الشمالية الغربية
نقلا عن كتاب بلدان الخلافة الشرقية



بلاد سلاجقة الروم
نقلا عن كتاب بلدان الخلافة الشرقية